

# شؤون فلسطينية

رئيس التحرير: محمود درويش  
مكثرت التحرير: الياس خوري

آب (أغسطس) ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨

٨٢/٨١

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة  
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبها ولا تعكس بالضرورة آراء  
منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني  
( متفرع من السادات ) ، رأس بيروت ، بيروت - لبنان ،  
ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،  
برقيا مرابحات ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي ( بريد جوي ) : ٦٠ ل.ل في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل.ل في سائر  
الاقطار العربية ، ١٠٠ ل.ل في أوروبا ، ١٢٥ ل.ل في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي ( بريد عادي ) : ٦٥ ل.ل في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : للفنان الإيطالي ماريو سامونا

## المحتويات

### الصفحة

٤	محمود درويش	: القفص
٧	ياسين الحافظ	: دور التأخر العربي في تأسيس اسرائيل * [ من وعد بلفور الى قيام الدولة ] *
٢٥	كلوفيس مقصود	: الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربي ، اولويات والالتزامات *
٣٣	صبري جريس	: الرفض الاسرائيلي *
٦٥	حنة شاهين	: مفاهيم السلم والتسوية الاسرائيلية *
١١٢	حمدان بدر	: الجريمة المنظمة في اسرائيل *
١٣٢	عبد الجواد صالح	: التحديات والمجابهة في الوطن المحتل *
١٤٢	هشام شرابي	: تكريات فلسطينية ، عكا : جمر ورماد *
١٥١	فيصل دراج والكسندر فلورس	: القومية في آسيا وأفريقيا *
١٦٤	الياس خوري	: الديمقراطية والاستبداد الحديث *
١٧٤	ربيع الاسير	: القوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات ، دور « جديد » ومعضلات مستعصية *
١٨٦	محمود عزمي	: القوة العسكرية الاسرائيلية في اربع سنوات [ ١٩٧٣ - ١٩٧٧ ] *
٢٠٣	أسعد عبد الرحمن	: العلاقات السياسية القومية في العالم العربي [ ١٩٤٥ - ١٩٧٧ ] *

---

---

الصفحة

- ٢١٢ / ماهر الشريف : محاولة أولية للتعرف على حيثيات العملية التاريخية لولادة الحزب الشيوعي في فلسطين (٢) .
- ٢٤٢ خليل بركات : الجنوب والمخطط الصهيوني .
- ٢٤٩ تقارير : السلاح والقوانين العلمية .
- ٢٦٣ مراجعات : [ جوزف تشوربا ] سياسة المهزيمة : افول اميركا في الشرق الاوسط ، ر . ا . [ طاهر عبد الحكيم ] كارتز والتسوية في الشرق الاوسط ، ف . د . [ حسين ابو النمل ] الضفة والقطاع ٦٧ - ١٩٧٨ بين اللاحق والدمج ، خالد عايد .
- ٢٧٩ شهريات : ١ - المقاومة الفلسطينية : بلال الحسن ٢٠ - المناطق المحتلة : توفيق قياض ٣٠ - اسرائيليات : I - ح . ش II - مكرم يونس ٤٠ - قضايا دولية : سمير كرم ٥ - قضايا عسكرية : م . ع .
- شؤون ادبية :
- ٣١٧ ادوار سعيد : صور من الجغرافية التخيلية : الشرقي كما صوره المستشرقون .
- ٣٢٥ بالبيار وماشرية : الادب كشكل ايديولوجي .
- ٣٣١ سامي سويدان : قراءة « رجال في الشمس » .
- 
-

## القصة

واخيرا ، محاكمة •

سالنا : هل يحضر المتهم ؟ فابتسمت قافلة المسافرين الى دمشق • وقال ضابط على الحدود : ماذا ستفعلون به ؟ قلنا : سنقتلوه او نستمع الى تلاوة لأئحة الاتهام •

وكنا نتساءل في صمت : هل تأخرنا قليلا ام كثيرا ؟ لقد دق جرس الانذار مبكرا ، وكان على النيل ان يعرف ان مجرد تحول هذا الفرد - هذا النوع من الافراد - الى احتمال حكم ، يعني ان نواطير مصر نامت عن ثعالبها • ويعني ان في العالم الثالث كله خلا • ويعني ان المحاكمة ستشمل البناء ، والمرحلة ، وشروط الطاعة •

ولكن النيل لا يصب في نهر آخر • وكان واضحا لمن اکتوى بالرمل ان اقامة الجندي في هذه الرمضاء ستحوّله الى يد فولاذية لاقتحام الماء الازرق المغسول بالدم ، ليس من أجل الوطن وحده ، بل من أجل الخلاص من مقبرة الرمل • ولكن القناة على الارض شيء ، وعلى خارطة الحاكم شيء آخر ، فهي ليست أكثر من خيط رفيع من الماء يفضي الى رمل آخر • ان مثل هؤلاء الحكام غير قادرين على التمييز بين حبة الرمل وبين التاريخ الانساني الذي يحمله قلب فلاح من الصعيد ، لان له طريقة خاصة في تحديد اعدائه • فاعداؤه هم اولئك الحفاة الذين يمشون بالقصر على مهل دون ان يسألوا : لماذا تطيع ؟ واعداؤه هم اولئك الطلبة الذين يتدربون على صياغة السؤال : لماذا تطيع ؟ أما الغزاة الذين يذلون مصر والامة فهم اصدقاء المستقبل ، هم المشهورة المكيوتة ، والوعد الاميركي الجميل •

الى اين تتجه المدافع اذن ؟ واية حرب نخوض ؟ لذلك كان على الذين لم يعرفوا حقيقة انقلاب الخامس عشر من ايار ان يعرفوا ان هذه النهاية لم تات من زاوية

الانعطاف ، بل من نقطة البداية • وان زيارة القدس ، كانت حتمية المسار دون ان تحتاج الى ارتداء هذا الشكل من الطقوس والتفاصيل • وان المحاكم المصري لم يعلن الحرب على مصر من مطار اللد عندما كان يعانق جنرالات اسرائيل ، وانما اعلن عليها الحرب حين منع جنود مصر العظيمة من اجتياز الرمال •

ولنا تقاليد • نحن دائما ناتي الى السؤال متأخرين • لذلك نسأل : هل حضر المتهم ؟ تصمت قافلة المسافرين الى وقت الاعلان عن المحاكمة • ولكن رئيس وزراء الغزو الصهيوني السابق يجيب عن السؤال ، ومصر ذاهبة الى ذكرى ٢٣ يوليو : « ان هدف السادات البعيد المدى هو ان يضم اسرائيل الى مجموعة دول الشرق الاوسط التي ستتصدي للمد السوفياتي • وان الخطر السوفياتي يقوم مقام الصراع العربي - الاسرائيلي في نظر المصريين • والسادات مشغول البان من التفلغلل السوفياتي في البحر الاحمر وفي القارة الافريقية » •

انه ذاهب حتى آخر الشوط ، متفائل حتى الجنون • ولا احد يوقفه • لا احد يوقف هذا التدهور • ونحن نقرأ لائحة الاتهام التي يغذيها كل يوم بجريمة جديدة ، لان الحاكم العربي لا يحاكم • لهذا السبب يتشم الجميع ؟ • ولا تكفي اصابع اليدين لاحصاء عدد المتهمين ؟ ولماذا لا يسقط الساقط وحده ، ولا ينهار المنهار ؟ وهل تعوض قوة القانون عجز السياسة الذي جعل من مسار النظام المصري انعطافا لاتجاه المنطقة في غياب الفاعلية الثورية المضادة ؟

لن نحزن على رجال القانون والمباحثين الذين يسهرون الليل ليبرهتوا لنا على ان الحاكم المصري قد خالف القانون •

ان كلمة ما يجب ان تقال ، لكي لا تكون جميعا موتى • لا احد يرجو من الحاكم شيئا ، لا احد يتوقع منه غير المزيد من الخيانة ، ولا احد يوقف التدهور • ولكن كلمة ما يجب ان تقال ، لكي لا يكون المناخ كله فاسدا ، ولكي لا يصدق مزيد من الابرياء الذين ياتيهم الوعي الوحيد من اذاعة القاهرة ان الخبز ياتي من فرن الاستسلام •

وهذا هو حزني الوحيد : كيف تخرج قرية في الصعيد ، ينقرها وقبرها ، باهلها ورملة ، لتتدفق : يحيا بيغن ! • اية عملية بناء نفسي استطاعت ان تضع جانحي مصر امام رجاء نبوي بان ياتيهم هذا الحاكم يصحن فول من قبر الجندي الاسرائيلي المجهول ، الذي دفن الافا من بنينهم في رمال سيناء ، وعلى امتداد مدن السويس ، فحمل اليه حاكمهم باقة ورد ؟ •

من أجل حماية هذا الوعي تكون المحاكمة • واخيرا محاكمة • ولا احد يتوقع شيئا ، لان الجميع يسألون عن الجدوى والفاعلية ، وعن السبب الذي حول الرد على اخراج مصر من المعركة ومن السياسة الى مسالة قانونية لا تغطي العجز عن بناء الجبهة المضادة ، وعن اعادة الصراع العربي - الاسرائيلي الى محور العلاقات العربية وتحديات الامة • فمنذ الزيارة حتى الآن تفككت مقولة الصراع ، وصارت اكثرية الانظمة العربية تحارب على جبهات اخرى ، وصار الاستقسلال الوطني يعني التوغل في الغاء التناقض بين حركة التحرر العربية وبين الامبريالية من جهة ، والتلخص الاحمق من علاقات الصداقة والتحالف مع القوى الثورية

العالية من جهة ثانية . واستبدل عدو الامة الصهيوني بابتكار الخطر  
السوفياتي .

•• فوضى في المفاهيم واللغة والتحالفات ، ولم يعد التحدي الصهيوني يوحدهنا . وتم الموحدة على مستوى آخر : اقرأوا قرار الجامعة العربية ضد اليمين الديموقراطي جيدا . وراقبوا ما تحت سطح التحركات العربية ، بعد احداث افغانستان ، مليا . واقراوا الخطاب الرسمية يقليل من سوء النية . فليس التضامن العربي مستحيلا اذا كان محتواه الجديد ادعاء الخوف من الخطر الشيوعي الذي اصبح اسما مستعارا للتخلي عن المهام الحقيقية . ولا تسالوا : من هم اعداء العرب؟ فكل الارض حررت ، وعاد اللاجئين الى اوطانهم ، وعم الرخاء المقارة المقدمة من البحر الى البحر ، ولم يبق في السجون معتقل سياسي واحد ، ولم تعد الكوكا كولا حلما ، ولم يعد شرطي عربي واحد يشكو البرد بعدما استقر في عظم المواطن . ولا ينقص الاستقلال العربي الآن الا مواجهة الزحف السوفياتي الاحمر !! لهذا السبب عم الارهاب الاسود الارض؟ وهل انتصر السادات اذن؟ ان مصيره مرتبط بقابلية هذا الخداع على الشيوع ، ويمدى ما سيظل الصراع العربي - الاسرائيلي ضائعا في عمى الالوان السياسي . فمن ستحاكم اذن؟ والحاكم يملك النفط والمقاضي وهيئة الادعاء والشهود والمتفرجين . هل تمر الجريمة بلا محاكمة اذن؟ ان الشعوب لا تحاكم جلاذيتها بقوانين جلاذيتها . انها تحرر نفسها فتكون حريتها هي عقوبة الجلاذ . ومع ذلك ، فان محاكمة السادات ، باسم الآخرين ، تتحول الى امكانية لوقاية المناخ من الترددي والتردد . انها لحظة الكلمة التي يجب ان تقال ، لحظة السؤال عن سبب الطاعة ، لحظة حرية في زمن القمع وعلى مرأى من العبودية . سنسمع صوتا ، سنفضح اكاذوبة ، وسنعي من جديد ان المحكمة تشمل زمنا ، وان قارة باكملها تجلس في قفص الاتهام .

وفي طريق العودة سألنا ضابط الحدود : ماذا فعلتم بالسادات ؟

قلنا : سنحاكمه في بغداد .

قال : متى ؟

قلنا : في اوائل آب ، والحر شديد .

تساءل : باية تهمة ؟

اجبنا : الخيانة العظمى .

سال : ومن سينفذ القرار ؟

قلنا : مصر .

قال : وانتم ، ماذا ستفعلون ؟

قلنا : سنحاول العودة الى بيروت .

محمود درويش

## ”من وعد بلفور إلى قيام الدولة“ دور التأخر العربي في تأسيس إسرائيل

عندما نواجه كلا من وعد بلفور ودولة إسرائيل بنظرة تاريخية ، يتبدى لنا ، منذ الرحلة الأولى ، أن حجم الأول حصة ، أما حجم الثانية فجبل . هذا الانتقال من موطن إلى دولة ، أي الانتقال من حصة إلى جبل ، هل كان حتميا ؟ أما كان ممكنا ، لو أن عمارة المجتمع العربي أقل فواتا ، أن يبقى الوطن موطنا فلا يتحول إلى دولة ؟ بل ، أما كان ممكنا للعرب أن يلغوا ، بنضالهم خلال فترة الانتداب ، هذا الوعد ويحيلوه إلى قصاصة ورق ؟ وبعبارة صريحة : اليس التأخر العربي هو الذي سهل قيام إسرائيل أكثر بكثير من الانتداب البريطاني ؟

من الناقض القول أن العناصر المكونة لدولة إسرائيل قد تكونت في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين . لكن هذا لا يعادل أو لا يعني أن الاستعمار البريطاني هو الذي أقام إسرائيل . بيد أن الاشكالية في الوعي العربي محلولة بشكل آخر ، على هذا النحو : الاستعمار هو الذي أقام إسرائيل . كما أنها في الوعي الفلسطيني محلولة على هذا النحو أيضا : الاستعمار ، مضافا إليه تخاذل العرب تارة وخيانتهم تارة أخرى ، هو الذي أقام دولة إسرائيل . وبالطبع ، في كلا الوعيين ، بقيت عمارة المجتمع العربي وايدولوجياها وقيمه بمنجاة من التشكيك .

ولكن ، كيف هي الاشكالية في الواقع ، لا في الايدولوجيا ؟

سنحاول الاجابة على هذا السؤال عبر ملاحظات تتناول مفاصل الاحداث ، دون الدخول في عرض تاريخي يتناول تفاصيل الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي

– الانكليزي ، الذي نفترض ان القارئ مطلع عليه .

ولكن ، قبل ذلك ، لا بد من التنويه : (١) ان التحدي الصهيوني اكبر واعنف من التحدي الاستعماري ، اذ ان الاول هيمنة واقتلاع ، في حين ان الثاني هيمنة فقط . (٢) ما اصاب الشعب الفلسطيني كان ممكنا ان يصيب اي شعب عربي اخر ، اذ ان التأخر الفلسطيني عينة فحسب من التأخر العربي العام .

## I

في فلسطين ، ماذا واجهت الحركة الصهيونية ؟ ماذا واجه الانتداب البريطاني ؟ اي ، كيف كانت عمارة المجتمع الفلسطيني في سائرها حيزاتها وجوانبها ؟ ماذا كان في وسع هذا المجتمع ان يفعل لمواجهة غزو جماعات اخرى حديثة او شبه حديثة ؟

من الزاوية الاقتصادية ، واجهت اقتصادا شبه طبيعي ، اي اقتصادا ذا تقنيات متأخرة جدا وعلاقات انتاج اقطاعية شرقية ، اي ان الاراضي كانت في حيازة اقطاعيين غائبين ، الامر الذي لعب دورا كبيرا في تسهيل انتقال اراضي عربية الى اليهود (١) . في العام ١٨٩٥ لم يكن اكثر من ١٠٪ من الاراضي الصالحة للزراعة مستثمرا ، والعربة بدولابين لم تكن قد ظهرت الا قبل ذلك بعقدين (٢) .

من الزاوية المجتمعية ، نظام القرابة هو السائد . كان الفرد من الاسر الاسلامية لا يقول كلمة او يخطو خطوة الا وهو مراعاة تقاليد قبل كل شئ ، مصلحة أسرته قبل كل مصلحة ونفوذ أسرته قبل كل نفوذ (٣٠٠) الفلسطينيون منقسمون بعضهم على بعض ، كل واحد منهم يمثل أسرته لا وطنه (٣) . وبعبارة اخرى ، كان المجتمع الاسلامي الفلسطيني مفتقا او مزررا بواسطة نزعة انعزالية ، خصوصية ، عشائرية (٤) ، اي اننا كنا ازاء جماعة ( ما قبل قومية ) لا مجتمع ( اي بنيان قومي حديث ) . من هنا ، عندما تكونت ، بعد الانتداب ، اطر سياسية حديثة ( الاحزاب ) ، بقيت قشرة متموضعة فوق الانقسامات العائلية والطائفية ، التي تميز المجتمع العربي التقليدي .

والواقع ان نظام القرابة العربي قد لعب ، وما يزال ، اشد الادوار كؤدا وشؤما في عرقلة الاندماج القومي العربي ومحاربة عملية تسييس المجتمع العربي ، ذلك لان نظام القرابة هذا يعارض الانصهار المجتمعي ويقف حائلا دون ان تصبح القومية نسيجا سوسولوجيا للجماعات العربية . لذا فان استمرار نظام القرابة لدى جماعة ما يشكل مؤشرا على انها ما تزال في مرحلة تاريخية ما قبل قومية . والقومية بالنسبة لجماعة كهذه لا تعني علاقة مجتمعية – سياسية ، بل مجرد موقف تمايزي ازاء جماعة اخرى ، وهذا ما يجعلها عاجزة عن بناء دولة قومية عقلانية حديثة .



الى جانب ذلك ، ثمة الانقسام التاريخي المعروف بين المدينة والريف والعلاقة غير المتوازنة بينهما ، ناهيك عن تشرذم السكان الزراعيين الى كثرة من القرى المعزولة ( حوالي ٨٥٠ قرية ، تشكل ٧٠٪ من مجموع السكان ) ، القائمة بذاتها والمكتفية نسبيا . هذا الانقسام والتشرذم ، مضافا اليها تركيز الحياة الثقافية والسياسية في المدينة ، جعلت الريف الفلسطيني ، شأن الارياف العربية الاخرى ، يستمر في كونه لا شيء Neant من الناحية السياسية ، طيلة فترة الصراع مع الصهيونية . نقطة ضعف المجتمع العربي ، لا الفلسطيني فقط . بل مقتلته تتركز في زيفه . في ١٩١٨ ، كان ، كما يقول « اوردمسي غور » ، المسلمون القرويون والمسلمون الملاكون موالون لبريطانيا (٥) .

المدينة الفلسطينية هي أيضا ، بدورها ، كانت مفتتة ومنقسمة عشائريا او عائليا . والمنافسات العائلية التقليدية الموغلة في القدم ( وبخاصة الخصومة بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي ) بقيت بوجه عام عنصرا مهيمنيا في السياسات الفلسطينية ، حتى في أشد الفترات توترا واحتمادا ، سواء مع الحركة الصهيونية او مع الانتداب البريطاني .

ان مجتمعا كهذا ، غير ميسس او ما قبل سياسي Pré - Politique ، لم يستطع ان يواجه الغزو الاستعماري البريطاني بمقاومة ( ١٧ - ١٩١٨ ) . « طبقة الافندية كانت منقسمة وعاجزة » (٦) ، « ولم يكن ثمة مؤشر لدى السكان الاصليين على وجود تطلعات قومية لاجل الاستقلال ، والشعور القومي العربي ضعيف جدا » . وفيما بعد ، اي في أواخر العشرينات ، ومع تصاعد النشاط الصهيوني وكرده فعل عليه ، يولد شعور وطني فلسطيني - اسلامي ملتبس ، شعور تضامن ازاء الغزو القادم من الخارج .

في هذا السياق ، كان طبيعيا ان تكون الحركة الوطنية الفلسطينية ، في كافة اطوارها ، حركة وطنية تقليدية خالصة او تكاد . وتجلي هذا واضحا في هذا التمهيد او الاندماج بين الديني والعشائري في قيادتها التاريخية (٧) . من هنا كانت قواعدها المجتمعية تتمثل بالوجهات المحلية وبرجال الدين المسلمين في آن ، ووعيتها كان مشيخيا . القوى السياسية شبه الحديثة ( حزب الاستقلال ) حوصرت من قبل القوى التقليدية وبقيت هامشية . بسبب هذه البنية السياسية المفقوتة ، المماتة ، تكشفت عن عجز واضح عن بناء احزاب سياسية بالمعنى الحديث للكلمة ، فبقيت السياسات الفلسطينية . انعكاسا للمناقشات التقليدية ، الخسيسة ، الحقيرة ، التي قامت منذ اجيال واستمرت بين العشيرتين الرئيسيتين ، الحسيني والنشاشيبي ، فاستنفدت طاقات النضال الوطني الفلسطيني وسهلت انتصار الصهيونية .

وعلى هذا كان الجسم السياسي الفلسطيني ( فعليا : طبقة « الافندية » المستندة على قاعدة مجتمعية عشائرية ومدنية ) صغيرا ، لا لان طبقة « الافندية »

محدودة جدا في الاصل فحسب ، بل ايضا لانه مقطوع عن الريف الفلسطيني ، الامر الذي جعله ضعيفا ، وبالتالي معتدلا ومتعاوننا ومستندا في حدود واسعة على « الخارج » العربي . فاذا أضفنا الى هذا كون وعيه مشيخيا ، يتبدى لنا كم كان مغلولا السلاح العربي ، سواء ضد الانتداب ام ضد الصهيونية ، وذلك لان الوعي المشيخي عاجز ، لفواته ، عن صياغة استراتيجية وتكتيكات قادرة على مواجهة عدوين عصريين من جهة ، ومن جهة ثانية لانه كان قد فقد ، مع الحقبين المملوكية والعثمانية بخاصة ، كل روح مقاومة للحاكم وقنن الفرار طريقا للخلاص . وفي كل الاحوال ، فان الوعي المشيخي للحركة الوطنية الفلسطينية وسم نضالها بثلاث سمات : (١) جعل طابع نضالها ومحرضه دينيا بالاحرى (٢٠) اعطى هذا النضال طابع رد الفعل لا طابع الفعل ، وبالتالي افقده كل منظور مستقبلي ، استباقي (٣٠) وجه حد النضال ضد الصهيونية بالاحرى لا ضد الانتداب البريطاني ، بل جعله موسوما بروح متعاونة معه خلال فترة جد مديدة .

## II

كيف فكرت ، وماذا فعلت الحركة الصهيونية لتحويل مشروعها الخاص باقامة دولة يهودية الى امر واقع *Fait accompli* ؟ وما هي الفروق بين اليبشوف (اليهود المقيمون في فلسطين) وعرب فلسطين ، على الاصعدة السياسية ، الايديولوجية والمجتمعية ؟ وكيف اخذت تؤثر هذه الفروق على ميزان القوى اليهودي - الفلسطيني ، وصولا الى انقلابه لصالح اليبشوف ؟

منذ البداية ، كانت الحركة الصهيونية تعتبر مشروعها في اقامة دولة يهودية شيئا واقعيا ، استنادا الى واقعة التأخر العربي ، التي جعلتها تتجاهل الشعب العربي في فلسطين : أرض بلا شعب لشعب بلا أرض . وبالتالي لو ان شعبا حديثا يقطن فلسطين ما كان ليخطر ببال الحركة الصهيونية ان بإمكانها السيطرة على فلسطين او على جزء منها . ومنذ البداية ايضا كان واضحا ان الاستراتيجية الصهيونية للسيطرة على فلسطين كانت مرتكزة على تصورات سياسية حديثة : (أ) العمل تحت المظلة الاستعمارية وكجزء من المد الاستعماري على العالم غير الاوروبي . (ب) الاستناد الى دولة او اكثر لتحقيق المشروع الصهيوني . (ج) عدم الاعلان عن الهدف الاخير (اقامة دولة يهودية) ، ولكن السير بتدرج وبثبات اليه : فكر بدولة اسرائيل دوما ، ولا تتحدث عنها ابدا . (د) الوصول بالتدريج الى ميزان قوى محلي ، يهودي - فلسطيني ، يمكن من اقامة الدارة الصهيونية .

اذا تأملنا الحلقة المركزية في الاستراتيجية الصهيونية ، المتمثلة بفتح ابواب الهجرة دوما وبدون قيود امام اليهود ، نراها متصلة اتصالا حميما بالهدف

الصهيوني الاخير ، دولة اسرائيل ، ذلك ان استمرار الهجرة وصولا الى تحول اليبشوف الى اكثرية ( في كل او بعض فلسطين ) يضمن تحول ميزان القوى لصالحه ، الامر الذي يوازى من الناحية العملية قيام دولة اسرائيل .

الحلقة المركزية في الاستراتيجية الفلسطينية ( اذا غامرنا باطلاق مصطلح حديث على سياسات تقليدية ) هي الاستراتيجية الصهيونية نفسها ولكن مقلوبة : ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين . هنا كانت نقطة الضعف القاتلة في السياسات الفلسطينية ، النقطة التي سهلت قيام اسرائيل ، ذلك انه لم يكن بوسع السياسات الكولونيالية الانكليزية الا ان تتعرض لضغوط وتأثيرات ، قد تصمد لها تارة ، ولكن قد تخضع لها تارة اخرى ، كما اثبت تاريخ ثلاثين عاما من الانتداب على فلسطين . لقد كان مطلب استقلال فلسطين ، ما دامت اكثريتها عربية ، في حال تحقيقه ، وحده الكفيل باغلاق نهائي لابواب الهجرة ، وبالتالي وقف تحول ميزان القوى لصالح اليبشوف . لا يمكننا الجزم ، بالطبع ، ان طرح مطلب الاستقلال والنضال في سبيله كان سينتهي الى نجاح اكيد ، لكنه يبقى الموقف الاكثر سدادا والاكثر عقلانية والاكثر انسجاما مع المصلحة القومية العربية ، كما انه يحل في طريقه مسألة الهجرة . وفي كل الاحوال ، فان طي مطلب الاستقلال تارة وعدم التركيز عليه تارة اخرى من قبل الحركة الوطنية الفلسطينية ( عدا حزب الاستقلال ، الذي بقي هامشي التأثير ) إنما يعكس النهج المتعاون مع الانتداب الذي سلكته هذه الحركة ، لا خوفا من قوة بريطانيا فحسب ، بل ايضا املا في سياسة انكليزية محابية اكثر فأكثر للعرب ، تقطع الطريق امام المشروع الصهيوني .

بالنسبة لليبشوف ، يبدو لافتا ، منذ الوهلة الاولى ، تعلقه بيوتوبيا تتمثل في عملية بناء الدولة اليهودية . هذه البيوتوبيا ، التي لم تضعف التصاقه بالواقعي ، بل جعلته يتشرب جملة من القيم والمثل منحته بسيكولوجيا ذات طابع ارادوي وكفاحي ورسالي ( رغم تناقض هذا مع الاستهانة بالغير ، العرب ، ومع محاولة اغتصاب وطن الاخرين ) ، عملت لاستبدال النمط النموذجي القديم لليهودي ، « العايش من الهواية ، بنمط نموذجي جديد يعيش على الشغل اليهودي ويرتبط بالارض . ولقد نهض ثوريون روس يهود ، ممن ساهموا في ثورة ١٩٠٥ المخفقة ثم تحولوا الى الصهيونية وهاجروا الى فلسطين ، بهذه المهمة ».

اضف الى ذلك ان اليبشوف منظم على عدة اصعدة : على الصعيد السياسي ، كان ثمة نوع من البرلمان المنتخب ومجلس تنفيذي يلعب دور حكومة تقريبا . على صعيد المدن ، الهستدروت ، الذي يشكل العمود الفقري للحركة الصهيونية ، ينظم ويؤطر شغيلة المدن . في الريف ، الكيبوتزات توظف وتعيء الشغيلة المزارعين . سيسج كل ذلك « الهاغاناه » ( قوة الدفاع اليهودية ) ، التي تشكلت بشكل نصف سري في ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، واستمرت تنمو كما وكيفا ، وقامت

يدور حاسم في حرب ١٩٤٨ ، ثم تحولت الى ( جيش الدفاع الاسرائيلي ) . في العام ١٩٤٢ ، كان ٤٣٠٠٠ من اليبشوف ، رجالا ونساء ، يحملون السلاح كمتطوعين في جيوش الحلقاء . هذه القوة العسكرية ، التي كانت تشرف عليها سياسيا « الهاغاناه » ، والتي استفادت من تأهيل عسكري جيد ، كانت احدي انجازات اليبشوف التي حسمت المعركة مع العرب . يقينا ان اليبشوف كان مقسما الى احزاب متنافسة وتخرقه خصومات داخلية وصراعات سياسية وتناقضات مجتمعية ، الا انه يبقى صفا واحدا ازاء الخارج ، وهو يملك الاجهزة التي تصون وحدته هذه وتعبّر عنها (٨) .

هذه الصورة توضح دون لبس ان اليبشوف كان كله ( عدا الاطفال والشيوخ ) معبئا ومهيئا للمعركة القادمة ، بل كان كله في المعركة ، سواء كانت ساخنة أو باردة ، على هذه الجبهة أو تلك ، في هذا الصعيد أو ذاك . وبكلمة : كان اليبشوف مجتمعا سياسيا أو مسيسا ، قائما على مرتكزات مجتمعية وايدولوجية حديثة بوجه عام .

بالمقابل ، لا نجد شيئا من هذا القبيل في الجانب الفلسطيني . جماعة غير سياسية يجبر القسم الاكثر وعيا والاكثر نفوذا منها ( اي افندياتها ) ، تحت ضغط تهديد خارجي ، على دخول ميدان السياسة . والى هذا الميدان حملت ، بالطبع ، قيمها وايدولوجياها ووعيتها ومصالحها . لذا فالاطر السياسية التي زعم انها حديثة ، الاحزاب ، لم تستطع ان تسيس او تؤطر الشعب تسيسا وتأييرا حديثين . وكان من الطبيعي ان يوجد بين هذه الاحزاب خلافات برنامجية ( عدا حزب الاستقلال ) ، لانها كانت امتدادا للانقسامات العشائرية والعائلية التي تخترق المجتمع التقليدي الفلسطيني ، بل ان هذه الاحزاب « الحديثة » توضع فوق تلك الانقسامات وعبرت عنها « وحدثتها » . كذلك لم تكن الجماعة الفلسطينية تملك تنظيما عماليا يذكر بالهستدروت ، بل على العكس فقد عملت الاحزاب الاكثر تقليدية على محاصرة وخنق النويات العمالية العربية الاخذة في التكون انذاك . كما لم تكن تملك تنظيمات فلاحية تذكر بالكيوتزات ، الامر الذي فاقم عجز وضعف الجسم السياسي الفلسطيني . ناهيك عن ان الاخير لم يقم ، بشكل منهجي ودائم ، بانشاء منظمات عسكرية تذكر بالهاغاناه .

هذه الصورة التي للبنية السياسية الفلسطينية ، ومقارنتها بالبنية السياسية التي لليبشوف ، تفسر بوضوح كاف الانتصارات السهلة والسريعة التي احرزها اليبشوف في حرب ١٩٤٨ ، انتصارات كشفت القصور والتفسخ العربيين . لا التفوق والقوة اليهوديين . كما تفسر بوضوح كاف لم كانت مدن وقرى عربية تسقط ، في العام ١٩٤٨ ، بسهولة بيد اليبشوف والاف المسلحين العرب قابعين في قراهم (٩) .

كيف كانت سياسات الانتداب البريطاني ؟ هل كانت متذبذبة ام ثابتة ومصممة ؟ ما مغزى تذبذبها وتناقضها ؟ هل كان العامل الدولي ( الانتداب الانكليزي + الموقف السوفياتي + قرارات هيئة الامم المتحدة ) هو الذي مكن اليبشو فممن اقامة دولة ، ام ان العامل المحلي ، اي ميزان القوى العربي - الاسرائيلي ، هو الذي حسم مصير النزاع ؟ واذا افترضنا ان العامل الدولي لعب لصالح اليبشوف ، فما صلة ذلك بالامر الواقع الذي صنعه اليبشوف في فلسطين وجابهها به العالم ؟ واذا افترضنا ان الفلسطينيين ، ومن ورائهم العرب ، وضعوا العالم امام امر واقع وسيطروا بالقوة على كل فلسطين ، هل كان العامل الدولي سيغير هذا الامر الواقع ويسلم فلسطين لليبشوف ؟

لا شك ان وعد بلفور ، الذي ثبت في صك الانتداب الذي اقرته « عصبية الامم » ، كان حجر الاساس الذي بنيت عليه وحوله المرتكزات والهياكل التي قامت عليها دولة اسرائيل . بيد ان صك الانتداب نفسه نص على انه لن تمس حقوق واوضاع الفئات الاخرى من السكان . لذا فان معاينة السياسات الانكليزية خلال فترة الانتداب تبين بوضوح لا مثيل له ان وعد بلفور ، شأن اي قرار سياسي لدولة حديثة ، كان يشكل لحظة فحسب في مسار السياسة الكولونيالية الانكليزية ، طويل ، متعرج ، متذبذب ، متناقض ، تلعب به موازين القوى والضغوط المتبادلة . والواقع ان صك الانتداب بالذات ما كان ممكنا ، كما قال حايمي وايزمن (١٠) ، ان يأخذ هذا المنحى المحابي للطرف الصهيوني ويلعب هذا الدور الكبير في تحديد موقف الدول الكبرى الايجابي من المطامع الصهيونية ، لولا اتفاق فيصل - وايزمن ، اي لولا هذا التنازل العربي غير المبرر .

من هنا ، ومع بروز وتنامي المعارضة العربية بادرت انكلترا الى اصدار كتاب ابيض في العام ١٩٢٢ يفسر وعد بلفور على نحو اقل محاباة بكثير لليهود ، معلنا ان المقصود من وعد بلفور ليس تحويل فلسطين الى وطن قومي يهودي ، بل فقط اقامة موطن قومي يهودي في فلسطين فارضا قيودا على الهجرة اليهودية تتناسب مع « قابلية الاستيعاب الاقتصادية للبلد » ، كما وضع عددا من القواعد الاقل محاباة بخصوص التعامل مع « الوكالة اليهودية » . هنا ، في هذا الكتاب الابيض ، ارادت بريطانيا ان تعطي نفسها دور الحكم بين العرب واليهود .

بعد ذلك ، وبوجه عام ، مضت فترة هدوء في فلسطين ( ١٩٢٤ - ١٩٢٩ ) ، نجمت بالدرجة الاولى عن عدم فاعلية الحركة الصهيونية ، حيث توقف ، في العام ١٩٢٧ مثلا ، دفع الهجرة الى فلسطين واصبح مغادرو فلسطين اكثر من القادمين اليها ، فتوقف او تلاشى النشاط السياسي الفلسطيني ، نظرا لانه بقي حتى ذلك الحين مجرد رد فعل وليس فعلا . وجاءت حادثة البراق او حائط

المبكي لتفجر تحركا فلسطينيا ما قبل سياسي او دون سياسي Pré - Politique ( كما قال ، بحق ، فانشتوك ) ضد اليهود . وكانت مناسبة اقتنصتها الحكومة الانكليزية ، فعينت « لجنة شو » لاستقصاء الاسباب البعيدة والقريبة للتوتر الذي ساد فلسطين . وقد انتهت اللجنة الى اقرار عدد من التوصيات ، ما لبثت ان اصدرتها الحكومة الانكليزية في كتاب أبيض جديد في العام ١٩٣٠ ، اعتبره اليبشوف محاييا للعرب ، وبخاصة في ما يتعلق بالقيود التي وضعها على الهجرة اليهودية الى فلسطين .

هذا التحول البريطاني لم يلبث ان اثار احتجاجات صاخبة وضغوطا قوية ، سواء في فلسطين ام في انكلترا ، لدرجة ان حاييم وايزمن ، الحليف التاريخي لبريطانيا ، قدم استقالته من رئاسة المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية . اثر ذلك ، في ١٣ شباط ١٩٣١ ، أرسل « رمزي مكدونالد » ، رئيس الوزراء البريطاني ، رسالة الى وايزمن تلغي عمليا الكتاب الابيض المذكور ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك وقدمت للوكالة اليهودية تنازلات تتعلق بالهجرة ، ووفرت تسهيلات جديدة لعملية فصل الجماعتين اقتصاديا عن بعضهما . لذا سمي العرب رسالة مكدونالد هذه بـ « الرسالة السوداء » .

بيد ان مجيء النازية الى الحكم في المانيا في العام ١٩٣٣ انقذ المشروع الصهيوني في اقامة الدولة اليهودية . فبعد توقف الهجرة الى فلسطين ، اخذ المشروع الصهيوني يغدو يوتوبيا فقدت صلتها بالواقع ، اذا لم تبلغ ، في العام ١٩٣١ ، نسبة اليبشوف الى مجموع سكان فلسطين سوى ١٧,٧٪ فقط (١٧٥٠٠٠ ييشوف ، ١٠٣٦٠٠٠ عرب ) . وهكذا اخذ المشروع الصهيوني يذبل وينحدر . غير ان الاضطهاد النازي لليهود لم يلبث ان اطلق موجات هجرة متلاحقة لا سابق لها الى فلسطين . وما ان حل العام ١٩٣٩ حتى بلغ عدد اليهود ٤٢٩٦٠٥ من مجموع سكان فلسطين البالغ ١٥٠٠٠٠٠ نسمة ، اي حوالي ٢٨٪ . هنا فقط اصبح مشروع الدولة اليهودية ، على جزء من فلسطين على الاقل ، مشروعا واقعيا ، حيث حلت ، كما سنرى ، مسألة ميزان القوى المحلي ، الفلسطيني - اليهودي .

في هذه الحقبة ايضا ، تابعت السياسة الكولونيالية الانكليزية سيرها التناقضي ، المتخبط ، المتذبذب ، بفعل جماعة من الضغوط المتعارضة التسي تؤثر في - او تتنازع عملية صنع القرار الكولونيالي الانكليزي . ولعبت جملة عوامل لصالح اعادة نظر بريطانيا ، بدت في ذلك الحين جدية ، في موقفها من النزاع القائم في فلسطين . النضال الفلسطيني - العربي المسلح وغير المسلح في فترة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وتوجهه مباشرة ضد الاستعمار الانكليزي ، حاجة بريطانيا الى استعادة ثقة العرب في وقت بدأ واضحا ان العالم يقترب من حرب عالمية ثانية ، الاختلافات داخل النخبة السياسية الانكليزية حول السياسة

الواجب اتخاذها ازاء الصراع الفلسطيني - اليهودي وعلاقة ذلك بحماية قناة السويس والمحافظة على طريق الهند ، - هذه العوامل كلها كانت تدفع بريطانيا الى ايفاد لجنة تحقيق الواحدة تلو الاخرى الى فلسطين بحثا عن أسباب الصعوبات والاضطرابات والتفتيش عن الحلول الممكنة . في العام ١٩٣٧ ، ولاول مرة ، يقترح تقرير « لجنة بيل » تقسيم فلسطين الى دولتين عريية واسرائيلية ودولة ثالثة تبقى تحت الحماية البريطانية وتضم القدس وشريطا يوصلها بالبحر . غير ان رفض العرب واليهود معا اقتراحات « لجنة بيل » ، دعى لجنة اخرى « لجنة هيد » ، للاستنتاج بعدم امكانية تطبيق مشروع بيل ، فطوي .

الا ان بريطانيا لم تلبث ، وقد اقلقتها المشاعر العربية المعادية لها والمتعاطفة مع الالمان والاقتراب المتزايد لشبح الحرب ، ان حزمت أمرها ، فأصدرت في ايار ١٩٣٩ كتابا ابيض جديدا ارادت به حسم المشكلة . وبموجبه ، تبقى فلسطين محكومة من قبل الانكليز ، وتناقش مع الاطراف المعنية مسألة اصدار دستور خلال خمس سنوات ، ثم تنال فلسطين استقلالها خلال عشر سنوات . وسمح لـ ٧٥٠٠٠ يهودي بالهجرة الى فلسطين في السنوات الخمس القادمة ، وبعد ذلك تتوقف الهجرة على موافقة الاغلبية العربية . بيع الاراضي لليهود حد في بعض القطاعات ومنع في اخرى . وفلسطين لن تصبح ، كما يقول هذا الكتاب الابيض ، لا دولة عربية ولا دولة يهودية .

والواقع ان هذه الدولة ثنائية القومية ، التي ارادتها بريطانيا ، لن يشكل البيشوف فيها سوى حوالي الثلث ، الامر الذي اثاره الى أقصى حد . وفي الوقت الذي انخرط فيه اليهود الى أقصى الحدود ، في الجيوش الحليفة ، في الصراع ضد النازية ، كانوا يعدون للمعركة مع بريطانيا . وما ان قاربت الحرب العالمية الثانية نهايتها ، حتى بدأت المنظمات الصهيونية اليمينية ، مثل « الارغون » و « ليجي » ، مدعومة بالرأي العام اليهودي في فلسطين ، اعمال الارهاب والاغتيال والانتقام ضد الانكليز . واخذت اعمال الارهاب هذه حجما اكبر بكثير عندما نزلت الهاغاناه الى الساحة عند انتهاء الحرب ، في نهاية ١٩٤٥ . وبالطبع ، بقي الفلسطينيون في موقف المتفرج والمنتظر ، مع ان الكتاب الابيض ، موضوع الصراع ، كان لصالحهم اجمالا ، وبخاصة في ظل ميزان القوى المحلي ، الفلسطيني - اليهودي .

في هذه الاثناء ، كان ثمة عوامل عديدة اخرى تدفع بريطانيا الى مراجعة سياستها في فلسطين ، عوامل كانت هامة ولا شك ، ولكن تبقى الحرب اليهودية ضدها العامل الاكثر اهمية . في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، انطلقت موجة نزع استعمار واسعة ومتلاحقة في العالم ، فانسحبت بريطانيا من اليونان وبورما والهند ، واخذت سياساتها تستلهم بشكل خاص اعتبارات الحرب

الباردة وعلاقتها مع الولايات المتحدة ، فضلا عن ان ازمة اقتصادية كانت تطحنها . في هذا السياق ، وتحت ضغط هذه العوامل ، تتخذ الحكومة البريطانية قرارا بـ « التخلص من المرحلة الفلسطينية » . وفي ١٤ شباط ١٩٤٧ ، يعلن بيفان ، الوزير العمالي للشؤون الخارجية ، ان بريطانيا ستسحب من فلسطين وتضع مسؤولية اتخاذ قرار حول مستقبل فلسطين على عاتق هيئة الامم المتحدة .

عندما نقل امر البت بمصير فلسطين الى المجتمع الدولي ، ممثلا بهيئة الامم المتحدة ، كان اليبشوف قد حقق انجازين ، الاول يتمثل في استبدال الدولة الحليفة - الحامية ، فأصبحت الولايات المتحدة ( بدلا من بريطانيا ) ، التي برزت بوصفها الدولة الاقوى ، اقتصاديا وعسكريا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث تكون فيها لوبي ( جماعة ضغط ) صهيوني يملك قدرا ملحوظا من النفوذ والتاثير على النخبة السياسية الاميركية . ولقد انبثق هذا اللوبي من مؤتمر بلتيمور المنعقد في ١١-٥-١٩٤٢ في نيويورك ، حيث اعلنت فيه الحركة الصهيونية لأول مرة اهدافها الحقيقية ، المتمثلة اولاً في اقامة دولة يهودية في فلسطين ، بعد ان انس اليبشوف ، كما ذكرنا قبلاً ، ثقة كافيّة بالنفس ، من جراء تحول ميزان القوى المحلي لصالحه . الثاني يتمثل في ان اليبشوف استطاع ، بافعاله ، ان يقنع المجتمع الدولي بقوة مواقفه في فلسطين ، وبالقوة التي يملكها وبفعاليته في حرب العصابات التي يشنها على الانكليز ، وارادته الراسخة في الاستقلال ، وباستحالة تعايشه في دولة واحدة مع عرب فلسطين . الا يفسر هذا ، جزئياً على الاقل ، كيف التقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، على ما بينهما من تناقضات ، على تأييد قرار تقسيم فلسطين !

على هذه الارضية ، لا في فراغ ، ولد قرار هيئة الامم المتحدة في ٢٩-١١-١٩٤٧ الخاص بتقسيم فلسطين . لقد وضع اليبشوف العالم ، وعلى رأسه امريكا والاتحاد السوفياتي ، امام امر واقع ، ليس فيه خيارات بل خيار واحد . لا شك في ان الاتحاد السوفياتي واميركا ، وبخاصة اميركا ، قد لعبا دورا في دفع عدد من الدول الى تأييد قرار تقسيم فلسطين ، لكن حتى هذا جاء مبررا بـ - وستندا الى - فعل اليبشوف .

حتى السياسة الاميركية لم تخل ، هي ايضا ، من تذبذب . فبعد ان ايدت قرار التقسيم ، بل بعد ان ألقت بثقلها السياسي لاقاراره وكسب المؤيدين له من الدول المترددة ، عاد مندوبها في هيئة الامم المتحدة ، أوستن ، ليعلن في ١٩-٣-١٩٤٨ في مجلس الامن عن تبديل في السياسة الاميركية ، فاقترح وقف قرار التقسيم وعقد هدنة في فلسطين ودعوة الجمعية العمومية للموافقة على مشروع وصاية على فلسطين .



هذا التبدل في الموقف الاميركي يبين ، لكل من لم تسيطر عليه الرؤية المؤامراتية ، كيف ان قرارات الدول الكبرى ليست نهائية ولا « مخططة منذ زمن بعيد » من قبل « عقول كلية الوعي » ، بل هي ، ايضا ، قرارات عادية تصنع يوما فيوما احيانا . يقينا انها قرارات دولة حديثة ، ولكن من قال ان القرارات الحديثة لا تنطوي على تقلبات وتذبذبات ، بل اخطاء ايضا ، من قال انها لا تتأثر بوجه خاص بميزان القوى وبالامر الواقع .

عوامل عديدة لعبت لتعديل الموقف الاميركي ، لعل منها وعد روزفلت ثم ترومن للملك عبد العزيز السعود « بان لا يتخذ اي قرار يتعلق بفلسطين دون استشارة كاملة للعرب واليهود ، والا يقرر اي شيء يكون ضد المصالح العربية » ( ١٩٤٥-٤٠ و ١٩٤٦-١٠-٢٨ ) ، ثم بروز الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بوصفها الدولة الاقوى التي ستلعب دورا متزايدا الالهية في الشرق الاوسط ، واخيرا توسع المصالح البترولية الاميركية في البلدان العربية . بيد ان العامل الاكثر اهمية في تعديل الموقف الاميركي انما كان شك السياسة الاميركية في قدرة اليبشوف على الصمود في وجه الثقل العربي ، وبالتالي لو ان العرب ثبتوا ، في الحرب ، الشكوك الاميركية ، وسيطروا بالقوة على كامل الارض الفلسطينية ، لانتهدت اميركا ، على الأرجح ، الى الاعتراف بالامر الواقع الذي يخلقه العرب . هذه الحقيقة تفضح بالتالي الوهم العربي الرائج القائل ان قرار هيئة الامم المتحدة الخاص بالتقسيم هو الذي يخلقه العرب . هذه الحقيقة تفضح بالتالي الرهيم العربي-الرائج القائل ان قرار هيئة الامم المتحدة الخاص بالتقسيم هو الذي اقام دولة اسرائيل . بالحرب قامت الاخيرة ، وبالحرب توسعت ، لا بقرارات من الهيئات الدولية ، صدر العشرات منها لصالح العرب دون ان تنفذ ، لانهم يفتقرون الى القوة اللازمة لتنفيذها .

ازاء التردد والتقلب الذي واجهه القرار الدولي حول مستقبل فلسطين ، وبخاصة بسبب الموقف الاميركي الجديد ، وازاء افتقار هيئة الامم المتحدة الى القوة اللازمة لفرض قرار التقسيم الصادر في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، ونظرا لاقتراب موعد انسحاب بريطانيا من فلسطين ( حوالي شهرين فقط كانت تفصل بين تبدل الموقف الاميركي وانسحاب بريطانيا ) ، يتجه اليبشوف الى خلق امر واقع يضعه امام المجتمع الدولي كخيار وحيد . ويخاطب حايمم وايزمن اميركا قائلا : « ان قوة العرب خرافة لا صحة لها » ، ويضيف : « اذا كان قرار التقسيم سيثير مصاعب ، فان العدول عنه سيثير مصاعب اشد وأبعد أثرا » .

هنا ، أصبح اليبشوف وعرب فلسطين وجها لوجه . واصبحت الحرب وسيلة حسم النزاع .

رقميا ، كان اليبشوف يشكل حوالي ثلث سكان فلسطين . مع ذلك فان

الحرب حسمت لصالحهم بسهولة وسرعة ، كما سنرى بعد قليل - لماذا لم يلعب قانون العدد لعبته لصالح عرب فلسطين ؟ لماذا لم يكن ميزان القوى لصالحهم ؟ ولكن ، اذا تأملنا الواقع بمزيد من التدقيق ، سنتساءل : حتى العدد الفعلي ، هل كان لصالحهم ؟ ان العدد ، عندما نكون ازاء حرب ، هو العدد المعيا في الجهود الحربي ومقتضياته فقط . فلنقم ببعض حسابات تعطينا فكرة عامة وتقريبية فقط عن هذه المسألة ، مسألة العدد ، ولصالح من لعب قانون العدد بالنتيجة .

من المعروف ، لاسباب تاريخية عديدة ، منها اقتصار الثقافة والحضارة على المدينة الاسلامية ، ومنها ايضا العلاقة الطفيلية بين المدينة والريف الاسلاميين ، ان الريف الفلسطيني ، بما هو ريف عربي - اسلامي ، لا شيء سياسيا . وهذا يعني اننا يجب ان نستبعد حوالي ٧٠٪ من العدد الفلسطيني ، واذا افترضنا ( والامر ليس كذلك ، بالطبع ) ان جميع سكان المدن الفلسطينية ، التي يزيد سكانها عن ١٥٠٠٠ نسمة ، احرزوا قدرا مناسبيا من الوعي السياسي فجسرت تعبتتهم عسكريا ، واذا استبقينا رقميا لدى كل من الطرفين الاطفال والشيوخ ، وبالمقابل اذا عرفنا ان الريف اليهودي ( ونسبته ٢٠٦٪ من عدد اليهود ، في العام ١٩٤١ - مسيس ومنظم عسكريا في الكيبوتزات بخاصة ، وان المسراة اليهودية هي ايضا معبأة في المجهود الحربي والاعمال المرتبطة به - اذا اخذنا هذا كله بعين الاعتبار نتبين ان الديشوف كانوا قادرين على تعبئة وحشد ما يتعدى ثلاثة اضعاف ما يمكن ، نظريا ، لعرب فلسطين حشده وتعبئته في الحرب والمجهود الحربي وما يرتبط بهما .

اذا ، فقانون العدد لم يكف عن لعب لعبته . ولكن ، بالنسبة لمجتمع شرقي - اسلامي ، ينبغي ان تؤخذ العطالة بالاعتبار ، وبالتالي استخراج العدد المؤهل لدخول اللعبة فقط وتشغيل قانون العدد ، ناهيك عن الخبرة العسكرية التي حصل عليها اليبشوف في الحرب العالمية الثانية وقدرته على استيعاب التقنيات العسكرية الاوروبية ، بسبب الايديولوجيا الحديثة التي يملك .

وكان من الطبيعي في ظل ميزان للقوى كهذا ( الراجح عدديا لصالح اليبشوف ، ناهيك عن تفوقه على صعيدي الثقافة والوعي والتنظيم ) ان يخسر عرب فلسطين معركة احباط مشروع فلسطين خلال اقل من اسبوع ( وبالتحديد بين ٦ و ١١ نيسان ) ، بل سيطر اليبشوف على اكثر من الرقعة التي خصصت له بموجب قرار التقسيم . ولولا العامل الدولي لكان بإمكان اليبشوف السيطرة على كل فلسطين . كما تمضي السكين في قطعة زبدة ، كانت قوة اليبشوف العسكرية تتقدم بسهولة محتلة اراضي فلسطين ، « فهزمت المقاومة الشعبية الممثلة بتشكيلات الجهاد المقدس العسكرية وباللجان القومية ، وهزمت جيش الانقاذ الذي كانت جامعة الدول العربية تنفق عليه » (١١) . وهكذا ، بعد أيام

من تصريحات وايزمن وطبقا لها ، خلق اليبشوف امرا واقعا ووضعوا العالم امامه .

في هذه الاثناء ، كانت الدول العربية تعقد المؤتمر تلو الاخر . وفي ١٥ أيار ١٩٤٨ ، اثر انتهاء الانسحاب البريطاني ، تجتاز جيوش عدد من الدول العربية حدود فلسطين حاملة مخططات هجومية واسعة المرامي ، بيد انها لم تستطع ، في النهاية ، ان تحتل ، عدا استثناءات نادرة ، سوى جزء من المناطق المتروكة للعرب بموجب قرار التقسيم ، اذ ردتها قوى اليبشوف العسكرية على سائر الجبهات .

هنا ايضا كانت الهزيمة شيئا عقلانيا : (١) كان استعداد تلك الدول العربية للانخراط بعمق في القضية ضعيفا ، فضلا عن انها كانت مغرورة اذ توهمت ان عرضا بسيطا للعضلات ، سيكفي لحمل اليهود على الاستسلام ، ثم يلي ذلك اتفاق يترك لليشوف من الارض اقل مما خصتهم به هيئة الامم المتحدة ( ٢٠ ) .  
دوافع قرار التدخل كانت متناقضة ، ولم تكن متمحورة حول انقاذ فلسطين : الاردن كان يريد توسيع رقعة دولته بضمه الضفة الغربية ، ودول عربية اخرى كان همها معاكسته او تقليص مكتسباته . ومن هنا لم تحارب الجيوش العربية بقيادة واحدة ، بل حارب كل جيش على حدة وتبعاً لاهداف دولته واغراضها السياسية ( ٣٠ ) . الجيوش العربية كانت انذاك بقايا جيوش كولونيالية ، تفتقر الى خبرة قتالية مناسبة ، فضلا عن ان معنوياتها لم تكن عالية ، وفساد ضباطها كان ظاهرة ملفتة ، ناهيك عن ارتهاؤها للغرب ، بخاصة انكلترا ، في ما يتعلق بالسلح والذخيرة ( ٤٠ ) . حتى من الناحية العددية ، كان قوام الجيوش العربية المحاربة مجتمعة مساو تقريبا لجيش اليبشوف ( ٢٥٠٠٠ لكل من الطرفين ) ، الذي كانت خطوط مواصلاته اقصر بكثير من خطوط مواصلات الجيوش العربية . ولكن في تموز ١٩٤٨ أصبح قوام جيش اليبشوف ٦٠٠٠٠ جنديا ، مقابل ٤٠٠٠٠ جندي عربي (١٢) .

#### IV

هذا العرض المكثف لخطوط القوة في السياسات الاستعمارية الانكليزية في فترة ١٩١٧ - ١٩٤٨ ، ثم التطورات التي اصابته المسألة الفلسطينية في هيئة الامم المتحدة وصولا الى حرب ١٩٤٨ ، لن يعجب الذين اعتادوا المنهج المؤامروي في التفسير ( ومن الواضح انه منهج امثالي ورجعي ) ، وسيروونه « جد سطحي » ، لانه لم يغص في « اعماق » السياسات الاستعمارية بوجه عام

والسياسات الاستعمارية الانكليزية والامبريالية الاميركية بوجه خاص ، ولم  
« يحللها نظريا » .

بالمضبط هذا ما أردت : أردت لرؤيتي ان تبقى عالقة في المباشر والعياني  
( دون ان اهمل بالطبع النظرية العامة ) ، ما دمت لم أقبض على « الاعماق  
الخبئية » . ذلك ان المادية التاريخية تعلم ان الصلة بين العياني والمباشر من  
جهة والجوهر من جهة اخرى صلة صحيحة . حتى الزيد العائم على السطح  
ينبغي ان يفحص قبل ان يرمي ( كما يقول لوفيفر ) . كما تعلم ان العالم ليس  
ابيض أسود ، وان التطورات السياسية هي بالاحرى ميول Tendances تلعب  
بها وتحكمها جملة عوامل قد تدفعها في هذا المنحى او تردها الى ذلك ، وان في  
السياسة دائما ما هو متحرك وغير متوقع ما دام من الممكن ان يفلت من التحليل  
هذا العنصر او ذلك ، هذا العامل او ذلك . وتعلم أيضا ، ما دامت تؤكد على  
« التحليل الملموس لموضع ملموس » ، ان السياسات الاستعمارية ( وسياسات  
الدول الكبرى اجمالا ) ليست دوما كلية الوعي ولا كلية القدرة ، وانها تخطيء  
وتصيب ، تنجح وتفشل ، كما انها سياسات واقعية تخضع لجملة من القواعد  
والمؤثرات والمصالح ، وان عملية صنع القرار السياسي في الدول الحديثة  
عملية معقدة نظرا لضخامة الجسم السياسي في هذه الدول ودوره في صنعه  
او التأثير عليه .

والواقع ان تأمل النقطة التي بدأ منها الغزو الاستيطاني الصهيوني ( وبعده  
بلفور ) والنقطة التي وصلت اليها سيرورة الانتداب ( دولة اسرائيل ) ، تدل  
بوضوح كيف يمكن للضغوط والصراعات ونسب القوى ان تفعل بالواقع  
وتدفعه بعيدا عن السياسة التي قيل انها « نهائية » و « مرسومة سلفا » ، ذلك  
ان حجم وعد بلفور جد بسيط وجد صغير اذا قيس بدولة اسرائيل . فلماذا  
انزلت بريطانيا ( وهنا ، نحن نحاجج اقتراضا فقط ) الى مواقع اخرى  
تضخمت فيها مكاسب الحركة الصهيونية هذا التضخم الكبير ؟ ترى لو ان  
ضغوط وقوى الحركة الصهيونية كانت أضعف فأضعف ، اما كانت مكاسب  
البيشوف اقل فأقل ؟ او لو ان ضغوط وقوى الحركة الوطنية الفلسطينية  
والعربية كانت اكثر فاعلية ، اما كان باستطاعتها ان تضع نهاية اخرى لوعد  
بلفور وتحوله الى قصاصة ورق ، وتفعل باليهود والانكليز ما فعل الاتراك  
باليونان والقوى الاستعمارية الفرنسية - الانكليزية بعد الحرب العالمية  
الاولى ؟ ولكن ، اين وعي اتاتورك من وعي أمين الحسيني ، اين وعي الحركة  
القومية التركية من وعي الحركة القومية العربية ! يكفي ان نطلع على النقد  
الذي وجهه عدد من « مفكري » الحركة القومية العربية وقادتها في ذلك الحين  
الى اتجاهات اتاتورك الديمقراطية حتى نقبض على أسباب الهزيمة العربية  
الطويلة .

ثم لنتأمل ظاهرة اخرى شديدة الاهمية ، ظاهرة اعتدال الحركة الوطنية الفلسطينية الطويل ، بل نهجها المتعاون مع الانتداب الانكليزي . ينبغي ، بادئ بدء ، استبعاد التفسير الاخلاقي المزامري لظاهرة الاعتدال هذه ، لا لانه تفسير ساذج ويمس ، دون ان يقدم وقائع ملموسة ، نزاهة مواطنين يملكون اعتبارا لدى شعبهم فحسب ، بل ايضا لان مثل هذا التفسير يدين ، في النتيجة ، كامل الحركة الوطنية الفلسطينية ، ان يعتبر القيادات خونة والقواعد ماشية بشرية . والا كيف نفسر سير الحركة الوطنية هذه وراء عملاء او متعاونين مع الاستعمار ! واخيرا ، لان مجتمعا لا يمنع زعاماته من ان تخون هو مجتمع مهزوم بالقوة . والواقع ان اعتدالها انما ينبع من سببين رئيسيين : الاول هو ضعف او ضالة الجسم السياسي الفلسطيني وانقسامه ، والثاني هو الوعي المشيخي الزائف المفقوت الذي يملك وعيا جعله يخطيء الحلقة المركزية في احباط المشروع الصهيوني ، حلقة تتمثل في النضال لنقل مركز القرار في المسائل الحاسمة ، مسألة الهجرة مثلا ، الى اليد العربية ، اي بشكل عام اعتبار مطلب استقلال فلسطين المقدمة التي لا بد منها لاحباط المشروع الصهيوني . والواقع ان الذبذبات والتعرجات والتناقضات التي وسمت السياسات الانكليزية في فلسطين قد شجعت ميول الاعتدال لدى الحركة الوطنية الفلسطينية ، ناهيك عن دور الدول العربية الموالية لبريطانيا او المسائرة لها ( الاردن والعراق الهاشميين ، السعودية ) ، حيث توهمت ان الروح الايجابية المتعاونة مع سلطة الانتداب قد تدفعها الى مواقف تجهض المشروع الصهيوني . بيد ان السياسة الانكليزية ، بما هي سياسة حديثة ، سياسة واقعية ، ويحكمها بالتالي ميزان القوى . وهذا ما فات الحركة الوطنية الفلسطينية ان تفهمه .

وقولنا ان اعتدال الحركة الوطنية الفلسطينية ووعيها المشيخي هما اللذان جعلها تخطيء الحلقة المركزية في احباط المشروع الصهيوني لا يعني ان العكس صحيح ، اي ان التطرف كان سيحبط المشروع الصهيوني ، ذلك ان العرب كانوا يخسرون وهم في مواقف الاعتدال ، فكيف الامر لو انهم اصبحوا في مواقف التطرف دون ان تسندها قوة تجعلها تعبيرا صادقا عن ميزان القوى الفعلي ( ناهيك عن ان امين الحسيني انتقل الى مواقع التطرف عندما اصبحت مشاريع التقسيم مطروحة بصورة جدية ) . قيل بحق : الزائد اخ الناقص . والتطرف والاعتدال ليسا موقفين قابلين للتقييم بشكل منفصل عن الواقع العياني ، وبالتحديد عن نسبة القوى الفلسطينية - اليهودية . الاعتدال قد يكون في حالة ما حماقة وفي حالة اخرى حصافة . والتطرف قد يكون في حالة ما في منتهى الواقعية الثورية ، وقد يصبح في حالة اخرى هبلا ثوراويا . المهم تحليل وتقييم كل حالة على حدة ومعرفة نسبة القوى بالضبط ، ثم اتخاذ الموقف المناسب .

لقد حمل الوعي العربي ، بما هو وعي امتثالي ومحافظ ، العامل الدولي

كل مسؤولية البلاء والهزائم التي منيت بها الامة العربية ( على الساحة الفلسطينية بالتحديد ) ، التي وقعت ضحية مؤامرة شيطانية محبوكة منذ زمن طويل ونهائية وحتمية لا مفر منها \* هنا ، يحجب هذا الوعي الامتثالي الواقع العياني ويعدم فكرة التجربة التاريخية لدى الانتلجنتسيا العربية ، ويجعلها ، بالتالي ، غير قادرة على التعلم من الممارسة ( ممارستها تبقى تكرارية ، وبالتالي غير ابداعية ) والاعتراف بالتقصير الذاتي \* انتلجنتسيانا هذه لا تراكم ، رأسها برميل بلا قعر \* وتجارب العقود الثلاثة الماضية من الصراع العربي - الاسرائيلي تشهد على ذلك ، بل تؤكد \* .

كتب المؤرخ الفلسطيني ، وليد الخالدي ، ما يلي : « ان مؤرخ المستقبل سيشير بأصبعه الى هذه الايام القليلة من شهر نيسان ١٩٤٨ قائلاً : ان فلسطين سقطت عمليا بين ٦ و ١١ نيسان » .

نحن العرب لم نفقه بعد وحدة الزمان ، اي ترابط وتواصل وحداته او لحظاته ، كما اننا لم نفقه بعد ان هذا الترابط ذا طابع سببي وتراكمي \* لذلك نضع انفسنا بالحديث عن « لحظات تاريخية » و « ايام مصيرية » ( لتأمل هذه الفخخة اللفظية وكيف تلعب لتمويه الواقع او حجبها ) غلبنا فيها وقررت ، هي وحدها ، نتيجة الصراع \* فقط عندما نرى ان الزمان مؤلف من وحدات تنبثق كل واحدة من جوف الاخرى ، وحدات مترابطة ترابطا ذا طابع سببي وتراكمي ، يمكننا ، من جهة ، ان نكتشف عقلانية التاريخ ، وبالتالي استحقاقنا الجزاء الذي فرضه علينا ( ونعني الهزيمة امام الصهيونية ) ، ومن جهة ثانية ان نعي ان فلسطين لم تسقط في ايام ، كما لم تسقط في شهور ، بل انها كانت تسقط كل يوم كسرة بعد كسرة وحجرا بعد حجر ، منذ صدور وعد بلفور وحتى اعلان دولة اسرائيل \* سقطت فلسطين خلال الثلاثين سنة هذه ، وكل يوم في هذه الفترة ( هذا اذا اغمضنا العين عن القعود التاريخي العربي الطويل ) كان معركة ننهزم فيها امام الصهيونية ، وكل يوم من هذه الفترة كان لحظة حاسمة ، لحظة مصيرية ، قررت مع اللحظات الاخرى الوضع الذي انتهت اليه فلسطين في العام ١٩٤٨ \* ولاننا لم ندرك وحدة الزمان ، بدت كارثة فلسطين ، في كتب التاريخ العربية ، حدثا لا عقلانيا ، صدفة ، شيئا ما جاء به الغيب او فرضه القدر ، لا نتيجة متوقعة لعودنا التاريخي الطويل وحصيلة عقلانية لمواجهة استمرت نصف قرن تقريبا بين جماعة ومجتمع ، اي بين جماعة مفوتة ومجتمع حديث ، وبعبارة محددة اكثر : بين جماعة ما قبل بورجوازية ومجتمع بورجوازي \* .

والواقع ان هذه النظرة العربية الى الزمان هي التي تفسر لم كانت سياسات الحركة الوطنية الفلسطينية والدول العربية عموما انتظارية تارة ورد فعل تارة اخرى ، ونادرا جدا ما كانت فعلا ( ناهيك عن كونها ضعيفة الامكانيات

والوسائل ) ، في حين كانت الحركة الصهيونية ترى الزمان بوصفه عاملا حاسما في المعركة وتستخدمه ، يملء قوتها وقدرتها ، للوصول الى نقطة يميل فيها ميزان القوى المحلي لصالح اليبشوف ، باعتباره عتلة الدولة اليهودية المنشودة . ولقد لعبت النظرة الملائكية الرومنسية العربية الى الحق دورا في تشكيل نظرتهم الى الزمان ، باعتباره يحوي غيبا ما او قدرا ما يسند الحق التاريخي العربي في فلسطين .

اذا ، عندما نعي ان وحدات الزمان مترابطة على نحو تراكمي وسببي ، وبالتالي عندما نعي ان عقلانية ما تربط وتنظم أحداثا تتدافع في مسار تاريخي ما ، وبكلمة عندما نقر بعقلانية التاريخ ، لا يعود في الوسع سوى الاقرار ان قيام اسرائيل كان امرا متوقعا . بل يمكن القول ان قيام اسرائيل اصبح مؤكدا عندما مال ميزان القوى المحلي الى جانب اليبشوف في العام ١٩٤٩ . بفعل هذا العامل او ذلك ، كان ممكنا ان يتأخر قيام اسرائيل سنة او سنوات ، او كان ممكنا لاسرائيل ان تكون أصغر أو اكبر مساحة ، الا ان قيام دولة لليهود كان امرا مؤكدا بفضل ميزان القوى المحلي ، الذي حوله اليبشوف لصالحه ، والذي لم يلبث ان صنع امرا واقعا ، سرعان ما فرض نفسه وشرعيته على العالم .

لقد كان تكون اسرائيل سيرورة متصلة من المواجهات والمعارك على مختلف الاصعدة ، السياسية ، الثقافية ، الاقتصادية ، الحربية ، سيرورة بقيت دائرة مدة ثلاثين عاما ونيف . وبالتالي لم يكن قيامها شيئا من قبيل الضربة القاصمة الخاطفة التي حسمت في أسابيع او شهور . حتى المعارك العسكرية ، التي نشبت بين العرب واليهود ، قبيل الانسحاب الانكليزي وبعيده ، للسيطرة على الارض الفلسطينية هي مجرد حلقة في سيرورة صراع طويلة ، ونتيجتها كانت حضيلا تراكم استمر طوال هذه الحقبة ، وكانت محكومة بالتالي بالعوامل نفسها التي حكمت الصراع العربي - الاسرائيلي ، منذ وعد بلفور وحتى اعلان دولة اسرائيل . الا ان هؤلاء الذين ينكرون عقلانية التاريخ ، وينظرون اليه بوصفه كوما من الاحداث التي تحكمها الصدفة ، غير القادرين ، بسبب وعيهم المحافظ ، على استيعاب التجربة التاريخية العربية ونقدها والامسك بدور التقصير والقصور الذاتيين العربيين في الهزيمة في فلسطين ، لا بد منزلقين الى نزعة قدرية ، حيث تبدو الهزيمة زلة قدر سيء لا مفر منها ، او يبدو وكأنه - اي التاريخ - اخذ مسارا غير عقلاني ، الامر الذي يضاعف عجزنا امام اسرائيل ، لانه يمنعنا من الامسك بالاسباب الحقيقية التي فرخت الهزيمة .

لو ان اسرائيل قامت نتيجة حظ عربي عاثر ، لو انها قامت في غفلة عن التاريخ ، لو انها كانت غلطة لا عقلانية من غلطات التاريخ ، لو انها قامت بسبب « اخطاء » عربية غامضة او غير بنيانية ، لما امكنها ان تستمر حتى اليوم ، لان العرب سيكونون قادرين حتما و بلا تأخير على ان يعيدوا للتاريخ عقلانيته ويجعلونه يصح هفوته بتكنيس اسرائيل من الوجود .

بعد توقيع آخر اتفاقية للهدنة بين الدول العربية واسرائيل في شهر نيسان ١٩٤٩ ، قال بن غوريون في خطاب القاه امام ضباط الهاغاناه ، التي تحولت الى ( جيش الدفاع الاسرائيلي ) ما يلي :

« ان ما تحقق لنا هو نصر تاريخي عظيم للشعب اليهودي كله ، كان اكبر مما تصورناه وتوقعناه . ولكن اذا كنتم تعتقدون ان هذا النصر قد تحقق بفضل عبقرياتكم وذكائكم فانكم على خطأ كبير . اني احذركم من مخادعة انفسكم . لقدتم لنا ذلك لان اعداءنا يعيشون حالة مزرية من التفسخ والفساد والانحلال » .

لقد لخص بن غوريون البلايا العربية باحكام . هنا ولدت الهزيمة ، ومن هنا تبدأ عملية تصفية الهزيمة .

### الحواشي :

التي استمرت حتى نهاية الثلاثينات ، كانت تقليدية . اما الثانية فلعب فيها مثقفون متنورون دوراً بارزاً ، ناهيك عن دور العناصر شبه البورجوازية وشبه الحديثة .

(٨) مكسيم رودنسون : اسرائيل والرفض العربي . ص ٣٢ - ٣٣ ، ٣٧ .

(٩) ناجي علوش : المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨) ، ص ١١٣ .

(١٠) مكسيم رودنسون : اسرائيل واقع استعماري ، ص ٥٠ - ٥٣ .

(١١) هاني الهندي : حول الصهيونية واسرائيل ، ص ١٠٩ .

(١٢) رودنسون : « اسرائيل واقع استعماري ؟ » ، ص ٨٢ - ٨٤ ، وايضا « اسرائيل والرفض العربي » ، ص ٣٩ .

(١) لو ان ثمة فيدرالية ، او شيء من نمط اقطاعي غربي ، حيث يعيش الاقطاعيون في الارض التي يملكون ، لما حدث مثل هذا الانتقال ، الذي سهلته اقطاعيون فلسطينيون وغير فلسطينيين .

(٢) ن . فانشتوك : الصهيونية ضد اسرائيل . ص ٦٨ - ٦٩ .

(٣) عبد القادر ياسين : كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ ، ص ٣٦ . نقلا عن خليل سكاكيني .

(٤) فانشتوك ، ص ١٦٥ .

(٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٦) تقرير اورسبي غورد ١٩١٨ اوردها الكيالي ، ص ١٢٤ .

(٧) تطور الحركة الوطنية السورية كان اخر ، حيث مرت في مرحلتين . الاولى



## الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربي أولويات والتزامات

بين الحين والآخر ، لا بد من وقفة مراجعة ، فالأحداث المتتالية تبقي كل واحد منا مشدودا اليها ، ولا نستطيع دائما أن ننفذ الى ترابطها وتداخلها بما فيه الكفاية . يبقى السؤال امام المترجمين بحركة التحرر العربي هو : كيف نؤمن لانفسنا المسافة الكافية التي تتيح لنا نظرة اكثر شمولية لجمل ما تواجهه قضايانا المصيرية من تحديات ، وتتيح لنا تقييما اكثر دقة وموضوعية للمسؤوليات المترتبة على الذين أوتمنوا على التراث الثوري والتغيير في أرجاء الوطن العربي بأسره .

وإذا انصب اهتمامنا مرحليا على دور الثورة الفلسطينية ، فهذا لا يعود لكونها ثورة فلسطينية ، تقع مسؤولية معالجة شؤونها على المنتسبين تاريخيا الى الشعب الفلسطيني ، بل لكونها جزءا عضويا متفاعلا مع حركة التحرر العربي ومنفصلة بدورها بها . لكن هذه الحقيقة البديهية بالنسبة اليها قد حامت حولها شكوك نظرا الى الترددي الذي اصاب حركة التحرر العربي ، مما اضطر الثورة الى تأكيد خصوصية دورها ومقتضيات تعاملها مع الانظمة العربية بالاضافة الى حتمية تداخلها مع حركة التحرر العربي نفسها .

ومن جهة اخرى ، فان حركة التحرر العربي لم تبرز بدورها على الخريطة السياسية العربية بما هو اكثر تماسكا ووضوحا من كونها « حركة » . لذلك بقيت في السنوات الاخيرة تشيع مناخا فكريا معنا اكثر مما تثبتت فعالية سياسية منتجة . لكن ، ومن حيث انها اشاعت مناخا فكريا اكد وحدة المصير العربي وعضوية الترابط بين شعوب الاقطار العربية ، فقد حالت دون ان تتمكن

بعض النخب الحاكمة من ان تحقق لذاتها تفردا مطلقا بالقرارات التي من شأنها التأثير على الاهداف القومية . اكثر من ذلك ، فان المناخ الفكري المشار اليه أمن للثورة الفلسطينية درجة كافية من الاحتضان الجماهيري ، مما ساهم في ابقاء القضية الفلسطينية في صلب الاهتمامات المركزية للامة العربية ولشعوبها .

غير ان ابقاء القضية الفلسطينية محور الالتزام القومي لم يكن ، ولن يكون بحد ذاته عنصرا كافيا لمجابهة ما تحوكه المحاور الامبريالية والصهيونية لهذه القضية من مؤامرات ومخططات من اجل تصفيتيها بالتدرج ، ومن خلال عمليات الانقضاض المباشر عليها وعلى الثورة المسؤولة مباشرة عنها . من هنا يتبين لنا ان الثورة الفلسطينية هي الى جانب كونها مسؤولة مباشرة عن تنظيم نضال الشعب الفلسطيني وتمثيله لانجاز حقوقه التاريخية والوطنية والقانونية في انشاء دولة مستقلة له في وطنه ، هي ايضا الشريحة الرئيسية والطليعية لحركة التحرر العربي . هذا يعني ان على حركة التحرر العربي ان تنضبط باولويات هذه الثورة وان تساهم بدورها في قراراتها . فاذا كانت الثورة الفلسطينية طليعة حركة التحرر العربي فان هذا يعني ان العلاقة القائمة بينهما هي عضوية ومصيرية ، لذا فلا مفر من المشاركة في القرار الفلسطيني مثل ما هو مطلوب من حركة التحرر الانضباط به .

اننا بتاكيدنا على هذه الناحية من العلاقة نرجع موضوع الترابط الى اصوله . فالثورة الفلسطينية هي خميرة الثورة العربية التي اصابها العديد من الانتكاسات السياسية والعسكرية ، مما دفع الثورة الفلسطينية الى التأكيد على خصيصيتها الفلسطينية دون فك الارتباط عن الحركة العربية او الانسلاخ عن الواقع القومي الذي تنتمي اليه كيانيا ومصيريا . لكن الثورة العربية تقلصت - خاصة بعد عام ١٩٦٧ - الى دور الضامن لاستمرارية المناخ القومي الذي يمكن الثورة العربية المحتملة من استعادة حيويتها وبنائها الهيكلية .

جاءت الثورة الفلسطينية تستجمع ما توفر لدى الشعب الفلسطيني من تجارب نضالية وثورية وتنظمها في الاطار الفلسطيني ، لان اي تنظيم ثوري موحد على الساحة القومية سوف يؤدي بطبيعة الحال الى انفلاش غير مؤهل للانطلاق ، ويعطل على الشعب الفلسطيني فرصة انطلاقه في ثورته المتجددة . الا ان الترددي في الواقع القومي لا يعني مطلقا انعدام لوجود واقع قومي عربي . واذا كان هذا الواقع فاقد عناصر التثوير مرحليا ، فذلك لا يعني ايضا انه لا يستطيع القيام بوظائف ثورية محددة ، بدليل الضغوط التي مارسها دوليا لصالح منظمة التحرير الفلسطينية ، ومحليا من حيث مساهمة الجماهير في عدد من الدول العربية في تفويت الفرص على المتربصين بالثورة واهدافها بمعنى اخر فان الواقع القومي هو المجال الحيوي للثورة الفلسطينية ، والثورة

الفلسطينية تبقى قادرة على النمو والفعالية ما دامت ترى نفسها على ما هي عليه - من تنشيط احتمالات الثورة في الواقع العربي ككل .

إن الثورة الفلسطينية من حيث هي احتمال تثوير للواقع العربي تحصن نفسها ضد محاولات الانظمة لتطويقها ، أو الحد من فعاليتها . كما أنها باستمرار نمو نفوذها ، ونشاطها ، تنمي امام الثورة العربية مجالات الصيرورة والجدوى . لكن هذا التداخل المحتوم يجب ان لا يتحول الى تدخل الاطراف في شؤون بعضها الداخلية ، لان هذا التدخل من شأنه ان يقلل ويبيهت مستلزمات التعامل المطلوبة بنسب متفاوتة للثورة الفلسطينية عند مختلف الاقطار العربية . فالتردي في الواقع القومي يفرض على حركة التحرر العربي ان تعتبر نفسها حلقة وصل بين ما هو قائم وما يجب ان يتم التحول اليه . بمعنى اخر ، حركة التحرر العربي هي حركة الفترة الانتقالية ، وهي تفترض ان عدم انضاجها الى تنظيم ثوري موحد يعود الى تباين الظروف الموضوعية الراهنة ، والى تعددية التركيبات الاجتماعية والاقتصادية في الواقع القومي . فحركة التحرر هي بالتالي اقل من تنظيم قومي ثوري للجماهير العربية ، وهي في الوقت ذاته اكثر من التسليم او القبول بمعطيات الواقع القومي كما هي وحركة التحرر قد تقترب من كونها تنظيما ، او من حالة التسليم ، بمقدار ما تكون الثورة الفلسطينية نفسها واضحة في توجيهها وفي استراتيجيتها . لكن حركة التحرر يمكن ان تستفيد من ظروف اقليمية او قطرية خاصة لتصب مردودها في اطار دفع حركة التحرر نحو مزيد من الانجاز ومن التوقعات .

والثورة الفلسطينية بدورها تستطيع من خلال انجازاتها ونضالاتها ان تمنح حركة التحرر ، او ايا من قطاعاتها ، مزيدا من قوة الدفع اذا ما ابدت استعدادا لتوظيف مكاسب الثورة الفلسطينية في سبيل رفع مستوى التنظيم او التحرك لديها .

ورغم ان هذا التداخل بين حركة التحرر العربي وبين الثورة الفلسطينية هو تداخل عضوي ، حتمي ، ومستمر ، الا ان هذا التداخل يعتريه - وقد اعتراه بالفعل - الكثير من الارتباك والتقطع ، مما اسهم في عدد من الانتكاسات والهزائم التي كان بالامكان تجنبها في عدد من الساحات العربية . لكن الذي نحن بصدده هنا هو اعادة تأكيد الوقائع التالية :

**اولا -** ان حركة التحرر العربي هي المناخ الفكري والسياسي المطلوب اشاعته حتى لا يتحول التردي الحاصل في الواقع القومي الى واقع جديد يترسخ فيه التردي .

**ثانيا -** حركة التحرر العربي هي الاطار الذي تنضوي داخله كل التيارات ، والقوى الحزبية ، والفكرية ، والنقابية ، والجماهيرية ، التي تنطلق من

مفهوم كون الاقطار العربية تنتمي الى امة عربية واحدة ، وبالتالي تربطها  
مع بعضها البعض وحدة المصير .

**ثالثا -** ان حركة التحرر تسلم بالواقع القومي كما هو في ترديه وتمزقه  
لكنها لا تستسلم له بل على العكس ، فانها تعتبر نفسها مسؤولة عن مهمة  
التصدي لهذا الواقع بغية تغييره الى ما يجب ان يكون .

**رابعا -** ان حركة التحرر العربي مسؤولة فكريا وسياسيا عن تحديد مراحل  
الى جانب تحديدها اوليات النضال العربي بمعنى اخر ، ان حركة التحرر  
مكلفة - لا بصك تكليف - بل بما اوتمنت عليه من تراث ومن رصيد ، ان تمنع  
عن الجماهير العربية الامال المغلوطة دون ان تنزع عنها طموحاتها المشروعة .  
فالمناح الفكري المطلوب من حركة التحرر تأمينه واشاعته هو بمثابة عملية  
تثقيف سياسي مطلوب منها القيام بها .

**خامسا -** ان حركة التحرر العربي مسؤولة عن تنشيط الالتزام القومي كلما  
وصلت الجماهير الى حافة اليأس ، من جراء السلبيات التي نشهدها ونعيشها  
كل يوم ، في مواجهة التحديات المتكاثرة التي تعانينا امتنا وجماهيرنا . وهذا  
بدوره يستلزم ، لا تأكيد الالتزام فحسب ، وانما وضوحا في الرؤيا وابتعادا  
عن التزمّت واستيعابا للمتغيرات في مسيرة نضالنا .

**سادسا -** ان حركة التحرر ، وهي ما يعادل المفهوم الحالي للجبهة العريضة،  
لا بد ان تكون واعية للتباينات الحاصلة بين ما تتشكل منه ، الا ان مهمتها في  
هذا المضمار هو ان تحول دون تحول التباين الى تناقض ، فيحصل نفس التزييف  
داخلها مثل الذي يحصل داخل الواقع القومي نفسه . عندئذ تكون حركة  
التحرر حافزا لمزيد من الترددي بدلا من ان تكون رادعا لتماديه في الوقت  
الحاضر ، وحافزا لمزيد من التغيير في الواقع العربي الراهن .

**سابعا -** وحيث ان المرحلة الراهنة تشكل مانعا لتحول حركة التحرر من  
حركة الى تنظيم لثورة ، فان هذا يعطيها من حرية التحرك في عدد من الاقطار  
العربية ما يمكنها من ممارسة ضغوط مشروعة في سبيل الاهداف الانية والمرحلية  
لحركة التحرر نفسها . واذا ما استعملت هذه الحرية بحكمة فانها تؤدي خدمات  
جمة في مجال تأمين المساعدات اللازمة للثورة الفلسطينية نفسها وللقضايا  
المطلبية الملحة داخل العديد من الاقطار العربية . الا ان حرية الحركة تفترض  
مرونة في التعامل مع من هم خارج اطار حركة التحرر دون ان تعني هذه  
المرونة استعدادا لتميع اهداف الحركة نفسها او المقاييس التي بها تقاس  
القضايا القومية التي نلتزم بها .

يستتبع هذا بالضرورة عملية تمييز جوهري بين المرونة والميوعة من جهة

وبين الصلابة المطلوبة والتشنج المرفوض . ولزيد من الايضاح ، كثيرا ما عانت فصائل حركة التحرر العربية - والثورة الفلسطينية - من جراء الخلس المقصود ، او الخلط البريء ، بين صلابة الموقف والتشنج ، في حين ان مسا من عامل يضر الموقف الصلب اكثر من قرعه في التشنج . فالموقف المبدئي الصلب هو الموقف المبني على الالتزام المدروس . بينما الموقف المتشنج هو في احسن حالاته التزام اهورج مرشح بالتالي لان يتلاعب به الخصم ، لضرب الموقف الصلب او لجعله يتآكل من جراء الضربات التي يسدها اليه المتشنجون .

كثيرا ما اثبتت التجارب كيف ان الزايدة ونحو التشنج الذي يخلقه ، كان يعطل قرارات مصيرية ويجعلها غير قابلة للتنفيذ ، كم وجدنا كيف ينتحل المتشنج صورة المتصلب ويزور الموقف من اجل ان يسلبه فرص الانجاز والجدوى .

من جهة اخرى فان التجارب النضالية التي عاشتها جماهيرنا اثبتت ان الكثيرين قد دعوا حركة التحرر والثورة الفلسطينية للتخلي « بالروية » و « الواقعية » ، وان مقومات المرونة تستوجب انجاز الممكن والتخلي عن المستحيل . وعلى الرغم من صحة هذا التوجه الا ان البعض ممن نادوا بالمرونة ، ظلوا يتخلون عن مسلمات قضائنا حتى اوصلوها الى نقطة الانفجار ، بحيث صارت الدعوة للمرونة مدخلا لتميع المواقف تمهيدا للتخلي عنها .

لذا كان هناك دوما تحد امام قيادات حركة التحرر العربي وقيادات الثورة الفلسطينية . وهذا التحدي يكمن في ابقاء مسيرة التحرر - والثورة - بمعاني عن الانجرار الى مواقع المتشجنين . وهذا التحدي والمقدرة على مواجهته هو محك القيادة السليمة والمؤهلة . الا ان المفروض على قيادات حركة التحرر والثورة الفلسطينية من اجل حماية المسيرة النضالية من الهاوي والمزالق المشار اليها ، هو ان تستلهم في توجيهها وتنظيمها لمسار الحركة والثورة النهج الذي يضمن الانضباط ضمن معطيات الانسجام المبدئي واستمرارية الجدوى والفعالية ، وهذا يقتضي دوما استيعابا للمتغيرات من جهة ومقدرة على ربطها مع الثوابت من جهة اخرى .

يبقى ان تحدد الثوابت ويكون الالتزام بها واضحا ، فالالتزام بالثوابت يؤدي الى ايجاد الرصيد الكافي من الثقة لدى الجماهير بالقيادة ، مما يتيح لها التكيف مع المستجد من المتغيرات في كل الاحوال ، على قيادة حركة التحرر العربي والثورة الفلسطينية ان تجعل من الثوابت العامل المرجح في كل القرارات ، الا ان الثوابت التي لا تلائم نفسها مع المتغيرات تصبح مبادئ جامدة ، والى حد كبير متحجرة .

وبالقدر نفسه ، من الخطورة على القيادات الملتزمة بحركة التحرر العربي ان تمتنع عن ان ترتفع للمتغيرات لدرجة التصرف وكأن المتغيرات هي بالضرورة مناقضة للثوابت ، في هذا المضمار هناك دوما احتمال ان تصبح قيادات حركات التحرر سجيئة المتغيرات ، وبالتالي بعيدة عن الثوابت المبدئية . يترتب على قيادات حركة التحرر العربي اذن جعل الثوابت المبدئية متحركة بالمتغيرات ، من حيث استيعابها والكيف بمقتضياتها . لكن الثوابت يجب ان تكون بدورها محكومة بما تفرضها هذه المتغيرات من موازين قوى وتحديات جديدة في الساحات الوطنية والقومية والدولية .

ان التنسيق المستمر بين ما اسميناه بالثوابت المبدئية والمتغيرات الجديدة يفرض على قيادة حركة التحرر ، الى جاذب الالتزامات المبدئية بالثوابت ، اداة النقاط قادرة على رصد المعلومات وتحليلها حتى تجيء قراراتها متمتعة بالمناعة الكافية التي تجعلها مستوعبة لاحتمالات ما تنطوي عليه القرارات من اوجه اجرائية وتنفيذية ، وما يمكن للقرارات المتخذة ان تستجلب من مخاطر ، المهم في القرار ان يحتوي على عنصر المغامرة في حده الأدنى ، وعنصر الفعالية في حده الأقصى . وحتى يتمكن قرار قيادة حركة التحرر العربي من ان يكون مستوفيا هذه المواصفات لا بد ان يكون حصيلة منهج ديمقراطي سليم . فالديمقراطية من هذا المنظور لا تشكل التزاما اخلاقيا او نزعة طوباوية بمقدار ما تصبح الديمقراطية في اسلوب اتخاذ القرارات حاجة ملحة لحركة التحرر وللثورة الفلسطينية .

لذا فان اصرارنا على المنهج الديمقراطي في اتخاذ القرارات الثورية ومن جانب حركة التحرر العربي هو نتيجة قناعتنا وتجاربنا المريرة التي وجدنا كيف ان كثيرا من توقعاتنا المنطقية خابت ، لان القرارات لم تتضمن الآراء المخالفة او بالاحرى لم تتعرض لها . في هذا المضمار وجدنا كيف ان قيادات حركة التحرر العربي ، اتخذت بعض قراراتها مستندة على معلومات المخبرين بدلا من تحاليل ومعلومات المتزمين ، فالقيادة عندما تمتلك سلطة القرار ، كثيرا ما تتكون لديها قابلية الاستماع لما تحب ان تسمع اكثر من قابلية الاستماع الى ما يجب ان تسمع . هذا الضعف الذي انساق الكثير من قيادات حركة التحرر العربي بشتى فصائلها ورائه ، جذب الى دائرة المقربين من القيادات عددا من الطفيليين ، الذين اسهموا في اقفال قنوات الحوار والمناقشة . الا ان الجدير بالذكر في هذا المضمار ان قيادة الثورة الفلسطينية تمكنت نتيجة طبيعة التحديات الشرسة التي تجابهها ان تجعل الدورة الدموية نشطة في عقل الثورة لايقائها قنوات الاتصال مفتوحة مع الرأي الشجاع الذي وان خالف القرار يبقى منضبطا بمقتضياته .

ان تشديدنا على ضرورة اتباع المنهج الديمقراطي في قرارات حركة التحرر

العربي ، وفي قرارات الثورة الفلسطينية يعود ، كما اشرنا ، الى التجارب المرة التي كثيرا ما ارمقت الجماهير وابطلت مفعول الكثير من تطلعاتها . وقيادة حركة التحرر مسؤولة الى حد كبير عن المستقبل العربي ككل . فهي ليست مطالبة بان تنصرف كسلطات قائمة . فالسلطة في واقع الامة المجزأ تتحول بحكم الارضية القومية المتردية الى هدف بحد ذاته . اي ان بقاء السلطة يصبح هو الاهداف التي جاءت السلطة لانجازها . وعلى الرغم من ان كل عمل سياسي وثوري يجب ان يستهدف الاستيلاء على السلطة ، الا ان السلطة تستنفذ ذاتها اذا هي اصبحت هدفا بحد ذاتها . ولعل الكثير من المشاكل التي اعترت سبيل حركة التحرر العربي انها تعاملت مع عدد من الانظمة المتقدمة والوطنية على اساس ان السلطة التي تتمتع بها هذه الانظمة في بعض الاقطار العربية هي مواقع صلبة لمزيد من الانطلاق لحركة التحرر ، واذا بها تصطدم بحقيقة ان معظم هذه الانظمة تريد توظيف التزام فصائل حركة التحرر بالاهداف المشتركة ، او بالشعارات المشتركة ، لخدمة مآرب استمرارية السلطة في هذه الاقطار .

ان المعاناة الحقيقية التي تعيشها حركة التحرر العربي يمكن ان تصبح اقل حدة اذا تمكنت الثورة الفلسطينية ان تستقي لنفسها استقلالية الحركة وحرية التعامل . فالعلاقة العضوية بين حركة التحرر العربي والثورة الفلسطينية تفرض على حركة التحرر العربي تقيدا باولويات الثورة الفلسطينية هذا بالطبع لا يعني اي تخل عن الاولويات القطرية الطارئة على فصائل حركة التحرر ، ولا عن التوجه الدائم والدؤوب لمعالجة المشكلات اليومية التي تواجه اطراف حركة التحرر ، كما ان من الضروري جعل الاهداف القومية في الوحدة والتغيير والتنمية والتقدم ماثلة باستمرار امام الجماهير لئلا تغرق في المهوم المتبعثرة والحادة التي تخلقها حالة التمزق والتجزئة في الوطن العربي ، ولا تستطيع حركة التحرر العربي ان تجعل من تداخلها الفعلي العضوي المستمر وسيلة تعطل استقلالية الثورة الفلسطينية . ان هذه الاستقلالية شرط لتمكين الثورة الفلسطينية من التصدي للعدو الصهيوني بكل ما تستطيع ان تستقطبه من ادوات ضاربة وضاغطة . وهذه الاستقلالية التي تمارس في المنطق الجدلي القومي هي نقيض التفرد ، في حين ان الاستقلالية في المنطق الانعزالي والرجعي مدخل الى شرعية التفرد والانسلاخ .

يتضح اذن ان حركة التحرر العربي تسلم بالدور القيادي والطلبي للثورة الفلسطينية ، لا لان حركة التحرر تتصور دورها ملحقا بالثورة ، بل لان الثورة الفلسطينية والاهداف المرحلية التي تعبر عنها وتعمل من اجلها ، تشكل الاولوية المطلقة لحركة التحرر نفسها . ومن حيث ان حركة التحرر العربي غير مؤهلة ، جهازيا وعمليا ، ان توجه مسيرة التحرر والثورة ، وانما مهامها

تقتصر - نظرا للظروف الموضوعية الراهنة - على حماية الثورة واحتضانها ، فان مسؤولية توجيه حركة التحرر العربي بشكل مباشر تقع على الثورة الفلسطينية نفسها . لكن قولنا هذا يريد ان يعني ان حركة التحرر العربي هي في المنظور التاريخي الحركة الام للثورة العربية ، في حين ان الثورة الفلسطينية ، ازاء المتردي في الواقع القومي ، تحتزن طاقات ثورية تتعدى مجرد التصدي للكيان الصهيوني ومشاريعه العدوانية والتوسعية الى كونها كما قلنا خميرة الثورة العربية المحتملة .

يترتب على ادراكنا للمحاذير التي اشرنا اليها ان تكون حركة التحرر العربي واعية لدورها المساند ولحقها في الاسهام في قرارات الثورة الفلسطينية الا ان الظروف التي تجتازها المنطقة وخطورة المؤامرات على الثورة الفلسطينية قد تستوجب احيانا ان لا تعامل الثورة حركة التحرر او بعض فصائلها بالمثل فالثورة محقة ان تنتظر من حركة التحرر كل عون ، في حين ان حركة التحرر العربي لا يمكن ان تتوقع المستوى نفسه من العون او المساندة ، فحركة التحرر هي المستفيدة في نهاية الامر من كل انجازات الثورة الفلسطينية . فنضالات حركة التحرر العربي في كافة ارجاء الوطن العربي لا يمكن ان تكون اولويات الثورة الفلسطينية ، لكن اولويات الثورة الفلسطينية هي بالضرورة اولويات حركة التحرر العربي . قد يبدو ذلك مفارقة ، لكن المنظور القومي لواقعنا الراهن يجعل ، ما يبدو وكأنه مفارقة ، المسؤولية التاريخية لحركة التحرر العربي .



## الرفض الاسرائيلي

تبلورت خلال السنة الاخيرة ، وخصوصا منذ زيارة السادات الى القدس ، مواقف معظم اطراف الصراع العربي - الاسرائيلي ، واتضح بقدر لا مثيل له في السابق . كما انكشفت ، في الوقت نفسه ، وجهات نظر الانظمة العربنية تجاه المشاريع المطروحة لتسوية ما يتعارف على تسميته بأزمة الشرق الاوسط . وخلاصة هذه المواقف ووجهات النظر هي ان « الاعتدال » هو الذي يسيطر على الموقف العربي عامة - ان صح التعبير - بينما الرفض هو الذي يتحكم في موقف اسرائيل ، وكلما امعن العرب في السير على طريق الاعتدال ، او تقديم التنازلات المختلفة ، تصلب الموقف الاسرائيلي وتعمق رفضا .

ان نظرة سريعة على المواقف العربية ، الفردية او شبه الجماعية او الجماعية ، من ناحية ، والاسرائيلية من ناحية اخرى ، تكفي للوصول الى هذه النتيجة . فالموقف العربي العام تجاه التسوية مع اسرائيل قد تغير بصورة ملحوظة خلال العقد الاخير ، واتجه اكثر فاكثر نحو ما يمكن ان يسمى اعتدالا . وعدا عن بعض الانظمة ، الراضية قولا والمتخاذلة - او المتآمرة - فعلا ، هنالك استعداد عربي يكاد يكون شبه شامل للمشاركة في عملية التسوية في الشرق الاوسط او للموافقة عليها و « مباركتها » ، على طريق الايجاب او السلب ، ولاعتبارات خاصة بهذا الطرف او ذلك النظام او تلك الدولة . فالسادات ، مثلا ، وهو زعيم « الايجابيين » ، لم يكتف فقط ، بمجرد زيارته للقدس في تشرين الثاني الماضي ، بتقديم تنازلات للاسرائيليين لم يحلموا بها ، ولم يظهر فقط استعداده للقبول بالمطالب الاسرائيلية الجوهرية ، وعلى رأسها ابداء الاستعداد العلني من قبل رئيس اكبر دولة عربية للاعتراف باسرائيل ، ثم سعيه الى كسر

« الحواجز النفسية » بين العرب واسرائيل ، في ما يوضح عمليا استعدادا نفسيا من قبله للقرص على انغام الدعاية الصهيونية ، بل وقف أمام الكنيست ( البرلمان ) الاسرائيلي ، ليعلن على مرأى ومسمع من العالم اجمع « ان اسرائيل اصبحت حقيقة واقعة اعترف بها العالم وحملت القوتان العظميان مسؤولية امنها وحماية وجودها » ، وليضيف الى ذلك ايضا انه « لما كنا نريد السلام فعلا وحقا فاننا نرحب بأن تعيشوا بيننا في امن وسلام فعلا وحقا » . وفي المقابل ، طالب السادات بـ « الانسحاب الكامل من الارض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ » باعتبار ذلك « أمرا بديهيا لا تقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لاحد او من احد » ، موضحا للاسرائيليين « ان قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل او انكار من احد ٠٠٠ واذا كنتم قد وجدتم المبرر القانوني الاخلاقي لاقامة وطن قومي على ارض لم تكن كلها ملكا لكم ، فأولى لكم ان تفهموا اصرار شعب فلسطين على اقامة دولته من جديد في وطنه » . ولكسي يسهل على الاسرائيليين ابتلاع هذا القرص ، دعا السادات ايضا الى تحويل القدس الى « مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين » ، متنازلا عن المطالب العربية القديمة بشأنها . كما حث على الاعتراف بـ « حق كل دول المنطقة في العيش في سلام داخل حدودها الامنة والمضمونة عن طريق اجراءات يتفق عليها ، لتحقيق الامن المناسب للحدود الدولية اضافة الى الضمانات الدولية المناسبة » ، وعلى « ان تنسجم كل دول المنطقة بادارة العلاقات في ما بينها طبقا لاهداف ميثاق الامم المتحدة ومبادئه وبصفة خاصة عدم اللجوء الى القوة وحصل الخلافات بينهم بالوسائل السلمية » ، في ما يشكل مقدمة لـ « انهاء حالة الحرب القائمة في المنطقة » .

ولم يكن السادات بهذا المقدر من التنازلات . فمع احجام الاسرائيليين عن الاستجابة لاقتراحاته ، ثم اتضح حقيقة موقفهم الراض له ، بعد اجتماعه برئيس حكومة اسرائيل ووزير دفاعها على الاقل ، عاد الرئيس المصري - وكما يبدو في محاولة للضغط « وديا » على اسرائيل - ووضح مفهومه للضمانات والترتيبات الامنية التي يمكن ان ترافق اتفاق تسوية مصري - اسرائيلي باعلانه ، في منتصف كانون الثاني الماضي ، انه يوافق على « مناطق منزوعة السلاح على الجانبين » ، و « وجود محطات انذار مبكر [ في مصر واسرائيل ] كالموجودة الان [ في سيناء ] » ، « وان تكون هناك مناطق محدودة التسليح » ، و « تحديد للقوات [ العسكرية ] الموجودة [ في سيناء ] » ، و « قوات طوارئ دولية على الحدود حتى في شرم الشيخ » ، و « ان ينص في اي اتفاق للسلام على ان خليج العقبة ٠٠٠ مياه دولية مفتوحة للملاحة » و « ان تكون لجنة مشتركة من مصر واسرائيل تحت اشراف الامم المتحدة او من دون [ ذلك ] » . ولازالة الاثر « السلبي » الذي تركه كلام السادات في الكنيست حول « ادارة العلاقات »

بين دول المنطقة وفقاً لـ « ميثاق الأمم المتحدة » ، الذي لا يعني بالضرورة قيام علاقات دبلوماسية أو تجارية أو سياحية وما شابهها بين الدول الاعضاء في المنظمة الدولية ، اضاف الرئيس المصري « شيئاً جديداً » - على حد تعبيره - الى ما حدده اعلاه ، موضحاً - متسائلاً انه « اذا لم تكف كل هذه الضمانات ٠٠ الا يكفي اعلان الاتفاق على التعايش في سلام وفتح الحدود وتطبيع العلاقات ، اي جعلها طبيعية ؟ » .

وهذه المواقف ، على التنازلات الجوهرية التي تتضمنها ، وان جاءت على لسان السادات بالذات ، لا تمثل سياسته فقط ، ان ان الرجل حظي بتأييد اكثر من نظام عربي ، ضمنا او صراحة ، علنا او سرا ، لاتجاهاته تلك . ولكن ، على الرغم من ذلك ، كان رد الفعل الاسرائيلي على تلك الاقتراحات مخيباً للامال ، بالنسبة للسادات ومؤيديه . فحكومة بيغن لم تكف بتجاهل تلك العروض او المضرب بها عرض الحائط فقط ، وانما تقدمت بـ « مشروع سلام » لا يمكن اعتباره ، الا استفزازاً لدعاة الصلح معها واستخفافاً بهم جميعاً ، وبكل من يتحدث عن تسوية ، من دول عربية او كبرى . ومشروع السلام ذلك يقلب كل مفاهيم التسوية في المنطقة ، التي كانت سائدة حتى تقديمه ، ولا يستند فقط على التنكر لحقوق الفلسطينيين ورفض الانسحاب من معظم الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، بل يدعى الى الاحتفاظ بالسيطرة الاسرائيلية على كافة الاراضي الفلسطينية ، واقامة « حكم اداري ذاتي » لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، جوهره انشاء بانتوستان فلسطيني في تلك المناطق ، وهدفه تسهيل عملية تهويدها حتى يسهل ابتلاعها صهيونياً بصورة نهائية ، من خلال انكار وجود شعب فلسطيني . كذلك يدعو المشروع الى الاحتفاظ بالسيطرة العسكرية الاسرائيلية حتى على اجزاء كبيرة من سيناء نفسها ، والابقاء على المستوطنات الاسرائيلية هناك في اماكنها ، ولفترة غير قصيرة ، لا يبدو معها انه يمكن ان يكون حل نهائي لتلك المشكلات دون ضم اجزاء من سيناء ، عملياً او قانونياً ، الى اسرائيل بشكل نهائي . اما بالنسبة لهزيمة الجولان ، فلم يكلف واضعو مشروع السلام الاسرائيلي انفسهم عناء الحديث عنها ، او حتى ذكر اسمها في مشروعهم ، على اعتبار ان تلك المنطقة ينبغي ان تضم الى اسرائيل نهائياً .

ومدذ الاعلان عن مشروع السلام الاسرائيلي هذا ، في نهاية السنة الماضية ، وحتى اليوم ، لم يطرأ عليه اي تغيير او تعديل ، رغم « الضغوط » و « النداءات » و « المناشدات » التي وجهت الى اسرائيل لحثها على الاعتدال واطهار شيء من المرونة . ومن الخطأ ، على كل حال ، توقع حدوث شيء من هذا القبيل .

#### من لاءات المخطوم الى نغم الكنيست

ان السادات ومؤيديه ، لا يمثلون . بأية حال ، كل العرب ، ولا ينطقون

باسمهم ، كما ان تصريحات الرئيس المصري ووعوده وتنازلاته لا يمكن ان تلزمهم جميعا . فقد شجب عدد من الاطراف العربية مبادرة السادات ، وحذر عن مخاطرها ثم تكتل في « جبهة الصمود والتصدي » ، التي ضمت كلا من سوريا والجزائر وليبيا واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، لمواجهة نتائجها . غير انه مهما كانت الظروف التي دفعت الى انشاء تلك الجبهة او العوامل التي حركتها ، فمن الخطأ وصفها بانها جبهة « غير معتدلة » او معادية للتسوية في المنطقة ، وان كان لها مفهومها الخاص بها للتسوية . فبيان قمة اطراف جبهة الصمود والتصدي ، الصادر في اوائل كانون الاول الماضي في طرابلس ، يدين زيارة السادات الى القدس لانها ادت - من بين ما ادت اليه - الى « تخريب امكانية اقامة سلام عادل ومشرف يحفظ للامة العربية حقوقها القومية ويضمن لها تحرير اراضيها المحتلة وفي مقدمتها القدس ، ولشعب فلسطين حقوقه الوطنية الثابتة » . وعبارة « سلام عادل » ليست الا احدي مصطلحات شيفرة التسوية . اما البيان الثاني ، الصادر عن الاطراف ذاتها بعد قمة الجزائر ، في اوائل شباط الماضي ، فانه يلصم « الرئيس السادات » لانه بمبادرته ، « يعمل ضمن المخطط الاسرائيلي الاميركي الهادف الى تقويض امكانات تحقيق سلام عادل يرتكز على الانسحاب الشامل من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » .

وخلال انعقاد مؤتمر جبهة الصمود والتصدي الاول في طرابلس وقع ممثلو فصائل المقاومة بيانا . سماه بعضهم حتى « ميثاقا » ، بينما سارع آخرون الى المطالبة بعقد المجلس الوطني الفلسطيني لتبنيه . غير ان ذلك البيان ايضا ، ورغم الظرف الذي صدر فيه ، لم يأت بجديد ولا ينم عن اي « رفض » متمزمت ، اذ انه يعلن عن رفض قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ - وليس في هذا اي جديد - ويطالب بالعمل على احقاق حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة ، « بما فيه حقه في اقامة دولته الفلسطينية المستقلة على اي جزء يتم تحريره من الارض الفلسطينية في هذه المرحلة دون صلح ولا تفاوض ولا اعتراف » ، وليس في هذا ، ايضا ، اي جديد .

والمواقف والمقرارات والبيانات التي اشرفنا اليها تجد دعما لها ، من حيث الاستعداد للسير على طريق التسوية ، في قرارات مؤتمر القمة العربي الاخير ، السابع ، المنعقد في الرباط خلال تشرين الثاني ١٩٧٤ ، التي حظيت بالموافقة من قبل كل الدول العربية ( عدا نزالم واحد اعلن تحفظه تجاهها ) . وقد نصت تلك المقرارات ، التي اكدت قرارات مؤتمر القمة العربي السادس ، على ان « الهدف المرحلي للامة العربية » يتمثل في « التحرير الكامل لجميع الاراضي العربية المحتلة في عدوان يونيو ( حزيران ) ١٩٦٧ ، وعدم التنازل او التفريط

في أي جزء من الأراضي أو المساس بالسيادة الوطنية عليها » . كذلك دعت القرارات إلى العمل على « تحرير مدينة القدس العربية وعدم القبول بأي وضع من شأنه المساس بسيادة العرب الكاملة على المدينة المقدسة » و « الالتزام باستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفق ما تقرره منظمة التحرير [ الفلسطينية ] بوصفها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني » . وكانت منظمة التحرير الفلسطينية قد قررت ، قبيل اتخاذ قرارات مؤتمر القمة تلك ، خلال الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني ( حزيران ١٩٧٤ ) أن الحقوق الفلسطينية تجد تعبيراً عنها ، مرحلياً ، في إقامة « السلطة الوطنية » على أي جزء يتم تحريره من الأرض الفلسطينية ، ثم استبدال هذا الهدف بأخر - إقامة « الدولة الفلسطينية المستقلة » - وأقر خلال الدورة الأخيرة للمجلس الوطني الفلسطيني ( آذار ١٩٧٧ ) .

والفرق بين هذه المواقف ، على الاختلاف فيما بينها ، من حيث إبداء الاستعداد للسير على طريق التسوية لاسترجاع الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ حتى وإن أدى ذلك إلى الاعتراف بإسرائيل ، قانونياً أو واقعياً ، أو التسليم بالأمر الواقع من ناحية ، وبين لاءات الخرطوم الشهيرة من ناحية ثانية واضح للغاية . فمما لا شك فيه أن تغييراً ملحوظاً طرأ على الموقف العربي من إسرائيل خلال العقد الأخير ، حجمه كالفرق بين نعم الكنيست ولقاءات الخرطوم . ولسنا هنا في صدد محاولة دراسة أبعاد هذا التغيير أو دوافعه ، بقدر ما يعيننا أثباته لمقارنته بالتغيير المعاكس الذي طرأ على الموقف الإسرائيلي من العرب خلال الفترة نفسها . فبينما كان موقف العرب يتجه تدريجياً نحو الاعتدال ، ويمعن بعضهم في تقديم التنازل تلو الآخر للإسرائيليين ، كانت إسرائيل تتجه نحو التصلب وتتشبث بمواقف الرفض ، الأخذ في الاتساع . وللدلالة على ذلك ، يكفي أن نشير ، مثلاً ، إلى أن في الوقت الذي كان بعض العرب يعلنون عن استعدادهم علناً للاعتراف بإسرائيل و « العيش معها في أمن وسلام حقاً وفعلاً » ، مقابل انسحابها من الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، كانت حكومة بيغن تحظى بثقة الكنيست ، في حزيران ١٩٧٧ ، على أساس برنامج سياسي يعلن « أن للشعب اليهودي حقاً تاريخياً أبدياً ، غير قابل للطعن ، في أرض - إسرائيل ، ميراث أبائنا » ، أي أنه لا « يحق » لإسرائيل فقط ، بصفتها « ممثلة الشعب اليهودي » ، السيطرة على أرض فلسطين بكاملها ، بل إن لها أيضاً « حقوقاً » في أراضي كل الدول العربية المجاورة لها ، إذ أن ذلك هو المفهوم الصهيوني لعبارة « أرض - إسرائيل » .

والنتيجة الواضحة والبارزة ، المترتبة على هذه المواقف ، هي أن إسرائيل ترفض ، ببساطة ويمنتهى الموضوع ، القبول بمعادلة التسوية المطروحة في المنطقة، أي : انسحاب مقابل سلام وأمن ، استناداً إلى مواقف واعتبارات أخرى .

وهذا الرفض الاسرائيلي ملموس جدا ، وهو الذي يتحكم الان ، عمليا ، في مجرى التسوية السياسية في المنطقة ، ويمنع تحقيقها . وبهذا الرفض ، لا تكفي اسرائيل فقط باتباع سياسة قد تفوت عليها فرصة الوصول الى سلام مع العرب ، او مع بعضهم على الاقل - وهذا ، على حد زعمها ، حلمها القديم - بل انها تتخذ مواقف لا تحظى بتأييد اية دولة في العالم تقريبا ، بما في ذلك اكبر مؤيديها وبتعهدي وجودها ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة . ورفض كهذا ، في اوضاع كهذه ، لا بد ان يكون جديا وعميقا للغاية ، كما ان دوافعه واسبابه عديدة ومتنوعة ، منها العقائدي و « التاريخي » والمستقبلي وغيرها .

### العقيدة الرفضية

لعل أولى اسباب الرفض الاسرائيلي لمعادلة التسوية المطروحة في المنطقة ، على اساس الانسحاب مقابل السلام ، كامن في العقيدة الصهيونية نفسها ، والاهداف التي تتطلع اليها و « الاماني » التي يصبو الصهيونيون والاسرائيليون الى تحقيقها ، كما تعبر عنها تلك العقيدة ، بالتغييرات التي ادخلت عليها من حين الى اخر .

فالعقيدة الصهيونية لم تكن يوما ما ثابتة او « متحجرة » ، بل على العكس كانت دائما وابدأ « مرنة » و « فضفاضة » . وعلى عكس الرأي السائد المقاتل ، مثلا ، ان هدف الصهيونية هو اقامة دولة يهودية في فلسطين ، لم يكن هذا دائما هو الهدف الصهيوني الرسمي المعلن بالضبط ، بل انه مر في مراحل عدة ، لم يكن خلال بعضها متجانسا بالضرورة مع الدعوة الى اقامة دولة يهودية او التطلع لذلك . والسبب ناجم ، اساسا ، عن حرص الصهيونيين على تجنب الالتزام باهداف ليس من السهل تحقيقها ، او الاعلان عن نيات قد تثير نفورا او استهجانا لدى الاخرين ، مما قد يعرقل تنفيذها ، او الكشف عن مطامع قبل حلول موعدها ، مما قد يدفع الى مقاومتها . ولذلك تطورت العقيدة الصهيونية واتضحت معالمها اكثر فأكثر بشكل تدريجي ، مع ازدياد الصهيونيين صلابة في عودهم واتساع قواعدهم ونمو قوتهم ، وكلما انتهت ، او انتهت ، مرحلة ، حققت خلالها مكاسب معينة ، تغيرت العقيدة ، رسميا على الاقل ، واصبحت اكثر وضوحا في سعيها وراء اهداف اخرى موسعة - « والشبهية تأتي مع الاكل » .

وهذا الوصف لكيفية تطور العقيدة الصهيونية ، وبالتالي اتضاح اهدافها ، يكاد يواكبها منذ نشأة الحركة الصهيونية المنظمة وحتى اليوم . ففكرة اقامة دولة يهودية في فلسطين ، مثلا ، طرحت من قبل اكثر من مفكر او زعيم صهيوني ، ومن بينهم هرتسل نفسه ، خلال النصف الاخير من القرن الماضي ( وطرحست ايضا قبل ذلك ) . الا ان هرتسل اياه ، عندما اتجه سنة ١٨٩٧ الى عقد المؤتمر

الصهيوني الاول الذي اعلن فيه تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية ، تناسى ما كان قد اعلنه قبل سنة فقط من ذلك التاريخ ، في كتابه « دولة اليهود » ، بشأن ضرورة انشاء دولة يهودية ، وأيد قرارا يعرف هدف الصهيونية على انه سعي الى « اقامة وطن لليهود في ارض - اسرائيل ، معترف به وفقا للقانون العام » . وبقي هذا التعريف لاهداف الصهيونية ساري المفعول ، رسميا على الاقل ، قرابة ٤٠ سنة ، لم يطرأ عليه خلالها اي تعديل - عدا ، ربما ، عن ذلك الكامن في وعد بلفور ، بدعوته الى اقامة « وطن قومي » لليهود في فلسطين ، لا « وطن » فقط ، او في صك الانتداب ، بـ « اعترافه » بـ « العلاقة التاريخية بين اليهود وارض - اسرائيل » . وهذه ، على كل حال ، ليست وثائق او اعلانات صهيونية رسمية بحثة . بل يمكن الاشارة ، في هذا الصدد ، الى ان المؤتمر الصهيوني السابع عشر ( ١٩٣١ ) رفض صراحة تبني مشروع قرار يدعو الى تعريف « الهدف النهائي » للصهيونية بأنه اقامة دولة يهودية ، كان قد تقدم به الصهيونيون الاصلاحيون ، لاعتقاد اكثرية اعضاء المؤتمر ان الوقت انذاك لم يكن ملائما لذلك ، مما دفع جابوتينسكي الى تمزيق بطاقة عضويته في المؤتمر والانسحاب ، مع مؤيديه ، منه .

غير ان اهداف الصهيونية راحت تتغير ، وتزداد وضوحا ، تدريجيا ، مع نمو القوة الصهيونية من ناحية ، ونشوء الظروف الدولية الملائمة من ناحية اخرى . فالمؤتمر الصهيوني العشرون ( ١٩٣٧ ) رفض ، مثلا ، اقتراح تقسيم فلسطين الذي تقدمت به بريطانيا ، في محاولة للتوفيق بين العرب واليهود ، اثر انتهاء المرحلة الاولى من الثورة العربية الكبرى في فلسطين ( ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ) . ولكنه فوض الزعامة الصهيونية اجراء مفاوضات مع بريطانيا « لتوضيح محتويات اقتراح ١٠٠٠ تأسيس دولة يهودية في ارض - اسرائيل » . ومع سقوط اقتراح التقسيم ، باستمرار الثورة العربية ، ثم اضطرار بريطانيا الى اصدار الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، الذي فرض قيودا على هجرة اليهود الى فلسطين وشرائهم الاراضي فيها ، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية ، « عدل » الصهيونيون طلباتهم ، قدعوا في اجتماع عقده في فندق بلتيمور في نيويورك ، سنة ١٩٤٢ ، الى اقامة « كومنولث يهودي » في فلسطين ، وذلك من خلال تحويل حق المراقبة على الهجرة الى البلد واستغلال الاراضي فيه الى الوكالة اليهودية . وقد حظيت قرارات اجتماع بلتيمور ، فيما بعد ، بتأييد مختلف المؤسسات والاجهزة الصهيونية . غير ان الصهيونيين تجاوزوا ذلك المطلب مع انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين . وعندما صدر عن الامم المتحدة سنة ١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين ، واقامة دولتين فيها ، عربية ويهودية ، رحب الصهيونيون به ، وراحوا يستعدون للاعلان عن اقامة دولتهم ، الى ان تم لهم ذلك في منتصف ايار ١٩٤٨ .

ومع اقامة اسرائيل وتثبيت قواعدها ، بالحصول على الاعتراف الدولي بها ، واحكام سيطرتها على ذلك الجزء من فلسطين الذي احل سنة ١٩٤٨ ، ثم توقيع اتفاقيات الهدنة مع الدول العربية ، طرأ تغيير ملحوظ ، نحو الاسوأ ، على وضع المنظمة الصهيونية العالمية خاصة ، والموقف من الصهيونية عامة . فقد ادت اقامة الدولة اليهودية الى ظهور اراء وتبلور وجهات نظر جديدة بين الصهيونيين والاسرائيليين ، مفادها ان مع انشاء اسرائيل لم تعد هناك ضرورة لحركة صهيونية ، وما على الصهيوني المخلص الا الهجرة الى الدولة اليهودية ، باعتبار ان هذا هو واجبه الرئيسي . ولم تحظ وجهات النظر هذه ، على كل حال ، بتأييد الكثيرين ، الا ان التمسك بها من قبل مجموعة من الزعماء الاسرائيليين البارزين ، كان على رأسهم بن - غوريون نفسه ، لم يساهم في الاعلاء من شأن الحركة الصهيونية عامة . كما ساعد على تقوية هذا الاتجاه انتقال معظم صلاحيات الاجهزة الصهيونية ، ومعها مركز الثقل الصهيوني ، الى اسرائيل نفسها ، بوزاراتها ومؤسساتها واجهزتها المختلفة ، وظهر كأن الحركة الصهيونية بأسرها تحولت الى مجرد هيئة تابعة لاسرائيل ، التي تشرف عليها وتتحكم في نشاطها . ووجد هذا الاتجاه تعبيراً واضحاً عنه في قرارات المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين ( ١٩٥١ ) ، وهو اول مؤتمر صهيوني يعقد بعد اقامة اسرائيل في القدس ، التي نصت على « ان مهمة الصهيونية هي : تدعيم دولة اسرائيل ، جمع الشتات في ارض - اسرائيل وتأمين وحدة الشعب اليهودي » .

غير ان هذه النظرة تجاه الصهيونية لم تدم طويلاً . فمع تراكم المشكلات المختلفة ، الداخلية والخارجية ، في وجه اسرائيل ، سواء كانت تلك التي نجمت عن الحاجة الى بناء مرافقها المختلفة واستيعاب المهاجرين فيها ، او الاخرى التي سببها الحصار العربي للدولة اليهودية ، برزت ضرورة الاستعانة بعوامل خارجية ، وفي مقدمتها يهود العالم ، لايجاد الحلول المناسبة . ولذلك عادت اهمية الحركة الصهيونية الى الظهور مجدداً ، باعتبارها حلقة الوصل بين اسرائيل ويهود العالم وغيرهم من القوى التي يمكن ان تؤيد اسرائيل ، او التي تحتاج تلك الى مساعدتها . ومع تعمق العداء العربي لاسرائيل ، وازدياد المخاطر التي تواجهها حدة ، برزت ايضا الحاجة الماسة الى المساعدات الخارجية الدائمة ، وتقوى شعور الاعتماد على القوى الخارجية ، اليهودية وغيرها . وفي الوقت نفسه ، تبلور كذلك ما يمكن وصفه بأنه اساس « عقيدة » صهيونية متجددة ، مفادها ان لا بد لاسرائيل ، لكي تستطيع العيش في منطقة معادية لها ، من دعم قوتها على كافة الاصعدة ، وخصوصاً البشرية ، من خلال الاتجاه الى تهجير اكبر عدد ممكن من يهود العالم اليها .

كانت هذه هي الاسس النظرية او الاتجاهات الفكرية ، في ما يتعلق بتأمين



مستقبل اسرائيل وضمان وجودها ، التي سادت يهوديا وصهيونيا واسرائيليا ، عشية حرب حزيران ١٩٦٧ . اما نتائج تلك الحرب ، التي اسفرت عن احتلال اسرائيل لمناطق عربية شاسعة ، فقد جاءت ايضا بمثابة دعم لا مثيل له لوجهة النظر القائلة ان الوقت قد حان لبناء اسرائيل الكبرى القوية ، التي لن يستطيع جيرانها التعرض لها بعد اليوم ، وبحيث لن يمر وقت طويل الا ويضطرون للاعتراف بها . ولتحقيق ذلك لا بد ، بالطبع ، من الاستمرار في تقوية العلاقة بين اليهود والصهيونية واسرائيل ، كأن الثلاثة وحدة لا تتجزأ ، تواجه المصير نفسه ، والعمل على بعث الصهيونية ودعمها مجددا ، بواسطة تقوية الاستيطان في المناطق المحتلة حديثا . ووجدت هذه الاتجاهات تعبيراً واضحاً عنها فسي قرارات المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ، المنعقد في القدس سنة ١٩٦٨ ، والذي صاغ « اهدافا » جديدة ، اكثر وضوحا ، للحركة الصهيونية ، بعد ان كان الحديث في السابق يدور عن « مهمات » لها . وتحدد تلك الاهداف - التي نشرت كـ « برنامج القدس لسنة ١٩٦٨ » ، على وزن برنامج بازل لسنة ١٨٩٧ - مهام الصهيونية بالعمل على « تدعيم دولة اسرائيل القائمة على نبوءة الانبياء في العدل والسلام » ، من خلال الايمان بـ « وحدة الشعب اليهودي ومركزية دولة اسرائيل في حياة الشعب » . ولأجل هذا ينبغي ايضا العمل على « المحافظة على خاصية الشعب بتطوير التربية اليهودية والمعبرية وبث القيم الروحية والتربوية اليهودية » و « الدفاع عن حقوق اليهود في الاماكن التي يقيمون فيها » وذلك كله ليس الا نوعا من المقدمات ، او الاستعداد ، لتحقيق الهدف الاكبر والاسمى ، وهو « تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي ارض - اسرائيل بالهجرة من جميع البلاد » .

وبغض النظر عما اذا كان تحقيق ذلك الهدف النهائي ، اي تهجير كل يهود العالم الى اسرائيل واستيعابهم فيها ، ممكنا او غير ممكن ، من الواضح ان السعي لتحقيقه ، او الالتزام العلني به على الاقل ، لا يترك لدى الصهيونيين مجالا كبيرا للتفكير في امكانية الانسحاب من الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، او من معظمها على الاقل ، مهما قدم العرب من عروض مغرية في هذا الصدد . فتلك المناطق ضرورية ومطلوبة لتحقيق هدف صهيوني كبير ومهم : « تجميع » المزيد من ابناء « الشعب اليهودي » - ورسميا : كلهم - فيها ، وان لم يكن ذلك ممكنا الان ينبغي ابقاء هذه الامكانية مفتوحة بالنسبة للمستقبل او ، على الاقل ، استغلالها لاثارة حماسة الصهيونيين واستقطابهم . وذلك للاحتفاظ بالسيطرة الاسرائيلية على تلك المناطق . وبلغت اكثر وضوحا ، يمكن القول ان الحركة الصهيونية كانت قد اتخذت قرارها الرسمي والعلني بعدم ارجاع المناطق المحتلة خلال حرب ١٩٦٧ ، او معظمها على الاقل ، الى العرب . بعد مرور بضعة اشهر فقط على انتهاء تلك الحرب . وهذا المرفق يؤدي ، ببساطة ، الى رفض

اسرائيلي لمعادلة الانسحاب - وخصوصا الانسحاب الشامل - مقابل السلام ،  
المطروحة كأساس للتسوية السياسية في الشرق الاوسط .

### بين اليهود والصهيوتية

ان صياغة اهداف الصهيونية على الشكل الذي اوردناه ، وخصوصا تلك  
النواحي منها التي تكاد توحى كأن لا فرق هناك بين الصهيونية واليهودية ، او  
كأن الاولى ليست الا امتدادا للثانية وتجسيذا عصريا وحديثا لها ، لم تتم صدفة ،  
بل جاءت نتيجة لمعارك عديدة ومستمرة ، على مختلف الاصعدة ، شنتها  
الصهيونية بهدف السيطرة على اليهود واليهودية ، وربطهم بعجلتها ، ثم  
اخضاعهم لشقيقتها . وعلى الرغم من ان هذه المعركة لم تحسم نهائيا حتى الان ،  
لا بد من القول ان الصهيونية احرزت فيها انتصارات لا بأس بها ، مما يقوي من  
سلف الصهيونيين وغرورهم ، ويعمق رفضهم .

والمعركة الداخلية بين الصهيونية واليهود ، المخفية حينا والظاهرة احيانا ،  
لم تكن سهلة او هادئة ، والانتصارات الصهيونية فيها لم تسجل خلال ليلة  
وضحاها ، بل انها على العكس كانت معركة طويلة ومتشعبة ، وعمليا عبارة  
عن معارك صغيرة متعددة على اصعدة مختلفة ، تدخلت فيها عوامل خارجية  
عدة لمصلحة الصهيونيين ، وساعدتهم على كسب معظمها ، فانطلقوا من تلك  
المكاسب للتدليل على « اهمية » الصهيونية و « ضرورتها » بالنسبة لليهود .

كانت « الحرب » بين الصهيونية واليهود ، التي نشبت اساسا نتيجة لاعراض  
قطاعات يهودية واسعة عن القبول بالفكرة الصهيونية او الانخراط في سلك  
اتباعها او التطوع لمساعدتها ، قد بدأت في مرحلة مبكرة من تاريخ النشاط  
الصهيوني المنظم . فهرتسل ، مثلا ، اضطر الى عقد المؤتمر الصهيوني الاول في  
بازل ، بدلا من ميونيخ ، كما كان مقررا اصلا ، لان الحاخامين اليهود هناك  
ابدوا معارضة شديدة لعقد مثل ذلك المؤتمر في مدينتهم . كما ان الرجل  
ومنظمته لم يستطيعوا ، خلال مراحل نشاطهم الاولى ، حمل الكثيرين من زعماء  
اليهود ووجهاتهم ، في اكثر من بلد اوروبي ، على تأييدهم ، رغم الجهود المضنية  
التي بذلت في سبيل ذلك . بل ان هرتسل اضطر حتى الى الاعلان في المؤتمر  
الصهيوني الثاني ، بناء على نصيحة ساعده الايمن الدكتور ماكس نورداو ،  
ان لا بد للصهيونية من العمل على « احتلال الطوائف اليهودية » ، وذلك ردا على  
المعارضة التي ابدتها تلك الطوائف وزعمائها للصهيونيين وفكرتهم . كما منيت  
بفشل ذريع ، بشكل خاص ، معظم محاولات القيادة الصهيونية الهادفة الى  
حمل اثرياء اليهود على دعم النشاط الصهيوني ماليا . ويمكن القول ان  
الصهيونية ، منذ بداية نشاطها المنظم في مطلع الثمانينات من القرن الماضي

وحتى الحرب العالمية الاولى ، لم تكن عمليا الا حركة هامشية من حيث وزنها بين اليهود ، بدلالة انعدام تأثيرها ، على الاقل ، على التغييرات السكانية اليهودية المهمة التي وقعت انذاك . فخلال تلك الفترة ، ولاسباب لا مجال لشرحها هنا ، هاجر من روسيا القيصرية وبولوتيا الخاضعة للحكم القيصري - وهما البلدان اللذان ضمما انذاك اكبر التجمعات السكانية اليهودية في العالم - نحو مليونين ونصف مليون يهودي ، اتجهوا جميعا الى اميركا ( وارسوا بذلك الاسس لتجمع يهودي اخر هناك ، نما وكبر حتى اصبح اليوم اكبر التجمعات اليهودية في العالم، بعد ان وصل عدد افراده الى حوالي ٦ ملايين نسمة، يشكلون قرابة ٤٠٪ من اليهود في العالم ) ، بينما توجه نحو ٥٠ الف مهاجر فقط الى فلسطين . وقد عادت اكثرية اولئك المهاجرين الذين دخلوا فلسطين ونزحت ، على كل حال ، عن البلد فيما بعد ، خصوصا خلال الحرب العالمية الاولى . كذلك ينبغي التنويه ان الصهيونية ، كعقيدة ، لم تكن منتشرة بين اليهود انذاك ، اذ ان الافكار الدينية المورعة ، المعادية حكما للصهيونية ، او الثورية او الاشتراكية ، خصوصا باتجاهاتها البوندية ، كانت هي الطاغية لدى الشباب اليهودي ، على الاقل داخل التجمع اليهودي الكبير في روسيا القيصرية وبولوتيا .

الا ان تغييرا ما طرأ على مركز الصهيونية بين اليهود مع نهاية الحرب العالمية الاولى ، بصدور وعد بلفور والتزام بريطانيا بموجبه بانشاء « وطن قومي » لليهود في فلسطين ، ثم اقرار الانتداب البريطاني على البلد ، واساسه التعهد بالمساعدة على تنفيذ المشروع الصهيوني ، من قبل عصبة الامم ، مما ساعد الصهيونيين على الادعاء ، امام اليهود قبل غيرهم ، ان حركتهم « محترمة » وتحظى بتأييد عالمي . ولكن حتى ذلك لم يجد الصهيونية نفعا كبيرا ، ولم يساهم في اقناع الجماهير اليهودية بتأييدها او دفعهم الى المشاركة في عملية بناء « الوطن القومي » ، الذي كان يمتنى بالفشل ، في مراحلها الاولى ، لاعراض اليهود عن دعمه ، بشريا وماديا . وكان احجام اليهود عن دعم المشروع الصهيوني ، حتى بعد « تينيه » من قبل الهيئة الدولية الرئيسية انذاك ، عصبة الامم ، قد وصل حدا ظهر مغه كإن على التاريخ اليهودي ان يتخذ مسارا اخر، لكي يكتب لذلك المشروع النجاح . وهذا ما تم فعلا ، وذلك بتكاتف عدد مسن العوامل المختلفة ، في بلدان عدة ، وعلى اكثر من صعيد ، ساهمت بمجموعها في الاساءة الى اوضاع اليهود عامة ، وفتحت بذلك الطريق امام الصهيونية للافادة منها من جهة اخرى .

فخلال النصف الاول من العشرينات مثلا ، فرضت قيود شديدة على الهجرة من أوروبا الى اميركا - وهي انذاك محط انظار المهاجرين اليهود ، خصوصا من أوروبا الشرقية - بينما بقيت فلسطين البلد الرئيسي المفتوح لاستيعاب مثل اولئك المهاجرين ، ضمن سياسة انشاء « الوطن القومي » اليهودي . ولذلك ،

وعلى الرغم من سوء اوضاع « الوطن القومي » الاقتصادية ، وقلة الموارد المالية الصهيونية ، لم تجد اعداد من المهاجرين اليهود مناصا من الاتجاه الى فلسطين . وحتى اواخر العشرينات كانت ايضا - على صعيد اخر - قد « افلست » معظم الحركات الليبرالية او « الوطنية المحلية » اليهودية ، غير المتجانسة مع الصهيونية او المناوئة لها احيانا ، التي كانت قد نشأت بين يهود اوروبا الشرقية ، خصوصا بعد ان انهار نظام ضمانات الدفاع عن الاقليات ، ومن بينها اليهود ، في تلك الدول ، كما نصت عليه اتفاقيات السلام المختلفة التي وقعت بعد الحرب العالمية الاولى ، اثر تفشي الروح القومية بمنحها للشوفيني في تلك الدول ، لاسباب عديدة . وقد سهل ذلك على الصهيونية مقارعة التيارات المهاجرة اليهودية والادعاء بانها الحركة الوحيدة « الاصلية » التي ينبغي على اليهود التشبث بها . وكانت قد تمت ، خلال الوقت نفسه ايضا ، عملية تصفية البوند في الاتحاد السوفييتي ، بينما فشل ، من ناحية ثانية ، مشروع توظيف اليهود في بيريوبيجان .

كذلك ازدادت اوضاع اليهود سوءا في اوروبا عامة ، منذ مطلع الثلاثينات ، نتيجة لصعود النازية في المانيا ، والتي سرعان ما امتد تأثيرها العنصري الضار الى اكثر من بلد اوروبي . صحيح ان الصهيونية استفادت من النازية في حياتها ومماتها ، وذلك بعقد اتفاقية الـ « هغراه » مع النازيين اثناء حكمهم ، في الثلاثينات ، ثم اتفاقية التعويضات مع المانيا الغربية في الخمسينات ، ولكن الفائدة السياسية والدعائية و « العقائدية » كانت اعم واشمل . فعمليات الابادة النازية لليهود اثارت عظفا عليهم لدى شعوب وحكومات عدة ، سرعان ما استغلته الصهيونية لخدمة اهدافها ، بالتشديد على ضرورة اقامة دولة يهودية في فلسطين لحل المسألة اليهودية ، وطلب مساعدة دول العالم لذلك . ولقد لعبت عبرة تجربة اليهود مع النازية دورا مهما في اقامة الدولة اليهودية ، لدرجة يمكن معها القول انه لولا النازية لما قامت اسرائيل . غير ان عبرة تلك التجربة ، من حيث تدعيمها لمركز الصهيونية بين اليهود ، كانت اهم واعمق ، اذ قدمت مثالا كلاسيكيا دائما يضرب للتدليل على صحة ادعاءات الصهيونيين بضرورة اقامة دولة يهودية ، ولو على الاقل من باب الحاجة الى وجود ملجأ لليهود ، يمكنهم الهرب اليه ان تعرضوا للاضطهاد في اي بلد من العالم ، ولذلك لا يحق لاي يهودي معارضة قيام مثل تلك الدولة ، حتى وان كان لا ينوي العيش فيها .

ومنذ قيام اسرائيل ، قدم العرب « الببيع » الذي استغلته الصهيونية واسرائيل ، لكسب عطف العالم واليهود عليها ، وجذبهم اليها . فاسرائيل ، مثلا ، لم تكن عمليا ، منذ انشائها وحتى اليوم ، عرضة لخطر جدي من قبل العرب ، قد يؤدي الى القضاء عليها ، نتيجة لميزان القوى ، المحلي والعالمي ،

الذي كان مختلا لصالحها في اغلب الاوقات . الا أن بعض السياسات العربية، بفجاحتها وغطرستها وضيق افقها وتصريحاتها العنصرية ، ذات الطعم الابادي احيانا - والكل طبعا كلام في كلام - قدمت ذخيرة لا غنى عنها للدعاية الاسرائيلية، مكنتها من تحويل التهديد العربي الموهوم الى تهديد واقعي، في اذهان الرأي العام العالمي ، مما ساعدها بالتالي على كسب العطف والتأييد والدعم لسياساتها ، وجذب المزيد من اليهود الى الالتفاف حولها . وساعد في ذلك ايضا عرض الدعاية الصهيونية والاسرائيلية للصدامات العسكرية مع العرب كأنها اعتداءات وحشية وحاقدة ، من قبل قوى متفوقة عدديا بشكل هائل ، استطاع الاسرائيليون احباطها بواسطة « عبقريتهم » الفائقة فقط ، بينما الحقيقة كانت عكس ذلك ، إذ ان اسرائيل هي التي كانت تبادر الى القيام بمعظم تلك الاعتداءات ، وعلى الاقل الكبيرة منها ، كما ان قواتها في الميدان فاقت ، عدديا، قوات العرب في اكثر من معركة . وعلى صعيد اخر ، ساهمت ايضا في دعم مركز اسرائيل يهوديا ، المبالغة في عرض مكاسبها وانجازاتها ، بشكل سدد معها كأنها « خارقة » ، لا يمكن الا لدولة « مثالية » القيام بها ، مما خلق شعورا بالفخر والاعتزاز لدى العديد من اليهود بـ « دولتهم » ، واعتبروها برهانا على أنهم ، « مثل باقي الشعوب » ، قادرون على إقامة كيان سياسي مستقل خاص بهم .

والواضح ان تلك العوامل ، وغيرها ، ادت الى تعزيز مركز اسرائيل ، وبالتالى الصهيونية ، بين يهود العالم بشكل لا سابق له ، مما انعكس في دعم مادي وسياسي لا بأس به ، قدمه اولئك لاسرائيل . ونتيجة لذلك ، ضعف بالطبع شأن الحركات المناوئة للصهيونية بين اليهود ، واضمحلت تدريجيا ، بعد ان كاد النشاط المعادي للصهيونية يصبح وقفا على افراد فقط . ويظهر هذا الاتجاه واضحا بشكل خاص بين اليهود الاميركيين ، الذين تعول اسرائيل كثيرا على تأييدهم ، ويهبون عادة كرجل واحد لنصرتها ، عندما يدخل في روعهم ان ذلك ضروري . وهؤلاء لا يكتفون فقط ، من اجل تأييد اسرائيل باستغلال كل ما لديهم من نفوذ وامكانات ، وهي ليست قليلة ، بل أنهم لا يتورعون ايضا عن شن حملات التشهير ضد اي يهودي قد يعرب عن اراء لا تتجانس مع المواقف الاسرائيلية ، باعتبار ان « واجب » اليهودي هو تأييد « الحكومات الشرعية » لاسرائيل ، مهما كانت سياستها ، لا « التفلسف عليها » . وعند الضرورة ، يوسع ايضا اولئك اليهود ، او بعضهم على الاقل ، حملات التشهير لتطال حتى اكبر المسؤولين في بلادهم ، اذا اعتقدوا ان اولئك المسؤولين « مقصرون » في دعمهم لاسرائيل ، حتى يكاد يبدو احيانا كأنهم يتصرفون من خلال الاعتقاد ان الولايات المتحدة وسكانها ملك لهم ، وما على اولئك الا التصرف وفق مشيئتهم في مساندة اسرائيل وتقديم المعون لها . وقد استطاع اليهود الاميركيون ، بواسطة استقلال نفوذهم ، على ارضية تتجانس السياسة الاسرائيلية مع المصالح الامبريالية

الاميركية في المنطقة ، تأمين دعم الولايات المتحدة لاسرائيل ، كما لم تدعم اية دولة اخرى . صحيح ان بعض عقلاء القوم بين اولئك اليهود يخشون عواقب هذا التصرف ، ويتحسبون من المخاطر التي قد تواجههم ، في ذلك اليوم الذي قد يبدو فيه ان مصالح اميركا لم تعد متجانسة مع مصالح اسرائيل ، ان تشبثوا بمواقفهم تلك . كما يتخوف بعضهم من ظهور اللاسامية ، اذا نشأ وضع يمكن ان يدفع اليهود الى التصرف بشكل يعتبر برهانا على تفضيل اولئك اليهود المصالح الاسرائيلية على مصالح بلدهم ، اميركا . ولكن هذا كله متعلق ، الى حد كبير ، بمدى ما يسمى « الضغط العربي » على اميركا وفعاليتها . وليس هناك مبرر للاعتماد على ذلك كثيرا ، اذ يبدو ان بعض العرب يخشى من نتائج الضغط على اميركا ، بواسطة قطع امدادات النفط عنها او سحب الودائع من بنوكها ، مثلا ، اكثر مما يقلق الاميركيون من امكانية ايقاف تلك الامدادات او سحب تلك الودائع .

واسرائيل ، وحكومتها الحالية بشكل خاص ، تعول كثيرا على يهود العالم ، وعلى رأسهم الاميركيين ، لمنع اي ضغوط قد تمارس عليها لحملها على اتباع سياسة لا تريدها ، لدرجة دفعت بيغن الى التصريح مرة بما معناه انه اذا وقف يهود العالم الى جانب اسرائيل ، لن تستطيع اية قوة فرض ارادتها عليها - ولا على بيغن . وليس لدى بيغن ، على كل حال ، مبرر للتخوف من امكانية تصرف اليهود على عكس ما يبتغيه ، نظرا لاحكام السيطرة الصهيونية عليهم ، مما يضمن استمرار تأييدهم ، مع امتداداتهم المختلفة ، لك « حكومات الشرعية » لاسرائيل .

وهذا عنصر آخر في مركب الرفض الاسرائيلي .

### التصلب سيد الاحكام

رافق تبلور العوامل التي قدمناها تطور اخر ، لا يقل اهمية عنها في دعمه للرفض الاسرائيلي ، تمثل في سيطرة العناصر الاكثر تصلبا ، تدريجيا ، على الصهيونية واسرائيل . وهذا العامل الثالث تغذى من العاملين السابقين واثر فيهما وتبلور بمحاذاتهما ، من خلال تفاعل تلك العوامل الثلاثة مع بعضها البعض .

وسيطرة التصلب والمتصلبين على الصهيونية عموما لم تتم صدفة ، بل جاءت ايضا تدريجيا ، نتيجة لمعارك صهيونية - يهودية داخلية او سياسية خارجية اضطر الصهيونيون الى خوضها ، على اصعدة عدة ، والاستعانة لكسبها بخدمات مجموعات متصلة النظرة اصلا ، اشتد عودها خلال خوض تلك الصراعات حتى استطاعت فرض وجهة نظرها ، او نواح مهمة منها على الاقل،

على الصهيونية بأسرها . كما ان بعض تلك المجموعات المتصلبة تبلورت ، على صعيد آخر ، من خلال معارضتها للسياسات الصهيونية الرسمية ، وتجريحها للزعماء الصهيونيين وأحيانا التشكيك بهم ، مما دفع هؤلاء ، في أكثر من حالة ، الى تغيير وجهات نظرهم ، او تعديلها على الاقل باضفاء شيء من المتصلب عليها ، في ضوء تلك الانتقادات . وكان ذلك قد تم ، الى حد ما ، على ارضية الصعوبات التي جابهت بناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، خلال مراحلها المختلفة ، والتي ظهر معها ، أكثر من مرة ، كأن وجهات النظر المتصلبة لم تكن دائما على غير حق . ويلاحظ في هذا الصدد وجود تيارين - مصدرين للتصلب الصهيوني ، احدهما متدين والآخر علماني ، والاول اعرق واشمل .

لم تكن الصهيونية ، في اساسها ، الا حركة علمانية ، فاليهود الذين تبنوا فكرة اقامة دولة يهودية او روجوا لها ، في بداية طريقها ، كانوا باكثرية من العلمانيين . كما ان بعض اباء الصهيونية ، وعلى رأسهم بينسكروهرتسل ، كانوا على استعداد لاقامة تلك الدولة ، أن استطلعوا ، في اي مكان اخر غير فلسطين ( او « ارض - اسرائيل » ، حسب التعريف الصهيوني ) . أما المتدينون فقد كانوا اصلا من المعادين لتلك الفكرة ، انطلاقا - على الاقل - من الاجتهادات الدينية اليهودية المختلفة ، السائدة حتى ذلك الوقت ، والقائلة ان اقامة دولة يهودية بقوى بشرية ليست الا كفرا ، باعتبار ذلك العمل تدخلا في مشيئة الله ، فهو وحده الذي يقرر متى ينبغي انقاذ اليهود ، فيرسل المسيح - المخلص لجمع شتاتهم ، واقامة كيان خاص بهم ، قبيل اقتراب العالم من نهايته . ولكن الفكرة الصهيونية حظيت ، على الرغم من ذلك ، بتأييد بعض دوائر اليهود المتدينين ، وان تم ذلك من خلال اصدار « فتاوى » جديدة مكلمة للسابقة ، مفادها ان على الرغم من صحة تلك الاجتهادات ، لا بأس من « مساهمة » دنيوية في عملية الخلاص تلك ، ولا مانع من « مساعدة » الله على ارسال مسيحه ، بواسطة البدء بتجميع اليهود في « ارض - اسرائيل » ، استعدادا لعملية الخلاص تلك .

ومع قبول بعض دوائر المتدينين اليهود بالفكرة الصهيونية ، احتدم الخلاف بينهم وبين المتدينين غير الصهيونيين من ناحية ، والصهيونيين العلمانيين من ناحية اخرى ، وذلك منذ بداية النشاط الصهيوني المنظم في فلسطين ، نتيجة لسعيهم الدؤوب ، والمتجدد دائما وابدا ، الى فرض وجهات نظرهم على الآخرين . فالتيار الصهيوني المتدين بلور ، مع ارساء اساسه التنظيمية ( على شكل منظمة المزارحي العالمية ، ثم الحزب الديني القومي - المفدال - في اسرائيل ) ، عقيدة خاصة به ، خلاصتها ان اليهود والتوراة وارض - اسرائيل هي وحدة لا يمكن تجزئتها ، بل تكاد تكون الشيء نفسه . وقدر اليهود هو التمسك بالتوراة وتعاليمها ، والسعي الى المحافظة عليها وتعميقها ثم نشرها وتطبيقها ، والاحسن ان يتم ذلك في دولة يهودية تقام في « ارض - اسرائيل » ،

استعدادا ليوم الخلاص ومجيء المسيح . والوجه الاول من هذه التعاليم ، المتعلق بالمفهوم الديني لليهودية ، كان عمليا عاملا مشتركا بين اليهود المتدينين باسرههم ، ولذلك لم تنجم عنه اية اشكالات ، اما الثاني ذو المنحى الصهيوني المؤيد لاقامة دولة يهودية ، فقد اثار بينهم خلافات شديدة ، فرقتهم وشطرت معسكرهم الى ثلاثة تيارات متناحرة . ولذلك ظهرت ، الى جانب المزراحي ، منظمتان - تياران متدينان جديدان ، معاديان في منطلقاتهما للصهيونية ، هما اغودات يسرائيل وناثوري كارتا . ومنذ مطلع هذا القرن لا يزال الصراع محتدما بين هذه التيارات الثلاثة ، على الرغم من ان الحسم تم تدريجيا لمصلحة المفهوم الصهيوني ، على حساب الديني . فقد انضمت المزراحي ، مع تأسيسها ، الى المنظمة الصهيونية العالمية ، معتبرة نفسها جزءا من القوى الساعية الى اقامة دولة يهودية ، بينما خففت اغودات يسرائيل ، مع مرور الزمن ، من عداتها للصهيونية ، وكانت - بعد اقامة اسرائيل - على استعداد ، في اكثر من مناسبة ، لتأييد الحكومات الاسرائيلية المختلفة ، التي وافقت على تقديم تنازلات لها في المجال الديني ، او منحها منافع اقتصادية مختلفة . اما ناثوري كارتا فلا يزالون عند عداتهم الشرس للصهيونية ، معتبرين اياها حركة كافرة ، كما يرفضون الاعتراف باسرائيل كدولة ويتحاشون التعامل معها بهذه الصفة . الا ان هذه المجموعة تكاد تكون عديمة التأثير على اليهود عامة او اسرائيل ، واذا كان النظام الاسرائيلي خاصة ، والاسرائيليون عامة ، لا يبديون عداة تجاهها ولا يتخذون اجراءات بحقها ، فان ذلك نابع ، الى حد كبير ، من الشعور ان اتباعها هم يهود من الطراز القديم ، لا يزالون يعيشون في القرون الغابرة ، ولذلك لا يجوز القاء اللوم عليهم في ما يفعلونه .

ولم يكتف الصهيونيون المتدينون ، على كل حال ، بذلك الصراع الذي خاضوه داخل المعسكر اليهودي المتدين ، بهدف تطويعه للصهيونية ، ولا بالكاسب التي حققوها في هذا المجال ، وهي التي دعمت ايضا مركزهم داخل الحركة الصهيونية نفسها ، وانما دخلوا كذلك في نزاع مع زملائهم الصهيونيين العلمانيين . فبالنسبة للصهيونيين المتدينين لا يمكن ان تقام دولة يهودية وتحافظ على بقائها الا وفقا لتعاليم التوراة - كما يفسرونها هم بالطبع - التي ينبغي ان تسيطر على كافة نواحي الحياة في تلك الدولة ، من احوال شخصية او تعليم او ثقافة او حتى حياة الفرد الخاصة . وللمتدينين مبرراتهم في ما يطرحونه : لقد حافظت تعاليم التوراة على بقاء اليهود اكثر مما حافظوا هم عليها ، ولن تكون هنالك دولة يهودية حقيقية دون الاستمرار في التمسك بتلك التعاليم وتطبيقها . ولم يكن العلمانيون ، على كل حال ، على استعداد للقبول بوجهة النظر تلك ، او على الاقل بكل الطلبات النابعة منها ، ومنهم حتى من قاومها بشراسة . الا ان التركيبة السياسية للمنظمة الصهيونية العالمية ، ثم اسرائيل ،



التي عرف المتدينون كيف يستغلونها لتقوية نفوذهم ، ساعدتهم على تحقيق الكثير من طلباتهم وحمل الغير على القبول بوجهات نظرهم او ، على الاقل ، محاولة التعايش معها . فالمنظمة الصهيونية العالمية واسرائيل تتميزان ، لاسباب لا مجال لعرضها هنا ، بكثرة عدد الاحزاب والقوى السياسية العاملة في اطاريهما ، بحيث ان اللجان التنفيذية الصهيونية والحكومات الاسرائيلية المختلفة كانت دائما عبارة عن ائتلاف بين قوى مختلفة . وعند تشكيل تلك الائتلافات كان المتدينون على استعداد ، دائما ، لمؤازرة اي فريق والائتلاف معه اذا ايسر استعدادا لتقديم تنازلات لهم في مجال الدين ، فحققوا بذلك انتشارا متزايدا لمفاهيمهم الدينية ، وبعضها مترممت للغاية .

صحيح ان الصهيونيين المتدينين لم يستطيعوا ، في نهاية الامر ، خلق دولة يهودية متدينة ، بدلالة ان اكثرية سكان اسرائيل هي من العلمانيين ، ولكنهم من خلال امتداد نفوذهم الى مجالي التعليم والثقافة على الاقل ، استطاعوا تثبيت بعض مفاهيمهم في وعي كافة الصهيونيين والاسرائيليين ، حتى وان كانوا من اكبر العلمانيين ليبرالية . ومن ابرز هذه المفاهيم - التي تهمنا هنا - ذلك الذي ينص على « العلاقة التاريخية بين اليهود وارض - اسرائيل » الذي أصبح ، لكثرة التركيز عليه ، جزءا لا يتجزأ من الوعي الصهيوني ، متدينا كان أم علمانيا ، ونقطة الانطلاق العقائدي الصهيوني الاساسية التي لا تجوز مناقشتها ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ليسوا يهودا ، من الناحية الدينية على الاقل ، الا بالاسم . والواضح ان ترسيخ مثل هذه المفاهيم يلعب دورا بالغ الاهمية ، بل يكاد يكون اساسيا ، في دعم التصلب والرفض الاسرائيليين . فاذا كانت « ارض - اسرائيل » ملكا ، لليهود ، وعلاقتهم بها « تاريخية » و « ازلية » و « ربانية » ، مستمدة من الله والتوراة ، لا يجوز مطالبتهم بالانسحاب من اجزاء منها ، كانت قد اعيدت الى سيطرتهم ، بل ان تلك المطالب ، من قبل العرب او غيرهم ، هي عمل « غير اخلاقي » . ومثل هذا الرفض ، المستند الى عقيدة كهذه ، لا يمكن بالطبع ان يكون تكتيكيا فقط ، بل انه اعرق بكثير .

اما تيار - مصدر التصلب الصهيوني الاخر فانه علماني اساسا ، ويتمثل تنظيما في منظمة الصهيونيين الاصلاحيين اليمينيين ، وهم ابناء حزب حبروت ، المشريك الاكبر في ليكود الحاكم حاليا في اسرائيل . فقد بلور هؤلاء من خلال نشاطهم في المعارضة ، منذ منتصف العشرينات وحتى وصولهم الى الحكم في اسرائيل السنة الماضية ، اي خلال ما يزيد على نصف قرن ، نظرية صهيونية خاصة بهم لا تشجع كثيرا على الوصول الى تسوية مع العرب ، بل لا يبدو انها تسعى اليها ، لعدم ايمانها بها . وقد جاءت تلك النظرية ، الى حد ما ، كنوع من الرد ايضا على السياسات التي اتبعتها المنظمة الصهيونية العالمية خلال الانتداب البريطاني على فلسطين او الحكومات الاسرائيلية فيما بعد . أما

خلاصة تلك النظرية فهي ان العرب عموما ، والفلسطينيين منهم خصوصا ، لم ولن يوافقوا على اقامة دولة يهودية في فلسطين وجوارها ، بل انهم على الرغم من الخلافات فيما بينهم متحدون ، على الاقل ، في معارضتهم لتلك الفكرة . ولذلك لا فائدة من المحاولات الهادفة الى الحصول على موافقتهم تلك ، ولا ضرورة من ناحية ثانية ، لاختفاء حقيقة اهداف الصهيونية عنهم . ف « حقوق اليهود في ارض - اسرائيل » قد حظيت بالاعتراف بها من قبل عدد لا بأس به من دول العالم ، ولم يبق هنالك الا العمل لتحقيقها ، وذلك بالسعي الى اقامة دولة يهودية في « ارض - اسرائيل التاريخية » بكاملها ، وعلى كلتا صفتي الاردن . وليس في هذا ، على كل حال ، ما قد يسيء الى العرب كثيرا ، اذ ان لديهم اراض شاسعة اخرى وعددا من الدول العربية ، التي يمكن ان تستوعب الفلسطينيين والاردنيين منهم . وفي ضوء مقاومة العرب للصهيونية ، لا سبيل لتحقيقها الا باقامة الدولة اليهودية عنوة وتقويتها ، من خلال خلق « جدار حديدي » لا يقوى العرب على اختراقه ، فلا يجدون مناصا ، في نهاية الامر ، من الاعتراف بتلك الدولة ، شاءوا ام ابوا .

ولم تحظ وجهات النظر هذه ، على كل حال ، بتأييد اكثرية الصهيونيين في الماضي ، فبقي المنادون بها اقلية داخل الحركة الصهيونية ، ثم داخل اسرائيل ، لفترة طويلة . الا ان صراع الصهيونية واسرائيل مع العرب ، المستمر منذ عدة اجيال ، على ما تخلله من صعوبات ، ساهم في تفشي وجهات النظر تلك وازدياد اعداد المؤمنين بها او ببعض نواحيها ، خصوصا بعد ان ظهر ، من خلال تجارب عدة ، ان تلك المواقف هي الاكثر ملاءمة لتحقيق الصهيونية والتعامل مع العرب . وخلال المراحل المختلفة لبناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، ثم اسرائيل ، اضطرت القيادة الصهيونية ، اكثر من مرة ، الى تغيير مواقفها فعلا والخذ بنصائح المتصلبين ، لدرجة دفعت البعض الى القول مرة ان سر كره بن - غوريون الشديد لليمينيين وزعيمهم جابوتينسكي كامن في حقيقة ان جابوتينسكي ومؤيديه هم الذين كانوا يطلقون الافكار العملية الصهيونية ، وبن - غوريون واتباعه هم الذين كانوا ينفذونها . ومع مرور الوقت اصبح المتطرفون هم المقبولين والزعماء الطبيعيين للمستوطنين الصهيونيين ، لدرجة ان بيغن ، زعيم اتسل ( الارغون ) ، ويتسحاق شامير ، أحد زعماء ليحي ( جماعة شتيرن ) ، اللذين ما كان زعيم صهيوني يحترم نفسه على استعداد ، مثلا ، للاجتماع بهما سنة ١٩٤٧ ، علنا على الاقل ، نظرا لتشنجهما وتصلبهما وضيق افقهما ، وبالتالي سوء سمعتهما بين اكثرية المستوطنين الصهيونيين ، احتلا سنة ١٩٧٧ ارفع منصبين في اسرائيل واكثرهما تأثيرا : الاول ، رئاسة الحكومة ، والثاني ، رئاسة الكنيسيت ( البرلمان ) . ولعل هذه الرقعة وحدها كافية للدلالة على مدى تحول مفاهيم المستوطنين الاسرائيليين ، خلال تلك الفترة

### نحو التصلب والرفض .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد . فالتصلب يدفع ، في اكثر من حالة ، نحو مزيد من التصلب ، تصعب السيطرة عليه . وهذا ما اكتشفه بيغن وصحبه ، عند وصولهم الى السلطة ، اذ عندما اضطروا ، مثلا ، الى تقديم مشروع سلام ، اثر مبادرة السادات ، وجدوا هناك من بين اتباعهم من يتهمهم بانهم « خانوا » الصهيونية ، لانهم تجرأوا على اقتراح اقامة « حكم اداري ذاتي » - بانتوستان فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولم يقوموا بالاعلان عن ضم تلك المناطق الى اسرائيل نهائيا .

ان ممثلي التيارين المتصلبين الرئيسيين ، العلماني والمتدين ، هم الذين يحكمون الان اسرائيل ويديرون دفتها ويقررون سياستها . واذ ظهر ان هناك « مرونة » احيانا في تصريحات بعضهم ، نتيجة لظروف دولية طارئة ، فليس في ذلك ما يشير الى انهم غيروا منطلقاتهم الاساسية ، التي لا تدفع الا نحو الرفض .

### قلة مدعورة ، عنصرية ومستعلية

مع بلورة الاسس والنظريات ، التي مر ذكرها ، بذل الصهيونيون ايضا جهودا كبيرة لاعادة بناء الانسان اليهودي وتكوينه ، بما يتلاءم مع تطورات الصهيونية ويساعد على تحقيق اهدافها . وكانت حصيلة ذلك النشاط خلق انسان « جديد » ذي مفاهيم غريبة ومقلوبة رأسا على عقب في اغلب الاحيان .

ولعل اول ما يلفت النظر ، في هذا الصدد ، هو قيام الصهيونيين باعادة كتابة التاريخ اليهودي وعرضه ، لليهود وغيرهم ، كانه لم يكن منذ اقدم العصور وحتى اليوم الا سلسلة متواصلة من المآسي التي لا نهاية لها من جهة ، وسعيا حثيثا من قبل اليهود انفسهم الى اقامة كيان سياسي لهم في فلسطين من جهة اخرى . والادعاء ان غير صحيحين ، على كل حال . فتاريخ اليهود عرف فترات من الرخاء والازدهار لا سابق لها ، لعل ابرزها هي تلك التي عاشوا فيها تحت حكم العرب في اسبانيا خلال العصور الوسطى ، حيث وصلت اليهودية الى قمة تطورها الروحي والثقافي . كما ان سعي اليهود ، او بعضهم على الاصح ، الى اقامة كيان سياسي لهم في فلسطين لا يعود الى اكثر من قرن مضى ، وبرز فقط مع تبلور فكرة الدول القومية ، ثم امتداد نفوذ الاستعمار الاوروبي وتعاضمه في النصف الثاني من القرن الماضي . ولكن ذلك لم يمنع الصهيونيين من التشبث بهذين الادعائين ، وبذل كل ما في وسعهما لترسيخهما .

ولتثبيت تلك المفاهيم ، تم التركيز ايضا بشكل خاص على نواح او نقاط معينة

في التاريخ اليهودي ، وعرضت بصورة لا يمكن ان يفهم منها الا ان « شعبا مختارا » ، ذا قوة « خارقة » فقط قادر على تحمل تلك الشدائد . فالنكبة النازية ، مثلا ، عرضت بشكل يكاد يبدو معه كأن اليهود لوحدهم هم الذين قاسوا على ايدي النازيين ، وذلك على الرغم من ان دولا وشعوبا اوربية عدة فقدت الملايين من ابنائها خلال الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للعدوان النازي . اما حادثة المسادة ، كمثال ايضا ، التي فضلت فيها قلة محاصرة من اليهود الموت حتى اخر رجل ، على الاستسلام للرومان ، فقد عرضت بشكل لا يمكن ان يؤدي الا الى تقوية الروح الانتحارية لدى الشباب اليهودي . وفي الوقت نفسه ، ومن ناحية اخرى ، عرضت الانجازات التي حققها الافراد اليهود ، من ابناء الشعوب المختلفة ، في حقول العلوم والادب والفنون والثقافة وغيرها من اوجه التقدم الانساني ، وكأنها جاءت نتيجة لكون محققها يهودا فقط ، دون ان تكون لها علاقة بحضارات وانجازات الشعوب التي عاشوا بينها ، او انها لم تكن نتاجا لها .

وكانت النتيجة الواضحة التي ترتبت على تلك المفاهيم ، بالنظر الصهيونية اليها ، خلق نفسية صهيونية مشوشة وغير متزنة ، لها منطقتها الخاص بها ، الحكوم بقواعد غير متجانسة بالضرورة مع تلك السائدة لدى الاخرين . ولهذا المنطق استنتاجاته الخاصة به ايضا : فاذا كان اليهود قد تعرضوا لكل تلك المآسي وحافظوا على وجودهم على الرغم منها ، لا بد ان يكونوا فعلا « شعبا مختارا » ، تميزه عن باقي الشعوب في العالم صفات حميدة عديدة . وان كان الامر كذلك ، لا بد ان يتعمق شعور الصهيونيين بـ « وحدانيتهم » و « اهميتهم » ، وبالتالي لا يمكن الا ان يصبحوا « مدالين » لا يستطيعون التعامل مع الاخرين على قدم المساواة - وهذا ما حدث فعلا . اما الوجه الاخر لهذه النفسية فيتمثل في بروز شعور الانغلاق على النفس والخوف من الاخرين وعدم الثقة بهم .

وتجد هذه النفسية تعبيرا واضحا عنها ، عند التنفيذ ، في موقف الصهيونيين والاسرائيليين من الصراع العربي - الاسرائيلي ، ونظرتهم وشروطهم المتعلقة بمشاريع التسوية السياسية المطروحة في المنطقة . فالاسرائيليون يريدون ، مثلا ، « سلاما » ولكنهم يخشون من عواقبه ، وعلى استعداد لابداء ثقتهم ببعض العرب ولكنهم يشكون بهم في الوقت نفسه . وبعضهم على استعداد للانسحاب من المناطق المحتلة ، ولكنه في الوقت نفسه يريد « ضمها » بواسطة « الحدود الامنة » . وتبدو الدوامة التي يعيشون فيها شاملة ودائمة ، كأنها تسيطر عليهم كليا ، ولا قدرة لديهم على الخروج منها ، خصوصا عندما يضعون على المحك ويطلبون بمواقف محددة ردا على اقتراحات محددة .

ومن كان في مثل هذه الحالة ، لا يستطيع الا اتخاذ القرار الاسهل الملائم  
لوضعه : الرفض .

### بين النظرية والمواقع

لم تتبلور النظريات والاسس والمفاهيم الرفضية الصهيونية - الاسرائيلية ،  
بنواحيها الفكرية او « الفلسفية » او « النفسية » في فراغ ، بل تم ذلك من خلال  
تفاعل دائم وشبه يومي مع المواقع ، الذي افرز نتائج دعمت وجهات النظر تلك .  
فالتجربة الصهيونية حققت نجاحا واضحا وملموسا على الصعيد العملي ، لا  
يمكن تجاهله . وقد طغى هذا النجاح على ابصار الصهيونيين وجعلهم يعتقدون  
انهم قادرون بـ « شطارتهم » على تحقيق المكسب التلو الاخر ، وتأمين مصالحهم،  
مهما كانت الصعوبات ، وهذا اعتقاد لا يدفع الا نحو التشبث بالرفض .

لقد حقق المشروع الصهيوني ما حققه من نجاح نتيجة لتكاتف عوامل عديدة ،  
لا تتعلق بقدرات الصهيونيين وحدهم . واول ما يظهر واضحا للعيان ، في هذا  
المجال ، الدور المهم الذي لعبته القوى الخارجية ، المثلة في الدول الاستعمارية  
الغربية الرئيسية ، الساعية الى السيطرة على العالم العربي وخيراته ، في  
تبني المشروع الصهيوني ودعمه . ولعل ذلك العامل الخارجي هو الاكثر اهمية،  
ان لم يكن الاول ، من حيث تأثيره على تحقيق المشروع الصهيوني ، اذ لولاه لما  
قامت لذلك المشروع قائمة ، على الرغم من ادعاءات الصهيونيين واليهود التي  
قد تشير الى عكس ذلك . فالصهيونيون لم يستطيعوا تحقيق اية مكاسب تذكر  
في فلسطين خلال العقود الاربعة الاولى من نشاطهم المنظم في البلد وخارجه ،  
رغم الجهود المضنية التي بذلوها في سبيل ذلك ، ولم يتغير وضعهم الا بعد ان  
قررت بريطانيا تبنيهم ، مع نهاية الحرب العالمية الاولى ، باصدار وعد بلفور .  
وخلال الثلاثين سنة التالية ( ١٩١٧ - ١٩٤٧ ) ، وعلى الرغم من الخلافات  
والمشاحنات التي كانت تحدث ، من حين الى اخر ، بين الصهيونيين  
والبريطانيين ، نما المشروع الصهيوني في فلسطين وتطور وقوي عوده تحسنت  
حماية الحراب البريطانية اساسا ، الى ان اعلن دولة سنة ١٩٤٨ . كما ان  
تلك الدولة تمتعت ، منذ قيامها وحتى اليوم ، بحماية ودعم القوى الاجنبية :  
بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ( التصريح الثلاثي ) في اوائل الخمسينات،  
فرنسا في اواخر الخمسينات واولئ الستينات ، والولايات المتحدة منذ منتصف  
الستينات على الاقل . واهمية هذه الحماية واضحة للغاية ، لا تحتاج الى  
براهين كثيرة ، وهي التي تلعب دورا كبيرا في تقوية الصلف الاسرائيلي . فلولا  
الدعم الاميركي الحالي ، السياسي والعسكري والاقتصادي لاسرائيل ، المتزايد  
سنة بعد اخرى لما كان باستطاعتها التمسك بالسياسة التوسعية المتشنجة التي  
تتبعها ، وتحدي العالم العربي بأسره .

وهذا الدعم القوي الدائم من قبل الدول الغربية الاستعمارية الرئيسية لاسرائيل ، دفع العديد من المفكرين والسياسيين والزعماء العرب الى اعتبارها مجرد اداة في ايدي الاستعمار ، تقوى بقوته وتزول بزواله . الا ان هذه النظرة ليست الا تبسيطا مبالغا به ، ولا تخلو من سذاجة ، وهي بالتالي غير صحيحة تماما وليست شاملة ، من حيث اسقاطها لديناميكية العامل الذاتي الصهيوني - اليهودي وتأثيره على الاقل . ونظرة اعمق واشمل قليلا على طبيعة العلاقة بين الاستعمار الغربي والصهيوني واسرائيل تظهر انه بقدر ما كان الاستعمار يسعى الى استغلال الصهيونيين كأداة لتحقيق اهدافه ، كان اولئك يعملون على الافادة من المخططات الاستعمارية لتقوية انفسهم اولا . ومع مرور الزمن ، اضاف الصهيونيون مكسبا الى مكسب ، واحتلوا الموقع تلو الاخر ، وبنوا مؤسساتهم ووسعوا نفوذهم ، وراحوا يطرحون انفسهم كـ « حليف » ، لا تابع ، للاستعماريين او - احيانا - لغيرهم ، باعتبارهم انفسهم كيانا مستقلا ، قائما بحد ذاته ، له مصالحه ، وبالتالى مواقفه ، الخاصة به . وعرض سريعا لبعض مفاصل الاستراتيجية الصهيونية يوضح ذلك . فالبريطانيون ، من ناحيتهم ، باصدارهم وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، هدفوا الى استعمال الصهيونيين كأداة ، خلال المرحلة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى والسنوات التي تلتها ، ضد حلفائهم الاستعماريين الاخرين ، وعلى رأسهم فرنسا ، لتوسيع منطقة الوطن القومي اليهودي ، المفهوم ضمنا انها ستكون خاضعة للسيطرة البريطانية ، وبالتالى تحسبن وضع بريطانيا من حيث سيطرتها على مساحات اكبر عند تقسيم المشرق العربي الى مناطق نفوذ امبريالية . وهذا ما تم فعلا ، على حساب مطامع فرنسا ، التي كان من المفروض ان تسيطر ، وفق اتفاقية سايكس - بيكو ، على منطقة اوسع من تلك التي كانت من نصيبها لو لم تبرز مشكلة الوطن القومي . كذلك هدفت بريطانيا ، بالطبع ، من وراء تبني الوطن القومي اليهودي ، الى خلق كيان مؤيد للبريطانيين في المشرق ، يساعدهم على تثبيت سيطرتهم على المنطقة . ولذلك سعوا ايضا ، مع الصهيونيين ، الى الحصول على اعتراف دولي بذلك الوطن ، وهو ما حققوه باقرار الانتداب البريطاني على فلسطين من قبل عصبة الامم . غير ان ذلك « الاتفاق » البريطاني - الصهيوني لم يبق نافذ المفعول الا نحو ٢٠ سنة فقط ، اذ ما ان نشبت الحرب العالمية الثانية حتى راح الصهيونيون يعيدون حساباتهم ويستعدون لمجابهة احتمالات المستقبل . ومع نهاية الحرب ، التي حولت بريطانيا الى قوة عالمية من الدرجة الثانية ، دخل الصهيونيون في صراع سياسي وعسكري واسع معها ( في الوقت الذي كان العرب لا يزالون يتمسكون فيه بـ « الحليفة » بريطانيا ) ، كان من بين الاسباب التي ادت الى انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين . اي ان « التعمسون » البريطاني - الصهيوني انتهى بانحسار الاستعمار البريطاني عن فلسطين ، وبقاء الوطن القومي اليهودي الذي تحول الى دولة .

وفي الوقت نفسه ، وبموازاة ذلك الموقف المعادي لبريطانيا ، ركز الصهيونيون جهودهم على الدولتين الكبيرتين ، اللتين برزتا بعد الحرب العالمية الثانية ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، لاقناعهما بتأييد مساعيهم لاقامة الدولة اليهودية . وقد تم لهم ما ارادوا ، إذ دعمت هاتان الدولتان ، في المحافل الدولية ، مشروع اقامة الدولة اليهودية وكانتا اول من اعترف باسرائيل ، بعد اقل من مرور يومين فقط على اعلان اقامتها . ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل ان اسرائيل حظيت ايضا ، خلال مراحل تأسيسها الاولى ، بتشجيع ودعم من قبل هاتين الدولتين ، وذلك بتزويدها بالسلح الشرقي ( التشيكي ) من ناحية ، والقروض الاميركية من ناحية اخرى . ولم يتغير هذا الموقف الا عندما قرر بن - غوريون التخلي عن « الحياد » الاسرائيلي والمتوجه نحو الغرب ، وبالتالي معاداة المجموعة الاشتراكية ، بعد شعوره ان تأييدها لم يعد ضروريا لضمان المصالح الاسرائيلية .

وكانت احدى المشكلات البارزة التي جابهت اسرائيل بعد قيامها ، حاجتها الى القوى البشرية اليهودية لتقوية نفسها ، خصوصا بعد ان ضاع يهود اوربا الشرقية ، الذين زودوا المشروع الصهيوني في الماضي بأكثرية قواه البشرية ، في الدوامة النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، وبعد ان امتنع يهود اوربا الغربية واميركا - كعادتهم في الماضي - عن الهجرة اليها . ولكن سرعان ما جاء الفرج . . . من الدول العربية والاشتراكية ، إذ تمكنت اسرائيل ، بوسائل عديدة ، والتآمر مع هذا الطرف او ذاك ، واتباع اساليب لا حاجة لشرحها هنا ، من تهجير ما يزيد على ١٠٠٠٠٠٠٠ نسمة من يهود تلك الدول ونقلهم اليها . وخلال الربع الاول لقيام اسرائيل ( ١٩٤٨ - ١٩٧٢ ) ، كان قد هاجر اليها ، وفق احصاءاتها الرسمية ، من الدول العربية ٥٨١٢١٢ يهوديا ( منهم ٣٢٦٦٢٢ نسمة من ٣ دول مجاورة بعضها لبعض ، تقع في « آخر » العالم العربي ، و ٣٥٦١٢ نسمة من دولة رابعة مجاورة لهم و ٢٩٣٨٣ من دولتين اخريين مجاورتين لها و ١٠١١٩ من دولتين مشرقيتين متجاورتين و ١٢٨٩٢٣ من دولة مشرقية اخرى مجاورة لهما و ٥٠٥٤٣ من دولة تقع في نهاية الطرف الاخر من العالم العربي ) . اما عدد المهاجرين اليهود من الدول الشرقية ، خلال الفترة نفسها فقد بلغ ٥٧٤٢٧١ نسمة ( منهم ٢٣٩٦٧٦ نسمة من رومانيا و ١٦٢٢٧٠ من بولونيا و ٨٢٩٣١ من الاتحاد السوفياتي و ٣٩٦٧٨ من بلغاريا و ٢٧٠١٣ من هنغاريا و ٢٢٦١٣ من تشيكوسلوفاكيا ) . والواضح ان هذه القوى البشرية كانت احسن دعم يمكن ان تحلم به اسرائيل . بل يمكن القول ان بعض الدول العربية والاشتراكية « ساهمت » في اقامة اسرائيل - مهما كانت الظروف التي ادت الى ذلك ، فالعبارة فيما يتعلق بهذه الناحية هي في النتيجة - اكثر مما ساهم الامبرياليون بأسرهم مجتمعين .

والقاعدة نفسها تنطبق على « التعاون الاستراتيجي » الاسرائيلي - الفرنسي خلال الخمسينات والستينات ، الذي بدأ بسعي الطرفين الى اسقاط عسدر مشترك ، هو عبد الناصر ، بما كان يرمز اليه ، وانتهى بعد حرب ١٩٦٧ ، لأسباب تتعلق أساسا بتغيير في السياسة الفرنسية . غير انه على الرغم من تلك النهاية لم تكن اسرائيل هي الخاسرة ، على المدى الطويل ، نتيجة لذلك التعاون . فحرب السويس ١٩٥٦ وفرت لها عشر سنوات من الهدوء ، مكنتها من اعادة بناء نفسها ، على اكثر من صعيد داخلي وخارجي استعدادا لتحديات المستقبل . كما ان المساعدات الفرنسية ، وخصوصا العسكرية ، التي تلقتها خلال حرب السويس وبعدها هي التي مكنتها من الانتصار في حرب ١٩٦٧ .

ويبدو ان خلاصة هذه التجربة البراغماتية في بناء اسرائيل هي التي تدفع الصهيونيين الى ابداء الاستخفاف او احيانا الشفقة ، تجاه اولئك الذين يدعون ان اسرائيل ليست الا اداة في ايدي الاستعمار ومصيرها مرتبط بمصيره ، ويبنون « استراتيجيتهم » على هذا الاساس . فبالنسبة للاسرائيليين ليس في تلك الاقوال ما قد يسيء اليهم كثيرا ، وليست القضية هي وجود استعمار او عدم وجوده . ان الامر بالنسبة لهم ليس الا « سياسة » او « شطارة » . انه سعي الى تحقيق الهدف بكافة الوسائل المتاحة . وقد نجحت هذه الطريقة اكثر من مرة في الماضي ، ليس مع الامبرياليين فقط ، بل مع العرب والاشتراكيين ايضا . وليس هنالك ما يدل ، وفق المنطق الاسرائيلي ، على انها لن تنجح في المستقبل مع دول العالم الثالث ، مثلا . والعبرة واضحة للغاية : لا ينبغي الخوف كثيرا من المآزق « السلمية » او العدائية . لقد جابه الصهيونيون في الماضي مآزق كثيرة وخرجوا منها ، والشعور السائد هو انهم سيعرفون كيف يواجهون مشكلات المستقبل ايضا . ولا يترتب على منطق الاسرائيليين هذا الا تشبثهم بعنادهم والتمسك برفض ما يعتقدون انه لا يناسبهم ، حتى ولو اعتقد الآخرون كلهم عكس ذلك .

### -الكلام الكبير - والاعمال الصغيرة-

تلعب التجربة الصهيونية مع العرب ايضا دورا مهما في تغذية الرفض الاسرائيلي . والعامل العربي عنصر مهم في مركب ذلك الرفض ، ان لم يكن احيانا اهمها على الاطلاق .

ان التجربة الصهيونية - العربية طويلة ومتشعبة ومريرة ، بالنسبة للطرفين ، ولا تذكر الاسرائيليين الا بقصة داوود الذي هزم جوليات الجبار بمقلعه . فالعرب اعلنوا عداؤهم للصهيونية منذ ظهورها على ارض فلسطين ، وقارعوها بشتى الطرق ، كل حسب مفاهيمه ، بينما حاول بعضهم في اكثر من مرة ،



التعاون معها سرا ، ولكنهم لم يمنوا الا بالفشل . ومنذ قيام اسرائيل وحتى اليوم ، دخلوا معها في اربع حروب كبيرة وعشرات الهجمات والصدامات المتبادلة عبر الحدود ، وكانت الغلبة في اكثر الاحيان لها . كما انهم ، منذ ذلك الوقت وحتى اليوم ، يستعدون دائما وابدا للمعركة الفاصلة ، ولكن عندما تقع معركة من هذا النوع ، يظهر عمليا انهم كانوا دائما مستعدين للحرب الماضية ، لا الاخيرة .

واسباب هذا الفشل العربي ، على كل حال عديدة ، منها الضعف الناجم عن السياسات العربية الاقليمية المتناحرة ، والتخلف وانعدام التخطيط والجدية في الاستعداد للقتال ، وتدخل القوى الاجنبية لصالح الطرف الاخر ، وغيره . الا ان الهم من ذلك كله - وهذا ما يعنينا هنا - هو تأثير الموقف العربي من القضية الفلسطينية على اسرائيل وسياساتها ، والعبر التي استخلصتها من ذلك . وفي هذا المجال يمكن القول ان التأييد العربي للفلسطينيين وقضيتهم لم يكن ، في احيان كثيرة ، الا لفظيا وغير فعال ؛ كما ان الموقف الحقيقي لاكثر من طرف عربي ، في اكثر من حالة ، كان تأمريا . ونظرة خاطفة على ذلك الموقف - او المواقف - تثبت ذلك . فخلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، اعلن عرب المشرق التزامهم بقضية فلسطين وسعيهم للمحافظة على عروبتهما اكثر من مرة ، باعتبار ان البلد هو سوريا الجنوبية . لكن ما ان اقر الانتدابان البريطاني والفرنسي على المشرق وقسمت بلدانه ، في مطلع العشرينات ، حتى نسي العرب الاخرون فلسطين ورزحوا تحت عبء المشكلات التي واجهتهم . ولم يطرأ تغيير ملحوظ على ذلك الموقف العربي الا مع نهاية الثلاثينات ، نتيجة لنشوب الثورة الكبرى في فلسطين ، التي اتجه العرب رسميا للعمل على نصرة الفلسطينيين فيها ، بينما لم تؤد « مساعدتهم » الا الى انهائها دون اية نتيجة . ومع اقامة الجامعة العربية في الاربعينات ، « حولت » القضية الفلسطينية اليها ، فكانت النتيجة ، بسبب المواقف العربية المختلفة والمشاحنات والتآمر المتبادل ، ان « طارت » فلسطين واختفت قضيتها ، فتحولت الى قضية لاجئين .

وحتى بعد ان طرأ تغيير ما ، رسميا على الاقل ، على موقف العرب من القضية الفلسطينية ، مع موافقتهم على اقامة منظمة التحرير الفلسطينية ، لم تسلم المنظمة من اذى بعضهم . فالضربات القوية لمنظمة التحرير ، ومن ابرزها ما حدث في الاردن سنة ١٩٧٠ ولبنان سنة ١٩٧٦ ، نفذت بأيد عربية . بل ان تلك الضربات كانت شرسة لدرجة دفعت الاسرائيليين الى ابداء « استغرابهم » ، في حين اعلن وزير دفاعهم مرة ان « الاشقاء » العرب قتلوا من الفدائيين الفلسطينيين خلال يومين فقط عددا يفوق ذلك الذي قتله الجيش الاسرائيلي خلال عامين . ومن آخر « المآثر » في هذا المجال ايضا موقف السادات ، اكبر « المتزمين » سابقا بالحقوق الفلسطينية الذي ما ان وصل الى القدس لزيارة

بيغن حتى نسي ، بناء على نصيحة دايان ، اسم منظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها الممثل الشرعي للفلسطينيين ، وامتنع عن ذكره لكي لا يزعج مضيفيه . ثم راح يقدم اقتراحات « سلمية » جديدة لا تنم الا عن تنكر لكل التزامات مصر السابقة بشأن القضية الفلسطينية .

وخلاصة العبرة الاسرائيلية ، من هذا الموقف العربي تجاه الفلسطينيين ، هي ان اكثرية العرب غير ملتزمة فعلا بالقضية الفلسطينية ، وسياساتهم تجاهها متذبذبة ، ومنهم من هو على استعداد لـ « بيعها » لقاء مصالحه الاقليمية الخاصة به ، او انه يسعى الى السيطرة على الفلسطينيين وضمهم تحت كنفه . ومن هنا ينبع الرفض الاسرائيلي للاقتراحات العربية ، عديمة المصداقية ، بشأن القضية الفلسطينية .

ومن ناحية ثانية ، واستمرارا - تأييدا لذلك الاستنتاج لا بد من القول ايضا ان الفلسطينيين انفسهم لم يساهموا كثيرا في تغيير هذا الموقف الاسرائيلي . صحيح ان الفلسطينيين نظموا انفسهم وحشدوا جزءا من قواتهم وبنوا كيانا سياسيا خاصا بهم ، ولا يزالون يخوضون الصراع مع اسرائيل . الا ان مجمل انجازاتهم ، في هذا المجال ، لم تكن كافية لحمل الاسرائيليين على اعتبارهم عاملا جديا ومؤثرا في تقرير مستقبل المنطقة ، ولذلك لا ضرورة للاستجابة لطلباتهم ، او اخذ رغباتهم بالاعتبار .

صحيح ان العرب ( ومن ضمنهم الفلسطينيين ) لا يزالون ، منذ راحوا يقارعون الصهيونية حتى اليوم ، يطلقون التصريحات والكلام الكبير ، وينذرون بالويل والثبور وعظائم الامور ، الا ان اعمالهم ، في هذا المجال ، كانت دائما صغيرة . وليس في مجمل العبرة ، المستمدة من مثل هذا التصرف ، الا ما يدفع نحو الرقض .

### القلق على المستقبل

اذا كانت عبرة التجربة الصهيونية مع الفلسطينيين والعرب في الماضي ، لا تدفع الاسرائيليين الا الى رفض المقترحات والمساعي السلمية العربية ، ان تم ذلك نتيجة لعدم ثقتهم بالعرب او خوفهم منهم او الاستخفاف بهم ، فان جوهر المقترحات العربية الداعية كلها الى الانسحاب ، بشكل او بآخر ، من الاراضي العربية المحتلة وايجاد حل للقضية الفلسطينية ، مقابل صلح او سلام مع العرب ، لا تدفع ايضا الا الى تقوية ذلك الرفض ، نتيجة لقلق الاسرائيليين على مستقبلهم ، كما يحلو لهم تصوره ، في حال قبولهم بتلك المقترحات .

ولعل ابرز ما يقلق الاسرائيليين من مقترحات التسوية السياسية في الشرق

الايوسط ، هي تلك النواحي منها المتعلقة بالقضية الفلسطينية . فالاسرائيليون يدركون ، مثل غيرهم ، ان القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي - الاسرائيلي واساسه ، الا انهم بنوا سياساتهم على مغالطة الاخرين والزعم ان اساس الصراع هو رفض العرب قبول اسرائيل والعيش في سلام معها . وانكار الاسرائيليين لاهمية القضية الفلسطينية ، وحيانا حتى لمجرد وجودها ، « طبعي » وواضح ومفهوم ، اذ ان النظرية الصهيونية بأسرها ، وبالتالي الوجود الاسرائيلي ، قائم على اساس انه لا يوجد شعب فلسطيني ، وحتى وان وجد ، لا حقوق له في « ارض - اسرائيل » ، واي موقف مخالف لذلك ، ينم عن شبه اعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وخصوصا القومية منها ، قد يفتح ثغرة لاعادة حسابات كثيرة ، تجر مخاطر عديدة على الكيان الصهيوني . وبما ان معظم اقتراحات التسوية في الشرق الاوسط تدعو الى اخذ العنصر الفلسطيني بالاعتبار ، بشكل او بآخر ، فانها جميعها مرفوضة من قبل اسرائيل ، لما تثيره من قلق لديها ، باحتمالات تطورها المستقبلية .

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد ، على كل حال ، الى ان هنالك ما يقلق الاسرائيليين فعلا ، من وجهة نظرهم الصهيونية ، ويدفعهم الى التمسك بمواقف الرفض تجاه الفلسطينيين وحقوقهم . فقد حارب الصهيونيون الفلسطينيين بشراسة ، وبذلوا كل ما في وسعهم لشطبهم من خارطة المنطقة ، جغرافيا وسياسيا ، للحلول محلهم . كما قد ظهر احيانا ان مساعيهم تلك حظيت بنجاح ملحوظ ، فمع منتصف الخمسينات ، مثلا ، كانت القضية الفلسطينية قد تحولت الى مجرد قضية لاجئين ، قد يكون من المناسب ايجاد حل لها على هذا الاساس . غير انه ما ان اخلت الميزان في المنطقة قليلا ، حتى وان تم الى حد كبير نتيجة لنصر اسرائيلي ، وتغيرت الاوضاع نوعا ما ، حتى عادت الحال الى سابق عهدها ، ورجعت القضية الفلسطينية تدق على ابواب الدول والشعوب المعنية ، تطلب حلا لها . واذا باسرائيل تكتشف ان انتصارها على الفلسطينيين لم يكن كاملا ، وان هناك نواح مهمة في الصراع الفلسطيني - الصهيوني لم تحسم حتى الان . وتبرز هذه النواحي ، بشكل خاص ، على ارضية مشاريع التسوية الداعية الى اقامة كيان فلسطيني ، مهما كان هزيلا ، ناهيك عن دولة فلسطينية مستقلة . فتفكير الصهيونيين في مثل هذه المشاريع يعيد الى ذاكرتهم كل نقاط ضعفهم ، ويثير خوفا لديهم من ان لا يكون اي كيان فلسطيني الا مقدمة لحسم الصراع لصالح الفلسطينيين على المدى الطويل ، من خلال استغلال نقاط الضعف تلك ، وهي عديدة . فالصهيونيون ، مثلا ، في مساعيهم لتقوية كيانهم في فلسطين بذلوا كل ما في وسعهم لزيادة عددهم في البلد ، بواسطة تهجير اليهود اليه من كافة انحاء العالم ، وبمختلف الوسائل والطرق ، حتى وصل عددهم هنالك حاليا الى ما يزيد على ٣ ملايين نسمة . ولكن خلال الوقت

نفسه ، وصل عدد الفلسطينيين كذلك الى ما يزيد ايضا على ٣ ملايين نسمة ، بواسطة تكاثرهم الطبيعي فقط ، ونصفهم لا يزال يعيش على ارض فلسطين . كذلك كان الصهيونيون قد بذلوا جهودا مختلفة ومضنية لتحويل اليهود الى اكثرية سكانية في كافة انحاء فلسطين ، بعد تفرغها من العرب ، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك . فالعرب لا يزالون يشكلون اكثرية سكانية في ثلاث مناطق رئيسية في فلسطين : الجليل والضفة الغربية وقطاع غزة ، اي ، عمليا ، ما يساوي نصف مساحة فلسطين الصالحة للعيش والسكن . كما ان حالة من النهوض القومي والتمسك بالهوية القومية تسيطر على الفلسطينيين في كافة اماكن تواجدهم . ثم ان الشعب الفلسطيني يتمتع بطاقات لا بأس بها ، يمكن ان تتحول ، اذا نظمت ونسقت في اطار مستقل ، الى قوة فعالة في المنطقة . ولذلك فان اي حل قد يرتكز على اساس الاعتراف بحقوق قومية للفلسطينيين ، او قيام كيان لهم ، مهما كان هزيلا ، لا يخلو من خطورة من وجهة النظر الاسرائيلية ، ان قد ينمو ويكبر ويصبح خطرا على الدولة الصهيونية . وعليه ، لا مجال الا لرفضه .

ويوازي قلق الاسرائيليين من المستقبل ، على الصعيد الفلسطيني ، قلق مماثل لجهة موقفهم من العرب عامة . صحيح ان العرب منقسمون على انفسهم حاليا ، كما كان الحال في معظم الاوقات في السابق ، ويكاد يكون لكل منهم سياسته الخاصة به ، مما يساهم في اضعافهم ، وصحيح ايضا ان التخلف يسيطر على نواح كثيرة من حياتهم ونشاطهم . الا ان العالم العربي ، من ناحية ثانية ، واسع وكبير ، ولديه طاقات اقتصادية وبشرية ضخمة ، وهو ينمو ويتطور بسرعة ، ولا بد ان يصل يوما ما ، رغم العوائق المختلفة ، الى احتلال المركز الذي يليق به في العالم . وفي هذا المجال ليس لدى اسرائيل ما تفعله ، عدا ربما عن محاولة اعاقه ذلك النمو بواسطة اجبار العرب على توجيه جزء من طاقاتهم نحو التبذير العسكري ، كما انه ليس لديها ما تقدمه لهم ، عدا ربما عن محاولة استغلال ثرواتهم لصالحها ، ومن المشكوك فيه حتى اذا كانت قادرة على ذلك ، نظرا ، على الاقل ، لضخامة تلك الثروات . فمن الواضح ، مثلا ، ان الحديث عن « مساعدات » يمكن ان تقدمها اسرائيل الى العرب ليس الا نوعا من المزاح ، فليس هنالك من شيء تستطيع تلك « الامبراطورية » - المحتاجة للمساعدات الدائمة - تقديمه الى العرب ، الا وباستطاعتهم الحصول عليه من بلدان العالم الواسع ، وبجودة احسن وبكلفة اقل ، دون الحاجة لاسرائيل . كما ان اكبر « الايجابيين » العرب الذين يسعون الى الصلح مع اسرائيل ينطلقون في موقفهم هذا ، الى حد ما ، من سعيهم الى اتقاء شرها وشرور مؤيديها من الامبرياليين ، وتحويل مواردهم نحو تنمية بلدانهم .

والاسرائيليين يدركون ، بالطبع ، هذه المواقف والاتجاهات جيدا ، ويحارون في كيفية التعامل معها ، ويزداد قلقهم على مستقبلهم . ويغذي القلق هذا شعورهم بعدم الثقة بالعرب والخوف منهم ، ويدفعهم الى التمسك بمواقفهم التقليدية السابقة ، والنظر بريية الى اي اقتراح جديد قد يقدم اليهم . ولعل هذه الاوضاع النفسية هي التي تفسر ، ولو الى حد ما ، سر اصرار الاسرائيليين على السعي الى عقد « سلام » مع العرب وفق شروطهم ، حتى وان ظهر ان تلك الشروط لن تؤدي الى اي سلام ، في نهاية الامر .

### مخاطر السلام

ان تشبث الاسرائيليين بمواقف الرفض ، على الرغم من تبجحهم الدائم بـ « حبهم » للسلام وسعيهم اليه ، لا ينجم فقط عن قلقهم من المستقبل ، بل قد يعود ايضا الى خوفهم من تأثير السلام عليهم ، على المدى الطويل . ونظرة هادئة على تركيب الكيان الصهيوني في فلسطين قد تقدم اكثر من دليل على ان السلام لا ينبغي ان يكون مقيدا بالضرورة لاسرائيل ، بل قد يجابهها بتحديات لا قدرة لها ، في مرحلة نموها الحالية ، على مواجهتها ، او قد يعرضها للخطر على اكثر من صعيد ، وبالتالي فان السلام الحقيقي ، في حقيقة الامر ، قد يكون مرفوضا .

واول ما يلفت النظر ، في هذا المجال ، هو امكانية تأثير وضع السلام والهدوء على تركيب المجتمع الاسرائيلي ، ومن ثم الكيان الصهيوني بأسره . فالخطر الخارجي كان ، ولا يزال ، واحدا من العوامل الرئيسية التي استغلت لتوحيد المهاجرين اليهود القادمين الى فلسطين من عشرات البلدان ، ومحاولة صهرهم في بوتقة واحدة ، وخلق مجتمع متماسك منهم . وقد احرز الصهيونيون تقدما ما في هذا المجال ، ولكن على الرغم من ذلك لا تزال الطريق طويلة امامهم ، اذ ان المجتمع الاسرائيلي لا يزال حتى الان عبارة عن مجتمعين كبيرين منفصلين ، احدهما اشكنازي يضم اليهود الغربيين والآخر سفارادي يضم الشرقيين منهم ( وهناك ايضا مجتمع ثالث عربي ) . وفي داخل هذين المجتمعين « مجتمعات » صغيرة اخرى ، تقوم عادة على اساس البلدان او المناطق التي قدم المهاجرون منها . وزوال الخطر الخارجي ، مع حلول السلام ، قد يؤدي على الاقل الى ابقاء الوضع الحالي على ما هو عليه ، بل قد يزيد تلك المجتمعات تفسخا . وليس في ذلك ما قد يساهم في تقوية الكيان الصهيوني ، بل قد يعرضه ، على المدى الطويل ، الى مخاطر كبيرة ، اخفها زعزعة اركانه ، وبالتالي اضعافه .

اما الناحية الاخرى التي قد يعرض فيها السلام اسرائيل للمخاطر ، فهي الهجرة اليهودية اليها ، وهي ركن مهم من اركان العقيدة الصهيونية ، وعامل لا غنى عنه لتقوية اسرائيل . ولاول وهلة يبدو ان السلام والهدوء والشعور بالامن وزوال الخطر الخارجي لا بد الا ان يؤديوا الى تقوية الهجرة الى اسرائيل . الا ان التجربة الصهيونية الطويلة ، في هذا المجال ، تثبتت عكس ذلك تماما . فنظرة سريعة على اسباب موجات الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، ثم اسرائيل ، تظهر بما لا يدع مجالا للشك انها جاءت كلها بحكم اضطرار الاكثرية الساحقة لاولئك المهاجرين الى الهجرة ، بسبب الاوضاع الصعبة او الشاذة التي جابهتهم في بلدانهم الاصلية ، لا نتيجة لايمانهم بالعقيدة الصهيونية . وهذا العامل واضح لدرجة دفعت بعضهم الى تسمية الصهيونية باسم « صهيونية المصائب » ، اي ان تلك الحركة لم تحقق مكاسب تذكر الا عندما كانت تحل المصائب باليهود ، فتستفيد منها .

يضاف الى ذلك ، من ناحية اخرى ، ان فتح الحدود بصورة طبيعية بين اسرائيل والعرب ، نتيجة لحلول السلام ، قد يؤدي ايضا الى هجرة الكثيرين من اصحاب الكفاءات والمهارات المهنية من بين الاسرائيليين ، خصوصا الى عالم عربي يتطور وينمو بسرعة وذي امكانيات لاستيعاب المهارات المختلفة ، ولو تم ذلك من باب السعي وراء الرزق فقط . ولا ينبغي ان يخدع احد بحديث اسرائيل عن رغبتها في حدود مفتوحة بينها وبين العرب ، ان هدفها هو عمليا حدود مفتوحة بالنسبة لاسرائيل فقط ، لا لغيرها ، بحيث تستطيع وحدها التحكم في حركة مرور الاشخاص والبضائع فيها ، كتلك القائمة على جسور نهر الاردن منذ ١٩٦٧ . ففتح الحدود كاملا قد يؤدي ، مثلا ، الى تدفق اموال عربية غير مرغوب فيها ، خصوصا اذا اتجهت نحو العمل على السيطرة على بعض قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي .

كذلك لا بد ان يؤدي السلم ايضا الى حالة من الاسترخاء لدى الاسرائيليين ، ومن ثم لدى يهود العالم بأسرهم ، مما قد ينجم عنه تخفيف زخم دعمهم لاسرائيل . فـ « القواعد » التي تحكم تصرف يهود العالم تجاه اسرائيل واضحة للغاية ، وخلصتها ان دعم اولئك للكيان الصهيوني ، ماليا اولا وبشريا ثانيا ، يتصاعد ويقوى عندما يبدو ان الدولة اليهودية تتعرض للمخاطر ، ثم يخف بعد ذلك ، عندما تعود الاوضاع الى حالتها الطبيعية ، وليس مثل السلم حالة طبيعية .

وتجدر الاشارة ايضا الى ان اي اتفاق سلام لا بد الا ان يؤدي الى تحديد المشروع الصهيوني ، جغرافيا ، ثم بشريا ، وبالتالي لا بد ان تكون له انعكاساته على العقيدة الصهيونية والكيان الصهيوني ككل . ومن المشكوك فيه ان يكون

الصهيونيون مستعدين حقيقة لمجابهة مثل هذا الوضع . فمنذ نشوئهم وحتى اليوم كان التوسع و « احتلال الارض » ثم « احتلال العمل » اهدافا رئيسية عملت على تحريك الصهيونيين واخصاب خيالهم ودفعهم الى مواجهة التحديات . ولذلك فان موافقتهم على تحديد مطامعهم بأنفسهم ، اخيرا ، قد تؤدي الى عكس ذلك تماما .

ولا بد من لفت النظر ايضا الى خوف الاسرائيليين الواضح من ان اي اتفاق سلم يمكن ان يوقع مع العرب قد لا يدوم طويلا ، مهما كانت الضمانات التي قد ترافقه . فامكانات تغيير الحكم او الحكام ، في هذه الدولة العربية او تلك ، قائمة . ولا ينبغي ، بالضرورة ، ان يعمر الحاكم العربي الذي يعقد سلما مع اسرائيل طويلا ، بل قد يستبدل بحاكم اخر له نظرة مختلفة تماما . كما قد يكون للاجيال العربية القادمة موقفا اخر مختلفا من اسرائيل . ولذلك لا يجوز الاسراع في الوقوع في « شرك » السلام ، مهما رافقته من « مغريات » . واذا لم يكن بد من السلام ، ما دام الكثيرون يتحدثون عنه ، وفي ذلك الحديث شيء من « الحرج » لاسرائيل ، فينبغي ان يتم ذلك وفق المخططات والمصالح الاسرائيلية ، وفي الوقت الذي تراه اسرائيل مناسبا .

### مفاوضات ، لا اتفاق

ان الرفض الاسرائيلي ، كما يتضح من عرض اسمه ودوافعه ومفاهيمه المختلفة ، ليس عرضيا ولا تكتيكيا ، بل انه ، على العكس من ذلك ، عميق للغاية ومتأصل في نفوس الصهيونيين ، لدرجة يمكن معها اعتباره استراتيجية . ومثل هذا الرفض لا يترك مجالا كبيرا للوهم بأن اسرائيل تسعى فعلا الى السلام مع العرب ، او تريده .

واذا كان الامر كذلك ، فما الذي تسعى اليه اسرائيل ؟ - يبدو الجواب واضحا : مفاوضات ، ثم مفاوضات مع العرب ، او مع بعضهم ، دون الوصول الى اتفاق معهم . وتكاد تكون المفاوضات بحد ذاتها هي الهدف الرئيسي .

ان استمرار المفاوضات الاسرائيلية مع العرب ، ومن المفضل مع مصر بالذات ، يعود بقوائد جمة على اسرائيل ، من وجهة نظر حكامها . فاستمرار المفاوضات ، اولا ، حتى وان تعثرت من حين الى اخر ، يبقي اجواء التفاؤل قائمة ويبعد شبح الحرب ، كما انه يريح النظام الاسرائيلي ، ثانيا ، من الضغوط الداخلية والخارجية التي يتعرض لها ، ويؤدي الى ان يعتاد العرب تدريجيا ، ثالثا ، على وجود اسرائيل وكونها عاملا ثابتا في المنطقة . ويبدو لنا انه لو انيطت مسؤولية ادارة تلك المفاوضات بالاسرائيليين وحدهم ، لعملوا على استمرارها حتى نهاية القرن ، من خلال اتباع سياسة لا حرب ولا سلم ، لا ضم

ولا انسحاب • ومن المفضل أيضا ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، ان ترافق عملية المفاوضات الطويلة تلك ، من حين الى آخر ، بعض التصريحات العربية العنصرية الابادية الجوفاء الموجهة ضد اسرائيل ( ويفضل اليهود أيضا ) ، من هنا او هناك ، يمكن ايرادها كاثبات على وجود « خطر » ( شرط ان لا يكسون حقيقيا ) يتهدد الكيان الصهيوني ، ومن ثم استغلالها لتغذية العقد الصهيونية - الاسرائيلية ، وشد انظار العالم واليهود الى الدولة اليهودية وكسب العطف عليها والتأييد المادي والمعنوي لها • ويؤمل ان يستطيع الاسرائيليون ، خلال فترة المفاوضات الطويلة تلك ، خلق عوامل قوة اخرى وتثبيت كيانهم بشكل يصبح معه حقيقة واقعة ، لا يخطر على بال احد التعرض لها ، وربما تمكنوا كذلك ، خلال هذا الوقت ، من اتخاذ قرارهم حول ما يريدونه من انفسهم ومن العرب اخيرا •

ولا ينبغي ان يثير هذا الوصف للموقف الاسرائيلي استهجانا ، او ينظر اليه على انه مبالغ فيه • فليس في اسرائيل ، عمليا ، اية قوة سياسية يبدو انها قد بلورت موقفا محددا من السلم مع العرب ، يمكن ان يكون مقبولا ، ولو بتحفظات كثيرة ، من قبل اكثرهم اعتدالا • كما ان ، وهذا هو الالم ، ليست هناك اية قوة مماثلة يمكنها ان تنفذ اتفاقا مع العرب ، وتحمل اكثرية الاسرائيليين على القبول به ، في حالة الوصول اليه • لقد فقد الاسرائيليون اخر زعاماتهم التاريخية البراغماتية ، التي كان باستطاعتها حسم مسألة الوصول الى اتفاق مع العرب ، حتى ولو كان مؤلما لاسرائيل في بعض جوانبه ، بغياب بن - غوريون • وكل الزعامات الحالية ، دون استثناء ، هي من ذلك النوع الذي لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، ولا تملك قوة اتخاذ القرارات المصيرية ، حتى وان بدا ان « بريقها » قد يوحي بعكس ذلك • كما ان النظام الاسرائيلي لا يضم ، فسي الحكومة او المعارضة ، الا « شللا » متناحرة ، لكل منها موقفه الخاص به ، ولا تستطيع في احسن الاحوال انتهاج اية سياسة متماسكة ، بل ان القوة الفعالة لكل منها تنحصر في معارضة الاخرين وشل قدرتهم على اتخاذ اي قرار او تنفيذه • وفي مثل هذا الوضع ، لا يبدو ان هناك امكانية لاتفاق ما بين الاسرائيليين ، لجهة موقفهم من العرب ، عدا عن ذلك المتعلق بضرورة استمرار المفاوضات معهم • وحتى بالنسبة لذلك ، هناك اعتراضات كثيرة على طريقة ادارة تلك المفاوضات •

وخطأ العرب الذين اتجهوا للتعامل بأسلوب جديد مع الاسرائيليين ، من خلال محاولة تهديدهم بالعصا واغرائهم بالجزرة ، هو انهم حين قدموا الجزرة لاسرائيل كانت عصاهم وهمية • ومن دون العصا العربية سيبقى الرفض الاسرائيلي ، قطعاً ، هو السائد والمتحكم في التحركات السياسية ، وغيرها ، في المنطقة • ومن الافضل لمن لا يملك تلك العصا تأجيل تنفيذ أي خطط « فخمة » ، قد تطرأ على باله ، حتى صنعها •



## مفاهيم السلم والتسوية الاسرائيلية

زيارة السادات لاسرائيل ، التي لم تؤد الى اية نتائج ملموسة حتى الان ، فجرت على الاقل نقاشا واسعا حول دوافعها ونتائجها بين فئات اسرائيلية مختلفة ، من زعامات سياسية وحزبية ورجال فكر وكتاب وعسكريين سابقين وصحفيين وغيرهم . وعلى الرغم من ان هذا النقاش لم ينته بعد ، وان مصير الزيارة او ما قد تسفر عنه من نتائج لم يتضح ، فان ذلك الحدث المفريد من نوعه في تاريخ الصراع العربي- الاسرائيلي . قد ادى الى طرح آراء عديدة ومتشعبة ، بعضها جديد والاخر معاد ، بشأن المفاهيم الاسرائيلية للسلم والتسوية ، ضمن قدر من الصراحة والشمولية احيانا لم نعهده في السابق . وسنحاول فيما يلي رصد اهم ما طرح من آراء في هذا الصدد ، مع ضرورة الاشارة الى ان تلك المواقف ، جديدة كانت ام قديمة ، مرنة ام متشددة ، تنطلق - بشهادة اصحابها انفسهم - من حرصهم على « مصلحة اسرائيل » وسعيهم الى ايجاد أفضل السبل ل « ضمان مستقبلها » .

### دوافع الزيارة ومعناها بالنسبة لاسرائيل

كتب الكثير في اسرائيل ، منذ اعلن السادات عن نيته في زيارة القدس ، عن دوافع تلك الزيارة ومعناها بالنسبة للاسرائيليين . ويكاد يكون هنالك شبه اجماع على ان عوامل القوة الاسرائيلية هي التي دفعت السادات الى القيام بتلك الزيارة . وقد عبر احدهم عن هذا الرأي بقوله انه « لا ينبغي ان ننسى ان السادات حضر الى القدس فقط بعسد فشل مصر في اربع حروب ، وفي حرب الاستنزاف ايضا ، ثم فشل المقاطعة العربية ، وكذلك بعد توطيظ مشارف رفح واقامة [مدينة] يميمت [على الاراضي المصرية في شمال غرب سيناء ] ويعد صمودنا العنيد امام الضغط الاميركي خلال عشر سنوات ٠٠٠ سنتذكر دائما ان زيارة السادات للقدس سببها محاربو النقب وسيناء ، ومستوطنات المهاجرين التي صمدت امام هجمات الفدائيين ، في قطاع غزة ، وعابرو القناة ومستوطنو النقيب ويثر السبع وايلات ٠٠٠ ان السلام سيحل نتيجة لتعاظم قوتنا ، لا تقزيمنا » (١)

وسواء كانت دوافع السادات استسلامية او متعلقة بشخصه « كداعية سلام » ، كما يصف نفسه ، فأن معنى الزيارة واهميتها بالنسبة لاسرائيل ، يبقيان مدار نقاش واسع ، يتأرجح بين « التفاؤل خيرا » بنتائجها ، وبين التشاؤم والتحذير منها . فالبعض يرى ، مثلا ، ان تلك الزيارة قد أدت ، اولا ، الى « نسف » السياسة الاسرائيلية القديمة ، التي اعتمدت على « عدم وجود احد على استعداد للتفاوض معنا » . وان المشكلة الاساسية هي ان العرب غير مستعدين للاعتراف بوجودنا » ، وهي العبارات التي كانت تتسلح بها اسرائيل لدى الرأي العام الدولي ، لتبرير تصليبها ورفضها لمشاريع التسوية المختلفة . خلال السنين العشر الاخيرة . فقد اعلن يتسحاق رابين ، رئيس الحكومة الاسرائيلية السابق ، عقب زيارة السادات : « انني اؤمن ان خطوة السادات هي ذات اهمية كبيرة ، وستؤدي الى تغيير بعض المفاهيم التي كانت قائمة عندنا . فالتعبير العلني عن الاعتراف باسرائيل والاستعداد للقبول بها كدولة مستقلة كما هي في جوهرها ، في الشرق الاوسط ، ثم البدء بالتفاوض المباشر معها ، يشكلان تغييرا يصعب التراجع عنه من وجهة النظر المصرية . انني اؤمن ان هذا الامر يعكس الاتجاهات الحقيقية التي تطورت لدى الشعب المصري منذ حرب يوم الغفران » (٢) . أما دافيد هكروين ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست سابقا ، واحد السياسيين القدامى في اسرائيل ، فقد اشار الى انه « ينبغي النظر الى هذه الزيارة . والى تصريحات السادات وشروطه ، كنقطة تصول تاريخية في علاقاتنا مع العرب » (٣) . ويعتقد البعض أيضا ان تلك الزيارة قد أدت الى تحول في اوضاع اسرائيل ، فنقلتها من حالة « الهدوء » التي عاشتها طيلة عشر سنين - « حيث لم يكن هنالك احد نتحدث اليه . وتنازلنا طوعا حتى عن مفاوضات مباشرة ، وكنا على استعداد لان يقوم يارينغ . او كيسنجر ، بجولات متكررة في المنطقة من اجل الوصول الى وثيقة ما ، ربما تؤدي الى « محادثات جوار » (٤) - ولقاءات على اعلى المستويات بين اسرائيل ومصر . « والسادات يتحدث علنا عن سلام كامل بجميع عناصره ، وعن تفهمه لمتطلبات امننا . ولو حدثت امور كهذه قبل سنة لاعتبرت خيالية جدا » (٥) .

ويرى اخرون في زيارة السادات دلالات اخرى ، لعل أهمها هو ان تلك الزيارة « ربما تحمل بوادر تحطيم الاسطورة العربية » بإمكانية القضاء على اسرائيل . فيعقوب حزان ، احد قدامى زعماء حزب ميم ، يعتقد « ان لكل شعب اسطورة خاصة به . وهي عبارة عن خرافة تعود جذورها الى الواقع التاريخي ، ولكن خلال نشوئها تحطم حدود الواقع وتحول الى قوة حية وفعالة والى جزء من روح الشعب . فالسادة كانت مسن اختراع قلة ، ولكنها ولدت اسطورة بائسة حول شعب يقاتل في سبيل حريته وشرفه ، حتى من دون اي امل في النصر . وهكذا تولدت [أيضا] الاسطورة الكبيرة المتمثلة في انتصار العرب على الصليبيين . لقد قضي على الملكة الصليبية ، التي صمدت بأشكال مختلفة ما يقارب من مائتي سنة ، بسبب فسادها الداخلي وعمقها القومي ، وانفصالها عن مصدر نشوئها - اوروبيا المسيحية - ثم عدم تأصلها ، بواسطة العمل الانتاجي ، في الارض المقدسة التي حررتها - حسب مفهومها - من حكم الاسلام . واخيرا ، هزمت امام جيوش صلاح الدين . ان اسطورة انهزام هذا العدد الكبير ، وانه كان باستطاعة العالم العربي الانتظار أجيالا حتى اسقاطه ، هي الامر الالهم . والاسطورة هي : كل جسم غريب يدخل الى المنطقة العربية - الاسلامية ، نهايته الاندثار . فالعالم العربي هو الازلي والغازي من الخارج ، هو الذاهب مع الريح .»

« وربما تكون زيارة السادات بداية تدمير ركائز هذه الاسطورة ، وبداية التسليم

بوجود اسرائيل كدولة يهودية مستقلة داخل البحر العربي ٠٠٠ : « (٦) »

اما زميل حزان ، الوزير الميامي السابق مردخاي بنطوف ، فقد أكد على أهمية الزيارة في كسر عامل العداء العربي لاسرائيل ، وما قد تؤول اليه من تحييد ثلث العم—رب تقريبا ، اي سكان مصر ، من دائرة العداء تلك ، بقوله : عندما انظر الى هذا العداء العميق تجاهنا من جانب دول الرفض ،مثل ليبيا والجزائر واليمن الجنوبية والعسراق وغيرها ٠٠٠ وهي دول ليست لنا اية علاقة بها ، ولم نتعرض لها ابداً ، وليست لها أية معرفة بنا - يملكني الخوف من ان ينتصر خطها بين المائة مليون عربي ، ويسود العداء على مر الايام ، خصوصا بعدما يزداد التعاون بينها ، وتمتلك المزيد من مخازن الاسلحة الفتاكة ، التي ستضاف اليها ايضا « اسلحة اميركية ، لان اميركا مضطرة الى الصراع من اجل نفوذها في هذا الجزء من العالم . كما ان الاتحاد السوفييتي ، الذي ما زال يعترف بدولة اسرائيل في حدود ١٩٤٨ ، يتوقف عن التعامل معنا ، وينضم مع حلفائه الى معسكر العداء العربي - فما هو المستقبل الذي نتوقعه على هذا الاساس بعد ٢٠-٣٠ سنة ، حتى في حدود يغال ألون « القابلة للدفاع » ، او حدود موشي دايان ؟

« وفجأة فتحت ابواب السماء ، واطلت علينا زيارة السادات ، وساد الامل بان ذلك ربما يؤدي الى خروج اكثر من نصف المائة مليون عربي ٠٠٠ من دائرة العداء والحرب ضدنا . اليس لهذا الامر اية قيمة امنية لمستقبلنا ؟ » (٧)

كذلك يعتقد رجل ليكود ، موشي أرنس ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيسة حاليا « ان زيارة السادات هي بالتأكيد حدث مهم ، ليس في تاريخ [اسرائيل] فقط ، وانما في تاريخ الحركة الصهيونية . فللمرة الاولى طرأ تغيير على الموقف العربي ، الذي تمثل في عدم الاعتراف بنا ، ورفض الجلوس معنا وجها لوجه ٠٠٠ ان زيارة السادات هي اذن - بدرجة معينة - انتصار لنا ٠٠٠ لان زعيما عربيا ادرك اخيرا ان القضية لا تحل بالقوة » (٨) . وبمعنى اخر ، ان السادات استسلم لعامل القوة الاسرائيلي ، وهذا ما دفعه الى زيارة القدس .

الا ان هنالك نقاشا واسعا حول صحة هذه النقطة بالذات . فرئيس الاركان الاسرائيلي السابق ، مردخاي غور ، يعتقد « ان الخيار العسكري بقي قائما لدى المصريين ، كما كان سابقا . وليس لدي ادنى شك في ان المصريين لم يتنازلوا عنه ابداً . واذا تبلور وضع سياسي ، يقتنع العالم معه ان الحرب صادقون مائة في المائة ، وان اسرائيل هي المذنبة في افسال جميع الاتصالات بشأن السلام ، سيظهر الخيار العسكري من جديد » (٩) . وعلى ضوء الازمة الحالية في المفاوضات السياسية بين مصر واسرائيل ، والخلافات بين اسرائيل والولايات المتحدة ، يضيف غور : « استطيع فقط القول اننا خدعنا تجاه العالم الكبير على الاقل ، من الناحية السياسية . اقول : خدعنا . ومن المهم جدا ان نتذكر : مثلما توجد حيل في الاستراتيجية ، كذلك في السياسة أيضا الشبه ذاته » (١٠) .

ويبدو ان غور ليس الوحيد الذي وصل الى هذه النتيجة . فقد اعلن ايضا مثيرسري ، زعيم ميام العجوز ، ان « ليست [لديه] ثقة كبيرة بنوايا السادات . واعتقد انه يسعى الى خداعتنا ، ويحاول ان يتسلح اكثر منا . فأذا نشبت حرب خدعنا من الشمال والشرق ، ليس هنالك اي ضمان لعدم انضمامه ، مع جيشه ، اليها » (١١) .

الا ان هناك من يفند هذا الرأي ، خاصة بين صفوف المعارضين لسياسة الحكومة

الاسرائيلية ، وتصرفاتها اثناء سير المفاوضات مع مصر . فقد اعرب يتسحاق بن - اهرون ، احد زعماء الجناح العمالي ، وسكرتير عام الهستدروت سابقا ، ( ومن اشد الزعماء العماليين كرها لليكود ) عن اقتناعه وايمانه « بوجود دافع عربي ، خصوصا مصري ، لتحقيق سلام مع اسرائيل . ومن الغباء اعتبار ذلك خداعا مكشوفاً . ان مصر ليست في حاجة الى مبرر لكي تتبع سياسة حربية ، اذا كان هذا قصدها . فعندما اقتنعت بوجود مصلحة لها في السلام ، ونضج لديها الادراك بأنه لا يمكنها الحصول على شيء عن طريق الحرب ، نشأ الاساس للمفاوضات » . (١٢)

وعلى كل حال ، فان النقاش حول معنى زيارة السادات واهدافها واهميتها لم ينته بعد ، وهو آخذ في التشعب كلما جد جديد على المفاوضات السياسية بين مصر واسرائيل .

### مشروع السلام الاسرائيلي

كانت احدي النتائج التي ترتبت على زيارة السادات للقدس - قيام مناحيم بيغن ، رئيس حكومة اسرائيل ، بتقديم مشروع سلام اسرائيلي . وقد عرض بيغن مشروعه هذا على السادات ، خلال لقائهما في الاسماعيلية يومي ٢٥ و ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، ثم عرضه على الكنيست في الثامن والعشرين من الشهر نفسه ، فنال موافقة الاكثريّة فيها عليه . وكان بيغن قد حمل ذلك المشروع معه الى واشنطن ، خلال زيارته لها في منتصف ذلك الشهر ، حيث عرضه على الادارة الاميركية وزعم فيما بعد انه نال موافقتها عليه .

ويتلخص مشروع بيغن - كما عرضه امام الكنيست (١٣) - في اقتراح انشاء « حكم ذاتي اداري » في الضفة الغربية وقطاع ( الذي سماه بيغن « اقليم » ) غزة ، من قبل سكان تلك المناطق ولصالحهم ، أي استبعاد الفلسطينيين في المهاجر ، على اساس الغاء الحكم العسكري الاسرائيلي في تلك المناطق . وسيقوم المجلس الاداري ، الذي سينتخب من قبل السكان المحليين ، بالاهتمام بمعالجة جميع القضايا الادارية ، في مجالات التعليم والشؤون الدينية والمواصلات والبناء والاسكان ، والصناعة والتجارة والسياحة ، والزراعة والصحة والعمل والانعاش . كذلك سيكون ضمن مجال صلاحياته العمل على اعادة تأهيل اللاجئين ، والاشرف على الادارة القضائية ، وعلى قوة شرطة محلية . ويحق له اصدار الانظمة المتعلقة بسير العمل في جميع تلك الدوائر والاجهزة . اما شؤون الامن والنظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فسيعهد بها الى الجيش الاسرائيلي .

وفيما يتعلق بالجنسية ، فان مشروع بيغن يخير السكان الفلسطينيين في هذه المناطق ، بين الحصول على الجنسية الاردنية - بعد الاتفاق مع الاردن في هذا الشأن - او الجنسية الاسرائيلية .

كذلك يتطرق المشروع الى الاعتراف بما يسميه الحق المتبادل في امتلاك الاراضي ، اي انه يحق لسكان اسرائيل امتلاك الاراضي والاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما يحق للعرب من سكان هذه المناطق شراء الاراضي والسكن في اسرائيل .

وفيما يتعلق بالقدس ، فانها ستبقى - حسب المشروع - عاصمة لاسرائيل ، مع ضمان

حرية وصول أبناء جميع الديانات الى الاماكن المقدسة الخاصة بهم .

ويقترح بيغن أيضاً ابقاء مسألة السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة مفتوحة ، « مع تمسك اسرائيل بحقها ومطلبها في السيادة » على تلك المناطق .

اما الجزء الثاني من مشروع بيغن للسلام فيتعلق بمعاهدة سلام بين مصر واسرائيل ، تعتمد على تجريد مناطق واسعة في سيناء من السلاح ، وعدم اجتياز الجيش المصري خط المتلا والجدي ، وتخفيض القوات العسكرية المصرية بين قناة السويس وبين هذا الخط . وفيما يتعلق بالمستوطنات الاسرائيلية في الاراضي المصرية ، فان المشروع يقترح بقاءها في اماكنها في وضعها القائم ، حيث تكون مرتبطة بالادارة والقضاء الاسرائيليين ، وتدافع عنها قوة اسرائيلية . كذلك ينبغي ان تكون هنالك فترة انتقالية ، تستمر سنوات عديدة ، يربط خلالها الجيش الاسرائيلي على خط دفاعي في وسط سيناء ، مع ابقاء مطارات واجهزة انذار اسرائيلية ، الى ان يتم الاتسحاب الاسرائيلي الى الحدود الدولية . وينص ايضا على ضرورة ضمان حرية الملاحة في مضائق تيران ، مع الاعتراف بان هذه المناطق هي ممر مائي دولي يجب ان يكون مفتوحا للملاحة ، لا يسهة سفينة ، وتحت اي علم .

وتجدر الإشارة ، الى ان مشروع بيغن ، لم يتطرق ابدا الى هضبة الجولان ، باعتبار ان نيس هنالك « من هو على استعداد للتفاوض بشأنها » ، وان الهضبة ستضم الى اسرائيل ، كما يبدو ، بعد حل المشكلات المتعلقة مع مصر والاردن .

وبعد انتهاء بيغن من تقديم مشروعه ، دار حوله نقاش واسع في الكنيست ، استمر ساعات طويلة . ويمكن تلخيص التحفظات والاعتراضات على المشروع ، التي طرحت خلال ذلك النقاش ، في نقطتين اساسيتين : الاولى اعتبار مقترحات بيغن « مبالغاً فيها » و « سخية » بالنسبة لسيناء ، وعدم الوضوح بشأن مستقبل المستوطنات في مشارف رفح ، والثانية ، التركيز على « مخاطر » الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وما قد يسببه من اضرار لاسرائيل في المستقبل .

الا ان مجمل ردود الفعل من جانب مختلف الكتل السياسية في الكنيست ، عسلى مقترحات بيغن لم يكن قاسيا ، خصوصا بعد ان اتخذت المعارضة الرئيسية ، المتمثلة في التجمع العمالي ، موقفا « معتدلا » ، ظهر بوضوح في خطاب زعيم المعارضة شمعون بيريس ، الذي القي كرد ، وكتعليق على مشروع سلام بيغن . وقد « أشاد » بيريس في خطابه بحكومة بيغن لاستعدادها لتقديم تنازلات في سبيل الوصول الى تسوية - « فنحن ٠٠٠ كمعارضة مسؤولة ، لن ننتقد الحكومة بسبب حقيقة استعدادها للسير في طريق التسوية وتقديم التنازلات ، ولن نندد بها بسبب استعدادها للتنازل عن منطقة [ما] والتخلي عن مواقف سابقة ٠٠٠ » (١٤) - ولكنه حرص ، من ناحية ثانية على التأكيد على الخلافات في المنطلقات بين حزبه وحكومة بيغن . وعرض بيريس هذا الخلاف بقوله : « اننا نعارض مواقف الحكومة ، لان منطلقاتنا بالنسبة لبعض البنود الاساسية مختلفة . كذلك فقد علمتنا تجربة المفاوضات انه يجب اتباع طريقة مختلفة عن تلك التي اتبعتها الحكومة . واود هنا ان اشير الى الاختلاف في المنطلقات . اولاً ، رغم ارتباطنا بميراث ابائنا ، علينا ان نميز بين الميراث وبين الدولة . فالارض يمكن ان تبقى دائما بمثابة ميراث تاريخي ، ولكن طابع الدولة يقرر غالبا حسب الوضع الديمغرافي القائم فيها ، في الحاضر او المستقبل ٠٠٠ ثانياً ، ان كل تسوية سياسية ، يجب ان تضمن ليس فقط استقلال اسرائيل [السياسي] وانما استقلالها الدفاعي ايضا . وسواء كانت هنالك

معاهدة دفاع مع [الولايات المتحدة] ام لا ، فاننا لا نستطيع ان نسلب الاجيال المقبلة الحد الأدنى المطلوب من الاراضي للدفاع عن انفسنا ، ومن هنا سياستنا بشأن الحدود القابلة للدفاع ، وبشأن المستوطنات والمناطق ٠٠٠ ثالثا ، ليست لدينا اية نوايا فسي السيطرة على السكان العرب الذين لا يعيشون داخل حدود اسرائيل ٠٠٠ ولا اضطهاد السكان العرب الذين يعيشون في اسرائيل ٠ رابعا ، اننا نعتقد ان طريق السلام هي طريق الحل الوسط فيما يتعلق بالسلطة والزمن والمناطق ، انما لا يستلزم السلام حلولا وسطا . ومن هنا معارضتنا لاقامة دولة فلسطينية اضافية بيننا وبين المملكة الاردنية ٠ ان دولة كهذه ستكون سببا للعدوان الدائم [بسبب] الضيق الجغرافي ، اكثر من كونها اطارا للاستقلال « (١٥) » .

وجاء خطاب بيريس هذا بمثابة فاتحة لحملة من ردود الفعل المختلفة ، على اصعبه عدة ، حول مشروع السلام الذي قدمته حكومة بيغن ، تمثلت في نقاش واسع ، اتسع وتشعب حتى شمل معظم نواحي سياسة التسوية الاسرائيلية . ويمكن حصر اهم المواضيع ، التي دار النقاش حولها ، في النقاط التالية : اولا ، معنى السلام مع مصر وطبيعته وانعكاساته ٠ ثانيا ، الموقف من القضية الفلسطينية والحلول المطروحة لها ، سواء من جانب الحكومة الاسرائيلية ، او من جانب العرب ، ثالثا ، مستقبل سياسة الاستيطان والتوسع الاسرائيلية ، وعلاقتها بالاراضي المحتلة ، رابعا ، هل يخدم السلام مصالح اسرائيل ام لا ، وهل هو مفيد ام مضر لها ٠ خامسا ، هل اسرائيل مجبرة على الوصول الى سلام مع العرب ، في ضوء علاقاتها الخارجية ووضعاها الداخلية ؟ ، سادسا ، واخيرا ، ما هي نوعية السلام الذي يتطلع اليه الاسرائيليون ، وما علاقته بمفاهيمهم الامنية ومصالحهم المستقبلية .

### الهدف : عزل مصر عن المشرق العربي

تركز الاهتمام في اسرائيل ، منذ زيارة السادات الى القدس ، على الدعوة السمي عقد سلام منفرد مع مصر ، بهدف عزلها عن دول المشرق العربي وتحبيدها في الصراع العربي - الاسرائيلي . ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الاسرائيليين ، نظرا الى الاستراتيجية الاسرائيلية القديمة الساعية الى عزل مصر عن المشرق العربي من ناحية ، والى التأثير الذي خلقته زيارة السادات لدى الرأي العام الاسرائيلي على المستويين الرسمي والشعبي ، من ناحية ثانية . حتى ان التساؤل ، حول ماذا يمكن ان يكون هدف السادات من وراء زيارته المفاجئة الى القدس ، اذا لم تكن الرغبة في عقد سلام منفرد مع اسرائيل ، بات امرا بديهيا . ورغم ان السادات حرص على الدعوة الى حل شامل لجميع القضايا المتعلقة بالصراع العربي - الاسرائيلي ، فان الرسميين الاسرائيليين ، كانوا - ولا يزالون - يتطلعون منذ الزيارة ، الى صلح منفرد مع مصر . ووجد ذلك الاتجاه تعبيراً عنه في مقترحات الحكومة الاسرائيلية الاولى بشأن سيناء ، المتثلة في الاعلان عن الحدود الدولية ، بين مصر وقلسطين ، مع الابقاء على المستوطنات الاسرائيلية في مشارف رفح ، تحت الحماية العسكرية لاسرائيل .

وقد اثارت هذه المقترحات ، في حينه ، ردود فعل معارضة شديدة داخل اسرائيل ، سواء من جانب الاحزاب المعارضة ، او من جانب مجموعات من احزاب الائتلاف الحكومي ايضا . وتركزت تلك المعارضة على ان هذه المقترحات مبالغ فيها و « سفية » جدا . خصوصا بالنسبة للاعتراف بالسيادة المصرية على شبه الجزيرة ، مما قد يؤدي الى

انهاء وجود المستوطنات الاسرائيلية في هذه المنطقة . لكن اتضح ان الحكومة الاسرائيلية هدفت من وراء مقترحاتها تلك ، بشأن سيناء ، الى اغراء الرئيس المصري بالقبول بحل منفرد مع اسرائيل ، مقابل تنازله عن الالتزام بالحقوق الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهو ما باء بالفشل ، لان السادات تصرف على عكس ذلك . ووصف أحد المعلقين في اسرائيل حفاي اشد ( وهو أحد المقربين من بن غوريون في الماضي ) مقترحات اسرائيل بشأن سيناء ، بأنها عبارة عن « صفقة رزما : ابتعاد اسرائيل عن سيناء مقابل يقائها في ارض اسرائيل . الا ان السادات رفض مشروع الصفقة من اساسه . ولو وافق عليه لامكن الوصول بسهولة الى اتفاق حول جميع التفاصيل المعقدة في حد ذاتها الذي يشملها هذا المشروع . . . لقد عمل السادات على حل صفقة الرزما ، فقد حصل على سيناء ، وبالمقابل لم يتنازل عن ارض - اسرائيل . انه يطالب الان بالحصول على التزام مبدئي من جانب اسرائيل لانسحاب كامل من الضفة والقطاع في المستقبل ، وهو مستعد فقط للمساومة على تأجيل تنفيذ هذا الالتزام المبدئي ، بينما يصر على الحصول على « اخر سنتيمتر مربع » من سيناء حسب تعبيره . ويعني بذلك تنازلا اسرائيليا عن قطاع الامن الضيق على الحدود الاسرائيلية الذي يشمل سلسلة من المستوطنات ، ومطارات وطرقا ومنشآت أمنية مختلفة » (١٦) .

وانطلاقا من هذا الفهم لموقف الحكومة من التسوية في سيناء واستعدادها « للاعتراف » بالسيادة المصرية على شبه الجزيرة ، وجهت انتقادات شديدة لمشروع السلم الاسرائيلي . ووصلت تلك الانتقادات درجة من الحدة ، يكاد يبدو معها بيغن كأنه « حمامة » ، اذا قورنت مواقفه بمواقف المعارضة ، او بمواقف جماعات واسعة داخل كتلته . فقد تساءل ، مثلا ، يفتال لون ، وزير خارجية اسرائيل السابق « عما دعا رئيس الحكومة الى التسرع في التنازل عن مواقف المساومة ومصالحنا المعقولة في سيناء ، دون النجاح في الحصول على مقابل لذلك ، اي موافقة مصرية على مشروعاته الجديدة في اليهودية والسامرة وغزة . لم تكن تطلعاتنا في سيناء تاريخية ، بل استراتيجية فقط . وبحسب حسن معرفتي ، فان بالامكان توفيسر حاجات اسرائيل الامنية ، عن طريق السيطرة الاستيطانية العسكرية في الجبهة الجنوبية ، مع تعديلات غير اساسية على الحدود ، لا تنطوي على مساس حتمي بكرامة مصر » ( ١٧ ) .

كذلك اعلن شمعون بيريس ، وزير الدفاع السابق ، ان الحكومة اخطأت باعتقادها « ان بواسطة البدء بالمفاوضات من النهاية ، يمكن الانتهاء منها بسرعة . كما اخطأت في التاكيد كثيرا على [اهمية] موضوع سيناء ، دون ان تبقى في حوزتنا مواقف تراجع سياسية . وهذا بالاضافة الى تقييم خاطيء كان بواسطة تنازلات مبالغ بها في سيناء ، [سنعق] من الحاجة الى مفاوضات متقدمة اكثر في قضية اليهودية والسامرة . ان هذا ليس خطأ تكتيكيا فقط ، بل انه نابع من دوافع ايديولوجية ايضا . اما الخطأ الاخير فيتعلق بقضية المستوطنات . لقد اعتقدت الحكومة ان سيكون اسهل على المصريين قبول [تنازلات] بشأن المناطق المأهولة ، بدلا من المناطق العسكرية . لكن اتضح ان من الاسهل لمصر عقد اتفاقيات تحت عنوان « الدفاع » بدل ان يكون العنوان استيطانيا » ( ١٨ ) .

اما حاييم بار - ليف وزير التجارة والصناعة سابقا ، والسكرتير التنظيمي لحزب العمل حاليا ، فيرى ان بيغن اخطأ « عندما وافق على انسحاب جيش اسرائيل الى الحدود الدولية في سيناء ، فقد تنازل عن مناطق حيوية لامتنا ، ولكنه لم « يشتر » السادات بهذا التنازل ، وفقد قدرته على اقتراح تنازل اخر خلال المفاوضات حول التسوية في سيناء . وفي الحقيقة ، فان المشروع الاسرائيلي بشأن سيناء هو بمثابة

الكلمة الاخيرة ٠٠٠ وكل من له خبرة في ادارة مفاوضات من أي نوع كان ، يعرف ان الموقف الاولي اذا كان هو نفسه الموقف النهائي ، فان احتمالات نجاح المفاوضات قليلة جدا « (١٩) » .

ولم تقتصر ردود الفعل على المعارضة فقط ، كما ذكرنا ، وانما شملت أيضا مجموعات مقربة من رئيس الحكومة بيغن . فموشي شامير احد الاعضاء القياديين في كتلة ليكود ، يرى - في معرض معارضته لمشروع بيغن حول سيناء - ان مصر ليست في حاجة الى سيناء ابدا . « وليست لشبه الجزيرة الصحراوية هذه اية قيمة او وزن بالنسبة لمصر . عدا عن كونها منفذا للنفوذ والسيطرة على المنطقة الاسيوية فسي الشرق الاوسط . ان مصر لم تستوطن ابدا ولم تطور سيناء ، وليس لشبه الجزيرة اي دور في حل مشكلات مصر الكثيرة . ان كل ما هو موجود في سيناء - له مثيل في مصر نفسها اضعافا مضاعفا ، وهذا يشمل كل شيء - من الهضاب الرملية وحتى صخور الجبال او الينابيع المالحة او النفط » (٢٠) . اما شموئيل كاتس ، المستشار الاعلامي السابق لبيغن ، فينكر على مصر حقها في المطالبة باسترجاع سيناء ، لان شبه الجزيرة ، « لم تكن ضمن السيادة المصرية ، وحتى ان مواطنيها لم يغنموا الجنسية المصرية » (٢١) وكان شامير وكاتس - بالاضافة الى النائبة غيولاه كوهين - من بين مجموعة تكتل داخل ليكود يهدف العمل ضد مشروع سلام بيغن ، ويبدو انها حملته على التراجع عن بعض مواقفها السابقة ، نحو مزيد من التصلب .

### المطالبة بضم جزء من سيناء الى اسرائيل

لم تقتصر ردود الفعل على مشروع سلام بيغن ، على مهاجمة اقتراحات الحكومة وتصرفها اثناء المفاوضات مع مصر ، وانما اتسعت ايضا لتشمل عرض حلول بديلة ، تعكس وجهات نظر مختلفة بشأن سيناء والمستوطنات فيها وطبيعة السلام مع مصر .

واهم هذه الحلول البديلة هي ما يقترحه بعض زعماء المعارضة بشأن المطالبة بتعديل الحدود في سيناء ، بحيث تبقى اسرائيل مسيطرة على قطاع مشارف رفح ومنطقة المستوطنات في سيناء . ويبدو ان هذا الحل يتمتع بتأييد لا بأس به لدى فئات اسرائيلية مختلفة ، لانه يرتكز ، على حد زعم الداعين اليه ، على « متطلبات اسرائيل الامنية » . وجسب هذه المتطلبات يجب ان يكون لاسرائيل وجود عسكري وبشري في منطقة مشارف رفح في سيناء ، المحاذاة لقطاع غزة ، بهدف عزل شبه الجزيرة في القطاع ، وبالتالي عن الجبهة الشرقية . ويرى يغثال الون ان السيطرة الاستيطانية العسكرية في الجبهة الجنوبية يمكن ان تلبي حاجات اسرائيل الامنية ، « لان مشارف رفح تسيطر على ممر الغزو التاريخي من افريقيا الى اسيا منذ العصور الغابرة والى يومنا هذا . وهي تشكل في الحقيقة المدخل الجنوبي [للغولان] » . ولذلك اقمنا فيها مستوطنات وقاعدة جوية ، مما هو ضروري جدا من الناحية الامنية ، دون تعريض امن مصر للخطر . وكان وضعنا في خليج ايلات [العقبة] واهيا جدا بموجب الحدود السابقة . ولذلك وجدنا ضرورة لتعزيز مواقعنا العسكرية غربي ايلات . وهذا ينطبق ايضا على مشارف نتسانا [العوجة] ، ناهيك عن ضمان حرية الملاحة عن طريق السيطرة الثابتة على شرم الشيخ ، التي توافق عليها مصر . واذا ما تقرر ، معاذ الله ، تسليم شرم الشيخ لقوات الطوارئ الدولية كضمانة لحرية الملاحة ، فسنعتبر ذلك ترتيبا غير كاف » (٢٢) .

اما حاييم بار - ليف ( وهو رئيس اركان سابق ) ، فيعتقد ان مشارف رفح ومنطقة



ايلات ومنطقة شرم الشيخ هي مناطق ذات أهمية استراتيجية من الدرجة الاولى « فالسيطرة الاسرائيلية على مشارف رفح تقطع الامتداد الاقليمي العربي من مصر حتى جنوب اشكلون [عسقلان ، الواقعة الى الشمال من غزة] ، وتسمح بانتشار افضل لسلح الجو [الاسرائيلي] ، وتضمن مجال مناورة معين بين منشآتنا [العسكرية] الامامية وبين التجمعات السكنية في النقب ، كما ان الانسحاب الى الحدود الدولية في منطقة ايلات ، سيضع « المدينة ، بموانئها البحرية والجوية ، في رأس زاوية ضيق بين الاردن ومصر ، ويبقيها في الخط الامامي ، مقابل الاردن ، مصر والسعودية ، من دون مؤخرة ، وحتى من دون قدرة على الاستعانة بسلح الجو في ظروف جوية معينة . كما سيؤدي ذلك الى تقليص مجال انتشار سلاح الجو [الاسرائيلي] وتدريبه . [اما] أهمية شرم الشيخ الاستراتيجية فانها نابعة ، قبل كل شيء ، من حقيقة أن كل من يتواجد في ذلك المكان وسيطر عليه ، بإمكانه التأثير أكثر من أي عامل آخر على حرية الملاحة ، سواء في ايلات او في السويس . كذلك يجب ان نذكر ان اسرائيل تستطيع تأمين مرور سفنها في مضائق باب المندب ، اذا كانت تملك قاعدة بحرية ومطارا عسكريا في منطقة شرم الشيخ » (٢٣)

وانطلاقا من ذلك يقترح بار - ليف « ان تتراجع الحكومة ، من اجل أمن اسرائيل ؛ عن اعلانها في صدد الاعتراف بالسيادة المصرية على كل منطقة سيناء ، والمطالبة بأن تسري السيادة الاسرائيلية بصورة كاملة على مشارف رفح وعلى منطقة اخرى تمتد ٢٠ كم من ايلات ، الى عمق سيناء ، من اجل أمن ايلات ، ومن اجل الاستمرار في الاحتفاظ بالقاعدة الجوية الحيوية [القريبة منها] ضمن السيادة الاسرائيلية . فقد ازدادت أهمية القواعد الجوية لامن اسرائيل خلال الفترة الاخيرة ، بسبب ازدياد القوة العسكرية في كل من سوريا والعراق ، وفي ظروف كهذه محظور علينا ترك قواعدنا الجوية في سيناء ورفح وقرب ايلات » (٢٤)

ويبدو ان الدعوة الى ضم اجزاء من سيناء الى اسرائيل ، بهدف المحافظة على «أمنها» تلقى تأييدا واضحا لدى عدد من عمداء الجيش الاسرائيلي ، ممن كانت لهم مناصب في المؤسسة العسكرية الاسرائيلية في السابق . فقد اعلن مثلا العميد ( احتياط ) يشعياهو غافيش ، قائد المنطقة الجنوبية في حرب ١٩٦٧ ، ان تربيات الامن الضرورية مع مصر يجب ان تتمثل في « تجريد شبه جزيرة سيناء من السلاح ، حيث يتمركز المصريون الى الغرب ، والاسرائيليون في الشرق . وفي سيناء نفسها ينبغي وضع ترتيبات لاعطاء اذار مسبق بكل وسيلة مفيدة ، بحيث تمنح الاطراف معلومات جديدة ودقيقة . اما انسحاب الجيش الاسرائيلي من سيناء فيجب ان يتم تدريجيا وعلى مراحل ، خلال عشر سنوات او اكثر ، وذلك من اجل الاطلاع على بويا مصر خلال هذه الفترة . كذلك يجب ان تسيطر اسرائيل على مناطق معينة [في سيناء] ، بواسطة استئجارها او بآية وسيلة اخرى متفق عليها . والحديث هنا حول ثلاثة مراكز حساسة في سيناء : المنطقة الامامية بين العريش ورفح ، مساحة [بالقرب] من منطقة ايلات . ومساحة اخرى في منطقة شرم الشيخ » (٢٥)

كذلك اعلن العميد ( احتياط ) منير زورباغ ، رئيس شعبة العمليات سابقا ، وأحد زعماء الحركة الديمقراطية للتغيير ( داش ) حاضرا ، انه ليس هنالك بديل للارض والجيش . « وفيما يتعلق بسيناء ، اعتقد ان الخط [الحدودي الجديد] لا يجب ان يكون

من الشمال الى الجنوب ، وإنما على شكل شبه زاوية تمتد من العريش الى اسفل [الجنوب] ، وتجه غربا حتى شاطئ خليج السويس ، شمالا قدر الامكان . واسباب هذا الاقتراح هي عسكرية بحتة . ان هذه المنطقة تشمل مجال انتشار ووسائل انذار للمقاتل الجوي ، ومطارات امامية ، مع الارض اللازمة لحمايتها من الغرب « (٢٦) » .

اما العميد ( احتياط ) ابراهيم يافيه ، قائد ( تشكيل ) سابقا ، فيرى ان « الحد الأدنى الضروري هو قطاع من الارض بعرض ٣٠ - ٥٠ كم من الحدود الدولية الى الغرب ، يجب ان يكون تحت سيطرة اسرائيل الكاملة . واقتصد القطاع الذي يبدأ في يمين [على شاطئ البحر المتوسط] في الشمال وحتى رأس محمد [بالقرب من منطقة شرم الشيخ] في الجنوب . واذا لم يتوفر ذلك ، فان كل اتفاق هو بمثابة كارثة » (٢٧) .

كذلك يلقي مشروع الاحتفاظ بمنطقة مشارف رفح ، تأييدا واسعا بين الحركات الاستيطانية المختلفة ، التي تطالب بضمان « مستقبلها » في الاراضي العربية المحتلة . وقد نظمت هذه الحركات اعمال احتجاج واسعة ضد سياسة الحكومة الاسرائيلية ، مما دفع الى مزيد من التصلب الاسرائيلي اثناء المفاوضات ، وبالتالي ظهور حركات مضادة تتهم المستوطنين بعرقلة السلام ( وهذا ما سنتطرق اليه فيما بعد ) .

### اقتراح سلام كامل مقابل انسحاب شامل

بالاضافة الى الاقتراحات البديلة بشأن سيناء ، التي اشرفنا اليها ، هنالك ايضا اقتراحات اخرى تتمثل في المطالبة بانسحاب شامل للقوات الاسرائيلية من سيناء ومن المناطق المحتلة الاخرى مقابل الحصول على سلام كامل مع العرب . واصحاب هذا الاقتراح معروفون بنظريتهم القائلة ان الاحتفاظ بالمناطق المحتلة واقامة المنشآت العسكرية فيها ، مهما كانت ضخمة ، لا يمكن ان تحقق السلام لاسرائيل ، وان العلاقات الطبيعية وحسن الجوار هي الضمانات الرئيسية التي يمكن ان تساعد على العيش بسلام في هذه المنطقة . واحد مؤيدي هذا الاتجاه هو غاد يعقوبي ، الوزير العمالي سابقا ، الذي يقلقه « السؤال حول ماهية السلام الذي ينشده السادات . شقويا ، تحدث [ السادات ] عن سلام كامل ، مع علاقات دبلوماسية وكل ما رافقها . الا ان المقترحات المصرية لا تتضمن اشارة الى ذلك . وفي انظمة الحكم السائدة في الشرق الاوسط ، حيث يمكن بواسطة طلقة واحدة تغيير سياسة بأكملها ، فان طابع العلاقات التي ستسود [في المستقبل] هو الذي سيحدد فترة حياة السلام الذي سيتحقق . واذا كانت هنالك حدود مفتوحة ، وعلاقات تجارية وسياحية ودبلوماسية ، فستكون للشعوب مصلحة حقيقية في الحفاظ على السلام . ان السلام على الورق في الشرق الاوسط ، لا يساوي الورق المكتسب عليه » (٢٨) . ولذلك يرى يعقوبي انه على اسرائيل ، في سبيل الوصول الى سلام مع العرب ، « ان تقبل بالمخاطرة بتسليم كل سيناء تقريبا ، وعلى الاغلب تجريدها ، ثم اخلاء كل مناطق اليهودية والسامرة وغزة ، وتجريدها من السلاح ، بالاضافة الى ترتيبات امن وانذار فيها . واذا كان المقصود سلاما يغير الواقع حقا ، وليس سلاما كلاميا او تعاقديا ، وانما تغيير علاقات الشعوب والدول ، وديناميكية جديدة في المنطقة ، فمن الافضل المخاطرة من اجله . . . والتنازل » (٢٩) .

ويؤيد هذه الفكرة كذلك السياسي الاسرائيلي القديم ، دافيد هكوهين ، الذي رئس لجنة الخارجية والامن في الكنيست لسنتين طويلة . ويعتقد هكوهين انه ينبغي على اسرائيل

« تقديم ورقة عمل الى السادات لتحقيق [اهداف] زيارته الى القدس . علينا ان نؤكد - من خلال الاعتراف بان « حدود الامن » بين دولتين ليست عبارة محددة تعتمد على الجيوش والتحصينات ، والاسلحة فقط - أهمية شروط السلام كاختبار لحسن الجوار . علينا ان نطالب باقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع مصر ، تشمل علاقات ثقافية ، ووقف الدعاية والشتائم في الصحف ، ثم علاقات تجارية ، وسياحية ، وبحوثا علمية من اجل السلام ، وتحسين الوضع الاقتصادي ومستوى المعيشة . وكهدف بعيد المدى ، ينبغي الاشارة ايضا الى اتفاق على غرار السوق المشتركة ، وحتى الى حلف عسكري اذا كانت هناك حاجة لذلك ، بحيث تكون هذه الامور العامل الاول والاهم لعبارة « الحدود الآمنة » ومنع اغراءات الحرب » (٣٠) . الا ان هكوهين يطالب ، على الرغم من ذلك ، بالاحتفاظ بمنطقة رفح والمستوطنات الاسرائيلية فيها ، ولكن وفق منطق خاص به ، داعيا الى اجراء مفاوضات مع مصر حول هذه المسألة ، « نون المس ، قدر الامكان ، بمبدأ الانسحاب [من مشارف رفح] . لقد عاش في مصر ما يقارب مائة الف يهودي ، من اصل مصري واجنبي . ولقد بقي هناك بضعة عشرات فقط . يحتمل ان تكون هناك ضرورة للموافقة على ان مشارف رفح تخص مصر ، ولكن على مصر ان توافق على بقاء عشرة الاف يهودي داخلها كمواطنين اسرائيليين ، لكنهم يدفعون ، في الوقت نفسه ، الضرائب لمصر لانهم يعيشون على ارضها . وسيحظى المصريون بمحطة زراعية ممتازة ، لاستغلال الارض الصحراوية ، وبمستوطنات تتركز ايضا على صناعات غنية بالخبرات العلمية ، وربما [تدار في المستقبل] حتى بالتعاون مع مواطنين مصريين . . . ينبغي التوضيح ان الاستيطان في رفح ويميت ، مثلا ، ليس سوى جسر حي بيننا وبين مصر لتحقيق السلام » (٣١) .

ويبدو ان اقتراح هكوهين هذا ، حول تحويل الوجود الاسرائيلي في مشارف رفح الى « جسر للسلام » مع مصر ، يلقي تأييدا من قبل بعض الشخصيات الاخرى ، التي ترى ان من الواجب التفويض عن حل وسط لمشكلة الاستيطان في رفح ، وبالتالي عدم نسف المفاوضات مع مصر بسبب هذه المستوطنات . وفي هذا الصدد ، يعرب الوزير المبامي السابق مردخاي بنطوف عن تأييده لاقتراح « اقامة مشاريع صناعية مشتركة على امتداد الحدود ، تعود بالفائدة على الطرفين ، وتشكل حزام امن ممتاز . لذلك اقترحت على الحكومة بان تحاول اقناع المصريين باقامة شركة مشتركة مصرية - اسرائيلية ، تحصل على حقوق امتياز واسعة على قطاع من الارض يمتد من ايلات وحتى شرم الشيخ ، على البحر الاحمر ، وذلك لتحويله الى ريفيرا شتوية على مستوى عالمي . وكذلك تخصيص قطاع مشابه بين ايلات ورفح والبحر ، من اجل اقامة مشاريع صناعية مشتركة ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية وتحلية ماء البحر ، والاعلان عنها كمنطقة تجارة حرة . ان ترتيبا من هذا النوع سيؤدي الى جذب رؤوس اموال كثيرة من اميركا واوروبا والدول العربية ، الامر الذي يبدي الرئيس السادات حساسية بالغة تجاهه » (٣٢) .

ويبدو ان هذا الاتجاه هو الذي دفع بعض زعماء مباب الى التقدم باقتراحات بديلة ايضا ، بهدف ضمان الوجود الاسرائيلي في مشارف رفح حتى نهاية هذا القرن . وتحدث احد زعماء مباب ، يعقوب حزان ، عن هذا الاقتراح بقوله : « لقد انتشرت شائعة تقول اننا اقترحنا بقاء السيطرة الاسرائيلية على مشارف رفح حتى سنة ٢٠٠١ ، وعندئذ يتقرر مصيرها . لقد وافقت على هذا الامر كمخرج سياسي ايجابي للمشكلة التي تورطنا فيها بسبب تسرع بيغن في اتخاذ قراره غير العاقل . وخلال حديث لي مع زملائي ، في مباب

وفي حزب العمل ، اعلنت انه يمكن بهذه الطريقة ان تتوفر لنا ٢٥ سنة . واذا عرف الشعب اليهودي كيف يستغل هذه الفترة ، ويدفع خلالها ما بين مائة ، ومائة وخمسين الف مستوطن يهودي الى المنطقة ، فان هذا الواقع هو الذي سيقرر مصيرها . وبعد ٢٥ سنة من السلام مع مصر ، فان كل مشكلة ستلقى حلا لها بسلام . لن تحارب مصر من اجل استعادة هذه المنطقة المأهولة بالمستوطنات اليهودية الكثيفة ، خصوصا وانه ليس لها اية اهمية أمنية - دفاعية بالنسبة لها « (٢٣) » .

### الطلبات الاسرائيلية من مصر : صلح منفرد ، والاعتراف باسرائيل صهيونية

يتضح من ردود الفعل الاسرائيلية على زيارة السادات ، ومن مواقف الحكومة الاسرائيلية الرسمية واقتراحاتها واجراءاتها المختلفة ، ان الهدف الاسرائيلي الاساسي ، الذي تسعى اليه كل من الحكومة والمعارضة ، والذي يحظى بتأييد اكثرية الاسرائيليين ، هو عقد صلح منفرد مع مصر . والاهم من ذلك ، ان الصلح ذاك ينبغي ان يعقد وفق شروط اسرائيلية ، لا يبدو انها قابلة للنقاش كثيرا ، وما على السادات الا ان يقبل بها . واهم هذه الشروط هي :

اولا : الموافقة على بقاء الجيش والمستوطنات الاسرائيلية في مناطق واسعة من سيناء ، وخصوصا مشارف رفح .

ثانيا : الاعتراف بصهيونية اسرائيل ، ضمنا او صراحة . وكان بيغن قد كشف موقفه هذا ، عندما رد بعنف في احدى خطبه على قول السادات بان اسرائيل هي التي تطلب الاعتراف بها ، باعلانه : « اننا لا نطلب اعترافا بوجودنا ، بل اعترافا بحقنا في بلادنا وسيادتنا ، وحقنا في السلم وفي اتفاقية سلم » (٢٤) اي ما معناه ، بلغة اوضح ، الاعتراف بصحة الادعاءات الصهيونية بشأن العلاقة « التاريخية » بين اليهود وما يسمى ارض - اسرائيل و « حقوقهم » فيها ، وبالتالي الاعتراف بالعقيدة الصهيونية بأسرها وكل ما يترتب عليها .

وكان الكاتب الاسرائيلي المعروف يزهار سنيانسكي ( وهو صاحب قصة « خربة خزعة » التي تصف عملية طرد سكان القرى العربية خلال حرب ١٩٤٨ ) ، قد طالب بذلك بوضوح ، في معرض رده حول التنازلات التي يجب ان يقدمها العرب لاسرائيل من اجل تحقيق السلام ، بقوله : « ٠٠٠ يجب ان يتنازل العرب عن امرين في غاية الاهمية ٠٠٠ اولاً ، عن المطالبة بالحصول على كل شيء ، مائة بالمائة ٠٠٠ ثانياً ، الاعلان بوضوح ان اسرائيل هي دولة صهيونية » (٢٥) .

ثالثاً ، موافقة السادات على سلام كامل مع اسرائيل بما في ذلك اقامة علاقات سياسية وتجارية واقتصادية وسياحية ( الخ ) معها . وتعلق اسرائيل آمالا واسعة على المجال الاقتصادي ، ويبدو ان بعضهم بدأ باعداد برامج اقتصادية لتنفيذها مع مصر . وتتمثل تلك البرامج في اقتراح تقديم ما يسمى « خبرات » علمية في الحقول الاقتصادية المختلفة الى مصر ، مقابل الاستفادة من السوق المصرية في تصريف البضائع الاسرائيلية ، ومن الطاقة البشرية العاملة والرخيصة هناك .

رابعاً ، تراجع السادات عن طلباته بشأن هضبة الجولان والضفة الغربية وغزة . وفي هذا المجال اعلن بيغن انه اذا اصر السادات على طلباته بالانسحاب الاسرائيلي من

هذه المناطق ، « فسنضطر الى تفسير اقواله وكأنه لا يريد اسرائيل مع السلام ، وانما يريد سلاما من دون اسرائيل . ان سلاما كهذا لن يمتح لاحد » (٣٦) . كذلك اعلن دايان ان اساس المشكلة في المفاوضات مع مصر هو انها لا تريد التوصل الى حل مفرد مع اسرائيل ، وتسعى للحصول على التزامات تكون اساسا للمفاوضات مع دول اخرى (٣٧) . ويبدو كأن هناك شبه اقتناع في اسرائيل حول إمكان الوصول الى سلام مع مصر ، اذا امكن الوصول الى اتفاق حول مبادئ معينة بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة . الا ان هذه هي المشكلة الكبرى بالنسبة لاسرائيل .

### القضية الفلسطينية - جوهر الصراع واسباسه

لم تستطع زيارة السادات للقدس ان تخفي حقيقة ان القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي - الاسرائيلي واسباسه ، اذ على الرغم من الخلافات التي ظهرت بين موقفى السادات وبيغن بالنسبة للتسوية في سيناء ، تبقى الخلافات بالنسبة للقضية الفلسطينية والحلول المقترحة لها اعمق واشمل . ويتضح ذلك ايضا من الاهتمام الاسرائيلي الشديد ، على كافة الاصعدة تقريبا ، بالمقترحات التي قدمت بشأن القضية الفلسطينية . كما ان التعليقات والاراء التي طرحت في هذا الصدد اكثر شمولا من تلك التي تركزت حول مشكلات التسوية مع مصر .

ولعل احدي « محاسن » زيارة السادات كامنة في دفعها الحكومة الاسرائيلية ، ربما لاول مرة منذ فترة طويلة ، الى التقدم بمشروع محدد وواضح لحل القضية الفلسطينية ، وبالتالي كشف اوراقها ، ودفعها الغير ايضا ، من معارضين او متحفظين الى كشف اوراقهم كذلك ، فيما يتعلق بتلك القضية . وكان بيغن قد اقترح في مشروع سلامه انشاء « حكم ذاتي اداري » في الضفة الغربية وقطاع غزة . ويعتبر هذا المشروع حلقة جديدة في سلسلة من المشاريع الاسرائيلية السابقة ، وان كانت غير معلنة « رسميا » ، لحل القضية الفلسطينية . وتعتمد كل تلك المشاريع على مبدأ التنكر للحقوق القومية للشعب الفلسطيني والتعامل مع قضيته باعتبارها مشكلة لاجئين ، من المناسب توطينهم خارج الاراضي التي تسيطر عليها اسرائيل ، او سكان تابعين لبلد اخر ينبغي تجديد سيطرته عليهم ، او البحث عن اي حل اخر يكون بعيدا عن التطرق الى الاماني القومية للشعب الفلسطيني . ومشروع بيغن بشأن الحكم الذاتي يهدف ، عمليا وباختصار شديد ، الى الاحتفاظ بالسيطرة الدائمة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، من خلال اقامة بانتوستان فلسطيني فيها . وقد حظي هذا المشروع بتأييد الاكثرية في الكنيست ولكن ، على الرغم من ذلك ، كان الموقف منه مختلفا على جعيد المعارضة والرأي العام ، حيث ما زالت الاراء المعارضة للمشروع تتوارد باستمرار ، منذرة بالمخاطر التي قد تجاها اسرائيل ، في حال تنفيذه ، حاضرا ومستقبلا .

### الحكم الذاتي : اقامة « فلسطين الكبرى » بواسطة « مستشفيات الولادة »

تركزت ردود الفعل على مشروع الحكم الذاتي ، على ابراز مخاطره على الاصعدة السكانية والسياسية والعسكرية والتحذير من نتائجها « الضارة » . واولى هذه المخاطر هو الخطر السكاني الذي تطرق اليه الجميع تقريبا . فقد نشر مكتب الاحصاء المركزي

في اسرائيل توقعنا حول نمو السكان اليهود بالمقارنة مع السكان العرب في اسرائيل خلال السنين المقبلة ، افاد ان عدد السكان اليهود سيصل سنة ١٩٨٣ ( اي بعد خمس سنين ) الى ٣٤٧٣٠٠٠ نسمة (على اعتبار ان معدل الهجرة سيكون ٢٥٠٠٠ شخص في السنة) ، بينما سيصل عدد العرب الى ٢٢١٦٠٠٠ ، أي ٤٠٪ من سائر السكان ، وفي سنة ١٩٨٨ ( بعد عشر سنين ) ، وحسب المقاييس نفسها ، سيصل عدد اليهود الى ٣٧٩٠٠٠٠ شخص ، والعرب الى ٢٨٥٥٠٠٠ ، او ٤٣٪ من سائر السكان . وفي سنة ١٩٩٣ ( بعد ١٥ سنة ) : اليهود : ٤١١٠٠٠٠ ، والعرب : ٣٥١١٠٠٠ ، أي ٤٦٪ من سائر السكان . اما اذا ازدادت الهجرة ووصل معدلها الى ٥٠٠٠٠ شخص في السنة ( وهذا ليس مضموتا ) فستصل نسبة السكان اليهود بعد ١٥ سنة الى ٥٧٪ من السكان ، والعرب ٤٣٪ (٣٨) .

ان وجود ٣٥ مليون عربي داخل اسرائيل ، « سيخلق مشكلة كبيرة ، خصوصا وان هذه الكمية ستتحوّل الى نوعية مختلفة تماما » [وبذاك] ، ستتحوّل اسرائيل الى دولة ثنائية القومية لا مثيل لها ، لان السكان العرب داخلها لهم ارتباط ثقافي وديني ولغوي وحضاري مع أكثر من مائة مليون عربي حول اسرائيل . اذف الى ذلك : ان الـ ٣٥ مليون عربي سيخلقون واقعا سياسيا جديدا ، شخصية مختلفة تماما اجتماعيا وثقافيا وسياسيا . ولن تكون الطريق الى مؤسسات التعليم العالي والكنيست والاقتصاد والجيش والثقافة والصحافة والاحزاب مقفلة امامهم . وبقينا ، ان الكمية يجب ان تؤدي السى تغيير رايديكالي في النوعية . ان دولة اسرائيل ثنائية القومية تستطيع العيش ، اما دولة اليهود ، فثمة شك في ذلك « (٣٩) .

وتحدث كذلك ناثنان يلين - مور ، احد زعماء ليحي سابقا ، حول هذه المشكلّة الديموغرافية موضحا ان الاكثريّة اليهودية الحالية في اسرائيل ستتحوّل الى اكثرية عديمة الالهية في سنة ٢٠٠٠ ، وربما تنخفض الى مرتبة الاقلية . ويعتمد يلين - مور في تقديره هذا على بحث اجراه الدكتور موشي هرتمان من جامعة تل ابيب ، مفاده انه في حال وصول معدل الهجرة الى ٢٥ ألف شخص في السنة ، ستصل نسبة السكان اليهود في سنة ٢٠٠٠ الى ٥٢٪ . وفي حال توقف الهجرة ستتنخفض النسبة الى ٤٧٪ . ومعنى ذلك « انتقال الحكم تدريجيا في دولة اسرائيل الى الاغلبية الجديدة ، وهم العرب . ستكون لهم الاكثريّة في الكنيست . ولا اعرف اذا كانت هذه الاكثريّة ستبقي على صورة هرتسل [هناك] في مكانها ، وربما نزعتهما . . . لتعلق مكانها ، في احسن الاحوال ، صورا جديدة ، ابرزها : الحاخام تسفي يهودا - كوك ، الحاخام الاكبر شلومو غورن . حنان بورات واريك شارون [وهؤلاء من أبرز العناصر التوسعية الاستيطانية] ومن كان على شاكلتهم ، وذلك تقديرا لهم ، لانهم بفضل نشاطهم الفعال واصرارهم العنيد ساهموا في تحقيق امل فلسطين الكبرى من البحر وحتى النهر ، كما هو مكتوب في ميثاق م٠ت٠ف٠ . رغم ان قصدهم كان مختلفا » (٤٠) .

ويضيف يلين - مور قائلا : « ان السيدة غولدا مائير ورفاقها سيضطرون . اذن . الى الاستمرار في القلق والتساؤل في كل صباح : كم من طفل عربي ولد اليوم ، وكم من اليهود ؟ فليس هناك أي احتمال بان تنخفض الولادة لدى العرب » . ولذلك « فمع الحكم الذاتي او من دونه ، تكون نتيجة عمل ابطال ارض - اسرائيل الكاملة واضحة : تحقيق الميثاق الفلسطيني لم٠ت٠ف٠ بواسطة مستشفيات.الولادة . ان كل من يحب شعبه عليه ان يعارض ذلك ، لاسباب قومية واخلاقية وثقافية » (٤١) .

ويلاحظ ان التخوف من المشكلة الديموغرافية كبير للغاية ، ويتم عن قلق عميق لدى الاسرائيليين ، نابع من صلب عقيدتهم الصهيونية حول وجوب « نقاء » الدولة اليهودية ، بشريا وثقافيا واجتماعيا ، ويذكرنا بالتالي بمعارضتهم الشديدة لمشروع الدولة العلمانية الذي طرحته م.ت.ف كحل للمشكلة الفلسطينية .

### تقويض اسرائيل « من الداخل »

ليس القلق من الخطر الديموغرافي هو الناحية الوحيدة التي تقلق بال الاسرائيليين في ظل الحكم الذاتي . بل ان هنالك تخوفا ايضا من خطر النضال السياسي والعسكري الذي يمكن ان يمارسه الفلسطينيون في ظل الادارة الذاتية ، مما قد يؤدي الى بروز احتمالين : قيام دولة ثنائية القومية بكل معنى الكلمة ، كما يفرض الواقع الديموغرافي ، او دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهما احتمالان مرفوضان لدى معظم الاسرائيليين حاليا . ويراهن اصحاب مشروع الحكم الذاتي على استخدام « قوة الجيش الاسرائيلي الضاربة » ضد الفلسطينيين في الداخل وقمع اي تمرد من جانبهم ، خصوصا اذا حاولوا اعلان دولتهم المستقلة ، كما ان الجيش الاسرائيلي ، على حد تعبير دايان ، سيمنع « الالاف من اللاجئين من العودة الى تلك المناطق » (٤٢) . ويبدو ان هذا بالذات ما بات يخشاه معظم الاسرائيليين ، اي ان تتحول الضفة الغربية وغزة الى « بانتوستان » حقيقي ، ومسرح لاعمال القمع السياسي والعسكري ، مما قد يضطر الفلسطينيين الى ابداء مقاومة شرسة قد تضر بمصالح اسرائيل ، خصوصا على صعيد الرأي العام الدولي . وقد تؤثر تلك المقاومة ، ان اشتدت وتشعبت ، على معنويات الاسرائيليين — ايضا ، بحيث تؤدي الى تحول في نظرهم الى الفلسطينيين ، والتفكير بحلول اخرى يمكن ان ترضي هؤلاء ، حتى وان كان المطلب اقامة دولة فلسطينية . ورغم ان هذا الامر يبدو من قبيل التوقعات ، وحدوثه يتعلق بمدى كبير بحجم النشاط الفلسطيني في الداخل على مختلف الاصعدة ، وليس على الصعيد العسكري والسياسي فقط ، فان قطاعات من الاسرائيليين تخشى وقوعه ، ان نفذ مشروع الحكم الذاتي .

ان مشروع الحكم الذاتي يمنح سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، مثلا ، حق الحصول على الجنسية الاسرائيلية او الاردنية . ويعتقد الاسرائيليون ان اعدادا كبيرة من اولئك السكان ستفضل الجنسية الاسرائيلية ، فربما يحق لهم عندئذ المطالبة بممتلكاتهم في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ ، او شراء ارض داخل اسرائيل نفسها . ومن السهل التقدير ماذا سيحدث في اسرائيل عندما ينتقل ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ الف عربي من المناطق للسكن فيها ، بعد عشر او خمس عشرة سنة ، في حال حصولهم على الجنسية الاسرائيلية . ليس هنالك ادنى شك في ان زعماء م.ت.ف ، بعدما ايقنوا ان ليس ثمة احتمال لان يحظى الفلسطينيون بالاستقلال ، سيحاولون خرق التوازن السياسي في اسرائيل — من الداخل . وليست هذه فكرة جديدة ، فقد كتب حولها الكثير من الخبراء الايديولوجيين وحتى زعماء عرب . . . ان من يرغب ، بواسطة الحكم الذاتي ، بالاحتفاظ بالضفة الغربية باي ثمن ، سيجابه مع مر السنين دولة ثنائية القومية « (٤٤) » .

وعلق شمعون بيريس على هذه النقطة بقوله : « ان منح امكانية الاختيار بين الجنسية الاسرائيلية وبين الجنسية الاردنية ، سيؤدي الى عدم اصدار الجواز الاردني ابدا في قطاع غزة على الاقل . وسيكون هذا بمثابة تلميح للاجئين بأنه ( بواسطة اختيار

الجواز الاسرائيلي ) ستتوفر لهم امكانية المطالبة بأراضيهم وممتلكاتهم داخل اسرائيل . كذلك فان اقتراح منح حق الاستيطان المتبادل ، وعلى الرغم من انه يمكن سكان المناطق من شراء اراض داخل اسرائيل ، فانه لا يوفر عمليا امكانية مماثلة للاسرائيليين ، لان اراضي الوقف وارضى الحكومة [في الضفة الغربية وقطاع غزة] ستكون تحت سيطرة المجلس الاداري الذي سيتم تشكيله . . . . بينما سيقع اصحاب الاراضي الخاصة في الضفة الغربية بالطبع تحت تهديد القانون الاردني الذي يفرض عقوبة الموت على كل انسان يبيع ارضا لليهود » (٤٥) .

اما وزير الخارجية السابق يغئال الون فقد اعلن انه « يعارض بشدة مقترحات بيغن بشأن اعادة الحصول على جنسية اسرائيلية لسكان قطاع غزة والضفة الغربية . واذ اتيح لمنات الالوف ممارسة هذا الحق ، فان ذلك سيقضي على اخر احتمالات المحافظة على الطابع اليهودي لدولة اسرائيل ، بتحويلها الى دولة ثنائية القومية . وكذلك فانني اعارض بشدة اقتراح منح حق الاستيطان المتبادل . . . . فمثل هذا الحق قد يشكل حافزا للسكان ولللاجئين العرب لتفضيل الجنسية الاسرائيلية على الجنسية الاردنية . وانا واثق من انه لن يكون هنالك استيطان متبادل . قاليهود الذين سيطلبون الاستيطان في الضفة الغربية ، سيكون عددهم ضئيلا ، بينما تغمر اسرائيل بالعرب ، بفعل قوة الجذب الاقتصادية ، وربما لدوافع سياسية ايضا . ان بيغن يحاول اكل الكعكة والاحتفاظ بها في آن واحد ، وهذا امر لا يستطيع تحقيقه . والرغبة بتحقيق فريضة ارض - اسرائيل الكاملة ، ولو بحراب الجيش الاسرائيلي ، ستقسم الدولة من ناحية طايعها الديموغرافي القومي » (٤٦) .

ويرد دايان على هذه الادعاءات بقوله انه « لاحظ من شراء السكان العرب اراض في اسرائيل ، حيث ان ٩٢٪ من تلك الاراضي هي ملكية عامة وتحت سيطرة مديرية العقارات . بينما الباقي ، أي ٨٪ هي املاك خاصة ، اصحابها جميعا مستقرون في البلد » (٤٧) .

الا ان امين منظمة مزارعي المستوطنات ش . غوتليف يعارض قول دايان هذا ، « لان عرض الامور على هذا الشكل . . . كثر الرمال في العيون . فاذا اختصرنا من المساحة الشاملة للدولة منطقة النقب . والجليل الماهول بالعرب ، وبعض المناطق المعينة ، فان الـ ٨٠٪ من المساحة المتبقية . . . تشكل نحو ٣٠-٤٠٪ . وهذه مساحة تبلغ مئات الالاف من الدونمات . ويكمن التساؤل بشأنها : هل يمكن شراؤها ؟ ماذا سنفعل اذا اقتدم شيوخ عرب اغنياء على شراء هذه الاراضي ، باقتراحهم مبالغ كبيرة ثمنها لها ؟ لقد تحدثنا دائما عن دولة يهودية ، ولم نرغب بدولة ثنائية القومية . لذلك ينبغي عدم التقليل من اهمية حق الاستيطان المتبادل من خلال الادعاء بان ٨٪ من الاراضي فقط معروضة للبيع » (٤٨) .

اما زعيم حزب الاحرار المستقلين والوزير السابق موشي كول ، فيخشى ان تنجم عن الحكم الذاتي « اختطافات غير قليلة في المناطق ، حيث سيطلب المتطرفون العرب و - م . ت . ف . باسقلال كامل . وهل سيطلب من الجيش الاسرائيلي في كل مرة ، التدخل لفرض النظام والقانون ؟ اي حكم ذاتي هو ذلك ؟ كما ان الحديث حول استمرار الاستيطان اليهودي في منطقة الحكم الذاتي غير جدي . اذ من هم اليهود الذين سيوافقون على الاستيطان في منطقة تحكمها ادارة عربية ، وربما تصبح غدا دولة عربية ؟ » (٤٩) .



ويضيف كول قائلًا : « اننا ندفع الان ثمننا غاليا مقابل تجاهلنا للقضية الفلسطينية . اننا مضطرون الى اظهار انفتاح واستعداد لتحمل المخاطر من اجل السلام . . . فنحن نريد العيش في دولة يهودية ( وليس في دولة ثنائية القومية ) وبسلام ، ومن خلال تأمين مساواة كاملة في الحقوق ودمج اقتصادي واجتماعي للعرب الذين يعيشون داخل اسرائيل » (٥٠) .

وحذر اخرون ايضا من محاولة تكرار: « التجربة السوداء » في اسرائيل ، « خصوصا وان العربي ليس من السود ، ونحن نعيش في القرن العشرين وليس في القرن السابع عشر . كذلك فان نسب القوى مختلفة ، كما ان المحيط لا يفصل بين اولئك المعدن لعمال التحطيط والسقاية ، وبين اخوتهم من حولهم » (٥١) .

اما الزعيم الميامي يعقوب حزان فقد حذر من خطر الحكم الذاتي على « تشويه الجوهر الاجتماعي والاخلاقي لدولة اسرائيل . فالجوهر القومي والاجتماعي لدولتنا هو مركب لا يقل اهمية لامننا وقدرتها على الدفاع من الحدود الامنة ، وربما اكثر منها . ان الاقلية العربية الكبيرة ، الحكومة من جانب الاكثرية اليهودية القليلة ، ستتحول الى طلائع مقاتلة - داخل الدولة - من جانب اشقائها وراء الحدود . وستكون هذه اقلية معادية ومقاتلة . ان التطور السياسي للطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية - التطور الذي عبر عنه في الانتخابات الاخيرة للجان الطلاب - هو اشارة تحذير خطيرة ومهددة . فهؤلاء هم ابناء الاقلية العربية التي تعيش معنا بسلام منذ ثلاثين سنة ، وتتمتع ببركة التطور في بلدنا ، رغم جميع الاخطاء التي رافقت هذا التطور . ان تطبيق النظام الديمقراطي في اسرائيل تجاه الاقلية العربية الكبيرة التي ستتواجد في اسرائيل بعد ضم الضفة الغربية اليها ، سيحولها الى عامل حاسم في القضايا الداخلية في الدولة . فالتوتر القومي سيصبح عميقا الى درجة لا يمكن تحملها . وعدم تطبيق النظام الديمقراطي على هذه الاقلية ، سيضوه نظام الحكم هذا حتى تجاه الاكثرية اليهودية ، لان الديمقراطية غير قابلة للتقسيم . ان هذا كله سيمس في قدرة الصمود داخل اسرائيل ، ومع نشوب حرب جديدة ، ستضطر اسرائيل الضعيفة للقتال على جبهتين : ضد العدو الخارجي وضد العدو الداخلي » (٥٢) .

ولا حاجة للتاكيد ان مشروع الحكم الذاتي ينطلق من دوافع عقائدية وامنية تتحكم بعنف في عقلية بيغن وسياسة حزبه ، حيروت ، في آن واحد . عقائديا ، يرى بيغن ان الضفة الغربية جزء من « ارض - اسرائيل » لا يجوز التنازل عنه ، والحكم الذاتي ، قسي نظره ، افضل السبل لضمان السيطرة الاسرائيلية على هذه المنطقة . وهذا نابع من صلب ايدولوجية اليمين الصهيوني ، التي تتبنى مبدأ بناء الدولة اليهودية على « ارض - اسرائيل الكاملة » . وامنيا ، يعتبر بيغن السيطرة على الضفة الغربية وغزة ستوفر الامن لاسرائيل . ولتبرير موقفه هذا ، راح يكثر من الحديث مؤخرا « حول القناصة الذين يمكن ان يطلقوا النار على مكتب رئيس الحكومة ، وحول المدافع التي يمكن ان تقصف تل ابيب من طولكرم » (٥٣) . وقد اثارته هذه الاقوال سخرية العديد من المعلقين الاسرائيليين ، فرد ادهم عليها بقوله : « استطيع القول هنا ان العدو الخارجي يتم ابعاده عن قلب الدولة بثمن ادخاله اليها . ويمكن الادعاء - في ضوء الخيار الذري الاسرائيلي الذي كثر الحديث حوله في الصحف والمجلات العلمية - انه من الغباء مهاجمة اسرائيل وجها لوجه . ان افضل الطرق لتدميرها هي حرب عصابات من الداخل ، التي يمكن ان تتطور الى حرب اهلية . اذا اخذنا بالاعتبار نسب القوى الحسابية - ورا

مليون عربي مقابل ٣ ملايين يهودي - تكون هذه استراتيجية مأمونة .

« خلال النقاش الدائر في اسرائيل منذ حرب الايام الستة - المؤيد لضم الضفة الغربية وقطاع غزة ، او المعارض لذلك - جرى الحديث كثيراً حول الموضوع الديموغرافي ، ولكن بشكل غريب .٠٠٠ تحدثوا حول الموضوع بعبارة سياسية ، اي من ناحية تأثيره على نتائج الانتخابات والتركيبة الحزبية وما شابه ذلك . ولكن لم يجر الحديث ، علانية على الاقل ، حول الطاقة العربية لشحن حرب اهلية على مراحل : حرب عصايات في البداية ، ثم تمرد عام بعد ذلك . انه لن الغباء الافتراض ، ان الـ ١٥ مليون عربي - في وضع كهذا ، مع اضافة عرب اسرائيل الى القوى المتوقع ان تكون معادية - سيعيشون يهوداً تحت حكم غريب .٠٠٠

« ان الضفة الغربية وقطاع غزة هي حصان طروادة . فاستمرار الاحتفاظ بها معناه تصعيد الحرب مع العرب . وخلافا للحروب التي دارت بيننا وبين العرب [حتى الان] ، يمكننا ان نخسر هذه الحرب فقط .٠٠٠ لذلك ، فان سياسة رئيس الحكومة .٠٠٠ هي وصفة لتدمير الدولة بحرب اهلية مؤكدة » (٥٤) .

وفي اطار المعارضة لمشروع الحكم الذاتي - وعلى صعيد اخر - تلفت النظر مواقف اصدقاء بيغن من غلاة التوسعيين اليمينيين ، الذين اعتبروا مشروعه نوعاً من « الهرطقة » واعربوا عن معارضتهم الشديدة له ، وبعضهم استقال من ادارة ليكود احتجاجاً عليه . ويقترح هؤلاء ، باختصار ، فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وضمهما الى اسرائيل . وفي هذا الصدد كتب شموئيل كاتس ، مستشار بيغن سابقاً : « محظور علينا بأي شكل من الاشكال ابقاء مسألة السيادة في الضفة الغربية مفتوحة - ثم لماذا وافقنا على مجلس اداري مشترك بين اسرائيل والاردن [وممثلين عن سكان الضفة الغربية وقطاع غزة] يحدد قوانين هجرة اللاجئين العرب الى الضفة الغربية وقطاع غزة ؟ ان اشترك الاردن في الامر معنا ، بعبارة بسيطة ، منح الملك حسين نصيباً في الحكم في الضفة الغربية . واتوقع ، اذا ما تحققت السيادة المفتوحة ، وصول عشرات الالاف من الطلبات من قبل العرب الذين يعيشون خارج ارض - اسرائيل مطالبين بالعودة .٠٠٠ وفي مشروع بيغن عدة عناصر خطيرة جداً ، وانا معتقد بانها ستؤدي بفعل الديناميكية التي ستحظى بتشجيع بالطبع من سائر الدول العربية ، الى القضاء على اخر بقايا الحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية » (٥٥) .

اما النائبة غيؤلاه كوهين ، فقد وصفت مشروع الحكم الذاتي بأنه « خطير » معربة عن املها « بأن يكون مجرد زلة لسان . ان الحكم الذاتي لعرب الضفة الغربية لا يعجيني . فاننا اعارض الاعتراف بالشخصية الفلسطينية ، والحكم الذاتي يمنحهم فرصة كهذه . انني اؤيد سيادة اسرائيلية في الضفة الغربية مع كائنون عربي داخل الدولة ، بحيث تكون لسكانه حقوق مدنية مختلفة . ان الحل المقترح الان ، يمس بسيادتنا ، التي لم تفرض حتى الان على الضفة الغربية ، ويشكل قبيلة موقوتة . فاذا منحنا عرب الضفة الغربية الحق بعد سنين في اختيار الجهة التي سينضمون اليها ، بإمكانهم عندئذ اختيار السيادة الاردنية او سيادة مستقلة » (٥٦) .

كذلك اعلن تسفي شيلواح رئيس حركة ارض اسرائيل الكاملة ، ( وهو من كبار المنظرين للتوسع الاستيطاني ، وصاحب كتاب « بلاد كبيرة لشعب كبير » ) ، ان « الحكم الذاتي هو جنين لدولة جديدة - ينبغي فرض سيادتنا على الضفة الغربية ، فالسيادة

هي اكبر ضمانة بالنسبة لنا . ان [مشروع الحكم الذاتي] ليس الا انهيارا لمفاهيم ليكود كلها ، بما في ذلك مفاهيم بيغن نفسه ودعاة ارض - اسرائيل . فالحكم الذاتي له ديناميكية خاصة به ، وهو في الحقيقة تقسيم لارض - اسرائيل ، (٥٧) . اما الدكتور يسرائيل الداغ ( شايب ) ، وهو واحد من الثلاثي الذي قاد ليحي سابقا ، فيصف مشروع الحكم الذاتي بأنه « جريمة » ، لانه يناقض كل مواقف ليكود الاساسية . وهو « لا يشك في ان منح الحكم الذاتي للضفة الغربية سيؤدي بالضرورة الى دولة فلسطينية ، [لانه] اذا منحنا العرب هنالك حق الاختيار ، فسيصوتون لصالح م.ت.ف » (٥٨) . كذلك يتهم الداغ بيغن بأنه تخلى عن الصهيونية السياسية ، « وبموجبها كان من الواجب فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية » [كما ان بيغن] لم يتبع من جهة اخرى اسلوب الصهيونية العملي على غرار مباي سابقا ، ولم يوطن الالف اليهود في المناطق [المحتلة] . . . ان اقتراح بيغن بشأن الحق المتبادل في الاستيطان معاد للصهيونية ، وبالتالي معاد لاسرائيل » (٥٩) .

وتنادي هذه العناصر ، كما هو واضح ، بضم المناطق الفلسطينية المحتلة ( وغيرها ) الى اسرائيل بشكل نهائي ، وتطالب بالعمل على توطين مئات الالاف من اليهود فيها بأسرع ما يمكن ، بهدف تحويلهم الى اكثرية سكانية هناك ، وبالتالي ابتلاع تلك المناطق نهائيا . غير انه لا بد من الاشارة الى ان مثل هذه الاراء لا تعبر عن مواقف قطاعات واسعة من الاسرائيليين ، الذين يشكون في امكانية استقدام اعداد كبيرة من المهاجرين اليهود وتوطينهم في تلك المناطق ، بحيث ان طابعها العام سيبقى في نهاية الامر عربيا .

### « لا » للدولة الفلسطينية و م.ت.ف

ان الخوف من الاكثرية السكانية العربية في المناطق المحتلة ، وما قد تجره من خطر على الكيان الصهيوني ، من حيث امكانية تحول العرب الى اكثرية تؤثر على طابع اسرائيل اليهودي . اذا ضمت المناطق المحتلة اليها من ناحية ، او حصول تلك المناطق على استقلالها ، بشكل او بآخر ، وبالتالي اقامة دولة فلسطينية ، من ناحية ثانية ، يكاد يكون عاملا مشتركا يوحد اكثرية الاسرائيليين ، مع الحكومة والمعارضة في ان واحد . وهذا التخوف هو واحد من العوامل الرئيسية التي تسيطر على كافة مشاريع التسوية الاسرائيلية ، بينما تعود الفروق بينها الى بعض المواقف العقائدية الصهيونية ، او الى اجتهادات مختلفة بشأن الاسلوب الامثل لتأمين مصالح اسرائيل في المناطق المحتلة ، مع محاولة المخاطرة بأقل مدى ممكن . وهذا هو سر الخلافات ، في الماضي والحاضر ، بين مواقف ليكود الحاكم الان وحلفائه والتجمع العمالي المعارض .

لقد وصف مشروع بيغن بشأن الحكم الذاتي - وعن حق - بأنه محاولة « لاكل الكعكة والاحتفاظ بها في آن واحد » ، اي ان بيغن يريد الاحتفاظ بالسيطرة الاسرائيلية على المناطق المحتلة من ناحية ، ولكنه لا يريد ضمها الى اسرائيل من ناحية ثانية ، نتيجة للاعتبارات التي اشرنا اليها . ولذلك يرى ان الحكم الذاتي تحت السيطرة الاسرائيلية الفعلية والاردنية الاسمية هو الحل الامثل في الظروف الراهنة . الا ان التجمع العمالي ، وهو القوة الرئيسية المعارضة الان في اسرائيل ، يرى عكس ذلك . وكانت اللجنة السياسية لحزب العمل قد اعربت عن معارضتها لمشروع الحكم الذاتي ، كحل دائم لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة ، بينما لم تمنع في قبوله كحل مؤقت . وقد ايد هذا الموقف

كل من النواب والوزراء السابقين بيريس والون ورايين ويعقوبي ، بينما عارضته غولدا مئير بشدة ، حتى كحل مؤقت ، اذ ربما تحول الى حل دائم ، يمكن ان يؤثر سلبا بحسب رأيها على مستقبل اسرائيل (٦٠) .

والواضح ان معارضة مئير لمشروع الحكم الذاتي ، وتحفظ زملائها في حزب العمل تجاهه ، ناجم عن تخوفها من ان تتبلور في ظل ذلك النظام نواة دولة فلسطينية مستقلة . والتجمع العمالي ، مثل ليكود ، يعارض هذا الاتجاه بشدة منذ فترة طويلة ، وقام مؤخرا بعض زعمائه بتأكيد موقفهم هذا مجددا . فقد اعلن شمعون بيريس ، مثلا ، انه « من المسلم به لدينا جميعا اننا لا نريد دولة فلسطينية اخرى على نهر الاردن » (٦١) . كما برر يتسحاق رايبين معارضته للحكم الذاتي بقوله « انه تكمن فيه ٠٠٠ نواة لشخصية فلسطينية ، بل ربما دولة فلسطينية » (٦٢) . اما حاييم بارليف فقد اعلن « ان المشروع الحكم الذاتي يحمل بين طياته اخطارا كبيرة لاسرائيل - قيام دولة فلسطينية مستقلة ، وغمر اسرائيل بمواطنين عرب اخرين ، وخطر العودة الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ في الشرق ايضا » (٦٣) .

ومعارضة اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، او الاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ، تتبعها ايضا معارضة لمنظمة التحرير الفلسطينية واعداء واضمح تجاهها . ورفض للتعامل معها ، حتى ، كما يبدو ، بين أولئك الذين يدعون الى منح الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم . وفي هذا المجال كتب ، مثلا ، يهوشفاط هركابي ، احد المستشرقين الاسرائيليين ورئيس الاستخبارات الاسرائيلية سابقا ، انه « ينظر الى منظمة التحرير كعامل سلبي جدا . انني ارفض محاولات التجميل التي تبذل من اجل اظهار المنظمة بغير مظهرها المتطرف . ولكن بالامكان مع ذلك ان يتواجد حكم عربي اخر في الضفة . اعرف ان الحكومة تنظر بتخوف الى اي حكم كهذا ، لكن لا بد من الاخذ بالاعتبار التبريرات المنطقية لاحتمية وجود مثل هذا الحكم » (٦٤) .

اما السكرتير السياسي ليام سابقا ، النائب نفتالي فيدر ، فقد زعم انه « لا يوجد تماثل بين الفلسطينيين و-م.ت.ف اليوم ، ففي حين لم يمنح الفلسطينيون اي سبيل اخر للتعبير سياسيا عن ذاتهم ، فان م.ت.ف هي مثلهم . ان سياسة الحكومة السابقة هي بين العوامل التي ادت الى هذا الوضع ، حيث لم تسمح بأي نشاط سياسي فسي المناطق . والحكومة الحالية تسير في خطها . وعندما ينشأ في المناطق حكم ذاتي كمرحلة اولى ، ستتبلور عناصر قيادية غير م.ت.ف » (٦٥) .

ويرى ادهم ان منظمة التحرير الفلسطينية « ليست الا مخلوقا تمرد على خالقيه . فالدول العربية هي التي اقامتها ، وهي الملزمة بحلها وتجاهلها وسلبها الاعتراف بها كمثل للشعب الفلسطيني ٠٠٠ ان الدول العربية . وعلى رأسها مصر والاردن ، يجب ان تنتزع لنفسها من جديد تاج الزعامة وصلاحيات ادارة المفاوضات ، واتخاذ القرارات حول مصير الشعب الفلسطيني ومستقبله ، وذلك بعد ان كشفت قيادة م.ت.ف عن نفسها ، مرة تلو الاخرى ، كهيئة عقيمة ، يملؤها الحقد وعدم القدرة على الحسم ، وقوتها الوحيدة في الحاق الضرر والتشويش » (٦٦) .

ومن خلال المعارضة لقيام دولة فلسطينية ، او للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، تقترح المعارضة الاسرائيلية - على لسان شمعون بيريس - « الربط بين حل القضية الفلسطينية وبين الاردن » (٦٧) . والسبب بسيط : « سواء نحن او الاردن - الطرفان

مهتمان بوجود بديل لم.ت.ف في الضفة الغربية . ولكن من هي الجهة الأكثر كفاءة للتصدي لم.ت.ف ، الاردن ام اسرائيل ؟ ان التاريخ يعلمنا ان الاردن كان مستعدا وقادرا على وقف توغل م.ت.ف في بلده ، وبشكل انجع حتى من اسرائيل نفسها « (٦٨) » .

### التسوية الاقليمية - الوظيفية كبديل للحكم الذاتي

لتحقيق الاهداف التي تحدث عنها ببيريس وغيره ، يقترح التجمع العمالي المعارض ، حل مشكلة الضفة الغربية ، بواسطة ما يسميه « تسوية اقليمية - وظيفية » ، التي تعتمد اساسا على مشروع الون . وفحوى هذا المشروع هو الابقاء على السيطرة العسكرية الاسرائيلية على الضفة الغربية ( وخصوصا على امتداد نهر الاردن ) وقطاع غزة ، وابقاء تلك الاماكن مفتوحة امام الاستيطان اليهودي من ناحية ، مع تحويل صلاحيات ادارية للاردن بشأن الاماكن المأهولة في تلك المناطق من ناحية ثانية . وبذلك تحاول اسرائيل الاحتفاظ لنفسها بالمنافع التي يجرها الاحتلال لتلك المناطق ، بينما تعمل على تصدير المشكلات الناجمة عنه الى الاردن .

ويبدو ان عددا من كبار ضباط الجيش الاسرائيلي لا يعارض هذا المشروع ، من خلال موافقتهم على نواحيه العسكرية على الاقل . ففي مقابلة صحفية (٦٩) مع عدد من اولئك الضباط اعلن ، مثلا ، العميد ( احتياط ) ابراهام بوتسار قائد سلاح البحرية سابقا ، ان اسرائيل يجب ان تتواجد في وضع تستطيع معه منع دخول اية قوات عسكرية الى الضفة الغربية ، ثم مراقبة العبور على نهر الاردن ، لكي لا تعبره اية قوات عسكرية غربية . وان هذه المهمة يجب ان يتولاها الجيش الاسرائيلي ، وليس غيره . كذلك اعلن العميد ( احتياط ) يشعياهو غافيش ، قائد المنطقة الجنوبية في حرب ١٩٦٧ ، انه يجب ان يبقى [نهر] الاردن ، ومواقع ثابتة في الضفة الغربية ، تحت سيطرة الجيش الاسرائيلي . ويرى العميد ( احتياط ) مردخاي هود قائد سلاح الجو سابقا ، ان الجيش الاسرائيلي يجب ان يسيطر على قمم الجبال في الضفة الغربية وان اي اتفاقية امن اخرى ستكون ناقصة . « كذلك فاننا شريك في الراي بان [نهر] الاردن هو الحد الامني لاسرائيل . ولكن يجب على اسرائيل ان تتمركز [ايضا] على قمم الجبال ، على امتداد الخط كله من الشمال الى الجنوب ، من اجل ضمان امنها » (٧٠) . وتحدث في تلك المقابلة ايضا النائب والعميد ( احتياط ) مثير زورياع ، رئيس شعبة العمليات سابقا ، فأعلن ان « المطلوب هو السيطرة العسكرية الكاملة للجيش الاسرائيلي على كل الضفة الغربية حتى نهر الاردن ، وليس كحل مؤقت . واذا لم يكن للجيش الاسرائيلي تحكّم عملياتي دائم في الضفة باكملها ، فان كل اتفاق سلام سيحمل في طياته بذور الحرب المقبلة . وعندما اتحدث حول سيطرة الجيش الاسرائيلي حتى نهر الاردن ، لا اعني تواجده في غور الاردن فقط ، وانما السيطرة على قمم الجبال ايضا ، لانني اتحدث عن مفاهيم عملياتية ، وليس بعبارات تكتيكية بسيطة . فمن اجل احباط اية امكانية لاحتلال الضفة ، هناك حاجة لتحكّم عملياتي بها من دون اية قيود » (٧١) . اما العميد ( احتياط ) اهرن ياريف ، رئيس الاستخبارات العسكرية سابقا ، فقد اعلن عن موافقته على مشروع الون بالنسبة للضفة الغربية ، « ولكن يجب ان يكون هنالك من يقبل به من الجانب الاخر ايضا . وعلى كل حال ، فان وجود الجيش الاسرائيلي في الضفة هو امر حيوي جدا . انني اوافق على سيادة اردنية على الضفة ، شرط ان يبقى الوجود العسكري الاسرائيلي لفترة طويلة ، حتى تستتب العلاقات بيننا وبين العرب ، ولا تكون عرضة لاي

خلل . وحتى في الضفة الغربية أيضا ، كما هو الامر في سيناء ، يمكن ان تكون المشاريع الاقتصادية المشتركة - مثل حفر قناة من البحر المتوسط حتى غور الاردن ، واستخراج المياه وتوليد الكهرباء - ترتيبات أمنية » . ويرى ايضا العميد ابراهيم يافيه، قائد تشكيلة سابقا ، ان الاردن يجب ان يكون حد اسرائيل « ويجب عدم الانسحاب منه شيئا واحدا . . . وانا اصر على ذلك » .

وكان رئيس الاركاب الاسرائيلي الجديد رفائيل ايتان قد اعلن مؤخرا ، بعد تسلمه مهام منصبه ، انه لا يمكن الدفاع عن اسرائيل من دون الضفة الغربية وهضبة الجولان ، مشددا على اهمية الاستيطان في هاتين المنطقتين في اطار ما سماه استراتيجية الدفاع القطري ( ٧٢ ) .

وإذا اخذنا بالاعتبار نوعية تأثير العسكريين على تقرير السياسة الاسرائيلية ، يمكننا ان نفهم مدى اصرار اسرائيل على عدم العودة الى حدود سنة ٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة ، تماما كما صرنا بالنسبة للمناطق المحتلة الاخرى ، وربما بصورة اقوى . ويلاحظ ان هذا الاصرار مشترك بين دعاة الحكم الذاتي ، وبين دعاة التسوية الاقليمية التي نحن بصدها . كذلك يلاحظ ان مفهوم السيطرة العسكرية الاسرائيلية على الضفة الغربية، خاصة التمرکز على ضفة نهر الاردن وقمم الجبال ، هو امر بديهي لدى معظم الاسرائيليين وعلى هذه الارضية يطرح السؤال حول ماهية الدور الاردني في المنظور الاسرائيلي ، بالنسبة لاي حل في الضفة الغربية وقطاع غزة .

### الدور الاردني بين المشاركة الاسمية والفعلية

يلاحظ ان هنالك خلافا رئيسيا بين الاسرائيليين حول الدور الذي يجب ان يعطى للاردن في اية مفاوضات سياسية حول الضفة الغربية وقطاع غزة . فدعاة الحكم الذاتي من اعضاء الائتلاف الحكومي الحالي وانصاره يعتبرون ان دور الاردن يجب ان يقتصر فقط على المشاركة في حل بعض القضايا الادارية ضمن مشروع الحكم الذاتي ، مثل منسح الجنسية الاردنية لمن يرغب من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، والمشاركة في لجنة مشتركة لكل من اسرائيل والاردن والمجلس الاداري للمنظر في القوانين المعمول بها في المناطق المحتلة ، وتمديد انظمة الهجرة للضفة الغربية وقطاع غزة ، بحيث تكون هجرة اللاجئين الى هذه المناطق باعداد « معقولة » توافق عليها جميع الاطراف المشتركة في اللجنة . كذلك يعين المجلس الاداري احد اعضائه لدى الحكومة الاردنية للبحث في المسائل المشتركة . اما مسألة السيادة على الضفة الغربية ، فستبقى ، حسب مشروع الحكم الذاتي ، مفتوحة الى أجل غير مسمى ، مع التأكيد بأن ليس للاردن الحق في المطالبة بالسيادة على هذه المناطق « لانها جزء من ارض - اسرائيل ، وقد احتلها الاردن بالقوة في حرب ١٩٤٨ ، ولم يعترف ابدا بسيادته عليها » . وتسعى الحكومة الاسرائيلية الى اشراك الاردن في المفاوضات السياسية الدائرة وفق هذه المبادئ، مما يثير جدلا واسعا بين الاسرائيليين ، على اعتبار ان هذه المبادئ غير كافية ابدا ولن تشجع الاردن على المشاركة في عملية المفاوضات .

ولذلك يطالب دعاة التسوية الاقليمية ، في مقابل ذلك ، باشراك فعلي للاردن في عملية المفاوضات السياسية حول الضفة الغربية وغزة ، على اساس تقسيم الضفة الغربية وظفيا ما بين الاردن واسرائيل ، وربما منح الاردن ايضا « صلاحيات » بالنسبة لقطاع غزة ،

ثم حل المشكلة الفلسطينية معه ، باعتباره الممثل للفلسطينيين .

ان هذا الاتجاه ، كما هو معروف من بنات افكار المزعامة العمالية الصهيونية ، التي عادت الى الحديث عن محاسنه مؤخرا . وفي هذا الصدد أعلن يتسحاق رابين ، مثلا ، انه « من الضروري ربط حل القضية الفلسطينية مع المملكة الاردنية ، اي مع سكان ارض اسرائيل - الشرقية ، في اطار اتفاقية سلام مع هذه الدولة » (٧٣) . واضاف رابين ايضا انه لا يؤمن « بامكانية الوصول الى حل دائم في هذه المرحلة ، ضمن تحقيق معاهدة سلام مع الاردن ورسم حدود قابلة للدفاع ، تكون مختلفة عن حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ . لذلك يجب السعي الى حكم اسرائيلي - اردني مشترك لفترة زمنية طويلة في الضفة الغربية وقطاع غزة . وبعبارة اخرى : يأخذ الاردن على عاتقه مسؤولية الجانب الاداري من حياة السكان في هذه المناطق ، وتأخذ اسرائيل مسؤولية الامن [ وتخطيط ] الاستيطان اليهودي بشكل متفق عليه سلفا ، وذلك من دون الالتزام سلفا باي حل دائم بعد الفترة الانتقالية ، التي يجب ان تستمر من ١٠ - ١٥ سنة » (٧٤) .

اما شمعون بيريس فيدعو الى مشاركة الاردن في المفاوضات ، لانه لا يعتقد « ان مصر تستطيع القيام بدوره . ان من يستطيع القيام بهذا الدور هو م.ت.ف ، وهذا ما نريد منعه تماما » (٧٥) . كذلك أعلن رئيس اللجنة الاقتصادية في الكنيست ان اي حل يتم المتوصل اليه بشأن الضفة الغربية وغزة يجب ربطه بالاردن ، وذلك بعد اعادة جميع مناطق الضفة الغربية اليه باستثناء القدس الشرقية . « ان تسليم القدس الشرقية الى دولة عربية سيؤدي مع الوقت الى الاعلان عنها كعاصمة لدولة فلسطينية ، ومعنى ذلك صراع مستمر ومفتوح ، ودلالة على ان الموضوع الفلسطيني سيبقى من دون حل على مر الايام . واعتقد ان هذا هو اسبب الذي يجب من اجله ربط اي حل بشأن الضفة الغربية مع الاردن ، لكي تكون عمان عاصمة الدولة الواقعة شرقي اسرائيل » (٧٦) . وبهذه الطريقة ، يعتقد يعقوبي ان بالامكان حل القضية الفلسطينية « لان معظم سكان هذه الدولة من الفلسطينيين . وستكون لهم اقلية في البرلمان ، ويستطيعون انتخاب رئيس حكومتهم . وليس هنالك اي سبب لعدم منح استقلال اداري معين لليهودية والسامرية وغزة ، اي ثلاثة اقسامية تكون مرتبطة بتلك الدولة . ان ما يمنح الاردن من الموافقة على حل كهذا هو ليس عدم موافقته على قضية القدس الشرقية ، وانما عدم رغبته في ان يكون اول من يصل الى اتفاق مع اسرائيل ، وعدم توفر ظروف ملائمة لذلك ، لان ليس له مركز شرعي كشریک . واعتقد ان بالامكان الوصول الى حل لهذه المشكلة » (٧٧) .

كذلك تحدث النائب نفتالي فيدر ( م.ب.م ) حول التسوية الاقليمية مع الاردن بقوله : « ان ربط الضفة الغربية وقطاع غزة مع الاردن ، قد يمكن الشعب الفلسطيني من ان يجد في هذا الحل تعبيراً عن حقه في تقرير مصيره . ومع دولة كهذه ، يمكن الوصول الى تسوية حول تعديلات امنية في الحدود . وهذا هو الحل الوحيد - اذا كانت التعديلات في الحدود لاسباب امنية فقط - الذي لم يرفضه محاورونا من الطرف الاخر » (٧٨) . ويعتقد فيدر ان الحل الشامل يجب ان يتم على مرحلتين ، حيث ينضم الملك حسين الى المرحلة الثانية منه . « انني لا اوافق على الحل . . . الذي يقترحه بيغن ، لان عدم التنازل عن الحق في اي جزء من ارض - اسرائيل ، سيؤدي الى بانغولستان ، على غرار جنوب افريقيا . . . ان الحل الوظيفي ليس مرفوضاً من اساسه ، اذا كان واضحاً منذ البداية ، انه مرحلة وسطى فقط ، ومبني كنه على الارتباط مع الاردن . فالمرحلة الاولى من الحل يجب ان تكون اقامة حكم مدني ذاتي ، يهتم بجميع قضايا الضفة والقطاع ، باستثناء

قضايا الامن والسياسة الخارجية . وسيرتبط هذا الحكم مع الاردن او مع اسرائيل والاردن ، ولكن ليس مع اسرائيل وحدها . ومع ذلك يجب ان يكون واضحاً ان ذلك ليس سوى مرحلة اولى في تسوية على مرحلتين ، حيث تشمل المرحلة الثانية انسحاب الجيش الاسرائيلي من معظم المناطق المحتفظ بها باستثناء بعض التعديلات في الدود المطلوبة امنياً فقط » (٧٩) - ويضيف فيدر موضحاً : « ان امكانية تحقيق مثل هذا الاتفاق ٠٠٠ ستدفع الملك حسين الى المشاركة في صياغته حتى منذ البداية . فهو لم يستطع المشاركة في حل حسب صيغة مشروع الون ، الذي كان سيسلبه ثلث الضفة الغربية في المستقبل . كذلك فإنه لا يستطيع المشاركة في مشروع بيغن ، الذي يمنحه الاشتراك فقط في لجنة قضائية وفي منح جنسية لسكان الضفة الراغبين في ذلك » (٨٠) . ويبدو ان مبدأ المطالبة بالحل الوظيفي كحل وسط من جانب المعارضة ، له ما يبرره في الوقت الحاضر على الاقل . فزعما المعراخ يدركون جيداً ان مشروع التسوية الاقليمية الذي عرض على الاردن خلال اتصالات سرية سابقة مع الملك حسين ، قد رفض اكثر من مرة من جانبه . لذلك طرحوا مبدأ القبول بالحل الوظيفي المقترح كحل وسط ، لعله يؤدي في النهاية الى مرحلة التقسيم التي يدعون اليها .

ان احجام الملك حسين عن الموافقة على مشروع التسوية الاقليمية ، او مشروع الون، وتردده في الحاضر عن الانضمام الى المفاوضات الاسرائيلية المصرية ، يثير القلق لدى بعض النواثر الاسرائيلية ، التي تعتبر ذلك « فشلاً » للحلف التاريخي بين اسرائيل والاردن الذي « أبرمه » بن غوريون مع الملك عبد الله ، بهدف حل القضية الفلسطينية عن طريق اقتسام فلسطين بين اسرائيل والاردن . وقد تحدث حول هذا الموضوع الكاتب الاسرائيلي حفاي اشد - وهو احد المقربين من بن غوريون سابقاً - بقوله : « ان وجود الاردن وامنه ارتكز طوال السنين على حلف خفي ، ولكن حقيقي ، بين الاردن واسرائيل . وبداية هذا الحلف في حرب ١٩٤٨ ومشروع السلام الذي وضعه بن غوريون مع الملك عبد الله ، الذي كان من المفروض ان يكون تنويجاً لحرب الاستقلال [ اي حرب ١٩٤٨ ] ، وبموجبه كانت اسرائيل ستحصل ليس على الاستقلال فقط وانما على السلام والامن وحل عادل للمشكلة الفلسطينية في مجال المملكة الاردنية .

« كانت هذه هي الاستراتيجية العسكرية والسياسية لادارة الحرب من قبل بن غوريون: من جهة اولى ، اخراج مصر من دائرة الحرب وتجريدها من معظم الاراضي التي احتلتها [ في فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ] بواسطة الحسم العسكري . ومن جهة ثانية ، التوقيع على اتفاقية سلام مع الاردن ، من دون الانتصار عليه عسكرياً ومن دون تجريده من الاراضي التي احتلتها ٠٠٠ ولكن لم يحدث هذا . وكما يذكر الجميع ، وقع اتفاق سلام بين اسرائيل والاردن برؤوس اقلام ، ولكن مقتل عبد الله منع التصديق عليه وتنفيذه . وبذلك منعت تسوية النزاع الاسرائيلي - العربي وبقيت جميع الجروح مفتوحة » (٨١) .

ويضيف اشد انه « يمكن اعتبار مشروع الون وكأنه استمرار لمشروع بن غوريون ومحاولة للاءمته لنتائج حرب ١٩٦٧ ولتأزم المشكلة الفلسطينية . ان الهدف من مشروع الون ، هو انتهاء الحرب غير المنتهية - حرب الاستقلال - والوصول الى اتفاق سلام وامن مع الاردن ( وحكم ذاتي للفلسطينيين كأحدى المراحل لتحقيق مثل هذا الاتفاق ) حسب المفهوم الاساسي لبن غوريون . وعندما رفض الملك حسين مشروع الون ، كأساس لاتفاق سلام اسرائيلي - اردني ( فلسطيني ) ، وضع بذلك نهاية لحلف اسرائيلي - اردني كانت بدايته في اتفاق بن غوريون - عبد الله ، وقضى على فرص احيائه » (٨٢) .



ومن هذا المنطلق ، واستنادا الى تلك الحقائق وغيرها ، انتقد بعضهم بشدة تركيز ييغن على معارضة « السيادة » الاردنية على الضفة الغربية ، باعتبار انها احتلت ولم « يعترف » احد « بالحقوق » الاردنية المترتبة على ذلك الاحتلال . وفي هذا الصدد كتب رئيس تحرير هآرتس : « من المستحسن ان يسأل ييغن نفسه اذا كانت اية دولة قد اعترفت بمناطق [ فلسطين ] الانتدابية ، التي اجتلتها اسرائيل في حرب الاستقلال . خارج حدود الدولة كما عينت في مشروع التقسيم الذي صدر عن الامم المتحدة » .

« ان اغلبيية الدول الغربية اقامت هيئاتها الدبلوماسية في تل ابيب ، لانها حتى الان لم « تعترف » حتى بالقدس الغربية عاصمة لاسرائيل . والحقيقة هي ان اسرائيل قبلت كعضو في الامم المتحدة ، رغم انه لم تكن لها حدود دائمة وانما خطوط وقف النار فقط حسب اتفاقات الهدنة لعام ١٩٤٩ . ولكننا اعتبرنا عضويتنا في الامم المتحدة « كاعتراف » ، وخلال ١٩ سنة اعتبرنا هذه الخطوط وكأنها حدودنا . واذا كنا قد فسرنا عضويتنا في الامم المتحدة كإضافة شرعية على ما احتلناه سنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ( ايلات ) ، من المستحسن الانتكر لما احتله الاردن . وفي الحقيقة ، لقد قسمت [ فلسطين ] بين اسرائيل والاردن ، ولذلك ليس هناك اي طعم للتنديد بضم الضفة الغربية الى الاردن . واذا كنا عقلاء ، علينا ان نتوقف عن النظر الى حدودنا الشرقية وكأنها مسألة قانونية ، ونبدأ بالنظر اليها كمشكلة سياسية . هذا هو الاساس الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه من اجل الحصول على تنازلات اقليمية من الاردن والفلسطينيين ، وهي ضرورة لنا لسد حاجاتنا الامنية الحيوية » ( ٨٣ ) .

### بين الاعتراف بحقوق الفلسطينيين والتنكر لها

ان المميز لمشروع الحكم الذاتي والتسوية الاقليمية - الوظيفية هو رفض اية حقوق سياسية مستقلة للسكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة . فحسب مشروع الحكم الذاتي يستطيع سكان تلك المناطق التعبير عن هويتهم ، حسب المفهوم الاسرائيلي لهذا التعبير ، في اطار المجلس الاداري المقترح اقامته ، اما السياسة الخارجية والامن فهي مسؤولية اسرائيلية بحتة . وحسب مشروع التسوية الاقليمية - الوظيفية ، يجب ان يرتبط هؤلاء السكان سياسيا بالاردن او بدولة « اردنية - فلسطينية » ، « ليستطيعوا ان يجدوا فيها تعبيرا عن هويتهم » . ويعتقد رابين ، مثلا ، انه بواسطة اشراك زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة في المفاوضات مع الاردن ، وتخصيص وظائف ادارية لهم ، تحت الاشراف السياسي الاردني ، يمكن منح سكان الضفة الغربية وغزة فرصة التعبير عن الذات (٨٤) . اي ان اقصى ما هو معروض على السكان الفلسطينيين في المناطق المحتلة هو اشراكهم في المفاوضات مع الاردن لربطهم سياسيا به ، حسب مشروع التسوية الاقليمية ، او التفاوض معهم بشأن تنظيم « الحياة المشتركة » مع اسرائيل ، مع تجنب اي بحث في مستقبلهم السياسي ، حسب مشروع الحكم الذاتي .

غير ان هناك ، على الرغم من ذلك ، دوائر اسرائيلية معينة ، تعارض كلا من الحلين المقترحين لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة ، سواء كان الحكم الذاتي او كان الحل الاقليمي - الوظيفي ، لاعتقادها بعدم امكانية تحقيقهما ، بسبب عدم الرضا العالمي والعربي والفلسطيني على تلك المشاريع . فقد اعرب ، مثلا ، يهوشفاط هركابي عن رأيه في ان اسرائيل « لم تنجح في شرح خصوصية رفضنا الاعتراف بحقوق تقرير المصير

للفلسطينيين على أنه رفض نابع من خطورة الموقف العربي تجاه إسرائيل . فقد تأخرنا في العمل على تغيير المناخ الدولي . لذلك فمن الواضح أن العالم اليوم لا يقبل بمطالب إسرائيل ٠٠٠ لذلك فأنتي لا أرى إلا أن تنسحب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ ، وإذا استطاعت فلتتوصل إلى شروط أفضل في منطقة القدس « (٨٥) . أما الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة فلا يمكن إلا أن يتحول مع مرور الوقت إلى حكم عربي ، إذ لا يوجد أي بند في المعاهدة الدولية يمنع ذلك . « أن بيغن يقول أن قيام حكم عربي في الضفة يعني كارثة . لكن الضفة ستبقى عربية ، وسيقوم فيها حكم عربي إن أجلا أو عاجلا . فالبدأ الذي يسود الأجواء السياسية في هذا العصر هو أنه لا يحق لأي شعب أن يحكم شعبا آخر ، ولا يجوز حرمان جمهور كبير من حق تقرير المصير . والضفة الغربية لن تكون شاذة عن القاعدة المذكورة . إلا إذا أفرغت من سكانها العرب ، واستبدلوا بيهود يسكنون بيوتهم ، وهذا عمل لا نستطيع القيام به . ومن دون ذلك فإن الاستيطان اليهودي في الضفة لا جدوى منه ، وهو بالشكل الحالي ، كأنه غير قائم » (٨٦) .

ويشارك حركابي في رأيه هذا الدكتور تسفي هدار ، بقوله : « يعيش في الضفة الغربية منذ أجيال طويلة سكان عرب ، يعتبروننا محتلا غريبا ، ولا يرغبون في سيطرتنا عليهم . إن حقوقنا في المناطق التي يعيش فيها أولئك السكان ، مهما كانت عادلة حسب رأينا ، يجب أن تنبع من مبدأ أساسي بسيط ٠٠٠ وهو أنه لا يمكن تبرير سيطرة شعب واحد على آخرين خلافا لرغبتهم ، ولا يمكن تبرير اضطهادهم وسلبهم . وفي هذا المجال ، ليست هناك أهمية إذا كنا سنعيد الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية ، أو إذا قامت فيها دولة جديدة ، وليس هناك مكان للدعاء بأن للعرب دولا كثيرا ، ولدينا واحدة فقط . أو أن الشعب الفلسطيني ليس له وجود . كذلك ليس هناك أهمية للرأي القائل بأن المملكة الأردنية ليس لها أي حق في الضفة الغربية وأنها خرقت القانون الدولي في حكمها لهذه المناطق ، وإن الانتداب الذي منحه عصبة الأمم لبريطانيا من أجل إقامة وطن قومي لليهود ، يشمل هذه المناطق أيضا . وحتى إذا لم يكن للمملكة الأردنية أي حق في الضفة الغربية . فإن حقنا ليس أفضل من حقها ، لأنه يعارض رغبة السكان المحليين ، ويمكن ممارسته بالارغام فقط . كذلك فإن قرارات عصبة الأمم التي منحت لصالح الشعب اليهودي ، بعد الحرب العالمية الأولى ، ليست أساسا قويا لتبرير حق إسرائيل في هذه المناطق ، لأن القرارات اللاحقة التي صدرت عن الأمم المتحدة ، تناقض ذلك » (٨٧) .

انطلاقا من هذه الآراء . بدأت تطلق أيضا بعض الدعوات المحدودة ، الداعية لقبول بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، شرط « أن تعيش بسلام مع إسرائيل » . والواضح أن هذه الجهات لا تهمها المصلحة الفلسطينية بقدر ما يحركها الخوف من تطور القضية الفلسطينية في المستقبل بشكل قد يسيء لإسرائيل ، بسبب تجاهلهم للواقع السياسي المتغير في العالم . وفي هذا الصدد كتب ، مثلا ، دافيد هكوهين : « إذا كان بيغن يؤمن حقا بتسوية سلمية في حدود أرض - إسرائيل كما كانت خلال حكم الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة . بواسطة استيطان هذه المناطق ، فمن الواضح أنه لا يعيش الواقع السياسي العالمي الذي نعتبر جزءا صغيرا منه . كيف يستطيع رئيس الحكومة أن يكون أعمى وأصم بالنسبة لما يحدث في قارتي آسيا وأفريقيا التي يفوق عدد سكانها نصف البشرية ، بينهم مئات الملايين من المسلمين ، وضمن هؤلاء مائة مليون عربي ، تحولت قوتهم العسكرية ، ووزنهم السياسي وقوتهم الاقتصادية ، خلال الثلاثين سنة الأخيرة ، إلى حقيقة لم يتوقعها واضعو أسس الحركة الصهيونية مقيموا دولة إسرائيل .

ولو بكرت قوة العرب هذه في التبلور خمسا وثلاثين سنة فقط ، لكان هناك شك كبير حول احتمال قيام الدولة اليهودية ، (٨٨) . وعاد هكوهين وكرر ما كان قد اعلّنه سابقا : « لسنا نحن الذين يجب ان نقرر اذا كانت هناك شخصية فلسطينية ام لا . ان العرب الذين يعيشون في المناطق ، هم اصحاب الحق في ان يقرروا من هم وماذا يريدون ، سواء بالنسبة لشخصيتهم او لانتخاب زعمائهم . ينبغي عدم الاعتقاد باننا سنفرض عليهم الى الابد الملك حسين وحكومته ، ونتجاهل رغبتهم واختيارهم الديمقراطي للتغييرات في انظمة الحكم في دولتهم . ان هذه الدولة . . . ستقوم بالطبع ، بعد ضمان كل شروط السلام بيننا وبينها . وكمن يعارض دولة ثنائية القومية ، ويتطلع الى ارض - اسرائيل يهودية في طابعها ، حتى وان كان ذلك لاسباب ديموغرافية ملموسة وخطيرة ، فانني افضل دولة عربية مجاورة وتابلس داخلها ، على اسرائيل الواسعة والعرب داخلها » (٨٩) .

كذلك تطرق الدكتور رفائيل براكان الى مسألة حق تقرير المصير للفلسطينيين ، حتى وان ادى ذلك الى قيام دولة فلسطينية ، مؤكدا : « ان الفلسطينيين يشكلون اكثرية سواء في الضفة الغربية او في الضفة الشرقية من الاردن ، لذلك ، فان حق تقرير المصير للفلسطينيين يجب ان يمنح في الضفتين . الا ان هذا الامر مرتبط بمشكلتين : اولا - ماذا سيحل بالعنصر البدوي في شرقي الاردن ، وهل يمكن تحقيق العدل للشعب الفلسطيني على حساب الشق الاخر من السكان هنالك ( تقريبا كما ندعي ذلك لانفسنا ) ؟ ثانيا - من الاسهل على المنظمات الفلسطينية قيام نظام حكم غير فلسطيني في شرقي الاردن . . . اذ انه بهذه الطريقة يسهل عليها الادعاء ان الفلسطينيين لا يملكون قطعة ارض خارج فلسطين ، وبذلك يمكن المتهرب من المسؤولية السياسية والاختباء في ظل ظروف سهلة . عمليا ، تتمثل في حركة تحرير لشعب محروم من الاستقلال والسيادة .

« كذلك فان الجهات السياسية الاساسية القائمة اليوم في اسرائيل تفضل وجود الاردن ، اذ انها بذلك تستطيع البحث مع دولة قائمة . . . الا انها بهذه الطريقة لا تستطيع حل المشكلة الفلسطينية . . . ان حقيقة الوضع القائم اليوم ، هو ان الاغلبية الساحقة من الشعب الفلسطيني ترغب في اقامة دولة ثالثة . ورغم الصعوبات التي يمكن ان تنجم عن ذلك ، لن يكون هناك خيار آخر سوى احترام هذه الرغبة . . . » (٩٠)

غير انه لا بد من التشديد على ان هذه الآراء ، التي تطالب بقيام دولة فلسطينية مستقلة ، ما زالت محدودة جدا في اسرائيل ، وتكاد تكون مقتصرة على افراد او بعض المجموعات الصغيرة للغاية . كما ان تطورها يتوقف على مستقبل النضال الفلسطيني من جهة ، وتمسك الفلسطينيين برفض أية حلول اخرى بعيدة عن الاعتراف بحقهم في تقرير مصيرهم ، واقامة دولتهم المستقلة من جهة اخرى .

### الجبهة الشرقية هي الاخطر

رغم التصريحات والتلميحات التي صدرت عن السادات ، منذ زيارته للقدس ، او غيره بهدف الايحاء صراحة وضمنا ، كانه ليس لدى العالم العربي عامة والمشرق خاصة ، في نهاية الامر ، الا اتباع الطريق الذي تختاره مصر ، حتى عندما يتعلق الامر بالتسوية في المنطقة ، تشير مواقف الاسرائيليين وردود فعلهم الى انهم ليسوا على استعداد للاتكال على هذه الفرضية ، ويحسبون للجبهة الشرقية حسبها ، ان لم يكن حاضرا ، ففي المستقبل على الاقل . وتؤثر اعتبارات الاسرائيليين هذه ، على موقفهم من التسوية مع

مصر ، ان قبل السادات بذلك او لم يقبل به .

تيدي اسرائيل الان اهتماما كبيرا بالجبهة الشرقية ، باعتبارها الجبهة الوحيدة التي لا تزال واقفة في وجهها ، بعدما اقدم السادات على « تجميد » الجبهة الجنوبية ، اثر زيارته للقدس واعلانه الشهير « لا حروب بعد الآن » . وان كانت اسرائيل لا تبدي ثقة كبيرة بتصريحات السادات هذه ، معتبرة ان سببها الرئيسي ليس الرغبة في السلام ، بل ضعف الجيش المصري ، وعدم استعادته قوته كاملة بعد حرب تشرين « بسبب الحظر السوفيتي على الاسلحة » فانها لا تزال تبدي اهتماما بالجبهة المصرية ، وخصوصا احتمالات تأثيرها على اية حرب قد تنشب في المستقبل على الجبهة الشرقية - « ان التهديد الحقيقي لاسرائيل موجه اليوم من قبل الدول التي تحدها من الشرق » لذلك حتى اذا تحقق اتفاق مع مصر ، على اسرائيل الاستمرار بتجهيز نفسها لمواجهة ممكنة على الجبهة الشرقية . وتملك هذه الجبهة التي تضم اليوم العراق والاردن وسوريا ، وربما السعودية ايضا ، قوة عسكرية تزيد على ضعفي قوة مصر ، وتشمل حسب المعلومات الغربية ، اكثر من ٢٠ فرقة .

« وثمة من يعتقد ، ان في حال تحرك هذه الجبهة نحو المواجهة مع اسرائيل ، سيصعب كثيرا على مصر الموقف موقف المتفرج . ولكن حتى اذا اكتفت [ مصر ] بالقيام بتحريك [ عسكري ] « رمزي » ، مثل تسميك خطوطها والقيام بمناورات مختلفة ، فانها ستضطر اسرائيل الى توجيه قوات كبيرة نحو القطاع الجنوبي ، وبذلك تقلل بمدى كبير من قدرتها على الحسم في الجبهة الشرقية ، بشكل سريع وواضح » (٩١) .

وكان رئيس الاركاب الاسرائيلي الجديد رفائيل ايتان قد اعلن ، اثر تعيينه ، « ان الجبهة الشرقية تحولت الى اخطر جبهة منذ حرب يوم الغفران ، وذلك لسببين . اولهما القوة العسكرية التي تملكها ، وثانيهما ، عدم وجود مجالات [ للمناورة ] امام اسرائيل ، كما هو الوضع بالنسبة لسيناء » .

« وينبغي ان تضاف السعودية ايضا الى الاطراف الاساسية في تلك الجبهة ، نظرا للجهد العسكري غير المحدود الذي تستطيع بذله - فالسعودية تستطيع اليوم شراء واقامة وانتاج كل ما ترغب فيه ، دون حدود ، حتى الطاقة البشرية ٠٠٠ وينبغي اعتبار العراق [ ايضا ] دولة مواجهة يسرها الانضمام الى أي حرب ضد اسرائيل ، كما فعلت ذلك في الماضي . كذلك فان الاردن « لا يقف في الظل » كما يعتقد البعض ، ولديه جيش حديث مزود بأسلحة غربية جديدة ، ويزيد من قوته بسرعة هائلة » (٩٢) .

ان احتمالات المواجهة على الجبهة الشرقية بين اسرائيل ودول المشرق العربي ما زالت قائمة ، وليس هناك أي دليل على حدوث تغيير في هذا الوضع خلال المستقبل القريب . حكومة اسرائيل لم تقدمية مقترحات بشأن مصير هضبة الجولان ، ومشروع بيغن للسلام خال من اية اشارة الى تلك المنطقة . مما قد يدل على الرغبة في ضمها نهائيا الى اسرائيل ، حينما تشعر ان الوقت ملائم لذلك . وفي هذه الاثناء تقوم السلطات الاسرائيلية بتنشيط الاستيطان في هضبة الجولان حيث انشأت حتى الان ٢٥ مستوطنة هناك ، يسكنها نحو ٤ الاف اسرائيلي . كما تم استصلاح ١٦٠ الف دونم من مجموع مليون ونصف المليون دونم في الهضبة ، من أجل فلاحتها . وقد استثمرت اسرائيل خلال السنوات العشر الماضية نحو ملياري ليرة في مشاريع التطوير بواسطة دائرة الاستيطان في المنظمة الصهيونية ، والجهزة الاسرائيلية المختلفة ، ودائرة البناء القروي ، والمستوطنات

الجديدة (٩٣) . وتخطط اسرائيل لان لتطوير مستوطنة « كنسرين » في الهضبة وتحويلها الى مدينة كبيرة ، حيث « سيتم حتى عام ١٩٧٨ استثمار مائة مليون ليرة من ميزانية وزارة الاسكان » (٩٤) ، تلك الغاية .

وتعتبر اسرائيل هضبة الجولان بثابة خط امامي للدفاع عن مستوطنات الجليل والحولة وتأمين السيطرة على مصادر مياه الاردن . الا ان ذلك لا يبرر عملية تنشيط الاستيطان في الهضبة ، ان ، ما هو الخط الامامي الذي سيدافع عن مستوطنات الجولان في حال نشوب حرب على هذه الجبهة ، خصوصا وان حرب ١٩٧٢ برهنت عدم جدوى هذه المستوطنات في مواجهة اي هجوم عسكري كبير ؟ . ويبدو ان اسرائيل تعلمت هذا الدرس جيدا ، وعملت على تحويل مستوطناتها في الهضبة الى قلاع عسكرية ، وهو ما اشار اليه رئيس الاركان الاسرائيلي ايتان بقوله : « لو كانت مستوطنات الجولان [ سنة ١٩٧٢ ] ، كما هي اليوم مدربة ومسلحة جيدا ، لما كانت هناك حاجة الى اخلاء سكانها » (٩٥) الا انه يبدو ان هذا الادعاء لا يقنع كثيرين داخل اسرائيل « فمستوطنات هضبة الجولان ، مثلا ، تضررت من حرب [ الفدائيين ] ، اكثر مما قاومتهم ، وكانت هناك حاجة للدفاع عنها امامهم » (٩٦) . وما دامت هذه المستوطنات لا تستطيع التصدي للفدائيين ، فكيف يمكنها التصدي لهجوم عسكري شامل . ان ضم الهضبة هو ، اذن ، الهدف الاساسي من وراء عملية تنشيط الاستيطان ، وليس « المساهمة في حفظ الامن الجاري » او « الدفاع عن الهضبة في حالة هجوم عسكري » ، وفقا للمزاعم الاسرائيلية . وعلى اي حال ، لم تستأثر قضية الاستيطان في الهضبة باي اهتمام او بحث خاص ، اثناء المفاوضات السياسية مع مصر ، حيث تركز النقاش حول مستوطنات سيناء والضفة الغربية . الا ان النتيجة العملية التي يمكن استخلاصها من هذا النقاش ، هو : اذا كانت اسرائيل تبدي كل ذلك الاصرار بشأن الاحتفاظ بمستوطنات سيناء البعيدة كل البعد عن المراكز السكنية ، في اسرائيل ، فماذا سيكون موقفها بشأن مستوطنات الجولان في اية مفاوضات محتملة قد تجري في المستقبل حول هذه المنطقة ؟

ويلاحظ ، من خلال النقاش الدائر حول مفاهيم التسوية الاسرائيلية ، ان الاهتمام الاسرائيلي بشأن الاحتفالات المتوقعة في أية حرب قد تنشب على الجبهة الشرقية ، ينصب على بعض النواحي الاساسية التي تعتبرها اسرائيل نقاط ضعف في موقفها عامة على هذه الجبهة ، واولها في المجال العسكري البحت . فليس لدى اسرائيل ، على الجبهة الشرقية ، مجالات مناورة واسعة ، بعيدة عن تجمعاتها السكنية ، كما هي الحال في سيناء ، وايه مجابهة عسكرية في المستقبل ، ستؤدي الى تعرض سكانها بصورة كثيفة لعمليات القصف والتدمير . وينطبق هذا الامر على الضفة الغربية ، كما على هضبة الجولان ، « فالمستوطنات اليهودية مكشوفة والحرب تندلع رأسا في داخلها ٠٠٠ والمسألة ليست مصير المستوطنات في الهضبة ، وانما قيل كل شيء مستوطنات سهل الحولة والجليل ومصادر المياه الاسرائيلية . وقد زادت هذه المشكلة تأزما بعد دخول الجيش السوري الى لبنان وفتح جبهة جديد ٠٠٠ على طول هذه الحدود ، وكذلك بسبب ازدياد قوة الجيش العراقي الذي ينبغي اعتباره احتياطا للسوريين في حالة الحرب » (٩٧) .

وربما يكون الحل الوحيد لنقطة الضعف هذه هو استخدام اسلوب الحرب الخاطفة . وكان احد « المنظرين » العسكريين الاسرائيليين ، العميد ( احتياط ) اسرائيل كال ، قد علق على هذه الناحية بقوله : « في ظروف منطقتنا ، باستطاعة كل من يتمتع بتفوق كمي السماح لنفسه بخوض معركة دفاعية . ومن لا يتمتع [ بذلك ] ، لا يستطيع ان يسمح

لنفسه بهذا الشيء الفخم : على القلة التي تتبنى لنفسها مبدأ توجيه الضربة الأولى وإدارة حرب هجومية ، لا دفاعية ٠٠٠ [ وفي مجابته ] بين القلة مقابل الكثرة ٠٠٠ قد تكون الظروف غير مواتية لنا على جميع الجبهات لإدارة دفاع مرن . لذلك يحتمل ان نصل الى اوضاع لن يكون امامنا بديل آخر سوى الهجوم » (٩٨) .

ومهما تكن نتائج الحرب الخاطفة او امكانات شنها ، فمن الواضح ان من يفكر في هذا الاتجاه لا يوافق على تسوية تدعو الى الانسحاب من المناطق المحتلة . وفي هذا التصدد يصير الخبراء العسكريون في اسرائيل على مفهومهم - رغم ظهور عدة تفسيرات تناقض ذلك - بان الاسلحة الحديثة التي يملكها العرب واسرائيل ، في آن واحد ، لا تغني عن الاحتفاظ بالمناطق المحتلة ، او تبرر التخلي عن سياسة الحدود الآمنة ، وقد اعلن رئيس الاركاب الاسرائيلي السابق مردخاي غور « انه كلما كانت الاسلحة اكثر تطورا ، تزداد قيمة الارض » ان الذين يدعون العكس يفترضون انه بالامكان حسم الحرب بواسطة الصواريخ العابرة للقارات او الصواريخ بعيدة المدى ، وبواسطة القصف الجوي من طائرات ذات قدرة توغل عالية . ان هذا الافتراض خاطيء لان الحسم في المعركة يمكن تحقيقه فقط بواسطة حركة نشيطة للأسلحة البرية ، واحتلال منطقة او توجيه ضربة قاضية لجيش العدو . ان هذين الامرين يظهران اهمية الارض كفضلية عليا ٠٠٠ ومقابل تضخم الجيوش العربية بالمعدات المتطورة ، ثمة اهمية كبيرة جدا لعمق استراتيجي بري لاسرائيل يمكنها بواسطته صد اي هجوم من دون تعريض مركز البلد للخطر » (٩٩) .

اما المعلق العسكري زئيف شيف ، فقد اوضح اصرار اسرائيل على موقفها بقرله : « من ناحية اسرائيل ، اذا نظرنا الى الامر من الوجة الدفاعية ، فان دور المناطق [ المحتلة ] هو منع العرب ، المزودين اليوم بكميات ضخمة من الاسلحة الحديثة ، من امكانية دحر اسرائيل بسرعة ، او امكانية تحقيق اهداف استراتيجية في المرحلة الاولى من الحرب . ان هذا الهدف لا يتغير حتى عندما يكون في حوزة احد الاطراف ، او الطرفين ، صواريخ بعيدة المدى ، وحتى اذا كانوا مزودين بأسلحة ذرية ايضا . ان صواريخ ارض - ارض ذات الرؤوس التقليدية ، لا تصمم للحرب ، حتى اذا سقطت مئات منها ٠٠ على المدن الاسرائيلية : كما ان عمليات قصف سلاح الجو الاسرائيلي لا تصمم للحرب ، حتى اذا افرغت مئات الاطنان من القنابل على المدن العربية » .

« وكما شاهدنا في حرب الايام الستة ، وحروب كثيرة اخرى ، فان الكتل المدرعة هي التي تصمم للحرب ٠٠٠ وبعبارة اخرى ، ان الاندفاع السريع لكتل المدرعات العربية عندما يكون البعد بينه وبين المراكز الاستراتيجية ومراكز السكان صغيرا جدا ، هو ما يشكل خطرا على اسرائيل . وصواريخ ارض - ارض ٠٠٠ لا تقلل من قيمة الارض في هذه الحالة ٠٠ واتما على العكس ، تزيد من اهميتها ( في هضبة الجولان وكل مكان آخر ) » (١٠٠) . والواضح على كل حال ، ان الاحتفاظ بالمناطق المحتلة ، في مفاهيم الرأي العام « الامني ، الاسرائيلي - ان صح التعبير - هام جدا بالنسبة لاسرائيل ، لانه يفتحها في الدرجة الاولى الوقت الكافي لتجنيد احتياطها ، الذي يشكل العمود الفقري لجيشها . فالمناطق المحتلة تمكن اسرائيل من امتصاص الضربة الاولى ، ثم نقل المعركة الى مناطق العرب . وكانت هذه هي استراتيجيةها على اي حال ، خلال الحروب الماضية - وعبر اقدمهم عن هذا الرأي بقوله : « ان الارض ٠٠ ليست من غير اهمية . على العكس يجب ان تتوفر الارض ، من اجل ان نحظى بالوقت ، لتمكين قوات احتياط الجيش الاسرائيلي من تجنيد نفسها والاستعداد للدفاع . يمكن كسب الوقت احيانا مقابل الارض ، وهذا الوقت مفيد ايضا

للعليف من أجل تقديم المساعدة باية وسيلة كانت . صحيح ان الوقت لا يترجم دائما بالكيلومترات ولكن من دون ارض ومن دون عمق استراتيجي ، لن يكون للمدافع وقت لاي شيء . . . . ومن يقترح على اسرائيل كسب الوقت بواسطة الاستخبارات ، فمن الافضل توجيهه الى الدرس الاساسي الذي استخلصناه من حرب [ تشرين ] حول مصداقية الانذار ، (١٠١) .

وباختصار ، ما دامت اسرائيل تفكر في مزيد من الحروب مع العرب ، وتستعد لها ، لا يبدو ان هناك فائدة كبيرة من محاولة اقناعها بالانسحاب من المناطق المحتلة في سنة ١٩٦٧ ، لان استراتيجيتها العسكرية في اية حرب مقبلة ، مبنية اساسا على الانطلاق من هذه المناطق .

### لا حلف مع اميركا

منذ ان قام السادات بمبادرته ، ازدادت حدة النقاش - الذي كان قد بدأ ، على كل حال ، قبل ذلك - في اسرائيل ، حول «الازمة» في العلاقات الاسرائيلية - الاميركية اثر الاختلاف الذي ظهر في وجهات النظر بين الطرفين بشأن بعض القضايا المتعلقة بالتسوية السياسية ، التي تدور المفاوضات حولها بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة . ويلاحظ ان هذا الاختلاف ظهر حول مسألتين اساسيتين : الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية ، الذي ترفضه حكومة بيغن كليا ، معتبرة اياه بمثابة تنازل عن جزء من « ارض - اسرائيل التاريخية » ، ثم مسألة الاستيطان ومصير المستوطنات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، التي تعتبرها الولايات المتحدة « ضارة » بمجرى المفاوضات « وعقبة » في طريق السلام ، بينما تستمر حكومة بيغن في تعزيزها واقامة المزيد منها . ومع تشعب الحديث عن « الازمة » ، طرحت ايضا مسألة حلف دفاعي بين اسرائيل والولايات المتحدة ، للاسراع في تنفيذ عملية التسوية وتشجيع اسرائيل على الانسحاب من « مناطق محتلة » ، ومنذ ذلك الوقت اختلط الحديث عن « الازمة » والحلف بعضه ببعض الآخر .

يتحدث رئيس الحكومة السابق يتسحاق رابين - ورايين يتحدث من خلال اعتباره نفسه « خبيرا » في الشؤون الاميركية ، وموقف اميركا من اسرائيل ، منذ ان شغل منصب السفير الاسرائيلي في واشنطن لمدة ٥ سنوات بعد حرب ١٩٦٧ - حول اسباب « الازمة » الحالية بقوله : « ليس لدي شك ان السبب الاساسي للتغيير في الاجواء ، ناجم عن موقف ادارة كارتر . لقد ادى موقف رئيس الولايات المتحدة هذا الى تغيير السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط ، مقابل المواقف التي اتخذت في عهود الرؤساء السابقين ، جونسون ونيكسون وفورد . لقد ظهر الانحراف الاساسي في مواقف الادارة الحالية ، حتى قبل مجيء حكومة بيغن .

« فالرئيس جونسون ، في خطابه في تاريخ ١٩ حزيران ١٩٦٧ . . . وضع مبدأ موجها في السياسة الاميركية تجاه هذا الجزء من العالم . . . بقوله . . . « يجب ان تكون اطراف النزاع هي التي تصنع السلام » . ونتيجة لذلك ، امتنعت الادارات الاميركية في الماضي عن وضع مشروع اميركي مفصل لحل النزاع . ورغم انه - ويجب عدم تجاهل ذلك - وضع ، في سنة ١٩٦٩ ، المشروع المعروف باسم مشروع روجرز ، لم يأخذ الرئيس الاميركي نيكسون ، على عاتقه في ذلك الوقت ، اي التزام شخصي تجاهه ، وبذلك سهل على اسرائيل ، محاربتة وتجميده .

« ومنذ سنة ١٩٦٩ . لم تتخذ الولايات المتحدة ، في ولايتي نيكسون وفورد ، اي موقف رئاسي علني بشأن التفاصيل الاساسية في مشروع سلام اسرائيلي - عربي ، ولقد انحرف الرئيس كارتر عن هذا المبدأ الذي وجه اسلافه ، فاعلن شخصيا ، وعلنا ، انه يجب على اسرائيل الانسحاب الى الخطوط التي كانت قائمة قبل حرب الايام الستة ، مع تغييرات طفيفة ٠٠٠ واذا لم يكن هذا كافيا ، فقد أعلن كارتر أيضا في ١٨ آذار ١٩٧٧ ٠٠٠ عن « وطن للفلسطينيين » . وهذا انحراف ذو مدلول خطير جدا ، عن اي موقف اتبعه الحكم الاميركي حتى الآن حول هذا الموضوع » (١٠٢) .

واذا كان رايين يعتبر ان التغيير في السياسة الاميركية تجاه اسرائيل ، ناتج فسي الاساس عن تغيير موقف الادارة الاميركية ، وانحرفها عن المواقف السابقة ، فان بيريس يرى ان هذا امر لا يمكن ان يتم بمعزل عن التطورات لدى الرأي العام الاميركي ، والمصالح الاميركية الاسرائيلية المشتركة . يقول بيريس : « ينبغي ان نميز ، في شبكة علاقاتنا مع الولايات المتحدة ، بين ثلاثة مستويات مختلفة : الاول يتعلق بشبكة العلاقات بين الادارة الاميركية وحكومة اسرائيل ، والثاني بين مجمل الانتماءات لدى الرأي العام الاميركي والرأي العام الاسرائيلي . اما الثالث فيشمل مجمل المصالح المشتركة للولايات المتحدة واسرائيل وقد طرأ تشويش على هذه المجالات الثلاثة ٠٠٠ »

« وقد بدأ التدهور مع موضوع الاستيطان ، حيث اتخذت حكومة اسرائيل موقف الدفاع عن النفس ٠٠٠ ولا يقل خطورة ايضا موضوع نظرتنا الى قرار مجلس الامن ٢٤٢ ٠٠٠ والحققة هي ، كما سمعناها من اصحاب مناصب عليا في الادارة الاميركية ، ان الموضوع ليس فقط القرار ٢٤٢ ، وانما استعداد اسرائيل المبدئي ، لتقديم تنازلات اقليمية في الضفة الغربية . وهذا ، من خلال التفهم والموافقة على اننا لسنا ملزمين ، بالضرورة ، للعودة الى حدود ١٩٦٧ ، لانه يحق لنا المطالبة بحدود قابلة للدفاع ، ويعترف بحق اسرائيل في التواجد العسكري في الضفة الغربية ٠٠٠ وخلال المناقشات التي دارت بيننا وبين الادارة ، تمتعت اسرائيل دوما بتأييد واسع وعميق من جانب الرأي العام الاميركي . الا انه في الفترة الاخيرة ، حدث تحول خطير في الرأي العام ، حيث بدأ السادات يتقدم ، واسرائيل تجني الخسارة . ونتائج استفاءات الرأي العام تبين ذلك بوضوح ٠٠ »

ويضيف رابين : « اما بالنسبة للمستوى الثالث ٠٠ فقد تقرر هو ايضا بسببنا ٠٠٠ حتى ان احد كبار الناطقين في الولايات المتحدة أعلن امامي ، انه ليس متأكدا ابدأ اذا كانت مصالح اميركا مرتبطة بالضرورة بمصالح اسرائيل . والحقيقة معكوسة بالطبع : ان مركز الولايات المتحدة قوي في الشرق الاوسط نتيجة علاقاتها مع اسرائيل . ومن بين اسباب ضعف مركز الاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط ، ايقاف علاقاتها مع اسرائيل ايضا ٠٠٠ ان مركز الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، هو في الحقيقة ، اقوى من مركزها في « القرن الافريقي » او في جنوب شرق آسيا . والسبب ، بوجه خاص ، هو وجود اسرائيل في منطقتنا ٠٠٠ »

« ان هذه المجالات الثلاث تتحد في قناع واحد : فالمصلحة الاميركية تشمل ايضا موقف الرأي العام الاميركي ، والادارة تستغل صلاحيتها وتبلور مواقفها بعد اخذها بالاعتبار هذين المجالين ٠٠٠ » (١٠٢) الا ان بيريس لم يتطرق في حديثه هذا الى دور الإنظمة العربية الموالية للغرب ، في دعم مركز الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، وهو الدور الذي يبدو انه ادى ايضا الى تغيير ما في المفاهيم الاميركية ازاء مصالحها في المنطقة ،



مما ينعكس على اسرائيل بوجه خاص . وعلى كل حال ، لا زالت اسرائيل متمسكة بمقولاتها السابقة حول ترابط مصالحها مع المصلحة الاميركية في المنطقة ، باعتبارها « صرح الديمقراطية » والقوة الوحيدة التي تستطيع منع « المتوغل الشيوعي » في المنطقة . وقد اعلن ، مثلا ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست موشي ارنس ( ليكود ) ان المصالح الاميركية في المنطقة « لا تتناقض ابدا مع مصالحنا الاساسية » . ما هي هذه المصالح ؟ ان الولايات المتحدة مهتمة بوجود اسرائيل قوية ، لان دولة اسرائيل عضوة في مجموعة الدول الغربية الديمقراطية ، وهي المجموعة الآخذة بالتقلص . خاصة بسبب الخوف من صعود الشيوعية في اوربا الغربية . ومساهمة اسرائيل في المصالح الاميركية مهمة جدا ، لانها تملك القوة - من ناحية عسكرية وثقافية وحضارية - في هذا الجزء من العالم ، وايضا ، زيادة نفوذها في العالم العربي . اثر تعلقها المتزايد بالذئب . وهذه هي مصالحنا تماما . ان النقاش بيننا وبين الولايات المتحدة لا يتركز اذن على تناقض في المصالح ، وانما مع الاجراءات التكتيكية التي ستؤدي الى تحقيقها . وهكذا فان بعض الاجراءات التي تبدو مفيدة من اجل تحقيق مصلحة ما ، تؤدي الى تحقيق مصلحة اخرى . ويبرز هذا الامر ، بشكل خاص ، في مجال علاقات الولايات المتحدة مع الدول العربية : بما ان الولايات المتحدة لا تستطيع منح العرب الاموال ، لانهم يملكون الكثير منها . فان ما تستطيع صنعه من اجل استمالتهم هو البرهنة لهم ، انها تستطيع الحصول على تنازلات من اسرائيل ، خلافا للاتحاد السوفييتي . ان النقاش بيننا وبين الولايات المتحدة ، يدور اذن في الاساس ، حول مستوى الاخطار المحتملة . وليس عجيبا انهم مستعدون للمخاطرة كثيرا على حسابنا : فامكانية سقوط اعداد من القتلى الاسرائيليين في الحرب القادمة ، لا تؤثر عليهم ، كما تؤثر علينا . وتزويد الطائرات لمصر والسعودية هو ايضا جزء من الخلاف حول مستوى الاخطار المحدقة باسرائيل ، فالطائرات والخبرة التقنية الاميركية الممنوحة لمصر تحدث تغييرا في معادلة ميزان القوى في المنطقة . ويشكل هذا الامر حافزا سلبيا لاستمرار المفاوضات المباشرة ، لان احد دوافع خطوة السادات هو ادراكه ، انه لا يملك خيارا عسكريا ضدنا « (١٠٤) » . ويلاحظ ان اصحاب مفهوم « المصالح المشتركة » « والخلافات التكتيكية » لا يبالون بالقيام بأي مواجهة مع الولايات المتحدة ، حفاظا على « مصالح اسرائيل واميركا » حسب مفهوم الخاص بهم . « والحقيقة هي ان اصحاب هذا المفهوم غير متأكدين تماما فيما اذا كان مستقبل اسرائيل مضمونا الى الابد ، في حال تخلي الولايات المتحدة عن تأييدنا . الا انهم مقتنعون ان الولايات المتحدة في حاجة اليها اكثر من حاجتنا اليها . انهم يخصصون لاسرائيل مكانا هاما في الجبهة المعادية للسوفييت ويعتقدون انه لو تجرأنا فقط واطلعنا الجمهور الاميركي على قيمة اسرائيل الجغرافية ووزنها العسكري ، فسندقق في النهاية استمرار تأييد الحكم الاميركي . واذا لم نحصل على تأييد « لارض اسرائيل الكاملة » ، فسنبطل على الاقل على تأييد لدولة اسرائيل التي تعترف صراحة انها ترغب في السلام من دون التخلي عن اليهودية والسامرة وغزة .

« ان رئيس الحكومة الحالي يريد السير بنا على هذه الطريق ، وهذا هو معنسى سياسته . كما ان حركته [ حيروت ] تتماثل معه . كذلك تؤيده عناصر معروفة داخل حزب الاحرار وجزء من الجمهور المتدين » (١٠٥) .

وعلى هذه الارضية يدور النقاش حول عقد حلف دفاعي بين اسرائيل والولايات المتحدة

من خلال اتجاه عام مؤيد لرفض مثل ذلك الحلف . فقد علق رايبين ، مثلا ، على ذلك الاقتراح بقوله : « انه يمكن عرض هذا الموضوع من نواح كثيرة - سياسية وعسكرية واخلاقية . انني ارى فيه نواح سلبية فقط . وما هي اهمية حلف دفاعي كهذا ؟ للولايات المتحدة ائتلاف دفاعية مع دول كثيرة في انحاء العالم . وما يميز هذه الائتلاف المشتركة هو الوقوف مقابل تهديد عسكري سوفياتي او صيني مباشر . ان الشرط الاساسي لقيام حلف دفاعي كهذا من جانب الولايات المتحدة هو واحد فقط : رفض حرية العمل العسكري والسياسي للدولة الحليفة . ومن ناحية الولايات المتحدة ، عليها ان ترسل قوات عسكرية للدفاع عن حليفتها . اثناء اي هجوم عليها . واذا حدث حقا حلف دفاعي بين اسرائيل والولايات المتحدة ، سيؤدي هذا الى منعنا من حرية العمل السياسي او العسكري . وكل رد فعل اسرائيلي على ما يتعرض لنا ولصالحنا الحيوية ووجودنا ، يلزم الحكومة الاسرائيلية بعدم تحريك ساكن قبل الحصول على تصديق من البيت الابيض . فهل نحن في حاجة الى ذلك ؟ ( ١٠٦ ) .

اما شمعون بيريس فيرى « ان فكرة الحلف الدفاعي مع اسرائيل طرحت للتسهيل عليها في اتخاذ قرار بشأن التنازل عن مناطق ، وضمان تعويض دفاعي لها حول خسارتها (للك المناطق ) من ناحية استراتيجية . ان الدافع لهذه الفكرة هو ايجابي : مساعدة اسرائيل على اقامة نظام دفاعي جديد ، وزيادة احتمالات اتفاق السلام بواسطة « تليين » الجانب الاقليمي لدى اسرائيل » ( ١٠٧ ) .

الا ان بيريس يرى اخطارا عديدة في مثل ذلك الحلف ، وبالتالي يعارضه : « هنسناك امكانات مختلفة لطابع هذا الحلف . يمكن ان يكون حلفا اسرائيليا اميركيا بحثا ، ويمكن ان يكون حلفا اميركيا - اقليميا ( اي : ضمان اميركي لجميع الدول الموقعة على اتفاقات سلام بينها ، في منظور معين بمثابة « حلف اطلسي » . ليس موجها بالضرورة تجاه اي اعتداء من الخارج . وانما اعتداء من الداخل ايضا ، من بين الاعضاء الموقعين ) . ويبدو لي من النظرة الاولى ان حلفا اقليميا افضل من حلف ثنائي ، ولاسباب عديدة . اولاً ، ربما يؤدي حلف ثنائي الى تقوية قوة اسرائيل المرادعة ، ولكنه سيضعف اهمية استقلال اسرائيل . ان حلفا كهذا - بين اطراف غير متساوية - لن يظهر الولايات المتحدة كامتداد لاسرائيل . ولكنه سيظهر اسرائيل ، بالضرورة ، امام العالم كله كامتداد للولايات المتحدة .

« واذا كانت اسرائيل قد بدت حتى الان كصديقة للولايات المتحدة ( وعلى العكس ) فانه بعد حلف كهذا ستبدو كتابعة انها . . . سترغب الولايات المتحدة في ان تعرف سلفا ، ليس فقط ما هو تركيب جيشنا او مفهومنا الاستراتيجي ، وانما ايضا جوهر كل عملية ، صغيرة ام كبيرة ، قبل تنفيذها . ولن تكتفي ايضا بالحصول على المعلومات وانما ستقدم لنا النصائح . . . ان حلفا ثنائيا يجب ان يوقع ( او يكون متفقا عليه ) قبل انتهاء المفاوضات بيننا وبين مصر . . . وسيكون له ثمن ( وبالطبع ثمنه الارض ) بعبارة اخرى ، يصعب الافتراض ان حلفا كهذا سيقترح علينا نظريا وتطبيقيا ، الا اذا وافقنا على الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، وحتى بتعديلات بسيطة » ( ١٠٨ ) .

ويطعن بيريس ايضا في « فعالية هذا الحلف من الناحية العملية : ففي حالة هجوم مفاجيء ، ثمة شك اذا كانت اجهزة اتخاذ القرار وتنفيذه في الولايات المتحدة ، ستعمل بالسرعة المطلوبة ، وفي حالة هجمات ارهابية ، فان الحلف غير مهم ، لانه لا يهدف من

الاساس الى التغلب عليها ، وفي حالة حرب استنزاف ايضا ، ثمة شك كبير اذا كان باستطاعة ذلك الحلف ان يؤدي دورا حقيقيا . ان قيمة الحلف هو في قوته الرادعة . ولكن مع الوقت ، تمر هذه القوة في مجرى من الانهك ، ويصبح مشكوكا في فعاليتها على مر الايام ، [ كما ] ، ان حلفا كهذا سيفتح خيارات جديدة امام الاتحاد السوفيتي ايضا ، ومن غير المستبعد ان يقترح احلانا موازية مع بعض الدول العربية . ومعنى ذلك ، تعميق الحرب الباردة في الشرق الاوسط من جهة اولى ، وخطر تحول اي حرب محلية الى حرب على المستوى العالمي من جهة اخرى . ان حلفا كهذا يمكن ان يشوش ايضا على احد الاتجاهات الاساسية في اسرائيل . وهو العيش في حسن جوار مع جيرانها من دون حواجز مبنية على قوات اجنبية » (١٠٩) .

اما بالنسبة للحكومة الاسرائيلية ، فالواضح ان موقفها من الحلف المقترح لا يختلف اساسا عن موقف زعماء المعارضة ، وهي تؤكد ان هدف سياستها هو تأمين « استقلال دفاعي » لاسرائيل ، اي رفض سياسة الاحلاف ، بما في ذلك الحلف مع الولايات المتحدة . ويرى البعض في هذا الموقف دليلا اخر على ان حكومة اسرائيل « لا تريد [ عمليا ] الوصول الى اي اتفاق ، وانما هدفها هو اجراء مفاوضات فقط » (١١٠) ، ربما لكسب الوقت او لمحاولة نسف اية مقترحات جديدة ، ريثما تتبدل الاوضاع في المنطقة ، او لتغيير المواقف الدولية ، وتجد اسرائيل مخرجا من « ورطة المفاوضات » التي غرقت فيها .

### هل السلام مطلب اسرائيلي ؟

راهن السادات ، بزيارته للقدس ، على كسب تأييد الرأي العام الاسرائيلي الى جانب « مبادرته السلمية » ، وقد تحدث صراحة عن هذا الموضوع اكثر من مرة . والحقيقة هي ان هناك نقاشا واسعا بين الاسرائيليين حول ماهية السلام واهميته ، خصوصا بين اولئك الذين يدعون الى « ارض - اسرائيل الكاملة » من مؤيدي سياسة الحكومة والمحسوبين عليها من الجماعات المتطرفة على غرار غوش ايمونيم وغيرها من ناحية ، وبين اولئك الذين يفضلون « سلاما حقيقيا » مع العرب ، على اساس التسويات الاقليمية، والوصول الى حل « عادل » لكافة القضايا المتعلقة ، خصوصا القضية الفلسطينية من ناحية اخرى .

وكان من بين النتائج ، الملقطة للنظر ، التي ترتبت على زيارة السادات نشوء ما يمكن ان يسمى حركات احتجاج معارضة للحكومة ، تطالب باتخاذ مواقف اسرائيلية اكثر ليونة تجاه العرب ، ومحاولة الوصول الى اتفاق مع مصر . ومن ابرز هذه الفئات ، حركة « السلام الان » ، وهي مجموعة من ضباط الاحتياط في الجيش ، الذين بعثوا برسالة مفتوحة الى رئيس الحكومة ، اعتبرت فيما بعد الشعار الرئيسي لحركتهم . واهم ما ورد في هذه الرسالة « ان الحكومة التي تفضل وجود دولة اسرائيل داخل ارض - اسرائيل الكبرى ، على وجودها في سلام وعلاقات حسن جوار ، تثير لدينا تساؤلات قاسية . والحكومة التي تفضل قيام مستوطنات خارج الخط الاخضر على تصفية النزاع التاريخي والتوصل الى ترتيب شبكة علاقات عادية في منطقتنا تثير لدينا تساؤلات بشأن عدالة طريقنا . ان سياسة حكومة تتسبب في بقاء السيطرة على حوالي مليون عربي ، قد تلحق الضرر بالمطابع اليهودي - الديموقراطي للدولة وتجعل من الصعب علينا ان نتضامن مع [ السياسة ] التي تتبعها اسرائيل . اننا ندرك الحاجات الامنية لدولة اسرائيل ، والصعوبات التي تقف في طريق السلام ، ولكننا نعرف ايضا ان الامن الحقيقي يتم تحقيقه

فقط عند تحقيق السلام ٠٠٠ « (١١١) وقد أثارت هذه الرسالة موجة من التأييد بين صفوف الاسرائيليين ، مما شجع الموقعين عليها الى المضي في نشاطهم المعارض ، فنظموا مظاهرة كبيرة في تل ابيب اشترك فيها اكثر من ثلاثين الف شخص للتعبير عن التضامن مع هذه المجموعة . وقد اعتبر البعض حركة الاحتجاج هذه بمثابة رد ملائم على حركة غوش ايمونيم المتعصبة . « فالسلام الان » ليست حركة شرعية فقط ، بل جاءت نسي وقتها . فمقابل حركة تمثل النخبة - وغوش ايمونيم هي كذلك - قامت مجموعة اخرى تمثل النخبة ، بعد ٧ - ٨ سنين ، لتسبغ على النقاش المهم الدائر منذ سنة ١٩٦٧ ، طابع نقاش جماهيري ، حيوي وديمقراطي « (١١٢) .

ويلاحظ ان حركة « السلام الان » ليس لها طابع حزبي ، اذ انها تضم اناسا ينتمون الى احزاب مختلفة . ويقال ان بين الموقعين على رسالة الضباط من صوت في الانتخابات الاخيرة الى جانب ليكود . وسبقت رسالة الضباط هذه الى رئيس الحكومة ، رسالة اخرى بعثت بها مجموعة من الطلاب الثانويين ، يقولون فيها « ان اسرائيل تقف امام امكانين . اولا اعادة المناطق التي احتلت في حرب ١٩٦٧ ، وتوقيع اتفاق سلام مع العرب . ثانيا ، الاستمرار في احتلال المناطق المحتلة ، واضطهاد سكانها واستمرار حالة الحرب . وان حكومة اسرائيل تتجه نحو الطريق الثاني .٠٠٠ طريق الحرب .٠٠٠ اننا ندعو رئيس الحكومة للسير في الطريق الصحيح ، طريق السلام ، وان يبدي استعداداه للتوقيع على اتفاق سلام شامل يؤمن ضمان الحقوق القومية لكل شعوب المنطقة بما فيها الشعب العربي الفلسطيني ، ويعترف بحقه في تقرير مصيره . واذا لم يسر رئيس الحكومة على هذه الطريق ، فستكون يداه ملطختين بدمائنا ، دم الذين سيسقطون في الحرب » (١١٣) الا ان رسالة الضباط كسبت تأييدا اوسع بين الاسرائيليين ، نظرا لتوقيتها ، اذ جاءت بعد ان اتضح تصلب الحكومة الاسرائيلية في المفاوضات السياسية .

وقد اعلن احد ضباط الاحتياط الموقعين على الرسالة ، عمير بار - اور ان « الهدف الاساسي للرسالة كان الاظهار ان هناك اشخاصا يفكرون بطريقة مختلفة . وتولد لدينا شعور ، بان هناك كثيرين يشاركوننا التفكير ، وقد اتضح ، لسرورنا الكبير ، ان هذا صحيح . فرغم مشكلات الاتصال والتنظيم حصلنا على الاف التواقيع .٠٠٠ هناك رغبة في اعتبار حركتنا ، حركة مضادة لغوش ايمونيم .٠٠٠ لا اعرف ماذا سيحدث لنا مع الوقت ، وواضح لي اننا لا نستطيع وحدنا مواجهة التحدي » (١١٤) .

كذلك تحدث ضابط اخر يدعى يفتاح يعقوب ، موضحا « اردنا في المرحلة الاولى كسر الاجماع القومي ، الذي كان وليد تضليل الرأي العام .٠٠٠ فكرنا بواجب ان نقول ما لدينا .٠٠٠ من الخطأ التوقع اننا سنعطي جوابا لغوش ايمونيم ، فلن ننجر الى اساليبهم . نحن نؤمن بالديموقراطية وبالقدرة على العمل والتأثير في اطرافها .٠٠٠ » (١١٥) وازداد ضابط ثالث : « لن نتحدث بلغة غوش ايمونيم . فالاشخاص المتطرفون يمكن ان يجيبهم اشخاص متطرفون مثلهم من الطرف الاخر .٠٠٠ ونحن لسنا من هذا النوع . ان جوابنا .٠٠٠ سيكون بواسطة العمل اليومي ، في تركيز مجموعة كبيرة من الاشخاص يوحداهم الاعتدال .٠٠٠ » (١١٦) .

غير انه لم يمض وقت طويل على بدء نشاط حركة « السلام الان » ، حتى ظهرت فئات مضادة تقودها في الاساس حركتا حروت وغوش ايمونيم وغيرها من الحركات المتطرفة الاخرى ، تدعو الى تأييد سياسة الحكومة ، وعدم التنازل عن « ارض اسرائيل » لان السلام

بعيد ، ولا يمكن تحقيقه بسرعة . وقامت هذه الفئات بتنظيم مظاهرة واسعة في تل ابيب ، ردا على حركة الاحتجاج الاولى .

يلاحظ من خلال الطروحات المختلفة ، او الشعارات التي ترفعها حركات الاحتجاج هذه ، انه رغم ابتعاد الحركة الاولى - حركة « السلام الان » - عن اي اطار حزبي وعدم وضوح خطها السياسي تماما ، فان ما تطرحه قريب جدا من مشروع التسوية الاقليمية الذي ينادي به المعراخ ، خصوصا فيما يتعلق بالضفة الغربية وحل المشكلة الفلسطينية . فقد اعلن احد الضباط في الحركة انه « لا يمكن تجاهل المشكلة الفلسطينية ، ويجب الاهتمام بمنظمات الارهاب ، كما يجري الاهتمام بالاجرام . واضح ان دويلة اخرى بيننا وبين الاردن ، او حكما ذاتيا ليس حلا حقيقيا . يجب منح الفلسطينيين فرصة ليقرروا طابع العلاقة التي ستنشأ بينهم وبين الاردن » (١١٧) . وتجر الإشارة هنا ان بعض زعماء المعراخ مثل ابا ايبن والون وبار - ليف وغيرهم ، ايدوا رسالة الضباط ، مما يبرهن على قرابة طروحاتهم من طروحات المعراخ (١١٨) .

اما بالنسبة للحركات الاخرى ، فهي تثبت عمليا خط الحكومة وسياستها الى درجة اصبح معها التساؤل الحقيقي هو : « اليس التزام حركة حروت ، وغوش ايمونيم وحركة ارض - اسرائيل الكاملة ، بعدم القيام بأي تنازل في الضفة الغربية ، لا يعبر الا عن رأي الاقلية في اسرائيل ؟ ان كل اسرائيلي عاقل وشريف يعرف الحقيقة : وهي ان اكثرية الاحداث اعطيت [في الانتخابات الاخيرة] لاحزاب تؤيد التسوية الاقليمية . وان اي تظاهر بالحكمة لا يبطل الحقيقة بأن زيارة السادات قد فتحت منفا للمحل لم يكن قائما من قبل . ان اي تفلسف لا يخفي حقيقة اننا نعيش الان في عزلة دولية ، لم نعرف مثيلا لها في خطورتها ، وهناك مصلحة قومية عليا في شق سور هذه العزلة » (١١٩) .

على كل حال ، لم يمر وقت طويل حتى الان على بدء نشاط حركات الاحتجاج هذه ، ولا زال الوقت مبكرا لمعرفة مدى تأثيرها على احداث اي تغيير في سياسة الحكومة . الا ان المؤشرات غير مشجعة ابدا ، خصوصا ان الفئات المتطرفة تعمل جاهدة لشل اي نشاط يعرقل اهدافها ، بعد ان بات لها الكثير من المؤيدين داخل الائتلاف الحكومي نفسه . لذلك فان مراهنة السادات على كسب الرأي العام الاسرائيلي لم تنجح حتى الان . فالاحتجاج على سياسة الحكومة لم يصل بعد الى مرحلة التأثير وبالتالي القدرة على تغيير هذه السياسة . كذلك فان الطروحات التي تقدمها تلك الفئات المعارضة ، لا تتماثل بأي شكل من الاشكال مع المطالب العربية ، خصوصا بالنسبة للقضية الفلسطينية .

ان حركة « السلام الان » او غيرها من « حركات الاحتجاج » المؤيدة لها او المعارضة ليست ، على كل حال ، الا نوعا من التعبير عن النقاش الدائر حول مفاهيم السلام الاسرائيلية وامتدادا لها . وتطرح خلال هذا النقاش وجهات نظر و آراء من نوع اخر ، يختلف عن ذلك الذي اعتاد الاسرائيليون على اسماعه للعالم . فرغم المزاعم الاسرائيلية المتكررة ، مثلا ، بأن السلام هو قبل كل شيء مطلب اسرائيلي ، تشير الاتجاهات النفسية لدى فئات واسعة بين الاسرائيليين الى استنتاجات مختلفة . ويبدو ان هناك خوفا كبيرا ، لدى فئات غير قليلة ، ومن بينها الفئات المتطرفة بالطبع ، من امكانية نجاح مساعي السلام في نهاية الامر ، والبعض يبدي قلقا واضحا في هذا الشأن . والدوافع عديدة ، منها السياسية والنفسية والعقائدية وغيرها .

فالنائب والكاتب امنون روبينشتاين حلل ، مثلا ، بعض نواحي هذه الظاهرة بقوله ان الحصار الذي عاشه الاسرائيليون منذ قيام اسرائيل قد أثر كثيرا عليهم ، الى درجة

اصبحوا يحتقرون معها كل ما هو شرقي . « يحتمل ان يكون النقاش الدائر بيننا الان حول مواقفنا الخارجية ، بين اولئك الذين يدعون الى ارض - اسرائيل الكاملة ، وبين الذين يفضلون سلماً حقيقياً على تراث الاجداد ، قد جاء ليغطي على نقاش اعمق واهم . ان فرصة السلام الحقيقي - ليس ذلك المكتوب على الورق - تثير داخلنا انتفاضات داخلية ، لم نلمس قوتها بعد ٠٠٠ فالامر [بالنسبة للاسرائيليين] لا يتعلق باتفاق سياسي فقط ، وإنما بتغيير جذري [في الموقف العربي] . تجاه طائفة اعتبرت حتى الان جسماً غريباً ، ونموا سرطانياً في الشرق العربي - الاسلامي ٠٠٠ ان الحصار [العربي] هو الذي اعاد اسرائيل الى الشعور التقليدي بالعزلة ، تلك العزلة التي عارضتها الصهيونية واثارت ضدها ٠٠٠ وهو اذني ادخل الى القاموس النفسي لدى الاسرائيلي العادي عبارات حول « المصير اليهودي المتكرر » ، « والعالم كله ضدنا » ، وكون اسرائيل « غيتو » يلعب العرب فيه دور الاغيار المهددين » (١٢٠) .

يقول روبينشتاين : « ان المشروع الصهيوني لا يمكن ان يتطور كامتداد غريب للعالم الذي هرب منه اليهود ، من دون ان يفتح منافذ ثقافية وروحية على العالم العربي الذي يحيط به . ان هذا الدمج بين الخصوصية والانفتاح هو الذي ميز بداية اليشوف اليهودي في ارض - اسرائيل ٠٠٠ ولكن تناقضا وقع : فبعد ان قدم نصف يهود اسرائيل من دول عربية ، حيث استوعب الكثير من عاداتهم وطعامهم من قبل السكان ، اهلقت محاولة التفاهم - نفسياً - مع العالم الذي قدموا منه . هذا ما حدث - وليس لاي شخص ذنب في ذلك وإنما بسبب الحصار - حيث اصبحت ثقافة الشرق تعتبر غايصة فسي الانحطاط ٠٠٠ ونشأ اهمال واستخفاف بكل شيء تفوح منه رائحة شرقية . ان لطخة « شرق اوسطية » التصقت بكل ما هو غير مستقى من اوروبا ٠٠٠

« ان الحقيقة هي اننا صمدنا ببطولة في الحرب والحصار ، وحافظنا على نظام حكم ديموقراطي وعلى حريات المواطن في ظروف لم يجربها شعب اخر ، الا ان هناك شيئاً عميقاً تحطم داخلنا : سلمنا - في البداية قسراً وبعد ذلك بلا خيار - بعزلتنا غي الشرق الاوسط . حتى ان كثيرين بدأوا يرون ميزات في هذه العزلة ٠٠٠ وأصبحت مخاوف الخروج منها والتكيف مع التغيير الثوري المرتبط بالسلام ، تنصح عن نفسها فسي تعبيراً علني » (١٢١) .

اي ان الحصار ، الذي اعتادت اسرائيل عليه ، اصبحت ميزة في نظر الكثيرين هناك : ولهؤلاء نظرة خاصة تجاه الصراع العربي ، تبلورت وفق مفاهيم معينة يمكن وصفها - على حد تعبير احدهم - « بثقافة النزاع » . ويحمل هؤلاء ، مثلاً ، مشاعر سلبية تجاه الاغيار . « اصبحت النظرة تجاههم [اي الاغيار] كأنهم جهلة ، عنيفون وخطيرون ، بينما نحن ٠٠٠ مثقفون ، غير عنيفين ، ومحبون للسلام ٠٠٠ ان كثيرين بيننا فقصدوا حتى القدرة على الاعتراف بأن الغرباء او الاغيار يمكن ان يكونوا مختلفين عن الصفات السلبية التي اعتدنا على الصاقها بهم . وهكذا وصلنا الى وضع ، يتمسك به كثير من بيننا ، ويستند الى وجهة نظر مبنية على الايمان القوي بأن « جميع العرب يريدون القضاء على اسرائيل » . وما يزال من الصعب على هؤلاء استيعاب الحقيقة ، بأن هذه القاعدة لم تعد تنطبق على جميع الدول العربية ، وبالطبع ليس على كل زعيم عربي . ومن الاسهل على هؤلاء التمسك بوجهة النظر السلبية تماماً تجاه نوايا العرب ، لان النتيجة العملية من وراء ذلك ، هو عدم وجود أي حاجة لاحداث اي تغيير عندنا ، بحيث يمكن الاستمرار

في الحفاظ على ثقافة النزاع بمفاهيمها المختلفة .

« ان استمرار النزاع تحول على ما يبدو الى حاجة نفسية لدى اولئك الذين تتعلّق هويتهم الشخصية ، وتتغذى ، بوجود نزاع غير محلول . ان المفاهيم الاساسية لدى هؤلاء هي نفس مفاهيم حالة النزاع : تقسيم العالم بين اولئك الذين يستحقون اكثر ، والذين يستحقون اقل ، تركيز قوة بشكل غير منقطع ، المناورة في اتجاه نقاط الضعف لدى الخصم ، تعريف انفسهم كابطال ومقدسين ، وتعريف الباقين كمنحطين واغبياء ، اخضاع كل ما هو اخلاقي الى ما هو عملي ، واستعداد دائم لتقديم ضحايا ، منهم ومن غيرهم .

« ان امكانية تقليص النزاع او حله - لا سمح الله - تخلق لدى اولئك شعورا بالخوف . ففي حالة النزاع غير المحلول ، يقومون باعمالهم بشكل حسن ، يبنون قوات ، ويدربونها ، يستخفون بكل ما هو غير شبيه بهم او شريك لهم ، واحيانا يقدمون ضحايا ، ويعرفون كيف يؤبنونها بكفاءة فائقة . . . هذا هو كما يبدو المغزى الخفي لاستمرار الاستيطان منذ زيارة السادات ، حتى لا نواجه السؤال الخطير : في حالة اللا - نزاع من نحن ؟ ما هي هويتنا ؟ ما هو نمط حياتنا ؟ . . . اننا لا نتجرأ ابدا على محاولة تجريب مفاهيم جديدة ومختلفة عن تلك التي عرفناها » . (١٢٢)

والسؤال الاساسي الذي يتبادر الى الذهن هو : من هي تلك الفئات التي ليس لها مصلحة في السلام داخل اسرائيل ، والتي نمت ونشأت على « ثقافة النزاع » ؟ والجواب بسيط ومقلق في آن واحد . ان زعامة هذه الفئات هي التي تحكم اسرائيل اليوم . ويلاحظ ايضا ان بعض تلك الفئات هي التي تؤمن « بتكامل ارض اسرائيل » بصسورة مطلقة ، تعتنق فلسفة دينية معينة ، تستمد منها مزيدا من التطرف في ارائها ونشاطها . وقد تحدث البروفيسور اورينيل سيمون ( وهو ايضا من مؤسسي حركة احتجاج سلمية تدعى « الجراة لاجل السلام » ، واستاذ علوم التوراة في جامعة بار - ايلان ) حول مفاهيم احدى الجماعات الاساسية بين تلك الفئات ، وهي حركة غوش ايمونيم ، بقوله : « عهدي بهذه الجماعة ، ان مبادئها متماسكة جدا ، وافرادها يؤمنون بأن سياستهم واقعية وأكثر حكمة من سياسة اولئك الذين يسعون الى التفاهم والسلام مع العرب . من جهة ثانية ، لديهم استعداد قوي لتقبل المخاطر ، التي عبر عنها زعيمهم الروحي الحاخام تسفي كوك ، بصورة متطرفة بقوله ، ان الايمان بتكامل البلد [ اي « ارض - اسرائيل » ] هو بمثابة مبدأ دونه الموت . يحتمل جدا ان يكون هذا الاستعداد [لتقبل المخاطرة] حتى وان ادى ذلك الى الدمار ، بدلا من التنازل عن جزء من ارض اسرائيل ، نابعا ليس من الثقة المبالغ فيها بعدالة طريقهم فقط ، وانما من شعور قوي ، رغم انه غير واضح ، بأن ايام المسيح قريبة جدا . انهم ينظرون الى النكبة [النازية] والعودة الى ارض صهيون وبناء [اسرائيل] ، وفي الاساس توحيد القدس والعودة الى اليهودية والسامرة ، كأنها علامات متتابة وواضحة تشهد على اقتراب الخلاص النهائي [اي ظهور المسيح - المخلص وفق التقاليد اليهودية ، واقتراب العالم من نهايته] . . . ونحن اعضاء « الجراة لاجل السلام » واخرين ننظر الى هذا الاسلوب كأنه بمثابة « قصر طوباوي » .

. . . ان هذا المفهوم ينطلق من الايمان ، بأن من المضمون بالنسبة لنا عدم دمار « البيت الثالث » [عبارة تطلق على اسرائيل الحالية ، باعتبارها جاءت بعد مملكتي اسرائيل الاولى والثانية] ابدا . وحسب رأيهم نستطيع التعجيل في مجرى الخلاص او تأخيرها ، الا ان حقيقة هذا المجرى هي في بلوغ الذروة ، ولا يمكن الغاؤه . بينما اؤمن اننا ان

« البيت الثالث » شبيه بالبيت الاول والثاني . طالما ان ايام المسيح لم تأت ٠٠٠ ان الدرس الذي اتعلمه من التوراة هو درس العقاب والثواب الالهي على اعمال شعب اسرائيل . فالانبياء يكررون تحذيرهم من الدماء ، التي ستريقها اخطاء شعب اسرائيل وزعمائه . واخشى ان تكون عقلية غوش ايمونيم هي التي تمنعهم من سماع هذا الصوت الاتي من تعاليم التوراة ، وواضح ، ان هذا الامر يشمل اخطارا سياسية ، كما تتأتى عنه اخطار اخلاقية ودينية شديدة جدا « (١٢٢) » .

وبالإضافة الى هذه المخاوف التي تنطلق من أسس نفسية ودينية وعقائدية ، هناك ايضا أسباب أخرى تدفعهم الى ابداء تخوفهم من السلام ، خصوصا مع مصر . فالكاكتب العسكري المعروف في اسرائيل زئيف شيف ، الذي زار مصر اثناء اجتماعات اللجنة العسكرية ، المصرية - الاسرائيلية ، واطلع على ما يسميها بالوضع النفسي لسدى الشعب المصري ، عاد يقول : « ان الحديث هو حول سلام مع مجتمع عاطفي جدا ، بدائي في جزء منه ، ويسهل دائما تحويله من اتجاه واحد الى اخر . بعبارة أخرى ، ان ما يميز هذا المجتمع هو عدم الثبات بالنسبة لارائه ، ووجهات نظره وعواطفه . والشيء الملفت للنظر هو ان مثقفين مصريين يوافقون على هذا الرأي . كثيرون منهم اخبروني ، ان هؤلاء الاشخاص الذين تظاهروا بالبارحة من اجل السلام ، يمكن اقناعهم من دون أية صعوبة ، للمتظاهر غدا ، من اجل الحرب ضد اسرائيل ٠٠٠ والنتيجة ، هي انه اذا تحقق سلام مع مصر ، علينا ان نأخذ بالحسبان دائما ان العلاقات مع مجتمع كهذا لن تكون ثابتة ٠٠٠ كما نراها نحن . لذلك لن يكون هناك سلام عادي وطبيعي » (١٢٤) . ويصف شيف هذه التقلبات في « العواطف » المصرية بقوله : « ليوم واحد ، يكون السوريون اشقاء ، وفي الغد يصفهم السادات بأنهم فئران واقزام . اليوم يعتبر الملك حسين اخا ، ولكنه البارحة كان عميل المخابرات المركزية والامبريالية . ولماذا يظهرون نظرة مختلفة الى الاسرائيليين ، الذين يرغب الكثير من المصريين في رؤيتهم داخل « العائلة » ، مندمجين في منطقة الشرق الاوسط ؟ لماذا يجب على بيغن ان يتأثر اكثر من الاسد ؟ لأن المصريين وصفوه البارحة بأنه زعيم عظيم ، ومحب للسلام ، لا يمكن وصفه الان بالكاذب والمتفطرس وشايلوك ؟ » (١٢٥) .

وعلى صعيد آخر ، تبدي بعض الدوائر الاسرائيلية تخوفا من ان يؤثر السلام في حال تحقيقه ، على مجمل العلاقات القائمة بين اسرائيل ويهود العالم ، خصوصا بالنسبة للمساعدات المالية . ويرى ، مثلا ، مدير عام دائرة الهجرة والاستيطان في الوكالة اليهودية عوزي تركيس « ان التسوية السلمية ربما تؤثر على شبكة العلاقات القائمة بيننا وبين انجاليات اليهودية في العالم . ويمكن ان يتقلوب شعور ٠٠٠ اننا يجب ان نكون كائنا يعتمد على نفسه ، ولسنا في حاجة بعد اليوم الى تلك المساعدات التي اعتدنا عليها خلال جيل كامل ٠٠٠ انني اعتبر تطورا كهذا خطيرا جدا على اسرائيل كدولة لليهود ، وعلى الجاليات اليهودية ايضا ، المرتبطة بنا بصورة مركزية ٠٠٠ لذلك من الافضل ان نبدأ من الان النظر الى هذا الموضوع بجدية . علينا ان نوضح لانفسنا اننا لا زلنا محاطين بمحيط عربي يمكن ان يحاول تحقيق اهدافه - التي فشل في تحقيقها حتى الان بواسطة الحرب - عن طريق السلم . فاذا لم ينجح [العرب] في اغراقنا في البحر ، ربما يحاولون الان امتصاصنا في المنطقة . ويجب ان نوضح لاختوتنا في العالم ان وجودهم متعلق بدولة اسرائيل ، وعلاقاتهم معها ، وبضرورة ارتباطهم ومساعدتهم الكبيرة في كل مجال : الهجرة ، جمع الاموال وتنقيف الشباب ٠٠٠ [علينا ان نوضح لهم] ان من دون اسرائيل مصيرهم الانصهار » (١٢٦) .



على ان هناك ايضا الوجه الاخر للعملة ، الا وهو خوف فئات اخرى داخل اسرائيل من عدم تحقيق السلام ، والنتائج التي قد تترتب على ذلك ، وقد علق مثلا الكاتب الاسرائيلي بوغز عفرون على عواقب عدم تحقيق السلام بقوله : « هناك امر واحد واضح : وهو ان الوضع السابق لن يعود ... وستتقدم المنطقة ، دونما مهرب ، نحو الحرب » . ويعتقد الجميع ان هذه الحرب ستكون الاكثر هولا بين ما عرفه الجمهور حتى الان ، ستكون حربا لا نستطيع الانتصار فيها مهما كانت نتائجها العسكرية ( وقد اثبتت حرب يوم الغفران ان النتائج العسكرية ليست هي الحاسمة في الحرب ، وانما النتائج السياسية والاقتصادية ) . ان الجمهور كله يدرك ذلك ، باستثناء بعض المجانين ، الذين يعتقدون ان نصرا عسكريا اخر سيعيد « ايام المجد » التي عرفناها بعد ١٩٦٧ . ان الجميع يدركون عدم الفائدة المطلق من حرب اخرى ... ان الشعور بنشوب حرب اكيدة ، وهو الشعور الذي سيسود في حال فشل المفاوضات ، سيكون صدمة نفسية كبيرة للجمهور ... ( ١٢٧ ) . ويتحدث عفرون ايضا عن النتائج المتوقعة في وضع كهذا بقوله « ان النزوح سيزداد ... وسيقوى الشعور ويتعمق بأن ليس من مستقبلي في هذا البلد . والمستقبل المتوقع للشباب بوجه خاص ، من الذين انتهوا خدمتهم العسكرية ، هو الاشد ظلاما . واعتقد ان اريك شارون هو نفسه الذي تحدثت قائلًا ، انه عندما كان في احد زيارته للولايات المتحدة ، وجد نصف فرقته هناك ... اما بالنسبة لرؤوس الاموال ، فانا لن نحصل على استثمارات من الخارج فقط ، وانما ستستغل ايضا التسهيلات الاقتصادية ... حتى من قبل اولئك الذين يعلنون عن وطنيتهم بشدة لتهريب مبالغ كبيرة من الاموال الى الخارج ، وبدرجة لم نعرفها حتى الان ... »

« واذا ما نشبت الحرب ، فان هذه لن تدور رحاها على اساس الشعور الصلب بعدم وجود خيار » ، الذي رافق جيش اسرائيل حتى الان في حروبه . ان الشعور المر الذي سيتولد لدى المقاتلين هو انه كان هناك خيار ، ولم يستغل قصدا . وهذا سيؤدي للمرة الاولى في تاريخ الدولة ، الى ظواهر واسعة جدا من رفض التجنيد ، والهرب من الخدمة . فالاشخاص لن يدركوا لماذا عليهم ان يقاتلوا من اجل بضعة كيلومترات في مشارف رفح ، او بسبب عدم موافقتنا على « تقرير المصير » لسكان الضفة بدلا من حكم ذاتي » ( ١٢٨ ) .

ويرى اخرون ايضا ان هناك علاقة ما بين استمرار الصراع وازدياد الجرائم في اسرائيل ، خصوصا بعد الاعلان عن وجود جريمة منظمة تعمل على نطاق واسع . وفي هذا المجال يقول احدهم : « ان تأثير النزاع الخارجي على الظروف المؤاتية لاتساع الجرائم هو قليل كل شيء في مجال سلم الاولويات ... ان قضية الامن تمثل المكانية الاولى في سلم الافضليات في اسرائيل منذ قيامها ، خاصة بعد حرب ١٩٦٧ ، من ناحية توزيع الموارد القومية . فمئذ السنين الاولى للدولة ، يتزايد الاعتماد النسبي للامن في مجمل الدخل القومي ، وذلك على حساب الاعتمادات النسبية للقضايا الاخرى ... ان المعنى الاساسي لذلك هو ان مزيدا من الاشخاص ومزيدا من الامكانات ( كل شخص خامس في اسرائيل يعمل في جهاز الامن ) يوجه للاجهزة العاملة في نطاق النزاع الخارجي ، ويمدى يفوق ما هو مخصص للاجهزة العاملة في مجال القضايا الداخلية ... وهكذا يحدث وضع تحتل فيه القضايا الداخلية مثل التعليم ، والشؤون الاجتماعية والشرطة مرتبة ثانية ، بالمقارنة مع الجهد الاكبر المخصص للنزاع الخارجي » ( ١٢٩ ) .

وأما استمرار تفشي الجريمة فسيؤدي إلى « فقدان إسرائيل لهويتها اليهودية » لأن تلك الهوية لا تعني فقط القتال ببطولة ضد المخرب من الخارج ، بل تعني أيضا أنه لا يمكن ، في دولة يهودية ، نشوء ظروف يحدث بسببها أكثر من عشرين الف عملية تخريب من جانب يهود ضد يهود ٠٠٠ ان الهوية اليهودية معناها قبل كل شيء ، « السلسوك ٠٠٠ يقول حكماؤنا ، طيب الله ذكركم : على ثلاثة اسس يقوم العالم : القانون والحقيقة والسانم ٠ بالنسبة للقانون ، عاقبنا المخرب الخارجي بانتقام ، ولكننا تسامحنا مع المخرب الداخلي ، بالنسبة للحقيقة ، فقد سخرناها ، بمدى كبير ، لمفاهيم النزاع الداخلي والخارجي في آن واحد ، وبالنسبة للسلام ، اصابتنا الخوف من ان نحصل عليه او نفقده ، لذلك فان حياتنا ليست كما ينبغي ، وما زلنا ننتظر الزعيم الذي سيخرجنا من حالة الخوف الى حالة الاختيار » (١٣٠) .

وانطلاقا من وجهة النظر هذه ، يتوقع البعض ان يؤدي السلام الى « تحقيق الصهيونية » ، التي قامت عليها اسرائيل ، لان « السلام معناها ليس فقط كل تلك الامور الواضحة والمفهومة تلقائيا - تحويل الموارد الى متطلبات اجتماعية ، تخفيف التوتر والضغط الذي يؤثر على حياتنا ، وتقليص أخطار الحرب - وانما امر اخر اساسي : ان اسرائيل التي تعيش بسلام مع جيرانها تستطيع تحقيق املها الصهيوني فالسلام سيحقق عهدا جديدا لاسرائيل : ستكون مركز جذب للمهاجرين ، وسيدور الحديث فيها بجدية حول حياة مشتركة بين العرب واليهود حتى داخل بلدنا ، سيتم دمج الخبرة وتكنولوجيا الغرب مع التقاليد والثقافة المشتركة للشعبين الساميين ٠٠٠ » (١٣١) .

ويرى اخرون ايضا ان السلام سيعود بفوائد جمة على اسرائيل ، خصوصا في المجال الاقتصادي ، اذ أنه سيعني « اندماج الاقتصاد الاسرائيلي في مجال اقتصادي ضخم وغني ، يمتد من المغرب حتى الكويت ، ومن سوريا حتى اليمن : سوق مشتركة ، مشاريع انمائية مشتركة ، دمج ما بين النفط والتكنولوجيا ، والعلم والكمية ٠ لن يؤدي السلام الى تقليص قوتنا السياسية ، وانما الى بناء دولة عالمية كبرى جديدة ، نكون فيها شريكا مهما ، دولة كبرى تجمع ما بين قوة العالم العربي ، الضخمة وبين قوة العالم اليهودي ٠ ولن يخلق السلام مشكلات جديدة لجيش اسرائيل ٠ وانما سيؤدي الى وضع تخفض معه نسبة كبيرة من نفقات الامن من الدخل القومي المتزايد ، وتمويل الموارد من أجل تحقيق ثورة في نوعية حياتنا ، في المجتمع وفي السكن والتعليم ٠ ولن يؤدي السلام الى الانصهار وتحويلنا الى « دولة شرق اوسطية » ، وانما الى ازدياد قوتنا ، واثرائنا حضاريا » (١٣٢) .

وقد برز عقب زيارة السادات الى القدس اهتمام ما في اسرائيل باحتمالات التعاون الاقتصادي بينها وبين العرب ، خصوصا مصر ، اذا تحقق السلام ٠ واقدمت بعض المؤسسات الاقتصادية على وضع خطط للتعاون الاقتصادي مع العرب ، لعل أبرزها هي تلك التي وضعها اليعيزر شيفر ، المدير العام لمصرف اسرائيل المتخصص باقتصاد الدول العربية ٠ وحسب خطط شيفر هذه « فان ميزانيات الدفاع هي المشكلة الاقتصادية الرئيسية لدول المنطقة ، اذ انها تشكل ٢٥ - ٣٠٪ من الانتاج القومي لكل من مصر واسرائيل ٠ وبعد اقامة علاقات طبيعية بينهما ، يمكن توجيه موارد تقدر بمليار دولار الى التنمية الاقتصادية ٠٠٠ واذا امكن خفض النفقات الامنية لكل من مصر واسرائيل الى الثلث فقط ، سيصبح ممكنا زيادة التوظيفات في التنمية الاقتصادية ، في كلتا الدولتين ، بنسبة ٥٠٪ ، ومضاعفة ميزانية الانعاش الاجتماعي دفعة واحدة ٠ كذلك فان انشاء

علاقات تجارية مع إسرائيل سيساهم في تحسين الميزان التجاري للدول العربية... خاصة وأن مركز إسرائيل التجاري يكسبها موقعا خاصا كبلد مرور للتجارة العربية ( تجارة الترانزيت ) ، إذ أن مينائي حيفا وشدود قد يستخدمان منفذا إلى البصر الأبيض المتوسط ، خصوصا بالنسبة للاردن . كما أن الاتصال البري بين مصر والدول العربية الأربعة الأخرى غير متاح إلا عبر إسرائيل ، ويعتبر ذا أهمية قصوى لنجاح السوق العربية المشتركة ، التي تسعى الدول العربية لإنشائها » (١٣٣) .

ولخص عوزي نركيس الفوائد التي قد تجنيها إسرائيل من حالة السلم بقوله : « ان اتفاق السلام - في حال تحقيقه ، سيؤدي إلى شعور مفاجيء بالارتياح ، وربما يسبب تحولا من المسؤولية اليومية تجاه مشكلات الأمن ... وفي المقابل ستتضرر الدولة إلى تغيير سلم أفضلياتها ، وتحويل مواردها من مجال الأمن إلى مجالات المجتمع والاقتصاد التي سترتفع إلى رأس السلم . فالحدود المفتوحة ستؤدي إلى تدفق عمال عرب إلى إسرائيل ، يعملون بأجر رخيص ، ومستعدون لمزاولة العمل اليدوي ، حيث سينضم هؤلاء إلى عشرات الآلاف من عمال الضفة ، الذين يعملون الآن في إسرائيل . وربما نصل إلى وضع يشكل معه العمال العرب المستوردون الطبقة الدنيا في الصناعة وفرع البناء ، والعمل في الأرض ، وفي المطاعم والفنادق والمستشفيات ، وفي أعمال التنظيف وياقي الأعمال اليدوية الأخرى » (١٣٤) .

من جهة أخرى حذر يركيئيل بلومين ، نائب وزير المالية ، من الاغراق في التفاؤل ، ولفت النظر إلى مشكلات التعاون الاقتصادي في زمن السلم ، « كطاقة العمل العربية الرخيصة ، والانخفاض في المساعدات الخارجية لإسرائيل وغير ذلك » . لكنه اضاف انه « ستيلور قريبا خطة عمل في مجال التعاون الاقتصادي ستقدم إلى الحكومة لقرارها » . وأشار بلومين إلى إمكان التعاون مع مصر لاستغلال طاقة مياه البري ومد خط سكة حديد إلى ايلات « نظرا إلى توفر امكانيات تطور العلاقات التجارية مع افريقيا واسيا » (١٣٥) . وكان بلومين قد أعلن انه كلف فريقا من الخبراء في وزارته ، لدرس إمكان حفر قناة مياه طولها ١٨٠ كم ، تربط البحر الميت بالبحر الأحمر ، لحل « مشكلة النقل إلى ايلات ، خصوصا نقل البوتاس والفوسفات وشحنه بالقوارب » (١٣٦) .

وعلم ان الدراسات التي تجريها وزارة المالية الاسرائيلية حول تأثير السلام على الاقتصاد ، تعالج مسألة انشاء مشاريع محددة قد تنفذ بتعاون مشترك بين إسرائيل والعرب ، ومن ثم تأثير السلام في الاقتصاد الاسرائيلي بكامله (١٣٧) .

الا ان هذه الخطط والدراسات جميعها ، تبقى ، على كل حال ، حبرا على ورق ، طالما لم يتحقق السلام ، وتبقى آمال الاسرائيليين معلقة ما بين « الرغبة » في تحقيق السلام ، وبين الخوف من « عواقبه » .

خلاصة القول ، ان زيارة السادات لإسرائيل قد اثبتت ان السلام ، الذي قد يكون مطلبا لدى فئات معينة من الاسرائيليين ، انما يثير أيضا مخاوف وشكوكا كثيرة لدى فريق آخر منهم . واذا اخذنا بالاعتبار المواقف المتصلبة المسيطرة على السياسة الاسرائيلية . قولا وفعلا ، كما اتضح ذلك في اكثر من مناسبة ، واستنادا إلى موازين القوى السياسية داخل إسرائيل ، نرى ان السلام ليس مطلبا كبيرا لدى الاسرائيليين ، وهو ليس كذلك قطعا ، بالقدر الذي يحلم به السادات على كل حال .

- (١٨) من حديث لشمعون بيرييس -  
دافار ، ١٧-٢-١٩٧٨ .
- (١٩) من مقال لحاييم بار - ليف -  
دافار ، ٢٤-٢-١٩٧٨ .
- (٢٠) من مقال لموشي شامير -  
معاريف ، ١٨-١١-١٩٧٧ .
- (٢١) شموتيل كاتس - معاريف ،  
١٤-٤-١٩٧٨ .
- (٢٢) مقابلة مع يفتال الون - دافار ،  
٢٤-١-١٩٧٨ .
- (٢٣) انظر الملاحظة (١٩) اعلاه .  
(٢٤) المصدر نفسه .
- (٢٥) من استفتاء ليعض الضباط  
السابقين - دافار ، ٦-١-١٩٧٨ .
- (٢٦) المصدر نفسه .  
(٢٧) المصدر نفسه .
- (٢٨) من مقابلة مع غاد يعقوبي -  
ملحق دافار ، ١٠-٢-١٩٧٨ .
- (٢٩) المصدر نفسه .  
(٣٠) انظر الملاحظة (٢) اعلاه .  
(٣١) المصدر نفسه .
- (٣٢) من مقال لردخاي بنطوف -  
حوتام ، ١٧-٢-١٩٧٨ .
- (٣٣) انظر الملاحظة (٦) اعلاه .  
(٣٤) من نص خطاب بيغن ، كما نقلته  
معاريف ، ٢٤-١-١٩٧٨ .
- (٣٥) من مقابلة مع يزهار سميلانسكي  
- حوتام ، ١٧-٢-١٩٧٨ .
- (٣٦) دافار ، ٢٤-١-١٩٧٨ .  
(٣٧) المصدر نفسه .
- (٣٨) كما أوردها اسرائيل كزغان -  
يديעות احرونوت ، ١٥-٢-١٩٧٨ .
- (٣٩) المصدر نفسه .

### الحواشي

- (١) يهودا هرتيل - معاريف ، ١-١٢-١٩٧٧ .
- (٢) مقابلة مع يتسحاق رابين - دافار ،  
٢-١٢-١٩٧٧ .
- (٣) مقال لدافيد هكوهين - دافار ،  
٢١-٤-١٩٧٨ .
- (٤) مارك غيفن - عل همشمار ، ١٠-١٩٧٨-٢ .
- (٥) المصدر نفسه .
- (٦) يعقوب حزان - عل همشمار ،  
٣-٢-١٩٧٨ .
- (٧) مردخاي بنطوف - حوتام ، ١٧-١٩٧٨-٢ .
- (٨) مقابلة مع موشي ارنس - ملحق  
هاتس ، ٧-٤-١٩٧٨ .
- (٩) مقابلة مع مردخاي غور - دافار ،  
٢١-٤-١٩٧٨ .
- (١٠) المصدر نفسه .
- (١١) مقال لثير يعري - عل همشمار ،  
١٠-٢-١٩٧٨ .
- (١٢) مقابلة مع يتسحاق بن - امرون  
- عل همشمار ، ٢١-٤-١٩٧٨ .
- (١٣) نشر نص مشروع السلام  
الاسرائيلي في هاتس و دافار ، ٢٩-١٢-١٩٧٧ .
- (١٤) من كلمة شمعون بيرييس في  
الكنيست ، تعليقا على مشروع سلام  
بيغن ، كما نقلتها دافار ، ٢٩-١٢-١٩٧٧ .
- (١٥) المصدر نفسه .
- (١٦) حفاي اشد - دافار ، ٢٤-١-١٩٧٧ .
- (١٧) من مقابلة مع يفتال الون - دافار ،  
٢٠-١٢-١٩٧٧ .

(٦١) من مقابلة مع شمعون بيريس -  
داغار ، ١٩٧٧-١٢-٣٠ .

(٦٢) من مقابلة لرابين مع التلفزيون  
الاسرائيلي ، كما نقلتها داغار ، ١-٨-  
١٩٧٨ .

(٦٣) من مقال لصاييم بار - ليف -  
داغار ، ١٩٧٨-٢-٢٤ .

(٦٤) مقابلة مع يهوشفاط هركابسي -  
عل همشمار ، ١٩٧٨-٥-١٢ .

(٦٥) حديث للنائب نفتالي فيدر -  
معاريف ، ١٩٧٨-٤-١٦ .

(٦٦) حفاي اشد - داغار ، ١٢-٢-  
١٩٧٧ .

(٦٧) انظر الملاحظة (٦١) اعلاه .

(٦٨) مقال لشمعون بيريس - يديعوت  
احرونوت ، ١٩٧٨-١-٦ .

(٦٩) داغار ، ١٩٧٨-١-٦ .

(٧٠) المصدر نفسه .

(٧١) المصدر نفسه .

(٧٢) هارتس ، ١٩٧٨-٥-١٢ .

(٧٣) مقال ليتسحاق رابين - يديعوت  
احرونوت ، ١٩٧٨-١-١٢ .

(٧٤) المصدر نفسه .

(٧٥) مقال لشمعون بيريس - يديعوت  
احرونوت ، ١٩٧٨-١-٦ .

(٧٦) مقابلة مع غاد يعقوبي - ملحق  
داغار ، ١٩٧٨-٢-١٠ .

(٧٧) المصدر نفسه .

(٧٨) مقال للنائب نفتالي فيدر -  
معاريف ، ١٩٧٨-٤-١٦ .

(٧٩) المصدر نفسه .

(٨٠) المصدر نفسه .

(٤٠) من مقال لنانان بليين - مور -  
هآرتس ، ١٩٧٨-٣-١٠ .

(٤١) المصدر نفسه .

(٤٢) هآرتس ، ١٩٧٧-١٢-٢٩ .

(٤٣) المصدر نفسه .

(٤٤) يهوشواغ تدمور - داغار ،  
١٩٧٧-١٢-٢٩ .

(٤٥) من خطاب بيريس في الكنيسة  
عند بحث مشروع السلام ، كما نقلته  
داغار ، ١٩٧٧-١٢-٢٨ .

(٤٦) من مقابلة مع شمعون بيريس -  
داغار ، ١٩٧٧-١٢-٣٠ .

(٤٧) هآرتس ، ١٩٧٧-١٢-٢٩ .

(٤٨) من ندوة مع رؤساء حركات  
الاستيطان - داغار ، ١٩٧٨-١-٦ .

(٤٩) من مقال لموشي كول في  
هآرتس ، ١٩٧٨-١٢-٢٩ .

(٥٠) المصدر نفسه .

(٥١) انظر الملاحظة (٤٠) اعلاه .

(٥٢) يعقوب حزان - عل همشمار ،  
١٩٧٨-٢-٧ .

(٥٣) شفايتسر - هآرتس ، ١-٢٧-  
١٩٧٨ .

(٥٤) المصدر نفسه .

(٥٥) من مقال لشمعون كاتس -  
يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨-١-١٣ .

(٥٦) معاريف ، ١٩٧٧-١٢-٢١ .

(٥٧) المصدر نفسه .

(٥٨) المصدر نفسه .

(٥٩) المصدر نفسه .

(٦٠) داغار ، ١٩٧٧-١٢-١٦ .

- (١٠١) المصدر نفسه \*
- (١٠٢) مقال لیتسحاق رابین - ידיעות  
أحرونوت ، ١٦-٤-١٩٧٨ \*
- (١٠٣) مقال لشمعون بیریس - ידיעות  
أحرونوت ، ٢١-٤-١٩٧٨ \*
- (١٠٤) مقابلة مع موشي أرنس - ملحق  
هآرتس ، ٧-٤-١٩٧٨ \*
- (١٠٥) فولس - هآرتس ، ٢١-٢-١٩٧٨ \*
- (١٠٦) مقال لیتسحاق رابین - ידיעות  
أحرونوت ، ١٢-٥-١٩٧٨ \*
- (١٠٧) مقال لشمعون بیریس -  
معاريف ، ٥-٥-١٩٧٨ \*
- (١٠٨) المصدر نفسه \*
- (١٠٩) المصدر نفسه \*
- (١١٠) حانه زيمر - دافار ، ٥-٥-١٩٧٨ \*
- (١١١) معاريف ، ٨-٣-١٩٧٨ \*
- (١١٢) دان مرغليت - هآرتس ، ٥-٥-١٩٧٨ \*
- (١١٣) هآرتس ، ٢٩-١-١٩٧٨ \*
- (١١٤) في مقابلة مع بعض الموقعين  
على رسالة الضباط - حوتام ، ١٧-٣-١٩٧٨ \*
- (١١٥) المصدر نفسه \*
- (١١٦) المصدر نفسه \*
- (١١٧) المصدر نفسه \*
- (١١٨) دافار ، ٢٠-٤-١٩٧٨ \*
- (١١٩) حانوخ بارطوف - معاريف ،  
١٤-٤-١٩٧٨ \*
- (١٢٠) امنون روبينشتاين - هآرتس ،  
٢١-٤-١٩٧٨ \*
- (٨١) مقال لحفائي اشد - دافار ،  
٨-٢-١٩٧٨ \*
- (٨٢) المصدر نفسه \*
- (٨٣) فولس - هآرتس ، ٣-٢-١٩٧٨ \*
- (٨٤) انظر الملاحظة (٧٣) اعلاه \*
- (٨٥) حديث مع يهوشفاط مراكابي -  
عل همشمار ، ١٦-٥-١٩٧٨ \*
- (٨٦) المصدر نفسه \*
- (٨٧) مقال لتسفي هدار - ידיעות  
أحرونوت ، ١٢-٤-١٩٧٨ \*
- (٨٨) انظر الملاحظة (٣) اعلاه \*
- (٨٩) المصدر نفسه \*
- (٩٠) مقال لرفائيل براكان - عل  
همشمار ، ٢٧-١-١٩٧٨ \*
- (٩١) يسرائيل هرثيل - ידיעות  
أحرونوت ، ١٣-١-١٩٧٨ \*
- (٩٢) دافار ، ٧-٥-١٩٧٨ \*
- (٩٣) للاطلاع على معطيات شبه كاملة  
عن الاستيطان في هضبة الجولان ، انظر  
عل همشمار ، ٢٣-١٢-١٩٧٧ \*
- (٩٤) المصدر نفسه ، ١٢-١٢-١٩٧٧ \*
- (٩٥) دافار ، ٧-٥-١٩٧٨ \*
- (٩٦) زئيف شيف - هآرتس ، ١٣-٣-١٩٧٨ \*
- (٩٧) المصدر نفسه - ١٢-٣-١٩٧٨ \*
- (٩٨) من مقال ليسرائيل طسال -  
معرخوت ، كانون الاول ١٩٧٦ ، كما  
اورده زئيف شيف في المصدر نفسه \*
- (٩٩) مقابلة مع مردخاي غور - عل  
همشمار ، ٢١-٤-١٩٧٨ \*
- (١٠٠) زئيف شيف - هآرتس ، ١٠-٢-١٩٧٨ \*

- (١٢١) المصدر نفسه .  
 (١٢٢) الوف هار آيين - معاريف ،  
 . ١٩٧٨-٥-١٥  
 (١٢٣) انظر الملاحظة (١٢٠) اعلاه .  
 (١٢٤) زئيف شيف - هارتس ، ٢٧-  
 . ١٩٧٨-١  
 (١٢٥) المصدر نفسه .  
 (١٢٦) عوزي نركيس - معاريف ،  
 . ١٩٧٨-٢-٥  
 (١٢٧) بوغز عفرون - يديعوت  
 احرونوت ، ١٩٧٨-١-٢٠ .  
 (١٢٨) المصدر نفسه .  
 (١٢٩) الوف هار آيين - معاريف ،  
 . ١٩٧٨-٥-١٥  
 (١٣٠) المصدر نفسه .  
 (١٣١) انظر الملاحظة (١٢٠) اعلاه .  
 (١٣٢) اوري اغنيري - هاغولام هازيه ،  
 . ١٩٧٨-٢-٢٢  
 (١٣٣) كما اوردها اسرائيل تومار -  
 يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧-١٢-٢ .  
 (١٣٤) انظر الملاحظة (١٢٦) اعلاه .  
 (١٣٥) معاريف ، ١٩٧٧-١٢-٢٨ .  
 (١٣٦) المصدر نفسه ، ١٩٧٧-١٢-٢ .  
 (١٣٧) يديعوت احرونوت ، ١٩-١٢-  
 . ١٩٧٧

صدر حديثا عن مركز الابحاث

اليمن الصهيوني

نشأة وعقيدة وسياسة

بقلم

صبري جريس

اطلب نسختك من : مركز الابحاث : قسم التوزيع

ص.ب : ١٦٩١ - بيروت

سعر النسخة ٥ ل.ل. ( عدا اجور البريد )

## الجريمة المنظمة في إسرائيل

نشر في شهر شباط (فبراير) الماضي في إسرائيل تقرير لجنة شيمرون حول اوضاع الجريمة والعنف في اسرائيل . وكانت هذه اللجنة قد تشكلت في شهر ايلول (سبتمبر) من العام الماضي في اعقاب ازدياد اعمال العنف والقتل والجريمة ووصولها الى حد لا يمكن التغاضي عنه ، خاصة وان وسائل الاعلام الاسرائيلية كانت قد كشفت الكثير عن مجالات الجريمة وبعض قادتها وارتباطهم بالمؤسسات الحكومية والشخصيات المسؤولة . وكانت لجنة شيمرون قد شكلت ، بقرار من الحكومة الاسرائيلية ، من قبل وزير الداخلية يوسف بورغ ، واوكلت اليها مهمة تقصي الامور التالية :

١ - الاعمال الاجرامية في اسرائيل : مدى خطورة هذه الاعمال وعمقها ، خصوصا الجريمة الخطرة والعنيفة ، ووسائل تنظيمها وخصائصها .

٢ - التاهب الرسمي لمكافحة الاجرام على انواعه ، خصوصا الجريمة الخطرة والعنيفة ، ووسائل اكتشافها ومنعها وضمان تقديم المتهمين الى المحاكمة ، وكذلك تنظيم وتدعيم وزيادة كفاءة الهيئات والاجهزة التي تتولى فرض القانون وسيادته ، وتنسيق العمل بين تلك الاجهزة والهيئات (١) .

وقد قام الوزير يوسف بورغ بالتشاور مع رئيس الحكومة ، والمستشار القضائي للحكومة بصدده تشكيل لجنة التحقيق ، التي عرفت باسم « لجنة شيمرون » بسبب اسم رئيسها المحامي ارفين شيمرون ، المدعي العام في جهاز امن الدولة سابقا وعين في اللجنة أيضا ، كاعضاء ، مراقب الحسابات



يتسحاق مان ، وهو مفوض ضريبة الدخل سابقا ، ويوسف هارمبلين ، المدير العام لشركة « الخدمات النفطية » ورئيس الشين بيت ، جهاز المخابرات الداخلية سابقا ، والدكتور متياهو سيبغ المحاضر في علم الجريمة ومفوض سابق في الشرطة ، ورجل القانون الياهو لانكين ، الذي كان قائدا لسفينة السلاح « التالينا » التابعة للاتسل ( والتي نسفتها الهاغاناه في صيف ١٩٤٨ بأمر من بن غوريون ) والدكتور يعقوب الياف من دائرة علم الجريمة في جامعة بارايلان (٢) .

ولقد عملت هذه اللجنة طيلة اربعة شهور متتالية استمعت خلالها الى مئات الاشخاص وراجعت كذلك الاف الوثائق ، ومن ثم قدمت تقريرها المؤلف من جزئين - علني وسري - الى الحكومة ، وقد وضع ذلك التقرير حدا للنقاش وللجدل السائدين في اسرائيل منذ عام ١٩٧١ ، في اعقاب نشر الصحفي ران كسليف سلسلة مقالات في صحيفة « هارتس » اشار من خلالها الى وجود جريمة منظمة في اسرائيل . فقد اكدت اللجنة في تقريرها وجود جريمة منظمة في اسرائيل ، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، مكذبة بذلك اقوال الشرطة ، وخاصة وزير الشرطة السابق شلومو هيلل ، واستماتتهم في النفي القاطع لوجود جريمة منظمة في اسرائيل . ولقد استغربت اللجنة عدم اقرار الشرطة واعتراقها بوجود الجريمة المنظمة ، بالرغم من النتائج التي كانت قد توصلت اليها لجنة بوخنر ، التي كانت قد شكلتها الشرطة نفسها في العام الماضي ، والتي اشارت في تقريرها بوضوح الى وجود عدد كبير من الادلة التي تشير الى وجود الجريمة المنظمة . فقد اكدت لجنة بوخنر في تقريرها وجود تنظيم للجريمة وزعامة ، هدفها الحصول على ارباح اقتصادية بوسائل غير قانونية ، وكذلك وجود علاقات مع السلطات والمؤسسة الحاكمة . وبهذا تكون لجنة بوخنر قد اقرت بوجود كافة مركبات الجريمة المنظمة ، ولكنها لم تتجرأ على اعلان الحقيقة (٣) .

### اسباب الجريمة

هناك اسباب عديدة للجريمة والعنف في اسرائيل ، كما يراها الاسرائيليون في مختلف اوساطهم . وتشابه هذه الاسباب ، كما وردت في تقرير لجنة شيمرون المذكور ، مع تلك القائمة في مجتمع الرخاء في البلدان الغربية الا ان اللجنة اشارت أيضا الى وجود اسباب اخرى خاصة باسرائيل ، سببها اهتمام سلطات اسرائيل منذ قيامها بمشكلتين رئيسيتين ، هما الامن واستيعاب الهجرة ، مما أدى بالتالي الى اهمال معالجة القضايا الاخرى .

ويتضح من تقرير لجنة شيمرون أن بعض الاسباب الاساسية للجريمة المنظمة

في إسرائيل نابع من طبيعة تكوين « المجتمع » الاسرائيلي . فقد أدى ، مثلا ، وصول موجات الهجرة الكبيرة ، من يهود الدول الاسيوية والافريقية ، الى اسرائيل خلال السنين الاولى لقيامها ، ثم محاولة استيعاب اولئك المهاجرين وفق النفايد والمعاهيم الغربية الى تحطيم القيم واعدادات ، التي جلبها المهاجرون من مجتمعاتهم المحافظة . ونجم عن ذلك بروز شعور بالغرابة لدى الجيل الشاب بالنسبة للعائلة وتقاليدنا (٤) .

واعتبرت لجنة شيمرون نظام التعليم في اسرائيل مسؤولا ، الى حد ما ، عن ظهور الجريمة وتفاقمها ، حيث انه لم ينجح في اعطاء هؤلاء المهاجرين اية قيم ايجابية بدلا من تلك التي جلبوها معهم ، والتي كانت أساسا صلبا في البلدان التي قدموا منها . وقد كان من نتيجة هذه العملية حدوث أزمة عدم وجود القيم ، التي شككت في حثيث من الاحيان عاملا للجريمة ، وخاصة لدى اوساط الجيل الشاب (٥) . كما اعتبرت اللجنة طريقة التدريس عاملا في بروز الجريمة ، إذ انها تهتم بالتعليم وتهمل التربية ، فتتشدد في انجاز البرامج واكتمالها وليس في تلقين الطلاب القيم . ومن هنا فانه ليس باستطاعة كافة الشبيبة ، وخاصة ابناء الاحياء الفخيرة ، الصمود في مواجهة العوامل التي تحطم القيم الاخلاقية . كما ان المدرسة لا تنجح في تشجيع الدافع للتعلم لدى الطلاب ، الذين يتجهون الى رفض اوامر المعلمين ، ومن ثم ينمو لديهم الشعور بالعداء تجاه المدرسة ، ثم ينتقل الى المجتمع المحيط بالمدرسة ، واخيرا الى المجتمع بأسره . وقد اوصت لجنة شيمرون السلطات بأن تبذل جهدا متواصلا ومركزا لتحسين اوضاع المدارس ، من اجل تلقين القيم واحترام القانون والعمل ، ومن ثم تنفيذ خطة للإصلاح الاجتماعي من اجل القضاء على أسباب الشعور بالظلم . كما طالبت اللجنة باعداد مناهج دراسية تهتم بالفرد وتعطي مضمونا لحياته ، حيث ان آلاف الطلاب يتركون المدارس ويجوبون الشوارع بدون معلم او مرشد ، وبسبب ذلك يقعون ضحية للبطالة والتسكع اللذين يقودانها الى الجريمة (٦) .

وتشير الارقام غير الرسمية الى وجود ما بين ١٥ - ٢٠ الف من ابناء الشبيبة في سن التعليم الالزامي ، ولا يتعلمون في المدارس كما ينص القانون . وتشكل هذه الشبيبة المستودع الرئيسي الذي ينبت فيه الجناة الصغار . وهناك شبيبة اكبر منها سنا ، تعمل في النهار وترتكب المخالفات في ساعات الليل . وفسر السبب الرئيسي لجنوح هذه الشبيبة في اسرائيل كانه ناجم عن تأثير الهجرة التي أدت الى بروز صراع تربوي بين مجموعات المهاجرين وبين جهاز التقاليد والقيم في المجتمع الذي انتقلوا اليه ، مما ساعد على تفكك العائلة وتضعف الصلاحية داخلها (٧) .

وقد وجدت لجنة شيمرون ان احد الاسباب التي تشجع على ارتكاب اعمال

العنف والجريمة يعود الى النقص في الطاقة البشرية والوسائل لدى مختلف الدوائر المكلفة بمكافحة الجريمة ، وخاصة لدى المحاكم ودائرة ضريبة الدخل والشرطة . فعدد المحاكم والقضاة في اسرائيل قليل ولا يكفي لدهتمام بالاعداد الكبيرة والمتكدسة من القضايا ، التي يؤجل النظر فيها لفترات طويلة ، مما يؤدي الى عدم محاسبة المتهمين وردعهم ، لانهم يدركون ان الشكاوي ضدهم ستوضع في ملفات لمدة طويلة (٨) . وتبرز في هذا المجال مسألة عجز الشرطة عن مواجعه زعماء الاجرام المنظم ، على الرغم من ان لديها معلومات وافرة عن نشاطهم . ويعترف قائد منطقة تل ابيب ، العميد موشيه تيومكين ، بهذا العجز ، مشيرا الى النقص في الطاقة البشرية ، خصوصا لدى استخبارات الشرطة وعدم مساهمة بعض الجهات الحكومية ( ضريبة الدخل مثلا ) في مساعدة الشرطة والاطباء الشديد في الاجراءات القانونية في المحاكم ، كاسباب رئيسية لهذا العجز . وذكر تيومكين ، على سبيل المثال ، ان هنالك ١٦٣٥ قضية في المحكمة المركزية في تل ابيب و ٧٧٥ قضية في النيابة العامة و ١٨٣٢ قضية في محكمة الصلح ، ما زالت تنتظر استكمال الاجراءات القانونية ، في حين يتمتع اكثر المتهمين في هذه القضايا بحريتهم خارج السجن الى حين صدور الحكم (٩) . اما مدير المحاكم موشيه نيخط فقد أعلن انه تم خلال عام ١٩٧٧ تقديم ٥٧٦.٠٠٠ قضية الى المحاكم ( ما عدا المحاكم الدينية والعسكرية والتأديبية ) . اي ان كل رابع مواطن من الراشدين قدم الى المحاكمة ، معلنا انه بحسب معلوماته لا يوجد مثيل لهذه النسبة من المتهمين في العالم . وذكر نيخط ايضا ان هنالك ٢٢٨ قاضيا فقط للنظر في هذا العدد الهائل من القضايا ، وان ٥٠٪ منهم يعملون في محاكم منطقة تل ابيب ، بينما يبلغ سكانها ثلث سكان اسرائيل فقط . وأشار مدير المحاكم ايضا الى ان ظاهرة تهديد القضاة اخذة في التزايد ، وانه تم خلال السنتين الاخيرتين تسجيل ١٨ حادثة تهديد ( خطيا وشفهيا ) للقضاة و ١٦ حادثة شغب في قاعات المحاكم واحراق ملفات قضائية (١٠) .

ولا تقتصر عمليات التهديد على القضاة والمحاكم فقط ، وانما تشمل الشهود ايضا ، الذين كثيرا ما يتعرضون للضغط والتهديد بالقتل او احراق ممتلكاتهم اذا لم يغيروا اقاداتهم . والكثيرون منهم يفعلون ذلك لان الشرطة لا تستطيع حمايتهم . ولذلك كثيرا ما تواجه المحاكم مشكلة عملية اثبات التهمة من جديد (١١) . كما ان التعاضي عن معالجة المشاكل الصغيرة من قبل الشرطة ، والتي تقدم اليها بالالاف من قبل المواطنين يساعد على ازدياد التوتر فانتشار الجريمة (١٢) .

ويرى البعض ان التوتر والحالة النفسية الصعبة اللذين يعاني منهما « المجتمع » الاسرائيلي ، وكذلك الاستمرار في التحريض على الحروب تشكل

عوامل رئيسية في ارتكاب أعمال العنف والجريمة . وتحدث الدكتور بنيامين يانوف ، المحاضر في جامعة بارايلان عن ، التوتر الذي يعيشه « المجتمع » الاسرائيلي بسبب الحروب ، وعن الازمات الحرجة التي خلقتها هذه الحروب قائلاً : « من المؤكد اننا ندفع الثمن ، وان التوتر الامني الصعب يؤثر على سكان الدولة . . . . انني اعتقد بان سلوك السائقين الاسرائيليين العنيف على الطرقات ، من خلال غياب الحذر وغياب التهذيب ، ليس صدفة . فالتوتر الامني الذي يسود البلاد يترك طابعه وله تأثير كبير على السلوك العنيف » (١٣) .

وذكرت لجنة شيمرون في تقريرها ان الكثير من السائقين يتصرفون في الطرقات وكأنها ملكهم الشخصي ، فيخالفون كافة قوانين السير ، وحتى انهم يجبرون اصحاب السيارات الصغيرة على النزول على الشارع اذا ارادوا تجنب الوقوع ضحية حادثة سير (١٤) .

وتحدث وزير الشرطة السابق شلومر هيلل عن تأثير الحروب على الوضع داخل اسرائيل بقوله : « لا يمكن التغاضي عن حقيقة انه منذ الفترة التي اعقبت حرب يوم الغفران [١٩٧٣] ، حدثت زيادة كبيرة في عدد الجرائم المترتبة بالتهديدات ، وهي تعبير عن عدوانية وعنف ، يستلزم توضيحاً وتفكيراً . . . . يضاف الى ذلك اننا نعيش في حالة توتر وكأننا على ابواب حرب جديدة » (١٥) .

ومن جهة اخرى اتجه البعض الى المقارنة بين ما حدث من اعمال عنف وجريمة في الولايات المتحدة في اعقاب التوقيع على اتفاق انهاء القتال في فيتنام ، وما حدث في اسرائيل في اعقاب التوقيع على اتفاقية فصل القوات بينها وبين الدول العربية في نهاية ١٩٧٣ . وأشار احدهم الى هذا الموضوع قائلاً : « يبدو انه لم تكن هنالك فترة حدثت فيها أعمال قتل وسرقة وتصفيّة حسابات بواسطة مواد متفجرة ، كالفترة التي مرت منذ حرب يوم الغفران . وان من يفسر الامر بوفرة السلاح بين ايدي الجمهور فقط ، يريح نفسه من عناء البحث . ويبدو انه لا مناص من اجراء مقابلة بين الوضع الناشئ عندنا ، وبين موجة العنف التي عمت المجتمع الاميركي عقب انتهاء حرب فيتنام ، عندما اخذ التأثير المتراكم لاستخدام العنف تجاه الخارج ينعكس اكثر فأكثر تجاه الداخل . . . . وسبب ذلك يعود الى مطالبة اليمين في اسرائيل بضرورة محاربة العرب وقتلهم » (١٦) . وكمثال على ذلك ، فقد جاء في صحيفة الكلية التي اصدرتها جماعة « ليكود » في جامعة حيفا انه « ينبغي الاستمرار في ضرب العرب بدون رحمة » (١٧) . كما ان تربية الجمهور الاسرائيلي وتثقيفه على العنف تجاه الخارج ، اي تجاه العرب ، لا بد وان يرتد ايضا نحو الداخل ، خصوصا وان هناك شريحة كبيرة في اسرائيل تحس بالغبن اللاحق بها ، ولا تجد متنفسا عن وضعها الا باستخدام ما كانت قد تلقته (١٨) .

ويعزو الدكتور عوزي شيلو ، الاستاذ في علم الاجتماع اسباب ظاهرة العنف الى احساس المواطن الاسرائيلي بانه ليس شريكا في صنع القرارات ، والى كون « المجتمع » الاسرائيلي مجتمعا في طور التبلمور ، فيقول : « لىدى المواطن في دولة اسرائيل اليوم احساس بان ليس له ، او لاعماله ، اى تأثير في معظم جوانب الحياة ، باستثناء الامور الشخصية . فهو بمثابة لولب صغير ، ودائما هنالك من يقرر من اجله ٠٠٠ والواقع هو ان احساس المواطن بعدم السيطرة على ما يجري حوله ، يؤدي في احيان كثيرة الى تفجرات عنيفة » (١٩) .

وهنالك ايضا نصيب كبير ، في دفع عجلة اعمال العنف والجريمة الى الامام ، للاصول الحضارية المختلفة « للمجتمع » الاسرائيلي ، الامر الذي يسبب في كثير من الاحيان صدمات بين الجيلان . كما ان الفجوة الاجتماعية والطائفية قد ساعدت على انتشار العنف والجريمة ، اذ ان تركيب « المجتمع » الاسرائيلي ، نفسه يحتوي في طياته على عوامل تساعد على خلق مثل هذه الظواهر . فالتغير الكبير في تركيب « المجتمع » الاسرائيلي ، الذي كان صغيرا قبل قيام الدولة ، واصبح الان على ما هو عليه ، ثم انتقاله الى مجتمع حديث ، تكنولوجيا وصناعي ، قد ادى الى حدوث تخبطات كثيرة في مجالات مختلفة . كما ان عدم وجود ايدولوجية واحدة مشتركة لدى الاسرائيليين قد ادى الى ظواهر سلبية منها العنف (٢٠) .

ويعتقد الدكتور عوزي شيلو ، الاستاذ في علم الاجتماع « انه عند قيام الدولة كان « المجتمع » الاسرائيلي يعيش باحساس ان جميع الاسرائيليين اعضاء في حركة شعبية واحدة . كنا جميعا نتحلى بالمثل . كان هنالك شعور بالاخوة والوحدة الاجتماعية .٠٠٠ اما اليوم فقد تبدد هذا الاحساس ، في الوقت الذي لا تزال نفتقر فيه الى شبكة من الانماط وقواعد السلوك الرسمي ، كدول اقدم منا . وهذا الوضع الذي يتسم بالبلبلية وعدم الوضوح يؤدي في احيان عديدة الى ظواهر من التفجرات العنيفة » (٢١) .

ويبدو ايضا ان العامل الاقتصادي والتفاوت بين الطبقات والفئات يعتبران سببا لا يستهان به في انتشار ظواهر العنف والجريمة . واحد الادلة على ذلك هو ان الفئات والطبقات الغنية ، التي تعيش في المنطقة الشمالية من تل ابيب حياة البذخ والرفاهية تثير حفيظة ونقمة ابناء الاحياء والفئات الفقيرة ، مما يؤدي الى ارتكابهم الجرائم ضد هؤلاء . « وهكذا مثلا ، يمكن تفسير الحادث الذي وقع قبل عدة ايام في تل ابيب ، عندما تم تدمير مجموعة مسن السيارات دون ان يسرق من داخلها شيء . وهذا هو احتجاج الشبان الذين يعيشون على هامش المجتمع ويعرفون بان التعليم الجيد والمهن المحترمة مغلقة امامهم » (٢٢) . وقد تحدث عن هذا الموضوع احد افراد عالم الاجرام ، الذي

بدأ وهو في الصف السادس الابتدائي يمارس السرقات ، وخاصة في المنطقة الشمالية من تل ابيب حيث يسكن الاغنياء والاشكناز ، فقال : « انني اكرههم ، فهم يعتبرون انفسهم « مجتمعا راقيا » ولهذا السبب اقوم بسرقتهم . كل ما يطلبونه يحصلون عليه فورا . وهنا في الجنوب [ الاحياء الفقيرة ] حتى المظاهرات عديمة الفائدة . ٠٠٠ اذا بقيت ٨ سنوات في السجن فلن اذهب للخدمة في الجيش . انهم يعطون لجماعة الشمال كل شيء ، واذا كان الجيش للدولة ، فليذهب اليها من يأخذ من الدولة . انني لن اذهب لانني لا اخذ شيئا » (٢٣) .

### الجريمة في اسرائيل وتشعباتها

بدأ الحديث ، كما ذكرنا سابقا ، عن الجريمة المنظمة في اسرائيل بصورة علنية عام ١٩٧١ ، وذلك في سلسلة مقالات ، نشرها الصحفي ران كسليف في صحيفة « هارتس » . وحدث ذلك في اعقاب الجرائم التي كثرت في تلك الفترة ، وشملت القتل والسرقات والتهريب . ولكن منفي هذه العمليات ، المعروفين جيدا من قبل الاهالي والشرطة والذين سرعان ما كان يلقي القبض عليهم ، لم يلقوا جزاءهم ، اذ كان يطلق سراهم بالرغم من ان كافة الدلائل تشير الى ارتكابهم الجرائم . كذلك ازداد الاهتمام بهذه الظاهرة بعد مبالغة كبار ضباط الشرطة ، وخاصة وزير الشرطة وغيره من المسؤولين ، في نفسي وجود الجريمة المنظمة ، لدرجة دفعت البعض الى القول « ان اكثر شيء ينفسي في الدولة هو وجود الجريمة المنظمة » . ولكن تسلسل الاحداث ، وازدياد اعمال العنف لم يقنع الكثيرين بصحة هذه الاقوال . وجاء ران كسليف ، عبر تحقيقاته الطويلة عن هذا الموضوع ورسم الصورة التالية ، رغم التهديدات التي وصلت اليه : « ان الصورة التي ارتسمت في نهاية تحقيقي قد اخافتني ايضا ، ليس بسبب « النصائح الطيبة » التي وصلتني عبر مختلف المصادر من اجل ايقاف اهتمامي بهذا الموضوع ، وانما بسبب الصورة نفسها . وان المدهش جدا هو انه بالرغم من الفوارق الكبيرة في الخلفية وفي الظروف ، فقد ذكرتني الصورة بالمافيا الاميركية المشهورة . ان المافيا في اميركا كبيرة جدا وتملك قوة عظيمة ، واما في اسرائيل فالمنظمة في بداية طريقها » (٢٤) .

ولا يعني هذا ان الجريمة المنظمة في اسرائيل قد بدأت في بداية السبعينات ، وان كان الحديث عنها قد بدأ انذاك فقط ، اذ ان هنالك من يؤكد ان الاسس الاولى لتكوين شبكة الجريمة المنظمة في اسرائيل قد تكونت خلال ايامها الاولى ، خلال فترة التقشف التي فرض فيها حظر على بعض المواد الغذائية ، مما ادّى الى نشاط عمليات التهريب وبيع المواد الغذائية المهربة ، مع كل ما

يتطلبه ذلك من تجنيد اعداد كبيرة للعمل لهذه الغاية . ومع انتهاء فترة التقشف ، تحولت هذه الجماعات الى اعمال الاجرام المتعددة ، وتطورت اساليبها وازدادت قوتها تنظيميا ، في حين بقيت امكانات الشرطة على وضعها القديم ، فاتبعت سياسة ملاحقة صغار المخالفين بدلا من القبض على كبار المسؤولين عن شبكات الاجرام (٢٥) .

ومن خلال النفي التام لوجود الجريمة المنظمة في اسرائيل ، كانت الشرطة مستعدة للاعتراف بمحاولة واحدة لتنظيم الجريمة هناك ، الا وهي دخول « المنظمة الفرنسية » الى اسرائيل ( وهي التي تعرف ايضا باسم « العصابة الفرنسية » او « المافيا الفرنسية » ) . وكان رجال « المافيا الفرنسية » قد جاءوا من جنوب فرنسا واستقروا في ديمونة وبئر السبع واشدود ، ومن ثم انتقلوا في نهاية الستينات الى تل ابيب بعد ان شعروا بالامان والاستقرار . وادعى بعض مسؤولي الشرطة ان هذه العصابة قد صفت ، ولكن المحققين يعتقدون بانها ليست قائمة فحسب ، بل انها مستمرة في العمل أيضا ، وان نوعية تنظيمها ومواردها المالية الكبيرة وعلاقتها مع الخارج وامكانية تبديل الاشخاص وجلبهم الى اسرائيل واخراجهم منها ، ثم علاقتها مع مراكز الجريمة في اوروبا - كل هذا يمكن « المافيا الفرنسية » من التكيف التام مع الظروف والنشاط الهادىء (٢٦) .

الا انه يبدو واضحا ، نتيجة للاعمال الاجرامية التي ترتكب في اسرائيل ، ان هناك عدة منظمات ، كبيرة وصغيرة ، تمتهن الجريمة في اسماكن مختلفة ويبدو ان اخطر هذه المنظمات هي ثلاث عصابات تعمل في تل ابيب وضواحيها ، وهي « مافيا » تل ابيب وعصابة كيرم هاتيمينيم ( مسن اليهود اليمينيين ) و « المافيا الفرنسية » (٢٧) .

ووصفت لجنة شيمرون الجريمة المنظمة في اسرائيل بانها « صيغة اسرائيلية » ، مما اثار حفيظة وانتقاد الكثيرين ، وعلى رأسهم وزير العدل السابق ، حاييم تسادوك ، فقال ان لجنة شيمرون عندما وصفت الجريمة في اسرائيل بانها « صيغة اسرائيلية وليست اميركية لم تقم بتحديد الفرق بينهما . وان كل مسن يحاول الادعاء انه لا توجد جريمة منظمة في اسرائيل ، لانه لا يوجد شبه بين المافيا في الولايات المتحدة والوضع في اسرائيل ، فانما هو مخطيء . فقد توصل العلماء الذين يبحثون عما يجري في الولايات المتحدة ، ان الجريمة هناك ليست متناسقة ، اذ يوجد في البلد عدة انواع من الجريمة المنظمة ، واشهرها المافيا الايطالية والمافيا الزنجية . والفارق البارز بينهما هو ان المافيا الايطالية تعتمد على العائلة واما الزنوج فيعتمدون على الحي . وفي هذه النقطة يوجد شبه كبير جدا بين المافيا الزنجية وبين الجريمة المنظمة في اسرائيل . حيث ان قوة

زعماء الجريمة هنا تعتمد على الحي ، ومن ثم - عندما يثبتون انفسهم - يستطيعون التقرب من القمة (٢٨) \*

### قادة الجريمة

كشف النقاب مؤخرا عن وثيقة من قبل الشرطة ، تحتوي على أسماء قادة وزعماء الجريمة المنظمة في إسرائيل ، البالغ عددهم احد عشر زعيما \* وقد قدمت هذه الوثيقة الى قاض الصلح عزريئيل شافي ، من قبل الضابط عاموس عزري ، احد الضباط في قيادة الشرطة وهؤلاء هم :

١ ( مردخاي تسرفتي ( منتش ) ، الذي قام بتمويل صفقات من المخدرات لكل من رحاميم اهروني وبتساليل مزراحي \* ويقوم تسرفتي بجباية الاموال مسن نوادي القمار ، وهو ايضا شريك سري في فنادق بتساليل مزراحي ولديه كثير من الاتباع الذين ينفذون اوامره \*

٢ ( بتساليل مزراحي \* وهو من ابرز وجوه الجريمة المنظمة ، مليونير يملك شركة مقاولات كبيرة ، قامت بتنفيذ مبان لوزارة الدفاع والاسكان وغيرها \* ويملك ايضا شبكة فنادق في مختلف انحاء اسرائيل ، اطلق عليها اسم زوجته « غاني شولاميت » \* وقد كان وزير السياحة السابق ، موشيه كول ، من ابرز ضيوفه الدائمين \* ويتحدد نشاطه في تمويل عمليات الاجرام المنظم ، خصوصا سرقة الماس وتهريب المخدرات الى اسرائيل \* ويفاخر مزراحي بان احد كبار ضباط الشرطة يشاركه في اعماله ، ويقدم اليه المعلومات عن نوايا الشرطة ضده \* كما انه لا يتردد في استخدام العنف ضد رجال الشرطة ، الذين يعتزمون التحقيق في اعماله وفي مصادر امواله \* وقد حصل ذلك فعلا مع اليعزر شيلوني - مفوض ضريبة الدخل حاليا - الذي كان يرأس دائرة التحقيقات في الشرطة سابقا \*

٣ ( رحاميم اهروني ، وهو شريك سري في مصنع اللصوم « فيمبي » ، ويملك ايضا مطعم « داكار » ، ويعمل ايضا في مجال الابتزاز والمتاجرة بالماس المسروق \* واهروني من كبار ممالي صفقات المخدرات في اسرائيل ، ويتراسس شبكة لتهريب الذهب ، وواحد من رؤساء الشبكة التي تقوم بتهريب امسوال اليهود من جنوب افريقيا الى سويسرا \* وقد بنى بيتا كلفه اربعة ملايين ليرة \* كما انه يلعب القمار ، ولا يهتم لخسارة مئات الالاف من الليرات \*

٤ ( طوفيا اوشري ، وهو شريك في كل اعمال اهروني \*

٥ ( انلي تيسونا ، وهو شريك لاهروني في صفقات المخدرات ، ومسجل على انه صاحب مصنع « فيمبي » المذكور \*



٦) عزرا تيسونا الذي يصف نفسه بأنه لاعب طاولة نرد محترف ، ويستغل ذلك كتغطية لتنقلاته في العالم ، ويتعامل بالمخدرات • وهو « متخصص » بالتهريب وباجراء المعاملات في الجمارك •

٧) يحزكينيل اسلام ، ويعمل في النسيج وقد تسلم مساعدات من وزارة التجارة والصناعة لفتح معمل للنسيج في كريات شمونة • ولكن المصنع لم يفتح • ويعمل في تل ابيب في حقل المخدرات ، ويحاول السيطرة على قسم من تصريفها في ايلات •

٨) يعقوب ابشتاين ، وهو صاحب مرآب للسيارات ، ويقوم بتمويل تهريب المخدرات وبيع الاملاك المسروقة ، ويبدو انه يملك مصنعا في افريقيا يستخدمه كغطاء للتهريب •

٩) رافي شأؤولي ، وهو صاحب مجموعة من المطاعم يستورد المخدرات ويعمل بالتهريب ونقل الاموال الى الخارج بواسطة شبكة تهريب ، وذلك بمساعدة مضيبي شركة « ال عال » •

١٠) مونيا شابيرا ، شريك في كازينو « كانتري كلوب » في رامات هشارون ، ويعمل في مجال بيع السيارات المسروقة التي يتم تغيير شكلها • وقد خسر قبل ثلاث سنوات ثلاثة ملايين ليرة اسرائيلية في لعب القمار • وعلاقته وثيقة مع بتساليل مزراحي ، وقد يكون شريكا في بيع المخدرات •

١١) دافيد دزنشفيلي - ليس لديه عمل رسمي يعتاش منه ، ولكنه معسوف كمزيف للعملات وخاصة الدولارات ، ويقوم بغرض رسوم الخوة والحماية على بعض المحلات (٢٩) •

ومن جهة اخرى ، طرح ايضا اسم بلاتو شارون - عضو الكنيست حاليا - كمرشح لرئاسة الجريمة المنظمة في اسرائيل ، في اعقاب غياب احد زعمائها البارزين يعقوب كوهين ( يعقوبي ) • ويؤكد الصحافي آفي فالنتين ان رجال منتش قدموا الى بلاتو شارون مساعدات كبيرة في حملته الانتخابية • وشارون هو محتال دولي معروف ، ومطلوب من قبل فرنسا بتهم عديدة • ولكنه منذ انتخابه عضو كنيست ، يتمتع بالحصانة النيابية • وفي الوقت نفسه يحافظ علنا على علاقاته بزعماء الجريمة في اسرائيل (٣٠) •

## مجالات الجريمة

يؤكد تقرير لجنة شيمرون ان رجال الجريمة المنظمة يعملون في مختلف فروع الاقتصاد الاسرائيلي ، كالجواهرات والبناء واستيراد البضائع وكذلك المخدرات،

حيث وصلت الاموال المستعملة في هذه التجارة سنويا من قبل رجال الجريمة المنظمة الى حوالي ثلاثة مليارات ليرة اسرائيلية (٣١) \* وتشير الاحصائيات الى وجود نحو ١٠٠ الف شخص يتعاطون المخدرات في اسرائيل ، بينما يصل عدد المدمنين على المخدرات الخطرة الى ١٠ الاف شخص ، معظمهم في منطقة تل ابيب \* وتتسع عادة تعاطي المخدرات بين الشبيبة وطلاب المدارس الثانوية والشبيبة العاملة وافراد الجيش الاسرائيلي (٣٢) \*

واشارت لجنة شيمرون أيضا الى خطورة الاموال السوداء التي تعمل في الاقتصاد باحجام كبيرة ، والتي لا يعرف اصحابها ولذلك فانها غير خاضعة لضريبة الدخل \* كما كشفت اللجنة عن وجود الجريمة المنظمة في قطاع تصريف الانتاج الزراعي ، حيث ان الاسواق ، سواء تلك التي تتعامل بالجملة او بالمفرق ، تستخدم بؤرة لهذه الاموال ولتراكمها \* فتصريف المنتوجات الزراعية يتم ، مثلا ، من خلال عملية غير قانونية ، اذ ان تاجر الجملة لا يبيع بضاعته بصورة مباشرة الى تاجر المفرق ، كما ينص القانون ، وانما هناك تاجر آخر وسيط هو الذي يقوم بهذه العملية \* وهذا ما يؤدي بدوره الى ارتفاع اسعار المنتوجات للمستهلك بنسب كبيرة \* كما ان عملية نقل الخضروات والفواكه من المنتج الى السوق خاضعة لسيطرة عدد محدود من كبار تجار الجملة ، الذين يقومون بتصريف المنتوجات الى الاسواق بناء على حسابات الارباح الخاصة بهم \* ونتيجة لذلك يصل ، مثلا ، القسم الاكبر من المنتوجات الزراعية من كافة انحاء اسرائيل الى السوق الرئيسي في تل ابيب ، ثم يعاد قسم من هذه المنتوجات الى الاسواق الاخرى الموجودة بالقرب من المكان الذي كانت قد ارسلت منه الى تل ابيب \* ولا تتوقف اعمال الجريمة في المجال الزراعي عن هذا الحد ، فقد علمت لجنة شيمرون ان السرقات والاضرار التي تحدث في هذا المجال تقدر بربع مليار ليرة اسرائيلية سنويا (٣٢) \*

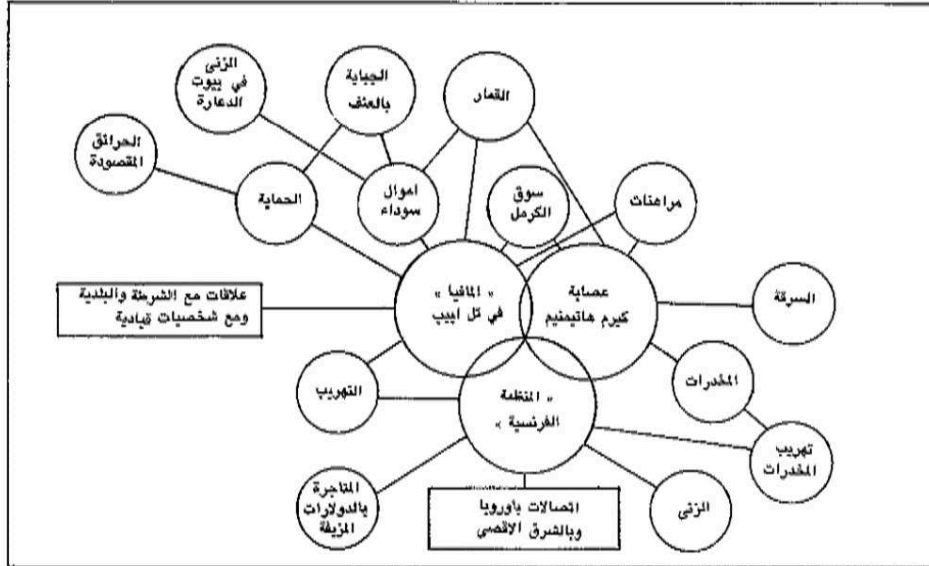
كما ان هناك مجالات اخرى كثيرة للجريمة منها الماس والمقاولات الترابية ومقاولات البناء وكذلك استيراد وتصدير الادوات الكهربائية والمنزلية \* يضاف الى ذلك عمليات السرقة والتخريب في الموانئ ، التي تتم بواسطة وثائق مزورة او تغيير الوثائق \* وقد تبين للجنة شيمرون ان البضائع الكثيرة المعروضة في المحلات التجارية على امتداد شارع الاستقلال في حيفا ، وكذلك في مدن اخرى ، مصدرها التخريب \* وتتم عمليات التخريب هذه بواسطة سفن تنتقل بين موانئ البحر المتوسط ومن ثم تعود الى موانئ اسرائيل بعد ١٠ - ١٤ يوما من مغادرتها \* وعند وصولها الى مارسيليا تنتظرها هناك سيارات النقل المعبئة بالبضائع ، المعدة للتخريب الى اسرائيل \* كما ان قسما كبيرا من البحارة الذين يعملون على خطوط البحر المتوسط يشتغلون بالتخريب بصورة دائمة \* وهنالك سرقات ضخمة تتم عن المخازن في مطار بن غوريون ، وخاصة فيما يتعلق

بالمأس (٣٤) • وتعمل الجريمة المنظمة أيضا في مجال سرقة السيارات • وقد وصلت قيمة السيارات المسروقة عام ١٩٧٦ الى ١٥٠ - ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية - وكذلك سرقة المحلات والسطو عليها • وقد اوردت الاحصائيات الرسمية ان عمليات السطو بلغت عام ١٩٤٩ نحو ٣٣٣٠ حادثة ، بينما ارتفعت الى حوالي ٥٠ ألف حادثة عام ١٩٧٦ • وتعزو لجنة شيمرون هذه الزيادة الكبيرة الى ان الشرطة لا تستطيع التوصل الى معرفة مسيبي هذه الجرائم ، حيث انها توصلت في أحسن الاحوال الى جل ٨٠٪ من هذه المشاكل ، مما يشجع على مثل هذه الاعمال ، لان نسبة احتمال اعتقال مرتكب الجريمة ضئيلة للغاية (٣٥) • وقد وصل الامر ببعض العائلات الى حد انها لا تجرؤ على مغادرة بيوتها ، لان السرقات تتم في وضح النهار •

وتنشط الجريمة المنظمة في مجال فرض رسوم الخوة والحماية والابتزاز من المحلات التجارية والاسواق • فقد أكد النائب اهود اولرط انه هناك على الاقل حوالي ١٥٠ مصنعا ومشغلا ، في القدس ، تدفع رسوم الحماية شهريا لاشخاص معروفين لديهم ولدى رجال الشرطة الاسرائيلية (٣٦) • وأشار النائب دوف شيلانسكي الى انه قام برفقة احد كبار ضباط الشرطة بجولة في شارع اللبسي في تل ابيب • وقام هذا الضابط بالتوقف لدى كل حانوت يتعامل بمصنوعات النسيج ، وقال ان هذا يدفع رسوم حماية لهذا وذلك يدفع لذلك ، وكل شيء منظم بحيث لا يدفع احدهم مرتين • وكشف الضابط عن انه اذا ما اريد فتح حانوت للنسيج « فلا حاجة للحصول على رخصة من الحكومة ولا من البلدية وانما منهم » [اي رجال الجريمة] (٣٧) • كما كشف النائب تامير عن مجال جديد دخله مؤخرا رجال الجريمة المنظمة ، الا وهو الاستيلاء على الاراضي الحكومية ، ثم مطالبة الدولة بدفع تعويضات كبيرة لهم مقابل اخلائها • ويؤكد ذلك النائب منير زوريع ، الذي عمل في السابق مديرا لادارة عقارات اسرائيل بقوله : « كانت هناك بعض الحالات التي دفعت فيها الدولة تعويضات لهؤلاء الاشخاص » (٣٨) •

وتلخص بعض المصادر الصورة الحالية للجريمة المنظمة في اسرائيل فتقول : « لقد تحولت خلال السنوات الاخيرة الى مملكة كبيرة ، تشتمل مجالات مختلفة ومتنوعة ، تهريب المخدرات دوليا ، الجباية غير القانونية وعمليات السطو والسرقة وكذلك عمليات الزنى والابتزاز والتهديدات وفرض الخوة ، وفوق ذلك كله عمليات الحرق والقتل • وكذلك استثمار الاموال السوداء في المشاريع الاقتصادية والتاجرة بالمجوهرات والماس المسروقة • وتزييف العملة والمراهقات والقمار ، اي باختصار لقد دخلت [الجريمة] جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل » (٣٩) •

وفيما يلي رسم « لاجهزة » الجريمة المنظمة في اسرائيل ، ومجالات نشاطها المختلفة ، وتداخلها ببعضها البعض (٤٠) :



### الجريمة المنظمة في القطاع العسكري

لا يقتصر نشاط الجريمة المنظمة على القطاع المدني ، بل يتعداه ايضا الى القطاع العسكري في اسرائيل ، حيث ازادت بشكل ملحوظ المخالفات فسي صفوف الجيش ، وخاصة تعاطي المخدرات ، وهناك من يرجع ذلك (٤١) الى قرار كان قد اتخذ في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بالسماح بتجنيد الشباب من اصحاب السوابق في صفوف الجيش ، بعد ان كان ذلك ممنوعا في السابق ، وقد ظهر فيما بعد مدى خطورة النتائج المترتبة على هذا القرار ، حيث تفشت في صفوف الجيش ، من مختلف الرتب ، ظاهرة تعاطي المخدرات والسرقه والعنف نتيجة انتشار اعداد كبيرة من ذوي السوابق في مختلف القطاعات العسكرية ، ويعتبر تعاطي المخدرات من اهم المواضيع الثابتة على جدول اعمال شرطة التحقيق العسكرية ، حيث تشكل معسكرات الجيش في سيناء والسجون العسكرية ، البؤر الرئيسية لانتشار المخدرات ، ويتعرض المسؤولون في السجون العسكرية لتهديدات خطيرة ومباشرة من السجناء اصحاب السوابق ، لحملهم على عدم كشف امرهم ، ولساعدتهم ايضا على تهريب المخدرات الى السجن ، ويبدو انه في حالات عديدة يكون الضباط على علم بانتشار المخدرات بين افراد وحداتهم ، لكنهم يمتنعون عن التبليغ ، ويبررون ذلك بقولهم انه ما

دام الجندي يقوم بعمله ، فليدخن ما يشاء في وقت فراغه ، لأنه في حال القاء القبض على هؤلاء الجنود ، فستمر اسابيع طويلة قبل استبدالهم بأخرين ، مما يؤثر في الطاقة البشرية في الوحدة . ومع تفشي المخدرات في صفوف الجيش الاسرائيلي ، تزايدت ايضا اعداد الفارين من الخدمة العسكرية ، « الذين لا يتورعون عن السرقة والاعتداء ، مستغلين الزي العسكري لتنفيذ اعمالهم الاجرامية ، الامر الذي لم يسبق ان حصل في الماضي » (٤٢) .

### الصراع على النفوذ بين رجال الجريمة

لا تقتصر اعمال العنف والجريمة على المواطنين فقط ، وانما تشمل عصابات الجريمة نفسها ، حيث انها كثيرا ما تلجأ الى التشويه او التصفية ضد بعضها البعض ، وذلك في اطار الصراع الدائر بينها على النفوذ . واشهار احد الصحافيين الى ان عددا من اعمال العنف التي شهدتها حي هاتكفاه في تل ابيب ، تشكل تعبيرا عن الصراع الدائر على السلطة في عالم الجريمة ، بين القيادات القديمة والشابة . ومن مظاهر هذا الصراع ، مثلا ، القاء زجاجة مولوتوف حارقة على مدخل بيت شموئيل اهرن ، الذي عمل سنوات طويلة في مجال المراهنات والقمار . وعائلة اهرن معروفة بصلاتها الجيدة مع خبزب مياي ، منذ ان كان افراد العائلة يعملون لجمع الاصوات لصالح الحزب فسي الانتخابات (٤٣) . وفي حالات اخرى ، يتم الاتفاق بين عصابات الاجرام على « اقتسام العمل » ، كما حدث في بلدة مجدال ها عيمك . فقد كانت تسيطر على عالم الجريمة هناك طوال سنوات ، « عصابة المغاربة » . وفي الفترة الاخيرة بدأت تنافسها « عصابة الروس » ، من المهاجرين الجدد من يهود روسيا ، الى ان تم الاتفاق على ان تتولى « عصابة المغاربة » ، العريقة في عالم الاجرام ، عمليات تجارة المخدرات ، بينما تولت « عصابة الروس » الاعمال الاخرى كالسرقة والاتجار بالمسروقات (٤٤) .

### علاقة رجال الجريمة مع السلطة

ان اول سؤال يتبادر الى الذهن هو هل تنطبق قواعد الجريمة المنظمة السائدة في بعض الدول الغربية على تلك القائمة في اسرائيل ؟ وهل يعني ذلك وجود جماعات منظمة تمارس هذا النشاط بفضل علاقاتها وارتباطاتها مع شخصيات ومؤسسات لها نفوذها ومركزها في السلطة ؟ لقد حاولت السلطات الاسرائيلية ، وخاصة دوائر الشرطة ، نفى ذلك نفيا قاطعا ، الا ان الدلائل والوقائع تشير الى عكس ذلك ، ويبدو ان هنالك علاقات دائمة ومنظمة بين رجال العالم السفلي وبين العديد من رجال الدولة ، سواء كانوا وزراء ام ضباطا في الجيش

## والشرطة وفي مختلف الدوائر الحكومية \*

لقد أشار تقرير لجنة شيمرون إلى وجود علاقات بين رجال الجريمة والعديد من رجال الدولة ، مؤكدا ان رجال الجريمة يقومون بتنفيذ اعمالهم وصفقاتهم عن طريق استغلالهم لمثل هذه العلاقات \* ولكن اللجنة بررت هذه العلاقة بكونها « اجتماعية » فقط ، حيث درجت العادة على ان يدعى احد المسؤولين الكبار الى احدي المناسبات الاجتماعية ، وهكذا يتم التقرب منه من قبل زعماء الجريمة ، الامر الذي يوحي للجميع بان رجال الجريمة انما ينفذون اعمالهم بفضل هذه العلاقات ، وقد حذرت لجنة شيمرون من الوقوع في مثل هذا الفخ ، ولكنها اعترفت من ناحية اخرى انه لولا مثل هذه العلاقات مع بعض رجال السلطة وبعض موظفي الدولة لما تمكن رجال الجريمة المنظمة من تنفيذ بعض الاعمال التي تتطلب تعاوننا من قبل موظفي الدولة (٤٥) \* وأشار احد الصحافيين ، الذي قام بدراسة الجريمة المنظمة في اسرائيل الى ان « أبرز الشخصيات في المؤسسة الحاكمة والجيش والاحزاب والهيستدروت وكبار رجال الاعمال يلتقي في مناسبات اجتماعية مع زعماء العصابات ورؤساء الجريمة المنظمة ، الذين اخذوا يتغلغلون في مجالات الاعمال ويعززون قوتهم الاقتصادية » (٤٦) \*

واذا ما تتبعنا بعض العلاقات القائمة بين رجال الجريمة المنظمة وبين رجال المؤسسة فسيتضح لنا وجود علاقات حميمة تتعدى العلاقات الاجتماعية ، وتكذب الزعم القائل ان رجل المؤسسة قد وقع من حيث لا يدري في الفخ ، كما تدعي لجنة شيمرون \* فهناك عدة ادلة تثبت ، مثلا ، وجود علاقات وثيقة حميمة بين زعيم الاجرام في منطقة تل ابيب المدعو منتش مع وزير الدفاع السابق موشي دايان ، وكذلك مع كبار ضباط الجيش والشرطة والقضاة والوزراء ، الذين يتناولون الطعام على مائدته ، وقد نشرت له صور مع عدد من هؤلاء المسؤولين \* ومن الناحية الرسمية والمهنية والاجتماعية يعمل منتش رئيس مجموعة حمالين ، « ولكنه بدون شك حمال فريد من نوعه ، اذ انه ليس باستطاعة كل حمال ان يجند خلال بضعة ساعات ٥٠٠ - ٨٠٠ شخص من المستعدين لتنفيذ اوامره » (٤٧) \*

ويذكر ان زعيم الحمالين هذا كان قد تلقى رسائل شكر من عدد من الشخصيات المعروفة ، مثل ارييه الياف ، سكرتير حزب العمل سابقا ، ارييه نير مفوض السجون ووزير الشرطة الراحل ، بيخور شطريت ، وذلك لقاء قيامه ببعض الخدمات \* واما تلك الخدمات التي قام بها منتش والتي لم تذكر فسي كتب الشكر ، فتنحصر في اعمال قام بها لمصلحة الحزب الحاكم في معركته على النفوذ في الاحياء الفقيرة من تل ابيب \* فعندما قام مسؤول حزب مهابني في تل ابيب ، شراغا نيشر في بداية الخمسينات بهجومه ضد سيطرة حزبي حيروت والاحرار في تل ابيب ، كان منتش احد الاشخاص الاوائل الذين توجه اليهم \*

وكانت مهمته محددة ، وهي تنظيم جماعات قوة لتقف ضد جماعات القوّة التابعة لحركة حيروت . ومن الملفت للنظر ان منتش هذا هو الذي حقق اول اجتماع انتخابي لحزب مباي في حي هاتكفاه ، وهو من اكثر الاحياء فقرا في تل ابيب ، باشتراك دافيد بن غوريون . وعندما كانت قضية لافون على اوجها تم عقد اجتماع في تل ابيب ، الا ان بعض الشبان هدد بنسفه ، وعندها قام منتش خلال وقت قصير بحشد مئات « المنظمين » ، الذين قاموا « بتهديّة » الجو الساخن . كما ساهم بقسط كبير في الحملة من اجل اعادة انتخاب اشكول . وحقق له عقد الاجتماع الكبير في حي شاپيرا (٤٨) . كما ان وضع النائب مناخيم كوهين ، ممثل الاحياء الفقيرة كان متعلقا بمنتش ، ثم ان مردخاي نامير مدين له في رئاسة بلدية تل ابيب ، وهذا ما يعترف به حتى اليوم الكثيرون من نشيطي حزب العمل . ومن جهة اخرى كشف النقاب ايضا عن ان لزعيم الاجرام في حيفا ، دافيد رويمي الملقب سفينغا ، علاقات مع سكرتير بلدية حيفا ، موشيه روفيه ، الذي نجح في التقرب اليه ، وكذلك تعرف رويمي الى عدد من ضباط الشرطة والى رئيس بلدية حيفا الراحل ، ابا حوشي ، الذي حصل بواسطته على رخصة دكان ، اشغله لبيع المخدرات والمشروبات المهيبة . وكان سفينغا نفسه قد ساعد حزب مباي في الحصول على الاصوات والمحافظة على صناديق الاقتراع اثناء الانتخابات (٤٩) .

وكان احد زعماء عالم الجريمة قد أقام حفلة في منزله الفخم في هرتسليا ، بمناسبة بلوغ ابنه الثالثة عشرة من عمره . ويدعى هذا الشخص تسييون ليفي . وقد فوجيء الجميع ان اعدادا كبيرة من رجال الشرطة كانت توجه السير وتنظمه الى البيت . ويذكر « انه كان من الصعب التمييز في هذا الاحتفال بين زعماء الجريمة المنظمة وبين شخصيات رئيسية في السلطة والجيش وبلدية تل ابيب والهستدروت » (٥٠) . وقد حضر هذا الحفل وزير الخارجية موشي دايان وكذلك رئيس بلدية تل ابيب شلومو لاهط ونائبه . وقد مثل الليكود الدكتور روم ، واما المعراخ فقد تمثل بأمين صندوق الهستدروت يسرائيل كسبار . واما الجيش فقد تمثل بأمين صندوق الهستدروت ليفي والجنرال اورلي ، منسق العمليات في المناطق وكذلك الجنرال ( احتياط ) رحبعام زئيفي والجنرال افرايم بوران المستشار العسكري لرئيس الحكومة . وشارك عن الشرطة ضابط عمليات منطقة اليركون ويعقوب كينر قائد شرطة تل ابيب سابقا . وقد انضم اليهم رؤساء الجريمة المنظمة الذين كانوا يصافحون بحرارة كبار الشخصيات ، وكذلك بعض الاشخاص من ذوي الماضي المعروف في دوائر الشرطة الذين تزخر ملفاتهم بالجرائم والمخالفات ابتداء من التعاطي بالمخدرات والتهريب والابتزاز وانتهاء بالقتل (٥١) .

وكان النائب اهود اولرط قد اتهم خلال مؤتمر صحفي في تل ابيب ، الجنرال

( احتياط ) رجبام زئيفي باقامة علاقة وثيقة بأشخاص من قيادة الجريمة المنظمة . وقد قدم تقريراً بذلك للكنيست ، كشف فيه بعض قادة الجريمة وعلى رأسهم بتسالييل مزراحي ، الذي قال عنه بان له علاقات مع بعض كبار ضباط الجيش . وما لبث ان اتصل زئيفي بالنايب اولمرت وقال له « هل تعرف من هو مزراحي ؟ له اصدقاء كثيرون في السلطة ، وله صداقة مع خمسة جنرالات في الجيش على الاقل ، وهؤلاء سيفعلون من اجله كل ما يريد ، ولهذا عليك ان تتصل من اقوالك المنشورة » (٥٢) . وعاد اولمرت مرة اخرى وهاجم بشدة الجنرال زئيفي واعتبره مثالا للفساد الاجتماعي في اسرائيل ، بسبب عقده صداقات مع رجال الجريمة والقيام بحمايتهم والدفاع عنهم . واورد ، مثالا على ذلك ، محاولة زئيفي الدفاع عن بتسالييل مزراحي عندما قال عنه بانه جندي ممتاز خدم في الجيش ، وقد عرض نفسه للموت في الكثير من المعارك ، ثم عرض بعض الوثائق التي تشير الى ان مزراحي لم يخدم في الجيش ، وانه كان فارا وقد ادخل السجون العسكرية عدة مرات وبعدها سرح من الجيش لعدم « لياقته » . ويؤكد اولمرت ، ان مزراحي لم يخدم في الجيش بتدخل من زئيفي نفسه ، وانه لم يخدم في الاحتياط طيلة السنوات الطويلة ، لم يشارك في حرب يوم الغفران . وختم اولمرت اقواله بالاشارة الى انه جرى تحقيق في هذا الشأن من قبل الشرطة العسكرية ، وعند الانتهاء من التحقيق قام رئيس الاركان بتوبيخ زئيفي (٥٣) .

ومن جهة اخرى ، انكر المفتش العام للشرطة حاييم تابوري وجود اية علاقة لرجال الجريمة مع اجهزة القضاء والشرطة والسلطة . ولكن ضابط المخابرات في شرطة اسرائيل شموئيل نحيمياس ، يؤكد انه يعرف قادة الجريمة ويعرف ان لهم علاقات مع شخصيات كبيرة في الدولة تقوم بحمايتهم وتغطيتهم (٥٤) . و اشار تقرير لجنة بوخنر الى وجود دلائل مثيرة « تثبت تدخل رجال الشرطة والجمارك وموظفي الشركات الكبيرة والمحامين في مساعدة رجال الجريمة وتقديم المشورة لهم » (٥٥) .

ومما يؤكد مدى تغلغل الجريمة المنظمة في صفوف الشرطة الاسرائيلية ، وعلى اعلى المستويات الحادثتين اللتين اوردهما الصحافي آفي فالنتيين . وتعلق الحادثة الاولى بتخطيط وضعته الشرطة ، يقضي بتشغيل احد رجالها كعميل مزدوج مع افراد الجريمة المنظمة ، لكي يتوصل الى معرفة زعمائها والقبض عليهم ، مقابل تسريب معلومات « محددة » لهم . وكان هذا المخطط معروفا لثمانية فقط من كبار ضباط الشرطة ، بمن فيهم المفتش العام . الا ان المخطط وصل فورا الى علم زعماء الاجرام مما أدى الى الغائه ، وارسل الشخص المقترح كعميل مزدوج في اجازة طويلة . ولم يجر التحقيق مع احد من الضباط الثمانية (٥٦) . وتعلق الحادثة الثانية باكتشاف اجهزة تنصت



وبث مثبتة في غرفة التحقيقات المركزية في قيادة الشرطة في القدس ، لكي يتمكن زعماء الجريمة من معرفة كل ما تعتزم الشرطة القيام به ضدهم . ولم يعرف ايضا المسؤول عن هذا العمل (٥٧) .

### علاقات الجريمة دوليا

تؤكد المصادر الاسرائيلية وجود علاقات وثيقة بين زعماء الجريمة المنظمة في اسرائيل وزعماء الاجرام في المانيا وانجلترا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا وغيرها ، حيث يتم تبادل « الخدمات » بين زعماء العصابات الدوليين والزعماء المحليين في اسرائيل ، وذلك بهدف استخدام الاموال المسروقة في صفقات قانونية . وتعتبر تجارة المجوهرات احدى القنوات النشيطة في هذا المجال ، اذ يتم تهريب المجوهرات المسروقة في الخارج الى اسرائيل حيث تباع بصورة مشروعة ، وتستثمر اموالها في مشاريع محلية . ويرأس هذا الفرع من الجريمة المنظمة ، تاجر مجوهرات يهودي ، هاجر قبل سنوات من اسرائيل ويقيم حاليا في لندن . وهناك ايضا قناة اخرى للجريمة المنظمة وذلك من خلال تهريب اموال الاجرام من اسرائيل الى الخارج ، ثم ادخالها ثانية بصورة قانونية بواسطة احد المستثمرين الذي يكون في الواقع مرتبطا بشبكة الالتزامات المتبادلة بين منظمات الجريمة الدولية والزعماء المحليين في اسرائيل (٥٨) .

ومن الواضح ان العلاقات مع المنظمات الاخرى في الخارج تمكن رجال الجريمة المنظمة من الحصول على تغطية قانونية بحجة التمويل الذي حصلت عليه بفضل علاقاتها مع الدول الاخرى ، اي ان هذه العلاقات تساعد رجال الجريمة المنظمة في اسرائيل على القول بان اموالهم تأتي من شركائهم في الخارج . والشيء نفسه يحدث لرجال الجريمة في الخارج ، عندما يوضحون ان اموالهم تأتي من شركائهم في اسرائيل . ومن الجدير بالذكر ان البعض من رؤساء الجريمة المنظمة في اسرائيل قد سافر مؤخرا الى ايطاليا للاجتماع سرا مع بعض رؤساء الجريمة في اوروبا للتخطيط وللتعاون في تنفيذ العمليات . فقد وصلت الى الشرطة الاسرائيلية معلومات حول اللقاء المرتقب ، فأرسلت رجالها الذين قاموا بتصوير كل تلك الاجتماعات (٥٩) . وتقيم أجهزة الجريمة المنظمة في اسرائيل علاقات وثيقة مع المافيا في البرازيل ، التي يتزعمها ايضا يهود ، والتي لجأ اليها يعقوب كوهين احد زعماء الجريمة الاسرائيليين ، اثر تورطه في صفقات مالية خاسرة في اسرائيل (٦٠) .

### الشرطة والجريمة

تم توجيه مختلف الانتقادات الى أجهزة الشرطة ، لانها تعاملت عن وجود

الجريمة المنظمة ، مما أدى الى تفاقمها وتنظيمها دون اي رادع ، بينما اكتفت الشرطة بالقول انه لا توجد جريمة منظمة في اسرائيل على غرار الولايات المتحدة - وهذا ما جعل العالم السفلي يستغل الوقت ويرص الصفوف \* وأشار البعض الى ان حبوب التهدة التي اعطيت للجمهور الاسرائيلي طيلة السنوات الماضية ، بان الجريمة لم تتغلغل في صفوف الادارة ولم تتمكن من افسادها ، قد أدى الى اضعاف اليقظة من اجل اتخاذ وسائل شاملة لمحاربة الظواهر التي اصبحت مألوفة \* ومما يؤكد تقصير الشرطة في عدم معالجتها لموضوع الجريمة ، وربما محاولة منها لتغطية على هذا الموضوع ، ما ورد في القسم السري من تقرير لجنة شيمرون الذي وجه انتقادا عنيفا لعدد من المفتشين العاملين السابقين للشرطة ، وخاصة بنحاس كوبل وشاؤول روزليو ، والى حد ما المفتش الحالي حاييم تابوري \* وقد تركز الاتهام على المفتش العام الثالث للشرطة بنحاس كوبل الذي تسلم قيادة الشرطة طيلة سبع سنوات ، فقد أشارت اللجنة الى « انه خلال فترة ولايته لبست الجريمة في البلاد المزايا الخاصة بالجريمة المنظمة بصيغة اسرائيلية » (٦١) \* كما نال المفتش العام التالي للشرطة الذي تسلم الولاية بعده ، شاؤول روزليو ، قسما « وافرا » من الانتقاد والمسؤولية اذ ان الشرطة خلال ولايته ، ما بين ١٩٧٢ - ١٩٧٦ ، « لم تعمل شيئا لمحاربة الجريمة » \* وقد توصلت اللجنة الى قرار ، « انه في حين كان عالم الجريمة يتطور بخطى جبارة ، حتى انه اصبح يضاهاى في أساليبه مراكز الجريمة المنظمة في انحاء العالم ، فان شرطة اسرائيل قد تجمدت ، وليس هذا فحسب ، بل حدث تراجع في نجاعتها وفعاليتها » (٦٢) \*

ومن جهة أخرى نال وزير الشرطة السابق شلومو هيلل ، نصيبا كبيرا من الانتقاد ، وحملته بعض الجهات مسؤولية الخوف من عدم اعلان الحقيقة للجمهور ، حيث انه كان يعرف وجود الجريمة وحجمها ، ولكنه « خاف من حدوث هلع بين الجمهور اذا وصفت بانها منظمة » (٦٣) \* وتؤكد بعض المصادر الى انه في اعقاب نشر تقرير لجنة شيمرون ، سيضطر عدد من كبار ضباط الشرطة الى الاستقالة \* ويتوقع ان يضطر ثمانية منهم على الاقل الى ترك الخدمة ، وذلك في اعقاب التحقيق في وجود علاقات بينهم وبين رجال الجريمة المنظمة \* كذلك يؤكد مصدر كبير في الشرطة ان تقرير شيمرون سيؤدي خلال الاشهر القادمة الى « هزة ارضية » ، قد تؤدي الى تغيير العديد من ضباط الشرطة \* وقد جاء ذلك في اعقاب القناعة بان رجال الجريمة لا يمكن ان يقوموا بعملياتهم ، بكل هذا النجاح ، دون مساعدة فعلية من قبل رجال الشرطة (٦٤) \*

## الحواشي :

- ١٩٧٧ .
- (١) دافار ، ١٢-٩-١٩٧٧ .
- (٢) معاريف ، ٢٥-٩-١٩٧٧ .
- (٣) يديعوت احرونوت ، ٢٤-٢-١٩٧٨ .
- (٤) تقرير لجنة شيمرون ، كما نشرته معاريف ، ٢٠-٢-١٩٧٨ .
- (٥) المصدر نفسه .
- (٦) المصدر نفسه .
- (٧) المصدر نفسه .
- (٨) المصدر نفسه .
- (٩) هارتس ، ٢٩-٦-١٩٧٧ .
- (١٠) دافار ، ٢٤-٨-١٩٧٧ .
- (١١) معاريف ، ٢٠-٢-١٩٧٨ .
- (١٢) المصدر نفسه .
- (١٣) هاتسوفيه ، ١٤-٢-١٩٧٥ .
- (١٤) معاريف ، ٢٠-٢-١٩٧٨ .
- (١٥) يديعوت احرونوت ، ٢٣-٢-١٩٧٥ .
- (١٦) يهوشواع سوبول في حوتام ، ٢٨-٢-١٩٧٥ .
- (١٧) المصدر نفسه .
- (١٨) المصدر نفسه .
- (١٩) بمحانيه ، ١٢-٢-١٩٧٥ .
- (٢٠) هاتسوفيه ، ١٤-٢-١٩٧٥ .
- (٢١) بمحانيه ، ١٢-٢-١٩٧٥ .
- (٢٢) دافار ، ٢١-٢-١٩٧٥ .
- (٢٣) ملحق يديعوت احرونوت ، ٢٩-٢-١٩٧٥ .
- (٢٤) هارتس ، ١٥-٤-١٩٧١ .
- (٢٥) افي فالنتين ، المصدر نفسه ، ١٦-٨-١٩٧٧ .
- (٢٦) المصدر نفسه ، ٢٢-٩-١٩٧٢ .
- (٢٧) المصدر نفسه ، ٢٩-٩-١٩٧٢ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ١٦-٨-١٩٧٧ .
- (٢٩) دافار ، ١٧-٣-١٩٧٨ .
- (٣٠) هارتس ، ٥-٨-١٩٧٧ .
- (٣١) معاريف ، ٢٠-٢-١٩٧٨ .
- (٣٢) يديعوت احرونوت ، ٥-٨-١٩٧٧ .
- (٣٣) المصدر نفسه .
- (٣٤) تقرير لجنة شيمرون ، معاريف ، ٢٠-٢-١٩٧٨ .
- (٣٥) يديعوت احرونوت ، ٢٤-٢-١٩٧٨ .
- (٣٦) معاريف ، ٢-٩-١٩٧٧ .
- (٣٧) يديعوت احرونوت ، ١٠-٨-١٩٧٧ .
- (٣٨) المصدر نفسه ، ٥-٨-١٩٧٧ .
- (٣٩) المصدر نفسه .
- (٤٠) هارتس ، ٢٩-٩-١٩٧٢ .
- (٤١) زئيف يافت ، المصدر نفسه ، ١١-٧-١٩٧٧ .
- (٤٢) المصدر نفسه ، ١٥-٧-١٩٧٧ .
- (٤٣) المصدر نفسه ، ٧-٦-١٩٧٧ .
- (٤٤) المصدر نفسه ، ٣٠-٦-١٩٧٧ .
- (٤٥) معاريف ، ٢٠-٢-١٩٧٨ .
- (٤٦) افي فالنتين ، هارتس ، ١٥-٧-١٩٧٧ .
- (٤٧) المصدر نفسه ، ٢٠-٤-١٩٧١ .
- (٤٨) المصدر نفسه .
- (٤٩) المصدر نفسه ، ١٢-٣-١٩٧٢ .
- (٥٠) المصدر نفسه ، ١٥-٧-١٩٧٧ .
- (٥١) المصدر نفسه .
- (٥٢) المصدر نفسه ، ٥-٨-١٩٧٧ .
- (٥٣) معاريف ، ١-٣-١٩٧٨ .
- (٥٤) يديعوت احرونوت ، ٥-٨-١٩٧٧ .
- (٥٥) هارتس ، ٥-٩-١٩٧٧ .
- (٥٦) المصدر نفسه ، ١٠-٨-١٩٧٧ .
- (٥٧) المصدر نفسه ، ١٥-٨-١٩٧٧ .
- (٥٨) المصدر نفسه ، ١٥-٧-١٩٧٧ .
- (٥٩) المصدر نفسه ، ٥-٣-١٩٧٨ .
- (٦٠) المصدر نفسه ، ٥-٨-١٩٧٧ .
- (٦١) هاعولام هازيه ، ٢٢-٢-١٩٧٨ .
- (٦٢) المصدر نفسه .
- (٦٣) المصدر نفسه .
- (٦٤) هارتس ، ١٥-٧-١٩٧٧ .

## التحديات والمجابهة في الوطن المحتل

كان احتلال عام ١٩٦٧ لمجموع الارض الفلسطينية مدخلا للحركة الصهيونية في بدء تنفيذ حملة استيطانية واسعة تشمل المناطق التي كانت مخصصة للدولة العربية في مشروع التقسيم ، والتي بقيت طوال العشرين عاما ما بين عامي ١٩٤٧ و١٩٦٧ شبه متروكة ومن دون استيطان، تحفظا لامكانية تحرير تلك المناطق، وذلك نتيجة للمناخ الايجابي الذي استطاع الرئيس الراحل عبد الناصر وبعض الانظمة العربية الاخرى التي استطاعت باستعدادها العسكري وتوجهها السياسي والذي كان من شأنه شل الارادة الصهيونية في تنفيذ مخططاتها الاستيطانية على ارض تحتلها فعلا . ولقد ازداد شعور المواطن الفلسطيني مرارة عندما اكتشف هذه الحقيقة بعد ان اتيح له زيارة بعض المدن والمناطق الفلسطينية بعد نكبة ١٩٦٧ ، التي ازلت مخاوف الكيان الصهيوني وتحسبها من نتائج الاستعدادات العسكرية العربية . فانطلق هذا الكيان من عقال هذا الخوف فامتدت مشاريعه الاستيطانية لتشمل مناطق ١٩٦٧ ومناطق ١٩٤٨ المخصصة للدولة العربية التي زالت امكانية تحقيقها بعد الهزيمة النكراء .

ولقد كانت مبادرة السادات ونهجه الاستسلامي ، وارتماؤه في احضان الامبريالية الاميركية مدخلا جديدا للحركة الصهيونية ، لتنفيذ مخططاتها التوسعية بشراهة لم يسبق لها مثيل منذ اعلان قيام الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي . اذ ان المبادرة والنهج قد تضمننا صك استسلام غير مشروط ولا مبرر له .

ولقد ادرك الاسرائيليون ، اكثر من غيرهم ، ابعاد هذه المبادرة وخلفيتها

عبد الجواد صالح : عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ومعناها ، فكانت لهم بمثابة فرصة العمر التي لم يكن احد من زعمائهم يحلم بها ، فقاموا باستغلالها في تصعيد تنفيذ مخططاتهم التوسعية وشن حملة ارهاب واسعة النطاق ، بقصد كسر عنقوان المقاومة الشعبية التي اتخذت اشكالا نضالية متعددة .

لقد مهد نهج اللهاث وراء الاوراق التسع والتسعين الاميركية وفك الارتباط بالقضية الوطنية والقومية ، ووضع الجيوش العربية تحت رحمة التسليح من معسكر الاعداء ، وزج المقاومة في حرب ، دفاعا عن وجودها ، لاكثر من سنتين ، لتنفيذ مشروع الضفة والقطاع تحت ستار مشروع توسيع الخدمات ، يضمن هذا المشروع نتائج سياسية واقتصادية لصالح كيان العدو ، وبعقبة من النتائج الامنية والديمقراطية التي تشكل تهديد له ، فبدأ بالفعل باستيفاء ضريبة القيمة الاضافية بعد نضال مرير من قبل كافة الجماهير الفلسطينية في الداخل . وقد استكمل بهذا المشروع بناء القاعدة الاساسية لاعتبار الضفة والقطاع جزءا من «ارض اسرائيل الكبرى» بدون زيادة مخاطر الاخلال بمبدأ الصفاء العبري للكيان الصهيوني .

ولتنفيذ مشروع الحل الاسرائيلي بشأن مستقبل الاراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ والذي لا يختلف عن المشروع الاميركي في جوهره ، قام الكيان الصهيوني بسلسلة من الاجراءات التشريعية والتنفيذية ، ضمن اجراءات قمع جماعية لجماهير الارض المحتلة ومن خلال سلسلة اجراءات ارهابية ضد المؤسسات القومية والوطنية ، بهدف وضع مشروع الادارة الذاتية والمدنية موضع التنفيذ . ومن اخطر الاجراءات الاشتراعية التي قامت سلطات الاحتلال بوضعها موضع التنفيذ قانون النقابات المهنية الذي جرد النقابات الطبية والهندسية والحقوقية وغيرها من صلاحياتها ، واصبح الحاكم العسكري الصهيوني لا يمتلك صلاحياتها فحسب ، وانما بمقدوره ايضا سحب ترخيص اي طبيب او مهندس او محام ومنح رخص العمل في هذه المهن . ويهدف هذا القانون الجديد الغاء القوانين المعمول بها في الارض المحتلة ووضع التشريعات البديلة ، بالاضافة الى استخدامها سيفا مسلطا على الشخصيات الوطنية التي تعمل في هذه المهن .

كما قامت سلطات الاحتلال بتغيير في الجهاز القضائي . واحداث محاكم اقليمية . وتعيين قضاة في المراكز المستحدثة على الرغم من رفض بعضهم قبولها حتى الان . ويمكن اعتبار هذه الخطوة مكملة للخطوات التي بدأتها سلطات الاحتلال بعد سلب القدس وضمتها كعاصمة لدولة الكيان العنصري . وتكون هذه الخطوة احدى الشروط الرئيسية لاستكمال شروط الادارة المدنية اذا ما اخذت بعين الاعتبار الدوائر الاقليمية التي اُنشئت منذ سنوات ، والتي تضم الخدمات الطبية والتربوية والتي ترأسها منذ تشكيلها بعض العملاء . وقد قدم الدكتور حنين عبيد مدير الخدمات الطبية للضفة استقالته من منصبه اثر تصفية بعض العملاء ثم عاد عنها بعد زيارة لعمان . ويشيع المذكور والمعروف بعلاقاته الوطيدة مع الحكم العسكري ان عمان قد اوصته بالبقاء في منصبه . وقد

صاحب هذه الاشتراعات الخطيرة اجراءات قمعية ذات طابع سياسي اخطرها منع رؤساء المجالس البلدية من عقد اية اجتماعات للتنسيق فيما بينها ، ومنع بعض المجالس البلدية حتى من السفر الى مدن فلسطينية اخرى ، الا بعد اخذ موافقة الحاكم العسكري للمنطقة .

وقد رافق ذلك حملة قمع جماعية ، وحملات تفتيش من بيت الى بيت كما حدث في نابلس ، واعتقال المئات من الرجال كما جرى في مخيم الامعري حيث افرز جميع الرجال وسيقوا الى مركز الحاكم العسكري حيث كانوا يصلبون تحت الشمس المحرقة ، كما قاموا بتنظيف الارض المحيطة بمقر الحاكم العسكري، وصاحب كل ذلك الشتم والضرب . وطالبوا الرجال الذين كانوا متواجدين في السوق التجاري لمدينة البيرة يوم ٢٢-٢٣ بخلع احذيتهم والوقوف برجل واحدة بينما قام الجنود بخلط الاحذية ونشرها في شوارع السوق . كما جابه الطلبة حقد جنود الاحتلال الذين كانوا يلقون الصفوف عليهم ، ويلقون القنابل المسيلة للدموع وقنابل من انواع اخرى تسبب الحك والحرقان بعد اغلاق المخارج والادراج ، مما دفع الطالبات والطلبة ، الى القفز من الطوابق العليا كما حدث في مدارس في بيت ساحور والبيرة .

وحتى يستكمل مخطط الضم وتسعير عمليات الاستيطان ونهب الاملاك الفلسطينية ، تقوم سلطات الاحتلال باقامة احصاء لكافة الاراضي الاميرية بهدف سلبها . ويمكن لهذه السلطات ان تعتبر كافة الاراضي غير المطوية اراض اميرية مع العلم ان كثيرا من المناطق في الضفة والقطاع غير مطوية لعدم قيام النظام الاردني في الضفة والنظام المصري في القطاع بانهاء عملية المسح، وتسجيل وتطويب الارض بأسماء اصحابها، مما يشكل خطرا حقيقيا يمس عروبة الارض الفلسطينية .

وقد لجأت سلطات الاحتلال في محاولة خطيرة الى التعرض لاملاك عشرات الالوف من المواطنين الفلسطينيين الذين يعيشون خارج الوطن العربي ، والذين لم تكن تعتبرهم غائبين لانهم يعيشون في بلاد غير معادية وخاصة اولئك الذين يعيشون في الامريكتين واوروبا ويحمل البعض منهم جنسيات تلك البلاد ، وذلك بالغاء قانونية الوكالات لادارة هذه الاملاك ، كمقدمة لاعتبارهم في عداد الغائبين بهدف الاستيلاء على املاكهم . لكنها ، عادت وتراجعت عن هذا القرار ، وقد يكون هذا التراجع مؤقتا بهدف امتصاص ردود الفعل القوية . ويجب ان لا يغيب عن اذهاننا موضوع املاك المواطنين الذين صدف تواجدهم في البلاد العربية اثناء وقوع عدوان عام ١٩٦٧ ، اذ ان سلطات الاحتلال تتصرف بهذه الاملاك حسب اهوائها ، ففي القدس الموسعة مثلا سلمت بيوت الغائبين الى ضباط من جيش الاحتلال باجر زهيد لا يتعدى الدينارين ، بينما اجرة المثيل تزيد عن خمسة وسبعين دينارا .

يشكل رفض الجماهير للحلول الاستسلامية عقبة في وجه تنفيذ كامل المخطط الصهيوني الامريكى . كما ترفض المجالس البلدية المشاركة باية تغطية شرعية لتمير حل الادارة الذاتية والمدنية بالاشترك في المجلس التأسيسي المقترح . كما ان الغالبية العظمى من اعضاء ورؤساء هذه المجالس البلدية واعضاء ورؤساء كافة النقابات العمالية والمهنية والجمعيات والنسواي والمؤسسات ، يعلنون عن ارتباطهم بالثورة الفلسطينية ، وان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد لكافة ابناء الشعب الفلسطيني .

لذلك بدأت سلطات الاحتلال تجس النبض في امكانية حل بعض المجالس البلدية بهدف تفكيك وحدة الموقف الفلسطيني في الداخل . وبدأت بمحاولة القيام بمثل هذه الممارسات في بعض المجالس البلدية الصغيرة . ففي قباطية التي قامت سلطات الاحتلال بحل مجلس بلديتها ، عقب افتعال مشاكل عائلية في البلدة بتاريخ ٢٤-٨-٧٧ ، لم تدع هذه السلطات الى انتخابات جديدة لتحل محل اللجنة التي عينها الحاكم العسكري من حفنة من العملاء حملة المسدسات . اما لجنة بلدية يريوان فقد استبدلت بلجنة اخرى عينها الحاكم العسكري مما يخالف القوانين المعمول بها . وتقوم حاليا سلطات الاحتلال ، بمحاكمة رئيس مجلس بلدية بيت جالا السيد بشارة داهود وبعض اعضاء المجلس البلدي ، بحجة الاعتداء على افراد الشرطة . كما حكم الدكتور عزمي الشعيبي عضو مجلس بلدية البيرة بالسجن لعدة اشهر مع وقف التنفيذ ، وتخريمه غرامة باهظة بنفس التهمة بالرغم من ان الشرطة هي التي اعتدت عليه بالضرب .

ان حل المجالس البلدية وتعيين لجان محلها هو الاختيار الوحيد امام سلطات الاحتلال ، في حالة شعورها بضرورة تنفيذ مخططها قبل انتهاء المدة القانونية لهذه المجالس وهو عام ١٩٨٠ . على انه من المتوقع ان تنتظر هذه السلطات ، وهي التي تحاول اعطاء مسحة ديمقراطية لاحتلالها حتى انتهاء مدد المجالس البلدية لتقوم بترتيب الانتخابات القادمة حسب ما تقتضيه مخططاتها . ان النهوض الثوري الجامع للجماهير شعبنا في داخل الوطن المحتل يشكل الدعامة الاساسية في منع سلطات الاحتلال من تنفيذ كافة مشاريعها ، بالسرعة التي تتطلبها مصالحها ، وبشكل يسبب ردود فعل عنيفة من قبل جماهيرنا .

وفي المقابل ، يتصاعد النضال الجماهيري ، وتأثيره في الرأي العام العالمي . فقد زالت نهائيا ، عوامل الخوف والرهبنة . كما تطورت النضالات الجماهيرية ، وتصاعدت بازدياد وسائل القمع والاضطهاد . بالاضافة الى العوامل الايجابية التي تتركها بصمات انتصارات الثورة الفلسطينية في الخارج ، فلقد الهب انتصار الثورة ومنظمة التحرير الفلسطينية في حرب الجنوب مشاعر المواطنين في الداخل . ففي نابلس على الرغم من فرض منع التجول ، والتفتيش من بيت الى بيت ، والاعتقالات الجماعية ، فان عمليات

ضرب دوريات جيش العدو لم تتوقف يوماً واحداً ، وقد كان المناضلون يتحدون فرض منع التجول بشكل جعل جيش الاحتلال يشعر بعجزه عن وضع حد لهذا النهوض الثوري واستمرارية الكفاح الباسل ل جماهيرنا . وقد أدى ذلك الى اقالة الحاكم العسكري العام بحجة ممارساته اللاانسانية ضد المتظاهرين من الطلبة والطالبات ، اما السبب الحقيقي لاقالته ، فيعود الى فشله في قمع الانتفاضات وازدياد العمل المسلح .

والاهم من كل ذلك هو ازدياد العمليات العسكرية في فلسطين بأسرها ، والتي تشعر المستوطن الصهيوني ان الاحتلال ليس مجرد عملية مكلفة للارواح والممتلكات ، بل ان كل مفاهيم الامن الاسرائيلي واجراءاته تصيب عديمة الجدوى والفائدة امام حرمان الشعب الفلسطيني من ابسط الحقوق التي نص عليها ميثاق حقوق الانسان .

ان المؤامرة السياسية والعسكرية تديرها قوى المحور الجديد مجتمعة : الامبريالية الامريكية وادواتها في المنطقة بدءاً من الكيان الصهيوني وانتهاء بالقوى الانعزالية ، لا تدع مجالاً للشك في اننا نخوض معركة مصيرية بهدف الحفاظ على ثورتنا وقضيتنا ، ووجودنا في داخل الوطن المحتل وخارجيه . ان بقاء البندقية واستمرارية الثورة الفلسطينية في الخارج تشكل دعامة اساسية في استمرار نضال شعبنا وثورته في الداخل . ويجب التأكيد الدائم على ان الحفاظ على قواعد الثورة في الداخل وتطويرها ورفدها بعناصر القوة والاستمرارية ، هي الضمانة الاساسية من اجل استمرارية الثورة . اننا في زمن الانحطاط الاسود هذا والمس بالحرمان والتفريط بالقضايا الوطنية والقومية ، مطالبون كثورة فلسطينية ، بالحفاظ على الامانة . وهذا يفترض الارتفاع الى مستوى التحديات والتصدي لها وتحمل هذه المسؤولية التاريخية .

١ - ان الثورة الفلسطينية ، على الرغم من تواجدها في المنفى ، هي الدعامة الاساسية للداخل ، وبالتالي فان الحفاظ على بندقيتها هو الضمانة الوحيدة من اجل استمرار التفاف جماهير شعبنا عامة وفي الداخل بشكل خاص ، وعدم تمكين الاحتلال الصهيوني من فرض مخططاته التصفوية ، ويتطلب ذلك تنظيم وتطوير مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية لتستطيع ان تقوم بمهامها .

٢ - ان وضوح الخط السياسي للثورة الفلسطينية ، وبرامجها المرحلية والاستراتيجية ، بدهية لا يمكن تجاهل فعاليتها في تحقيق الانتصارات عن طريق تعبئة جماهير الشعب حول خط سياسي واضح .

٣ - ان الجبهة الوطنية الفلسطينية في الداخل ، على الرغم من الضربات القاسية التي وجهت اليها ، استطاعت ان تحقق انجازات وطنية على رأسها وجود المجالس البلدية الحالية ، التي لولاها لاصبح الطريق شبه مفتوح امام



تنفيذ المشاريع التصفية . \* ان تطوير الجبهة الوطنية لتضم جميع القوى والفصائل المتواجدة في الداخل ، من اجل قيادة النضال اليومي للجماهير باعتبارها ذراع منظمة التحرير الفلسطينية ، ليس مجرد امنية او مسؤولية تاريخية على قيادة المنظمة تنفيذها ، بل ان العمل على الإخذ بيد الجبهة الوطنية وتطويرها هو مقياس جدية ووطنية أي قيادي في منظمة التحرير ومدى اخلاصه لهذه الثورة . \* ان وجود ذراع سياسي منظم للثورة الفلسطينية في داخل الوطن المحتل ، يعمل على التنسيق الدائم بين الداخل والخارج ، هو الضمانة الاساسية في استمرارية الكفاح المسلح وضمان دحر الاحتلال وابعاد شبح ايجاد القيادة البديلة . \*

٤ - ان طبيعة الكيان الصهيوني الاستيطاني ، وما يخطه لشعبنا ، يفرض علينا مهمات اضافية ، تختلف عن الوسائل التقليدية في مقاومة الاستعمار ، التي اتبعتها شعوب شقيقة او صديقة . \* ان دعم مؤسسات شعبنا في الداخل وتطوير فعالياته الاقتصادية من شأنها ان تساعد عكسيا على تدمير مؤسسات العدو وشل اقتصاده . \* ان ايجاد فرص العمل لآلاف العمال العرب المجبرين على العمل في مختلف القطاعات الانتاجية للكيان الصهيوني ، سيجبر الاحتلال على سحب جزء من جنوده للعمل لتغطية النقص العمالي الذي يحصل من جراء ذلك . \* فقد حدث ذلك اثر حرب تشرين عندما امتنع العمال العرب طوعا عن العمل في المؤسسات الصهيونية مما ادى الى نفق الاقبال لعدم وجود من يحلها ، وخراب التمر على امه لعدم وجود من يقطفه ، وتوقفت بعض الاب المصانع لعدم وجود من يديرها . \* ولو وجد من يخصص ثمن بضع طائرات لتشغيل العمال العرب ، لضمان عدم لجوئهم الاجباري للعمل لدى مؤسسات الكيان الصهيوني ، لانزلت في هذا الكيان خسائر لا تقل عن تلك التي انزلتها الحرب . \* اما في حالات الركود الاقتصادي ، كما هي الحال في ايامنا هذه ، فان ايجاد فرص العمل لهؤلاء العمال العرب سيضمن صمودهم في الارض ومنعهم من الهجرة . \* ان من يطالع الفرق بين ميزان المدفوعات التجاري بين الضفة والكيان الصهيوني ، والذي يبلغ خمسمائة مليون ليرة اسرائيلية لصالح كيان العدو في عام ٧٦ - ٧٧ ، يستطيع ان يدرك أهمية بناء مؤسسات انتاجية عربية تمكن المواطن العربي من الاستغناء عن شراء حاجياته ومستلزماته من السوق الاسرائيلية . \* ان بعض الصناعات العربية التي انشئت في الوطن المحتل ، كانت قادرة على تغطية السوق العربية ، كما في صناعة الادوية ، والتي ادت الى منافسة الصناعات الاسرائيلية . \* ولو قدر لهذه الصناعة شيء من الدعم لاستطاعت ضرب تصدير مثيلتها لدى العدو في الاسواق الخارجية . \*

٥ - ان التوجه الطبيعي للنضال والكفاح بين جماهير شعبنا ، يجب ان يستمر الى ابعد الحدود . \* ويجب البحث عن اجدى السبل للوصول الى هذه الجماهير،

ولا بد من القيام بمحاولات بين الحين والآخر من اجل غرس كوادر في الداخل، لتمكين هذه الجماهير الباسلة التي تتحدى الديبابة بالحجارة وقنابل المولوتوف من استبدالها بقنبلة الميلز والرشاش .

ان على كافة فصائل المقاومة ان تنظر الى الكادر ، الذي ربط مصيره بالثورة وانضوى تحت لوائها ، بمنتهى التثمين والتقدير ، وبالتالي فان ذلك يفرض على هذه الفصائل التنسيق فيما بينها للاستفادة من تجاربها ونكسات بعض عناصرها ووقوعهم في يد عدو لا يرحم . ولتكن هناك عمليات تقييم مشتركة او منفردة لكل النشاطات التنظيمية وغيرها ، لضمان استمرارية حربنا الطويلة الامد مع الكيان الصهيوني .

### تراث الجماهير النضالي

هناك تراث نضالي كبير ، ولد وسط المبادرات الشعبية في مقاومة الاحتلال . وعلينا دراسة هذا النضال وتطويره وتعميقه بكافة الوسائل . فلقد جابهت دير ابو مشعل في ربيع عام ١٩٧٧ هجمة من نوع جديد . اذ بدأ مجهولون اقتحام بيوت القرية بعد منتصف الليل ، يحطمون زجاجها وابوابها ويطلبون من أهلها الخروج واللجوء الى بلاد العرب الواسعة . ويعد تكرار العملية ذهب مخاتير القرية الى رئيس بلدية البيرة ، يطلبون منها مساعدتهم لدى الحاكم العسكري من اجل ايقاف هذه العمليات التي لا بد ان تكون من صنعته وتخطيطه . فأخذ لهم رئيس البلدية موعدا مع الحاكم العسكري للمنطقة . وقد اجاب الحاكم العسكري بأن « هؤلاء » لا بد وان يكونوا من « المخربين » . عاد المخاتير الى رئيس بلدية البيرة وهم اكثر قلقا . فاستنفر رئيس بلدية البيرة زملاءه رؤساء بلديات المنطقة ، فجاء كل من رئيس بلدية رام الله ، وبني زيد وبتونيا ، وسلوان وبيرزيت ، وبحثوا في الامر ، وقرروا الذهاب الى القرية والنوم فيها عدة ايام ، مع حشد اكبر عدد من الشباب بالاضافة الى دعوة رؤساء المجانس البلدية من مختلف المناطق . فتوجهوا الى القرية ، واذ بالدوريات الصهيونية تعترض طريقهم وتمنعهم من الدخول الى القرية بأمر من الحاكم العسكري . عاد رؤساء البلديات الى رام الله ، حيث اتصل بهم الحاكم العسكري ، وكرر اوامره بعدم الذهاب وتقبل دعوة المختار للعشاء كما بينوا له . ولكنهم قرروا العودة مرة اخرى ولكن عن طريق التسلسل عبر طريق وعرة بين الجبال . وفي اثناء سيرهم ادركوا اهمية هذه القرية التي تحتل اعلى قمة بين قمم الجبال المحيطة بالقدس . وتحيطها اشجار الزيتون القديمة حيث المصدر الاساسي للزيتون .

وكان قد جاء الى القرية حوالي الف شاب من مختلف انحاء الضفة

الغربية • لقد تحولوا الى جيش شعبي سلاحه الحجارة والهرارات • وعلى الرغم من برد الربيع القارس فقد كان دفع النضال يعمر القلوب • وزعوا انفسهم على حزامين ، خط اول وخط ثان ، زنرت بهم القرية ، اعتلت النسوة والاطفال اسطح البيوت المغطاة بالتراب والتي بدأ العشب الاخضر يكسوها • احتل رؤساء المجالس البلدية ميدان القرية الصغير ، وبدأ الجميع يراقب ويتربص •

فجأة اطلت قافلة من السيارات ، تقدر بحوالي عشر سيارات • وعندما اقتربت على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات ، اطلقت الانوار وتوقف هدير محركاتها •

وقع الغزاة في الكمين الذي نصبه الشباب ، وعندما احكموا عليهم الطوق ، وبإشارة من احدهم بدأ الشباب بضرب حجارة الصوانة التي كانوا يحملونها بين اكفهم في بعضها البعض ، لتبعث صوتا كأنه زخات رصاص الرشاشات ، وكان الصوت يزداد بازدياد حدة الضرب كلما ضيق الشباب دائرة الطوق • بدأ الغزاة في اطلاق الرصاص في الهواء للارهاب ثم التحم الغزاة مع الشباب الذين حولوا الجبل الى عاصفة في وجه الغزاة ، حجارته تتكلم واغصان الاشجار تضرب بعنف ، والرياح تعصف بغضب • لقد تحول الجبل الى ثورة • وتبين ان قائد حرس الحدود الاسرائيلي في المنطقة هو نفسه قائد حملة الارهاب • ولم يعد الغزاة حتى اليوم الى دير ابو مشعل ، واحتفظ رؤساء البلديات بغنائم المعركة ، فالبعض ما زال يحتفظ بخوذة جندي ، واخر بمخزن رشاش •

هذه التجربة التي نقلت باختصار ، لا بد من دراستها وتعميقها ونشرها كأحد الاساليب التي يمكن لجماهيرنا استخدامها ، كبريد للكفاح المسلح ، فان عملية الحشد الجماهيري التي تمت وعلى رأسها رؤساء المجالس البلدية ومؤسسات وطنية اخرى ، لها بالاضافة الى معناها العظيم ، نتائج ترعب سلطات الاحتلال •

٦ - لقد كان من نتائج اثبات الثورة لوجودها امام مؤامرات التصفية المتتالية والانجازات التي حققتها في مختلف الميادين والاصعدة ، ونضالات شعبنا في الضفة والقطاع وانتفاضاته المتكررة ، ان تحققت الوحدة النضالية بين جماهير شعبنا التي تعيش القهر والاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٤٨ وبقية جماهير شعبنا حيثما كان • وقد وصلت هذه الوحدة الذروة بمناسبة يوم الارض • وبدأت قطاعات واسعة من جماهير الشعب الفلسطيني في مناطق ١٩٤٨ تعلن ارتباطها بالثورة الفلسطينية وتصرح ان منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثلة لها • ان هذا التطور والتعبير عنه هو أمر بالغ الاهمية والخطورة •

يتطلب هذا التطور تجاوبا سريعا وجهدا موازيا من كافة اجهزة الثورة وعلى رأسها منظمة التحرير الفلسطينية ، بتصعيد وتنظيم نضالات شعبنا في الداخل والاهتمام بالمؤسسات العربية وخاصة المجالس البلدية ودعم صمودها ماديا ،

مع مراعاة ظروفها الدقيقة ، اذ لا يمكن للكيان الصهيوني ان يتساهل بحصول اي نوع من الاتصال معها . ولكنه يجب عدم الفصل بين مناطق ١٩٤٨ وبين الضفة والقطاع بالنسبة لكل نشاطات واهتمامات الثورة .

وهذا يستدعي التنسيق والنضال المشترك مع الحزب الشيوعي « الاسرائيلي » ( راكاح ) الذي يعتبره الصهاينة حزب القومية العربية . بالرغم من ان المجلس الوطني الاخير قد قرر اجراء الحوار مع القوى الديمقراطية اليهودية المناهضة للكيان الصهيوني ، والحزب الشيوعي على رأسها ، فان البعض يستنكر اجراء مثل هذا الحوار على اساس انه يفتح المجال امام حوار مع قوى صهيونية ، او باعتباره مقدمة لاجراء مفاوضات مع الكيان الصهيوني نفسه . ان حزب راكاح يشكل طليعة النضال العربي والقوى الديمقراطية اليهودية فسي « المجتمع » الصهيوني . ان راكاح كان في طليعة ، ان لم يكن المسؤول الرئيسي ، توحيد الاقلية العربية وكافة قواها الوطنية والتقدمية وراء يوم الارض ، والتصدي لكافة مشاريع التهويد والصهينة ، بما فيها التلاعب بمصير اراضي الوقف الاسلامية وضد القمع والارهاب الصهيوني في مناطق ١٩٤٨ ومدن وقرى الضفة والقطاع . ان ادبيات ادباء هذا الحزب لا تدع مجالاً للشك في ارتباطهم بالثورة والكفاح المسلح بغض النظر عن بعض المواقف التي يجبرون عليها نتيجة كونهم حزبا معترفا به . ولكننا يجب ان لا نغفل حقيقة وجهة نظره حول الحركة الصهيونية واعتبارها نموذجا جديدا للنازية والعنصرية ، آخذا على عاتقه تقويضها من الداخل . ان وضع هذا الحزب كوضع الحزب الشيوعي الامريكي الذي يدين المجتمع الرأسمالي الامريكي ويندد بسياسته الامبريالية ويأخذ على عاتقه تقويض وتغيير النظام الامريكي . ان احدا لا يمكن ان يعتبر هذا الحزب ، لانه معترف به من قبل النظام الامريكي ، جزءا من الامبريالية الامريكية .

٧ - ان احد اهداف سلطات الاحتلال الاساسية تحويل شعبنا الى اقلية قومية من العمال غير المهرة تعمل في خدمة بناء الكيان الصهيوني ، وخاصة في المجالات التي يستنكف العامل العبري العمل فيها . ولذلك فان الاهتمام يجب ان يوجه لمعالجة التربية والتعليم في كل مراحلها وخاصة في مرحلته الجامعية . ان شعبنا في الداخل يجابه سنويا مشكلة حوالي خمسة عشر الف خريج ثانوي يحاول معظمهم الالتحاق بالجامعات ، ولكن معظمهم يصاب بخيبة امل بعد ان يجبر على ترك بلده مدة لا تقل عن ستة اشهر يفرضها عليه الحكم العسكري ، بتكبد مصاريف باهظة وهو يبحث عن مقعد جامعي من بلد الى اخر وينتهي به المطاف راجعا بخفي حنين .

ان هذه القضية في منتهى الخطورة ، ويجب معالجتها بتوسيع ودعم

الجامعات في الداخل ، ويجاد البعثات وامكانيات القبول في الجامعات العربية والاجنبية .

٩ - لقد فشلت سلطات الاحتلال ، بالرغم من مرور اكثر من عشرة اعوام على احتلالها للمضفة والقطاع ، في ان تجد مجموعة من الشخصيات التي لها وزن سياسي كي تعمل في خدمتها ، كما نجحت المانية النازية مثسلا اثناء احتلالها لدول اوروبية عريقة . ولكن هذا لا يخفي وجود قلة رهنت نفسها لخدمة الغزاة . وعلى الثورة ان تستخدم كافة وسائل ردعها .

١٠ - ان عملية بناء الشعوب ومؤسساتها لم تعد قائمة على اسس عشوائية ، تمليها بعض الامزجة او ردود الفعل ، وانما على اسس من الدراسة والبحث والتخطيط . وعملية بناء شعبنا ليس استثناء . فشعبنا يجابه كيانا تدعمه الامبريالية باحدث اجهزتها التقنية والالكترونية والخبراء في دراسة وتخطيط ليس مستقبل الكيان الصهيوني فحسب ، وانما مستقبل شعبنا لضمان صياغته بشكل يخدم اهدافهم ومصالحهم . ولذلك فانه يفترض ان نبحث وندرس ونخطط لشعبنا بكافة الوسائل المتاحة ، او خلق وتكوين وسائل جديدة للتخطيط في كافة المجالات ، ودراسة كافة الظواهر والسياسات التي يتبعها العدو لوضع مخطط مضاد الهدف منه صياغة مستقبلنا بأنفسنا . ان لدى شعبنا من الطاقات والامكانيات والخبرات التي تشجع على ممارسة هذا النمط من العمل السدي سيحقق نتائج لا يمكن لأحد ان يتصور ابعادها ، الا اذا نفذ مثل هذا النهج العلمي .

تلك بعض ملامح وابعاد التحديات التي تجابه الثورة الفلسطينية في داخل الوطن المحتل ، والتي تهدف الى تصفية القضية الفلسطينية ومسحها عن خارطة العمل السياسي . ولقد وضعت بعض المؤشرات للمجابهة والتصدي والتي يجب ان تخضع لمزيد من البحث والدراسة من قبل كافة اجهزة الثورة العاملة في هذا القطاع ، الذي لم تبذل فيه كل الجهود والاهتمامات المطلوبة بالرغم من خطورته على مستقبل مسيرة القضية وثورتها . على ان وعي جماهيرنا ، وقدرتها على البذل والعطاء ضمن اجواء المناخ النضالي ، وغياب الخوف من مجابهة العدو الذي تعيشه هذه الجماهير ، تشكل قاعدة للتفاؤل في استتالة قهر شعبنا ، وتصفية قضيته ، بل تمنحنا الثقة بحتمية انتصار الشعوب .

## هشام شرابي

## ذكريات فلسطينية عكا: جمر ورماد

خص الدكتور هشام شرابي « شؤون فلسطينية » بهذا  
الفصل من كتابه « الجمر والرماد : ذكريات مثقف عربي »  
الذي سيصدر قريبا عن دار الطليعة في بيروت .

( ١ )

كنت في كل صيف ، منذ ان الحقني ابي في السابعة من عمري طالبا داخليا  
بمدرسة الفرندز برام الله حتى تخرجي من الجامعة الاميركية وسفري الى  
الولايات المتحدة في سنة ١٩٤٧ ، أمضي عطاتي الصيفية ، او الجزء الاكبر  
منها ، في عكا عند بيت جدي .

عكا بالنسبة الي كانت ( ولا تزال ) اجمل مدينة في العالم .

فيها أمضيت القسم الاكبر من طفولتي واجمل ايام صباي .

تقع عكا في الرأس الشمالي من خليج حيفا . اسمها تعريب الاسم الفرنسي  
St. Jean d'Acre المستعمل منذ أن احتلها الصليبيون في القرن الحادي عشر .  
ولا يزال اثر الصليبيين واضحا في المدينة القديمة ، وخاصة في السور المنيع  
الذي يحيط بها . والى الان تبدو عكا من البحر او من البر ( من جهة تل  
نابليون ، الهضبة الاصطناعية التي بناها نابليون سنة ١٧٩٩ لقتفها بالمدفعية ) ،  
وكأنها مدينة صليبية نسيها الزمن ، وما زال السور حولها قائما على حاله ولم  
يتغير فيه شيء . وقد شجع العثمانيون بناء المنازل خارج السور لتوسيع

البلدة ، فأقاموا « جنينة البلدية » في مطلع القرن ، وهي حديقة كبيرة على طراز الحدائق العامة الأوروبية ، في وسطها مقصف لفرقة الموسيقى التي كانت تعزف كل يوم جمعة بعد الظهر الاناشيد والمارشات العسكرية . وبنى العثمانيون محطة السكة الحديدية مقابل جنينة البلدية بمحاذاة الشاطئ خارج البوابة الشرقية . وكثيرا ما ركبنا القطار العثماني الصغير في رحلاتنا الى جيفا التي كانت تستغرق خمسا وأربعين دقيقة . والى جنوب المحطة يقع الشاطئ الرملي حيث كنا نسبح ايام الجمعة والاحد . لقد زرت انحاء مختلفة من العالم . وشاهدت شواطئ رملية عديدة ، الا اني لم ارى شاطئاً يضاهي شاطئ عكا بجماله ورونقه . الرمل فيه أبيض ناصع ومياه خليجه نقية زرقاء واماواجه هادئة عريضة تتكسر برفق ونعومة . وكان الشاطئ دائما خلوا من الناس ، فاهل عكا لا يحبون السباحة ، ويفضلون تمضية فترة الراحة في الجلوس على الشرفات او في المقاهي او في التمشي ساعة الغروب . وهكذا ترك لنا الشاطئ نستمتع به كما نشاء ، لا يشاركنا به الا عدد ضئيل من الزائرين يأتون من حيفا ، وجنود المعسكر البريطاني بالقرب من المدينة الذين كانوا يسبحون ساعة واحدة بعد ظهر كل يوم .

وكان في المدينة داران للسينما ، احدهما تقع في البلدة القديمة وهي سينما البرج ، والاخرى في المدينة الجديدة وهي سينما الاهلي . كانت سينما البرج مجرد قاعة كبيرة بنيت فوق السور المطل على الخليج بالقرب من بوابة السور الشرقية . كنا نشاهد فيها الافلام الاميركية لرعاة البقر ( كاوبوي ) او البوليسية فنخرج من عالم الخيال الاميركي لنجد انفسنا فجأة في القسرون الراسطي تحيط بنا الاسوار والتحصينات الصليبية والاسلامية . كنا نسمع وقع اقدامنا في الازقة القديمة الخالية من المارة عندما نرجع الى بيوتنا فنصل اليها في منتصف الليل والجميع نيام .

كانت حجرتي تطل على البحر مباشرة ، وكان فراشي يقع بالقرب من النافذة ، فكنت اغفو واستيقظ على هدير الامواج . في الصباح كنت اتبين من صوت وقع الامواج على الشاطئ الصخري ما اذا كان البحر هائجا او هادئا ، يصلح لصيد الاسماك او للسباحة .

كنا نصطاد الاسماك في عطلة نهاية الاسبوع ، فكان رفيقاي في الصيد ، كامل واکرم ، لا يعودان من عملهما الا بعد الظهر عندما لا ينفع الصيد . وفي عطلتهم الاسبوعية كنا نستيقظ باكرا ونهرع الى الشاطئ فنستمر في الصيد حتى مطلع الشمس ، ثم نتناول الفطور ، ونذهب الى الشاطئ الرملي بالقرب من المحطة للسباحة ونركب الحسكة حتى اخر النهار . وكان كامل ، اذا كان الطقس خلال الاسبوع مناسباً لصيد الاسماك ، يتغيب عن عمله بحجة المرض ، ونمضي

ساعات في الصيد تنتقل من مكان الى اخر حتى الظهيرة • تلك كانت اسعد ايام حياتي بلا منازع • كنا احيانا نتصيد سمكا كثيرا من نوع القراص او البوري وأحيانا لا نصطاد شيئا • وكنا اذا وفقنا في الصيد نتمتع في المساء بعشاء فخم من السمك المقلي مع سلطة الطحينة والبقدونس والخبز المقلي والحمص والبابا غنوج تعده ام كامل وتتناوله فوق سطح بيتهم • وبعد العشاء كنا نذهب الى السينما او نجلس في مقهى حبيبو ، نشرب الكازوز ونلعب طاولة الزهر وتبادل النكت ونراقب الفتيات يتمشين متشابكات الاذرع يتضحكن ويسترقن النظر بعنج •

كانت جدتي - رحمها الله - تحبني كثيرا • فهي لم تنجب صديانا ، وكنت بعد جدي - رحمه الله - الرجل الوحيد في حياتها • كان يساورها القلق عندما تراني اعزل نفسي كل يوم لاقرا وكتب ساعات متواصلة ، فقد كان ذلك في نظرها شيئا غير طبيعي • وكان يقلقها على الاخص جلوسي في الشرفة منفردا انظر الى البحر مفكرا لا ابدى حراكا • وكانت تأتي الي في الشرفة وتسالني بحنو :

- ليش قاعد هيك لوحدهك يا حبيبي • رأسك بيوجعك • حاسس بسخونة •

كان علاجها الوحيد لكل الامراض - النفسي منها والجسدي - هو البابونج ، وكانت تفرضه على كل افراد العائلة ، وخصوصا علي وعلى جدي • والبابونج عشب بري يغلى بالماء ويصبح لونه كلون الشاي الا انه شديد المرارة • وكان نصيبي منه في اليوم على الاقل ثلاثة او اربعة فناجين ، اتناولها غصبا عنسي نزولا عند الحاح جدتي • وكانت جدتي تنتظر قدومي ، فاذا رأنتني نازلا من السطح او عائدا الى البيت ، تسكب فناجانا من البابونج وتجابهني به قائلة :

- اشرب هالفنجان يا حبيبي ، اشرب شراب العافية •

- لكني مش مريض يا تيتا •• لا بطني بيوجعني ولا رأسي ما له شي ••

- اشرب فنجان كرمال ستك •• نص فنجان ••

وعندما اقول لها ان كثرة البابونج تسبب لي امساكا في المعدة ، تجيب دون تردد :

- شو هالحكي • مين عمره قال انه البابونج بيعمل امساك ! بالعكس ، البابونج يمشي المعدة ويحمي من كل الامراض •

وعندما اشكو من جريان المعدة ، كانت تأتيني بالبابونج معلنة :

- ما في مثل البابونج بيوقف المعدة !



وبالإضافة الى الحماية الطبية الشاملة التي كانت توفرها لي بواسطة الجابونج ، كانت جدتي تسبغ علي حماية روحية قوية بواسطة الصلاة والدعاء المستمرين . كانت تعتقد اعتقادا راسخا بأني مدين بحياتي ، لدعاءاتها وصلواتها ، واني لم اكن لانجو من مخاطر العالم الخارجي - الذي لم تكن تعرفه الا من نافذة بيتها او من « الزيارات » القليلة التي كانت تقوم بها الى بيوت العائلات التي هي ، بنظرها ، في منزلتها الاجتماعية - الا بفضلها . وكان يؤلها تقاعسي في القيام بالفرائض الدينية ، فكانت تحاول التعويض عن ذلك بمضاعفة عباداتها من أجلي . وحاولت مرة ، عندما كنت في العاشرة او الحادية عشرة ، اصلاح اموري الدينية بالاسلوب المباشر ( كانت تلك المحاولة الاولى والاخيرة ! ) . فأرسلتني الى الشيخ في الجامع الصغير المجاور لبيتنا لاتعلم اصول الدين . ولسبب لا اعرفه حتى اليوم ، جعل الشيخ موعد درسنا عند الفجر من كل يوم . فكنت استيقظ كل يوم في الساعة - اراحك الله - الرابعة او ما يقارب ، وظلام الليل ما يزال مخيما ، فارتدي ثيابي بسرعة واركض الى الجامع فأجد الشيخ ينتظرنني وهو يسوك اسنانه . فيجعلني اقرأ في كتاب - نسيت عنوانه - يتناول العبادات والفرائض مثل الوضوء والصلاة والنصيام ، وعندما انتهي من قراءة الدرس يأخذ في تفسير ما قرأت .

لم تدم دراستي الدينية طويلا . وكان سبب انقطاعها رفضي التيمم . ( وهو الوضوء بالتراب بدلا عن الماء ) . فقد وصلنا فجر أحد الايام الى موضوع التيمم ، وكنت لا اعرف ما هو التيمم ولم اسمع به قط ، فأخذ الشيخ يشرح لي الظروف التي يصح فيها اللجوء اليه بدل الوضوء بالماء .

- هذا الرسم يبين الظرف الذي ينبغي علينا الا نعرض فيه انفسنا للمهلكة .  
فيه يصح التيمم .

يقول ذلك وهو يدل باصبعه على رسم في الكتاب يمثل اسدا اشعث الرأس يقف غاضبا امام بركة ماء في الصحراء .

- هذا الرسم يبين الطريقة الصحيحة للتيمم .

ويشير الى رسم آخر يمثل رجلا يعفر وجهه بغبار يضاوي عاصفة رملية صغيرة ، ويقف بعيدا عن الاسد وبركة الماء . وامضينا بقية الدرس في معالجة التيمم والظروف التي يسمح فيها باستعماله . وهكذا اذا كنت مسافرا في الصحراء وحان موعد الصلاة ووجدت ان اسدا اشعث الرأس يقف بينك وبين ماء الوضوء ، تعلم ما يجب عمله . . . لم تلح علي جدتي بالعودة الى الشيخ بعد أن اخبرتها عن الاسد والغبار والظروف التي تسمح او لا تسمح بالتيمم ، وخافت ، ان استمر الشيخ في تلقيني ، ان افقد ما تبقى في نفسي من ايمان .

كانت جدتي نحيلة الجسم ، ذات بشرة بيضاء وشعر يميل الى اللون الاحمر وعينين بلون بني فاتح . ولا شك انها كانت في غاية الجمال في صباها . كانت شخصيتها قوية وكان جدي لا يعارضها بشيء ويرضخ لاوامرها ، بالرغم من معاندته لها احيانا في موضوع التدخين والقهوة - فقد كانت تسمح له بتدخين نصف سيجارة وارتشاف نصف فنجان قهوة باوقات معينة وحسب برنامج يومي دقيق . وكان يحاول دائما الفوز بامتيازات اكبر ، كتدخين سيجارة بكاملها او شرب فنجان قهوة بكامله . كانت حياتهما هادئة سعيدة ، خصوصا بعد انتقالهما الى بيتهما الجديد .

كانت جدتي دائما تحلم بامتلاك بيت خاص بها . وتحقق حلمها في منتصف الثلاثينات بعد ان وفرت من المال ما يكفي لبناء بيت كبير ، عهدت ببناؤه الى مهندس ناشيء اسمه اميل بستاني - الذي اصبح بعد الحرب العالمية الثانية اكبر مقاولي البناء في العالم العربي . وبني البيت على احدث طراز ، بالرغم من ان الحمام لم يكن يشغل على ما يرام .

كان نزوح جدي وجدتي عن بيتهما في سنة ١٩٤٨ اقسى تجربة مرت بهما في حياتهما ، وكانت السنوات الاخيرة من حياتهما ملأى بالحزن والياس والضياع . فقدت جدتي مرحها وحيويتها وفقد جدي رشده ، ولم يعد يتعرف الى الذين حوله . في بيروت اقاما مع خالاتي ووالدتي واخي الاصغر في بيت مؤلف من حجرتين تملكه سيدة تقرب جدتي قرابة بعيدة .

توفي جدي في سنة ١٩٥٠ . قبل وفاته كان يحاول بين آن واخر التسلل من البيت في غفلة عن اهله ليرجع الى عكا . وكان عندما يمسكون به في الشارع يقول :

- انا بس راجع لبيتي .. انا بيتي في عكا .. ليش ما بتخلوني ارجع لبيتي ؟ ويأخذ مفتاحا من جيبه ويقول :

- ما بتصدقوني .. هذا مفتاح بيتي ..

وعندما يعودون به الى البيت يجلس صامتا والدموع تسيل من عينيه وتبلل لحيته التي لم تعد جدتي تقصها له كما كانت تفعل في عكا ، ويرفض الكلام .  
زمننا طويلا .

وتوفيت جدتي بعده بثمانى سنوات .

( ٢ )

قبل سفري الى الولايات المتحدة ببضعة ايام توقفت في عكا لاودع بيت جدي ووالدتي وكامل واكرم .

سافرت من بيروت بالسيارة في يوم شديد البرودة من شهر كانون الاول .  
توقفنا قبل المغيب في نقطة المتفتيش البريطانية في رأس الناقورة . وبعد  
المتفتيش انحدرت بنا السيارة نحو قرية الزيب ، وكانت الشمس على وشك  
الغياب . وتبينت في ضوء الغسق سور عكا ومثذنة جامع الجزار ترتفع  
فوق المدينة في السماء الرمادية ، ومن ورائها حيفا ، وجبل الكرمل يمتد  
الى عرض البحر . فتحت نافذة السيارة قليلا واحسست بالريح الباردة تلمح  
وجهي ، وجعلت اراقب امواج البحر القلقة التي ذكرتني بايام الصيف والصيد  
والسباحة والرح . رأيت مركبا شراعيا تملأ الريح شراعيه ويشق العباب  
تاركا وراءه رذاذا ابيض طويلا ، في طريقه من صيدا او طرابلس الى عكا .

كانت الطريق خالية ، الا من باص او باصين من باصات شركة « ايجد »  
اليهودية يسرعان في طريقهما الى نهاريا ، المستعمرة اليهودية الوحيدة في  
الجليل الغربي . قبل هبوط الظلام ، وعندما بدأت الاضواء تتلألأ في البيوت  
دخلنا شارع عكا الرئيسي . في قهوة حبيبو لم يكن هناك الا بضعة اشخاص  
يلعبون الطاولة ، وفي مدخل سينما الاهلي لم ار احدا ، ربما لان موعد الفيلم لم  
يحن بعد او لان الطقس كان باردا .

في البيت كان جدي قد آوى الى فراشه ، فجلست مع جدتي وخالاتي  
ووالدتي ، وكانوا جزمين حزينين لفراقي . وتناولت عشاء خفيفا من اللبنة  
والجبنة والزيتون - كعادتي منذ الصغر في عكا . وبعد العشاء - وكانت  
الساعة قد قاربت الساعة - ارتديت معطفي وخرجت للقاء كامل واكرم في  
بيتهما بالقرب من المقهى .

كانا بانتظارى خلف الباب ، ليفاجئاني باستعداداتهما العسكرية ، فقد ارتدى  
كل منهما خوذة عسكرية ، مثل التي كان يستعملها الجنود البريطانيون ، وامسك  
بندقية صيد قديمة .

وقال كامل بعد ان جلسنا :

- هل سمعت بالحادثة .

- اية حادثة .

واخبرني عن مهاجمة اهل عكا لقافلة يهودية كانت في طريقها من حيفا الى  
نهاريا .

اقام عدد من الشباب المسلحين كميناً عند مفترق شارع بيروت - صفد  
وانتظروا حتى وصلت ، وكانت مؤلفة من خمس مصفحات وبضع شاحنات  
وانهالوا عليها بالرصاص . كان هدفهم تعطيل السيارة الاولى التي كانت تتقدم  
القافلة ثم مهاجمة باقي السيارات التي تكون قد اضطرت عندئذ الى الوقوف .

ولكن الرصاص لم يخترق الدرع الفولاذي للمصفحة الاولى ، فاستمرت فسي المتقدم بالرغم من اختراق الرصاص دراليها الكاوتشوك . وكان السائق - او رفيقه - يطلق النار على الخنادق الى جانبي الطريق بين الحين والآخر . وهنا صاح احد الشبان في احد الخنادق :

- سمعان الغفري ، اين هو . ابعثوا وراء سمعان الغفري .

وكان سمعان الغفري يقتني البندقية الوحيدة في عكا الحديثة والسريعة الطلقات . ووجدوه جالسا في كمين يقع في الناحية الاخرى من مفترق الطريق . فقام في الحال وقطع الشارع الى حيث كانت المصفحة بازاء جنية بيت حباب . وقفز الغفري فوق سور الجنية وسار بمحاذاة منحني الظهر حتى وصل الى حيث كانت تسير المصفحة ببطء ، فاسند بندقيته الى حافة السور واطلق عليها النار . وما هي الا لحظات حتى انبعثت منها النيران وقفز سائقها ورفيقه الى الشارع رافعين ايديهما مستسلمين . واخذ المسلحون يطلقون النار من جميع الجهات على السيارات الاخرى التي توقفت . وما هي الا دقائق حتى اخذ اليهود يقفزون من السيارات رافعين ايديهم فوق رؤوسهم . واستسلمت جميع سيارات المقافلة ما عدا المصفحة الاخرى التي استمرت باطلاق النار ، فاحاط بها المسلحون وركزوا عليها نيران بنادقهم . وبعد قليل توقف اطلاق النار من المصفحة واخذ سائقها يلوح بمحرمة بيضاء . فقام الجميع من خنادقهم مهللين ، ولكنهم ما كادوا يخطون بضع خطوات حتى انصب عليهم الرصاص من المصفحة فقتل وجرح عدد منهم وهرع الباقون الى خنادقهم . واخذوا يطلقون النار ثانية على المصفحة حتى اشعلوا فيها النار وقتلوا من فيها .

( ٣ )

غادرت عكا الى القدس في الصباح الباكر من اليوم التالي . وكان كامل واكرم قد غادرا الى عملهما في حيفا .

لا انسى ما قاله لي كامل وهو يودعني في الليلة السابقة :

- عندما ترجع من اميركا تكون فلسطين قد تحررت . . . الدول العربية كلها معنا . . . جيش الانقاذ قادر على احتلال فلسطين بمفرده .

بعد وصولي الى شيكاغو بحوالي شهرين استلمت من كامل رسالة كان في داخلها صور فوتوغرافية له ولاكرم على سطح بيتهما ، وقد لبسا خوذتيهما وحملا بندقيتيهما ووقفا ينظران الى الكاميرا بثقة واعتزاز . لكن الرسالسة الرفقة لم تعكس الثقة التي ظهرت في الصور : معظم السكان قد رحلوا عن المدينة ( ريثما تنتهي الاضطرابات ، كما قال كامل ) فيما شدد اليهود هجماتهم

على حيفا والقري المجاورة ، وحصنوا نهاريًا ومستعمراتهم على الحدود . لم يكن في الرسالة اي اثر للمرح وروح النكته اللذين عهدتهما في كامل .

وفي نيسان ١٩٤٨ حدث المستحيل . . احتل اليهود عكا وطردها ما تبقى من سكانها ، الا اللذين التجأوا الى المدينة القديمة . .

عائلة جدي نزحت عند بدء الهجوم اليهودي ، اما كامل واكرم فبقيا في عكا الى اخر دقيقة ، ولم يتركاها الا بعد ان دخلت القوات اليهودية الى ضواحيها . فملا ما يمكن جملة وغادرا مع امهما واخويهما الصغيرين الى اقرب بلدة عبر الحدود اللبنانية .

ماذا حدث ؟ في ايار كانت المعنويات ما زالت قوية ، فقد قدمت للدفاع عن عكا فرقة من جيش الانقاذ بقيادة اديب الشيشكلي ، فتحمس الناس واخذ اللاجئون اليها من حيفا يأملون في العودة الى بيوتهم . ولكن سرعان ما انسحب الشيشكلي بفرقته ، بناء على اوامر القيادة ، فعم الناس اليأس والقنوط ثانية . وكان الغذاء قد بدأ ينفذ كما قاربت ذخيرة المسلحين على النفاذ . اما الخبز ورساى البنادق فكان يباع في السوق السوداء باسعار باهظة . وكل وعود الشيشكلي بارسال العون والامدادات لم تحقق . وفي هذه الاثناء وقعت معركة بين قوات الشيشكلي والقوات اليهودية بالقرب من صفد ، فارسل الشيشكلي الى عكا يطلب العون ، فهرع الى نجدته مسلحو البلدة في السيارات المتبقية . ولما عادوا ، بعد بضعة ايام ، نقل الجرحى الى جامع الجزار ، حيث توفي بعضهم لعدم توفر الادوية واسر بعضهم الاخر الذي لم يتمكن من الفرار عند سقوط المدينة . اما الشيشكلي فقد انسحب بما تبقى من فرقته عبر الحدود اللبنانية تاركا الجليل الغربي بكامله تحت رحمة اليهود .

في اول الامر التجأ كامل واكرم وعائلتهما الى قرية رميش ، عبر الحدود اللبنانية ، حيث استأجرا بمبلغ باهظ ، غرفة صغيرة في بيت قديم . وامتلات القرية بالملاجئين ، فامتنع اهلهما بعد قليل عن تقديم المأكول والمشرب اليهم . ثم انقطعت المياه كلياً عن القرية وصارت صفيحة الماء تباع بجنيهين . عندئذ قرر كامل واكرم العودة الى عكا واستطلاع الوضع فيها . فتسللا عبر الحدود الى ان وصلا اليها قبل المغيب . فلم يجدا احداً في الطرقات ، فذهبا مباشرة الى بيت جدي ، الذي اقامت فيه عائلة تمت بصلة القرى الى كامل واكرم . ودخلا البيت ، وكان في ظلام دامس ، اذ ان الكهرباء والماء قد انقطعتا عن البلدة .

واخبرهما قريبيهما عادل عن الوضع :

— كل الناس هربت . واللذين بقوا خارج السور اجبرهم اليهود على مغادرة

البلدة او الالتجاء الى المدينة القديمة .

وسأله كامل عن حالة الغذاء .

– لا يوجد اكل . الناس كلها جائعة .

فقال كامل :

– وانتم : هل ستبقون .

– أين يمكننا الذهاب ومعنا اطفال ؟ لا يوجد عندنا اهل لا في الاردن ولا في سوريا ولا في لبنان . سنبقى .

ثم تجول كامل واكرم بصحبة عادل في الطريق المجاورة ، فلم يروا الا قطلًا تموء جوعًا . و«اقترب كامل من احدى القطط مداعبًا ، فقوصت ظهرها ، وكشرت عن أنيابها ، كأنها تبغي مهاجمته .

وبدا واضحا ان العودة الى عكا امر مستحيل . فودع كامل واكرم اقاربهما وعادا الى رميش .

#### ( ٤ )

قبل سقوط عكا ببضعة ايام احتل عدد صغير من المسلحين ، ومن بينهم سمعان الغفري ، قلعة البوليس البريطاني ( Tiggert Buiding ) خارج السور ، واستمروا في مقاومة اليهود عدة ايام وكبدوهم خسائر كبيرة ، ولم يتوقفوا عن القتال الا بعد ان نفذت ذخيرتهم ، وقتل بعضهم وتمكن بعضهم الاخر من التسلل الى داخل السور ثم الهرب الى لبنان عن طريق البحر . وقرات خبر سقوط عكا في اليوم التالي ، في جريدة النيويورك تايمس ، وكنت جالسا على مقعد في الميدواي في شيكاغو اراقب الاولاد يلعبون البيسبول .

يقول الذين زاروا عكا مؤخرا انها اليوم مدينة كبيرة تمتد اميالا خارج السور . اما بيت جدي فلا يزال قائما وتسكنه عائلة يهودية . وقد ارسل الى مؤخرا صديقي اليهودي اوري ديفز صورا فوتوغرافية عنه ، ولم اتعرف اليه في بادئ الامر ، فقد اختفت الاشجار من حوله واغلقت نوافذه بالحجارة من جهة الشارع ، وظهر لي كما تظهر الاشياء في الاحلام ، معهودة ، لكنها في الوقت نفسه غريبة آتية من عالم آخر . ولا يزال الجامع المجاور ، الذي اخذت فيه اول دروسي القرآنية ، قائما كما هو الا ان الشيخ قد غادره وامسى مهجورا . وقد حرم علي من تبقى من السكان العرب السكن في المدينة الجديدة ( خارج السور ) واجبروا على الإقامة في المدينة القديمة ( داخل السور ) التي اصبحت بالنسبة لليهود « كازبا » يزورها السواح الاجانب ليشتروا منها الحاجات المصنوعة محليا ويفرجوا فيها على « سكان اسرائيل العرب » .

فيسل دراج  
الكسندر فلورس

## القومية في آسيا وإفريقيا

القومية نتاج معقد لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر مع الثورة الصناعية ، ثم امتدت الى قارات اخرى بعد ان اخذت سمات جديدة .

قدمت القومية الاوروبية نموذجا تاريخيا ، لكن « تاريخية » هذا النموذج لا تجعل منه نموذجا كونيا ، فل « قوميات العالم الثالث » سيرورتها التي لا تطابق ولن تطابق سيرورة القومية الاوروبية . فقد نشأت القومية الاوروبية مصارعة الاقطاع ، في حين استيقظت القومية في آسيا وإفريقيا ونمت خلال عملية الصراع الطويلة التي خاضتها وتخوضها شعوب هذه البلدان ضد الاستعمار . وقومية هذه البلدان في شكلها الراهن نتاج لديالكتيك مفتوح يربط بين تاريخها الموضوعي وصراعها مع الاستعمار . واذا كان تاريخ القومية الموضوعي يحددها ايجابا بشروطها المادية القائمة ، فان صراعها مع الاستعمار يحددها نفيا ، وفي وحدة ديالكتيك الايجاب والنفسي تتشكل القومية في آسيا وإفريقيا .

### تحديد الذات ايجابيا :

القومية ظاهرة تاريخية ، لا تناقش كوجود مطلق او كغياب مطلق ، بل كعملية تنمو وتتكشف في مسار متناقض يراوح او يرتقي بمراوحة او ارتقاء الشروط المادية للبشر . والقومية الافرو - اسيوية لا تشذ عن هذا المنطق بل تطاوعه كقومية خام لا تصل الى الغياب ولا تشارف الحضور الكامل . فهذه القومية في هشاشتها ومحدوديتها ذات جذور ومركبات تتفاوت في تكوينها وتبلورها من بلد الى آخر (١) .

لشعوب آسيا وإفريقيا لغاتها ، او لكل شعب منها لغاته ، ربما لا نستطيع ان

نلمس لديها دائماً لغات قومية ، لكن ذلك لا يمنع وجود لغة او لغات قديمة ، ويختلف دور كل لغة من بلد الى آخر ، فبعض البلدان احادي اللغة وبعضها ثنائي اللغة ، بل يمكن ان نجد جملة لغات ذات وظائف مختلفة في بلد واحد ، فقد وجد في نيجيريا الشمالية مثلاً لغة خاصة بالمؤسسات الادارية وبالبحث العلمي ( اللغة الانجليزية ) ولغة خاصة بالدين ( اللغة العربية ) وثالثة ( هاوسا haoussa ) خاصة بالمعاملات اليومية . وتعتمد بعض البلدان على لغتين : اللغة المحلية واللغة التي فرضها المستعمر وثبت وجودها ( كامبوديا - الهند ) ، وقد تتراجع اللغة المحلية تاركة كل المكان تقريبا للغة المستعمر ، كما هو الحال في المستعمرات الفرنسية والانجليزية في افريقيا . بالاضافة الى الحالات السابقة نجد لغات قومية بالمعنى التاريخي للكلمة : اللغة العربية ، الفيتنامية ، الصينية . بالاضافة الى اللغة وهي الصفة الاكثر قدماً وثباتاً في تركيب الامة ، نجد عنصراً آخر من مقومات الامة : الارض . الارض عنصر هام ، وهي ليست مجرد التعبير الجغرافي لانتشار اللغة القومية بل حقيقة مستقلة أنتجت تاريخياً . وتأخذ الارض الاقليمية في آسيا وافريقيا شكلين : أرض مستقرة راسخة الحدود احتفظت بمعالمها قبل التدخل الاستعماري وبعده : مصر ، فيتنام . . . ، وأخرى خصفت لتغيير وتعديل فرضه الاستعمار بعد ان اقتسمت آسيا وافريقيا اثر معاهدة فرساي ومؤتمر برلين ١٨٨٥ - ١٨٨٤ . وهذا حال معظم البلدان وخاصة الافريقية منها .

نصل بعد ذلك الى ما يسمى « الحياة الاقتصادية المشتركة » ، « السوق القومية » ، « نمط الانتاج المشترك » ، وهذا العنصر هو اكثر العناصر غموضاً وتعقيداً ، فهناك صعوبة اولى تعود الى الوضع النظري لمفهوم نمط الانتاج ولمفهوم التشكيلة الاجتماعية ، وصعوبة ثانية تعود الى محدودية الدراسات التي عالجت « التاريخ الاقتصادي » للبلدان الافرو - اسيوية . وترتبط « الحياة الاقتصادية المشتركة » في هذه البلدان ، بشكل عام ، بـ « نمط الانتاج الاسيوي » الذي أنتج شكلاً من التلاحم الاقتصادي ومنح الدولة مركزية مطلقة . وبمجيء الاستعمار خضعت الحياة الاقتصادية لحركة جديدة واكتسبت ملامحاً خاصة بها ، فقد كسر الاستعمار الاطر الضيقة للانتاج الفردي ، وطور قانون الضرائب ، وسرع في تسويق المنتوجات الزراعية ، واقام شبكة من المواصلات تتناسب مع حاجياته ، وحرك اليد العاملة بأشكال مختلفة الزراعة ، البناء ، وحتى بعض المشاريع الاقتصادية .

نعثر لدى هذه الشعوب على « الشخصية المحلية المتميزة » بعاداتها وطباعتها وأعرافها ، فالهندي لا يساوي الباكستاني ، والعربي يختلف عن الايراني ، كما نجد لديها « الشخصية الثقافية » المرتبطة بجملة تقاليد متميزة : الفولكلور ، الاديان ، الادب الشعبي ، الادب المكتوب ، الطبخ ، الموسيقى . . . تتلاحم كل هذه



العناصر لتنتج شخصية تاريخية ذات اصول وحاضر ومستقبل .. يختلف ثبات وتبلور كل عنصر من العناصر السابقة من بلد الى اخر ويبقى مرهونا بدينامية الصراع الاجتماعي ونزوعاته .

ان تراكم هذه العناصر لا ينتج قومية ، فلكل من هذه العناصر تاريخه وشكل تطوره ، وتضافر هذه العناصر « الخام » يدفع باتجاه قومية وينزع الى الانتقال من ما قبل - القومية الى القومية ، فليس وجود « عناصر القومية » هو الذي يشكل القومية بل هو شكل تلاحمها في وحدة عضوية .

**تحديد الذات ونفي الآخر :** عندما دخل الاستعمار الاوروبي اسيا وافريقيا ، دفع شعوب هاتين القارتين الى عصر تاريخي جديد . هز أركان هذه الشعوب الضاربة عميقا في قضاء التاريخ ، ووضعها أمام مواجهة وتهديد حضارة بيضاء صاعدة . نقلها من حركتها التاريخية الطبيعية الى حركة قسرية جديدة تنزع الى حفظ البقاء والوجه والارض ، وتهدف الى حماية الثروة الوطنية والثقافة الوطنية النازفتين أمام آلة « الحضارة البيضاء » . كان على هذه الشعوب « الملونة » ان تجابه ممارسة استعمارية واعية تهدد كلياتها الاجتماعية وتعمل على تحريكها الى كيان تابع مضيق المعالم فاقد الحركة .

بدأ الانسان الافرو - آسيوي يتلمس ملامحه وملامح الآخر الغازي في حقل صراعي متعدد الابعاد والمناحي ، وكلما نما الصراع رافقه نمو في تحديد الذات والآخر وعملت الذات على حماية ملامحها ورفض الآخر ، فتحمل راية الدين وتتمرس خلف اللغة وتتحصن وراء الزي والتقاليد . ويأخذ الصراع في مواجهة العسف والنهب « الابيضين » كل أشكاله السلمية والعنيفة ، وتظهر حدود المقارات واللغة ، وفواصل الدين واللون ، فترفض البوذية المسيحية وتصد اللغة الفيتنامية اللغة الفرنسية ، ويتابع الانسان الصيني الاصفر تقديس كونفوشيوس ، ويستمر انسان افريقيا الاسود في مناجاة الاشجار والانهار وأرواح الاجداد الهائمة .

استمر الصراع الوطني في عملياته الطويلة والمعقدة ، واعادت عملية الصراع انتاج المستعمر ( بفتح الميم ) والمستعمر ( بكسر الميم ) معا ، ومنحت المسافة الزمنية الفاصلة بين دخول الجيوش البيضاء وخروجها انسان اسيا وافريقيا ملامحا جديدة او « شيئا جديدا » ، فتلمس حدود ذاته الوطنية ، وخرج من عبق التاريخ الراكد الى ساحة الصراع الذي يغذيه جشع رأس المال والاحتكارات ، وفقد عالمه القديم ليدخل بلا ارادة في عالم الاستعمار والامبريالية . وهكذا نقلت الممارسة الصراعية والقوانين الامبريالية الانسان المستعمر من حالة الركود الى حالة الحركة ، ومن مرتبة تاريخية الى مرتبة تاريخية اخرى ، فاكسب شيئا جديدا ، وعرف حضارة رأس المال وحدود زمانه التاريخي ، اي حدد ذاته

كنقيض للآخر وعرف ذاته نفيا : أنا كل ما لا ينتمي اليه الآخر طالما يقف على أرضي .

لم يكن الصراع طوليا ، عرف السوط والدم والمدفعية وممر بالتخيلات والاساطير والانتروبولوجيا العنصرية أيضا . فاستعادت الذاكرة الافرو - آسيوية « الوجه الابيض » واطنقته رديفا للشر وبرودة الروح وقتامة الحيوانية ، فهو « شارب الدم » وحليف الارواح الدنسة وحليف ابليس وعدو الرحمن . وأمسكت الايدولوجيا الكولونيالية انسان الصحراء والغابات والمعابد الشرقية ، فوحدت الاول مع الجمل والثاني مع القرد والثالث مع الشيطان ، اصبح الانسان الصيني شرا مرجوما ، وامسى الانسان الاسود « الزنجي » نظيرا لليل وعدوا لإله مسيح ، وكما أنتجت الذاكرة الكولونيالية اسطورة الاله الابيض أنتجت أيضا أسطورة الشيطان الاسود ، واصبح البولوني « الطيب » ينعت الانسان السويدي « السيء » بـ « هذا السويدي الاسود » ثم يعمم القول فيصبح : « اسود مثل السويدي » (٢) .

دار الصراع في شرطه التاريخي : الشرط الاستعماري المحدد اقتصاديا بالتهب وسياسيا بالقمع وايدولوجيا بالعنصرية ، واستمر في وحدته التناقضية القائمة على ثنائية المستعمر / (٣) . كل ينفي الآخر بأسلحة لا متكافئة في دياكتيك يستدعي وجود الطرفين : وجود المستعمر ( فتح الميم ) في يؤسسه المستمر ضرورة ، شرط أساسي لوجود المستعمر ( كسر الميم ) في نعيمه المستمر . لكن البؤس لا يعايش الرخاء الا مكبلا وفي شروط تنتج القمع وتعيد انتاجه أبدا . وفي تعايش نسيجه القمع ولحمته النهب تطور النقيضان على ارضية الشرط الاستعماري ، وعندما نقول شرطا استعماريًا نقول عملية صراعية تهدم النقيضين وتخلقهما في الوقت ذاته ، يتمركز كل منهما حول ذاته وصفاته ثم يخرج محاولا استئصال الآخر وازالته وتدميره ، يصل المستعمر والمستعمر الى عالم حدوده الملرن والمناجم والقمع ، يأخذ التمايز صفة الاطلاق، وينسحب المستعمر الى « أوروبيته المركزية » والآسيوي الى « آسيويته » والافريقي الى « كفه » التاريخي الخاص .

لا تستند هذه المواجهة التدميرية الى اعتبارات نفسية او اختلافات ايدولوجية او لاهوتية بل الى أساس مادي محكوم بالتهب والتدمير والقمع ، مارسه ويمارسه الغزاة الامبرياليون في « العالم الثالث » لذلك ينبغي التمييز بين النضال الوطني التحرري الذي يعمل لتحرير ارض وحماية ثقافة وصيانة ثروات وطنية وبين مركب كره الغرباء Xenophobia ، فنحن لسنا في مجال « عنصرية تطرد اخرى » كما يذهب بعض المستشرقين الاستعماريين بل في مجال الاستعمار وحركات التحرر الوطني (٤) .

شكل الاستعمار الاوربي للانسان الافرو - آسيوي تهديدا وتحديا : تجلّى التهديد في فعله المستمر لتشويه التطور الطبيعي للمجتمع وتدمير كل خصائصه التاريخية ، وتحذير عن نفسه في وعي الانسان المستعمر للهوة التاريخية التي تفصل بين عجزه وتخلفه وجبروت و « تقدم » الانسان المستعمر . ومن دياكتيك التهديد والتحدي والحضور المباشر للمستعمر انطلق النضال الوطني في وتأثر تختلف من بلد الى آخر ، وشاركت قوى اجتماعية مختلفة في هذا النضال رافعة راية الدين والتراث والاساطير ، واصبح هذا النضال تيارا مكونا من قوى اجتماعية مختلفة هدفها النهائي هو الاستقلال الوطني المدفوع بأيدولوجيا قومية .

اذا رجعنا الى منطق صراع المستعمر / المستعمر ودرسناه في شكل بدايته ومساره ونهايته نستطيع الوصول الى الاطروحات التالية :

١ - تبلورت النزعات والايديولوجيات القومية غالبا نفيًا ، فهي لم تنطلق من خط قومي واضح ، بل نمت عبر منطق النفي والتمايز عن الآخر وظلت لذلك تابعة في نموها وتصاعدها وخمودها الى الآخر ( المستعمر ) وحضوره المباشر وشكل ممارسته . لذلك نقول ان كل تحديد بالنفي هو تحديد زائف او ناقص .

٢ - وكما أنتجت الرأسمالية البروليتاريا ، فان الاستعمار حرض النزعة القومية وشارك في حركة تشكيلها خالقا قوة تواجهه وتثور عليه (٥) . لذا يلاحظ ان وتأثر نمو القومية تختلف من بلد الى آخر معبرة عن مدى الصراع مع الاستعمار وحدوده .

٣ - اذا كانت الطبقة البرجوازية رفعت وحيدة راية القومية الاوروبية لخلق ( السوق القومية ) ، فان الامر لم يكن كذلك في آسيا وافريقيا ، فقد شارك ( ويشترك ) في الحركة القومية طبقات وزمر اجتماعية مختلفة كان شعارها « تحرير الوطن » لا « السوق القومية » .

٤ - القومية الافرو - آسيوية ظاهرة لا متجانسة ، بلا قوانين ، تتباين في مستوى تطورها ، وما هو مشترك فيها يعود الى الاثر التاريخي الناتج عن دياكتيك الاستعمار والتحرر .

الاشكال اللامباشرة للوعي القومي : ظهر الوعي القومي الاوربي في مجتمع متمايز طبقيا ، واضح الحدود ايدولوجيا وسياسيا . دفع هذا التمايز الوعي الى حدود الموضوح ، ونأى به عن حدود السديم واللا تحديد ، فاقترب الوعي القومي من مفهومه النظري ، اما الوعي القومي في أفريقيا وAsia فقد عرف قدرا آخر مرتبطا بتاريخه وشروطه الاجتماعية ، عكس هذا الوعي شروطه وترجم تاريخه .

خاض الانسان المستعمر معركته « القومية » بوعي قومي لا مباشر ، ووعي

الحفاظ على الشخصية الوطنية ، الدفاع عن الخصوصية المحلية ، الافتراق عن المستعمر والتمايز عنه ، وفي هذه المعركة رفع الانسان الافرو - آسيوي راية الاسلام والبوذية والفيديانتا وتحصن بالثيولوجيا البدائية ، اي ان الصراع القومي سار على ارضية دينية غالبا ، وتحرك مزودا بالشعور الديني الذي يستحيل في شروط معينة الي قوة جماعية وتوحيدية تؤطر المضطهدين لمواجهة المضطهدين .

ساعدت الشروط الاجتماعية - التاريخية في آسيا وافريقيا على انتشار نفوذ الايدولوجية الدينية ، فديانات هذه البلدان لا تخضع لمركز ديني اساسي كما هو حال المسيحية في الغرب ، بل هي ايدولوجيا يومية تعيشها الجماهير وتعيش فيها ، ايدولوجيا نظرية وعملية ، وقناة اساسية لنقل الافكار الاجتماعية والسياسية ، يضاف الي ذلك قلة عدد الطبقة العاملة وضعف تنظيمها في هذه البلدان ، وحدثة الاحزاب الماركسية فيها ، ومحدودية التقاليد العقلانية . وهكذا نرى ان ظاهرة التدين في ايدولوجيا حركة التحرر الوطني في بلدان آسيا وافريقيا ، نتيجة للشرط الاقتصادي - الاجتماعي وشاهد عليه ، وفي هذا الشرط يغيب التمايز بين العلاقات الطائفية - الدينية والعلاقات الطبقية والقومية ، الي درجة تصل فيها هذه العلاقات الي حدود التطابق احيانا .

ادت الممارسة الاستعمارية الي بعث الماضي والتشوق الي « الاصول الاولى » فغدا الدين مؤنلا وحصنا ، واصبح التراث الروحي رمزا للمعزة القومية ، والاتصال القومية ، ووسيلة للتعبير عن المشاعر الوطنية ، ولعب هذا الموقف من التراث الروحي دورا ايجابيا معينيا في معركة التحرر الوطني ضد الظلم الاستعماري ، اضحى « الاجلال الاعسى للماضي جزءا فعلا من الوطنية » (٦) .

عاش الدين دوره في معركة التحرر الوطني ، وعاش ايضا تناقضه مع التطور الاجتماعي والسياسي ، واذا كان قد بلغ احيانا حدود الاظلامية والتعميم والتواطؤ ، فانه قد شارف في احيان اخرى حدود العقلانية والانارة . وبشكل عام عاش الدين تناقض الواقع وتناقضه الخاص من حيث هو جزء عضوي من هذا الواقع . لعب الدين الاسلامي دورا قوميا في نضال الشعب الجزائري والمصري والباكستاني ، وكان للدين البوذي دوره كذلك ، حيث « شكل البانديت دايماناد في الهند رابطة لحماية البقر ، واعطى شعار « الديانة الهندية للهنود والسيادة على الهند للهنود » الحركة القومية الجديدة دفعة من التطرف الديني الذي لا يقبل المهادنة ، وكان من بين ردود الفعل التي نجمت عن هذه الحركة طغيان موجة من الانبعاث الديني القومي لدى المسلمين (٧) . كما قام الدين بدور هام في النضال القومي لدى الجمعيات البوذية في بورما وسيلان وكمبوديا حيث شاركت الجماعات البوذية بشكل نشيط وريادي في النضال التحرري منذ بداية القرن العشرين .

سبب السياق الكولونيالي للشعوب المستعمرة عصابا كولونياليا ، رفضت كل ما يتعلق به حتى « الهه الابيض » دافعة بذلك حدود التمايز الى آمامه القصوى ، مؤكدة بذلك وجود عالمين متميزين بلا جسور : عالم المستعمر وعالم المستعمَر ، فمائل المسيحي الافرو - آسيوي بين المستعمر الاوروبي ودينه المسيحي - الاوروبي، ورفض المستعمر « الابيض » ودينه ، ورجع الى مسيحيته فأعاد صياغتها ومايزها . بشكل آخر ، رأى الانسان المستعمر انسانا مضطهدا ودينا مضطهدا فصنع دينه المسيحي الخاص الوحيد في نقائه ومسيحيته . فظهرت نتيجة لذلك حركة « الكارجو » في ماليزيا وصنعت مسيحية محلية ، وظهر « المسيح الاسود » في افريقيا المثل الحقيقي لتعاليم المسيح التي خانها الانسان الابيض ، وحركة تاي - بن في الصين التي مزجت بين الديانة المسيحية والتقاليد الفلاحية الصينية . وتمثل حركة Pako التي ظهرت في جزيرة باكو Baku نموذجا نمطيا للشكل القومي للدين . أسس هذه الحركة انسان بسيط اسمه Pako ، كان قد اعتنق المسيحية في شبابه ، وبعد ان عاش الممارسات الاستعمارية ، بدأ في تطوير مسيحية محلية مختلفة عن مسيحية الانسان الابيض ، ومن افكاره الرئيسية ان البعثات المسيحية الاوروبية لم تنقل الى « المسيحي المحلي » الا جزءا من افكار الديانة المسيحية ، واحتفظت لنفسها بالافكار « الهامة » التي تسمح للمسيحي الاوروبي باختراع الآلات واستعمالها ، والتي تسمح له ايضا ان يكون قويا وسعيدا . ويعتقد أنصار « باكو » انه من الواجب النضال المستمر لكشف ومعرفة الجزء الخفي من الديانة المسيحية التي ستمكنهم من مجارة « المسيحي الابيض » وامتلاك قوة افكاره وعيشه الرفيد (٨) .

يشير انتشار الشكل الديني للوعي القومي الى « حدود وضبابية القومية الافرو - آسيوية » . والى افتقارها الى الاسس المادية الكفيلة بتحريكها كـ « قومية » اولا . فقد كانت ولم تزال وحدة متناقضة من الافكار والمعتقدات والعواطف ، تتحور بين شكل ثقافي للقومية ( الدفاع عن اللغة ) وشكل ديني لها ، وتصل ايضا الى شعار الدفاع عن الارض ، فتمارس الوطنية لا القومية . ان السمة القومية المميزة لـ « هذه القومية » هي ولاؤها للعادات المتوارثة وللمثل العليا والقيم التقليدية المرتبطة بتاريخها وحضارتها ، والتي تقوم الاديان بالحفاظ عليها والدفاع عنها ، فحضارات شعوب آسيا وافريقيا مرتبطة بأديانها : الاسلام والهندوسية والبوذية والكونفوشية ومعتقدات القبائل الزنجية، حيث يتقدم الدين كمفهوم للعالم واطار للحياة اليومية واسباب لحضارة كاملة ( حالة الدين الاسلامي مثلا ) .

الشرط التاريخي للقومية في آسيا وافريقيا : القومية الافرو - آسيوية ظاهرة حديثة تاريخيا ، تتقدم وتتكشف في علاقتها بالشرط التاريخي الذي ساهم في سيرورتها ، أي بتاريخها الموسوم بـ « دياكتيك الاستعمار والتحرر » . ان ربط

ديالكتيك القومية بديالكتيك الاستعمار والتحرر يعطي جوابا ناقصا لا يغادر «نقصه» الا بالرجوع قليلا الى السمات التاريخية للتشكيلات الاجتماعية في آسيا وأفريقيا .

عانت بلدان آسيا وأفريقيا لمدة طويلة من الهيمنة السياسية الأجنبية التي حرمتها من حركتها السياسية المستقلة وحرمتها بالتالي من تقاليد دولوية *étatique* راسخة ، سواء كانت هذه الهيمنة أوروبية أو غير أوروبية (فارسية صينية ، عثمانية ) ، يضاف الى ذلك ان هذه البلدان لم تعرف الا نادرا التشكيلات «القومية» الواسعة ، اي السلطة السياسية المركزية المقادرة اداريا على تحريك قطاعات واسعة من المجتمع ، فقد حكمت علاقاتها الاجتماعية غالبا بالقوانين القبلية والعشائرية والعائلية والدينية والاقوامية ، ربما يشذ عن ذلك بعض البلدان التي عرفت تقاليد مركزية مثل الصين ومصر .

لم تعرف هذه البلدان النظام السياسي القادر على كسر «الولاءات البدائية» وتحويلها الى ولاء واحد: الولاء القومي . فطبيعة النظام السياسية وحدود تطوره التاريخي لم تسمح للفرد ان يتعرف على ذاته علاقة من أمة او وجها في شعب ، بل تركته ودفعته يبحث عن امانه الاجتماعي وعن صورته الاجتماعية في احضان قبيلته او طائفته . . . ، اي ان الشكل البدائي للسلطة السياسية المحدد بشرط اجتماعي متخلف انتج دائما ولاء بدائيا . وهذا ما جعل هذه «السلطة» عاجزة غالبا عن القيام بتعبئة جماعية لكل قطاعات المجتمع ضد الغزو الخارجي .

ويجب ان نشير هنا الى ان بعض البلدان الافرو - آسيوية قد عرفت تقاليد مركزية مرتبطة بنمط الانتاج الآسيوي أي بسلطة مركزية للدولة على الاقتصاد ، ومن الطبيعي ان ينتج عن ذلك بغض «السمات القومية» . وهذا ما يدفع سمير أمين للحديث عن تشكيلات قومية سبقت تاريخيا نمط الانتاج الرأسمالي ، ويضرب مثلا على ذلك مجال اليونان القديمة والدولة العربية في عصرها الذهبي (٩) . مع ذلك فان السمات القومية المرتبطة بنمط الانتاج الآسيوي لا تدين بوجودها لممارسة دولوية *étatique* توحيدية بالمعنى المادي للكلمة ، بل تعود الى الممارسة الاستبدادية المميزة لهذا النمط من الانتاج ومرهونة به تاريخيا .

دفع الغزو الاستعماري السمات القومية في شكلها التاريخي (محدوديتها) من حالة «الكمون» الى حالة «اليقظة» منتجا بذلك الايدولوجيا القومية .

القومية في آسيا وأفريقيا تطلع وطموح اي أنها ايدولوجيا قومية تبشر لمستقبل وتناضل - بشكل متفاوت - لخلق الاساس المادي لها ولقدماتها الاساسية . تقوم هذه القومية في مستنوى البنيان الفوقي عقيدة تبشيرية وفكرا مناضلا لا يعكس واقعا بل يطمح اليه (١٠) . لذلك نقول ان العلاقة التي تحكم

الايديولوجيا القومية بالواقع التي تعبر عنه لا تتميز بالتوافق بل بالملا توافق ، فالايديولوجيا القومية لا تعبر عن « قومية » منجزة بل تدعو اليها ، يسبق « النظر » القومي التحقق المادي للقومية ، وهذه المسافة بين النظر والتحقق هي التي تدفع الاول الى عوالم مثالية متعددة ، فبعض المنظرين القوميون يربطون بين القومية و « الملأ الاعلى » او بينها وبين « روح الزنوجة » او « الروح الابدية الصافية » .

في مسار البحث عن المذات وتحديد الهوية وتلمس الاصول ، يصل بعض مثقفي العالم الثالث الى مشارف الفكر القومي الاوروبي يترجمونه ويستلهمونه عبر موقف ثنائي البعد : يعي البعد الاول الدور التدميري للهيمنة الاستعمارية ، ويبحث البعد الثاني عن اسباب « القوة » الاوروبية . ولقد لعبت الافكار القومية الالمانية الرومانسية دورا كبيرا في تشكيل الافكار القومية في آسيا وافريقيا ، وظهر هذا التأثير واضحا في افكار التركي زياجو كلب Ziago Kalp والعربي ساطع الحصري .

تتسم الايديولوجيا القومية بطبيعة مزدوجة متناقضة داخليا ، فهي تلعب من جهة دورا ايجابيا تاريخيا ابان صراعها المباشر مع الاستعمار ، وتلعب من جهة ثانية دورا سلبيا بعد الاستقلال ، عندما ترفع راية « التقدم القومي » و « المتفرد القومي » ، وهذا يعني أنه لا يمكن معالجة الايديولوجيا القومية ككيان سماوي مجرد ، بل ينبغي ربطها بالطبقات الاجتماعية التي ترفع رايته وبمهامها التاريخية في شرط تاريخي محدد . يسود كل بلد في مراحل مختلفة من تطور حركته القومية ، هذا الجانب او ذاك من الايديولوجيا القومية . بيد أن واقع هذه الحركة يدل على انه بمقدار ما تتطور هذه الحركة تطورا ايجابيا ، وبمقدار ما تنتقل من مرحلة الحصول على الاستقلال السياسي الى مرحلة التحولات الاقتصادية - السياسية والاجتماعية والثقافية ، تتعرض الايديولوجيا القومية الى تغيرات هامة (١١) .

ان تحقيق القومية ماديا لا يتحقق بنشر النظريات القومية بل بتحول اجتماعي يشغل المجتمع بكليته . وهذا الواقع يدفع بالمسألة الى وضع جديد : القومية في « البلدان المتخلفة » او الوعي القومي « والتخلف » . اذا ربطنا سيرورة الظاهرة القومية بالشرط الاقتصادي في آسيا وافريقيا ، امكنا ملاحظة ما يلي :

١ - لا تستطيع العلاقات الاقتصادية في البلدان المستقلة أن تتطور بشكل طبيعي بسبب بنائها المشوه وفاقها المغلقة الحكومة بتبعية بنيانية للاستعمار الكلاسيكي والجديد ، وهذا يعني انها لن تصل في شكلها الحالي مهما بلغ تطوره الى نمط الانتاج الرأسمالي الذي يشكل مرحلة متقدمة في تطور الظاهرة القومية .

ب - أنتج الطغيان التجاري الخارجي لنمط الانتاج الرأسمالي على التشكيلات ما قبل الرأسمالية آثارا اقتصادية مدمرة ، فتراجعت الصناعات اليدوية دون أن يحل مكانها صناعة حديثة محلية ، وتقدمت الاستثمارات الكولونيالية لتخلق تواجعا اقتصاديا تتحرك في علاقة تابعة تمنعها من التحول الى كيان اقتصادي محلي مستقل (١٢) .

ج - لا يتجلى « التخلف » في انخفاض انتاجية الفرد ، بل في صفات بنيانية خاصة تمنعنا من الاقدام على مقارنات هجينة ، كمقارنة الوضع الراهن في البلدان « المتخلفة » مع المراحل الاولى لبدائيات نمط الانتاج الرأسمالي في أوروبا .

ان ربط التحقق المادي للقومية بنمط الانتاج الرأسمالي لا يصدر عن تقديس للمفاهيم النظرية بل عن معاينة دور البرجوازية التاريخية في تثوير العلاقات الاجتماعية وتوحيد المجتمع ماديا . يقول البيان الشيوعي : « تقضي البرجوازية باستمرار على تفتت وسائل الانتاج وتبعثر السكان والملكية . فقد كدست السكان ومركزت وسائل الانتاج ومركزت الملكية في ايد قليلة . وجاءت المركزية السياسية نتيجة محتومة لهذه التغيرات . فالاقاليم المستقلة ، المتحدة بالكاد فيما بينها ، والتي كان لكل منها مصالح ، وقوانين ، وحكومات ، وتعريفات جمركية مختلفة ، وحدت في أمة واحدة ، ذات حكومة واحدة ، وقانون واحد ، ومصالحة قومية طبقية واحدة خلف حدود جمركية واحدة » (١٣) . فتوحيد المجتمع اذن وارتقائه الى مستوى الامة يتأتى من فعل تاريخي يثور ادوات الانتاج ، علاقات الانتاج ، ومجموع العلاقات الاجتماعية ، لا من « قوة الافكار » و « سرمدية الروح القومية » . والحقيقة ان شعوب آسيا وافريقيا عندما تناضل من أجل استقلالها السياسي والاقتصادي الحقيقيين تفرز في الوقت ذاته ذاتيا وموضوعيا الاسس المادية لقومياتها ، وتنتج الشروط الموضوعية لدفع « الولاء البدائي » الى مرحلة أكثر رقيا .

لا ينبغي ان يدفعا ، مع ذلك ، الربط النظري بين القومية ونمط الانتاج الرأسمالي ، الى استنتاج ميكانيكي تبسيطي : تحقق القوميات في آسيا وافريقيا مخروط بوصولها الى نمط الانتاج الرأسمالي . فمثل هذا الاستنتاج مرفوض للاعتبارات الثلاث الآتية :

أ - القومية سيرورة تاريخية ، وليست معطى جاهزا .

ب - يستحيل على البلدان الافرو - آسيوية بلوغ نمط الانتاج الرأسمالي بسبب التبعية الاقتصادية التي تربطها بالامبريالية والتي تجعل نمط انتاجها « الكولونيالي » يحور في دائرية مغلقة بلا أفق . (١٤)



ج - أن تطور القومية في هذه البلدان مرتبط بنضالها من أجل استقلال سياسي واقتصادي حقيقيين وحدود هذا النضال وشكله .

**القومية والدولة :** ظهرت الى الوجود بعد الحرب العالمية الثانية مجموعة الدول الاقرب - آسيوية بعد أن رزحت ربحا طويلا من الزمن تحت سوط الاستعمار الاوربي ، ودفع « انتصار » حركات التحرر الوطني المشكلة القومية الى شروط جديدة ، فوجدت الوعاء السياسي لها ، وأصبحت تعبيراً عن كيان سياسي موجود . اقترنت السيورة القومية في مرحلة ما قبل الاستقلال بسيورة النضال الوطني ، أما في مرحلة ما بعد الاستقلال فقد اقترنت السيورة الاولى بسيورة الدولة المتشكلة حديثا . وهكذا اعاد هذا التحول طرح السؤال بشكل جديد ، وهو علاقة القومية بالدولة ، وشكل هذه العلاقة في سكونيتها وديناميتها .

حل تشكل الدولة المسألة الكولونيالية ف « طرد » المستعمر واقام دولة كانت غاية نضاله ، لكن هذا الحل لا ينسحب اوتوماتيكيا على المسألة القومية ، فقيام الكيان السياسي لا ينتج مباشرة قومية « منجزة » بل يشكل مرحلة ايجابية في تطور هذه القومية . وبالتالي لا يمكن ان نطابق بين الدولة والقومية او نمائل بين « التحرر السياسي » و « التحقق القومي » . ويكفي ان ننظر الى حجم « اللاتجانس » اللغوي والديني والاقوامي في اندونيسيا والهند وكينيا واثيوبيا . . . حتى نلمس بشكل مشخص « الوضع التاريخي » لقرميات آسيا وافريقيا ، فالدولة في هذه البلدان ليست « تتويجا رحمانيا » للروح القومية بل محصلة للتناقضات المعاشة او علاقة تناقضية في مجمل التناقضات التي تحكم هذه البلدان ، والحديث عن التناقض يعني الحديث عن القمع والاستبداد والتعصب القومي وهيمنة « القومية الكبيرة » على « القومية الصغيرة » وسيطرة « الطائفة الكبيرة » على « الطائفة الصغيرة » ، ولا تزال حرب القبائل والطوائف تجد مكانا رحبا في ربوع القارتين .

ناضلت شعوب آسيا وافريقيا مدفوعة بـ « خصوصيتها الاقليمية » وبطموحاتها القومية ايضا من أجل الوصول الى كيانات سياسية ، وكان التماثل بين القومية والصراع الوطني مفهومها ابان النضال المباشر ضد الاستعمار ، كان يقوم بدور وظيفي نضالي ، يربط بين العامل الداخلي والخارجي ، ويوظف « الوعي القومي المعفوي » في معركة مباشرة . لقد نما هذا الوعي مدفوعا بتناقض العامل الذاتي والموضوعي ( طرد المستعمر من الارض ) وتطور خطيا ويشكل متسارع ، وعندما قام الكيان السياسي وتوارى العامل الموضوعي ( الحضور المباشر للمحتل ) غير هذا الوعي من تسارعه وانتقل من حركة خطية الى حركة معقدة ومتناقضة . قد يقول قائل بأن على هذه الحركة أن تزداد تسارعا ونموا بسبب وجود الدولة التي تقوم بـ « هندسة » الشعب

وتنظيم نموه باتجاه غايات واحدة وموحدة . لكن الامر ليس بهذه البساطة .

يستدعي الحديث عن القومية ديمالكتيكا الحديث عن الدولة من حيث هي أداة لا غنى عنها للتأثير في جميع مستويات المجتمع وانتاجه كلية متميزة : أمة . والدولة في أثرها التاريخي هذا لا تنطلق من السديم بل من الشعور القومي والذي هو قوة موحدة تنزع الى التشخص في كيان سياسي ، بل يمكن القول ان الامة تتكون في ديمالكتيك الدولة والوعي القومي (١٥) .

تنزع الدولة بواسطة اجهزتها ومؤسساتها الى صهر المجموعات المختلفة لغويا ودينيا واقواميا في بوتقة واحدة ، وتعمل من حيث هي نواة مركزية على جذب كل مجموعات المجتمع باتجاه التلاقي والتوحيد وخلق ثقافة واحدة ولغة واحدة .

لا يتسم ، مع ذلك ، دور الدولة في بناء القومية بصفة الاطلاق والتجريد ، فالدولة اولا سيرورة يتحدد دورها بشرط تاريخي يتميز بتطور وتمايز الطبقات الاجتماعية ودورها في عملية الانتاج . واذا كانت الدولة تعريفا هي : جملة المؤسسات والمعايير التي تعمل لضبط حركة المجتمع بطريقة تسمح باعادة انتاج مستمر للشروط الاقتصادية والايولوجية والحقوقية - السياسية التي تضمن اعادة انتاج علاقات سيطرة طبقة معينة ضد اخرى . يشير وعي هذا التعريف الى أن نمط الدولة يرتبط بمستوى معين من التطور الاجتماعي « الامر الذي يفرض ضرورة التمييز بين الدولة كمفهوم نظري مجرد ونموذج الدولة : la type d'Etat الذي يتحدد بالبنيان الاقتصادي الذي تقوم عليه الدولة من حيث هي بنيان فوقي سياسي .

لا ترتبط اذن القومية بالدولة بشكل مجرد بل بنموذج الدولة الذي يحقق معتمدا على خصائصه المادية بديانا قوميا يتسم بما يلي :

أ - وجود وحدة اقتصادية تخدم كاطار اساسي للتبادل القائم بين الطبقات الاجتماعية المرتبطة بسيرورة الانتاج .

ب - وجود وحدة اقليمية ، حقوقية ، سياسية ، تترابط مركباتها بشكل وثيق ينهض عليه الجهاز الاساسي للسلطة السياسية المركزية للدولة القومية .

ج - وجود وحدة لغوية وتجانس ثقافي نسبي يربط كل المجموعات المندمجة في علاقات الانتاج .

د - وجود ، قبول ، وانتشار شعور وتمثل ايولوجي لهذه الوحدة يتجلى في معايير «المصلحة القومية» ، «الحياة القومية» ، و «الارادة القومية» (١٦) .

تتجلى القومية ، اذن ، كأثر متميز لدرجة تطور تاريخي محدد ينتج ويعيد

انتاج جملة عناصر تتحدد كوحدة عضوية ، واذا حاولنا تطبيق مفهوم « الوحدة العضوية » على القوميات الحديثة التكون في آسيا وافريقيا لوجدنا ان امكانية هذا التطبيق لم تزل محدودة . اذ اننا لا نجد « قوميات » وانما شكلا تاريخيا لها قوميات ذات درجة تاريخية محددة : قوميات في طور التكوين ، تضم بشرا لهم ولاءات مركبة وثقافات مختلفة ، يحتفظون بولائهم لقريتهم وحيهم وقبيلتهم ، يتكلمون لغات مشتركة ومختلفة ومتقاربة ، وقد يعيشون في حدود متداخلة ، مجزأة ، فرضها الاستعمار ، فبعض القبائل تنتشر - مثلا - في أكثر من دولة فيتحدد موقعها الجغرافي دون ان يتحدد ولاؤها .

ان ارتقاء هذه القوميات من درجتها الراهنة الى درجة اخرى يستلزم تحولات اجتماعية بنوية تمس الاقتصاد والفكر ، اي تنتج التقدم والحرية والعقلانية والديمقراطية .

### الحواشي :

- 1 — La Pensée No. 119 Fevrier 1965.
- 2 — I. Sachs : La decouverte du tiersmonde : Flammarion .
- 3 — Frantz Fanan : Sociologie d'une revolution Maspero 1968 .
- 4 — Problemes du monde Contemporain 1975 : evolution du nationalisme en Asie et en Afrique.
- 5 — De L'imperialisme a la Décolonisation .  
Ed : De minuit — 1965
- 6 — la naissance des Dieux Eds : L'union Rationaliste — 1966 .
- 7 — بيتر ورسلي : العالم الثالث - وزارة الثقافة دمشق - ١٩٦٨ .
- 8 — La naissance des Dieux .
- 9 — S. Amin : Le développement inégal Minuit 1973.
- ١٠ - حول الصراع الايدولوجي في البلدان النامية : دار الجماهير العربية - ١٩٧٤ .
- 11 — Races and peoples Moscow — 1974.
- 12 — S. Amin : L'accumulation à l'échelle mondiale. Anthropolos - 1971
- ١٣ - البيان الشيوعي - دار ابن خلدون ص ٥٩ .
- ١٤ - انظر مهدي عامل في نمط الانتاج الكولونيالي - دار الفارابي - بيروت ١٩٧٦ .
- 15 — L'homme et la Société No. 24 — 25 .
- 16 — ibid .

## الديمقراطية والاستبداد الحديث

ما هو النفط ؟

يبدو السؤال بسيطا ومحيرا في عالم عربي محاصر بالنفط وملية بالكبرياء . فالمادة الاولية ، التي اسمها النفط ، تصبح اليوم عصب الحضارة الغربية الرأسمالية . والحضارة في الغرب ، ونحن في الشرق . وبمقدار ما يزداد الغرب « تحضرا » نزداد « توحشا » . وكأننا نعيش دوامة وحصارا .

عوض ان نحاصر النفط ، يحاصرنا النفط .

لا نستطيع ان نسأل لماذا النفط ، ولماذا نحن في النفط ؟ فهذا سؤال غيبي يبقينا في الغياب . ولكن حين نسأل ما هو النفط ، نسأل لماذا يحاصرنا النفط ولا نحاصره ؟

النفط مادة اولية تستخرج من باطن الصحراء . اقتصاديا ، هو ريع عقاري . اي ملك للطبيعة . اي ملكية حقوقية سياسية . حين نسأل ما هو النفط ، نكون قد بدأنا السؤال حول من يملك النفط ، هنا يجب ان نسأل من يملك السياسة . وفي السياسة تتعقد الاسئلة ، وتضيق الاجوبة في الشعارات .

ولكن لماذا لا نعالج مسألة النفط في الفكر العربي ؟

ان اكثرية الدراسات والبحوث التي تناولت وتتناول النفط ، تبدأ بالارقام

وتنتهي بالارقام . وجميعها لا تلاحظ الصحراء ، ولا تلاحظ الفرق بين الناس وحباب الرمل . نتحدث عن الاستعمار والامبريالية والتبادل اللامتكافىء ونهب العالم الثالث الخ ، تناقش السياسة من خلال الاقتصاد . هكذا يصبح النفط اقتصادا ، مشاريع ورساميل وبنى تحتية وفوقية الخ . يصبح جزءا من المعركة ، يضيع من السياسة حين يهرب الى السياسة . فتزدهر الدويلات . وتبنى مدن وهمية . يهرب النفط من مصيره فيستولي على مصيرنا . يصبح هو الاقتصاد العربي . وتصبح السياسة العربية بنيتها الفوقية . هكذا نتعامل مع البنى الفوقية ، وننسى الاسئلة . وقيل ان حرب حزيران بدأت في اليمن ، لكن الحرب القادمة تبدأ في لبنان . وقيل ان المارينز الاميركيين جاءوا الى شواطئ بيروت ، حين هدد النفط ، ولكن القوات الدولية تأتي اليوم لتؤكد ان النفط لم يعد مهيدا . وقيل عن الوحدة العربية انها حين تلغى التجزئة تضع الثروة في خدمة السياسة . لكننا اليوم نعيش في سياسة الثروة وثروة السياسة . هكذا لا ينتصر النفط الا حين تهزم الامة ، ولا يؤكد النفط انتصاره الا بتصفية الامة . هل دخلنا العصر الكوسموبوليتي ونحن ملايين من الحفاة والجياع ؟ هل دخلنا عصر الجغرافيا السياسية لاننا لم نستطع دخول التاريخ السياسي ؟ واين هي الكتابة ؟ حين نفتتح ان النفط هو بنية تحتية ، تصبح الكتابة بنية فوقية لهذا التحت المائع السائل . وبين البنيتين ، يقع حذاء مطاطي ( المطاط اليوم هو احد مشتقات النفط ) الحذاء يضغط والرأس يغرق في النفط .

حين ننظر الى الخريطة العربية ، نرى الى جانب الدول العربية الكبيرة والصغيرة ، الملونة وغير الملونة ، الكثيرة العدد ، والتي نتكاثر او تريد ان تتكاثر ، خيطا طويلا ، كأنه شريان او مجموعة شرايين لجسد مقطع الاوصال . يربط من شرايينه . نرى انابيب النفط ، تصب في البحار ، حيث ناقلات النفط الضخمة ، تتحرك في بحار الشرق الملونة ، خريطة من الانابيب . جثة من الشرايين المقطوعة الموصولة . نرى بين البشر والبشر صحارى من النفط . الصحراء تفصل العرب عن العرب ، والنفط يوحد العرب بمصيرهم . والناقلات الضخمة ، التي تدور من بحر الى بحر ، ومن قارة الى قارة ، تأخذ النفط والسياسة ، الى حيث يصنعون الاحذية التي تسحق ملايين الحفاة . وحين يأتي الخوف من الحفاة ، وسط معركة او حرب ، وحين تتغير موازين القوى الى درجة ينقطع فيها النفط للمحطات عن مصانع الحضارة ، تعلق الاصوات ، وتستنفر الجيوش ، ويأتي الحواة والسحرة ، ويبدأ الحديث عن الحضارة . ثم يعود كل شيء الى مجراه الطبيعي بدلا من ان تسيطر السياسة العربية على النفط ، يصبح النفط هو سياسة العرب ، وتلغى الفروق الطفيفة التي كانت ، ويبقى العراة عراة .

الخريطة لم تزل ناقصة ، والمعالم غير واضحة بشكل كاف . الى جانب

الانابيب - الشرايين ، هناك الاوراق . الورق الجميل اللامع المستورد . الورق الصقيل الذي تكتب عليه الابجدية العربية . الورق الذي يمتص الحبر . الورق الذي لا معنى له . هكذا تتكامل الخريطة من الخارج . صحراء وكتابة تشبه السائل الاسود ، لزجة وغير مفهومة ولا معنى لها .

تبقى بعض التفاصيل التي لم يعد احد يهتم بها . تفاصيل كبيرة توضع في علب صغيرة . تفاصيل تحذف خارج الزمن السائد ، فلا مكان لها داخل هذه الخريطة الملونة . قتل الزعتر يصبح « حربا قدرة » ، وفلسطين تصبح اسرائيل ، وموتنا الذي يتداعى في ساحات المدن واقبية التعذيب يصبح لا شيء . تتكامل الخريطة العربية وتبقى مثقوبة . والثقب يتسع . والموت الكثير يشمل الاحياء الصغيرة والمنعطفات الضيقة .

لماذا لا يطرح سؤال النفط ؟

لماذا نضيع في لعبة الارقام والحسابات والشركات المتعددة الجنسية ، والكتابة التي لا هدف لها سوى حشو الصفحات باللون الاسود ؟

تبدو الازمة التي يعانها الفكر العربي ، وكأنها قد وصلت الى نهايتها المنطقية . فازدواجية السلفي الحديث ، اثبتت في النهاية ، انها تصل بنا الى نهاية الفكر . الى الفكر الذي يبرر دون خجل ، لا يراجع نفسه الا ليتراجع الى الخلف ، يعيش انحطاطه بمتعة وادعاء . ففي زمن انهيار الامبريالية ، تنهار رموزها وادوات حجبها . نصل الى الديكتاتورية الشاملة ، التي لا تحتاج الى قناع . نصل الى نهاية الفكر ، حيث لا حاجة الى فكر .

لا يمكن فهم هذه الازمة ، الا عبر دراستها في علاقاتها المباشرة بالسلطة . فهذا الفكر ، الذي يأخذ نماذج من خارج الانتاج الاجتماعي ، ( بل ويدعو الى تدمير هذا الانتاج في بعض اتجاهاته ) هو فكر السلطة . فكر بناء سلطات قمعية ، تسحق الجماهير فيما هي تدعي تمثيلها . والمشروع البرجوازي العربي لبناء سلطة قوية مستقلة ، سقط وهزم . لذلك يدعو اليوم الى الاستسلام الكامل للعد والاميركي ، الذي لم يعد قادرا على فرض « سلامه » في العالم . ولذلك ايضا يبدو المشرق ، وكأنه عاد الى الوراء ، ليصبح مسرحا للمسألة الشرقية القديمة ، حيث لا وجود « للدول السبع » التي تفرض هيمنتها . ولذلك ايضا ، ينقلب الحديث البرجوازي الى طوائف ، ويبدو الجسد العربي ، غير قادر على الاستفادة من هزائم أعدائه ، بل يبدو وكأن هزائم أعدائه هي هزائمه !

الى جانب هذا الفكر ، الذي يعاني ازمته الطاحنة ، تعيش ثقافة شعبية فلاحية ، ثقافة الكفاف ، ثقافة تقليدية لها وظيفة اجتماعية محددة ، هي المحافظة على الوجود . لكن هذه الثقافة تعاني هي الاخرى مأزقها . فلقد حرلها « التقدم » الرأسمالي البرجوازي ، الى ثقافة فولكلورية . تحول الشعب الى فولكلور وسياحة . خربت من الخارج والداخل . ولم تعد ، في الزمن الراهن ، قادرة على الفعل . فتم تحييتها الى الهامش . وفي الهامش الواسع ، الذي تعيشه جماهير فقيرة ، كدس التأخر ، واكد التسلسل . فأصبحت الناس ، خارج الفعل وخارج الواقع .

ان الاساس الفعلي لهذه الازمة الفكرية ، هو انهيار علاقة الفكر بالانتاج . فلقد همش الانتاج ، ليصبح انتاجا استهلاكيا ، او انتاجا بهدف التصدير . وفقدت الدورة الاقتصادية استقلاليتها وحيويتها الداخلية . وصار الفكر هو مبرر هذا التحول نحو دخول العصر الحديث ، او هو الملقق الاساسي بين هذا الدخول وبين السلف الصالح . فقد الفكر مبرر وجوده ، اي فقد وظيفته الاساسية ، كانتاج للمعرفة القائمة على الممارسة الاجتماعية . ضاع الفكر في الشعارات الجاهزة ، وانهارت الثقافة وتحولت الى صدى .

وحين تصل الازمة الى ذروتها ، فانها تكشف عن حقيقتها . هنا ، وفي ذروة الازمة ، لم يعد هناك حاجة الى الثقافة او الفكر . لم يعد هناك حاجة الى ادوات الحجب التقليدية . لم يعد هناك حاجة الى المثقفين . ولعل انهيار الثقافة في مصر هو مؤشر لانهايات اكبر . حيث يصبح الترحش المطلق ، والديكتاتورية المكشوفة ، والسجون هي الاداة الرئيسية لتعامل النظام مع جماهيره . لقد ولد نمط ثقافي جديد . وصل الفكر الى قمة ازمته فانكشفت الازمة الحقيقية . انها ليست ازمة مثقفين ولا ازمة ثقافة . انها ازمة فكرية - اجتماعية - سياسية كاملة . ازمة الوجود العربي . وهذه الازمة لم تكن ممكنة ، لو لم يكن هذا الوجود ممكنا في الظرف التاريخي الراهن . لذلك تعلن الازمة عن نفسها بحدّة ، وتكشف احتمالاتها بأسرها . ولذلك ايضا لم يعد النظام يخفي اهدافه . فهو معني اساسا بسحق الجماهير عبر اخراجها من السياسة . انه لا يريد تأييدا كان يحتاجه في فترة صعوده من اجل تأسيس الدولة . يريد الحياد . حياد الناس المطلق والشامل ، الحياد السلبي ، حيث يصبح هم الفرد ان لا يموت وان لا يجوع وان لا ينام في العراق . لم يعد هناك اعداء ، ولا حاجة لاختراعهم . العدو الوحيد هو الرأس الذي يفكر ، او اللسان الذي يتحرك . الهدف هو تحرير السلطة من كل واجب وكل رقابة . تتحالف مع من تشاء وتعاودي من تشاء . الهدف هو تحويل المدن العربية الى مدن صفيح ، يعيش فيها الانسان الى جانب امراضه وكأمرضه .

ولكن ما هو النفط ؟

يبدو النفط وكأنه الحاجز ، أو هكذا يقال ، .نه يقظة التوازن الدقيق الجديدة التي تجعل من الشرق مسألة شرقية . لذلك فهو ليس اقتصادا . ليس مدنيا ولا حضارة . انه سياسة العرب . ولذلك ايضا يبدو وكأن الشرق العربي هو ساحة الصدام الرئيسية بين القوى الفاعلة في العالم . ولكن العرب ليسوا ارضا تنبع نفطا فقط . لذلك تحالف الجميع على سحق التمرد الذي يسمى فلسطين . ولذلك ايضا ، لن يستطيع الجميع سحق هذا التمرد . لانه بشارة للذي سوف يقلب الخريطة ويعيد ترتيب الوانها . ولذلك ايضا كانت الازمة الراهنة ازمة ترتحم بهذه الحرب الاهلية التي لا تنتهي .

الازمة في جوهرها هي ازمة الديمقراطية . اي .زمة الوصول الى الديمقراطية . لذلك فهي اساسا ازمة الاستبداد الحديث . هذا الاستبداد الذي يصل بالمجتمع الى الانسداد المطلق . فيكشف عن نفسه ويكشف عن امكانية تجاوزه . فالازمة لا تعالج في ظواهرها ، بل يجب العودة بها الى الجذور . محاولة رسم خط بياني لتطور الفكر العربي ، وعلاقته بتطور السلطة . محاولة اكتشاف او الية هذا التطور وعلاقاته ، من اجل اكتشاف اشكالية الخروج الى فكر جديد .

يطرح برهان غليون في كتابه « بيان من اجل الديمقراطية » . \* محاولة جديدة بشكل كامل لدراسة تطور الفكر منذ ما يسمى بعصر « النهضة » . وهذا الكتاب الصغير ، الذي صيغ بلهجة بيان ، يقدم منهاجاً جديداً متماسكا ، من اجل الخروج من الاجترار الفكري ، الذي يقدر ويبرر ويفسر حركة الغزو والاستعباد الذي تعرض له الشرق العربي ، منذ ان اصبح ساحبة المسألة الشرقية . يبد من بدايات « النهضة » ، ولا يكتفي بنمذجة فكر هذه « النهضة » . بل يقدم خطا بيانيا ، يفسر ويحلل مسار هذا الفكر ، عن ربطه جدليا . بقاعدة التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، الذي طرأ على المنطقة العربية .

ان المدخل الاساسي لمناقشة فكر « النهضة » ، هو مناقشة الاهداف والوسائل التي صاغها هذا الفكر .

والمسألة المركزية ، كانت دائما هي مسألة الوحدة العربية ، التي يبدو ان احد معالم تاريخنا الحديث ، هو الابتعاد التدريجي عن تحقيق هذا الهدف ، وحذفه من سلم الاولويات . ومناقشة هذه المسألة تبدأ من نقاش موضوعة الامة

\* برهان غليون : بيان من اجل الديمقراطية . البنى السياسية الفكرية للتبعية والتخلف ، ومأساة الامة العربية . دار ابن رشد ، بيروت . الطبعة الاولى ، حزيران ( يونيو ) ١٩٧٨ .



وتكونها • فالامة لا تتكون بالاضطهاد والقهر الذي تمارسه الطبقة القائدة • وفشل تجربة الوحدة المصرية السورية يقدم درسا على العجز عن تحقيق الوحدة ، اي تحقيق الدولة الامة • « الذي ينقل الشعب من حالسة التشتت والتفتت الى الوحدة القومية ، ليس الطبقة القائدة الموحدة • انه الحلف الشعبي الطبقي بين كل الفئات التي كانت تسمى العامة ، وهي الاغلبية المنتجة المضطهدة النهضة ، اثبتت عجزها عن تكوين الوحدة القومية • بسل زادت في التفتت بقيادة البرجوازية دائما ، كانت بالاساس ثورة شعبية » •

ان الفشل الساحق في الوصول الى الدولة - الامة العربية لا يكشف فقط . ضراوة المواجهة التي قادتها الامبريالية الغربية ضد الشعب العربي ، بل يكشف اساسا ، طبيعة التكوين الاجتماعي والسياسي والايديولوجي للنخبة التي قادت التحديث العقلي والسياسي والديني ، بالتحالف مع الغرب • فالبرجوازية الطفيلية الريعية ، بمختلف فئاتها ، قادت الامة الى الهزيمة الشاملة • وما تاريخها البائس ، الا التعبير المباشر والملموس عن عجزها واستبداديتها • فباسم رفض السيطرة العثمانية ، قادت الامة في حرب خاسرة ضد نفسها • اي قادت عبر اصلاحها واصلاحيتها ، الى تهيمش الجماهير ، عبر بناء دولة « حديثة » اكثر استبدادية • وقادت بالتالي الى عودة الاشكال القديمة للتضامن الاجتماعي الى البروز ، او الى استحداث اشكال تأخذ بعدا جديدا ( الطائفية السياسية ) ، كقاعدة لنمو التفتت ، بالتحالف مع الغرب • هكذا يصبح تاريخ الحركة القومية هو تاريخ تكون النخبة العربية الحديثة • ولا يمكن فهم هذا التكون ، بمعزل عن عاملين اساسيين : التكون في التجارة والغزو الاقتصادي والفكري والسياسي • والتكون داخل اجهزة الدولة • وفي التكوينين كان الانهيار العثماني الشامل ، هو بداية التحول التدريجي والبطيء من تراجيدية الافغاني ، الى اصلاحية محمد عبده ، الى تنصيب الشريف حسين زعيما « للثورة العربية الكبرى » •

لكن الى جانب هذا التاريخ الرسمي هناك تاريخ اخر ، تاريخ المقاومة العنيدة في انتفاضات متلاحقة . قامت بها جماهير الفلاحين ضد السيطرة الغربية ، التي كانت تعني اخراجها الرسمي من الواقع التاريخي • هذا التاريخ ، الذي لم يكتب . هو الاخر تاريخ هزائم متتالية • لكنه يشكل مجموعة من اللحظات المضيئة ، التي تقدم مؤشرا على قدرة الجماهير على المقاومة الطويلة النفس •

ان فشل الاصلاح في تحقيق اهدافه المعلنة ، يكشف الاهداف غير المعلنة التي نجح في تحقيقها • فيكشف عجز الانماط الثلاثة التي رفع الاصلاح لواءها • فالاصلاح الديني اوصل الى ادخال الرأسمالية الطفيلية وتبريرها • ان النقد

الذي يوجه لهذا الاصلاح ينبع اساسا من عدم الجذرية التي عولجت بها المسألة الدينية . اذ انه حين يتم بمعزل عن الاغلبية الشعبية وضد مصالحها وانماط حياتها ، وحين ينجز في ظل حراب الاحتلال ، يقود الى « انشقاق بين رجال الثقافة والفكر والفقهاء المرتبطين بالدولة ، وبين القاعدة الشعبية التي فقدت الثقة بهم » . اي انه لم يكن ، في لاجذريته وابتعاده عن الجماهير ، الا مرحلة استطاعت عبرها الفئات الطفيلية القفز الى السلطة ، واقامة الدول – الاقطار والكيانات .

هنا ، يبرز السؤال الخاص بالمرحلة الليبرالية . فلقد مرت معظم الاقطار والكيانات العربية بأنظمة حكم برلمانية ، قبل ان تبدأ سلسلة الانقلابات العسكرية . فلماذا لم تصمد التجربة الليبرالية العربية ؟

وهل هناك وبيبرالية عربية ؟

ان الشرط الاولي ، لوجود ديمقراطية برجوازية ، هو وجود الافراد الاحرار . تعميم الحرية البرجوازية ، التي تسمح ولو مكرهة ، للطبقات الاجتماعية الاخرى بالتعبير عن نفسها . ومن شروطه الاساسية تعميم التعليم ونمو الفكر النقدي . لكن ليبرالية السماسرة وكبار الملاكين العقاريين ، لم تكن لتقبل هذا التعريف لليبرالية . فكانت اولى المحاولات لتحويل التجزئة الى واقع دائم . لذلك تميز الفكر الذي انتج في ظلها ، رغم الحرية الكبيرة نسبيا التي وفرتها بكونه يستكمل مشروع « الرأسمالية التابعة » . « بقي النظام السياسي نيابيا ديمقراطيا ، طالما لم يكن هناك سياسة . انما حرب كامنة ودائمة . وهزيمة عسكرية للاغلبية » .

ان تصفية الديمقراطية ، هي تصفية الاغلبية . وحين تستبعد الاغلبية عن السياسة ، ويجري تهميشها عقليا وسياسيا وفكريا ، فان الديمقراطية تصبح شكلية ، وهي رغم شكليتها ستشكل عائقا في وجه نمو النمط الرأسمالي التابع . لذلك يجري استبدالها بالانقلاب . هنا تصل هزيمة الاغلبية الشعبية الى ذروتها ويحدد الاستهلاك نموذج الانتاج .

ان الموضوع الرئيسية التي يكشفها كتاب برهان غليون ، هي مسألة كون الاستهلاك هو الذي يحدد نموذج الانتاج . اي ان الاقتصاد القومي يتحدد من خارجه . اما البنية الطبقيية ، فانها تشهد توسعا استهلاكيا في القمة ، واقتصاد كفاف في القاعدة . هذا النموذج الاستهلاكي ، هو الذي سيحدد طبيعته « التنموية » من جهة ، سيؤكد على الطابع القمعي الذي للسلطة من جهة اخرى . فتصبح التنمية نهبا متزايدا للاكثرية الشعبية ، وتصبح السلطة هي اداة حماية هذا النهب . ضمن هذا الواقع ، سوف يصاب الهيكل الاجتماعي برمته بالجمود وستكون التحولات ، هي اساسا ، تحولات في الطبقة الوسيطة ، من اجل مزيد

من الاقتراب من السلطة ، وهذا يؤمن قاعدة اجتماعية للسلطة . كما سينعكس داخل موازين القوى في السلطة ، عبر صراعات اجنحتها المختلفة . ان تعميم الاستهلاك « الغربي » ، واحتقار نموذج الاستهلاك المحلي ، يعني ان المجتمع قد فقد سيطرته على نفسه . وهو يقود الى تعميم العبودية . هنا يصبح النفط وثرواته عاملا اساسيا في اشاعة جو من الرخاء الكاذب في المدن ، حيث يسود التضخم ، وتحول الجماهير الى ركام لا يجد قوت يومه .

داخل دوامة التبعية هذه ، تعيش معظم شعوب العالم الثالث . ونحن لا نخرج عن هذا القانون . هكذا تكون جميع المحاولات من اجل بناء الامة قد فشلت والفشل يعود اساسا الى الغياب الكامل للديمقراطية الشعبية ، الى القهر العام والمعمم ، الذي يقوم به نظام كامل من العلاقات الداخلية والخارجية .

« وفشل تكون الامة العربية ، لا يعود الى فشل الطبقة العربية القائدة والمهيمنة ، هنا ( الاقطاعية ثم الكمبرادورية ثم برجوازية الدولة والبرجوازية البيروقراطية ) في التحول الى طبقة راسمالية قومية ومستقلة عن النظام الرأسمالي العالمي . وانما فشل هذا التحول ذاته ، يرجع الى فشل الثورة الديمقراطية الشعبية والتحرر السياسي » .

ليست المهزيمة ، اذن ، هزيمة عسكرية جزئية او كاملة . انها نهاية مجموعة من الطروحات السياسية والفكرية . فالمبادئ الثلاثة ، التي قام عليها عصر النهضة ، اثبتت عجزها عن تكوين الوحدة القومية . بل زادت في التفكك والتشردم . فالمبدأ الاول : التحرر العقلي لم يقود الى تحرير الفكر وتعميم الثقافة ، بل زاد في بؤس الاكثرية وعزلها عن كل ثقافة . فهو حين قام بتدمير الحياة الثقافية التقليدية ، لم يستبدلها بثقافة جديدة شعبية وديمقراطية . وهذا يبدو واضحا في نظام التعليم « المتمحور حول خلق اطارات تصدر الى الخارج ، لا حول تحرير الشعب من الامية الهجائية والفكرية » . ان فشل التحرر العقلي ، واللجوء الى توفيقية مستحيلة ، لم يقود الا الى مزيد من الاندراج في الحركة الكولونيالية الزاحفة .

اما المبدأ الثاني : القائم على ربط التحرر السياسي ببناء الدولة العربية ، فقد اثبت عجز البرجوازية عن تحقيقه ، استحالتة خارج بناء حلف شعبي يضم جميع الطبقات المنتجة . « اذا كانت الوحدة العربية لم تتحقق ، ولم تتحقق بشكل خاص بين البلدان العربية التي سيطرت عليها الفكرة القومية ، ووصلت الى السلطة فيها الطبقة والنخبة التي كانت تبدو وكأنها ملاك التضحية القومية . فليس ذلك بسبب الاخطاء التكتيكية ، او المقاومة العنيدة الاجنبية . ولكن لان هذه الايديولوجية بالذات ، لم تكن الا غطاء لمصالح اجتماعية ضيقة يتعارض تحقيقها مع تحقق الوحدة ، بقدر ما يقوم على توسيع قاعدة الطبقة الاجتماعية البرجوازية ، وتعميق الخط الرأسمالي التابع ، وتهميش وقمع واستعباد

الشعب» . ان هذا الفشل هو المؤشر الفعلي على فشل شامل . فالمسألة ليست في عدم القدرة على تنظيم الجماهير ، او على استيعاب النظرية العلمية . فهذه الطبقة ، لا تسيطر الا بتهميش الجماهير وابعادها بشكل كامل عن السياسة والثقافة . فمن سيقوم بالوحدة اذن ؟

اما المبدأ الثالث : القائم على التنمية ، وعلى الشعارات الاجتماعية ، فهو يؤكد على عبادة التقنية .

ويعد الاقتصاد للتصدير الخارجي ، الذي يؤمن امكانيات استيراد السلع الكمالية . اي ان هذه التنمية حين تقبل نموذج الاستهلاك الخارجي - الغربي - الذي لا يستطيع مجتمعها تأمينه ، تقوم عمليا برهن الاقتصاد الوطني للخارج ، وتنتج سلعا وسيطة . فالتنمية هي افقار للاغلبية ، وريادة في قدرة الاقلية المتسلطة على الاستهلاك ، والاندماج في السوق الرأسمالية العالمية . هكذا يؤكد على الرأسمال بدل العمل . ويجري تخريب الاقتصادي الوطني .

ان هذا الفشل المثلث ، والذي يعبر عن ثلاث مراحل في الفكر العربي السائد ، يؤكد فشل طبقة كاملة ، باجنحتها المروية والمعارضة . وهو الذي يقود الى عدم قدرة الامة ، على تحقيق النصر وعلى تأكيد وجودها . كما يقود المجتمع الى انقسام خطير : « ان فشل السياسة الثقافية للنهضة ، يجسده اليوم ، هذا الانشقاق المطلق بين ثقافتين وعصرين ثقافيين وحضارتين وامتين : امة تقليدية تعيش على الماضي ، وامة حديثة تعيش على حاضر هش قلق ولا افاق له ، يدفعها الى الالتحاق اكثر فاكثر بالغرب والشعور بمشاعره ، والتحول الى اداة سيطرته في وجه الاغلبية المتجمدة والمتراجعة اكثر فاكثر الى مواقع تقليدية » .

وتقودنا مناقشة فكر وسياسات « النهضة » ، الى نقاش الواقع العربي الراهن . والنقطة الاساسية ، التي يطرحها هذا الكتاب ، هي مراجعة شاملة واولية لفكر « النهضة » ولفكرنا . وتتوقف هذه المراجعة ، عند نقطة محورية : انهيار الثقافة وولادة ثقافة جديدة هي ثقافة السلطة . لكن هذه الثقافة الجديدة كانت ثقافة انهيار ، لانها عبرت عن سلطة متراجعة وعاجزة عن تحقيق الاهداف التي رسمتها . هل كانت هذه الاهداف مجرد غطاء لصعود فئات اجتماعية ؟ اما ان هذا الصعود هو الذي كان يدخل تعديلات دائمة على هذه الاهداف حتى اوصلها الى فقدان معناها ؟

ان الفشل الاساسي « للنهضة » الفكرية والسياسية ، هو الفشل في صياغة الاستقلال الوطني . اي الفشل في خلق نموذج محلي للاستهلاك والانتاج . اي الفشل في الوصول الى الديمقراطية الشعبية ، التي تربط المعرفة بالممارسة الاجتماعية والانتاج ، وتعزل العناصر الطفيلية والسفسارية . يسمح لنا هذا

الفشل بدراسة فكر النهضة دراسة تفصيلية وبرؤية جديدة . فحين يوضع هذا الفكر داخل الممارسة التاريخية فانه يكشف عن تناقضاته ، التي تعكس التناقضات الاجتماعية داخل سياق بناء مشروع السلطات القطرية .

يكشف هذا « البيان » انسداد الفكر البرجوازي وعجزه وهزيمته . لكنه ، في بحثه عن رسم خط بياني لتطور فكر وسياسات « النهضة » ، يهمل دراسة بعض التناقضات الهامة في هذا الفكر . والتي تعكس محاولة اجزاء من النخبة العربية المبحث عن قاعدة شعبية للاستقلال الوطني . ولعل التيار الذي يمثله شكيب ارسلان ، في اصراره على اولوية الصراع مع الغرب الامبريالي على كل صراع اخر ، كان الصيحة التي تستكمل رؤية الافغاني ، وتضعها في افق الممارسة السياسية .

« ان نظامنا الحديث ، منذ النهضة الى اليوم ، لا يقوم الا بثلاثة مبادئ : النهب وحصيلته الافقار ، والقهر وحصيلته الاسترقاق والاستعباد السياسي ، والترجمة والتقليد وحصيلتهما الجهل وقصور نشاطات الحياة على النشاط الاولي والبدائي البيولوجي » .

ان نهاية قدرة الايديولوجية المسيطرة ، بمختلف تياراتها واتجاهاتها ، على الفعل ، لا تبشر فقط بولادة الديكتاتورية المكشوفة ، لكنها تشير ايضا الى ولادات متعددة لنسق فكري وسياسي جديد . فالممارسة الديموية التي خاضتها الجماهير ، من رمال سيناء الى الشاطئ الفلسطيني - اللبناني ، هي مؤشر لولادة جديدة . فدراسة فكر « النهضة » خارج اشكالية « الاصلاح » بتياراته الثلاثة : الاصلاح الديني ، والاصلاح السياسي والاصلاح الاقتصادي ، يقود الى تأسيس فهم جديد للديمقراطية . فالديمقراطية الشعبية وحدها ، ديمقراطية المنتجين ، هي التي تستطيع انتشال الامة من هاوية التشرذم التي تقاد اليها .

هل اجبنا على سؤالنا الاساسي : ما هو النفط ؟

ام ان العقم والصحراء التي تحاول ابتلاع المدن ، تحتاج الى دراسات تفصيلية ، ليس هذا البيان الا مقدمتها ؟

## ربيع الأسير

## القوات المسلحة الأميركية في أواخر السبعينات دور "جديد" ومعضلات مستعصية

تبدو القوات المسلحة الأميركية في أواخر السبعينات وكأنها في مرحلة انتقالية . ولئن كانت تلك القوات ، وحتى الامس القريب ، القوة العسكرية الاولى في العالم - كما اظهرت ازمة الصواريخ الكوبية في العام ١٩٦٢ ، وغيرها من الازمات وعمليات التدخل في خمسينات وستينات هذا القرن - فانها تبدو اليوم وكأنها تبذل جهودا كبيرة للحفاظ على التوازن مع قوات الكتلة الاشتراكية واستعادة مصداقيتها وفعاليتها . كما وانها تبذل جهودا كبيرة لتقليل الثغرات التي تعاني منها ، والتي تضع حدودا على قدراتها القتالية . وتحاول تلك القوات ، في الوقت نفسه ان تتكيف مع المهام الجديدة التي اسندت اليها مع تطور الاستراتيجية الأميركية نتيجة للمتغيرات العديدة التي شهدتها العالم في السنوات الماضية .

ولئن كانت الصعوبات التي تعاني منها القوات المسلحة الأميركية تعكس والى حد بعيد الازمة المتنامية التي يعاني منها المعسكر الامبريالي برمته ، فان التدهور النسبي لوضع تلك القوات يساهم مساهمة جديده في تعميق تلك الازمة ، كما يشكل عاملا اساسيا في التعديلات التي طرأت على الميزان الاستراتيجي بين المعسكر الامبريالي وقوى التغيير والتحرر في انحاء العالم .

وفي حين يمكن القول ان حرب فيتنام - وهي الحرب الاولى التي منيت فيها القوات الأميركية بهزيمة عسكرية - كانت العامل المباشر وراء كشف الثغرات التي تعاني منها المؤسسة العسكرية الأميركية ، فانها لم تكن في حقيقة الامر -

رغم أهميتها - سوى احدى العوامل التي ساهمت بمجموعها في تضعف القوات المسلحة الاميركية .

### الدور « الجديد » للقوات المسلحة الاميركية

في خطاب القاه الرئيس الاميركي السابق ريتشارد نيكسون في العام ١٩٧٠ حول « وضع العالم » ، تم تحديد دور « جديد » للولايات المتحدة في النزاعات الدولية ، حيث أكد نيكسون انه في حالة وقوع نزاع غير نووي ، تقوم الولايات المتحدة بتزويد حلفائها بمساعدات عسكرية واقتصادية بناء على طلبهم ، على ان تأخذ « الامة المهتدة والمراد مساعدتها » على عاتقها مسؤولية تأمين ما تحتاجه من القوات العاملة (١) .

ولقد ساهمت سياسة « الفتنة » في بلورة ما عرف في وقت لاحق « بمبدأ نيكسون » . وكانت تلك السياسة نتيجة الصمود البطولي الذي أبدته الثورة الفيتنامية في مواجهة القوة العسكرية الاميركية ، بالاضافة الى التفاعلات السياسية التي قاد اليها ذلك الصمود ، ان على الصعيد الدولي ، او في داخل الولايات المتحدة نفسها ، حيث برزت نزعة جديدة الى « العزلة » ، وانتشرت قيم جديدة - بين الشبيبة بشكل خاص - معادية للحرب ، وتحمل روحا نقديّة للدور البشع الذي يقوم به التحالف « العسكري - الصناعي » على الصعيدين الدولي والمحلي . كما كانت تلك السياسة تعبيراً عن بدء تفاهم الازمة الاقتصادية في الولايات المتحدة نفسها .

وفي السابع من تشرين الثاني ( نوفمبر ) ، ١٩٧٢ ، اقر الكونغرس الاميركي قراراً يفرض على الرئيس ابلاغ الكونغرس خلال فترة لا تقل عن ٤٨ ساعة عن عزمه على عدم زج اي قوات عسكرية اميركية في نزاع خارجي ، او على زيادة حجم القوات الاميركية الموجودة مسبقاً في بلد اجنبي . كما يفرض القرار انتهاء زج تلك القوات خلال فترة لا تتعدى ٦٠ يوماً الا اذا اقر الكونغرس ضرورة استمرار تلك القوات في القيام بالمهمة التي اوكلت اليها (٢) . ولقد جاء ذلك القرار بعد مضي عدة اشهر على توقيع اتفاقية وقف اطلاق النار بين هنري كيسنجر ولي بوك ثو في ٢٧-١-١٩٧٣ ، وبعد خروج اخر جندي اميركي من فيتنام في ٢٩-٣-١٩٧٣ .

وكان ذلك كله تعبيراً واضحاً عن بدء افول عصر الهيمنة الاميركية على العالم . الا ان تلك الاحداث وعلى الرغم من ضخامة المعاني التي حملتها - لم تصرف الامبريالية الاميركية عن محاولة الاستمرار في لعب دور «شرطي العالم» على ان يفيد ذلك « الشرطي » من قوات حلفائه المحليين ، بالاضافة الى خلق

احلاف جديدة تأخذ على عاتقها سد الثغرات التي يمكن أن تبرز في بلد مسن البلدان .

ومع تجدد الاحداث في اقليم « شابا » خلال شهر ايار « مايو » الماضي ، اتخذ الرئيس الاميركي جيمي كارتر اجراءات عديدة ، من ضمنها وضع الفرقة « ٨٢ المصولة جوا » في حالة تأهب ، بالاضافة الى تقديم طائرات نقل للقوات البلجيكية التي اندفعت الى قلب القارة السوداء لدعم نظام مويوتو وحماية المصالح الغربية الضخمة في « زائير » . وكانت تلك الاجراءات اكبر عملية عسكرية تقدم عليها ادارة الرئيس الاميركي الحالي ، الذي ركز على ان « الولايات المتحدة تقدم الدعم فقط في منطقة غير قتالية » (٣) .

ولقد عكست احداث « شابا » تقسيما جديدا للدوار بين مختلف اطراف المعسكر الغربي ، وتطويرا لمبدأ « نيكسون » . كما اعادت الى الازهان جانبا من الدور الذي يمكن ان تضطلع به القوات المسلحة الاميركية خلال عصر ما بعد فيتنام . وهو جانب لا يستبعد امكانية زج القوات الاميركية حيث يوجد تهديد حقيقي للمصالح الاستراتيجية الاميركية ، رغم التفضيل الواضح للقتال بواسطة جنود الغير .

وكان تقرير يحمل عنوان « مذكرة المراجعة الرئاسية - ١٠ » قد قدم الى اجتماع لكبار مسؤولي البيت الابيض في تموز ( يوليو ) ١٩٧٧ ، ليحدد ملامح الاستراتيجيات العسكرية المختلفة المحتملة ، وحجم القوات والمعدات والاسلحة الضرورية لتنفيذها (٤) . كما عدد التقرير « حالات الطوارئ » المحتملة والقوات الضرورية لمواجهة . وتقع على رأس تلك الحالات احتمال قيام حلف وارسو بشن هجوم على دول حلف شمالي الاطلسي في اوروبا الوسطى ، وهو احتمال كثر الحديث عنه في السنوات الاخيرة ، حيث تبارى المحللون الاستراتيجيون في وضع سيناريو للحرب الخاطفة التي قد تشنها قوات حلف وارسو ، ويكون مسرحها الرئيسي بلدان اوروبا الغربية . ولقد حدد الفريق اول جورج س . براون ، رئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة استراتيجية الولايات المتحدة في هذا المجال على انها « القتال قدر الامكان بالمستوى غير النووي ، ثم اللجوء الى الاسلحة النووية التكتيكية ، ومن ثم الاسلحة الاستراتيجية اذا دعت الضرورة » . ويضيف براون : « اذا كان هدفنا الرئيسي خوض الحرب بدل ان نردع الحرب ، كنا سنفعل اشياء كثيرة بصورة مختلفة . ما نحاول ان نفعله - وبنجاح حتى الان - هو ردع الحرب بواسطة رادع نووي استراتيجي بشكل اساسي » . كما لا ينسى ان يؤكد انه « ليس متشائما جدا حول قدرتنا على التعامل مع التهديد السوفياتي ، الا انني لا اعتقد ان هناك مجالا للتفاوض » (٥) .



وإذا كان « الدفاع عن أوروبا » من أولويات المؤسسة العسكرية الأميركية ، فإن « حالة الطوارئ » الثانية التي تشير إليها « مذكرة المراجعة الرئاسية - ١٠ » تتعلق بحرب بين الشرق والغرب خارج أوروبا . ومما لا شك فيه ان أبرز المناطق « المرشحة » لان تكون مسرحا لمواجهة أميركية - سوفياتية حسب تقدير واضعي الاستراتيجية الأميركية هي منطقة الشرق الأوسط والمحيط الهندي ، وإفريقيا ، وشرقي آسيا الى حد ما .

فمنطقة الشرق الأوسط ، بموقعها الاستراتيجي ، ومخزونها الضخم من النفط - وهو المصدر الأساسي للطاقة حتى اشعار آخر - تعتبر في قمة أولويات المؤسسة العسكرية الأميركية . ولقد أبدى المسؤولون الأميركيون مرارا « قلقهم » من قرب موقع الاتحاد السوفياتي من إيران ودول الخليج العربي المنتجة للنفط، الامر الذي يمنح الاتحاد السوفياتي ميزة استراتيجية يجب ان « تمنح ثقلا هاما في وضع تقييم صاف للقوى » (٦) . ويعتبر المسؤولون الأميركيون ان من أولى مهامهم ضمان استمرار تدفق النفط الى دول العالم الرأسمالي . وهذا ما دفع المؤسسة العسكرية الأميركية الى وضع خطة لغزو منابع النفط ، كما دفعتها الى تدريب جزء من القوات - وبشكل خاص سلاح مشاة البحرية - على الانتقال في المناطق الصحراوية وفي ظروف شبيهة بالظروف السائدة في مناطق حقول النفط في الخليج العربي . كما وان الحرص على استمرارية تدفق النفط دفع كلية الحرب البحرية الأميركية في نيويورك ان تركز في تدريباتها على معركة « كاذبة » مع السوفيات على خطوط مواصلات ناقلات النفط في المحيط الهندي ، في سيناريو خلاصته توتر العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بسبب « الحشود العسكرية السوفياتية » في اليمن الجنوبي والعراق . ويتسم ارسال قوة مهمة الى المحيط الهندي بسبب تخوف الولايات المتحدة من اقدام السوفيات على وقف تدفق النفط . وتدور « المعركة » التي غالبا ما « تنتصر » فيها الولايات المتحدة (٧) .

وإذا كان المحيط الهندي يكتسب أهمية متزايدة نتيجة تنامي أهمية النفط في منطقة الشرق الأوسط ، فإنه يوفر كذلك مسرحا مناسبنا لتوجيه ضربات الصواريخ الباليستكية التي تطلق من الغواصات النووية الى اهداف عديدة في الاتحاد السوفياتي ، كما وأنه يشكل حلقة هامة في شبكة الاتصالات العالمية التي تمتلكها الولايات المتحدة . ومما لا شك فيه ان التطورات الاخيرة في كل من أفغانستان وأثيوبيا قد زادت من هموم الولايات المتحدة فيما يتعلق بمنطقتي الشرق الأوسط والمحيط الهندي .

كما وان الاحداث التي تشهدها القارة الافريقية تشكل مصدر « قلق » آخر بالنسبة الى واضعي الاستراتيجية الأميركية . ان تجمع تلك الاحداث بين سمات

حالتين من « حالات الطوارئ » التي اشارت اليها « مذكرة المراجعة الرئاسية - ١٠ » . فبالاضافة الى احتمال حدوث مواجهة بين « الشرق والغرب خارج أوروبا » نتيجة للوجود الكوبي والسوفيياتي في القارة الافريقية ، تبرز في تلك القارة « حالة الطوارئ » الثالثة وهي ما اسمته المذكرة بحروب « قومية » مثل فيتنام .

وتندرج ضمن هذه الحالة ايضا النضالات التي تخوضها الامة العربية من اجل الوحدة والتحرير . وبذا تبرز في المنطقة العربية كذلك سمات حالتي الطوارئ السابقتين . وتأخذ الاستراتيجية الاميركية في هذا المجال وجود دولة العدو الصهيوني بعين الاعتبار ، والميزات الاستراتيجية الهامة التي يوفرها ذلك الوجود .

وتحدد المذكرة « حالة الطوارئ » الرابعة على انها « النزاعات في شرقي آسيا » . ومما لا شك فيه ان الولايات المتحدة تنظر بعين الرضى الى النزاع الصيني - السوفيياتي ، وانعكاساته على الوضع الاستراتيجي في العالم .

اما الحالة الخامسة ، فهي حرب نووية شاملة مع الاتحاد السوفيياتي . ويشكل تنامي قوة الاتحاد السوفيياتي على صعيد الاسلحة الاستراتيجية مركز قلق جدي ، حيث اصبح الهدف « المعلن » لواضعي السياسة الاميركية الحفاظ على التوازن الاستراتيجي ، بعد ان كانت الولايات المتحدة تتمتع باحتكار القوة النووية قبل ما لا يزيد عن ثلاثين عاما .

واذا كانت تلك هي « حالات الطوارئ » التي يجري اعداد القوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات لمواجهةها ، فان عملية الاعداد تلك تتطلب معالجة جدية للمعضلات الرئيسية التي تعاني منها القوات المسلحة الاميركية . فلقد بدأ العمل على عملية اعادة بناء فعالية لتلك القوات خلال السبعينات . الا ان عملية اعادة البناء قد رافقها بروز معضلات جديدة . كما يبدو اليوم انه لا يوجد حلول ضمن المدى المنظور للعديد من المعضلات التي تعاني منها تلك القوات .

### الضغوطات الاقتصادية والمالية

تفرض الازمة الاقتصادية التي تعاني منها الولايات المتحدة ، والتي تتمثل في جانب منها في تنامي معدلات التضخم والبطالة في آن واحد ، قيودا كبيرة على المؤسسة العسكرية الاميركية . ومن البديهي القول انه لو لم يكن هناك « ندرة » في الموارد ، لكانت العديد من المشاكل التي تواجه تلك المؤسسة ابسط بكثير .

فلقد ساهم التضخم ، بالإضافة الى انتشار شعور لدى الاميركيين بضرورة تخصيص الموارد لمعالجة مشكلات اخرى تمس حياتهم اليومية ، وتنامي الشعور « بعدم جدوى » سباق التسلح ، في فرض قيود جدية نسبياً على موازنات الدفاع ، وعلى مشاريع التسلح .

ولقد اقرت موازنة الدفاع للسنة المالية ٧٨ في الكونغرس في اواخر ايلول ( سبتمبر ) ، ١٩٧٧ . وتمنح تلك الموازنة الادارة صلاحية انفاق ١١٠ بليون دولار خلال السنة المالية . وهذا الرقم هو اقل من الرقم الذي طالب به كارتر بنسبة ٣٤٥٪ ، كما وانه اقل من الرقم الذي توقعه فورد بجوالي ٥٩٪ . ويجدر الاشارة الى انه قد تم تعديل مستويات التمويل للعديد من البرامج الرئيسية ثمانى مرات قبل ان تقر في قيمتها النهائية . وكان سلاح الجو الاميركي المعاني الاكبر من هجمات الكونغرس ، حيث تسم تخفيض موازنته المقترحة بنسبة ١٨٪ ، في حين تم تخفيض موازنة الجيش المقترحة بنسبة ١٧٪ . وكانت البحرية الاوفر حظا ، حيث لم تخفض موازنتها المقترحة بأكثر من ٤٤٪ (٨) . وكان كارتر قد اتخذ قرارا بالغ الاهمية قبل اقرار تلك الموازنة ، وهو الغاء القاذفة الاستراتيجية الجديدة « ب - ١ » . ومما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية والضغطات على الموازنة كانت عاملا رئيسيا وراء ذلك القرار .

ولقد حاول ريتشارد ايكورد ، عضو لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب، ورئيس اللجنة الفرعية للابحاث والتطوير ، ان يبرر التدخل والتدقيق الشديد من قبل الكونغرس في شؤون القوات المسلحة ، حيث اشار الى ان السبب وراء ذلك « هو الشعور العام لدى اعضاء اللجنة الفرعية للابحاث والتطوير اننا نصبح - وبخطوات متسارعة - وراء السوفيات في قدرات الدفاع . وفي الوقت نفسه ، يقر الاعضاء بأن الموارد المتوفرة للدفاع هي محدودة الى حد بعيد ، وانه يجب ان نعمل بجهد وعناية لنضمن ان هذه الموارد تنفق بحكمة اذا كان علينا الحفاظ على وضع دفاعي مناسب » (٩) .

ولقد قدمت موازنة الدفاع للسنة المالية ٧٩ الى الكونغرس الاميركي في ٢٣-١-١٩٧٨ . وستكون تلك الموازنة ، في حال اقرارها ، اعلى من موازنة السنة المالية ٧٨ بنسبة ٢٣٪ بعد ان يتم حساب التضخم . وابرز ما في الموازنة الجديدة الغاء برنامج طائفة النقل المتوسطة القدرة على الاقلاع والهبوط من مسافة قصيرة ، وتأخير برنامج الصواريخ البالستية العابرة للقارات ( ام - اكس ) ذات المنصات المتحركة التي يفترض ان تحل محل صواريخ « مينوتمان » التي يتوقع ان تصبح غير قادرة على مواجهة ضربة سوفياتية في اواسط الثمانينات ، بالإضافة الى تجاهل مسألة تجهيز حاملات

الطائرات التي ترغب البحرية في بنائها بمحركات تعمل على الطاقة النووية (١٠) .

ولقد أبدى قادة البحرية بشكل خاص اعتراضات جدية على الموازنة الجديدة المقترحة . اذ يصر هؤلاء على ان التضخم سيحول الزيادة « البسيطة » في حصتهم من الموازنة الى تخفيض فعلي . كما يعترض هؤلاء على تخفيض الاموال المخصصة لبناء السفن من ٨ر٥ بليون دولار في السنة المالية ٧٨ الى ٧ر٤ بليون دولار في السنة المالية المقبلة ، مما سيسمح ببناء ١٥ سفينة جديدة فقط ، في حين كانت مخططات ادارة فورد للموازنة ترمي الى تمكين البحرية من بناء ٢٩ سفينة خلال الفترة نفسها (١١) .

ومما لا شك فيه ان ارتفاع كلفة انظمة الاسلحة الحديثة ، والتعقيدات المتزايدة التي يتطلبها بناؤها - عبر التركيز على « النوعية » ، وهذه مسألة محببة جدا بالنسبة الى شركات الاسلحة الاميركية - تساهم الى حد بعيد في تفاقم الضغوطات المالية على القوات المسلحة الاميركية . وتكفي بعض الامثلة للدلالة على مدى ارتفاع كلفة انظمة الاسلحة . ففي حين تبلغ كلفة المدمرة من فئة « سبراونس » ١٣٤ر٢ مليون دولار ، لم تكن كلفة المدمرة خلال الحرب العالمية الثانية تتجاوز ٥ مليون دولار . كما ارتفعت كلفة غواصة الهجوم من ٣ر٩ مليون دولار في العام ١٩٤٦ الى ٢٨٤ مليون دولار في الوقت الراهن (١٢) .

ولقد ادت الضغوطات على الموازنة الى اتخاذ قرار في تموز ( يوليو ) ١٩٧٧ بتخفيض عدد العاملين في وكالات الدفاع الملحقه بوزارة الدفاع الاميركية بنسبة ٢٢٪ ، على ان يتم تخفيض القوة البشرية في وكالات مشابهة خارج البنتاغون بنسبة ٢٢ر٤٪ (١٣) .

### الثغرات في التجهيز وفي المعدات

تساهم الضغوطات الاقتصادية والمالية التي تتعرض لها القوات المسلحة الاميركية في تفاقم الازمة التي تعاني منها تلك القوات على صعيد الثغرات في التجهيز وفي المعدات ، وذلك الى جانب اصرار القادة العسكريين الاميركيين على الحفاظ على « النوعية » على حساب الكمية .

ويشير القادة العسكريون الاميركيون الى ثغرات في التجهيز في جميع المجالات . فعلى صعيد القوات الاستراتيجية النووية ، ساهم قرار الرئيس كارتر القاضي بالغاء برنامج القاذفة الاستراتيجية « ب - ١ » في ارباك جانب من الثلث الذي تعتمد عليه القوة النووية الاميركية ( قاذفات استراتيجية -

صواريخ بالستية عابرة للقارات ذات قواعد برية - صواريخ بالستية تطلق من الغواصات النووية ) . ولقد ركز معارضو ذلك القرار على عدم قدرة القاذفة « ب - ٥٢ » على الاستمرار في أداء المهام التي قد تطلب منها لفترة طويلة من الزمن ، حيث ان احدث تلك الطائرات دخل الخدمة منذ حوالي ١٥ سنة . كما وانها تعاني من مصاعب تنجم عن تعطل الصمامات المفرغة التي تشكل اساس الكترونيات الطيران المزودة بها . وكنا قد اشرنا سابقا الى توقع عدم فاعلية صواريخ مينوتمان البالستية العابرة للقارات في اواسط الثمانينات ، وعدم قدرتها على تحمل ضربة سوفياتية .

هذا وتعاني مختلف صفوف القوات التقليدية من ثغرات جدية كذلك . ان تعاني القيادة الجوية التكتيكية من نقص في الطائرات لن يغطي حتى العام ١٩٨١ ، ومن نقص عام في الذخيرة وخاصة فيما يتعلق بالصواريخ المتطورة عالية الكلفة . كما تؤكد القيادة الجوية التكتيكية انها تعاني من مشكلات فسي محركات الطائرتين « ف - ١٥ » و « ف - ١٦ » ( وهما احدث ما في الترسانة الاميركية ، ويفترض بهما ان تكونا « افضل طائرتين مقاتلتين » في العالم ) ، بالاضافة الى نقص في قطع غيار الطائرة « ف - ١٥ » (١٤) .

من جهة ثانية ، يؤكد الفريق اول برنارد روجرز ، رئيس اركان الجيش الاميركي ، ان الجيش يعاني من نقص في مخزون الذخيرة ، وفي الدبابات الحديثة ، والمدفعية ، وطائرات هليكوبتر هجومية متطورة ، بالاضافة الى غيرها من المعدات الحديثة (١٥) .

اما سلاح البحرية ، فلقد انخفض عدد سفنه من ٩٧٦ سفينة في العام ١٩٦٨ الى ٤٥٩ سفينة في الوقت الراهن ، وتشير التوقعات الى ان حجم اسطول القتال سيستمر في الانكماش . ويشير الفريق اول بحري « جيمس هولواي » الى ان الاميركيين كانوا دائما يفخرون في اننا نملك ( بحرية محيطين ) ، الا ان تخفيض اعداد السفن حد بالتاكيد من قدرتنا على القتال في اكثر من محيط في الوقت نفسه . كما يشير « هولواي » الى ان « ميزان التفوق البحري قد يميل بقوة لصالح السوفيات خلال عشر سنوات » (١٦) .

هذا وتبدو هذه العضلات واثارها شديدة الموضوح ضمن السيناريو السذي يفترض قيام قوات حلف وارسو بشن حرب خاطفة في اوروبا الغربية . وتكون مهمة الاسطول الاميركي الاولية في تلك الحالة العمل على تأمين ايصال الامدادات والتعزيزات الى اوروبا الغربية ، وضمان استمرار تدفق الوقود والمواد الغذائية على كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، ذلك ان وسائل النقل الجوية اعجز من ان تقوم بمثل هذه المهمة .

ومما لا شك فيه ان تلك ليست بمهمة سهلة ، حيث ستتعرض خطوط

المواصلات البحرية الى هجمات جديّة تقوم بها الغواصات السوفياتية المنطلقة من قواعدها الى شمالي الاطلسي . ويقدر الاميركيون انهم يحتاجون السى ارسال قوتين ضاربتين من حاملات الطائرات لتحوّلا ابقاء الغواصات السوفياتية بعيدا عن خطوط المواصلات البحرية ، واغراق الغواصات الموجودة بمحاذاة تلك الخطوط ، او منعها من العودة الى قواعدها . ويؤكد الفريق اول بحري « ايزاك كيد » القائد الاعلى للحلفاء في المحيط الاطلسي انه يجب - في حال بروز وضع كذلك - تعبئة حوالي ٦٠٠٠ سفينة من اساطيل بلدان الناتو التجارية ، على ان تحمل تلك السفن وترسل عبر المحيط بأقصى سرعة ، حيث قد يضطر بعضها الى القيام بالرحلة دون حراسة . ويقدر « كيد » ان من المحتمل فقدان سفينتين من كل ٣ سفن خلال الايام الاولى ، مشيرا الى ان الحلفاء سيحصلون على « انف مدمى جيدا ٠٠٠ » ( ١٧ ) .

وفي حين يمكن ان يكمن احد الحلول لمشكلة كتلك في تركيز كميات كبيرة من المعدات الاضافية بشكل مسبق على الاراضي الاوروبية ، فان تلك العملية عالية الكلفة .

ومن المشكلات الاخرى التي تعاني منها القوات المسلحة الاميركية بالاضافة الى قوات حلف « الناتو » بشكل عام ، هي غياب التوحيد في المعدات التي تستخدمها قوات « الحلفاء » . ولقد قدر الفريق اول « اندرو غودباستر » ، القائد الاعلى السابق لقوات الحلفاء في أوروبا ان غياب توحيد المعدات وانتشار معدات وانظمة متعددة ادى الى تخفيض فاعلية قوات الحلفاء في أوروبا بحوالي ٣٠٪ (١٨) . وتعكس هذه المشكلة المنافسة بين احتكارات صناعة الاسلحة في الولايات المتحدة ، ومنافساتها في بلدان أوروبا الغربية ، الامر الذي يظهر مدى صعوبة ايجاد حلول شاملة وجديّة لمشكلة التوحيد .

وتظهر هذه المشكلات كافة عدم جديّة استعداد القوات المسلحة الاميركية لخوض حرب طويلة ضد قوات بمستوى قوات حلف « وارسو » . ويبقى الاعتماد الرئيسي في هذا المجال على الرادع النووي .

### الثغرات في القوة البشرية

في السابع والعشرين من كانون الثاني ( يناير ) ، ١٩٧٣ ، اعلن وزير الدفاع الاميركي السابق « ملفين ليرد » انتهاء التجنيد الالزامي في الولايات المتحدة الاميركية ، وعاد التطوع ليشكل اساس بناء القوات المسلحة الاميركية . وكانت حرب فيتنام قد ساهمت في احداث ثغرات رئيسية وخطيرة في القوة البشرية للمؤسسة العسكرية الاميركية . فلقـد تدهورت معنويات القوات القتالية ، كما تدهور الانضباط العسكري ، مما ساهم في التأثير على السلطة

العسكرية داخل القوات المسلحة . وانتشرت التيارات المعارضة للحرب فسي صفوف المجندين ، وعدد كبير منهم من خريجي الجامعات والثانويات العامة ، كما ارتفعت نسبة الحوادث ذات الدلالات الهامة في صفوف القوات .

وفي حين ارتفع معدل السرقات والاعتداءات ، ارتفعت كذلك نسبة الفرار من الخدمة والغياب بدون إذن ، إلى جانب انتشار المخدرات . وتزايدت من جهة ثانية حوادث التمرد وعصيان الاوامر ، كما ظهرت « تصفيات » للمتحمسين للحرب ان مباشرة اثناء القتال ، او على مراحل حيث يتم تهديد المتحمس على نحو تصعيدي حتى يصل الامر الى اغتياله ان لم يرتدع .

وفي حين يؤكد معظم القادة العسكريين الاميركيين ان المشكلات التي ظهرت مع حرب فيتنام قد انتهت ، وان قوات « المتطوعين » قد تجاوزتها ، فان القوات المسلحة الاميركية لا تزال تعاني من ثغرات جدية على صعيد القوة البشرية . فلقد اظهرت عملية تقصي قامت بها وزارة الدفاع الاميركية في العام ١٩٧٤ ان ٦٠٪ من الشبيبة الاميركية لا ترغب بأي نوع من الارتباط بالمؤسسة العسكرية (١٩) . وفي حين يمكن اعتبار ذلك بمثابة رد فعل مباشر وفوري على الحرب الفيتنامية ، يجدر التأكيد بأنه ليس من السهل على جيل فيتنام الاميركي ان يتجاوز القيم التي غرست في عقله الباطني خلال التجارب المريرة التي مر بها . وفي حين ستظل عقدة فيتنام كامنة في اذهان افراد المجتمع الاميركي ، فان تلك العقدة تساهم بدون شك في عدم اندفاع الشبيبة الاميركية للتطوع في صفوف القوات المسلحة بعد مضي اكثر من خمس سنوات على انتهاء التدخل العسكري الاميركي المباشر في تلك الحرب . ولقد كشفت الصحف الاميركية في صيف العام ١٩٧٧ ان احد مراكز التطويق في « الباني » ( ولاية نيويورك ) قد لجأ الى وضع اسماء لاشخاص وهميين لاستكمال عدد المتطوعين الذي يفترض به ادخالهم الى القوات المسلحة . واطلقت على العملية اسم «تجنيدالاشباح» (٢٠) .

وفي حين يؤكد الفريق « فولني فـ وارتر » ، قائد الفيلق ١٨ المحمول جوا ( الذي يضم الفرقة ٨٢ المحمولة جوا ) ان الفيلق في مستوى استعداد قتالي يفوق أقصى ما حاول الجيش ان يبلغه في الماضي ، يشير الى ان الفيلق يفشل في الحفاظ على افضل ضباط صفه نتيجة لعدم حماسهم لاعادة التطوع ، ويقول « اذا استمر هذا ، ستري في خلال سنتين بعض الضباط الكبار والعديد من الجنود يقودون جنودا » .

وتحاول القوات المسلحة سد الثغرة في هذا المجال عن طريق جذب المزيد من النساء للعمل في مختلف المجالات . ولقد اشارت الصحف الاميركية الى ان القوات المسلحة لجأت الى تجنيد المرأة نتيجة لضغوطات المنظمات النسائية ، بالإضافة الى النقص المحتمل في المتطوعين من الذكور . ولقد بلغ عدد النساء

العاملات في صفوف القوات المسلحة الاميركية في العام ١٩٧٧ ١٠٨ الاف امرأة، او ٥٪ من مجموع تلك القوات (٢١) .

ومن جهة ثانية ، فلقد ارتفعت نسبة السود والملونين في القوات المسلحة بشكل ملحوظ بعد اعتماد نظام التطوع . ومما لا شك فيه ان العديد من الشبان الزنوج يجدون في القوات المسلحة مهربا من اوضاع البطالة والفقير التي يعانون منها . الا ان تلك الظاهرة ادت الى قلق بعض واضعي السياسة الاميركية ، نظرا لما قد يعنيه استمرار تناميها في حال وقوع صدمات عنصرية جديدة في داخل المجتمع الاميركي . ولقد برزت مع قوات المتطوعين تفشي مشكلة الامية في صفوف الجنود ، وجلهم من الطبقات الاجتماعية الدنيا في المجتمع الاميركي . ويشير احد ضباط التدريب التابعين لسلاح البحرية الاميركي الى ان « مستوى القراءة لدى متطوعينا لا يتجاوز في كثير من الاحيان مستوى الصف الثالث . وهذا يعني ان البحار لا يمكنه ان يقرأ حتى لافتة الانذار على حجرة مرجل السفينة » (٢٢) . ومما لا شك فيه ان هذه معضلة جديدة بالنسبة الى قوات تفتخر باعتمادها على « النوعية » .

كما برزت مع قوات المتطوعين تيارات تنادي بضرورة خلق « نقابة » للعاملين في المؤسسة العسكرية . وتدل الاستفتاءات التي اجريت لتحديد مدى تفشي هذا التيار ان ٣٥٪ من الجنود و ١٦٪ من الضباط في سلاح الجو الاميركي يحبذون انشاء نقابة للعسكريين . كما اظهرت الاستفتاءات ان نسبة الذين لم يبديوا اي رأي كافية لتشكيل اغلبية فيما لو انحازوا الى صفوف انصار « النقابة » . ولم تتعد نسبة الموافقين على ضرورة بقاء النقابات العسكرية بعيدة عن المسائل العملية ٦٥٪ ، في حين اعتبر ٧٥٪ فقط ان الاضراب سلاح غير شرعي للمطالبة بانصاف العسكريين (٢٣) .

وتعكس هذه الظاهرة خلا جديا في القوات المسلحة الاميركية، واضطرار تلك القوات الى جذب المتطوعين عبر ابراز الامتيازات التي يحصل عليها المتطوع بالمقارنة مع الاعمال المدنية الاخرى . ويطالب بعض القادة العسكريين بالعودة الى التركيز على مفاهيم « الواجب » و « الدفاع عن الوطن » كقيم اساسية يتم بناء القوات المسلحة على اساسها .

### مستقبل القوات المسلحة الاميركية

اذا كنا قد حاولنا في دراستنا الراهنة ان نركز على الدور « الجديد » للقوات المسلحة الاميركية ، وعلى العضلات المستعصية التي تعاني منها تلك القوات ، فان ذلك لا يعني ان تلك القوات لا تملك نقاط قوة هامة - لم يكن من مجال



لبحثها في دراستنا هذه - او انها على شفير الانهيار - الا ان نقاط القوة هذه لا تتناقض مع حقيقة ان سبعينات هذا القرن تشهد تحولات استراتيجية هامة لصالح قوى التحرر والتغيير والتقدم في العالم - ومما لا شك فيه ان معالم الشيوخة التي بدأت بالبروز على ملامح القوات المسلحة الاميركية ، والمعضلات المستعصية التي تعاني منها تلك القوات تشكل ظواهر ايجابية في الصراع ضد اعنى قلعة للمعسكر الامبريالي في العالم .

### الحواشي :

- (1) Nixon, Richard . « US Foreign Policy In The 1970's » . Washington , 1970 .
- (2) Dupuy & Dupuy . The Encyclopedia of Milita'y History . Macdonald & Jane's , London , 1977 . P. 1336 .
- (3) Newsweek . May 29 , 1978 P. 15 .
- (4) International Herald Tribune . July 11 , 1977 . P 3 .
- (5) U.S. News & World Report . October 10 , 1977 . P 38 .
- (6) International Herald Tribune . July 11 , 1977 . P 3 .
- (7) Time . May 8 , 1978 . P 14 .
- (8) Armed Forces Journal International . October . 1977 . P 6 .
- (9) Armed Forces Journal International . October , 1977 . P 21 .
- (10) Flight International , February 4 , 1978 . P 290 .
- (11) Time . May 8 , 1978 . PP 14 — 16 .
- (12) Time . May , 1978 . P 20 .
- (13) International Herald Tribune . July 21 , 1977 . P 5 .
- (14) U.S. News & World Report . October 10 , 1977 . P 40 .
- (15) U.S. News & World Report . October 10 , 1977 . P 38 .
- (16) Time . May 8 , 1978 . P 16 .
- (17) U.S. News & World Report . October 10 , 1977 . P 41 .
- (18) International Defense Review. 2/1975 . P 156 .
- (19) Military Review . July , 1975. P 30 .
- (20) International Herald Tribune. August 2 , 1977 . P 3 .
- (21) International Herald Tribune. August 1 , 1977 . P 3 .
- (22) Time . May 8 , 1978 . P 17
- (23) The Guardian Weekly . March 6 , 1977 . P 17 .

## القوة العسكرية الاسرائيلية في أربع سنوات

١٩٧٣ - ١٩٧٧

اثناء مرحلة حرب الاستنزاف التي جرت على الجبهة السورية في اعقاب حرب ١٩٧٣ ، والتي اسفرت عن توقيع اتفاقية الفصل بين القوات على الجبهة المذكورة في ٣١-٥-٧٤ ، كتب المعلق العسكري لصحيفة « يديعوت احرونوت » مقالا بعنوان « الجيش الاسرائيلي الى اين ؟ » يوم ٢٤-٤-٧٤ قال فيه « حبذا لو يمنح الجيش الاسرائيلي بضع سنوات هادئة كي يستريح ويعيد تنظيم نفسه ٠٠٠ وحبذا لو كانت المؤسسة العسكرية بأسرها تمر في مرحلة مراجعة » .

كما كتب « زئيف شيف » ، خلال الفترة ذاتها ، مقالا في صحيفة « هارتس » في ١٢-٥-٧٤ قال فيه « ان الجيش الاسرائيلي بحاجة الان الى فترة من الهدوء ، بعد ان خاض حربا قاسية ، ومرت قياداته باهتزازات شديدة . والجيش بحاجة الى هدوء من اجل الانتعاش والبناء والترميم . ويجري الان تغيير في القيادة لا في الدولة فحسب ، بل أيضا في القيادة العسكرية . والقيادة الجدد بحاجة الى فترة لترسيخ اقدامهم . وعملية الترميم هذه في ذروتها ، وقد اصبحت هناك دلائل واضحة للاستقرار . وفصل القوات سيمنح من استمرار هذه العملية بهدوء واعداد الجيش الاسرائيلي للمستقبل » . وفي العام ١٩٧٥ انتهى مؤلفا كتاب « الجيش الاسرائيلي » الصادر في لندن ، وهما « ادوارد لوتواك » و « دان هورويتز » بعبارة قالوا فيها انه « اذا ما اخفقت مبادرة السلام الاميركية التي انطلقت في اعقاب حرب اكتوبر ، واذا ما اضطرت اسرائيل للقتال مرة اخرى ، فان جيشا جديدا او مختلفا سوف يخوض القتال ،

جيشا يختلف عن ذلك الجيش الذي قاتل في العام ١٩٧٣ ، بالمقدر الذي كسان عليه جيش ١٩٦٧ مختلفا فيه عن جيش ١٩٤٨ » . (١)

وفي ١-٥-٧٨ نشرت مجلة « نيوزويك » حديثا للجنرال « موردخاي غور » ، عقب احواله للتقاعد من منصب رئاسة الاركان قال فيه « ان اكثر ما انجزت اهمية هو مشاركتي في التفاوض مع مصر وسوريا عقب حرب ١٩٧٣ . وانجازي الثاني الاكثر اهمية هو إعادة تسليح القوات الاسرائيلية الى الحد الذي اصبح فيه معظم العرب يدركون الان ان المخاطرة ببدء حرب هي اكبر من الامل في تحقيق نتيجة مؤاتية » . (٢)

ويغض النظر عما قد تضمنه بعض الاقوال المشار اليها انفا من مبالغة تدخل ضمن اساليب الحرب النفسية الاسرائيلية المضادة للمعنويات العربية ، فان من الضروري بحث التطورات التي طرأت على القوة العسكرية الاسرائيلية خلال السنوات الاربع الاخيرة ، التي تمتعت فيها اسرائيل بدرجة كبيرة من الهدوء والاستقرار ، بفضل اتفاقيات الفصل بين القوات ، واجراء تقييم موضوعي لها قدر الامكان ، وضمن المعطيات المعروفة عنها . تقييم يجنب الادراك العربي مخاطر التقليل من القوة المذكورة ، ومنزقات المبالغة في تقديرها ، التي تؤدي الى خلق وترسيخ رادع ذاتي لـلارادة النضالية العربية ، يزيد من فاعلية القوة الاسرائيلية ، ويضعف من حقيقة الامكانيات الكامنة للقوة العربية .

هذا ، وتتضمن التطورات التي لحقت القوة العسكرية الاسرائيلية عدة عناصر ، او نواحي ، يتصل بعضها بحجم القوة البشرية . وبعضها بحجم التشكيلات والوحدات العسكرية ، وبعضها بنوعيتها الاسلحة والمعدات ورفع كفاءة الاداء التقني والاداري ، والبعض الاخر بنوعيتها التكتيكية وادارة العمليات ، والبعض بنوعيتها التنظيم القتالي والقيادة والتدريب .

وسوف نقصر بحثنا في هذه الدراسة على التطورات التي لحقت القوة العسكرية الاسرائيلية ، خلال السنوات الاربع الاخيرة ، من حيث حجم القوى البشرية والتشكيلات وحجم ونوعية التسليح والمعدات ورفع كفاءة الاداء ، اما بقية النواحي المتعلقة بالمذهب القتالي والعقائد التكتيكية والتنظيم ، فهي في حاجة الى دراسات اخرى خاصة بها .

### زيادة حجم القوى البشرية :

رغم ان العرب كانوا ، وما زالوا ، يتمتعون بتفوق كمي ضخم في القوى

البشرية بالنسبة لاسرائيل ، فقد استطاعت الاخيرة في حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ أن تعبء وتحشد قوى بشرية تفوق في عددها ، وتشكيلاتها ، القوى المماثلة التي حشدتها قوى المواجهة العربية ، وتلك التي قدمتها دول العمق عمليا في ساحات القتال ، وذلك سواء بالنسبة لاجمالي القوات المتجابهة ، او بالنسبة للتحشد على محاور الجهد الرئيسي اثناء العمليات .

ففي بداية حرب ١٩٤٨ ، اي في ١٥-٥-٤٨ ، قدر الجنرال « غلوب » ، قائد الجيش الاردني ، إجمالي القوات العربية النظامية بنحو ٢١٥٠٠ جندي ، موزعين على النحو التالي :

١٠ آلاف في الجيش المصري ، و ٤٥٠٠ في الجيش الاردني ( وكان يسمى الفيلق العربي ) و ٣٠٠٠ في الجيش السوري و ٣٠٠٠ في الجيش العراقي و ١٠٠٠ في الجيش اللبناني .

وذلك مقابل نحو ٦٥ الف مقاتل لدى تشكيلات الكيان الصهيوني ( ٣ ) ولكن اللواء « حسن البدري » ، يقرر في كتابه « الحرب في أرض السلام » ، ( ٤ ) بعد دراسة في وثائق الحرب ، خاصة المتعلقة بالجيش المصري ، ان إجمالي القوات العربية النظامية يوم ١٥-٥-٤٨ كان يقدر بنحو ١٥ الف جندي ، موزعين على النحو التالي :

٥٠٠٠ جندي على الجبهة المصرية ( مصر والسعودية والسودان واليمن ) ، و ٤٥٥٠ جنديا اردنيا ، و ٢٥٠٠ جندي عراقي ، و ١٨٧٦ جنديا سوريا . و ١٠٠٠ جندي لبناني . موزعين جميعا على ١٤ كتيبة مشاة . وذلك مقابل نحو ٦٧ الف جندي صهيوني ، موزعين على ٣٢ كتيبة مشاة . اي ان نسبة التفوق البشري الاسرائيلي كانت في الافراد ٤ر٤ الى ١ ، وفي التشكيلات ٢ر٣ الى ١ .

وفي بداية المرحلة التي أعقبت الهدنة الاولى ، اي في ٩-٧-٤٨ ، بلغ إجمالي افراد الجيوش العربية نحو ٣١ الف جندي ، تضمهم ٢٤ كتيبة مشاة . موزعين على النحو التالي :

١٥ الف جندي مصري ( ٩ كتائب مشاة ) ، و ٥٠٠٠ جندي اردني ( ٥ كتائب ) ، و ٧٠٠٠ جندي عراقي ( ٦ كتائب ) ، و ٣٠٠٠ جندي سوري ( ٣ كتائب ) ، و ١٠٠٠ جندي لبناني ( كتيبة واحدة ) .

مقابل نحو ١٠٦ الف جندي اسرائيلي موزعين على ٤٢ كتيبة مشاة . اي ان نسبة التفوق الاسرائيلي كانت ٣ر٤ الى ١ في إجمالي الافراد ، و ٧ر١ الى ١ في التشكيلات القتالية . ( ٥ )

وفي حرب ١٩٥٦ ، التي انفردت فيها مصر بمواجهة كل من اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، كان لدى الجيش الاسرائيلي عند التعبئة العامة نحو ١٩٠ الف جندي ، مقابل نحو ٩٠ الف جندي لدى الجيش المصري (٦) ، لم يتيح له عمليا امكانية حشدهم في الجبهة بسيناء على نحو يعادل القوة الاسرائيلية المحتشدة على محاور العمليات الرئيسية على اي نحو ٠ اذ كان لدى القيادة المصرية ، عند بدء العدوان الاسرائيلي يوم ٢٩-١٠-٥٦ في سيناء وقطاع غزة ، ٨ كتائب مشاة و ٢ كتيبة مدرعات و ٣٥ كتيبة مدفعية ، مقابل ٣٥ كتيبة مشاة و ١٠ كتائب مدرعات و ٣٥ كتيبة مدفعية ، كانت لدى القيادة الاسرائيلية الجنوبية ، الامر الذي حقق للاسرائيليين نسبة تفوق بلغت ٤٥ الى ١ في المشاة و ٥ الى ١ في المدرعات و ١٠ الى ١ في المدفعية (٧) ! ولم يتوفر الوقت او الظروف الملائمة لتدخل القوات الاحتياطية المصرية التي ارسلت الى سيناء لمواجهة العدوان ، والتي ضمت لوائي مدرعات ولوائي مشاة ، ومن ثم بقيت نسبة ميزان القوى البرية عمليا كما هي ٠ ويضاف الى ذلك التفوق الجوي الساحق ، الناتج عن التدخل البريطاني - الفرنسي وتأثيره على مجرى القتال ٠

وفي حرب ١٩٦٧ كان لدى الجيش الاسرائيلي ، عند التعبئة العامة ، نحو ٢٦٥ الف جندي ، مقابل نحو ١٦٠ الف جندي مقاتل كان يتألف منهم اجمالي الجيش المصري ، حشد منهم نحو ١٣٠ الف جندي في سيناء عشية ٥ حزيران ( يونيو ) ٦٧ ، وكان هناك نحو ٣٠ ألفا آخرين في اليمن ٠ ونحو ٦٥ الف جندي سوري ، وحوالي ٥٠ الف جندي اردني ٠ اي ان مجموع القوات العربية المتاحة عمليا ، من الناحية النظرية ، كان يبلغ نحو ٢٤٥ الف جندي ، ومعنى هذا ان الجيش الاسرائيلي كان لديه تفوق عام في الافراد يبلغ نحو ٢٠ الف جندي ٠

وإذا انتقلنا الى جانب توزيع هذه القوة البشرية البرية على التشكيلات المقاتلة سنجد ان الجيش الاسرائيلي كان لديه ٢٤ لواء مشاة و ٣ ألوية مظليين و ١١ لواء مدرعا ، بخلاف بعض كتائب الدبابات المستقلة ووحدات المدفعية ، اي ما جملة نحو ٣٨ لواء ٠ (٨) على حين ان الجيش المصري كان لديه في سيناء ١٨ لواء مشاة وما يوازي نحو ٧ ألوية مدرعة ، اي ما جملة نحو ٢٥ لواء ٠

والجيش السوري كان لديه في الجولان ٧ ألوية مشاة ، ولواءان مدرعان ، اي ما مجموعه ٩ ألوية (٩) ٠ والجيش الاردني كان لديه في الضفة الغربية لنهر الاردن ٦ ألوية مشاة ولواءان مدرعان ، اي ما مجموعه ٨ ألوية ٠ (١٠) اي ان الجيوش العربية الثلاثة كان لديها في الجبهات القتالية ( وهذا ليس

معناه ضرورة وامكانية اشتراك كافة التشكيلات في القتال الفعلي ) بنحو ٤٢ لواء ، مقابل ٢٨ لواء اسرائيليا . ولكن نسبة التفوق العربي الضئيلة هذه ( ٤ ألوية ) حرم العرب من الاستفادة منها بسبب افتقارهم وحدة القيادة العسكرية ، التي تكفل لهم الاستفادة من ميزة الحركة على الخطوط الخارجية، تلك التي توفرها لهم الظروف الجغرافية لاحاطة دول المواجهة بالكيان الصهيوني من فلسطين المحتلة ، عن طريق تنسيق الضغط العسكري العربي من كل الجبهات لاجباط مخططات العدو الاسرائيلي في المناورة على الخطوط الداخلية ، والتركيز على كل جبهة عربية على حدة تباعا ، وفقا لاولويات الخطة الاستراتيجية العامة الموضوعة للحرب .

وفي الوقت نفسه نجح العدو الاسرائيلي في تحقيق التفوق الكمي في نقاط الخرق الرئيسية ، نتيجة لآخذه المبادرة الهجومية ، وعزله لقوات النسق الاول العربية عن قوات النسق الثاني والاحتياطي الاستراتيجي ، من خلال السيطرة الجوية على طرق المواصلات ، وهي السيطرة التي حققها نتيجة للضربة الجوية المفاجئة للأسلحة الجوية العربية على الارض . وفاقم من نتائج هذه العوامل الاضطراب المعنوي الذي لحق القيادات العسكرية العربية، اثر الضربة الجوية الاولى ، وجعلها تسرع بالتفكير في الانسحاب الاستراتيجي وترك قوات النسق الاول تواجه مصيرها ، فضلا عن عجز هذه القيادات في ادارة العمليات وتحريك الاحتياطيات في الوقت والمكان المناسبين وبالكفاءة اللازمة ، ضمن ظروف الحرب القصيرة . ولذلك حقق العدو الاسرائيلي تفوقا كليا واضحا في الجبهة المصرية ، اذ ضمت الفرق الثلاثية ( الاوغدات ) ، التي حققت الخرق الرئيسي الاول فيما بين قطاع غزة - رفح « و ابو عجيلة » بشمال سيناء ، نحو ٧ ألوية مدرعة ( ٥ منها في شكل ألوية متكاملة والباقي كتائب دبابات ومشاة ميكانيكية مستقلة ) ، و نحو ٤ ألوية مشاة ومظليين أو اكثر قليلا ( بخلاف نحو ٣ ألوية مشاة اخرى كانت مكلفة بمهام دفاعية في المستعمرات وطرق المواصلات ) . مقابل نحو ٥ ألوية مشاة ( ٤ مصرية وواحد جيش تحرير فلسطيني ) وما يوازي لواء مدرعا أو اكثر قليلا ، كانت موزعة في قطاع « غزة » و « رفح » و « الشيخ زويد » و « ابو عجيلة » والمواقع القريبة منها . وهكذا توازت تقريبا قوات المشاة لدى الطرفين ، وفقد الجيش المصري ميزة التوازي في اجمالي تشكيلاته المدرعة وعدد دباباته المحتشدة في سيناء ، وحقق الجيش الاسرائيلي نسبة تفوق في المرحلة الاولى والحاسمة في القتال بلغت نحو ٧ الى ١ في المدرعات .

وفي حرب ١٩٧٣ تغيرت الصورة بعض الشيء لصالح العرب . فقد كان لدى الجيش الاسرائيلي ، بعد ٧٢ ساعة من التعبئة ، نحو ٢٧٥ الف جندي مقاتل ، موزعين على ١٨ - ٢٠ لواء مدرعا و ١٠ ألوية ميكانيكية و ٩ ألوية

مشاة و ٥ ألوية مظليين ، عدا تشكيلات المدفعية (١١) . اي ما مجموعه نحو ٤٤ لواء ، بالقياس الى نحو ٢٨ لواء عام ٦٧ ، ومن الواضح ان الفارق الرئيسي بين الحربين هو في زيادة عدد الالوية المدرعة والمظليين على حساب نقص الالوية المشاة العادية . وذلك في مقابل نحو ٢٦٠ الف جندي مقاتل مصري موزعين على نحو ٩ ألوية مدرعة و ٨ ألوية مشاة ميكانيكية و ١٢ لواء مشاة ولوائتي مظليين ونحو ٨-٩ ألوية مغاوير ( صاعقة ) ، ولواء انزال بحري ، (١٢) عدا تشكيلات المدفعية ، اي ما مجموعه نحو ٣٩ لواء ، ولواء فلسطيني واخر كويتي . وكان لدى الجيش السوري حوالي ١٢٠ الف جندي مقاتل ، موزعين على نحو ٩ ألوية مدرعة و ٦ ألوية ميكانيكية و ٧ ألوية مشاة ولوائتي مغاوير ، عدا المدفعية ، اي ما مجموعه ٢٤ لواء (١٣) .

وقد أرسلت العراق اثناء القتال قوة ضمت ٤ ألوية مدرعة ولوائين ميكانيكيين ولواء مشاة ولواء مغاوير ، اي ما مجموعه ٨ ألوية . كما أرسلت الاردن لواء مدرعا ، وكان هنالك لواء مشاة مغربي . اي ان الجبهة السورية اشترك فيها من الجانب العربي ١٤ لواء مدرعا و ٨ ألوية ميكانيكية و ٩ ألوية مشاة و ٣ ألوية مغاوير ، عدا المدفعية . اي ما مجموعه ٢٤ لواء ، وبهذا يكون العرب قد شاركوا في حرب ١٩٧٣ بنحو ٧٥ لواء مقابل نحو ٤٤ لواء اسرائيليا .

ويطبيعة الحال لو تجمعت كل هذه القوى في وقت مناسب ، وحشدت وحركت بطريقة افضل طوال مراحل القتال ، لكان تأثيرها افضل بكثير على نتائج الحرب الاخيرة . ولكن هذه التجربة العربية ، رغم ما شابها من نواقص ، جسدت لاسرائيل خطر حرب عربية جديدة في المستقبل تتم على مختلف الجبهات في وقت واحد ، ومن ثم جسدت خطر « الكم » العربي المتفوق مقابل ما تسميه اسرائيل « بالكيف » المتفوق . ولذلك عملت القيادة العسكرية الاسرائيلية بصورة محمومة على زيادة حجم القوات البرية ، من حيث عدد الافراد ، ومن حيث عدد التشكيلات المقاتلة ، الى اقصى حد تسمح به طاقتها البشرية ، وقدرتها على استيعاب الاسلحة والمعدات . ولذلك اصبح عدد الجيش الاسرائيلي القابل للتعبئة خلال ٤٨ - ٧٢ ساعة ، عام ١٩٧٧ نحو ٣٧٥ الف جندي (١٤) ، ويرتفع العدد عند استكمال التعبئة تماما الى نحو ٥٨٩ الفا ، يضمون الوحدات الادارية وكل الاحتياطي . اي ان قوات الصف الاول بالجيش زادت عدديا بنسبة ٣٦٪ عما كانت عليه عام ١٩٧٣ .

وتقدر التشكيلات المقاتلة الاسرائيلية في اواخر العام ١٩٧٧ بنحو ٢٤ لواء مدرعا و ١٢ لواء ميكانيكية و ٩ ألوية مشاة و ٦ ألوية مظليين ( عدا الالوية المدفعية التسعة ) ، اي ما مجموعه نحو ٥١ لواء ، بخلاف المدفعية (١٥)

وتأتي هذه الزيادة في الطاقة البشرية الاسرائيلية ، من الغاء اعفاء نحو ١٤٧ الف شخص من الخدمة العسكرية ، وتجنيد نحو ٢٥ الفاً من اليهود المقيمين في الولايات المتحدة وكندا ، الذين كانوا قد خدموا في الماضي في الجيش الاسرائيلي ، وزيادة مدة الخدمة العسكرية للنساء من ٢٠ الى ٢٤ شهرا .

وبطبيعة الحال فان هذه الزيادة في القوة البشرية انما تمت على حساب النوعية ، التي ستتدنى نسبيا بالضرورة ، نظرا للتخفيف الشديد في شروط اللياقة الصحية والنفسية المطلوبة للمجندين وارتفاع سن المجندين الاحتياطيين . وقد اشار « زئيف شيف » الى هذه المسألة فقال في « هارتس » يوم ٢٨-١٠-٧٤ « تقرر الان العودة الى التدقيق في وضع عشرات الالاف من المعفيين من الخدمة ، كما تقرر زيادة التشديد في عملية التصفية ٠٠٠ ومن بين الوسائل التي ستتخذ بهذا الصدد ، تغيير نظام اللياقة الطبية في الجيش . فحتى الفترة الاخيرة ، كانت هناك ثلاث مجموعات من اللياقة الطبية : المجموعة العليا ، وهي ما فوق ٨٢ ، وجهت كلها الى الوحدات الميدانية . والمجموعة الثانية ، وكانت توجه الى الخطوط الخلفية . والمجموعة الثالثة المنخفضة ، وكانت توجه الى الخدمات . وستكون هناك الآن مجموعتان فقط ، بحيث يوجه كل الذين تزيد لياقتهم على ٦٥ الى الوحدات الميدانية » (١٦) وأشار الى المسألة ذاتها الكاتب البريطاني « مارتن فان غريفيلد » في مقاله عن « القوات الاسرائيلية ١٩٧٣ - ١٩٧٥ » المنشور في مجلة « روسي » انه « كان من الضروري ، في جميع تشكيلات الجيش ، تخفيض مستوى الكفاءة المطلوبة في المجندين حتى يمكن تجنيد مزيد من الرجال . وحتى في سلاح النخبة ، اي طياري القوة الجوية ، اضطر السلاح الى تخفيض مستوى اللياقة ، على الاقل لفترة مؤقتة » (١٧) وستكون لهذه الزيادة في القوة البشرية ، والتشكيلات المقاتلة ، الاسرائيلية تأثيرها الفعال على ميزان القوى بين اسرائيل وأي من دول المواجهة العربية على حدة ، من حيث ضمان تفوق كمي له اهميته . ولكن هذا التفوق سيفقد جانبا كبيرا من اهميته في حال وجود تعاون عسكري فعال بين دول المواجهة الثلاث ، وتقل اهميته اكثر اذا منا نجحت جميع الدول العربية في حشد طاقتها العسكرية بصورة ملائمة من حيث الزمان والمكان ووحدة القيادة . وهو أمر بعيد الاحتمال ضمن الاوضاع السياسية العربية الحالية ، بل ان تعاون دول المواجهة ذاتها اصبح مسألة غير وارادة عمليا حتى الان ، ولذلك فان مسألة زيادة القوة البشرية العسكرية الاسرائيلية يجب ان تحتل جانبا هاما من حسابات التخطيط الاستراتيجي لكل دولة من دول المواجهة العربية ، وتؤخذ بجديّة كاملة في حساب ميزان القوى العربي - الاسرائيلي ، وفي السعي لايجاد توازن استراتيجي فعال لصالح



الجانب العربي الراغب في الاستمرار في المواجهة .

### زيادة حجم التسليح ورفع نوعيته :

ولم تقتصر جهود القيادة العسكرية الاسرائيلية منذ نهاية حرب ١٩٧٣ على زيادة حجم القوى البشرية ، وإنما كان لا بد لها ايضا كنتيجة منطقية لزيادة حجم الجيش والطيران والبحرية ، من أن تزيد حجم الاسلحة والمعدات وترفع من نوعيتها قدر الامكان ، كي تزيد من قوة النيران والقدرة الحركية لقواتها . بالمقدر الذي يسد ، الى حد ما ، من الثغرة القائمة بين القوة المسلحة الاسرائيلية وقوات دول المواجهة العربية على الاقل من حيث الكم . ولرفع كفاءة اداء هذه القوة بما يتلاءم والنواقص والخبرات التي كشفت عنها حرب « يوم الغفران » . وتم للقيادة الاسرائيلية تنفيذ الجزء الاكبر من مخططاتها في اعادة بناء وتطوير قواتها المسلحة بفضل المساعدات العسكرية ، والمالية الضخمة التي وقرتها لها الولايات المتحدة الاميركية بصورة اساسية ، وبعض الدول الغربية الاخرى . ولذلك أمكن لاسرائيل ان تنفق على قواتها المسلحة ومتطلباتها الدفاعية خلال عام ١٩٧٤ مبلغ ٣٨٦٩ مليون دولار ، و ٣٥٥٢ مليون دولار عام ١٩٧٥ ، و ٤٢١٤ مليون دولار عام ١٩٧٦ ، و ٤٢٦٨ مليون (١٨) دولار عام ١٩٧٧ . وشكلت هذه المبالغ نسبة كبيرة من نفقات الحكومة الاسرائيلية قدرت بنحو ٥١٪ و ٥٠٪ و ٥٦٫٧٪ و ٣٢٫٤٪ (١٩) على التوالي السنوات ٧٤ - ١٩٧٧ . وهذه النفقات تمثل نسبا عالية من اجمالي الناتج القومي لاسرائيل تقدر بنحو ٣١٫٨٪ عام ٧٤ و ٣٥٫٩٪ عام ٧٥ و ٣٥٫٣٪ عام ٧٦ ( ولا تزال نسبة عام ٧٧ غير معروفة ) . واذا تذكرنا ان عدد سكان اسرائيل صغير ويقارب نحو ثلاثة ملايين ( من اليهود ) ، يتضح لنا مدى كثافة الانفاق العسكري بالنسبة للفرد الواحد ، والذي قدر بنحو ١١٧٣ دولارا عام ٧٤ و ١٠٤٥ عام ٧٥ و ١٢٠١ (٢١) عام ٧٦ و ١١٧٨ عام ٧٧ ، بالقياس لنسبة الانفاق المماثلة لدى دول المواجهة . اذ ان نصيب الفرد الواحد من النفقات العسكرية في مصر بلغ في سنوات ٧٤-٧٧ نحو ١١١ و ١٦٣ و ١٢٨ و ١١٢ دولارا على التوالي ، وبلغ في سوريا خلال الفترة ذاتها نحو ٦٤ و ٩٦ و ١٣٢ و ١٣٧ دولارا على التوالي ، وبلغ في الاردن ٥٤ و ٥٧ و ٥٥ و ٦٩ دولارا على التوالي خلال السنوات المذكورة . (٢٢) وفي الوقت نفسه فان صغر حجم الجيش العامل في اسرائيل ، بالقياس لحجم الجيش العامل في دول المواجهة ( خاصة مصر وسوريا ) ، يتيح للقيادة الاسرائيلية امكانية انفاق نسبة اكبر من نفقاتها العسكرية على التسليح والتدريب ، عن تلك التي تنفقها جيوش دول المواجهة ، الامر الذي يساعد اسرائيل على زيادة قوتها النارية وحركية قواتها

وارتفاع مستوى كفاءتها ، وان كانت هذه الميزة قد تأثرت الى حد ما حالياً بازدياد نسبة عدد الجيش العامل الى الجيش الاحتياطي ، عما كانت عليه الحال قبيل حرب ٧٣ ، وكذلك بازدياد فترات تدريب الاحتياطي الدورية ، لرفع كفاءته ومواجهة متطلبات استيعابه للأسلحة والمعدات المتطورة الحديثة ، وايضا نتيجة لزيادة نسبة الانفاق على صيانة الاسلحة والمعدات والمركبات ، عما كان عليه الحال قبل حرب ٧٣ ، لضمان كفاءة وسرعة استخدام قوات الاحتياطي بفاعلية ، منعا لتكرار نواقص الحرب المذكورة . ورغم ذلك كله يبقى لكثافة الانفاق العسكري الاسرائيلي على التسليح والتدريب اهميته الكبيرة ، خاصة وان ضخامة المساعدات المالية والاقتصادية الاميركية عقب حرب ٧٣ تعوض الكثير من نتائج الاعباء الجديدة التي اشرفنا اليها آنفا .

١ - القوة الجوية : وفي النتيجة ، ودون الدخول في تفاصيل صفقات الاسلحة المختلفة التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا خلال حرب ٧٣ والسنوات الاربعة التي تلتها ، ارتفع عدد طائرات القتال لدى السلاح الجوي الاسرائيلي عام ١٩٧٧ الى نحو ٦٨٠ طائرة ، (٢٣) منها ٢٥ « ف - ١٥ » و ٢٥٠ « فانتوم » و ١٠٠ « كفير » و ٣٠ « ميراج - ٣ » ، مطورة في اسرائيل وتعرف باسم « نيشر » ، و ٢٧٥ « سكاي هوك » . وتستطيع هذه القوة تركيز قوة نيران تبلغ في مجموعها نحو ٢٩٨٨ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة ، في حالة القصف الجوي بالحمولة القصوى ، و ١٩٦٠ صاروخ جو - جو في الطلعة الواحدة ، في حالة الاعتراض الجوي . ولما كان السلاح الجوي الاسرائيلي في ١٩٧٣ يمتلك نحو ٣٦٥ طائرة قتال تضم نحو ١٤٠ « فانتوم » وحوالي ١٦٥ « سكاي هوك » ونحو ٦٠ « ميراج - ٣ » ( عدا الطائرات القديمة من انواع « ميستير - ٤ » و « سوبر ميستير » و « فوتور - ٢ » و « اورغان » وعددها حوالي ٨٠ طائرة ، نظرا لانها كانت تستخدم في التدريب اساسا وتعتبر خارج الخدمة ) ، وكانت الطاقة النارية لهذه القوة الجوية تبلغ في حالة القصف الجوي بحمولة قصوى نحو ١٧١٨ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة ، ونحو ٩٦٠ صاروخا جو - جو في حالة الاعتراض الجوي . وهذا يعني ان قوة الطيران الاسرائيلي قد زادت خلال السنوات ٧٣ - ٧٧ بنسبة ٨٦٣٠٪ في عدد طائرات القتال ، وبنسبة ٧٣٩٢٪ في قوة نيران القصف الجوي بالحمولة القصوى ، وبنسبة ١٠٤١٦٪ في حالة الاعتراض الجوي بصواريخ جو - جو . وفي الوقت ذاته تطور تسليح الطائرات الاسرائيلية من حيث القدرة على اصابة الاهداف من بعيد ، نظرا لحصولها على صواريخ جو - أرض يجري توجيهها من مسافة معينة تقلل نسبة اصابتها بالاسلحة الارضية المضادة للطائرات ، مثل صاروخ « مافريك » الموجه تلفزيونيا والذي يقدر مداه الاقصى بنحو ٢٢ كلم ، وصاروخ « ستاندارد

أرم « اللاحق للإشعاعات الرادارية والذي يبلغ مداه ٢٥ كلم ، وتستخدماً الصاروخين طائرات « الفانتوم » و « سكاي هوك » و « ف - ١٥ » كما أن الطيران الإسرائيلي حصل على قنابل موجهة من نوع « هوبو » الذي يتم توجيهه بواسطة أشعة ليزر ، وأخرى من نوع « وول آي » الذي يتم توجيهه تلفزيونياً ، وكل هذه الصواريخ والقنابل الموجهة حصلت عليها إسرائيل أثناء وبعد حرب ١٩٧٣ لتواجه بها مشكلة الصواريخ أرض - جو العربية من مسافات آمنة نسبياً ، ولتتوفر للطيران الإسرائيلي قدرة أكبر على الإصابتة الدقيقة للأهداف الهامة . كما تزايدت قدرة تسليح الطيران الإسرائيلي نوعياً في مجال الأسلحة المضادة للأفراد ، بعد أن ضمت ترسانته أنواعاً مختلفة من القنابل العنقودية ، وكذلك على القنابل الارتجاجية ، التي تزيد من قدرته على قتل الأفراد ، وشل فاعلية بطاريات الصواريخ أرض - جو ، والصواريخ المضادة للدبابات ، والتفوق الكمي للمدفعية العربية . وكل ذلك التسليح الحديث ، الذي وفرته الولايات المتحدة ، يزيد كثيراً ، من الفاعلية النوعية ، من أهمية الزيادة الكمية في قوة نيران القصف الأرضي التي لحقت بالطيران الإسرائيلي ، ويعطيها مدلولاً أعمق من مجرد نسبة الزيادة المثوية التي أشرنا إليها .

وقد ارتفعت كفاءة الطيران الإسرائيلي من حيث سرعة تصديه للغارات العربية المحتملة نتيجة لتزوده بنظام حديث للأنذار الجوي المبكر ، قائم على ٤ طائرات من طراز « اي - ٢ هوك آي » المجهزة برادار طائر ، والقادرة على رصد الطائرات المعادية من مراحل مبكرة حتى لو كانت تطير على ارتفاعات منخفضة ، وتبلغ مراكز قيادة الدفاع الجوي عنها ، ثم توجيه الطائرات المعرضة إليها ، ولذلك تلعب دور غرفة العمليات الجوية أيضاً . وبهذا أصبح الطيران الإسرائيلي أكثر قدرة على التعامل مع أعداد كبيرة من الطائرات العربية ، على خلاف ما كشفت عنه خبرة حرب ١٩٧٣ ، حيث ثبت أن نظام الدفاع الجوي الإسرائيلي « كان معرضاً بسهولة للوصول إلى نقطة يصبح بعدها يعمل بما يفوق طاقته القصوى ، نظراً لافتقار الطيارين الإسرائيليين إلى القدر الكافي من التحكم والانداز اللازمين لهم » . كما أدت زيادة طائرات الاستطلاع الإلكتروني ، وطائرات التشويش الإلكتروني ، وطائرات الاستطلاع والتشويش الإلكتروني بدون طيار من نوعي « فايبري » و « تشوكار » ، إلى زيادة قدرة الطيران الإسرائيلي الهجومية إلى حد كبير ، خاصة مع وجود طائرتي « بوينغ - ٧٠٧ » تعملان كمراكز قيادة جوية طائرة ، قادرة على استخدام معلومات الاستطلاع المختلفة بسرعة وفاعلية ، وتوفير مساندة للطيارين في الطيران الهجومي عبر ممرات اختراق آمنة نسبياً داخل شبكة الدفاع الجوي المعادية . وهو درس هام آخر أكدته خبرة حرب ٧٣ المريرة

بالنسبة للطيران الاسرائيلي . ونتيجة لان الطيران المذكور أصبح يمتلك ١٠ طائرات تزويد جوي بالوقود ، من انواع مختلفة ، فقد تزايدت قدرة الهجوم الجوي الاسرائيلي في العمق الاستراتيجي العربي ، وخاصة فوق البحر الاحمر ، وضد تحركات قوات دول العمق العربي ، وكذلك ضد منابع النفط في عديد من الدول العربية عند الضرورة . وفي الوقت نفسه جرى ، ويجري تطوير مختلف انواع الاجهزة الالكترونية واجهزة الاتصال في الطائرات المقاتلة لرفع كفاءة ادائها . كما زادت قدرة النقل الجوي لدى الطيران الاسرائيلي ، بعد ان أصبح لديه نحو ١٠٥ طائرة (٢٤) نقل من مختلف الانواع ( ٤ منها «بوينغ - ٧٤٧» و ٦ «بوينغ - ٧٠٧» و ٢٤ «سي - ١٣٠» هيركوليز الخ ) ، ويزيد ذلك التطور من قدرة الطيران المذكور على نقل الامدادات من الخارج اثناء الحرب ، ومن قدرة تنفيذ اغارات فدائية في العمق ، وتعزيز عمليات القوات المحمولة جوا بصفة عامة ، ودعم قدرة الدعم اللوجستي للقوات المدرعة والميكانيكية المتقدمة في العمق العملياتي .

هذا فضلا عن زيادة عدد ونوعية طائرات الهليكوبتر الموجودة لدى الطيران الاسرائيلي بدرجة ملحوظة ، اذ انه يمتلك نحو ٢٦٠ (٢٥) طائرة هليكوبتر مقابل ٧٢ طائرة كانت لديه عشية حرب ١٩٧٣ . وتتضمن هذه القوة الحالية نحو ١٨ طائرة هليكوبتر مقاتلة « بل - ٢٠٩ » ( كوبرا ) المسلحة بصواريخ م/د من طراز « تاو » وبرشاشات ، الامر الذي يوفر قدرة فعالة للطيران الاسرائيلي في مهاجمة المدرعات العربية ، وذلك الى جانب طائرات « بل - ٢٠٥ » و « ٢٠٦ » و « الويت - ٢ و ٣ » المسلحة بصواريخ م/د « س س - ١١ » .

وتوفر قوة الهليكوبتر هذه قدرة كبيرة للطيران الاسرائيلي على تنفيذ مختلف انواع العمليات المحمولة جوا ، وباحجام كبيرة نسبيا من القوات ، فضلا عن مختلف عمليات الدعم اللوجستي الميداني وعمليات اخلاء الجرحى ، وانقاذ الطيارين ، وملاحظة المدفعية ، خاصة وان قوة الهليكوبتر هذه تضم ٤٥ طائرة من نوع « س - ٦٥ » ( تحمل الواحدة ٦٤ جنديا او ٢٤ حمالة طبية او ١٠ اطنان معدات ) و ٢٤ طائرة « س - ٦١ » ( ٣٠ جنديا او ١٥ حمالة ) بالإضافة الى ١٢ طائرة « سوبر فريلون » ( ٢٨ جنديا او ١٥ حمالة ) و ٨ طائرات « شينوك » ( ٤٤ جنديا او ٢٤ حمالة او ١٠ اطنان ) ، والطائرات الاخيرة تستطيع ان تحمل صاروخ أرض - أرض من طراز « لانس » مع جهاز اطلاقه وطاقمه ، الامر الذي يوفر لسلاح المدفعية الاسرائيلي قدرة كبيرة على المناورة بهذه الصواريخ العملياتيية ويمكنه من التسلل بها ، في بعض الحالات، لضرب اهداف تبعد عن مداها الاصلي في حالة اطلاقها من داخل الخطوط الاسرائيلية .

بالإضافة الى ٧٥ طائرة « بل - ٢٠٥ » و ١٢ طائرة « بل - ٢١٢ » ( وكل منهما تستطيع ان تحمل ١٢ جنديا ) ، اي ان قوة الهليكوبتر الاسرائيلية تستطيع ان تنقل نحو ٥٣٢٢ جنديا في الطلعة الواحدة . على حين ان القوة المذكورة عشية حرب ١٩٧٣ ( ٢٤ طائرة « س - ٦١ » و ٣٠ « بل - ٢٠٥ » و ١٢ « سوهر فريلون » ، و ٢٠ « الويت ٢ و ٣ » لم ندخلها في حساب نقل الجنود ) كانت تستطيع نقل نحو ١٤١٦ جنديا فقط ! اي ان قوة النقل المذكورة باتت تفوق ٣ر٥ مرة عما كانت عليه !

٢ - القوة المدرعة : اما بالنسبة للقوات المدرعة ، التي تشكل الجزء الرئيسي والاكثر اهمية في القوات البرية الاسرائيلية ، فقد زاد عدد دباباتها في العام ٧٧ - ٧٨ الى نحو ٣٦٠٠ دبابة (٢٦) ، بعد ان كان حوالي ٢٤٠٠ دبابة عشية حرب ١٩٧٣ ، وذلك رغم خسائر الحرب التي قدرت بنحو ٨٤٠ دبابة ( وفقا لتقدير وزارة الدفاع الاميركية ، التي عادت وقالت ان خسائر الدبابات الفعلية ٤٢٠ دبابة نتيجة لاصلاح بعض الدبابات المعطوبة ) . وهذا معناه زيادة بنسبة نحو ٥٠٪ في عدد الدبابات عما كان عليه الوضع عام ١٩٧٣ .

وفي الوقت نفسه زاد عدد ناقلات الجنود المدرعة من نحو ٣٠٠٠ عربة عام ٧٢ الى نحو ٤٥٠٠ عربة عام ٧٧-٧٨ وهذا معناه زيادة بنسبة ٥٠٪ ايضا . وزيادة القدرة الحركية القتالية للجيش الاسرائيلي المتمثلة في الدبابات والمشاة الميكانيكية المرافقة لها .

كما زاد عدد المدافع ذاتية الحركة ، المصاحبة للالوية المدرعة والميكانيكية ، من نحو ٤٠٠ مدفع عام ٧٢ الى حوالي ٧٠٠ مدفع عام ٧٧-٧٨ ، اي ان نسبة الزيادة بلغت نحو ٧٥٪ ، وهذا يؤكد مقولة زيادة القدرة النارية والحركية للقوات المدرعة والميكانيكية الاسرائيلية ، اي زيادة القدرة الهجومية للجيش الاسرائيلي .

وفي الوقت نفسه اجريت تطويرات وتعديلات في الاجهزة والمعدات والمحركات الخاصة بالدبابات ، وناقلات الجنود القديمة من نوع « م - ٢ » نصف المجنزرة ، لتجنب العيوب التي كشفت عنها حرب ٧٣ ، ولتوحيد معظم قطع الغيار بالنسبة للدبابات من نوعي « باتون » و « سنتوريون » . كما طورت وسائل الصيانة الخاصة بها ، ورفعت جاهزيتها للقتال من خلال تنظيم الصيانة الدورية لاسلحة ومعدات الوحدات الاحتياطية . وطورت معدات هندسية اخرى ، يجري تركيبها على الدبابات ، بعضها لتسهيل اجتيازها لحقول الالغام ، وبعضها لتسهيل الحركة في الارض الوعرة . وكذلك جهزت الدبابات بمعدات الرؤية الليلية ، ومعدات احدث للتصويب الدقيق الخ ، مما يزيد من كفاءة استخدام المدرعات ويرفع من قدراتها القتالية .

٣ - سلاح المدفعية والأسلحة الأخرى : وقد لقي سلاح المدفعية الاسرائيلي اهتماما متزايدا عقب حرب ٧٣ ، التي كشفت عن خطورة الاعتماد على الطيران كمدفعية جوية في مساندة المدرعات والمشاة في الميدان ، نظرا لتطور الدفاع الجوي العربي، ونجاحه ، الى حد كبير ، في عزل ثنائي « الطائرة - الدبابة » عن بعضها البعض في كثير من الحالات ، ولذلك عمدت قيادة الجيش الاسرائيلي على تطوير سلاح المدفعية ، كما ونوعا وتنظيما وتدريبيا وتجهيزا بالمعدات والذخيرة ، وشكل ذلك التطوير احد اسباب زيادة عدد افراد الجيش ، فقد ارتفع عدد المدافع ذاتية الحركة من نحو ٤٠٠ مدفع الى ٧٠٠ مدفع ، وعدد المدافع المقطورة من نحو ٢٥٠ مدفعا الى حوالي ٥٠٠ مدفع ، وعدد الهاونات الثقيلة عيار ١٢٠ مم و ١٦٠ مم من نحو ٥٥٠ مدفعا الى حوالي ١٠٠٠ مدفع ، (٢٨) فضلا عن راجمات الصواريخ ، ومئات من المدافع م/د و م/ط . اي ان اجمالي مدافع الميدان والهاوتزر والهاونات الثقيلة قد ارتفع عددها من نحو ١٢٠٠ قطعة في العام ٧٣ الى حوالي ٢٢٠٠ قطعة في العام ٧٧ - ٧٨ ( عدا راجمات الصواريخ غير المعروف عددها لان معظمها من غنائم حرب ٦٧ ) ، اي بنسبة نحو ٨٣٪ ، وانعكس ذلك النمو الكبير في عدد قطع المدفعية على عدد تشكيلات المدفعية المستقلة عن الالوية والوحدات الأخرى ، اذ ارتفع عدد الوية المدفعية من ٣ الوية عام ٧٣ الى ٩ الوية عام ١٩٧٧ .

وفي الوقت نفسه دخلت على سلاح المدفعية انواع جديدة من الاسلحة مثل الطراز المعدل من المدفع « م - ١٠٩ » عيار ١٥٥ مم ذاتي الحركة ذي السبطانة الطويلة والمدى الأبعد من النوع الأصلي ( وهو مدفع اميركي زود به الجيش الاسرائيلي عقب حرب ٧٣ وظهرت صور له في عدوان جنوب لبنان عام ٧٨ ) ، ومثل صواريخ ارض - ارض من طراز « لانس » المتوسطة المدى ( نحو ١١٠ كلم ) ، والتي يوجد منها حاليا نحو ١٠٩ صواريخ ، فضلا عن احتمال زيادتها حتى ٤٠٠ صاروخ موزعة على ٤ كتائب صواريخ حتى العام ١٩٨٠ (٢٩) ، وقد يتم تزويدها برؤوس حربية « عنقودية » من طراز « اكس م - ٢٥١ (٣٠) » ، ويمكن تسليحها برؤوس نووية عند الضرورة . وفي الوقت ذاته طورت اسلحة الدفاع المضاد للطائرات في السلاح المذكور ، فأدخلت ضمنها مدافع « فولكان » الرشاشة سداسية السبطانة والموجهة بالسرادار ( المقابل الاميركي للرشاش الرباعي « شيلكا » الموجه بالرادار الذي اثبتت فاعليته في حرب ٧٣ ) ، وصواريخ « تشابارال » المضادة للطائرات الموجهة بالاشعة تحت الحمراء والقصيرة المدى ، وصواريخ « ردأي » التي تطلق من فوق الكتف ضد الطائرات ، وكلها اسلحة لتطوير الدفاع الميداني م/ط ، جرى الحصول عليها من الولايات المتحدة الاميركية بعد أن ثبتت فاعلية رشاشات « شيلكا » وصواريخ « سام ٧ » في حرب ٧٣ كما حصل الدفاع الجوي على

صواريخ « هوك » المطورة ، وشكلت جزءا من ١٥ بطارية صواريخ لديه . (٣١) كما زادت الاسلحة م/د وتطورت نوعيتها ، فادخلت صواريخ « تاو » و « دراغون » المضادة للدروع ، وكثرت طائرات الهليكوبتر المسلحة بالصواريخ م/د وتطورت نوعيتها ( مثل الطائرة « كوبرا » والطائرة هيرن ٥٠٠٠ التي ستحصل عليها اسرائيل قريبا لانها اقل كلفة من « كوبرا » بحكم انها اقل نوعية ) . وقد القى قائد المدفعية الاسرائيلية عام ٧٥ ، العميد ثابسي « ناتان شاروني » بعض الاضواء على تطور المدفعية ، في حديث نشرته « دافار » في ٢٠-٥-٧٥ قال فيه « لقد كان معدل زيادة سلاح المدفعية اسرع مما كان مقررا له سابقا ٠٠٠ ووفقا لهذا ازداد حجم القوات في هذا السلاح ، وازيفت اليه معدات ووسائل جديدة . كما تضاعف مخزون الذخيرة ، وادخلت كميات كبيرة من الاسلحة التي اخذت كغنائم في سلاح المدفعية ٠٠٠ كما ادخلت على هذا السلاح تغييرات تتعلق بالشؤون الادارية ، بهدف تأمين وصول الذخيرة ، والصيانة الجيدة للمعدات . كما ادخلت وسائل مساعدة حديثة للغاية في الخدمة ، وذلك مثل الحاسبات الالكترونية التي تستعملها الوحدات في الميدان وعلى ارض المعركة ذاتها .

اما بالنسبة لوسائل الاتصال الخاصة بالوحدات ، فقد ادخلت عليها تعديلات وتحسينات . وكذلك الحال بالنسبة للاليات التي تنقل وحدات اسناد سلاح المدفعية ، فقد جهزت كلها بحيث تلبي متطلبات الحركة في مختلف الظروف الارضية التي تصادفها على الجبهة . وسلح جنود المدفعية بأسلحة تصلح للدفاع عن موقع وبتاريات مدافعهم » . كما تم تدريب عدد كبير من الضباط والجنود المسؤولين عن تهديف المدفعية وادارة النيران ، بعد ان كشفت حرب ٧٣ عن وجود نقص في هؤلاء الفنيين ، وضعف مستوى تدريب العديد منهم .

هذا وقد جرى تطوير قدرات سلاح الهندسة الميدانية ، بحيث اصبح اكثر قدرة وسرعة على ازالة الموانع الهندسية ، وفتح ممرات واسعة في حقول الالغام ، والتغلب على التحصينات القوية ، وشق الطرق والممرات ، وتجهيز وسائل عبور الموانع المائية ، فقد ثبت خلال حرب ٧٣ ان قدرات الهندسة القتالية للقوات الاسرائيلية « كانت سيئة التنظيم ، والعناصر الرئيسية فيها لم تختبر مطلقا على نحو جيد في الميدان ، والمعدات الاساسية ، مثل المعدات الخاصة بعبور القناة ، فشلت في اوقات حرجة من القتال » .

وبذلك تزايدت القدرة الهجومية للجيش الاسرائيلي ، نظرا لزيادة قدرته على اختراق التحصينات ، والموانع الهندسية والمائية ، واجتياز الارض الوعرة ، وتوفير المعدات والخبرات اللازمة لانجاز هذه المهام في اسرع وقت ممكن . وفي الوقت ذاته جرى ، ويجري ، تطوير معدات ووسائل الاتصال ، من لاسلكي ،

وتليفونات ميدانية ، واجهزة مد خطوط الهاتف ( أصبحت هناك اجهزة مد خطوط للهاتف الميداني بواسطة طائرات هليكوبتر ) ، وبذلك تتوفر للسيادات العسكرية قدرات افضل على ادارة العمليات وسرعة تحريك القوات ، مما يزيد قدرتها الهجومية . ومن ابرز التطورات التي لحقت القوات المسلحة الاسرائيلية ، بصفة عامة ، عقب حرب ٧٣ ، تزايد مخزون الذخيرة لديها ، بحيث أصبح يكفيها لمدة ٣٠ يوما على الاقل في ظروف حرب شاملة جديدة . وتوفر حصد ادنى من الاسلحة والمعدات الاحتياطية ، لمواجهة الخسائر المتوسطة دون الحاجة الى استيراد اسلحة ومعدات من الخارج ، او مد جسر جوي خارجي ، فسي وقت قصير اثر نشوب القتال ، كما حدث عام ٧٣ ، وذلك بهدف توسيع هامش حرية الحركة السياسية والعسكرية الاسرائيلية ، الى حد ما ، ودعم استقلاليتها نسبيا . وتوضح ارقام الدبابات ، مثلا ، التي يملكها الجيش الاسرائيلي ، هذه الحقيقة ، ذلك ان كمية الـ ٣٦٠٠ دبابة الموجودة لديه تسمح له بتوفير احتياطي من الدبابات قدره نحو ١٢٤٨ دبابة وذلك على اساس تسليح كل من الالوية المدرعة الـ ٢٥ بنحو ٨٠ دبابة ، وكل من الالوية الميكانيكية بنحو ٣٦ دبابة ، ان يصبح مجموع الدبابات اللازمة لتسليح الالوية الـ ٣٦ المذكورة هو ٢٣٥٢ دبابة . اما في حالة تسليح الالوية المدرعة بنحو ١٠٠ دبابة والالوية الميكانيكية بـ ٤٠ دبابة ، فان اجمالي الدبابات اللازمة لتسليح الالوية المذكورة يصبح ٢٨٨٠ دبابة ، ومن ثم يكون الاحتياطي المتبقي هو ٧٢٠ دبابة ، وهو رقم مقارب لخسائر حرب ١٩٧٣ .

وتحاول اسرائيل ايضا زيادة قدرات صناعتها العسكرية ، بحيث تلبس الجزء الاكبر من متطلبات ذخيرة قواتها ، والكثير من قطع الغيار ، وبعض الاسلحة الجوية ( طائرات « كفير » وطائرات النقل الخفيفة « عرفا » الخ ) ، وبعض الاسلحة البرية ( الهاونات والمدافع عيار ١٥٥ مم ودبابات « ميركفاه » الخ ) وبعض الاسلحة البحرية ( زوارق الصواريخ « ريشيف » وزوارق الدورية « دبور » والصواريخ « غبريئل » الخ ) والمعدات الهندسية والالكترونية ، وذلك بهدف تقليل اعتمادها على الخارج قدر الامكان ، ولكن ذلك لا يعني امكان تخلي اسرائيل عن الدعم العسكري الاميركي ، الذي كان وما يزال ، وسيظل يمثل حتى مستقبل بعيد المصدر الرئيسي لتسليح وتجهيز القوات المسلحة الاسرائيلية ( موضوع الصناعة العسكرية الاسرائيلية في حاجة الى دراسة خاصة به ) .

وقد لخص الكاتب الاميركي « انتوني هـ كوردسمان » في مقاله عن « ميزان القوى العربي - الاسرائيلي » المنشور في « مجلة القوات المسلحة الاميركية » في تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٧ ، اهداف التخطيط العسكري الاسرائيلي ، والنتائج المحتملة للدعم العسكري الاميركي لاسرائيل ، بالنسبة لقدرات قواتها



المسلحة فقال « ان الولايات المتحدة ستخلق « اسرائيل » تتمتع بكل القدرات اللازمة لشن حرب هجومية . فسوف يكون لاسرائيل الاسلحة الكافية لتغطية الجبهة الاردنية وفي الوقت ذاته شن هجوم على سوريا ومصر ٠٠٠ وسوف يكون لاسرائيل كل الحركية اللازمة للمشاة والمدفعية لاختراق الجيوش العربية او الالتفاف حولها وتطويرها ٠٠٠ وان التطويرات التي جرت في قوة المدفعية الاسرائيلية والقوة الجوية الهجومية ستسمح « لقوات الدفاع الاسرائيلية » باسكات الدفاعات العربية المضادة للدبابات وانظمة الدفاع الجوي العربية . وسوف تتيح التطويرات التي تمت في كل من المعدات والتخطيط الاسرائيلي استخداما فعالا للموسائل الاميركية المضادة للالكترونيات والذخيرة الدقيقة التوجيه ، والاسلحة المضادة للدبابات ، وغيرها من العديد من التطويرات في التكنولوجيا العسكرية الاميركية ، التي جرت عقب ١٩٧٢ ، والتي لا تظهر في أي جداول لميزان القوى . وقد ازلت الحركية والانظمة اللوجستكية ( الادارية ) الاسرائيلية نقاط الضعف التي كانت قائمة في قدرات الاسناد اللوجستيكي بعيدة المدى في العام ١٩٧٢ . ولدى اسرائيل حاليا ايضا معدات الهندسة القتالية اللازمة للمتحرك بسرعة عبر القناة والموانع البرية . وتمتلك اسرائيل حاليا ما قدره ٣٠ يوما من الذخيرة على الاقل . ومن المرجح ان يكون لديها اكثر من ذلك بكثير . وان كل شحنة اسلحة اميركية جديدة تحرر اسرائيل من الاعتماد على اعادة الامداد الاميركي » (٣٢) وبغض النظر عما قد يتضمن في هذه التقديرات من المبالغة التي تغفل نسبيا تطور القدرات العسكرية العربية او تقلل منها ، فان هذه الاقوال ، وكافة التقديرات والارقام والمعلومات التي اوردها ، بصورة موجزة للغاية ، في دراستنا هذه ، وحاولنا ان نوضح مغزاها ، انما تكشف ، وبصورة موضوعية ، مدى التطور الذي لحق بالقوة العسكرية الاسرائيلية من حيث الطاقة البشرية والتسليح والمعدات ( اقتصر بحثنا على القوتين الجوية والبرية ، نظرا لاننا سبق ان عالجت التطورات التي جرت في القوة البحرية الاسرائيلية في دراسة خاصة ) ، وحقيقة استفادة اسرائيل من سنوات الهدوء النسبي ، التي حصلت عليها عقب حرب ١٩٧٢ ، والتي ساهم الدكتور « كيسينجر » مساهمة هامة في توفيرها لها من خلال سياسته القائمة على كسب الوقت لاسرائيل ، دون التوصل لاسس تسوية سلمية عادلة ، اذا كان ثمة اسس ممكنة لمثل هذه التسوية .

### الحواشي

٢ - مجلة نيوزويك ، عدد ٧٨٥-١ ،  
صفحة ٦٤ .  
(3) Glubb . John Bagot . A Sol-

(1) Luttwak, Edward and Horowitz,  
Dan , *The Israeli Army* , London ,  
Allen Lane , 1975 , 397

- ١٥ - المرجع السابق ، الهامش بصفحة ١٩٩ .
- ١٦ - الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤ ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٧ ، صفحة ٢٨٦ .
- (17) Rusi , London , 1976 , P. 31
- (18 - 22) *The military Balance 1977 1978* , London , 1977 , P. 82 , 83
- ٢٣ - جعفر ، قاسم ، المرجع السابق ، صفحة ٤٠ و ٤٤ .
- ٢٤ - المرجع السابق ، صفحة ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٥٩ .
- ٢٦ - المرجع السابق ، صفحة ١٩٩ .
- ٢٧ - المرجع السابق ، صفحة ٢٠٠ و ٢٠١ .
- ٢٩ - كوردسمان ، انتوني ، ميزان القوى العربي - الاسرائيلي - ترجمة محمود عزمي ، شؤون فلسطينية ، عدد ٧٣ ، كانون الاول ١٩٧٧ ، صفحة ١٩٨ و ١٩٩ .
- (30) *Armies and Weapons* , No . 21 , February , 1976 , P. 26
- ٣١ - نشرة الدراسات الفلسطينية ، التقرير الثالث ، ايار ١٩٧٨ ، صفحة ٢٧٦ .
- ٣٢ - كوردسمان ، انتوني ، المرجع السابق ، صفحات ١٨٥ و ١٨٩ .
- dier with the Arabs* , London , Hodder , 1969 . P. 94
- ٤ - البديري ، حسن ، الحرب في ارض السلام ، القاهرة - بيروت ، دار الوطن العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦ ، صفحة ١٧٢ .
- ٥ - المرجع السابق ، صفحة ١٧٢ .
- (6) Lafran Nadar , *From War To war* , New York Pegasus , 1969 , P. 217 , 228
- ٧ - عزمي ، محمود ، القوات المدرعة الاسرائيلية عبر اربع حروب ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٥ ، صفحة ١٠٧ .
- ٨ - المرجع السابق ، صفحة ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
- ٩ - المرجع السابق ، صفحة ٣٢٥ .
- ١٠ - المرجع السابق ، صفحة ٢٩٥ .
- ١١ - المرجع السابق ، صفحة ٣٦٤ .
- ١٢ - المرجع السابق ، صفحة ٣٧٢ و ٣٧٤ .
- ١٣ - المرجع السابق ، صفحة ٤٦٩ - ٤٧١ .
- ١٤ - جعفر ، قاسم ، عزمي ، محمود ، الاسير ، ربيع ، ميزان القوى العسكري في منطقة المشرق الاوسط ١٩٧٧ ١٩٧٨ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ، صفحة ١٩٨ .

## العلاقات السياسية القومية في العالم العربي

١٩٤٥ - ١٩٧٧

تراوحت علاقات الكيانات السياسية في الوطن العربي ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، بين التضامن الجماعي او المتعدد الاطراف ( الكونفدرالي او شبه الكونفدرالي ) والوحدة الثنائية الكاملة من جهة ، والحرب الباردة وحتى الساخنة بين دولتين او اكثر من جهة ثانية . ومن الجدير بالذكر في هذا المجال ، ان التضامن او التمحور بين الكيانات السياسية العربية اتخذ احد شكلين : فهو اما تحالفات جماعية ضمن اطار جامعة الدول العربية ، او تحالفات وخطافات ثنائية او متعددة الاطراف خارج نطاق جامعة الدول العربية . هذا على صعيد الشكل العام .

أما على صعيد المضمون ، ففي حين كان التضامن العربي نتيجة احساس جميع الكيانات السياسية او معظمها او بعضها بالخطر القومي وبالرغبة في العمل انشترك ، تركزت الخلافات بينها او بين بعضها على ثلاثة مستويات : فهي اما خلافات على اساليب مواجهة الخطر الذي تهددها قوميا بغض النظر عن المواقف الايديولوجية ، او نتيجة تنافر ايديولوجياتها وانعكاسات ذلك على صعيدي البناء الوطني والقومي الداخلي والعلاقات الخارجية مع دول العالم ، او بسبب النزاعات على الحدود الجغرافية الفاصلة بين بعض تلك الكيانات السياسية .

وفيما يلي استعراض سريع لابرز التحالفات والنزاعات التي شهدتها المنطقة العربية منذ الاستقلال السياسي الذي حظيت به دولها في المراحل المختلفة وحتى الآن :

## أولاً : التحالفات الجماعية ضمن إطار جامعة الدول العربية

ميز العمل الجماعي العربي نفسه ، ضمن نطاق جامعة الدول العربية ، في ثلاث فترات زمنية واضحة المعالم :

١ - ففي الفترة التي أعقبت التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية فسي آذار - مارس ١٩٤٥ وحتى نهاية العام ١٩٤٨ ، عملت الدول العربية على نحو جماعي في مجال دعم الحق العربي في نطاق القضية الفلسطينية ومتفرعاتها . وقد تأطر ذلك العمل في قنوات تراوحت بين مؤتمرات قمة حضرها الملوك والرؤساء العرب ، أو عبر مؤسسات وأجهزة جامعة الدول العربية العاملة دون مستوى القمة . ومن الامثلة البارزة على هذا وذاك : مؤتمر انشاص في ايار - مايو ١٩٤٦ الذي حضره ملوك ورؤساء العرب انذاك ، ومؤتمرات بلودان وبيروت وعاليه لمجلس جامعة الدول العربية في الفترة ما بين ايار - مايو ١٩٤٦ وتشيرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٧ ، ومؤتمرا صوفر الخاصان باللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في ايلول - سبتمبر وكانون الاول - ديسمبر ١٩٤٧ . واجتماعات اللجنة العسكرية ومكاتب المقاطعة الاقتصادية وغيرها من الهيئات التابعة للجامعة طوال الفترة الفاصلة ما بين مطلع ١٩٤٥ ونهاية ١٩٤٨ . وقد كان موضوع هذه الاجتماعات الغزو الصهيوني لفلسطين والتطورات التي واكبت ذلك الغزو محليا ودوليا .

٢ - وبدءاً من العام ١٩٤٩ وحتى مطلع العام ١٩٦٤ ، اختفت مؤتمرات القمة باستثناء مؤتمر الملوك والرؤساء الذي انعقد في لبنان في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٥٦ تضامناً مع مصر اثناء الغزو الثلاثي ( البريطاني - الفرنسي - الاسرائيلي ) لها . وقد تركز العمل الجماعي العربي في قنوات الاجهزة المختلفة التابعة لجامعة الدول العربية في كل مستويات ما دون القمة ، وبهدف تطوير وجه التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري بين الدول الاعضاء في الجامعة .

٣ - وفي الفترة الفاصلة ما بين مطلع العام ١٩٦٤ ونهاية العام ١٩٧٦ ، عاد العمل الجماعي فعبر عن نفسه في ثماني مؤتمرات قمة عربية . هذا عدا المؤتمرات العديدة التي عقدها رؤساء الحكومات ، وممثلو الملوك والرؤساء ، والوزراء العرب او غير ذلك من المستويات المختلفة ضمن الاجهزة التابعة لجامعة الدول العربية . وقد شملت المواضيع التي عالجتها هذه المؤتمرات مختلف الهموم القومية ( النزاع العربي - الاسرائيلي أساسا ، والحرب الاهلية في لبنان ١٩٧٥-١٩٧٦ ، مثلاً ) والنزاعات العربية الثنائية او المتعددة الاطراف ( الحرب الاهلية في اليمن ١٩٦٢-١٩٦٧ ، الصدامات الاردنية - الفلسطينية ١٩٧٠-١٩٧١ ، مثلاً ) والمواجهة مع القوى الخارجية ( الازمة العربية -

الامانية ١٩٦٥ ، والعلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول الكبرى ودول أوروبا أساسا في أعقاب حرب ١٩٧٣ ، مثلا ) وأسس مجالات تطويع التعاون السياسي - الاقتصادي - العسكري بين الدول العربية .

### ثانيا : التحالفات والخلافات الثنائية متعددة الأطراف خارج جامعة الدول العربية

والتحالفات الثنائية والمتعددة الأطراف هي احد وجهي العملة ذاتها . اما الوجه الاخر فقد تمثل في خلافات اتخذت شكلا ثنائيا او متعدد الأطراف . فما من قضية اختلف عليها كيانان سياسيان عربيان الا وتحولت ، فيما عدا النادر من الحالات ، الى مسألة يتمحور حولها عدد من الدول العربية ضد محور اخر . وعلى الرغم من كون التباين الايديولوجي - وانعكاسه في مجالات البناء الداخلي والقومي والعلاقات الدولية - قد شكل ، في معظم الحالات ، الخيط الفاصل في النزاعات الثنائية والمتعددة الأطراف التي إنقسم العالم العربي حولها ، فان ثمة شواهد تؤكد على أنه لم يكن الخيط الوحيد . ففي بعض الحالات ، كان التمحور يتم على الرغم من الفروقات او التماثلات الايديولوجية داخل كل محور . وبعبارة أخرى ، كثيرا ما وجد طرف محافظ ( او أكثر ) نفسه في محور واحد مع نظام او نظم راديكالية ، تماما مثلما وجدت اطراف معسكر معين نفسها تخوض صراعات فيما بينها في وقت كانت فيه او لم تكن في حالة نزاع مع طرف ( او أكثر ) من المعسكر الاخر . وهكذا ، تداخلت الخيوط وتشابكت أكثر من مرة بحيث كادت تضيع معها المعالم الواضحة لعلاقات التحالف والصدام بين الكيانات السياسية العربية . ومما يجدر ذكره في هذا المجال ، ان معسكر الدول العربية المحافظة كان - على وجه الاجمال وان ليس دائما - اقرب ، وبما لا يقارن احيانا ، الى دول العالم الغربي منه الى اعضاء الكتلة الاشتراكية . ومن ناحية اخرى ، كانت علاقات المعسكر الراديكالي - على نحو عام وغير مطلق - اشد توطدا مع بلدان المنظومة الاشتراكية منها مع دول « العالم الحر » .

وقد يلي استعراض موجز لابرز صيغ ومضامين التحالفات ( وجانبها المتمم : الخلافات ) التي عصفت بعلاقات الكيانات السياسية العربية الاقليمية والدولية في المراحل الزمنية المختلفة :

١ - ففي فترة ما قبل الخمسينات ، شهدت المنطقة العربية خلافات محدودة على الحدود كان ابرزها النزاعات المختلفة بين السعودية من جهة ، وكل من الاردن ، واليمن ، والكويت ، وبريطانيا من جهة ثانية . هذا علاوة على الخلاف السوري - التركي بخصوص لواء الاسكندرونة ، والنزاع العراقي - الايراني

حول كردستان . كما توترت علاقات دول المنطقة مع دول الاستعمار الغربي بسبب التطورات السياسية في عدد من الاقطار العربية الساعية الى الاستقلال السياسي . ومن الامثلة على ذلك ، ما حصل بين مصر وبريطانية حول السودان ، او بين عدد من الدول العربية وبريطانية بخصوص فلسطين ، او بين مصر وفرنسا حول تونس . كذلك ، عانت العلاقات الداخلية بين الكيانات السياسية العربية من جراء التناقس بين الانظمة الملكية في كل من الجزيرة العربية ( السعودية ) ، والعراق والاردن ( الهاشمية ) ، ومصر ( العلوية ) على النفوذ في الاقدار العربية الاخرى وبالذات في السنوات الاربع التي أعقبت الحرب العالمية الثانية .

٢ - ومع مجيء الخمسينات ، تعقدت صورة العلاقات الاقليمية والدولية في المنطقة العربية على نحو لم يسبق له مثيل . فما كاد انقلاب ١٩٥٢ العسكري يوطد حكمه في مصر ، حتى هزت مواقفه الراديكالية اصول العلاقات السياسية على امتداد الوطن العربي . فقد انقسم العرب حول تأييد ورفض حلف بغداد الذي تزعمت العراق الدعوة اليه ، وقادت مصر ( التي دخلت في احلاف واتفاقيات ثنائية مع السعودية وسورية والاردن ) الحملة المناوئة له ولجمل الاحلاف الاجنبية . بل ان مصر تزعمت حتى العام ١٩٥٧ حركة عدد من الدول العربية التي سعت من اجل القضاء على الوجود الاستعماري في العالم العربي ( ضد اسرائيل في فلسطين ، وفرنسا في المغرب العربي ، وبريطانيا في المملكة الاردنية الهاشمية وشرق وجنوب شرق الجزيرة العربية ، وغيرها ) .

غير ان النصف الثاني من الخمسينات حمل معه رياحا سياسية خلطت الاوراق على نحو جديد . ففي اعقاب الهزيمة السياسية التي منيت بها بريطانيا وفرنسا واسرائيل في مصر في العام ١٩٥٦ ، انقسمت الدول العربية بين اتجاهين رئيسيين هما : المحافظ والراديكالي . وفي الوقت الذي مضى فيه الاخير على طريق التحويل الاجتماعي الداخلي شبه الجزري والخارجي المعادي للغرب والمنفتح على الشرق ، مال الاتجاه الاول نحو التطوير المتدرج المتحفظ داخليا والمنفتح على الغرب والمعادي للشرق خارجيا . وقد اكتسب الصراع الاقليمي ابعاده الدولية في اعقاب كسر سورية ومصر لاحتكار السلاح الغربي والتوجه نحو الشرق في العامين ١٩٥٤-١٩٥٥ ، واعلان الولايات المتحدة مشروع ايزنهاور في العام ١٩٥٧ ، والانزال المظلي البريطاني والبحري الاميركي في الاردن ولبنان على التوالي في العام ١٩٥٨ . وفي هذه الفترة ، اقتربت مصر من سورية الى درجة اقامة « الجمهورية العربية المتحدة » ، تماما مثلما اتفقت الاردن مع العراق على تأسيس دولة « الاتحاد الهاشمي » في العام ١٩٥٨ . وفي حين عاد العراق فسار في الركاب المصري - السوري - اليمني الشمالي ( المعبر عنه باتحاد الدول العربية ) في الاشهر الاولى التي تلت

ثورة ١٩٥٨ ، تحالفت السعودية ولبنان مع الاردن . وقد بقي الوضع على هذا النحو دون تغيير حتى شعر الجميع بازدياد النفوذ الشيوعي في العراق مع اخر سنة في الخمسينات .

واخيرا ، لا بد من الاشارة هنا الى ان علاقات العديد من الدول العربية المحافظة المائلة للغرب لم تمنع وقوعها ضد مخططات الاستعمار الفرنسي في الجزائر طوال النصف الثاني من الخمسينات . فبالاضافة الى دعم دول المعسكرين (الراديكالي والمحاظ) في المشرق العربي للثورة الجزائرية ، حرصت ليبيا وتونس والمغرب على تقديم كل عون ممكن للثوار الجزائريين . وغني عن الذكر ان العلاقات بين الكتلة العربية الراديكالية وبلدان المنظومة الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ، كانت في تحسن مضطرد .

٢ - ما كاد التقارب بين ج ٥٠ م٠ ودول المعسكر المحافظ يزداد في ظل العداء للعراق المتجه شيوعيا وبخاصة اثناء ازمته مع الكويت في العام ١٩٦١ ، حتى انهار ذلك التقارب نتيجة دعم معظم دول المعسكر المحافظ لانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في ايلول - سبتمبر ١٩٦١ . وعلى الرغم من ان الانفصال السوري أبقى مصر وحيدة تقريبا في اتجاهها الراديكالي ، الا ان تلك العزلة لم تطل . ذلك انه سرعان ما انضم الى معسكرها كل من الجزائر واليمن الجمهوري في العام ١٩٦٢ ، وسورية والعراق في العام ١٩٦٣ . ومع نهاية العام الاخير هذا ، انقسم المعسكر الراديكالي على نفسه بين مؤيد لنظام ناصر ومؤيد للنظامين البعثيين في سورية والعراق حتى وقع انقلاب عبس السلام عارف في العراق في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٣ . وفي الوقت ذاته ، تأجج الصراع بين جناحي المعسكر الراديكالي من جهة ، ودول المعسكر المحافظ من جهة ثانية . وكان أخطر ما في هذا الصراع الحرب الاهلية في اليمن وما اكبها من ازدياد تدخل كل من السعودية والاردن الى جانب الملكيين ، ووقوف مصر وبماقي دول المعسكر الراديكالي الى جانب الطرف الجمهوري .

وعلى الرغم من الهدوء النسبي في « الحرب الباردة » العربية اثر تحسن العلاقات المغربية - التونسية - الموريتانية - الليبية وانعقاد مؤتمر القمة في القاهرة والاسكندرية في مطلع ونهاية العام ١٩٦٤ ، استمرت الحرب اليمينية بل وتفاقمت خلال العام ١٩٦٥ نتيجة تدويل الصراع في المنطقة على نحو واضح . ففي هذا العام ، تردت علاقات مصر وبماقي دول المعسكر الثوري مع الولايا المتحدة في عهد الرئيس جونسون ، ومع بريطانيا بسبب ثورتي الجنوب اليميني المحتل وسلطنة عمان ، ومع المانية الغربية بسبب شحنات الاسلحة الغربية المرسله الى الدولة الصهيونية عبر المانية واعتراف هذه الاخيرة باسرائيل . بل ان الصراع بين المعسكرين العربيين ( المحافظ والراديكالي ) عاد فتصاعد في العام ١٩٦٦ حول اليمن من جهة ، وحول علاقات لبنان والاردن

مع منظمة التحرير الفلسطينية والعمل الفدائي من جهة ثانية . وقد جرى ذلك التصاعد رغم الاجماع العربي المؤقت تجاه تصريحات الرئيس التونسي بخصوص فلسطين ، وتجاه قطع العلاقات الدبلوماسية مع المانية الغربية - ( باستثناء تونس والمغرب وليبيا التي رفضت قطع العلاقات ) في العام ١٩٦٥

وفي السنوات الاخيرة من الستينات ، خفت حدة التوتر بين معظم الدول العربية . وقد لعبت مقدمات ونتائج حرب ١٩٦٧ دورا بارزا في ذلك . ففي أعقاب تلك الحرب ، انتهت المواجهة في اليمن الشمالي نتيجة مؤتمر القمة العربي الرابع في الخرطوم في العام ١٩٦٧ ، وانسحبت بريطانيا من جنوب اليمن في العام ذاته ، وازداد التعاون بين نظام عبد الناصر والنظام البعثي في سوريا في أعقاب اقضاء الجناح الحاكم هناك في العام ١٩٦٦ ، وتحسنت العلاقات المصرية - الجزائرية اثر الفتحور الذي اعقب اقضاء بن بيلا واعوانه في العام ١٩٦٥ ، وانهقد كل من مؤتمر قمة دول المواجهة ( مصر وسورية والاردن والعراق والسودان ) في ايلول - سبتمبر ١٩٦٩ ، ومؤتمر القمة العربي الخامس في الرباط في كانون الاول - ديسمبر ١٩٦٩ ، ومؤتمر دول «ميثاق طرابلس» ( ليبيا ومصر والسودان وسورية ) في الشهر ذاته .

الا ان تطورات اخرى ابقت على كثير من التوتر في العلاقات الداخلية العربية . فانتصار « الجبهة القومية » في الجنوب اليمني المحتل غذى ذلك التوتر وبالذات مع السعودية في العام ١٩٦٧ ، تماما مثلما ازداد التوتر بين مصر والعراق اثر اقضاء عبد الرحمن عارف عن السلطة في العراق وسيطرة حزب البعث هناك في العام ١٩٦٨ . كما أن وقوع انقلابين عسكريين في السودان وليبيا في العام ١٩٦٩ ، اسهم في توتر العلاقات بين العسكريين الراديكالي والمحافظة . وعلى صعيد اخر ، أدت الصدامات بين السلطتين الاردنية واللبنانية وبين العمل الفدائي الفلسطيني في العامين ١٩٦٨-١٩٦٩ الى توتر علاقات هاتين السلطتين مع سوريا وليبيا والجزائر على نحو خاص . هذا كله ، علاوة على التوتر الناجم عن النزاعات الحدودية بين عدد من الدول العربية سواء في المشرق او المغرب العربي . ومن الامثلة البارزة على ذلك ، خلاف العراق والكويت في العام ١٩٦١ ، والجزائر والمغرب والجزائر وتونس في العام ١٩٦٣ ، والسعودية وابوظبي في العام ١٩٦٦ ، وموريتانيا والمغرب في العام ١٩٦٩ .

وأخيرا ، يجدر التنويه بان النصف الثاني من الستينات شهد استقطابا واضحا في الصراع الدولي في المنطقة وبالذات بعد حرب ١٩٦٧ . فمن جهة ، نجحت الولايات المتحدة الاميركية في الإبقاء على علاقاتها الودية مع الدول



العربية المحافظة ، على الرغم من انحيازها شبه الكامل الى جانب اسرائيل .  
ومن جهة ثانية ، عزز الاتحاد السوفياتي علاقاته بالدول الراديكالية ( باستثناء  
ليبيا ) وبالذات مع مصر وسورية والعراق والجزائر واليمن الجنوبية .

٤ - تميزت علاقات الكيانات السياسية العربية حتى مطلع العام ١٩٧٧  
باختلاط الاوراق على نحو مذهل اثر تذويب الجدار الجليدي الفاصل منذ العام  
١٩٥٧ بين المعسكرين المحافظ والراديكالي . وقد تمت عملية التذويب تلك  
بفعل حرارة الهيمنة التدريجية للقوى المحافظة على القوى الراديكالية التي  
لم تخضع نتيجة الاتفاق او الاقناع او حتى الحرب الباردة بقدرها وضخت تحت  
وطأة الضغوط الاقليمية والدولية والحروب المحلية الساخنة . فمنذ ان وافقت  
مصر عبد الناصر ( والاردن ) على « بادرة روجرز » في النصف الثاني من  
العام ١٩٧٠ ، تلاحقت الاحداث على نحو ضمن سيطرة القوى المعتدلة :

ففي الاردن ، استطاعت السلطة - بتأييد من الولايات المتحدة - اخراج العمل  
الفدائي من الضفة الشرقية عبر المعارك الشهيرة في العامين ١٩٧٠ - ١٩٧١ .  
وعلى الرغم من مواقف سورية وليبيا وجنوب اليمن والجزائر المنحازة للفدائيين ،  
تميز الموقف العربي العام بالاعتدال ( الوساطة العربية شبه الجماعية بعد  
مؤتمر القمة الطارئ السادس في القاهرة والوساطة العراقية في ايلسول -  
سبتمبر ١٩٧٠ وبعده ، والوساطة السورية في تموز - يوليو ١٩٧١ ، والوساطة  
المصرية - السعودية في ايلول - سبتمبر ١٩٧١ ) .

وفي جنوب اليمن ، تمكنت السعودية واليمن الشمالي ، بوسائل العمل  
الحربي في العامين ١٩٧٢ - ١٩٧٣ وبالضغط السياسي في الفترة ١٩٧٠ -  
١٩٧٧ ، من كبح جماح جمهورية جنوب اليمن .

وفي سلطنة عمان ، مكنت مساعدات الاردن والامارات المتحدة ( وايران )  
سلطان عمان من تصفية الحركة المناوئة له في ظفار في الفترة ١٩٧١ -  
١٩٧٦ .

وفي مصر ، بالذات بعد وفاة الرئيس عبد الناصر في ٢٨ ايلول - سبتمبر  
١٩٧٠ ، تميزت سياسة العهد الجديد بالانفتاح على الغرب اقتصاديا وسياسيا  
وعسكريا وبخاصة بعد طرد الخبراء والمستشارين السوفيات من مصر في  
حزيران - يونيو ١٩٧٢ . وقد تم ذلك على الرغم من التقارب الشكلي الهش  
بين مصر وليبيا والسودان وسورية لتأسيس « اتحاد الجمهوريات العربية » في  
الاعوام ١٩٧٠ - ١٩٧٣ . وخلال هذه الفترة ، نمت علاقات مصر مع السودان  
داخل « الاتحاد » وبخاصة بعد ان رجحت كفة الاعتدال في السودان على أساس  
اقامة علاقات امتن مع السعودية والكويت عربيا ومع الغرب وضد الاتحاد  
السوفياتي دوليا . كما توطدت العلاقات المصرية - السورية ، نتيجة تنسيقها من

اجل شن حرب ١٩٧٣ ضد اسرائيل التي انتهت بقبول سورية قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢٠ .

وفي العراق ، اتخذت السلطات البعثية الحاكمة مواقف اكثر اعتدالا تجاه الدول العربية ( باستثناء سورية ) وبخاصة بعد انتهاء الحرب في المنطقة الكردية نتيجة الاتفاق مع ايران في العام ١٩٧٥ . وقد اعقب ذلك انفراج في العلاقات مع السعودية ودول الخليج باستثناء الخلاف المستمر على الحدود مع الكويت . ومن الجدير بالذكر في هذا المجال ، ان الخلافات السياسية المصرية - العراقية اتخذت طابعا هادئا بدء من العام ١٩٧٢ .

وفي دول المغرب العربي ، توصلت الاطراف المعنية الى سلسلة اتفاقات على الحدود المتنازع عليها . ومن ابرز هذه الاتفاقات ، حل النزاع المغربي - الموريتاني والجزائري - التونسي في العام ١٩٧٠ ، والخلاف المغربي - الجزائري في العامين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ ، ( على الرغم من توتر علاقتهما بعد ضم الصحراء الاسبانية الى المغرب في العام ١٩٧٥ ، وتوتر العلاقات الليبية - المغربية بعد محاولتي الانقلاب في المغرب في العام ١٩٧١ ) . كذلك ، اعيدت العلاقات الدبلوماسية بين الاردن من جهة ، وتونس والجزائر وليبيا في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ من جهة ثانية .

واخيرا ، استطاعت السعودية - التي طالما دعت الى الانفتاح على الغرب والابتعاد عن الشرق - جمع معظم الدول العربية حول سياساتها . وقد كان اخر الانتصارات الدبلوماسية السعودية نجاحها في عقد القمة المصغر في الرياض ومؤتمر القمة العربي الثامن في القاهرة في الاشهر الثلاثة الاخيرة من العام ١٩٧٦ . وقد وضع المؤتمران نهاية للحرب الاهلية اللبنانية التي اندلعت ناراها في نيسان ابريل ١٩٧٥ ودامت تسعة عشر شهرا . ومع الايام الاولى من العام ١٩٧٧ ، بات واضحا ان محصلة الصراعات الداخلية والخارجية في العالم العربي كانت لصالح الدول العربية المحافظة المؤيدة للمغرب والمعادية لبلدان الكتلة الاشتراكية .



#### المعلومات الواردة في البحث مستقاة من المصادر التالية :

- ١ - جورج لنشوفسكي ، الشرق الاوسط في الشؤون العالمية ، ترجمة جعفر خياط ( بغداد : دار الكشاف ومؤسسة فرانكلين ، ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ) ، ص ٢٥٧-٢٦٢ ، ٢٨٢-٤١٣ ، ٤٢٥-٤٣٦ ، ٤٦٥-٤٧٧ ، ٤٨٢-٥٠٥ ، ٥١٣-٥١٩ ، و ٥٦٩-٥٩٧ .

٢ - مجموعة من الاساتذة المختصين ، تاريخ الاقطار العربية المعاصر ( موسكو : دار  
التقدم ، ١٩٧٥ ) ، الجزء ان الاول والثاني .

٣ - اللواء محمد كمال عبد المجيد ، المشرق الاوسط في الميزان الاستراتيجي ( القاهرة :  
المطبعة الانجلو المصرية - ١٩٧٢ ) .

٤ - واخيرا ، ما ورد عن السياسة الخارجية ( العربية والدولية ) للدول المختلفة  
المضمنة في :

**The Europa Year Book 1975 : A World Survey , Vol. II ( London : Europa  
Publications Limited , 1975 ) ; and in T.Y. Ismael (ed.) Governments and  
Politics of the Contemporary Middle East ( Home Wood , Ill. : The Dorsey  
Press, 1970 ) .**

## محاولة أولية للتعرف على حيثيات العملية التاريخية لولادة الحزب الشيوعي في فلسطين "٢"

ثالثا : من حزب العمال الاشتراكيين الى الحزب الشيوعي في فلسطين ، او عملية الانتقال التاريخية من مواقع البوعالي تسيون اليساري الى مواقع الماركسية - اللينينية ، ومعاداة الصهيونية :

بعد تأسيسه ، ركز حزب العمال الاشتراكيين نشاطاته على جبهة العمل النقابي ، وكانت سياسته النقابية تقوم على قاعدة مبدأ الفصل بين مهام النضال الاجتماعي وبين مهام النضال « القومي » داخل المنظمات النقابية اليهودية . وقد استطاع الحزب في وقت قصير كسب بعض النفوذ داخل عدد من هذه المنظمات . فتحت ضغط انصاره قررت نقابة عمال النجارة في يافا الانسحاب من « اتحاد العمل » في اوائل العام ١٩٢٠ للقيام بنشاط نقابي ثوري مستقل (٥٥) . ومن جهة أخرى ، كانت الاتحادات النقابية لعمال البناء والخياطة متأثرة بأفكار الحزب ، الذي استطاع مد نفوذه حتى الى داخل « نقابة عاملي السكك الحديدية » التي اسستها القيادة العمالية الصهيونية لمنافسة « الاتحاد العام لعمال سكك الحديد والبريد والمواصلات » الذي كان يضم جنبا الى جنب العمال العرب واليهود ويقوم بنشاط نقابي موحد . (٥٦)

ومع ذلك ، لم يقتصر نشاط الحزب خلال هذه المرحلة الاولى من حياته على العمل النقابي وحده . فبهدف توسيع نفوذه بين صفوف الشبيبة العمالية اليهودية ، أسس الحزب خلال العام ١٩٢٠ بمدينة يافا ناديا للشباب ، اطلق عليه اسم « نادي بوروشوف » . وكان هذا النادي مكانا للنقاش ولطالعة صحف البوعالي تسيون اليساري في الخارج و « ملتقى جميع الراديكاليين في البلاد ومكانا لكسب الانصار عن طريق استعمال وسائل خاصة للتسلية وعن طريق الندوات والحفلات الموسيقية » (٥٧) .

في تموز ١٩٢٠ قرر الحزب ايفاد قائده « مايرزون » لتمثيله في المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي بوعالي تسيون الذي انعقد بمدينة فيينا .

وقد دارت النقاشات الخاصة بقبول او برفض اشتراك « مايرزون » في اعمال المؤتمر في الخامس من اب ١٩٢٠ ، أي قبل ثلاثة أيام فقط من انقسام الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون الى اتحادين : واحد « يميني » والآخر « يساري » . (٥٨) وقد وافق ممثل الاتجاه اليساري داخل الاتحاد العالمي « مكتب التنظيم » (٥٩) على قبسول اشتراك « مايرزون » ، بينما طالب « بن زفي » ممثل « اتحاد العمال » ( احدوت هعفوداه ) باقصائه عن اعمال المؤتمر بحجة ان الحزب الذي يمثل « لا يداقح مطلقا عن الصهيونية » . وفي النهاية تمت الموافقة على اشتراك « مايرزون » بصوت استشاري في اعمال المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي بوغالي تسيون .

وفي الحادي عشر من اب ، القى « مايرزون » تقريره عن الاوضاع في فلسطين امام ممثلي الاتحاد العالمي ( اليساري ) . واثبت في كلمته بان البرامج الصهيونية حول انقاذ سريع وكامل في فلسطين هي برامج خيالية . وقال ايضا بان الارض الحرة ، غير المسكونة والصالحة للزراعة حالا ليست امرا سهلا بالمرة في فلسطين . وأشار الى ان في البلاد سكانا قرويين عربا بدون ارض وعطاشا للارض وانهم سيظهرون مقاومة كبيرة لتسرب عناصر من المدينة وخصوصا من خارج البلاد الى القرية .

ومع تحذيره من الاستيطان على حساب الفلاحين ، حذر « مايرزون » ايضا من النتائج الخطيرة التي من الممكن ان تتبع من السياسة الصهيونية ، سياسة التعاون مع الحكم الاستعماري ضد جماهير الشعب العربي في فلسطين . وفي نهاية كلمته طالب ممثل حزب العمال الاشتراكيين بالعمل على « اقامة مؤسسات اقتصادية وسياسية مشتركة لكافة العمال في البلاد ، ورص صفوف العمال اليهود مع العمال العرب في اتحاد نقابي وفي اتحاد اشتراكي ثابت والتدخل بشكل نشيط ، وتجميع قوى للقضاء على الحكم الاستعماري الاجنبي ولتحرير البلاد من العبء الاستعماري الثقيل » (٦٠) .

صدمت الاتهامات التي وجهها « مايرزون » للحركة الصهيونية في فلسطين مشاعر مندوبي المؤتمر « اليساريين » الذين قرروا تشكيل لجنة تحقيق خاصة لبحث مسألة استمرار مساهمته في اعمال مؤتمرهم . وقد اتخذت هذه اللجنة بعد المداولات التي اجرتها قرارا يقضي باقصاء « مايرزون » عن جلسات المؤتمر بحجة انه « شهر بالجماهير اليهودية في فلسطين عندما حملها مسؤولية تفجير الصراع مع العرب » (٦١) .

لقد كان هدف « مايرزون » في فيينا السعي لتغيير سياسة الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون والاتصال بالمجموعات اليسارية « الشيوعية » التي تشكلت داخل مشروع هذا الاتحاد ودعوتها لاقامة اتحاد شيوعي موحد . وفي الخامس والعشرين من شهر اب ، ارسل « مايرزون » من فيينا رسالة الى رفاقه في فلسطين يعلمهم فيها عن فشله في تحقيق اهدافه ، وكتب بانه « لم يتحقق اي شيء مما توقعناه (٠٠٠) ، ولم يقم الاقتصاد الشيوعي (٠٠٠) . ولذا فمن المنطق ان حزينا بقي ثانيا خارج الاتحاد » . وأشار « مايرزون » في رسالته ايضا الى « ان المكتب الجديد للاتحاد سيرسل الان اعضاء الى فلسطين لحل منازعتنا ولاقامة حزب بوغالي تسيون مقبول ، او كتلة يسارية في احدوت هعفوداه » (٦٢) .

من المرجح بان « مايرزون » ، بعد مغادرته فيينا ، قد توجه مباشرة الى موسكو

لالتقاء بقيادة الاممية الشيوعية والتشاور معها في امكانية قبول انضمام حزب العمال الاشتراكي في فلسطين الى صفوف الاممية (٦٣) . فبعد اسابيع قليلة من انتهاء اعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، عقدت اللجنة التنفيذية المنتخبة عنه في ٢١ ايلول ١٩٢٠ اجتماعا ناقشت خلاله « مسألة حزب العمال الاشتراكي في فلسطين » ، حيث استمعت الى تقرير قدمه احد ممثلي هذا الحزب الذي قدم خصيصا الى موسكو لمناقشة امكانية انضمام حزب العمال الاشتراكي الى صفوف الاممية الشيوعية . (٦٤)

ذكر ممثل الحزب الفلسطيني في التقرير الذي قدمه امام اعضاء اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية « بان الحزب الذي يمثله هو في الحقيقة الحزب الشيوعي في فلسطين ومصر ، وانه قد تبني ، ولاسباب تكتيكية بحتة ، اسم الحزب الذي كان يوجد سابقا في فلسطين ، حزب « البوعالي تسيون » بعد ان تخلى عن كلمة « يهودي » . وان حزيه الحالي لا يجمعه اي قاسم مشترك مع الحزب القومي القديم ، حزب البوعالي تسيون » . وازدادت بان حزب العمال الاشتراكي « يعمل بين صفوف الجماهير الكادحة اليهودية والعربية في فلسطين (١٠٠) ، وعليه ان يناضل لتخطي صعوبات كبيرة تواجهه ، من اهمها قضية حذر المواطنين العرب من نشاطات العمال اليهود . ومع ذلك - تابع يقول - فان جماهير العمال العرب تشكل الاغلبية العظمى من الجماهير الواقعة تحت تأثير الحزب ، بينما غالبية منظمي الحزب ( كوادره ) تتشكل من العمال اليهود » (٦٥) .

وفي اعقاب النقاشات التي دارت حول تقرير ممثل الحزب اعربت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية عن قناعتها بان حزب العمال الاشتراكي في فلسطين « قد انتهج في نشاطه الثوري بين صفوف الجماهير الكادحة في فلسطين ومصر طريقا صحيحا ، ولكنه لم يقطع بشكل جذري الروابط التي تربطه بالافكار البرجوازية القومية » . وفي هذا الاتجاه ، اتخذت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية القرار التالي : « ان اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، في الوقت الذي تؤكد فيه على قرارها السابق بخصوص حزب البوعالي تسيون ، لتحيي انبثاق فجر الحركة الثورية في فلسطين ، وتقترح على حزب العمال الاشتراكي ( بوعالي تسيون ) في فلسطين ما يلي : اولا ، وقبل كل شيء ، دراسة مقررات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية والعمل على تطبيقها ، وخاصة ما يتعلق منها بشروط الانضمام الى الاممية الشيوعية ( الشروط الواحدة والعشرون ) . ثانيا : تغيير اسم الحزب .

وبعد ذلك ، سيكون بالامكان مناقشة قضية انضمام الحزب الى صفوف الاممية الشيوعية » . (٦٦)

اثارت مداخلة « مايرزون » في فيينا واجتماعه بقيادة الاممية الشيوعية في موسكو سخط وغضب الاحزاب العمالية الصهيونية في فلسطين التي نظمت حملة هجوم واسعة على حزب العمال الاشتراكي وعلى قائده . وامام حدة هذا الهجوم اكد اعضاء الحزب في فلسطين تحفظهم على بعض ما جاء في الكلمة التي القاها « مايرزون » في فيينا ، وبعثوا برسالة بهذا الخصوص الى رئاسة تحرير « كونترس » صحيفة « احداث هعقوداه » ، اعلنوا فيها « بانه فقط اذا كانت الانباء صحيحة ، فان ممثلنا لم يعبر عن

رأي حزبنا في مؤتمر فيينا » . غير ان القيادة الصهيونية لم تقتنع بهذه الرسالة وتابعت حملتها ضد حزب العمال الاشتراكي واتهمته بان « كل اعماله في البلاد مشبعة بروح المعارضة التامة للصهيونية ولتحقيقها. بأي شكل كان » (٦٧) .

ساعدت هذه الحملة الصهيونية الواسعة التي شنت ضد حزب العمال الاشتراكي على تعزيز مواقع اتجاه البوعالي تسيون داخله ، معيقة بذلك ، ولو لفترة ، عملية تجذر مواقفه الثورية . ففي صيف العام ١٩٢٠ ، قررت قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون ، القلقة من امكانية تعزيز مواقع الاتجاه « التصفوي » لمايرزون بين صفوف اعضاء الحزب ، ايفاد مجموعة من كوادرها الى فلسطين لمراقبة سير نشاط حزب العمال الاشتراكي ومنعه من الانحراف عن « الطريق الصحيح » ، طريق النضال في سبيل تحقيق مبادئ « الصهيونية البروليتارية » . وفي فلسطين ، التفت موفدو قيادة الاتحاد العالمي حول اطار تنظيمي مواز للحزب ، أطلق عليه اسم « مجموعة المبادرة » ، وكان يقوده « ابراهام ريفوتسكي » ( A. Revutzky ) .

في ظل هذه الظروف ، انعقد بمدينة حيفا في الفترة الواقعة بين ٢ و ٤ تشرين الاول ١٩٢٠ المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي في فلسطين . وقد ساهم في اعمال هذا المؤتمر (٢٢) مندوبا يمثلون (٣٠٠) عضو منظم ، بالإضافة الى ممثل عن قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون (٦٨) .

أكد المؤتمر الثاني للحزب في بداية اعماله تعلقه الوثيق بمبادئ « الصهيونية البروليتارية » ، وأعرب مندوبيه عن قناعتهم بأن اقامة الجماهير اليهودية في فلسطين « لا تتعارض مع مصالح العمال والفلاحين العرب ، بل على العكس ، فهي تتوافق تماما مع مصالحهم » . (٦٩) وفي هذا الاتجاه ، ندد المؤتمر بالسياسة التي انتهجتها قيادة الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين ، تلك القيادة التي عارضت اقامة مؤسسات اقتصادية وسياسية مشتركة تجمع العمال اليهود والعرب ، وطالب المؤتمر قيادة الحزب بالعمل على اقامة مثل هذه المؤسسات . وقد اعار المؤتمر اهمية خاصة لقضية اقامة حزب اشتراكي ثوري موحد في فلسطين قائم على قاعدة « فرعين قوميين » ، أحدهما يهودي والاخر عربي ، وذلك انطلاقا من القناعة « بان العرب وحدهم يقدرون على خلق حركة ثورية بين الجماهير العمالية وشبه العمالية العربية في فلسطين » . (٧٠) وقد دعا المؤتمر الثاني الحزب للمساهمة في عملية اقامة « الفرع العربي » على ان يبقى ، لحين قيامه ، بمثابة الممثل الوحيد لمجموع الحركة الثورية في فلسطين . وجاء في احد قرارات المؤتمر بهذا الصدد : « يعترف المؤتمر بضرورة اقامة حزب قطري ثوري قائم على اسس كتائب قومية . ويفوض اللجنة المركزية باقامة هذا الحزب القطري ، في اول فرصة ، بعد اقامة الكتبية العربية . وحتى ذلك الوقت ، يرى الحزب نفسه ( بمثابة ) القائم بدور حزب ثوري قطري » . (٧١)

اعتبر المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي في فلسطين بان الضمانة الوحيدة « لاقامة مركز عمالي يهودي - عربي في البلاد هي فقط بانتصار الثورة الاشتراكية في فلسطين وخارجها » . وعلى طريق اقامة مثل هذا المركز دعا المؤتمر الحزب لتبني

نضاله « ضد الادارة البريطانية ، ومحاربة الاوهام التي تنشرها احزاب العمال الاشتراكية الشوفينية حول هذه الادارة » . (٧٢) وأقر المؤتمر في ختام اعماله بأن الاشتراكية هي الهدف النهائي لنضال الحزب ، وأن النضال الطبقي الثوري هو طريق الوصول الى الاشتراكية ، وأن ديكتاتورية البروليتاريا المنظمة على شكل حكم المجالس ( السوفيات ) هي الوسيلة لذلك . (٧٣)

بإمكاننا ان نلاحظ بأن تأثير افكار ثورة اكتوبر الاشتراكية كان واضحا على بعض القرارات التي اقرها المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي . غير ان الحزب لم يتمكن ، خلال مؤتمره هذا ، من تحديد موقف ثوري واضح تجاه قضية النضال الوطني التحرري العربي المعادي للإمبريالية والصهيونية . والسبب الرئيسي في ذلك يعود الى حقيقة ان الحزب كان لا يزال ينطلق في تحديد مواقفه من مواقع « الصهيونية البروليتارية » . فالقرارات الثورية التي اقرها مؤتمره الثاني كانت لا تزال « تتحدث بلسان صهيوني وتتكلم عن الصفة العالمية لقضية العمال اليهود ، وانعدام الارض والبناء الاقتصادي غير المعادي للشعب اليهودي ، وترى (٠٠٠) ان الحل الجذري لذلك هو عن ( طريق ) انتقال جماهير اليهود في العالم الى الزراعة والعمل المنتج ، وعن طريق تجميعهم الاقليمي في فلسطين » (٧٤) . ومن هنا ، فان برنامج الحزب لم يكن يمثل ، حتى ذلك الوقت ، الخيار الثوري المطروح امام جماهير الكادحين العرب في فلسطين .

بعد فترة وجيزة من انتهاء اعمال المؤتمر الثاني للحزب ، وصل الى فلسطين ثلاثة موفدين من قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) بوغالي تسيون هم : « Rizsik Yaakow » ( سيكادور ) ، و « Schnior » من الاتحاد السوفياتي ، و « Gershon Dua » ( آدموني ) من بولونيا . وكانت المهمة التي اوكلت اليهم تتجسد ببحث امكانية الاعتراف بحزب العمال الاشتراكي في فلسطين كفرع رسمي محلي للاتحاد العالمي في هذا البلد . ومن فلسطين بعث موفدو قيادة الاتحاد العالمي برسالة الى مركز البوغالي تسيون في فيينا أكدوا فيها على ان الاتجاه « التصفيوي » الذي كان يشكك بإمكانية نجاح المشروع الاستيطاني الصهيوني قد تمت تصفيته داخل الحزب ، خاصة بعد ان انضمت الى صفوفه مجموعة جديدة من أعضاء البوغالي تسيون « المخلصين » ، الذين وصلوا حديثا الى فلسطين في عداد الموجة الثالثة من الهجرة اليهودية . وانطلاقا من هنا ، دعت الرسالة قيادة الاتحاد العالمي الى الاعتراف الرسمي القوري بالحزب ، فرعا للاتحاد العالمي ( اليساري ) بوغالي تسيون في فلسطين (٧٥) .

وقد تم ذلك فعلا في ٢ تشرين الثاني ١٩٢٠ . وفي الوقت نفسه نصحت قيادة الاتحاد العالمي حزب العمال الاشتراكي في فلسطين باضافة كلمة «العبري» الى اسمه ، لاعتقادها بأن تحديد الحزب ، حتى في تسميته ، كمنظمة اشتراكية يهودية سيساعد على ضمان سيره على « الطريق الصحيح » ، طريق تحقيق مبادئ « واهداف » الصهيونية البروليتارية .

وفي ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ ، انضمت « مجموعة المبادرة » بقيادة « ريفوتسكي » رسميا الى صفوف الحزب ، الذي صار يسمى اعتبارا من ذلك التاريخ : « حزب العمال الاشتراكي العبري في فلسطين » ( M.P.S.I ) (٧٦) . وطبعاً ، لم تكن هذه التسمية



الجديدة للحزب متوافقة مع طموح بعض أعضائه لزيادة نشاطه الصعب ، والمعدوم تقريبا آنذاك ، بين جماهير الكادحين العرب ، ناهيك عن تناقضها الصريح مع قرار المؤتمر الثاني للحزب الداعي الى اقامة حزب ثوري قطري في فلسطين \* ولكن ، وعلى الرغم من كافة مناورات قيادة الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون ، وعلى الرغم من اقضاء «مايرزون» عن مسؤولياته القيادية داخل الحزب ، فان الصراع السياسي والايديولوجي قد استمر داخل حزب العمال الاشتراكي العبري بين الاتجاهين المتناقضين «التصفوي» من جهة ، و «البوغالي تسيون» من جهة اخرى \* وقد ظهر ذلك بوضوح خلال المؤتمر التأسيسي للهستدروت ، حيث عبر ممثلو الاتجاهين عن وجهات نظر متباينة \*

في اواخر العام ١٩٢٠ ، شعرت القيادة العمالية الصهيونية بأن نشاطها الهادف الى «احتلال الارض» و «احتلال العمل» في فلسطين قد اصبح بحاجة الى اداة مركزية قادرة على فرض هيمنتها على كافة اوجه النشاط الاستيطاني الصهيوني \* ومن هنا ، انطلقت دعوتها لاقامة كونفدرالية عامة للعمال اليهود في فلسطين - الهستدروت - \*

افتتح المؤتمر التأسيسي للهستدروت بمدينة حيفا يوم السبت الموافق ٤ كانون الاول ١٩٢٠ \* وبنتيجه الحملة التي جرت لانتخاب مندوبي المؤتمر ، حصل حزب العمال الاشتراكي العبري على (٣٠٣) صوتا من مجموع (٤٤٢٣) منتخبا ، اي ما نسبته (٦٨٪) \* وقد استطاع الحزب ايصال ستة من مندوبيه الى المؤتمر من مجموع (٨٧) مندوبا ساهموا بأعماله (٧٧) \*

طالب مندوبو الحزب أثناء المداخلات التي ألقوها أمام المؤتمر بقبول انضمام العمال العرب الى الهستدروت واقامة نقابة قطرية موحدة تجمع جميع عمال فلسطين ، واعلنوا بأنه « ما دام العامل العربي غير منظم فلن يتوفر الحل ايضا لقضية العامل اليهودي» (٧٨) \* ودعوا العمال اليهود لتجاوز مرحلة «المنافسة الرخيصة» مع رفاقهم العرب وجعل العمل المهني في البلاد يقوم فقط على قاعدة الصراع الطبقي \*

قدم «سيكادور» امام مندوبي المؤتمر برنامجا نقابيا يحدد تصورات ومواقف حزب العمال الاشتراكي العبري تجاه قضايا العمل النقابي في فلسطين \* وكان هذا البرنامج ينطلق من المبادئ الثلاثة التالية :

١ - يجب أن تمثل الهستدروت تجمعا نقابيا مهنيا ، قائما فوق الاحزاب السياسية ، يجمع كافة عمال فلسطين بغض النظر عن انتمائهم القومي \*

٢ - يجب أن تمثل الهستدروت ، في الوقت نفسه ، المنظمة اليهودية القومية التي تأخذ على عاتقها مسؤولية اقامة المركز الاشتراكي اليهودي في فلسطين \*

٣ - يجب أن تكون الهستدروت بمثابة البرلمان الاممي والناطق السياسي باسم الطبقة العاملة اليهودية - العربية في فلسطين « (٧٩) \*

وهكذا ، كان البرنامج المقدم من الحزب يتمحور اذن حول ضرورة الفصل بين مهام النضال الاجتماعي للهستدروت كمنظمة نقابية قطرية «أممية» ، وبين مهام نضالها «القومي» كمنظمة للعمال اليهود تسعى في سبيل اقامة «المركز الاشتراكي اليهودي»

في فلسطين ، اي في سبيل انجاز برنامج « الصهيونية البروليتارية » .

يعتقد بأن مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري في مؤتمر الهستدروت ( او بعضهم ) قد قدموا ، خلال احدى مراحل المؤتمر ، بيانا استثنائيا القاه « حاييم كاتس » وجاء فيه : « ان هوة عميقة بيننا وبين سائر الاحزاب ، نحن لا نريد أن نعتد على اموال البرجوازية فنحن نربط مصيرنا بمصير البروليتاريا العالمية . . . ان وجهتي نظر عالميتين أمامنا » (٨٠) . وذكر في بروتوكول المؤتمر بأن بيان الحزب الاستثنائي لم يسجل حتى نهايته ، وكل الكلام السيء الذي جاء فيه قد حذف بقرار من المندوبين الذين طالبوا بانزال الخطيب من على منصة المؤتمر . وقد ذكر في بروتوكول المؤتمر ايضا بأن بيان الحزب الاستثنائي قد تضمن اقوالا تشهر بالعمال اليهود في فلسطين وتتهمهم بأنهم يعززون آمالهم بحراب الاستعمار ويستعملون المقاطعة الشاملة ضد عمال معروفين (٨١) .

نفس « آدموني » ، أحد مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري ، الاتهامات التي وجهت الى حزبه ، وذكر بأن اتهام حزبه بمعاداة الصهيونية « هو كذب فاضح » و اضاف قائلا : « لقد كنا قد كتبنا على راياتنا قبل عشرين عاما بأن الحل الجذري لمسألة البروليتاريا اليهودية يكمن هنا في فلسطين . ان هذا هو رأينا حتى اليوم . ولكننا ، وهذا واضح ، نتبع طرقا مختلفة عن طرقكم (٠٠٠) . ان العمال اليهود يهتمون وحدهم بمصلحة الصهيونية وليست البرجوازية اليهودية التي لا تهتم سوى بمصالحها » (٨٢) .

ولكن ، على الرغم من نفيهم للتهم التي وجهت اليهم بأنهم معادون للصهيونية ، وعلى الرغم من اعلانهم طرد « مايرزون » من حزبه ، فان مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري لم يحصلوا على اعتراف الاحزاب الصهيونية العمالية الرسمي بشرعية نشاطهم داخل الهستدروت . وعندما حاولوا الاحتجاج على مثل هذه المعاملة ، أعلن « اسحق بن زفي » باسم اللجنة الدائمة للمؤتمر : « لو واجهتنا مسألة الموقف من حزب العمال الاشتراكي حين عرفناه سابقا ، لكننا آنذاك رددنا بسلبية دون اية قضايا ، لان هذا الحزب لم يستبعده اتحاد اليمين لعمال صهيون فقط ، بل ايضا اتحاد اليسار ، ولا شك في اننا ما كنا لنسمح لهذا الحزب باحتلال مكان في المؤتمر . . . ولكن قبل أيام معدودة ظهر حزب العمال الاشتراكي العبري الذي لا نعرف بعد ماهيته . . . » (٨٣) . وتابع « بن زفي » يقول : « لقد سمعنا من مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري قولهم بأنهم يعارضون « مايرزون » ، في الوقت الذي يبعثون فيه ببرقية تهنئة ( بمناسبة ذكرى اكتوبر على الاغلب ) الى موسكو » (٨٤) .

انتخب المؤتمر التأسيسي للهستدروت في نهاية اعماله لجنة ادارية مؤلفة من (٢٣) عضوا ، كان من بينهم ممثلان عن حزب العمال الاشتراكي العبري : سيكادور وأدوني (٨٥) . الا أن تعاون الحزب مع الهستدروت لم يستمر طويلا . فبعد اسابيع قليلة من تأسيس الهستدروت ، قرر ممثلا الحزب الانسحاب من لجنيتها الادارية نظرا للأسباب التالية :

« لاننا لا نريد تحمل جزء من المسؤولية في نشاطات الهستدروت ، التي بدلا من ان تهتم بالنشاطات النقابية والجماعية فانها تمارس سياسة برجوازية صهيونية وتحول بذلك الى منظمة صفراء متخاذة تخون جذريا مصالح العمال . ولهذا ، فقد قررنا بعد التشاور

داخل حزبياً ، الانسحاب من الهستدروت والقيام بنشاط نقابي مستقل على جميع الأصعدة . . « (٨٦) » .

انعقد المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي العبري بمدينة يافا خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ و ٢٥ نيسان ١٩٢١ بمساهمة (٢٦) مندوبا . وفي هذا المؤتمر تبني الحزب اسما جديدا : « الحزب الشيوعي اليهودي : بوغالي تسيون » ، معتبرا نفسه بمثابة « الفرع القومي اليهودي » ، الذي يجب أن يشكل مع « الفرع العربي » ، غير المشكل حتى ذلك الوقت ، الحزب الشيوعي في فلسطين (٨٧) .

ولتلمس الدوافع الكامنة وراء تبني هذا الاسم الجديد علينا وضع هذه العملية في اطار المفاوضات التي كانت تجري آنذاك بين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون وبين قيادة الاممية الشيوعية . فلنتوقف قليلا عند هذا الموضوع . . .

على الرغم من الفشل الذريع الذي مني به ممثله « كون » في المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، (٨٨) واصل الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون سعيه للانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية . ودخلت قيادته في مفاوضات طويلة مع قيادة الاممية الشيوعية بهدف الحصول « على اعتراف الاممية الشيوعية المبدئي بحق اليهود في التجمع الاقليمي في فلسطين ، وحق الاتحاد العالمي بالتواجد المستقل وبممارسة تحريضه السياسي البوغالي تسيون بين صفوف الجماهير العمالية اليهودية في البلدان التي تتواجد فيها » (٨٩) .

وفي اعقاب المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية قامت قيادة الاتحاد العالمي بتنظيم حملة دعائية واسعة هدفها تعريف فروع الاممية الشيوعية « بظروف التطور التاريخي للاتحاد العالمي ، وبمضمون برنامجه وبطبيعة المهام المطروحة امامه حاليا » . وتم تنظيم هذه الحملة الدعائية على قاعدة المذكرة التي اعدتها قيادة الاتحاد العالمي لتقديمها الى اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قبل انعقاد مؤتمرها الثالث العالمي . وقد تضمنت هذه المذكرة « تحليلا معمقا ومفصلا لطبيعة العوامل المحددة لاشكالية الشعب اليهودي كشعب لا يمتلك ارضا ولا وطن ، يعيش مشتتا في ظل ظروف انتاج محددة ، يتمركز حول المرافق الهامشية للاقتصاد الرأسمالي لعجزه عن النفاذ الى قاعدة الانتاج او الى مرافق اقتصادية اكثر تطورا ، وذلك بسبب ظروف التمييز القومي الذي يعاني منه (١٠٠) » .

وتضيف المذكرة ، بان هذا الوضع غير الطبيعي للشعب اليهودي هو اصل جميع الظواهر الاقتصادية والاجتماعية المحددة لخصوصية العامل اليهودي : عدم انتاجيته ، غياب حسه الطبقي ، فقره المتزايد . وهذا كله يؤدي به الى الهجرة وعدم الاستقرار . . « (٩٠) » .

ثم تقترح قيادة الاتحاد العالمي على اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية فكرة استيعاب فروع البوغالي تسيون اهتمامها « بالمهام الهادفة الى تلبية الحاجات الخصوصية للجماهير اليهودية كتأمين انتقالها الى المرافق الانتاجية ، وتنظيم هجرتها وتمركزها خصوصا في فلسطين ، وتلبية حاجاتها الثقافية » (٩١) .

ويبدو بأن قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون قد ارادت - وكما يلاحظ

أوفينبرغ - الاستفادة من قيام حزب شيوعي في فلسطين قائم على قاعدة «فرعيين قوميين» أحدهما يهودي والآخر عربي ، كسابقة تثبت من خلالها القيادة الاممية الشيوعية بأنه من الممكن انتساب فروع الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون الى الاحزاب الشيوعية كفروع يهودية ، تعمل على تحقيق المطامح « الخاصة » للجماهير اليهودية .

وهكذا سيكون بإمكاننا استيعاب الدوافع الكامنة وراء عملية تغيير اسم الحزب الفلسطيني في تلك الفترة بالتحديد . لنعد الان الى المؤتمر الثالث للحزب في فلسطين . . . . . اكد المؤتمر في بداية اعماله دعمه للاتحاد العالمي ( اليساري ) بوغالي تسيون باعتباره « المنظمة القيادية الوحيدة لجميع الشيوعيين اليهود » ، ودعا الى ضرورة الالتزام بمبدأ تشكيل الاحزاب الشيوعية في جميع البلدان المتعددة القوميات على قاعدة « الفروع القومية » . وافر المؤتمر التوصية التي رفعتها اللجنة المركزية للحزب والداعية الى الموافقة على شروط الانتساب الى الاممية الشيوعية التي حددها مؤتمرها العالمي الثاني، ولكن على شرط ان توافق قيادة الاممية الشيوعية على استمرار تواجد الاتحاد العالمي ( اليساري ) كممثل لجميع الشيوعيين اليهود في العالم . ودعا المؤتمر اعضاء البوغالي تسيون من الخارج باسم « الانضباط الشيوعي » للمجيء الى فلسطين بهدف تقوية الفرع الفلسطيني « الضعيف والملاحق » (٩٢) .

تضمنت مقررات المؤتمر الثالث للحزب ، من جهة اخرى ، بعض الافكار التي يمكن اعتبارها بأنها « معادية للصهيونية » تماما . فقد جاء في احد القرارات بأن الهستدروت « منظمة نقابية غير مهمة بالنسبة لنضال العمال ، بل انها تمثل اطارا جديدا للمضي ضد مصالحهم » . ودعا قرار المؤتمر ، انطلاقا من هنا ، جماهير العمال في فلسطين للنضال دون هوادة في سبيل « تحطيم الاحزاب الخائنة وتحطيم الهستدروت ، واقامة منظمات عمالية حقيقية مكانها » . اما المنظمة الصهيونية التي تلعب دورا مماثلا لدور الحكومة داخل التجمع اليهودي في فلسطين ( فاد لئومي ) « Waad Leumi » ، فقد اكد قرار المؤتمر على ان هذه المنظمة هي في الحقيقة « المعبر عن المصالح الطبقة للبرجوازية الصغيرة اليهودية وللمستوطنين اليهود » ، وأداة خاضعة « في ايدي المنظمات الصهيونية الرجعية » (٩٣) .

ناقش مندوبو المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي العربي نتائج المؤتمر العربي الثالث الذي انعقد قبل أشهر قليلة من انعقاد مؤتمرهم . وقد اكد مؤتمر الحزب بأن المؤتمر العربي هو في الحقيقة « المعبر السياسي عن الطبقات المستغلة ( بكسر الغين ) داخل المجتمع العربي » . وانطلاقا من هذا الاعتبار ، دعا المؤتمر الجماهير الشعبية العربية للعمل على خلق حركة عمالية وفلاحية قادرة على خوض النضال ضد « الحركة القومية الشوفينية » (٩٤) .

لقد كانت مقررات المؤتمر الثالث للحزب بمثابة صورة معبرة عن حقيقة الصراع الايديولوجي والسياسي الدائر في صفوف الحزب وعن طبيعة موازين قوى التيارين المتعايشين داخله آنذاك : التيار « البوغالي تسيون » ، والتيار « المعادي للصهيونية » .

فالتعايش بين هذين التيارين داخل الحزب سيبقى قائما طالما بقيت المفاوضات دائرة بين قيادة الاممية الشيوعية من جهة ، وبين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي

تسيون من جهة اخرى . ويانتظار نتيجة هذه المفاوضات سيحاول كل تيار من هذين التيارين ان يفرض على التيار الاخر اكبر قدر ممكن من موضوعاته السياسية والايديولوجية الخاصة . وهذا ما يفسر وجود ملامح « بوعالي تسيون » من جهة ، و« ملامح » معادية للصهيونية « من جهة اخرى ، في مقررات المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي العبري في فلسطين .

بعد ايام قليلة من انتهاء اعمال مؤتمره الثالث ، جابه الحزب الذي اصبح يسمى انذاك « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون ، فرع الحزب الشيوعي في فلسطين » ظروفًا حرجة جدا .

ففي الاول من ايار ١٩٢١ ، قام اعضاء الحزب بنشاط مكثف للاحتفال بعيد العمال العالمي ، فنظموا مهرجانيين في حيفا وحاولوا تسيير مظاهرة جماهيرية في يافا ، ووزعوا باللغات العبرية واليديشية والعربية مئات المناشير التي تدعو جماهير العمال اليهود والعرب في فلسطين للاعراب عن تضامنها مع الطبقة العاملة العالمية في يوم عيدها .

ويظهر بان البيان الذي وجهه الحزب بالعبرية واليديشية لجماهير العمال اليهود قد اختلف اختلافا ظاهرا عن البيان الذي وجهه بالعربية الى جماهير العمال العرب . فقد جاء في البيان الاول الموقع باسم : « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » :

« لقد عقدت الرجعية اليهودية تحالفا مع زعيمة الرجعية العالمية (٠٠٠) ، مع العدو الاكبر لزوسيا السوفياتية والبروليتاريا العالمية (٠٠٠) . لقد استند الحكام الانكليز على دعم الرجعية اليهودية ، ولكنهم استطاعوا ايضا استخدام الافندية ( العرب ) لتحقيق مآربهم (٠٠٠) . وقد استطاع المستغلون ( بكسر الغين ) اليهود وقطاع الطرق الامبرياليون الانكليز الحصول في « عملهم الحسن » على دعم عملائهم الخونة والمرتدين داخل الحركة العمالية اليهودية مثل احزاب « اتحاد العامل » و« العامل الفتي » ومثل الهستدروت (٠٠٠) . ثم دعا البيان جماهير العمال اليهود الى تصعيد نضالها في سبيل تحقيق مبادئ البوعالي تسيون الشيوعية ، وفي سبيل الانخراط الى جانب الحزب في المعركة التي خوضها « مع البروليتاريا العالمية ومع الجماهير المضطهدة والمستغلة (يفتح الهاء والغين) لعربية » (٩٥) .

اما البيان الثاني الموجه لجماهير العمال العرب والموقع باسم «اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في فلسطين » ، فقد تجنب الاشارة الى مبادئ البوعالي تسيون او الى الاستيطان اليهودي واقامة المركز الاشتراكي اليهودي في فلسطين . وجاء فيه :

« يعيش معكم العمال اليهود الذين لم ياتوا لاضطهادكم بل كي يعيشوا معكم وهم مستعدون للجهاد بجانبكم ضد هؤلاء الاعداء المائليين من اليهود والعرب والانكليز (٠٠٠) .

ان هذا العامل اليهودي ، جندي الثورة ، جاء يمد يده الى ايديكم كزميل لكم لمقاومة المائليين الانكليز واليهود والعرب ومصيركم واحد في الحرية كان ام في الاضطهاد . ولا تنتهي عذابات العمال والفلاحين الا اذا تحرروا جميعا من هذه العبودية الضاغطة عليهم (٠٠٠) . في هذا اليوم التاريخي ، يوم اول مايو ، نناديكم ان تنضموا الى الشيوعيين الروسين للجهاد ضد قتلة باريس ولوندرنا الذين يقررون مصيرنا كأننا

غير موجودين او كأن لا سلطة لنا لتقرير مصيرنا .

نناديكم للجهاد ضد الاغنياء الذين يبيعون البلاد وأهاليها للاجانب . اتحدوا مع الشعب الروسي فهو يساعدكم لنوال حريتكم واستقلالكم الوطني (١٠٠) .

فلتسقط الحراب الانكليزية والفرنسية . وليسقط اصحاب الثروات العرب والاجانب . وليحي المؤتمر الثالث الدولي الشيوعي ، ولتحي الثورة الاجتماعية في العالم . لتحي سلطه العمل . ولتحي فلسطين أسوفياتية « (٩٦) .

فجرت المظاهرة المظورة التي نظمها الحزب في شوارع مدينة يافا ، بصورة غير مباشرة ، اشتباكات دموية عنيفة ، نتج على اثرها مصزع وجرح عدد كبير من العرب واليهود . وقد لعبت السلطات الامبريالية الانكليزية من خلال استفزازاتها ، دورا كبيرا في تأجيج هذه الصدامات ادمامية التي انتشرت في مناطق اخرى من البلاد . وعلى الرغم من ان هذه الصدامات كانت تعبر عن القلق المتزايد في اوساط الجماهير الشعبية العربية المتخوفة من نتائج تزايد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، الا ان السلطات الامبريالية قد استطاعت استغلال هذه الحوادث من اجل شن حملة قمعية واسعة ضد حزب العمال الاشتراكي ، اعتقلت على اثرها عشرات من كوادر الحزب ، كان على رأسهم «م. خالد» احد ابرز قادته (٩٧) .

كان من نتائج هذه الحملة الوحشية التي شنتها سلطات الانتداب بالتعاون مع الاحزاب الصهيونية ومع القوى الرجعية العربية ضد « الشيوعيين » ، القضاء على عدة منظمات من منظمات الحزب ، وزيادة عزله السياسية خاصة بين صفوف العمال اليهود حين كان يحظى ببعض النفوذ . غير ان هذه الحملة ، وعلى الرغم من شرستها ، لم تستطع القضاء نهائيا على الحزب الذي تابع نشاطه ، بعد فترة وجيزة ، مستفيدا من انفصاح سياسة التعاون مع الامبريالية التي كانت تمارسها الاحزاب العمالية الصهيونية ، ومن تزايد تردى الظروف المعاشية بين صفوف العمال اليهود ، خاصة بعد تفاقم ظاهرة البطالة في البلاد .

خلال تلك الفترة ، كانت الاتصالات مستمرة بين قيادة الحزب وبين قيادة الاممية الشيوعية ، كما يدل على ذلك الخبر الذي نشر في صحيفة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية والذي اشار الى انعقاد المؤتمر « التأسيسي للحزب الشيوعي في فلسطين » في مدينة يافا . وقد اظهر هذا الخبر الحزب الشيوعي في فلسطين وكائه « فرع الاممية الشيوعية » في هذا البلد ، مضيفا بأن « الحزب الشيوعي اليهودي - يوغالي تسيون » ، سيقبل « كفرع يهودي » لهذا الحزب (٩٨) .

من ناحية اخرى ، دعت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ممثلي « الحزب الشيوعي في فلسطين » للمساهمة ، بصوت استشاري ، في اعمال المؤتمر العالمي الثالث الذي انعقد بمدينة موسكو خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ حزيران و١٢ تموز ١٩٢١ (٩٩) .

وبالفعل ساهم ممثلان عن الحزب الشيوعي في فلسطين في اعمال هذا المؤتمر (١٠٠) . وخلال الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر العالمي الثالث المتعقدة في يوم ٢٥ حزيران ،

اعلن « كارل راديك » باسم لجنة مراقبة العضوية بأنه وعلى الرغم من أن الصين ، وتركستان ، ومنغوليا وفلسطين لا تمتلك بعد احزابا شيوعية « فان التطور الكبير للحركة الثورية في هذه البلدان ، يتيح لنا الفرصة للسماح لمثلي الحركات الثورية في هذه البلدان بالاشتراك ، بصوت استشاري ، في اعمال هذا المؤتمر . » (١٠١) .

غير ان ممثلا الحزب في اعمال المؤتمر العالمي الثالث لم يستطيعا الحصول على اعتراف قيادة الاممية الشيوعي الرسمي بحزبهم . حيث طالب المندوب البولوني ممثلا الحزب الفلسطيني باعلان انفصال حزبه عن الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون قبل ان تبحث قضية الاعتراف الرسمي به ، ثم رفعت القضية لتبحث في اجتماعات اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بعد انتهاء اعمال المؤتمر (١٠٢) العالمي الثالث الذي اقر بين قراراته ، قرارا خاصا عن الوضع في فلسطين (١٠٣) .

في اواخر العام ١٩٢١ ، قرر حزب العمال الاشتراكي ( او الحزب الشيوعي اليهودي : بوغالي تسيون ) ، الذي كان يعارض دوما فكرة التعاون مع الهستدروت ، تشكيل لجنة نقابية خاصة اطلق عليها اسم « لجنة التنظيم » ، هدفها السعي لاقامة منظمة نقابية مستقلة ، منظمة « صراع طبقي » . فاعضاء الحزب الذين كانوا يتابعون النقاشات الدائرة في اوساط الاممية الشيوعية حول تكتيك « الجبهة العمالية المتحدة » ، كانوا يعتقدون بأن هذا الشعار لا يتلاءم مع الظروف الموضوعية السائدة في فلسطين ، خاصة وان المنظمات العمالية الصهيونية المتواجدة في هذا البلد لم تكن تمثل في نظرهم منظمات « اشتراكية - ديمقراطية اصلاحية » فحسب ، بل ايضا منظمات « قومية » شوفينية تتعاون مع البرجوازية الرجعية اليهودية ومع الامبريالية الانكليزية . ومن هنا ، انطلقت دعوتهم لاقامة منظمة نقابية مستقلة .

غير ان تجربة « لجنة التنظيم » لم تدم طويلا ، حيث اضطرت قيادة الحزب الى حلها بعد فترة وجيزة من تشكيلها ، وذلك بسبب « خيانة بعض العناصر المترددة ، وظروف المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها على اللجنة المنظمات الصفراء ، والحملة القمعية التي شنت ضد اعضائها » (١٠٤) . وحينئذ قررت قيادة الحزب السعي لنشر دعايتها السياسية داخل الهستدروت عن طريق تشكيل اقلية ثورية داخل كافة النقابات التابعة للاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين . وخلال الاجتماع السري الذي عقده ممثلو هذه الاقلية النقابية الثورية ، تقرر تشكيل « كتلة عمالية » داخل الهستدروت ، وتم انتخاب مجلس مركزي على قاعدة البرنامج التالي :

١ - استقلال النقابات المهنية ، ٢ - فصل المهام النقابية عن المهام التعاونية ، ٣ - ضمان الطابع الاممي للنقابات ( اي فتح المجال امام العمال العرب للانتساب اليها ) ، ٤ - تشكيل المنظمات النقابية على اساس طبقي ، وعزل الحرفيين وصغار ارباب العمل من صفوفها ، ٥ - الاعتراف بمبدأ الصراع الطبقي المتوافق مع مبادئ وتكتيك الاممية النقابية الحمراء » (١٠٥) .

خلال العام ١٩٢٢ ، اجتمع الصراع الايديولوجي الدائر في صفوف الحزب احتداما شديدا . وكانت النقاشات تدور بالاساس حول قضيتين رئيسيتين :

١ - الموقف من « الصهيونية البروليتارية » ، ومن الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي .  
تسيون .

٢ - الانضمام الى الاممية الشيوعية .

وبالتأكيد كانت ثمة علاقة جدلية بين القضيتين . فانتساب الحزب رسميا الى الاممية الشيوعية كان مرهونا بتخلصه من بقايا الايديولوجية الصهيونية .

كان الاتجاه « البوعالي تسيون » داخل الحزب بقيادة « ايليشا » (١٠٦) (ELISCHA) يجاهد في سبيل الحفاظ على علاقات الحزب مع الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون . وقد استطاع هذا الاتجاه استقطاب غالبية اعضاء الحزب الى جانبه .

اما الاتجاه « التصفيي » المعادي للصهيونية بقيادة « برزيلاي » (١٠٧) (BARSILAI) فقد كان يدعو الى قطع كافة روابط الحزب مع الاتحاد العالمي والانضمام الفوري الى الاممية الشيوعية .

وكانت هذه النقاشات الايديولوجية الدائرة في صفوف الحزب تجري ، كما كنا قد ذكرنا ، في اطار المفاوضات الجارية بين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون وبين قيادة الاممية الشيوعية . فالى اين كانت قد وصلت هذه المفاوضات خلال تلك الفترة ، وماذا كانت نتيجتها ؟ ... للاجابة على هذا السؤال علينا ان نعود الى الوراء قليلا .

كلفت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية « كارل راديك » ، غشية افتتاح مؤتمرها العالمي ، بدراسة المذكرة التي رفعتها اليها قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون ، وتقديم تقرير مفصل بهذا الخصوص الى مندوبي المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية .

وخلال الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر ، المنعقدة في ٢٥ حزيران ١٩٢١ ، اعلن « كارل راديك » باسم لجنة مراقبة العضوية بأن اللجنة قد وافقت على اشتراك وفد البوعالي تسيون بصورة استشارية في اعمال المؤتمر « نظرا لرغبته باجراء مفاوضات مع اللجنة التنفيذية بهدف الانضمام الى الاممية الشيوعية » (١٠٨) . غير ان « راديك » رفض الموافقة على الشروط التي وضعتها قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون للانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية ، وذلك لاسباب مبدئية وتنظيمية : « انني لا استطيع بصورة مبدئية - اعلن راديك - الموافقة على دعوة البوعالي تسيون الى هجرة الجماهير اليهودية الى فلسطين والاقامة فيها . صحيح ان الحزب يبرر موقفه هذا بالحديث عن الظروف الخصوصية التي يعيش في كنفها العمال اليهود (٠٠٠) . ولكنه ، في المستقبل المرئي سيكون هناك عدة جمهوريات سوفياتية في بلدان متعددة ، وسيستطيع العمال اليهود حينئذ العمل في المرافق الانتاجية لهذه البلدان ، ولن يكونوا مجبرين بعد ذلك على الهجرة .

ولهذا - اضاف راديك - فان الدعوة الى الهجرة نحو فلسطين لا تبدو لي الا مظهرا من مظاهر آثار ايديولوجية قومية تم تجاوزها (٠٠٠) . ومن ناحية تنظيمية ، لا يظهر



لي بأنه يجب تأسيس اتحاد عالمي للعمال اليهود للعمل على ضمان المصالح الخصوصية للبروليتاريا اليهودية . الا نستطيع تكليف الاحزاب الشيوعية في البلدان المختلفة بالاهتمام بهذه المهمة ؟ (١٠٠) « (١٠٩) .

وفي نهاية مداخلته ، طلب « كارل راديك » من اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية تشكيل لجنة خاصة لاجراء المفاوضات مع قيادة الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون ، والسعي لتوضيح بعض القضايا المبهمة .

في جلستها المنعقدة في ١٢ تموز ١٩٢١ ، ناقشت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قضية انضمام البوغالي تسيون الى صفوف الاممية، حيث قررت تشكيل لجنة خاصة مؤلفة من ثلاثة اعضاء لاجراء المفاوضات مع ممثلي الاتحاد العالمي (١١٠) . وقد اقترحت اللجنة التنفيذية ثلاثة شروط مسبقة لتكون القاعدة التي ترتكز عليها اللجنة خلال المفاوضات :

١ - يجب على البوغالي تسيون ان يجذف من برنامجه ، وقبل كل شيء ، البند المتعلق بهجرة اليهود الى فلسطين .

٢ - يجب حل الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون .

٣ - يجب على فروع البوغالي تسيون الانضمام ، كوحدات يهودية ، الى فروع الاممية الشيوعية (١١١) .

لم تسفر المفاوضات التي جرت بين ممثلي الاممية الشيوعية وبين ممثلي الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون عن اي نتائج عملية . ففي الوقت الذي كانت فيه قيادة البوغالي تسيون تأمل بمناقشة كافة القضايا ، بما فيها قضية الصهيونية ، مع ممثلي الاممية ، كانت شروط المفاوضات المسبقة التي وضعتها اللجنة التنفيذية لهذه الاخيرة تعني عمليا بأن على البوغالي تسيون ان يحل اتحاده العالمي وان يلغي برنامجه الصهيوني قبل ان يبدأ بمناقشة قضية انتسابه الى الاممية الشيوعية .

وبعد فشل المفاوضات ، قررت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ارسال مذكرة الى قيادة الاتحاد العالمي ، تقترح عليها فيها الدعوة لعقد مؤتمر عام لفروع الاتحاد خلال فترة لا تتعدى الخمسة اشهر وذلك بهدف اقرار حل الاتحاد العالمي ، وانضمام اعضائه ، خلال مهلة لا تتعدى الشهرين ، الى فروع الاممية الشيوعية القطرية . كما طلبت اللجنة التنفيذية من قيادة الاتحاد ان توافق ، دون ، تحفظ على موضوعات المؤتمرين الذاتي والثالث للاممية الشيوعية ، وان تقطع تماما كافة الروابط التي تربطها بالاتجاهات والاطروحات الصهيونية ، وان تعارض الاتجاهات الاستيطانية اليهودية في فلسطين المسخرة أساسا لخدمة مصالح الامبريالية الانكليزية (١١٢) .

وقد أشادت اللجنة التنفيذية في مذكرتها بجهود اعضاء البوغالي تسيون في فلسطين، الذين استطاعوا وضع الاسس المناسبة لإقامة حركة شيوعية في هذا البلد ، سيكون بإمكانها في حال موافقتها على جميع شروط اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، التحول الى فرع الاممية القطري في فلسطين . ومن جهة اخرى ، تعهدت اللجنة التنفيذية ، في حال موافقة الاتحاد العالمي على شروطها ، بأن تعمل على تشكيل اجهزة خاصة للاهتمام بالقضايا المتعلقة باليهود داخل الاحزاب الشيوعية ، وأن تنشئ « مكتبا للقضايا اليهودية » مرتبطا بها مباشرة (١١٣) .

في رسالتها الجوابية على مذكرة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية اعلنت قيادة الاتحاد العالمي عن موافقتها على دعوة مؤتمر عام لمثلي فروعها وذلك لمناقشة شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية . ولكنها طلبت قبل انعقاد المؤتمر اجراء لقاء اضافي مع ممثلي اللجنة التنفيذية للاممية بهدف « مناقشة الوضع المستجد » (١١٤) . غير ان هذا اللقاء ، الذي جرى بالفعل في موسكو ، لم يثمر اي نتيجة خاصة وان مواقف الطرفين لم يحصل عليها اي تغيير .

وبعد فشل هذا اللقاء ، شعرت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بضرورة عرض موقفها ، بكل وضوح ، بخصوص قضية انضمام الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون الى صفوفها ، لاعتقادها بان توضيح مواقف كلا الطرفين خلال المفاوضات سيساعد على تدعيم مواقف اقلية داخل الاتحاد العالمي ، الممثل انذاك « بمكتب التنظيم » في فيينا ، والذي كان يعتقد بأنه سيكون على استعداد للتخلي عن النشاط الصهيوني في فلسطين والقبول بحل الاتحاد العالمي .

وفي هذا الاتجاه ، اصدرت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بيانا مطولا ، اكدت فيه على انه قد انعقد ، بطلب من قيادة الاتحاد العالمي ، لقاء جديد بين ثلاثة مندوبين عسري البوغالي تسيون ( مندوبان عن الاغلبية ، ومندوب عن الاقلية ) ، وبين لجنة خاصة عن اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية مؤلفة من اربعة مندوبين (١١٥) .

وخلال هذا اللقاء اقترح مندوبا اتجاه الاغلبية داخل البوغالي تسيون على ممثلي اللجنة التنفيذية للاممية الاختيار بين حلين اثنين : اما ان يحل الاتحاد العالمي وتنضم فروع الاممية الشيوعية كاقسام يهودية يجمعها برنامج عمل موحد يتضمن اشارة واضحة الى المشروع الفلسطيني ، او ان يستمر الاتحاد العالمي بالتواجد المستقل وينضم الى الاممية الشيوعية « كحزب نصير » ، ولكن على شرط ان توافق قيادة الاممية على الغاء ادانتها للمشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين (١١٦) .

رفضت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية رفضا قاطعا الحل المقتراح من قيادة الاتحاد العالمي ، واعربت عن قناعتها بان المواقف الاخيرة التي تبنتها هذه القيادة ، تعني عمليا رفضها النهائي للشروط الرئيسية التي وضعتها اللجنة التنفيذية للموافقة على انضمام البوغالي تسيون الى صفوفه الاممية . وانطلاقا من هنا ، اكدت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بانها لن تماطل ، بعد ذلك ، في حسم هذا الموضوع ، خاصة بعد ان فشلت المفاوضات المستمرة منذ فترة طويلة . وقد لاحظت اللجنة التنفيذية بارتياح ، بان اتجاها يمثل الاقلية داخل الاتحاد العالمي قد عبر عن دعمه المطلق لوجهة نظر اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، علما بان « هؤلاء الرفاق - اضافت اللجنة التنفيذية - لم يدافعوا بحزم عن افكارهم خلال حملة التحضير للمؤتمر العام للبوغالي تسيون » (١١٧) .

وفي ختام بيانها ، طالبت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية جماهير العمال اليهود باخذ موقف ثوري واضح ، واعربت عن ثقتها « بأنه وعلى الرغم من معارضة قادة البوغالي تسيون ، الذين يدافعون ، كما في السابق ، عن برنامجهم الطوباوي الرجعي بخصوص فلسطين ، فان العمال المنضوين تحت لواء الاتحاد العالمي سيجدون طريقهم الى الاممية الشيوعية ، مهما كانت طبيعة القرارات التي ستتخذها اغلبية المندوبين خلال الكونغرس العالمي » (١١٨) .

خلال الحملة التحضيرية التي سبقت انعقاد المؤتمر العام لفروع الاتحاد العالمي ، قامت قيادة البوعالي تسيون بشن حملة واسعة لطرد ممثلي الاقلية من صفوف الاتحاد . ويعد ان نجحت في تحقيق هدفها هذا ، دعت لعقد المؤتمر في مدينة « دانزيغ » ( Dantzig ) خلال شهر حزيران ١٩٢٢ .

اكّد مؤتمر الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون رفضه لشروط الانضمام الى الاممية الشيوعية التي وضعتها لجنّتها المركزية ، وافرّ القرار التالي : « على الرغم من ارادة حركتنا القوية بالانضمام الى الاممية الشيوعية ، فانها ترفض بصورة قاطعة وبلاجماع متطلبات الاممية الشيوعية غير المشروعة ، وتعلن بأن الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الشيوعي لن ينضم الى الاممية الشيوعية ، على الصعيد التنظيمي ، الا على قاعدة برنامج واضح يأخذ باعتباره شروط حياة وتواجد الجماهير العمالية اليهودية » ( ١١٩ ) .

ويعد ان علمت بمضمون المقررات السلبية التي اقرها مؤتمر البوعالي تسيون ، اصدرت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، في ٢٥ تموز ١٩٢٢ ، بيانا عاجلا « الى جميع عمال العالم والى البروليتاريا اليهودية » ( ١٢٠ ) ، تعلمهم فيه عن قرار مؤتمر الاتحاد العالمي برفض شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية « التي وضعتها لجنّتها التنفيذية بالتنسيق مع ممثلي الاقلية داخل البوعالي تسيون » . وقد جاء في هذا البيان : « ان الفكرة الفلسطينية التي تهدف الى صرف انظار الجماهير العمالية اليهوديين عن الصراع الطبقي ، ليست سوى فكرة برجوازية - صغيرة ورجعية » .

ودعت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في بيانها كافة فروعها القطرية لخوض صراع حازم ضد العناصر البرجوازية الصغيرة اليهودية ، وطالبتها بدعم جناح الاقلية داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ليتمكن من تطبيق شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية . وفي هذا الاطار ، اعلنت اللجنة التنفيذية عن رغبتها بالدعوة لانعقاد اجتماع عام ، خلال جلسات المؤتمر العالمي الرابع للاممية الشيوعية ، يجمع ممثلي جميع المجموعات اليهودية المنتسبة الى صفوف الاممية ، او في طريقها للانتساب ، وذلك بهدف دراسة الخطوط العريضة لاقامة مكتب للدعاية يكون مرتبطا باللجنة التنفيذية .

خلال نقاشات المؤتمر العالمي الرابع للاممية الشيوعية ، قدم المنسودب البولوني « MARCHLEWSKI » تقريرا مقتضبا عن قضية البوعالي تسيون ، كان بمثابة التقرير الاخير الذي ناقشته الاممية الشيوعية حول هذه القضية .

فبعد ان تعرض تعرضا سريعا لفشل كافة الجهود التي بذلتها قيادة الاممية الشيوعية لتأمين انتساب البوعالي تسيون الى صفوفها ، « وذلك نظرا للدور الذي لعبته الاتجاهات القومية داخل هذه المنظمة » ، واصل المنسودب البولوني بأن هيئة رئاسة الاممية الشيوعية قد تسلمت حديثا رسالة « من بعض الرفاق الذين كانوا ينتمون الى البوعالي تسيون ، يعلنون فيها بانهم قد عقدوا كونغرسا خاصا اقروا فيه انسحابهم من البوعالي تسيون ( ٠٠٠ ) وموافقهم على الانضمام الى صفوف الاحزاب الشيوعية » ( ١٢١ ) .

كان لفشل المفاوضات بين قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون وبين اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية انعكاسات مباشرة على اوضاع الحزب في فلسطين . فبعد ان اعلنت قيادة الاممية الشيوعية قطيعتها التامة مع سياسة ومواقف البوعالي تسيون ، اصبحت امكانية التعايش بين الاتجاهين « البوعالي تسيون » من جهة « والمعادي للصهيونية »

من جهة أخرى ، شبه مستحيلة داخل حزب العمال الاشتراكي في فلسطين ، وتهافت بذلك إحدى أهم العقبان التي كانت تمنع الاتجاه « التصفوي » داخل الحزب من إعلان انشقاقه - وهذا ما حدث بالفعل ، بعد أسابيع قليلة من إعلان فشل المفاوضات بين قيادة الاممية الشيوعية وبين قيادة الاتحاد العالمي .

ففي المؤتمر الرابع للحزب ، الذي انعقد في شهر ايلول ١٩٢٢ ، أعلن اتجاه الاقلية « المعادي للصهيونية » انسلاخه عن الحزب ، وتشكيله لمنظّمته السياسية المستقلة ، تحت اسم « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » (١٢٢) (K.P.P.) فائناً نقاشات المؤتمر الرابع للحزب ، اقترح اتجاه الاقلية اليساري بقيادة « برزيلي » الانسحاب الفوري من الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون ، والانضمام غير المشروط الى صفوف الاممية الشيوعية . غير ان اغلبية المندوبين رفضت الموافقة على هذا الاقتراح ، ودعت الحزب لانتظار انسحاب اعضاء البوغالي تسيون البولوني من الاتحاد العالمي ، قبل اتخاذ قرار خاص بالانسحاب .

غير ان اسباب الانشقاق لم تقتصر فقط على وجود خلافات بالنسبة لمستقبل العلاقات بين الحزب الفلسطيني وبين الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون ، بل كان هناك نقطة اختلاف جوهرية أخرى بين مندوبي الاتجاهين ، تجسدت بالموقف من نضال الحركة القومية العربية المعادي للامبريالية والصهيونية . فبينما كان ممثلو اتجاه الاغلبية يعارضون فكرة تقديم اي دعم كان لنضال الحركة القومية العربية بحجة « التركيب البرجوازي والاقطاعي لقياداتها » ، كان ممثلو الاتجاه اليساري المعادي للصهيونية يعتقدون بأن التعاون في النضال بين الشيوعيين وبين الحركة القومية العربية هو قضية مبدئية في استراتيجية النضال المعادي للاستعمار ، وذلك على الرغم من حقيقة ان قيادة هذه الحركة القومية توجد في ايدي العناصر البرجوازية والاقطاعية (١٢٣) .

وقد اعتقد مؤسسو « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » ، وريثة تعاليم « مايرزون » ، بأن انسلاخهم عن الحزب سيساعدهم في التخلص « من كافة العناصر البرجوازية الصغيرة ، وسيمكنهم من التطور كنواة للمنظمة الثورية المستقبلية ( المثلثة لمصالح ) البروليتاريا الفلسطينية » ، وان انشقاقهم عن الحزب سيساعدهم على الانضمام الفوري الى صفوف الاممية الشيوعية (١٢٤) .

وبعد انسحاب « التصفويين » من أعمال المؤتمر الرابع ، اقرت غالبية المندوبين توصية قدمها قائد الحزب « ايليشا » ، والذي يقترح فيها انضمام حزبه ، خلال فترة لا تتعدى الثلاثة اشهر ، الى صفوف الاممية الشيوعية ، في الوقت الذي يؤكد فيه على ضرورة اقامة المركز العمالي اليهودي في فلسطين ، وزيادة هجرة اليهود الجماعية الى هذا البلد (١٢٥) .

اعتباراً من ذلك التاريخ ، وطوال فترة العشرة شهور التالية ، دخل الاتجاهان المستقلان - حالياً - في صراع ايدولوجي وسياسي عنيف ، بهدف تعزيز مواقعهما بين صفوف الطبقة العاملة اليهودية في فلسطين .

فبينما نظمت الاغلبية في تشرين الثاني ١٩٢٢ « كتلة عمالية » داخل الهستدروت ، شكلت الاقلية منظمتها النقابية المستقلة داخل الهستدروت ، تحت اسم « الكتلة البروليتارية » . اثارت عملية تبلور اتجاه معاد للصهيونية مستقل في فلسطين ، مخاوف قيادة الاتحاد

العالمي للبعوالمالي تسيون التي قررت ايفاد مجموعة جديدة من كوادرها الى هذا البلد لمجابهة النتائج التي قد تنتج عن تعزز نشاط هذا الاتجاه المعادي للصهيونية ، ومنعه من التأثير على مواقف بقية اعضاء الحزب . وقد وصلت هذه المجموعة الجديدة في موفدي قيادة الاتحاد العالمي الى فلسطين في اواخر العام ١٩٢٢ ، وكان على رأسها « Wolg Auerbach » (١٢٦) « دانيل » ، « حيدر » ، « ابو زيام » ، الذي سيصبح اعتبارا من نهاية العام ١٩٢٢ السكرتير العام للحزب الشيوعي في فلسطين .

كان وقع صدئ هذه المبادرة الجديدة لقيادة الاتحاد العالمي للبعوالمالي تسيون ضعيفا بين صفوف اعضاء الحزب ( اتجاه الاغلبية ) ، خاصة في الوقت الذي كان فيه عدد متزايد من هؤلاء الاعضاء يطالبون قياداتهم باتخاذ مواقف مستقلة ، اكثر فاكثرا ، عن مواقف الاتحاد العالمي للبعوالمالي تسيون ، ويقتربون بذلك ، شيئا فشيئا ، من مواقف الاقلية اليسارية المنضوية تحت لواء « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » .

استمرت عملية تجذر مواقف اعضاء اتجاه الاغلبية داخل الحزب ، وابتعادهم عن مواقف قيادة الاتحاد العالمي عدة اشهر ، وقد سهلت هذه العملية امكانيات اللقاء بين الاتجاهين ، وخلقت الظروف الموضوعية الملائمة لطرح قضية العمل على تحقيق وحدة الحزب من جديد . وخلال المفاوضات التي جرت حينئذ بين ممثلي الاتجاهين ، تؤكد ممثلو اتجاه الاقلية المعادي للصهيونية بأن اوامم ممثلي الاتجاه الآخر قد تداعت بخصوص ايدولوجية « الصهيونية البروليتارية » ، وان الحزب قد قطع علاقته نهائيا مع الاتحاد العالمي للبعوالمالي تسيون . وأعرب ممثلو اتجاه الاغلبية من جهتهم ، عن استعدادهم لدعم الحركة القومية العربية والتعاون معها في النضال المشترك ضد الامبريالية الانكليزية وضد الحركة الصهيونية .

ثم اقرار الوحدة خلال الكونغرس الحزبي الذي انعقد في ٩ تموز ١٩٢٢ ، والذي ساهم فيه ممثلو الاتجاهين : وفد الاقلية برئاسة « برزيلاي » ، ووفد الاغلبية برئاسة « دانيل » ، او « ابو زيام » . وقد اتفق أيضا على توحيد النشاط النقابي ، حيث تم دمج التكتلين النقابيين للاتجاهين وتشكيل منظمة نقابية موحدة ، اطلق عليها اسم « الكتلة العمالية » . انتخب كونغرس تموز الحزبي لجنة مركزية موحدة مؤلفة من ثمانية اعضاء : خمسة عن اتجاه الاغلبية ، وثلاثة عن اتجاه الاقلية . واعتبارا من ذلك التاريخ تبني الحزب نهائيا اسم « الحزب الشيوعي في فلسطين » ( PZP ) ( ١٢٧ ) .

مثل كونغرس تموز ١٩٢٢ علامة بارزة في تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين ، حيث ارتقت هذه الحركة ، خلال هذا الكونغرس ، على الطريق السوي ، طريق بلورة ايدولوجية ماركسية - لينينية واضحة ، مكنتها من اتخاذ مواقف سليمة تجاه الحركة القومية العربية المعادية للامبريالية من جهة ، وتجاه الحركة الصهيونية من جهة اخرى .

فقد جاء في مقررات الكونغرس بخصوص الحركة القومية العربية : « نرى في الحركة القومية العربية احد العوامل الاساسية التي تقاوم الاستعمار البريطاني . ولذا فنحن نعتقد انه من واجبننا القيام بكل شيء من اجل مساندة هذه الحركة ، بمدى مقاومتها للاستعمار » ( ١٢٨ ) .

ادان كونغرس تموز في مقرراته الحركة الصهيونية باعتبارها حركة « تتجسد فيها تطلعات البرجوازية اليهودية » ، واعلن بأن الصهيونية قد وقفت من الناحية السياسية

« في جبهة واحدة مع الاستعمار البريطاني ، حيث ربطت مصيرها مع المحتلّين الامبرياليين » ، وانطلاقاً من هنا ، دعا كونغرس تموز جماهير العمال اليهود للنضال ضد الحركة الصهيونية ، وخاصة ضد « اتجاهاتها البروليتارية » ، وجاء في تلخيص القرارات « الصهيونية بصفتها رسول الاستعمار البريطاني يجب مقاومتها بواسطة العمل الايضاحي بين العمال اليهود ، وخاصة يجب توجيه النضال ضد الصهيونية البروليتارية التي يضطلع بها اليمينيون ( احدوت هغفوداه ) والوسط ( الاشتراكيون الديمقراطيون ) واليساريون ( الحزب الشيوعي اليهودي ) ، وجميع الاخرين الذين سيظهرون » (١٢٩) .

اقر كونغرس تموز ١٩٢٢ من جهة اخرى اقامة حركة للشبيبة الشيوعية في فلسطين ، ودعماً لانعقاد مؤتمر عام لتأسيس منظمة الشبيبة الشيوعية . ويصف « Chain Davidovitz » ، أحد قادة هذه المنظمة عملية تأسيسها فيقول : « في صيف العام ١٩٢٢ ، وبناءً على قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين ، تم تنظيم حملة واسعة في يافا ، وحيفا ، والقدس لاقامة النواة الاولى لحركة الشبيبة الشيوعية (٠٠٠) وفي اواخر شهر نيسان ١٩٢٤ ، انعقد بمدينة القدس المؤتمر التأسيسي لعصبة الشبيبة الشيوعية في فلسطين » (١٣٠) .

في ايلول ١٩٢٢ ، قررت قيادة الحزب الشيوعي في فلسطين ايفاد ممثليها « دانييل (W. Auerbach) الى موسكو لاقناع قيادة الاممية الشيوعية بالاعتراف الرسمي بالحزب . وبالفعل توجه ممثل الحزب الشيوعي في فلسطين الى موسكو ، عن طريق برلين ، في شهر تشرين الاول من العام نفسه . غير انه لم يتمكن من الوصول الى موسكو قبل كانون الثاني ١٩٢٤ ، وذلك بسبب توقيفه خطأً من قبل البوليس في مدينة «ريفا» (١٣١) .

كلفّت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية لجنة خاصة برئاسة « كارل راديك » لاجراء المفاوضات مع ممثل الحزب الشيوعي في فلسطين . وبعد عدة اسابيع من المفاوضات المستمرة ، اعترفت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في اذار ١٩٢٤ بالحزب الشيوعي في فلسطين ، ووافقت على قبوله رسمياً في صفوفها (١٣٢) .

ومن موسكو بعث « دانييل » برسالة الى رفاقه في فلسطين يعلمهم فيها باعتراف الاممية الشيوعية الرسمي بالحزب ، حيث جاء فيها : « لقد وافقت اللجنة التنفيذية البارحة على القرار ( يقصد قرار الاعتراف بالحزب م. ش ) ، وهكذا انحلت قضية الانضمام (الى صفوف الاممية) . لقد اضعت هنا وقتاً كثيراً ، بسبب انشغال الجميع بوفاة لينين . في شباط فقط بدأت تحركاتي حيث التقيت مع راديسك ، ويوخارين ، وكالينين ، وزيروفيف . في البداية ، كانوا يعتبرون فلسطين بلداً من دون اهمية ، غير انهم تيقنوا من شيوعيتنا الصافية . ومن جهة اخرى ، كانوا يعتقدون بأن الاعتراف بنا كحزب شيوعي سيعني مصادقتهم على وعد بلفور الذي يعترف ايضاً بوجود اقلية يهودية (٠٠٠) .

وكانوا يتصورون كذلك - اضاف « دانييل » - بأن غياب عناصر شيوعية عربية بين صفوفنا سببه ضعف نشاطنا في هذا الاتجاه وتأثرنا بالمشاعر القومية . لقد كلفنتي عملية الحصول على الاعتراف خوض نقاشات مطولة واعطاء تأكيدات متعددة ، ولم يتم ذلك في النهاية الا بعد حصولنا على اصوات كاتاياما ، ومارينغ ، وممثلي الاممية النقابية الحمراء » (١٣٣) .

أكد « كارل راديك » لممثل الحزب الشيوعي في فلسطين بأن « توجه حزبه العام

وتكتيكة يتوافقان مع المهام الثورية « المطروحة امامه ، ولكنه اعرب له ، في الوقت نفسه ، عن قناعته بأن مستقبل الحزب الشيوعي في فلسطين سيتعلق بمدى قدرته على التحول الى « حزب قطري » . وفي هذا الاتجاه أكدت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، في القرار الذي اتخذته بصدد قبول انضمام الحزب الشيوعي في فلسطين الى صفوفها ، بأن على الحزب الفتى ان يسعى لاقامة صلات وثيقة مع اوسع الجماهير العربية ، بغية تحويل الحزب من منظمة للعمال اليهود الى حزب قطري فعلي . ودعت اللجنة التنفيذية الشيوعيين في فلسطين لدعم نضال حركة التحرر الوطنية للمساكن العرب ضد الاحتلال البريطاني - الصهيوني (١٢٤) .

قبل ان يغادر العاصمة السوفياتية ، التقى « دانييل » بممثلي الاممية النقابية الحمراء لاقامة روابط رسمية معهم . ويبدو ، بهذا الصدد ، بأن قيادة الاممية النقابية الحمراء كانت تتابع ، منذ بدايات العام ١٩٢٢ ، مجرى النضال النقابي الثوري في فلسطين . فبعد ان يعرض « Heller » احد قادة هذه الاممية ، في مقال له عن الحركة النقابية في الشرق ، الصعوبات التي تعترض تطور الحركة النقابية الثورية في فلسطين ، يكتب (في آب ١٩٢٢ ) : « في المدة الاخيرة ، بدأ تأثير الشيوعيين يظهر بين العمال اليهود ، حيث تشكل اتجاه ثوري داخل النقابات اليهودية ، ولكنه ضعيف لان » (١٢٥) .

وفي ٢٠ شباط ١٩٢٤ ، قبل ان يغادر « دانييل » موسكو ، وجه المكتب التنفيذي للاممية النقابية الحمراء نداء الى « العمال العرب في فلسطين » جاء فيه : « ايها العمال العرب . ان الاممية النقابية الحمراء التي تضم في صفوفها ( ١٥ ) مليون عامل ثوري من مختلف القوميات ، والتي تخوض نضالا حاسما ضد الاستغلال الرأسمالي ، وتدعم كل حركة ثورية معادية للاضطهاد القومي ، تتوجه اليكم بهذا النداء ، يا عمال فلسطين العرب ، وتدعوكم للنضال في سبيل تحرركم (٠٠٠) ان اللاممية النقابية الحمراء انصارا في بلدكم فلسطين . انهم مناضلو الكتلة العمالية داخل الهستدروت ، يناضلون منذ وقت طويل ليس في سبيل المصلحة القومية اليهودية ، وانما في سبيل المصالح الطبقية ، في سبيل مصالح العمال اليهود والعرب . ان الكتلة العمالية تسعى لاقامة تحالف بينكم وبين العمال الثوريين اليهود بهدف النضال على جبهة واحدة ضد المستعمرين والمستوطنين الاغنياء (٠٠٠) » .

ايها العمال العرب . عليكم ان تجابهوا تحالف رأس المال الانكليزي - الصهيوني مع الشيوخ والافندية العرب بالتضامن الكفاحي لجميع العمال الثوريين في فلسطين (٠٠٠) . (١٣٦) .

وبعد ان حصل « دانييل » على اعتراف قيادة الاممية الشيوعية بالحزب الشيوعي في فلسطين ، وتمت الموافقة على قبوله في صفوفها كتب الى رفاقه في فلسطين قائلا : « يجب عليكم ان تحتفلوا بانتسابنا ( الى صفوف الاممية ) ، فقد كلف تحقيق ذلك جهودا كثيرة . » (١٣٧) .

وهكذا بدأت مرحلة نضالية جديدة في مسيرة الحركة الشيوعية في فلسطين . . . .

#### استنتاجات وملاحظات عامة . . . .

العملية التاريخية التي حاولنا التعرف على حيثياتها ابتدأت اذن مع ولادة الحركة العمالية اليهودية في فلسطين وانتهت بموافقة قيادة الاممية الشيوعية على انضمام الحزب الشيوعي في فلسطين رسميا الى صفوفها . . . .

هل كان نهج البحث الذي اعتمده سلينا ٢٠٠٤ هل كان من الضروري لدراسة تاريخ ولادة وتشكل الحركة الشيوعية في فلسطين الرجوع الى تاريخ نشوء الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ٢٠٠٤ اجابتنا على هذا السؤال كانت نعم ٢٠٠٠ وقد انطلقنا في بداية البحث من الافتراض القائل بان النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين لم تتشكل في العام ١٩١٩ كوليدها ساعتها ، ولم تكن حركة دخيلة على البلاد بمعنى انها تشكلت بعد ان ارسلت قيادة الاممية الشيوعية ببعض موفديها الى فلسطين لهذا الغرض ، وانما قامت على ارضية تاريخية محددة في ظل ظروف محلية وعالمية كانت قد نضجت لذلك ، وارتباط وثيق مع عملية التمايز السياسي والايديولوجي التي عرفتتها الحركة الاشتراكية - الديمقراطية العالمية ، وفي عدادها الحركة العمالية اليهودية ، والتي حسمت في اعقاب الحرب العالمية الاولى بانتشاق هذه الحركة الى جناحين : جناح اصلاحي عارض ثورة اكتوبر الاشتراكية وسعى لحياء منظمات الاممية الثانية حتى بعد افلاسها التاريخي ، وجناح ثوري وقف الى جانب السلطة السوفياتية الجديدة ورفض المساهمة في اعادة احياء دور الاممية الثانية ، ودعا الى اقامة اممية عمالية ثالثة ، ثورية واممية ٢٠٠٠

يتفق عدد من الباحثين الذين تعرضوا لظروف ولادة الحركة الشيوعية في فلسطين مع الرأي القائل بان النواة الاولى لهذه الحركة قد تشكلت بعد خروج الاقلية اليسارية من صفوف البوعالي تسيون الفلسطيني وتشكيلها لمنظمتها السياسية المستقلة ٢٠٠٠ ولكن كيف ومتى تشكلت مجموعة البوعالي تسيون في فلسطين ؟ ما هي توجهاتها السياسية والايديولوجية ، وطبيعة ارتباطاتها العالمية ؟ ما هي العوامل الذاتية والموضوعية ، المحلية والعالمية ، التي أدت الى حدوث الانشقاق داخلها ؟ ٢٠٠٠ اسئلة عديدة رأينا بأنه من الضروري الاجابة عليها لنتمكن من رصد واستيعاب كافة خطوات ومراحل العملية التاريخية لولادة الحركة الشيوعية في فلسطين ٢٠٠٠

كانت الحركة العمالية اليهودية في فلسطين مرتبطة ارتباطا عضويا ، عند ولادتها ، بالحركة العمالية اليهودية في أوروبا الشرقية والوسطى ، وخاصة في روسيا القيصرية . وقد رأينا بان حزب البوعالي تسيون الفلسطيني قد تشكل على ايدي كوادر من البوعالي تسيون الروسي قرروا الانتقال الى فلسطين للمساهمة في عملية «التجميع الاقليمي للشعب اليهودي» وخوض «نضال طبقي حقيقي» ، وان الحزب الروسي قد ترك تأثيرا واضحا ، في البداية ، على سياسة وتوجهات البوعالي تسيون الفلسطيني .

كان البوعالي تسيون الروسي من اكثر الاحزاب راديكالية داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، وكان يجاهر علانية بانتماؤه الايديولوجية «الماركسية» . وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، اذان البوعالي تسيون الروسي هذه الحرب الامبريالية ودعم المواقف الاممية التي اتخذتها الاجنحة الثورية داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية العالمية بزعامة لينين . وقد ساعد هذا الموقف على تعزيز مواقع الاتجاه اليساري داخل الحزب الذي كان يدعو ويسعى ، خاصة بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية ، للتوفيق بين مبادئ الحزب الصهيونية وبين مبادئ التيار الثوري داخل الحركة العمالية العالمية الملتف حول البلاشفة . وعندما ثبت لمثلي هذا الاتجاه اليساري عجزهم عن فرض موضوعاتهم على مجمل اعضاء البوعالي تسيون الروسي ، قرروا الخروج عن الحزب وتشكيل منظماتهم السياسية المستقلة ممثلة بالحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون . وقد كان لهذا الانشقاق ، الذي حصل داخل البوعالي تسيون الروسي في بداية العام



١٩١٩ ، نتائج مشابهة في بولونيا والنمسا ، حيث خرجت الاتجاهات اليسارية داخل البوعالي تسيون في كل من هذين البلدين عن احزابها وشكلت منظماتها المستقلة . ثم تشكل « مكتب التنظيم » في فيينا الذي اضطلع بمهمة توحيد كافة الاتجاهات اليسارية داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الراغبة في الانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية والرافضة لفكرة المساهمة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية . وقد تزعم ممثلو « مكتب التنظيم » الانشقاق الذي حصل داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون في آب ١٩٢٠ ، والذي ادى الى قيام اتحادين عالميين : احدهما يميني والاخر يساري .

ضمن هذا الاطار التاريخي المحدد ، اطار عملية النمايز السياسي والايديولوجي التي بدأت تجري داخل حركة البوعالي تسيون في اوروبا الشرقية والوسطى والتي اُدت في النهاية الى انقسام هذه الحركة ، علينا ان نضع العملية التاريخية التي اُدت الى خروج الأقلية اليسارية داخل البوعالي تسيون الفلسطيني عن حزبها وتشكيلها ، بالتعاون مع بعض المجموعات الاشتراكية الراديكالية الاخرى ، لمنظمتها السياسية المستقلة .

غير ان هذه العملية التاريخية التي عرفتها فلسطين في اعقاب الحرب واحتلال الاستعمار البريطاني للبلاد ، كان لها ايضا اسبابها ودوافعها الخصوصية النابعة من حقيقة الواقع المموس السائد في فلسطين آنذاك . فانشقاق البوعالي تسيون الفلسطيني وتشكل حزب العمال الاشتراكي لم تكن اسبابه تقتصر فقط على طبيعة الموقف من السلطة السوفياتية الجديدة ، ولا على قضية الاختيار بين احدي الامميتين ، الثانية الاصلاحية ام الثالثة الثورية ، ولا حتى على قضية المساهمة او عدم المساهمة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية ، بل تعدت ذلك كله الى قضية الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه السياسة التي كانت تنتهجها قيادات الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين . ففي ظروف الاحتلال الاستعماري لفلسطين ، عارضت بعض العناصر الطليعية داخل هذه الحركة ، المتأثرة تأثرا عميقا بأفكار ثورة اكتوبر ، السياسية الموالية للامبريالية والمعادية للعرب التي كانت تنتهجها الاحزاب الصهيونية ، واحست بغريزتها الثورية بأن مصالح العمال اليهود تتفق مع مصالح الكادحين العرب في النضال المشترك لتحرير البلاد من نير الحكم الاستعماري . وهكذا انشقت عن الحركة وسعت لقيام حزب بلشفي ثوري في فلسطين ، فكان تأسيس حزب العمال الاشتراكي الذي اعلن بقيامه ولادة النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين . . . لقد مثل المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكي خطوة هامة على طريق بلورة نظرة ماركسية - لينينية وسياسية اممية ثورية في فلسطين ، خاصة في الاوضاع التي كانت قائمة آنذاك في البلاد وفي ظل واقع ان الحركة الشيوعية العالمية كانت لا تزال آنذاك في بداية طريقها . . . ومن هنا ، يمكن اعتبار المؤتمر التأسيسي لهذا الحزب بمثابة المؤتمر الاول للحزب الشيوعي في فلسطين . . .

ان ولادة النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين كنتاج للانشقاق اليساري الذي حصل داخل الحركة العمالية الصهيونية ، واقتصارها على العمال اليهود فقط ، قد صعب في البداية الفهم الكامل لمجموعة من المسائل النظرية والسياسية ، تجسدت أساسا في عدم فهم التناقض الجوهرى والحتمى القائم بين الاشتراكية وبين الصهيونية .

وهكذا عرف حزب العمال الاشتراكي ، ومنذ لحظة ولادته ، صراعا ايديولوجيا حاميا تمحور حول هذا التناقض تحديدا ، وتجسد بظهور اتجاهين داخل الحزب : اتجاه توهم

بأن الصهيونية يمكن أن تكون اشتراكية وتقدمية ، واتجاه اخر احس سريعا بأن التناقض عدائي ، فعارض الاولى واختار الثانية .

استمر التعايش بين الاتجاهين داخل الحزب طوال فترة المفاوضات التي كانت تجري بين قيادة الاممية الشيوعية وبين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون . غير ان الصراع الايديولوجي المحتدم بينهما لم يضعف ، بل استمر وكأنه صراع حتمي تسييره قوانين موضوعية مستقلة عن ارادة البشر ، وعن ارادة قيادة الاتحاد العالمي التي كانت تتدخل مباشرة ، عن طريق ارسال موفديها الى فلسطين ، كلما كانت تشعر بأن الاتجاه المعادي للصهيونية داخل الحزب قد اوشك على كسب جولة جديدة في جولات هذا الصراع . وحتى عندما كانت قيادة الاتحاد العالمي تنجح في اقضاء قائد هذا الاتجاه عن الحزب ، لا يلبث ان يظهر قائد جديد ليحل محله . ( اقصي « مايرزون » فحل محله « برزيلاي » ) . ونتيجة لتعايش وصراع هذين الاتجاهين ، كان الحزب يظهر بوجهين وكأنه يتكلم لغتين ، وذلك حسب موازين قوى كل من الاتجاهين في المرحلة المحددة من مراحل تطور هذا الصراع الايديولوجي المحتدم داخله .

بعد اسابيع قليلة فقط من اعلان فشل المفاوضات بين قيادة الاممية الشيوعية وبينس قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون ، قرر الاتجاه المعادي للصهيونية الانشقاق عن الحزب وتشكيل منظمته السياسية المستقلة .

غير ان تأثير افكار الاممية الشيوعية كان عميقا جدا بين صفوف الحزب في ذلك الوقت ، لدرجة ان ممثلي الاتجاه المؤيد للصهيونية ، قد اقرروا قرارا يؤكدون فيه رغبتهم بالانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية خلال فترة لا تتجاوز الثلاثة اشهر ، وذلك حتى بعد ان اعلنت قيادة الاممية الشيوعية قطيعتها التامة مع الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون ومع توجهاته السياسية . ومن هنا ، فان الانشقاق داخل الحزب لم يستمر اكثر من عشرة اشهر ، تمكن ممثلو واعضاء الاتجاه « البوغالي تسيون » خلالها من قطع كافة علاقاتهم مع قيادة الاتحاد العالمي ، ونفضوا عن كاهلهم بقية الاوهام العالقة حول « الصهيونية البروليتارية » ، واعربوا عن استعدادهم لدعم الحركة القومية العربية والتعاون معها في النضال ضد الامبريالية الانكليزية وضد الحركة الصهيونية .

وهكذا ، وبعد تقلبات مختلفة ، وبعد تقدم وتراجع ، تشكل في فلسطين حزب ماركسي - لينيني حقيقي ، ترسخ في النضال ضد تأثير الايديولوجية الصهيونية عبر تحرره من اوهام « الصهيونية البروليتارية » .

انتهت المرحلة الاولى من مراحل تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين ، مرحلة عدم الوضوح الفكري ، ووافقت قيادة الاممية الشيوعية على انضمام الحزب الشيوعي فسي فلسطين الى صفوفها . غير ان هذه الموافقة على قبول الحزب كانت مشروطة بعدة شروط ، تمحورت اساسا حول الشرطين التاليين المترابطين بصورة دياكتيكية :

أولا . . . يجب على الحزب ان لا يقصر نشاطه على الوسط اليهودي ، بل ان يوجهه اساسا باتجاه الوسط العربي ، بهدف اقامة روابط وثيقة مع جماهير العمال والفلاحين العرب تمكنه من دفع وتطوير النضال المعادي للامبريالية والمعادي للصهيونية فسي فلسطين .

ثانيا . . . يجب على الحزب ، المقتصرة عضويته انذاك على اليهود ، ان يبذل كافة

جهوده ليتحول من منظمة للعمال اليهود الثوريين الى حزب قطري ثوري يمثل طليعسة الكادحين العرب واليهود في فلسطين .

هل سيتمكن الحزب الضعيف والمحارب من قبل سلطات الانتداب الامبريالية ، المتواطئة مع الاحزاب العمالية الصهيونية ومع بعض القيادات الرجعية العربية ، من انجاز هذا المشروع الطموح الذي وضعته امامه قيادة الاممية الشيوعية ، خاصة في ظل الظروف المتخلفة التي كانت سائدة في فلسطين في تلك الفترة؟؟ وفي اي اتجاه سيوجه نشاطه خلال المرحلة الجديدة من مراحل تطوره؟؟ هذا ما سنجيب عليه في بحث تادم .

### الحواشي :

الشيوعية ، ولم تتم عملية الاقتراع على مسألة المساهمة بالمؤتمرات الصهيونية .

وهكذا انقسم الاتحاد العالمي للبوغالي تسيون الى اتحادين عالميين احدهما « يميني » والاخر « يساري » . وفي فلسطين ، وقف « اتحاد العمل » ( احدوت هعفوداه ) الى جانب الاتحاد العالمي « اليميني » بينما وقف حزب العمال الاشتراكي الى جانب الاتحاد العالمي « اليساري » ، الذي بدأ فعلا مفاوضاته مع قيادة الاممية الشيوعية بهدف بحث امكانية انضمامه الى صفوفها .

٥٩ - للتعرف على ظروف تشكل هذا الاتجاه اليساري داخل البوغالي تسيون وعلى حقيقة مواقفه راجع ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ، ، البحث المذكور ، ص ١٢٢ - ص ١٢٤ .

٦٠ - اورده م . قلنر ، المصدر المذكور ، ص ٢١ - ص ٢٢ .

٦١ - لمزيد من التفاصيل حول المداخلة التي ألقاها مايرزون في قيينا انظر م . اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٧٩ - ص ٨٧ .

٥٥ - نظر م . اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٧٠ .

٥٦ - للحد من تعاطف نفوذ حزب العمال الاشتراكي داخل نقابة عاملسي السكك الحديدية الصهيونية ، تصدى ممثلو « اتحاد العمل » و « العامل الفتي » الثمانية ، خلال المؤتمر الثاني لهسذه النقابة الذي انعقد في ٦ اذار ١٩٢٠ ، لمثلي حزب العمال الاشتراكي السبعة ودفعوهم لترك النقابة .

انظر م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .

٥٧ - ما جاء في احد تقارير أجهزة الاستخبارات البريطانية - اورده اوفينبرغ ، المصدر ذاته ، ص ١٧١ - ص ١٧٢ .

٥٨ - اسباب الانقسام الذي حصل داخل الاتحاد العالمي تجسدت اساسا بالموقف من قضية الانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية وبالموقف من مسألة المساهمة بمؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية . وقد حدث الانقسام عندما صوت ( ١٧٩ ) مندوبا ضد ( ١٧٨ ) الى جانب مبدأ الانضمام الى صفوف الاممية

- ٦٢ - اورده م. فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣١ .
- ٦٣ - انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم ١٤ ، تشرين الثاني ١٩٢٠ ، ص ٢٩١٩ - ص ٢٩٢٢ ( الطبعة الفرنسية ) . لم يذكر التقرير المنشور عن اجتماع اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية اسم ممثل حزب العمال الاشتراكي ولكننا نعتقد ، استنادا الى مضمون التقرير الذي قدمه ، بانه مايرزون بالتاكيد . فممثل الاتجاه اليساري لليوغالي تسيون « كون » الذي ربما كان يتواجد في تلك الفترة بموسكو بعد اشتراكه بأعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية لا يمكنه ان يقدم تقريرا يتعارض تماما مع التقرير الذي قدمه امام مندوبي المؤتمر الثاني للاممية بعد اسابيع قليلة من انتهاء جلسات هذا المؤتمر .
- بخصوص مداخلة « كون » امام مندوبي المؤتمر الثاني للاممية انظر ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ، البحث المذكور ، ص ١٢٦ - ص ١٢٩ .
- ٦٤ - انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم ١٤ ، تشرين الثاني ١٩٢٠ ، ص ٢٩١٩ .
- ٦٥ - المصدر السابق ، ص ٢٩٢١ - ص ٢٩٢٢ . ولكن لماذا الإشارة لمصر ؟ ربما أراد « مايرزون » هنا ان يشير للدور الذي لعبه في مصر « Yehiel Kossoi » او « افيجدور » . احد مؤسسي حزب العمال الاشتراكي في فلسطين ، الذي انتقل الى مدينة الاسكندرية حيث ساهم الى جانب والد زوجته « جوزيف روزنتال » في النشاطات الشيوعية الاولى . ومن جهة اخرى ، نلاحظ بان المعطيات التي عرضها « مايرزون » عن نشاط حزبه في
- فلسطين مبالغ جدا فيها ، فالهدف الوحيد من القول مثلا بان جماهير العمال العرب تشكل غالبية الجماهير الواقعة تحت تأثير الحزب هو دفع قيادة الاممية الشيوعية للاعتراف الرسمي بالحزب .
- ٦٦ - المصدر ذاته ، ص ٢٩٢٢ .
- ٦٧ - اورده م. فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٢ - ص ٣٣ .
- ٦٨ - المصدر السابق ، ص ١٠٣٣ . انظر ايضا م. اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٧٤ .
- ٦٩ - اورده م. اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ .
- ٧٠ - المصدر ذاته ، ص ١٧٤ .
- ٧١ - اورده م. فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٢ .
- ٧٢ - المصدر السابق ، ص ٣٤ .
- ٧٣ - المصدر ذاته ، ص ٣٣ .
- ٧٤ - المصدر ذاته ، ص ٣٤ .
- ٧٥ - انظر م. اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٧٥ .
- ٧٦ - المصدر السابق ، ص ١٧٥ . انظر ايضا م. فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٥ .
- ٧٧ - انظر م. اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨١ . انظر ايضا م. فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٤ .
- ٧٨ - انظر م. فلنر ، المصدر ذاته ، ص ٣٥ .
- ٧٩ - اورده م. اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨٧ - ص ١٩١ .
- ٨٠ - انظر م. فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٥ .

٩٥ - المصدر ذاته ، ص ٢١٢ - ص  
٢١٤ .

٩٦ - انظر النص الكامل لهذا البيان  
في وثائق المقاومة الفلسطينية العربية  
ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية  
( ١٩١٨ - ١٩٣٩ ) ، ( جمعها عبد  
الوهاب الكيالي ) ، مركز الدراسات  
الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤ -  
٢٥ .

٩٧ - انظر لائحة باسماء اعضاء  
الحزب المبعدين في م\* اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ٢٢٥ .

٩٨ - انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم  
١٧ ، حزيران ١٩٢١ ، ص ٤٣٤٠ .

٩٩ - المصدر السابق ، ص ٤٢٠٦ .  
١٠٠ - انظر « بيشيل » ( Pischel ) و  
« روبرتازي » ( Robertazzi )

الاممية الشيوعية والمسائل الكولونيالية  
( ١٩١٩ - ١٩٣٥ ) ، منشورات Mouton  
باريس - لاهاي ، ١٩٦٨ ، ص ٦٠ .

١٠١ - انظر « موسكو » صحيفة  
المؤتمر العالمي الثالث للاممية الشيوعية ،  
رقم ٢٧ ، ٢٨ حزيران ١٩٢١ ، ص ١ -  
( الطبعة الفرنسية ) .

١٠٢ - انظر م\* اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ١٢٨ .

١٠٣ - انظر « موسكو » ، رقم ٤٢ ،  
١٥ تموز ١٩٢١ ، ص ٣ - لم تشتم  
صحيفة المؤتمر العالمي الثالث الى مضمون  
هذا البيان ، الذي تعرض على الاغلب ،  
الى احداث الاول من ايار في فلسطين .

١٠٤ - انظر ابوزيام ( Abouziyam )  
« فلسطين المعاصرة وحركتها العمالية » ،  
في « الاممية النقابية الحمراء » ، رقم

٨١ - المصدر السابق ، ص ٣٥ - ص  
٣٦ .

٨٢ - اورده م\* اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ١٨٤ - ص ١٨٥ .

٨٣ - اورده م\* فلنر ، المصدر  
المذكور ، ص ٣٥ .

٨٤ - اورده م\* اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

٨٥ - المصدر السابق ، ص ١٩١ .  
يعرض م\* فلنر ، من جهته ، رأيا مختلفا

بعض الشيء عن رأي اوفينبرغ ، فهو  
يعتقد بان ممثلي الحزب في مؤتمر  
الهستدروت قدموا بيانا يعلنون فيه  
بانهم سيتركون المؤتمر ، بعد ان رفضت  
جميع مقترحاتهم ، ولكنهم سيواصلون  
العمل النقابي والاقتصادي المشترك .  
انظر م\* فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٢٦ .

٨٦ - اورده م\* اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ١٩٩ - ص ٢٠٠ .

٨٧ - المصدر السابق ، ص ٢٠١ .  
انظر ايضا مجلة « الاممية الشيوعية »  
رقم ١٧ ، حزيران ١٩٢١ ( الطبعة  
الفرنسية ) .

٨٨ - راجع ماهر الشريف ، قضية  
فلسطين ومناقشات ، البحث  
المذكور .

٨٩ - انظر بيريتز مرحاف ، اليسار  
الاسرائيلي ، المصدر المذكور ، ص ٨٠ .

٩٠ - اورده م\* اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ١٢١ .

٩١ - المصدر السابق ، ص ١٢١ - ص  
١٢٢ .

٩٢ - المصدر ذاته ، ص ٢٠٢ .

٩٣ - المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ .

٩٤ - المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ .

الانشقاق الذي نتج عنه في ايلول ١٩٢٢  
ولادة « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » .

كان واحدا من أبرز قياديي الحزب  
الشيوعي في فلسطين حتى بدايات  
الثلاثينات . غادر فلسطين الى برلين  
للعمل مع عصبة مناهضة الامبريالية ، ثم  
توجه الى موسكو للعمل مع القسم الشرقي  
التابع للاممية الشيوعية . اعتقل في  
العام ١٩٢٥ ، وبعد ان افرج عنه في  
العام ١٩٥١ هاجر الى بولونيا ومنها  
الى اسرائيل ، حيث ساهم حاليا في  
تزييف الحقائق التاريخية التي ساهم في  
صنعها عندما كان على رأس الحزب  
الشيوعي في فلسطين .

معلوماتنا عن سيرة حياة برزيلي  
اقتبسناها عن م. اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ٢٣٧ . انظر ايضا مجلة  
«Esprit» ، تموز - اب ١٩٦٧ ، ص  
٩٧ .

١٠٨ - انظر « موسكو » ، رقم ٢٧ ،  
٢٨ حزيران ١٩٢١ ، ص ١ .

١٠٩ - اورده م. اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ١٢٧ - ص ١٢٨ .

١١٠ - لمزيد من التفاصيل راجع  
اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ -  
ص ١٣٠ .

تشكلت هذه اللجنة برئاسة « مايتاس  
راكوزي » ( M. Rakosy ) .

١١١ - انظر « المراسلات الصحفية  
الدولية » ، رقم ٢ ، ١٥ تشرين الاول  
١٩٢١ ، ص ١٧ - ص ١٨ ( الطبعة  
الفرنسية ) . انظر ايضا م. اوفينبرغ ،  
المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

١١٢ - انظر « الاممية الشيوعية » ،  
رقم ١٨ ، تشرين الاول ١٩٢١ ، ص  
٤٦٥٢ .

٢٧ - ٢٨ ، ١٩٢٤ ، ص ١٨٢ ( الطبعة  
الفرنسية ) .

١٠٥ - المصدر السابق .

١٠٦ - ايليشاهو « موشي ليفين »  
( M. Lewin ) قدم الى فلسطين في  
العام ١٩١٩ قادما من روسيا ، حيث كان  
ينتمي الى صفوف الجناح اليساري  
داخل البوعالي تسيون الروسي « الحزب  
الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » .  
كان واحدا من أبرز ممثلي الاتجاه  
« البوعالي تسيون » داخل الحزب في  
فلسطين . ابعد من صفوف الحزب  
الشيوعي في فلسطين ، بعد اعتراف  
قيادة الاممية الشيوعية رسميا به ، بسبب  
معارضته لشعار « تعريب الحزب » . وفي  
العام ١٩٢٨ ، ابعده سلطات الانتداب  
خارج فلسطين ، حيث استقر في بدايات  
الحرب العالمية الثانية في الاتحاد  
السوفييتي ، حيث لقي مصرعه في حادث  
خلال العام ١٩٤٣ .

انظر م. اوفينبرغ ، المصدر المذكور ،  
ص ١٨١ .

١٠٧ - برزيلي هو « جوزيف برغر » :  
اسمه الحقيقي « جوزيف ميكاييل  
زيسنيك » ( J.M. Zsilsnik ) وليس  
كما كنا قد ذكرنا خطأ في بحثنا عن  
الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق  
بان اسمه الحقيقي هو برزيلي ( راجع  
شؤون فلسطينية . رقم ٦١ ، كانون الاول  
١٩٧٦ ، ص ٢٤٠ ) . ولد في بولونيا  
بمدينة Schlesien في العام (١٩٠٤!!)  
هاجر الى فلسطين في ٤ ايلول ١٩٢٠ ،  
وانتمى الى حزب العمال الاشتراكي  
العبري في الاول من ايار ١٩٢١ . كان  
واحدا من أبرز ممثلي الاتجاه « المعادي  
للصهيونية » داخل الحزب ، وتزعم

الاقلية ( ١٥٠ ) عضوا . انظر و . لاکور ، المصدر المذكور ، ص ٧٧ ( بالانكليزية ) .  
١٢٣ - م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

١٢٤ - يذكر م . اوفينبرغ بان ممثلي « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » اتصلوا فعلا بقيادة الاممية الشيوعية للانضمام الى صفوفها ، الا انه يعتقد بان اللجنة التنفيذية للاممية قد نصحتهم بالتريث قليلا على امل كسب العناصر الاكثر راديكالية بين انصار اتجاه الاغلبية .  
انظر م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

ويذكر م . غيلان من جهته ، حول نفس الموضوع ، بان ممثلي الاتجاهين داخل الحزب في فلسطين قد حاولوا ، بعد الانشقاق الذي حصل في ايلول ١٩٢٢ ، اقامة علاقات رسمية مع قيادة الاممية الشيوعية وذلك عن طريق زوجة قائد شيوعي نمساوي ، وعضو سابق في البوغالي تسيون يدعى هانز كافانسي « Hans Kaphany » ويضيف غيلان بان قيادة الاممية قد وافقت على ترشيح المجموعتين لعضويتها ، على شرط ان يفتحا ابوابهما لدخول العمال العرب .

انظر :

M. Ghilan : How Israel Lost Its Soul, Penguin Books Ltd, England 1974, P. 140.

١٢٥ - انظر م . اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٤ .

١٢٦ - ولد وولف اوبرياخ Wolf Auberbach في روسيا في العام ١٨٨٠ ، وساهم في احداث الثورة الروسية الاولى . انتسب ، بدفع من اخيه الكسندر ، الى صفوف حزب البوغالي تسيون

١١٣ - انظر م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ . انظر ايضا « المراسلات الصحفية الدولية » ، رقم ٢ ، ١٥ تشرين الاول ١٩٢١ ، ص ١٧ - ص ١٨ .

١١٤ - م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

١١٥ - المصدر ذاته ، ص ١٣٤ - ص ١٣٨ .

١١٦ - المصدر ذاته ، ص ١٣٥ - ص ١٣٦ .

١١٧ - المصدر ذاته ، ص ١٣٦ .

١١٨ - المصدر ذاته ، ص ١٣٧ - ص ١٣٨ .

١١٩ - انظر « نشرة المؤتمر الرابع للاممية الشيوعية » ، رقم ٢٧ ، ٩ كانون الاول ١٩٢٢ ، ص ١٥ ( الطبعة الفرنسية ) .

١٢٠ - انظر النص الكامل لهذا البيان في « المراسلات الصحفية الدولية » ، رقم ٥٧ ، ١٩٢٢ ، ص ٤٤١ .

١٢١ - انظر « نشرة المؤتمر الرابع للاممية الشيوعية » ، المصدر المذكور ، ص ١٥ . الاحزاب التي انسحبت من الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوغالي تسيون هي : الحزب الشيوعي اليهودي في الاتحاد السوفياتي ، ومجموعات البوغالي تسيون في النمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا .

١٢٢ - انظر م . اوفينبرغ . المصدر المذكور ، ص ٢٢٩ . يذكر والتر لاکور في كتابه الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط بان اتجاه الاغلبية كان يضم ( ٢٠٠ ) عضو . بينما يضم اتجاه

في فلسطين في بداية الثلاثينات ، استدعته قيادة الاممية الشيوعية الى موسكو حيث لقي مصرعه خلال حملة التصفيات التي جرت في لواسط الثلاثينات .

المعلومات الخاصة بسيرة حياة « ابو زيام » او « دانييل » اقتبسناها عن م . اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٤٨ ، وعن مجلة ( Nouveaux Cahiers ) رقم ١٢ - ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤ - ص ٣٨ .

١٢٧ - لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٩٧ - ص ٣٠١ .

١٢٨ - أورده م . فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٩ .

١٢٩ - المصدر السابق ، ص ٣٩ - ص ٤٠ .

١٣٠ - انظر النشرة الاعلامية للحزب الشيوعي في اسرائيل ( راکاح ) ، رقم ١٢ ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٢٢ - ص ٣٤ ( الطبعة الانكليزية ) .

١٣١ - انظر م . اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٣١٥ .

١٣٢ - المصدر السابق ، ص ٣١٥ . يعتقد م . فلنر ، من جهته ، بان الاعتراف بالحزب قد تم في شباط ١٩٢٤ . انظر م . فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٤٠ .

١٣٣ - أورده م . اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

١٣٤ - المصدر ذاته ، ص ٣١٦ - ص ٣١٧ . انظر ايضاً : « بيشيل » و « روبرتازي » ، الاممية الشيوعية والمسائل الكولونيالية ، المصدر المذكور ، ص ١٠٩ . انظر كذلك :

الروسي بقيادة بوروشوف . خلال الحرب العالمية الاولى اعتقلته القوات النمساوية ، ولم يطلق سراحه الا في العام ١٩١٨ . كان واحداً من ابرز قياديي البوعالي تسيون الروسي ، وتزعم جناحه اليساري الذي تبنى بعد الانشقاق اسم « الحزب الشيوعي اليهودي » . في تشرين الثاني ١٩٢٢ ، اوفده حزبه الى فلسطين ، حيث احتل سريعاً مكان « ايليشا » على رأس اتجاه الاغلبية ، الممثل انذاك « بالحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » فرع « الحزب الشيوعي في فلسطين » . في شباط ١٩٢٣ ، قام « دانييل » بتمثيل « الكتلة العمالية » في اعمال المؤتمر الثاني للهستدروت حيثلقى خطاباً منهجياً هاما جاء فيه : « بآية صورة بدأوا هنا ينظمون الاشتراكية ( يقصد قادة الهستدروت م . ش ) لا بطرق مقاومة رأس المال ، بل بواسطة اقامة مخازن صغيرة تعاونية تنافس المخازن الاخرى . وكل ايدولوجية الهستدروت قائمة على التنافس وشهوة الامتلاك . والعمل الاحترافي « النقابي » اهل تماماً . والتنافس يجمد الصراع الطبقي . عمل قومي بدل عمل أممي . واذا كان هذا هو - القلب - الذي ذكرته ايها الرفيقي بن غوريون فان الدم الذي يجري في هذا القلب هو ازرق وليس احمر » . ( أورده م . فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٢٧ - ص ٢٨ ) .

بعد كونغرس الوحدة الذي انعقد في تموز ١٩٢٣ ، انتخب « دانييل » اميناً عاماً للجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين ، وكان يمثل حزبه في « القسم الشرقي » التابع للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في موسكو ، حيث كان موجوداً خلال احداث هبة البراق في اب ١٩٢٩ . قبل انجاز « تعريب » الحزب الشيوعي



النقابية الحمراء ، ، رقم ٣١ ، اب ١٩٢٣ ،  
ص ٥٨ .

١٣٦ - المكتب التنفيذي الالمانية النقابية  
الحمراء : « الى عمال فلسطين العرب »  
في « الالمانية النقابية الحمراء » ، رقم  
٣٧ - ٣٨ ، ١٩٢٤ ، ص ٢١٦ - ص  
٢١٧ . راجع ماهر الشريف : « مؤتمر  
العمال العرب الاول » في شؤون  
فلسطينية ، رقم ٥٠ - ٥١ اكتوبر -  
نوفمبر ١٩٧٥ ، ص ٢٩٣ - ص ٣٠٢ .

١٣٧ - اورده م. اوفينبرغ ، المصدر  
المذكور ، ص ٣١٧ - ص ٣١٨ .

The Communist International ,  
from the 4th To the 5th Congress,  
CPGB, London, 1942 , PP. 66 -  
67 .

اورده فواز طرابلسي في « الالمانية  
الشيوعية وقضية فلسطين » ، بحث  
منشور في كتاب المقاومة الفلسطينية  
الواقع والتوقعات ، دار الطليعة ، بيروت ،  
١٩٧١ .

١٣٥ - انظر H. Heller : « الحركة  
النقابية في الشرق » ، في « الالمانية

## الجنوب والمخطط الصهيوني الجديد

كشفت مسرحية « الانسحاب » الصهيوني من قرى الجنوب ، التي جرى تمثيلها يوم ١٣ حزيران ١٩٧٨ ، حقيقة الاهداف التي تسعى اليها « اسرائيل » ، كما كشفت ايضا المدى الذي وصل اليه الانعزاليون في تحالفهم مع العدو الصهيوني .

والواقع ان عملية الاستلام والتسليم التي جرت بين صهاينة الخارج وصهاينة الداخل ، تهدف الى ابقاء الاحتلال الصهيوني غير المباشر لقرى الشريط الحدودي ، بواسطة القوى الانعزالية التي تم تسليمها اياها ، كها تهدف ايضا الى تمكين القوى الانعزالية مسن الاستمرار في استخدام الوضع في الجنوب ورقة ضاغطة على الاوضاع الداخلية فسي لبنان ، بغية الاستفادة منها لتحقيق الحلم الانعزالي في السيطرة الكاملة على كل لبنان ، وتحويله الى « اسرائيل » ثانية في المنطقة العربية ، مستندة اكثر فأكثر الى الدعم الصهيوني من اجل تحقيق هذا الحلم .

وفي المقابل ، فان « اسرائيل » ، بسبب المدى الذي وصلت اليه العلاقات فيما بينها وبين الانعزاليين ، لم تعد تكتفي بالهيمنة على منطقة الشريط الحدودي ، ولا على الجنوب فقط ، وانما اصبحت تطمح الى بسط نفوذها السياسي على لبنان ككل ، تحت شمسعار « حماية المسيحيين » فيه .

من هنا يبدو واضحا ان ما يجري في الجنوب ، هو جزء من مخطط يستهدف لبنان ككل ، وتمتد آثاره لتشمل المنطقة العربية المجاورة . كما يبدو واضحا ايضا وجود العديد من نقاط التشابه بين ما خطط له الصهاينة في فلسطين ونجحوا فيه ، وبين المخطط الذي ينفذ في لبنان .

## الانسحاب .. « المسرحية »

من وحي هذا المخطط اعلنت « اسرائيل » عن عزمها على « الانسحاب الكامل » من الاراضي اللبنانية التي احتلتها في « حرب اللبثاني » - كما تسميها - في ١٥ اذار ١٩٧٨ ، ونفذت بعدها هذا في ١٢ حزيران ١٩٧٨ ، بتسليم المواقع التي كانت ما تزال في عهدها ، الى القوات الانعزالية وقوات الطوارئ الدولية التي اتت الى لبنان بموجب قرار مجلس الامن الدولي رقم ٤٢٥ .

لقد سلمت « اسرائيل » قوات الطوارئ الدولية ، اربعة عشر موقعا معظمها في القرى الخلفية ، مقابل ثلاثة وعشرين موقعا تم تسليمها الى القوات الانعزالية ، تقع جميعها على امتداد الشريط الحدودي . وعلى اثر ذلك صرح الضابط الانعزالي سامي الشدياق لمراسل وكالة الصحافة الفرنسية بقوله : « اننا نسيطر الان على مساحة من الاراضي طولها ٨٥ كلم وعرضها بين ٥ و ١٢ كلم » ( اقصى عرض للاراضي التي اصبحت في حوزة الانعزاليين لا يتجاوز الخمسة كيلومترات ) .

لقد تمت عملية الاستلام والتسليم بين القوات الصهيونية والقوات الانعزالية في احتفال رسمي شهده مراسلون الصحف ووكالات الانباء العالمية ، ونقله التلفزيون الصهيوني ، تم فيه انزال العلم « الاسرائيلي » ، ورفع العلم اللبناني على المواقع التي تسلمتها القوات الانعزالية . وجرى تبادل القبلات والخطب بين سعد حداد قائد القوات الانعزالية في الجنوب ، والجنرال افيجدور بن جال قائد القطاع الشمالي « الاسرائيلي » الذي قال موجها كلامه الى سعد حداد : « من جهتنا سنفي بالتزاماتنا لحماية الاقلية المسيحية واتمنى كل الخير لاصدقائنا » .

وقد شكر الرائد سعد حداد السلطات « الاسرائيلية » على المساعدات التي قدمتها لقواته ، كما صرح الرائد سامي الشدياق لمراسل وكالة الصحافة الفرنسية قائلاً : « ان المساعدة « الادارية » التي تقدمها « اسرائيل » لنا ستتيح لنا ان نصمد » . بينما نقلت الوكالة ذاتها تصريحاً لاحد رجال حداد واسمه ميشال زيتوني ، كان تعبيراً صريحاً عن الحقيقة والواقع ، جاء فيه : « لولا اسرائيل لكنا قد متنا منذ امد طويل » .

ولم تكنف « اسرائيل » بذلك ، وانما اعطت القوات الانعزالية قبل « انسحابها » خمسين دبابة وناقلة جنود مدرعة مع طواقمها الاسرائيلية ، وعشرين مدفع ميدان ، وذلك لتمكين القوات الانعزالية من احكام سيطرتها على المناطق التي تسلمتها من القوات الصهيونية المنسحبة .

ولقد عبر الجنرال ارسكين قائد القوات الدولية في لبنان عن اسفه واستيائه من تسليم « جماعة سعد حداد » قطاع الحدود الحيوي بين « اسرائيل » و « لبنان » ، وعلق على عملية الاستلام والتسليم التي تمت ، قائلاً : « ان الاسرائيليين يريدون مجرد غسل ايديهم وتسليم المنطقة الى جماعة حداد .. وقد طلب منا التفاوض معهم ، والسؤال الكبير هو : بآية صفة نتفاوض معهم ؟ » .

## .. سعد حداد وتغتيله للسلطة الشرعية

كان من الطبيعي ان تثير قضية استلام سعد حداد المواقع التي انسحب منها الجيش

الصهيوتي ، موجة من التساؤلات والنقمة العارمة في الاوساط السياسية والشعبية ، خاصة وان تصريحات قد صدرت عن الجنرال ارسكين قائد قوات الامم المتحدة في لبنان ، وفالدهايم الامين العام للامم المتحدة ، وبيغان الناطق الرسمي باسم الامم المتحدة في جنوب لبنان ، وتوم رستون الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية .<sup>٥٥</sup> وكميل شمعون رئيس « الجبهة اللبنانية » ، تشير وتؤكد ان سعد حداد هو ممثل قيادة الجيش الشرعية في الجنوب .

فقد اعلن الجنرال ارسكين للصحفيين : « ان التعليمات التي يملكها تقول ان حداد هو القائد الفعلي لسلطة الامر الواقع »<sup>٥٦</sup> وقال : « ان معلوماتي انهم جزء من الجيش اللبناني » . وعندما سئل عما اذا كانت الحكومة اللبنانية قد ابلغته بان سعد حداد يمثلها ، اجاب : « عندنا تعليمات بهذا المعنى » .

وصرح فالدهايم قائلا : « ان الحكومة اللبنانية اعترفت بصورة مؤقتة بالرائد سعد حداد كقائد الامر الواقع للقوات اللبنانية في منطقته » .

كما صرح ويغان الي الصحفيين : « انه تبلى في اجتماع ضم مندوبا عن قيادة الجيش - رفض ان يسميه - والرائدين الشدياق وحداد والجنرال ارسكين ، من قيادة الجيش ، موافقتها على تسليم المواقع في الجنوب الي الضابط حداد ، واعتباره ممثلا رسميا للسلطة الشرعية هناك ، ويتمتع بصلاحيات قيادة القطاع الجنوبي » .

أما توم رستون فقد صرح بان الرائد سعد حداد « ما يزال ضابطا في الجيش النظامي اللبناني » .<sup>٥٧</sup> وفسر المراقبون في العاصمة الاميركية هذا التصريح بأنه « موافقة غير مباشرة على سيطرة « المسيحيين » - الانعزاليين - على منطقة الحدود اللبنانية الاسرائيلية » .

أما كميل شمعون فقد استغرب « الضجة » المثارة حول سعد حداد ، فانبرى كعادته للدفاع عنه ، في تصريح صحفي قال فيه « ما اعرفه ان هناك قوات لبنانية رسمية تتلقى مرتباتها وتعليماتها من الجيش ، وهي قوات لبنانية بقيادة ضابطين في الجيش اللبناني .<sup>٥٨</sup> وهما من خيرة الضباط . ان هذه القوات هي جزء لا يتجزأ من الجيش اللبناني . ان القوات الموجودة في منطقة الحدود بقيادة الضابطين حداد والشدياق هي قوات لبنانية شرعية مخلصه . قامت بواجبها خير قيام عندما كانت الاعتداءات تقع على القرى المسيحية بوصفها قرى حدودية » .

لقد اربكت هذه التصريحات السلطات الشرعية اللبنانية ، فحاولت مسدورة نفي ان يكون سعد حداد قد مثلها في عملية الاستلام والتسليم ، او انه كلف من قبلها باستلام المواقع التي اخلتها القوات الصهيونية ، « المنسحبة » ، فصدر عنها بيان يتضمن هذا النفي ، الا ان هذا البيان تضمن ايضا اعترافا بان سعد حداد وسامي الشدياق والجنود الذين هم بامرتهما ، ما زالوا في عداد الجيش اللبناني على الرغم من خيانتهم المفضوحة وتعاملهم مع العدو الصهيوني ، ان جاء في البيان الرسمي : « اصدرت قيادة الجيش تعليماتها الى جميع القوات العسكرية في الجنوب بالتزام ثكناتها ، والامتناع عن القيام بأية مهمات أمنية ، حتى عند دخول القوات الدولية الى المنطقة » .

وهكذا اوقعت السلطة اللبنانية ، نفسها في احراج اشد عندما حاولت التنصل من الدور الذي قام به سعد حداد - وانكشف بذلك الخط الانعزالي داخل السلطة المتواطئة

مع العدو الصهيوني ، كما انكشفت أيضا « القيادة الشرعية للجيش » بانها جزء من ذلك الخط .

ولقد كشفت الحكومة السورية في بيان لها ، تعقيبا على هذه التصريحات ، عملية التواطؤ هذه ، اذ تضمن البيان ما يلي :

« ان ما ورد في تقرير الامين العام للامم المتحدة ووزارة الخارجية الاميركية يتعارض مع ما اتفقت عليه السلطات السورية واللبنانية حول الرائد حداد » .

« ان الحكومة السورية تعتبر الرائد حداد الذي تعامل مع العدو الاسرائيلي ، خارجا عن القانون ، ولا يمكن التعامل معه على غير هذا الاساس » .

ازاء عدلية الاحراج هذه ، كان لا بد من التفتيش عن مخرج . فتناقلت الانباء اخبار « التزام العسكريين التابعين لحداد والشدياق ثكناتهم » ، تنفيذ لاورام قيادة الجيش ، كما بثت اشاعة مفادها ان حداد اختلف مع « الميليشيا » الانعزالية لان هذه « رفضت » اوامر قيادة الجيش ، وأصرت على البقاء في مواقعها .

والواقع ان ذلك لم يكن الا من قبيل سياسة توزيع الادوار ، وبقصد التخفيف من الاحراج الذي اصاب قيادة الجيش الشرعية ، وبالتالي فان ذلك لم يخرج عن كونه مجرد عملية اعلانية ترمي الى تحميل « الميليشيا » مسؤولية ما يجري في المنطقة الحدودية ، وتبرئة العسكريين بقيادة الرائد حداد والشدياق مما يجري هناك .

#### قمة اللاذقية بين الرئيسين الاسد وسركيس

كان من ابرز النقاط التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر قمة اللاذقية الذي عقد بتاريخ ٣١ ايار ١٩٧٨ وضم الرئيسين حافظ الاسد والياس سركيس ، والمتعلقة بالجنوب ، دخول الجيش اللبناني الى المنطقة والتواجد فيها جنبا الى جنب مع قوات الامم المتحدة ، وانهاء التواجد المسلح للقوى الانعزالية على طول الشريط الحدودي .

وعلى اثر انتهاء القمة ، بدأ الحديث في الاوساط السياسية الرسمية وغير الرسمية عن « عمليات التحضير » السريعة لارسال الجيش الى الجنوب . لكن ، سرعان ما بدأت عملية التحضير هذه تتبخر امام التساؤل المطروح : هل يتم ارسال الجيش الى المناطق الحدودية في ظل بقاء التواجد الانعزالي المسلح فيها ، ام ترجأ عملية الارسال الى ما بعد حل هذا « الاشكال » وازالة ذلك التواجد ؟

لقد طرحت الجبهة الانعزالية رأيها في هذا الموضوع عبر التصريح الصحفي السذي اذاعه كميل شمعون رئيس الجبهة ، والذي اعلن فيه انه « لا يمكن ان يوافق على ارسال الجيش الى الجنوب من دون تأمين خطوط مواصلاته » . وأضاف : « لا أتصور ان الجيش سيمر في الدامور مطاطيء الرأس تجاه مسلحين فلسطينيين يحتلون الدامور » .

ثم ما لبثت الجبهة الانعزالية ان طرحت رأيها رسميا متبينة رأي كميل شمعون ، فاذاغت بيانا « رحبت » فيه « بتوجيه الجيش الى الجنوب بعد تأمين طرق المواصلات والتأمين من بيروت الى الدامور وصيدا ، ومن صيدا الى سائر انحاء الجنوب » . كما تضمن البيان الدعوة الى ان « الوجود الفلسطيني المسلح يجب ان يزول .. انطلاقا من اعتبار كل الاتفاقات المعقودة مع الفلسطينيين ساقطة » .

ومن جهة أخرى بدأت الاوساط الانعزالية تروج لقولة الفراغ الامني في المنطقة الواقعة ما بين النهرين - نهر المزهراي ونهر الليطاني - وهي المنطقة التي لا تتواجد فيها قوات الردع العربية ، ولا قوات الطوارئ المدوية ، موحية بان اتفاق قمة اللاذقية قد تضمن دخول قوات الردع العربية اليها وذلك من اجل ضبط الوجود « الفلسطيني المسلح ، ومنع تحركه باتجاه الحدود ، كي لا تعطي اسرائيل ذريعة للبقاء في المنطقة » .

والواقع ان هذه الطروحات من الجانب الانعزالي تستهدف الامور التالية :

اولا - الاصرار على ازالة الوجود الفلسطيني المسلح كمقدمة لازالة الوجود الوطني والعربي من لبنان ، ومواصلة العمل لانجاح المشروع الانعزالي الصهيوني في السيطرة الانعزالية الكاملة على لبنان ، بحيث يصبح هذا البلد العربي « اسرائيل » ثانية متحالفة مع « اسرائيل » الاولى في قلب الوطن العربي .

ثانيا - المحافظة على الوجود العسكري الانعزالي المتعامل مع العدو الصهيوني في المنطقة الحدودية ، وتعزيز هذا الوجود بقوات اخرى من الثكنات ذات الولاة الكامل للانعزاليين ، وان تكون جميعها بامرة الرائد حداد الذي تصر « اسرائيل » ، ومعها القوى الانعزالية على تعيينه قائدا عسكريا لمنطقة الجنوب . والملاحظ ان « اسرائيل » رفضت دخول قوات من الجيش كانت فيما مضى تشكل « طلائع جيش لبنان العربي » بحجة ان هذه القوات تعاونت في الماضي مع سورية . كما رفض الانعزاليون في بيان صادر عن الجبهة الانعزالية مبدأ قبول اي عسكري من الجيش ساهم في انتفاضة العسكريين التي ادت الى فرط تركيبة الجيش الانعزالية الطائفية ايان الحرب الاهلية . وهذا يعني ان الجبهة الانعزالية تعارض هي الاخرى ارسال جنود وضباط كانوا في « الطلائع » فيما مضى .

ثالثا - الاصرار على انتزاع الاعتراف الكامل بشرعية جيش فكتور خوري ، وحسم الجدل حوله ، وذلك بالابقاء على التركيبة الطائفية الانعزالية لذلك الجيش ، الامر الذي يتماشى مع سياسة التحالف الانعزالي - الصهيوني .

رابعا - وضع قوات الردع العربية في مواجهة قوات الثورة الفلسطينية والاطراف الوطنية اللبنانية وجيش لبنان العربي ، من خلال الاصرار على دخول هذه القوات الى منطقة ما بين النهرين . وقد حسم الجدل حول هذا الموضوع عندما اعلن الرئيس حافظ الاسد ، في حديث له مع صحيفة « الفايننشال تايمز » البريطانية ، قائلا لم « نقرر ان تنتشر القوات السورية في غير المناطق التي تنتشر فيها الان » . وأضاف : « ان ما بحث في اجتماع اللاذقية هو دخول الجيش اللبناني جنوب لبنان » .

#### مستقبل الوضع في الجنوب ولبنان

على ضوء ذلك كله يتضح ان القوى الانعزالية اصبحت الى حد كبير اسيرة التحالف مع الصهاينة بسبب اعتمادها المتزايد على الدعم المقدم من قبل « اسرائيل » ، ولذلك تجد نفسها اليوم محاصرة عربيا ، وغير قادرة على مخاطبة اي نظام عربي علانية . اذ ليس من السهل على اي حاكم عربي مساعدتها وهي موهلة في تعاملها مع العدو ضد الوجود العربي - كما ان هذه القوى تعاني من مأزق على الصعيد المحلي ، لان تعنتها المتزايد كشف مسؤوليتها في الابقاء على الوضع المتوتر في لبنان ، واستمرارها في

التعاون مع العدو الصهيوني كشف مسؤوليتها أكثر في استمرار الاحتلال الصهيوني لقرى الشريط الحدودي بصورة غير مباشرة ، بحيث أصبحت أداة الاحتلال في تلك المنطقة ، الامر الذي يجرح كل القوى السياسية التقليدية التي كانت متواطئة معها في مراحل سابقة ، ويدفعها الى تجنب التعامل معها . وعلى الصعيد الدولي ، باتت القوى الانعزالية مسؤولة عن عدم تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ ، لانها ترفض تسليم المواقع التي تسلمتها من الصهاينة ، الى قوات الطوارئ الدولية ، وبالتالي مسؤولة عن تأزم الوضع في الجنوب .

ومن جهة اخرى فان اساليب الارهاب التي تتبعها القوات الانعزالية ومعها العدو الصهيوني ، في قرى الشريط الحدودي ، المتمثلة في المداومات ، وعمليات التفتيش ، والاعتقال ، وحرق المزروعات ، ونسف البيوت ، والضغط على الشبان لارغامهم على حمل السلاح والانخراط في جيش سعد حداد ، باءت بالفشل ، على الرغم من كل اشكال القهر والمقمع ، بل على العكس ، اسهمت هذه الاساليب في التعبئة الوطنية في الجنوب ضد القوى الصهيونية . وليس ادل على ذلك من العريضة التي وقعها ستون من رؤساء بلديات ومخاتير قرى الجنوب ، وقدمها وقد منهم الى رئيس الحكومة ، والتي تضمنت المطالب التالية :

١ - « انتشار قوات الجيش اللبناني الشرعي المبني على أسس وطنية سليمة في كافة المناطق الجنوبية حتى الحدود الدولية ، او من يقوم مقامه حالياً ، ونعني بذلك قوات الامم المتحدة » .

٢ - « العمل على اغلاق ما يسمى « بالجدار الطيب » لانه سيبقى مصدر شر وقلق لكافة ابناء الجنوب ، واسقينا في جسم الحل المعتمد فيه » .

٣ - « الاسراع في اعادة اهالي القرى الحدودية الذين مضى على تهجيرهم ما يقارب السنتين ، والذين يحول دون عودتهم ما سبق واشرنا اليه من انفلات العصابات المجرمة في الجنوب » .

٤ - « التعويض الكامل لكافة ابناء الجنوب ، واعتبار ما لحق بهم من اضرار ، سواء لجهة حرمانهم من استثمار اراضيهم وحقولهم ، او لجهة نسف وحرق منازلهم ، ناتجا عن عدوان اسرائيلي وتكليف مجلس الجنوب بتنفيذ ذلك فوراً » .

لقد أصبحت القوى الانعزالية غير قادرة على المتراجع بسهولة عن مشروعها الذي انتقل منذ فترة الى مرحلة الهجوم ضد الوجود العربي في لبنان .

كذلك ، فان الجانب الصهيوني ، يعمل كما سبق واشرنا ، على ابقاء التوتر قائماً في لبنان ، ويسعى الى دفع الامور نحو الانفجار ، ونقله فيما بعد الى الاقطار العربية المجاورة .

كل ذلك يعني ، ان الاوضاع في لبنان والجنوب ، سائرة نحو مزيد من التعقيد طالما ان المشروع الانعزالي لم توجه له ضربات موجعة في الصميم .

وعلى هذا الاساس ، فان العمل على الحاق الهزيمة بالمشروع الانعزالي يشكل مفتاح الحل بالنسبة للمشكلة اللبنانية ، وذلك يقتضي اعتماد برنامج واضح للتصدي لهذا المشروع يستند الى المنطلقات التالية :

أولاً - محاصرة وضرب القوى الانعزالية المتمثلة أساساً في حزب كميل شمعون وحزب الكتائب كركيزتين قويتين من ركائز الصهيونية في لبنان .

ثانياً - دعم ومساندة جيش لبنان العربي في الجنوب باعتباره جيشاً وطنياً ، وذلك من أجل الوصول الى صيغة التوازن الوطني الحقيقي داخل الجيش اللبناني .

ثالثاً - الضغط المتواصل لاسقاط التشريعية عن المرشحين سعد حداد وسامي الشدياق ومن معهما من العسكريين ، والمطالبة بمحاكمتهم جميعاً ، وجاهياً او غائباً ، بتهمـة الخيانة العظمى ، ومحاكمة كل القيادات السياسية والعسكرية المتواطئة معهم في تعاملهم مع العدو الصهيوني .

رابعاً - التحضير الجاد لانهاء الاحتلال غير المباشر لقرى الحدود من ايدي عملاء الصهاينة ، كي لا يتكرس هذا الاحتلال كأمر واقع ، وكقدمة لاحتلال اكبر .



## السلاح والقوانين العلمية

وقد بنينا برنامجنا على اساس دراستنا لمنهاج العلوم المدرسي منطلقين من مبدأ امكانية تبسيط اصعب المفاهيم العلمية واعقدها ، لجعلها في متناول فهم اي انسان مهما تدنت درجة ثقافته . ويعتمد هذا بالطبع على قدرة الوجه او المدرس او المدرّب على التبسيط .

ويهدف ربط البرنامج العلمي المراقق بمنهاج العلوم الى :

- تغطية بعض نواحي النقص في المنهاج المدرسي لجهة التطبيق العملي ،  
- تطوير منهاج العلوم من خلال نشاط علمي موافق للمنهاج . اذ ان المنهاج المدرسي الحالي في مدارس الاوفروا ، متخلف في بعض نواحيه عن مستوى النمو الذهني للطلاب ، ولذا لم نتقيد دائما بمستوى هذا المنهاج ، بل تجاوزناه في حالات كثيرة كما سيتضح ذلك فيما بعد .

- تقديم مادة علمية ( وان كانت بمستوى المنهاج ) بطريقة تختلف عن الطريقة المدرسية وخارج جدران الفصل المدرسي ، وذلك من خلال عنصر وسيط ومألوف من عناصر البيئة المحلية . وهذا العنصر هو السلاح ، مما يؤدي السى تحبيب الطالب بمادة العلوم التي يدرسها في المدرسة ، والى ارساء علاقة جديدة بين الطالب والاستاذ .

- اشراك مدرسي العلوم في التجربة لجعلهم قادرين على تلمس نواحي

قبل الحرب الاهلية في لبنان طرحت فكرة تطبيق برنامج للتدريب العسكري لطلاب المرحلة التكميلية في مدارس الاونروا ، على ان يكون هذا البرنامج جزءا من النشاط المدرسي المراقق للمنهاج ، وملزما لجميع الطلاب . وعندما طرحت الفكرة على القسم التربوي بمركز التخطيط من قبل بعض المربين والاساتذة ، ارتأى القسم ضرورة تجاوز الوضع القائم في معسكرات الاشبال ، بالنسبة للتدريب العسكري ، حيث يسود منهج معاملة الشبل كائنات بالغ تطبيق عليه نفس البرامج العسكرية التي تطبق على المقاتلين . ويقوم هذا المنهج على حشو ذهن الشبل وتلقينه قدرا كبيرا من المعلومات ، دون ان يتمكن من حثه على التفكير في القوانين العلمية التي تحكم عمل السلاح . ولذا رأينا ان نربط هذه التجربة بالمنهاج المدرسي ، وتحديدا بمواد العلوم التي تدرس للطلاب في تلك المرحلة . فقمنا بوضع برنامج للعلوم يرافق التدريب العسكري . ويعطي هذا الاجابة على السؤال التالي : ما هو السلاح علميا ؟ ويقوم بشرح اهم المبادئ العلمية ( الرياضية والفيزيائية والكيميائية ) التي يعتمد عليها عمل السلاح ، باعتبار السلاح آلة من الالات العديدة التي تنتجها تكنولوجيا البلدان المتقدمة ، ونقوم نحن في بلدان العالم الثالث باستخدامها في حياتنا اليومية ، دون ان نستوعب تماما القوانين العلمية التي تفسر صنعها وعملها .

للبرنامج على المستوى الذهني للمتدرب،  
بمعنى إمكانية استيعاب المعلومات وتطوير  
الذهن ، بغض النظر عن المستوى  
التعليمي أو البرنامج الأكاديمي الذي يتبعه  
الطالب في المدرسة .

٢ - أعد هذا البرنامج أساساً لطلاب  
السنة الأولى من المرحلة التكميلية التي  
تقابل سن ١١ - ١٣ ، ولكن اختلافه عن  
البرامج المدرسية يجعله ذو فائدة لجميع  
السنوات التكميلية ، وبشكل اعم لجميع  
المتدربين الحاصلين على حد ادنى من  
المبادئ العلمية خلال المرحلة الابتدائية .

٣ - بالامكان اجراء بعض التعديلات  
على مواد البرنامج ، وذلك حسب  
مقتضيات تطبيقه على صعيد المدارس ،  
او انكشافه او معسكرات الاشبال .

ان الاعتبارات السابقة دفعتنا الى  
البدء بتطبيق التجربة الاولى للبرنامج  
في معسكر الاشبال بمخيم شاتيلا ،  
وخصوصاً ان المدارس قد تعطلت خلال  
الحرب الاهلية في لبنان .

#### ظروف تطبيق البرنامج :

استمر تطبيق البرنامج مدة ستة  
اسبوع بمعدل وحدتين اسبوعياً .  
ودعونا للمشاركة في تطبيقه عدداً من  
المراقبين من جهات مختلفة ( اللجنة  
العلمية في حركة فتح ، الكشاف  
الفلسطيني ، اتحاد المرأة ، مركز  
انعاش المخيم - شاتيلا ، متطوعون ) ،  
للاستفادة من وجودهم في التقييم ، من  
ناحية ، ومن ناحية اخرى لتوفير عسدد  
اكبر من الكوادر القادرة في المستقبل على  
المساهمة في تطبيق البرنامج على نطاق  
اوسع .

من الناحية النظرية ينبغي توفر

★ تم وضع البرنامج وتطبيقه بمشاركة فريق اللجنة التربوية للعلوم في القسم  
التربوي ، بالإضافة الى كوادر من اللجنة العلمية - حركة فتح .

النقص في المنهاج المدرسي ولزيادة  
التفاعل بينهم وبين الطلاب .

ويتكون برنامج العلوم من ثلاث  
فقرات رئيسية هي على التوالي :

١ - الاسلحة وعلم الرمي ٢٠ - البيئة  
في خدمة المقاتل ٢٠ - المبادئ العلمية  
للاسعاف واطفاء الحرائق .

وقد بني هذا التقسيم على اساس  
البرنامج العسكري المقترح بحيث تتقابل  
فقرات برنامج العلوم الثلاث مع ثلاث  
فقرات رئيسية يقسم اليها البرنامج  
العسكري ، وهي على التوالي :

١ - الاسلحة ٢٠ - مهارات الميدان .  
٣ - اعمال الدفاع المدني .

وقد قمنا في بداية عام ١٩٧٦ بتطبيق  
الفقرة الاولى من البرنامج العلمي ( فقرة  
الاسلحة وعلم الرمي في معسكر الاشبال  
بمخيم شاتيلا ) وتتكون هذه الفقرة من  
عشر وحدات مدرسية ( دروس ) ، تحتوي  
كل منها على تجارب عملية ، وتتكون من  
٤-٥ صفحات ونود ان نشير الى مسألة  
هامّة ادركناها منذ البداية ، تتعلق  
بتوجهنا عند كتابة فقرات البرنامج كلها .  
ان توجهنا في الاساس الى طلاب السنة  
الاولى من المرحلة التكميلية لا يعني  
حصر تطبيق البرنامج في المدارس فقط ،  
او لطلاب السنة الاولى من المرحلة  
التكميلية دون غيرها من سنوات المرحلة .  
بل يتعدى تطبيقه المدرسة ليشمل بعض  
المؤسسات والهيئات الاخرى كالكشاف ،  
والاشبال وقواعد المقاتلين .

ويمكن فهم هذه التوجه مسن خلال  
الملاحظات المنهجية التالية :

١ - وضع البرنامج العسكري بالاستناد  
الى مستوى العمر البنيوي ( العمر  
الزمني ) بينما ركز المضمون العلمي

هم (٤٠) شبلا . ولوحظ ان عدد الحضور اخذ في الثبات بعد الوحدات الاربعة الاولى . ويستدل من جداول الحضور والغياب ايضا ان حوالي (٢٠) شبلا وزهرة داوموا على الحضور طوال فترة البرنامج تقريبا . ( حضر ١٤ منهم ٩٠٪ من الدروس ، ٣ ، من ٧٠٪ الى ٨٠٪ ، ٢ ، من ٥٠٪ الى ٦٠٪ ) وينتسب اكثر من نصف اشبال وزهرات المجموعة الى الصنف الاول تكميلي ( فعليا السادس ابتدائي ) وتتوزع البقية وهم (٧) على الصفوف الاولى والثانية والثالثة في صفوف المرحلة التكميلية .

- وتجدر الاشارة الى ان معسكر الاشبال في شاتيلا هو من نوع المعسكرات الدائمة التي تختلف عن المعسكرات الصيفية الدورية ، التي تقام سنويا لفترة شهر او اكثر . اذ انه يمكن في المعسكرات الدورية ( اذا ما توفرت البرامج ) توزيع مجموعات الاشبال على النشاطات المختلفة ، وضبط اعدادها ، والشروط التي تتناسب مع كل نشاط . وهذا ما لا يمكن تحقيقه في المعسكرات الدائمة ( شاتيلا وغيره ) ضمن الظروف المعطاة ( واقع المخيم ، وواقع مؤسسة الاشبال والمعسكرات الدائمة التابعة لها ) .

ولم يكن من السهل ضبط العينة التي طبق عليها البرنامج وتوفير بقية الشروط المطلوبة كاملة . ومن الاسباب التي ادت الى صعوبة ضبط العينة وجود نشاطات اخرى ( رسم ، غناء ، اشغال يدوية ) في نفس الوقت الذي كان يجري فيه تطبيق البرنامج . والتحاق عدد من الاشبال ( وخاصة الزهرات ) ممن كان يفترض التحاقهم ببرنامج العلوم ، او ممن التحقوا قعلا في الدروس الاولى بهذه النشاطات .

شرطين اساسيين في العينة التي يطبق عليها البرنامج ، هما :

- خضوع العينة لبرنامج تدريسي عسكري في نفس الوقت ، وما يقتضيه ذلك من ربط لمواد البرنامج وفق مضمون موادها .

- توفر المستوى التعليمي الذي وضع البرنامج من اجله ، وهو الصنف الاول تكميلي ، او الصفوف التكميلية الاعلى . فهل توفر هذان الشرطان ؟

- ثم تسمح ظروف المعسكر بتطبيق برنامج عسكري على العينة ، واكتفينا بان معظم الاشبال مدربين عسكريا ، وتربطهم بالسلاح علاقة مباشرة . غير ان غياب برنامج عسكري مرتبط مباشرة ببرنامج العلوم كانت له سلبياته التي انعكست على وجه الخصوص على الزهرات ، كما سيتضح ذلك فيما بعد .

- جرى في البداية الاتفاق على تطبيق البرنامج ، على مجموعتين من الاشبال من طلاب المرحلة التكميلية ، وتتكون كل مجموعة من (٢٥) شبلا . وفي اللقاء التمهيدي الذي تم لاختيار هاتين المجموعتين تواجد حوالي (٤٠) شبلا ينتسبون الى صفوف مدرسية متفاوتة ( من الخامس ابتدائي حتى الثالث تكميلي ) . وجرى في هذا اللقاء استبعاد من هم دون الاول تكميلي .، فتم بذلك انتقاء مجموعة من حوالي (٣٠) شبلا وزهرة ينتسب معظمهم الى الصنف الاول تكميلي في العام ٧٥-٧٦ (اي ان مستواهم الدراسي الفعلي هو السادس ابتدائي نظرا لتعطل العام المدرسي ٧٥-٧٦ ) . وتشير جداول الحضور والغياب الى انه خلال الدرسين الاول والثاني تخلف عدد من اشبال وزهرات المجموعة عن الحضور وحتى نهاية البرنامج . وفي نفس الوقت التحق اعضاء جدد . ويمكن القول بان عدد الذين تناوبوا على حضور البرنامج ( وحدة - وحدتين كحد ادنى )

## البرنامج

اولا : منهج عرض الافكار والاسلوب  
التربوي :

١ - جاءت الوحدات حسب تسلسلها في البرنامج مترابطة ومتكاملة ، بحيث كانت كل وحدة منها تعالج فكرة رئيسية، وتمهد في نفس الوقت للفكرة التي تليها بشكل سلس ، مما امكن مع نهاية وحدات البرنامج من تمييز خط عام متماسك يتكون من عدد النقاط ( الافكار الرئيسية ) . ويجيب هذا الخط على السؤال المطروح سابقا : ما هو السلاح ؟ وما يتفرع عنه من اسئلة اخرى مثل : ما هو الخط العام الذي يحكم تطوره ؟ ويجيب الى ( حد ما ) على مدى ارتباط تطور تقنيات السلاح مع تطور المجتمع البشري وتعدد حاجاته . على اعتبار ان السلاح حاجة اجتماعية قبل كل شيء . وكانت تتقاطع مع هذا الخط العام باستمرار خطوط عرضية تتطلب شرح بعض الافكار والمفاهيم حول السلاح . ونعطي هنا بعض الامثلة فقط على مسألة الخطوط العرضية :

مثال (أ) : الوحدة الثالثة ( مسار المقذوف بواسطة مختلف انواع الاسلحة ) .

مثال (ب) : الوحدة الرابعة ( شرح مفهوم الانفجار من خلال احتراق البنزين في صفيحة مغلقة الا من فتحة في اعلاها ) .

وهناك عدة امثلة على ترابط وتكامل وحدات البرنامج ( ينبغي الرجوع للوحدات ) :

مثال (أ) :

جاءت الوحدة السابقة المتعلقة بالمتفجرات تتويجا للوحدات السابقة وخاصة الوحدات الرابعة ( المادة المتفجرة وتأثير الطاقة الناتجة عن

اشتعالها : مثال البنزين ) ، والخامسة ( المادة المتفجرة كقوة دافعة : احتراق البارود في حيز محصور ) والسادسة ( القوة الدافعة الموجهة : المقارنة بين انفجار الطلقة داخل ماسورة البندقية وخارجها ) كما مهدت وحدتان الاولى ( اجهزة الرمي وتحول الطاقة : بدءا من الطاقة العضلية المستخدمة في الاسلحة البدائية وحتى الطاقة الكيماوية من خلال مثل الفرقعات ( الفتيش ) والثانية ( تطور الاسلحة من زاوية الطاقة والتقنية : استخدام البارود بدءا من الاسلحة البدائية حتى الاسلحة الحديثة ) للوحدات الرابعة والخامسة والسادسة .

ولذلك جاءت الوحدة السابعة لتمسك بالخيط المتفرقة في الوحدات السابقة وتصوغها في نسيج واحد ، وتمكنت بذلك من اعطاء تعريف شامل ومبسط للمواد المتفجرة مبنيا على المعرفة الجزئية السابقة .

مثال (ب) :

جاءت الوحدة العاشرة والاخيرة المتعلقة بالصاروخ لتوضح انه ( اي الصاروخ ) كان تتويجا لجهود الانسان في تطوير سلاح فعال ، اقتصادي . عالي المناورة ، بعيد المدى . كما اوضحت ان تقنيات الصاروخ الحديث كانت نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي الذي تم من خلال التوصل الى صنع الاسلحة الاقل تطورا . وقد مهدنا لهذا كله في المقدمة التي سبقت وحدات البرنامج العشرة ، وكذلك في الوحدة الثانية ( تطور الاسلحة من زاوية الطاقة والتقنية ) التي ارسى المقياس الذي تم على اساسه الحكم على مدى تطور سلاح معين . حين حددت السلاح بثلاث عناصر رئيسية هي ( القاذف ، المقذوف ، الطاقة ) وربطت تطور السلاح بتطور هذه العناصر . وحين حصرت هدف القاذف والطاقة في

- اصطدام ستيرتين من نوعين مختلفين ( ولهما كتلتان مختلفتان ) وتسيران بسرعة واحدة ، بجدا ، تُسم نراقب النتائج .

ونخرج من هذه الامثلة باستنتاجات معينة ، تنتهي منها الى تعريف لمفهوم كمية الحركة ، من حيث هو حاصل ضرب الكتلة في السرعة . ثم نعود ونربط هذا المفهوم بموضوع حركة المقذوف النهائية ، حيث انه الموضوع الذي يعالج في الاساس .

#### مثال (ب) :

ظاهرة الحشوة الجوفاء ( الوحدة التاسعة ) .

- الحشوة الجوفاء هي مادة متفجرة يحدث فيها تجويف على شكل مخروط ، او اشكال مشابهة ، ويؤدي تفجيرها بملاصقة جسم صلب ما الى احداث خرق في هذا الجسم . ولشرح هذه الظاهرة المعقدة ، بحثنا عن ظاهرة اخرى مشابهة وسهلة الفهم والاستيعاب ، وهي قدرة العدسة على تجميع اشعة الشمس وتركيزها في نقطة واحدة هي بؤرة العدسة بهدف اشعال النار . وبعد شرح ظاهرة تركيز الضوء ، نعود لنجرب بعض التجارب البسيطة :

- تفجير مادة متفجرة بملاصقة جسم صلب وملاحظة النتائج ( لا يحدث خرق للجسم ) .

- تفجير مادة متفجرة من نفس النوع بعد احداث تجويف فيها على شكل مخروط ، بملاصقة جسم مشابه ، وملاحظة النتائج ( يحدث خرق ) ثم تربط ظاهرة تركيز الضوء في نقطة واحدة ، بظاهرة تركيز طاقة الانفجار في نقطة واحدة ايضا بسبب وجود التجويف المخروطي . ثم نعود لشرح القذائف الخارقة للدروع والقنابل اليدوية المضادة للدروع ، وغيرها ، في ضوء هذه الظاهرة

ايصال المقذوف الى الهدف ، على اعتبار انه اهم جزء في السلاح لان بقية اجزاء السلاح انما صنعت من اجل اوصول هذا المقذوف الى الهدف بكفاءة عالية . وعلى هذا الاساس الذي اُرسى في الوحدة الثانية نظرنا الى الصاروخ في الوحدة الاخيرة . كما انه لم يكن من الصعب استيعاب وفهم تقنيات الصاروخ ومكوناته من قبل الاشبال والزهرات ، لان الوحدات السابقة وفرت الارضية الملائمة لذلك ( حركة المقذوف الداخلية ، حركة المقذوف في الهواء ، حركة المقذوف النهائية ، المتفجرات بانواعها وخلاصة المادة الدافعة ، مبدأ الفعل ورد الفعل ، قذائف المدفعية والطائرات ، القذائف الخارقة للدروع ... الخ ) .

٢ - في الفقرة السابقة تعرضنا للمنهج الذي اتبع في تسلسل وحدات البرنامج . وفي هذه الفترة سنعرض لمنهج عرض الافكار ضمن الوحدة الواحدة . وهل ادت كما هي مكتوبة الى اوصول الفكرة الرئيسية التي تعالجها الى ذهن الشبل . كما ذكرنا في المقدمة ، فقد كان منطلقنا هو تبسيط المفاهيم العلمية المعقدة بواسطة تجارب تمهيدية وبسيطة من الحياة اليومية ما امكن . لذلك فانه عند معالجتنا لاي مفهوم علمي ، نمهد لذلك بواسطة تجارب بسيطة وملموسة .

مثال (ا) : كمية الحركة ( الوحدة الثامنة ) .

قد يبدو هذا المفهوم معقدا ويصعب استيعابه من قبل تلاميذ الصف الاول تكميلي ، ولكن طريقة المعالجة تثبت عكس ذلك .

#### تجارب بسيطة :

- اصطدام ستيرتين من نفس النوع ( نفس الكتلة ) تسيران بسرعة مختلفة ، بجدا .

باعتبارها المبدأ العلمي الذي يقوم عليه عمل هذه القذائف .

#### مثال (ج) :

مبدأ الفعل ورد الفعل ( الوحدة العاشرة ) .

لشرح هذا المبدأ الذي يعمل وفقه الصاروخ نقوم بتجارب على البالونات ، وعلى الاسهم النارية وهي ليست أكثر من لعب بيد الاشبال . ان السهم الناري هو نموذج بسيط للصاروخ وطريقة عمله .

وهناك امثلة كثيرة يمكن ان نسوقها للاستدلال على هذا المنهج ، يمكن اكتشافها بالرجوع الى البرنامج .

٣ - يلاحظ في وحدات البرنامج العشرة تكرار لبعض الافكار الجزئية والمصطلحات . ولكن هذا التكرار لسبب يكن تكرارا عفويا ودون مبرر .

#### مثال (ا) :

لقد تناولنا البارود في المقدمة حول نشوء السلاح ( اكتشاف البارود وتأثيره على تطور السلاح ) وفسي الوحدات الاولى ( عند الحديث عن الطاقة الكيماوية ) و الثانية ( البارود كمحطة رئيسية في تطور السلاح ، والاسلحة البدائية التي تستخدم البارود ) و الثالثة ( عند الحديث عن مسار المقذوف وعلاقة السرعة الابتدائية للمقذوف بكمية الحشوة الدافعة ) و الخامسة ( تركيب البارود وتحضيره ) والسادسة ( البارود مكون من مكونات الطلقة عند الحديث عن القوة الدافعة الموجهة ) والسابعة ( المتفجرات وتصنيف البارود كمادة متفجرة دافعة ) والعاشرة ( الصورايخ الاولى التي تدفع بواسطة البارود ) وبهذا نلاحظ ان البارود يرد ذكره تقريبا في جميع الوحدات . ولكنه كان يعالج في كل مرة من زاوية معينة

تخدم الفكرة الجزئية او الرئيسية التي نتحدث عنها ، بحيث يؤدي هذا فسي النهاية الى اعطاء فهم شمولي لهذه المادة واستخداماتها . وكما تؤدي الى ترابط الافكار في وحدات البرنامج المختلفة .

#### مثال (ب) :

لقد ورد ذكر فلمنات الزئبق وازيد الرصاص عند الحديث عن تطور المقذوف واجهزة القذف في ( الوحدة الثانية ) ودون تسميتها ، بل اكتفينا بان اطلقنا عليها اسم « مادة كيماوية حساسة » تحتويها كبسولة الطلقة . كما وردت ايضا في الوحدة السادسة كمادة حساسة دون تسميتها . وعند الحديث عن المواد المتفجرة في الوحدة السابعة سميت هذه المادة الحساسة وصنفت وعرفت استخداماتها .

ويمكن الاستدلال بأمثلة كثيرة على ما سبق ، بالرجوع الى وحدات البرنامج . وقد ادنى هذا كله الى ترسيخ المصطلحات العلمية ومدلولاتها .

٤ - تمت التجربة باشتراك موجهين وبإشراف عدد منهم . وقد اعطى احد الموجهين الثلاثة معظم وحدات البرنامج . وسمح في بعض الوحدات للموجهين المراقبين بالاشتراك في شرح الوحدات عن طريق توجيه الاسئلة للموجه السذي يقوم اساسا بشرح الوحدة بحيث تستخدم هذه الاسئلة لتوجه الاساسي في الوحدة ، وعن طريق شرح بعض المفاهيم والافكار ، او اعطاء بعض الامثلة ، بهدف مساعدة الموجه على تبسيط بعض الافكار ، ومساعدة الاشبال على استيعابها . وبهذا طبقنا أسلوب أكثر من مدرس واحد في الفصل . وكان لاشتراك أكثر من موجه في اعطاء وحدات البرنامج المختلفة بعض المساوئ ، منها ان الاشبال تعودوا على موجه معين وعلى أسلوبه وكان من الصعب عليهم قبول موجه آخر ، مما اثر على مدى استيعابهم . وكان هذا

التي كان يقوم بها الموجهون للمعسكر من وقت لآخر اثناء التجربة ، ويجري فيها الحوار مع الاشبال حول سير الدروس وحول حياتهم في المخيم بشكل عام . كان هذا الحوار يجري احيانا في طرقات المخيم ، اذا ما التقى الموجه باحد الاشبال وساعد هذا كله على خلق جو من اللفة والثقة بين الموجه والاشبال، جعلهم يقبلون الموجه ويقبلون على دروسه . ويمكن ان تظهر نتائج هذه العلاقة جيدا في حال استمرارها من خلال تطبيق برامج اخرى مشابهة .

٧ - كان من بين الموجهين المراقبين موجه واحد من كادر معسكر الاشبال ، وهو مدرب عسكري اساسا ، وكان المطلوب منه ان يتابع الاشبال بين كل درسين متتالين . فيقوم باعادة الدرس وتوضيح الاشياء الصعبة ، كما يقوم بالاشراف على التجارب العلمية التي لا يسمح الوقت باجرائها خلال الدرس ( تحضير البارود مثلا ) . كما كان عليه ان يشرف على الواجبات التي يكلف بها الاشبال بعد كل وحدة ( مثلا الرسومات ) . الا ان كل ذلك لم يتم على الوجه المطلوب لعدم تفرغ ذلك الكادر لهذه المهمات لانشغاله بنشاطات اخرى داخل المعسكر . وقد اثر هذا كثيرا على استفادة الاشبال من مواد البرنامج وخاصة فيما يتعلق بالتطبيقات العملية .

٨ - واخيرا يمكن تلخيص الاسلوب الذي اتبع في كتابة المادة العلمية وفي ايصال المعلومات الى ذهن الشبل بما يلي :

- تجنب الاسلوب التقريري والتلقيني واعتماد اسلوب الحوار والمشاركة من خلال :

★ طرح الاسئلة والطلب من الاشبال الاجابة عليها .

★ استدرج الشبل للاجابة على

واضحا في الوحدة الخامسة ، وهي اول وحدة يشرحها موجه جديد . وكان الموجه الجديد في الوحدة العاشرة ( الصاروخ ) من غير المتابعين للوحدات السابقة ونتيجة لذلك فانه لم يعد الى بعض الافكار في الوحدات السابقة للاستفادة منها . وهذا يطرح مرة اخرى ضرورة الدورات التدريبية للوصول الى اسلوب تربوي واحد .

٥ - اختلفت العلاقة بين الشبل والموجه خلال البرنامج عن العلاقة التقليدية القائمة بين الاشبال وكادر المعسكر . ان العلاقة الاخيرة قائمة على الروح العسكرية وهي علاقة يحكمها الخوف من العقاب والذي يكون في العادة عقابا جسديا . ولا تؤمن هذه العلاقة الانضباط الذاتي للشبل ، بل اقصى ما نستطيع ان نؤمنه هو الانضباط المؤقت اثناء وجود الكادر المسؤول . اما علاقة الموجه بالشبل خلال البرنامج فقد قامت منذ البدايات على اشعار الشبل بالمسؤولية وتحميله اياها ، دون اللجوء الى اسلوب العقاب الجسدي او الصراخ . ولم ننجح في بداية الامر في ضبط الاشبال ، وكانت تسود الفصل بعض الفوضى من وقت لآخر . الا ان اللجوء الى العصا او الصراخ كان لا يعني اكثر من الوقوف امام مجموعة صامتة ، دون ان يؤدي ذلك الى تركيز انتباهها وكسب اهتمامها بالدرس . وربما لم يكن نجاحنا في هذا المجال حتى نهاية البرنامج لتعود الاشبال على اسلوب تربوي معين . ان تعودهم على اسلوب اخر لا يتم من خلال برنامج واحد ، بل من خلال برامج تربوية عديدة تكسب الاشبال روح الجماعة وروح المسؤولية .

٦ - ان العلاقة بين الموجه والشبل لم تقتصر على تلك العلاقة القائمة اثناء الدرس بل تعدتها لتشمل فترات اخرى في غير اوقات الدروس من خلال الزيارات

الضوء بواسطة العدسة لاصدمات الحريق .

- الانطلاق من المعلومات التي يعرفها الشبل وبناء نسيج من المعلومات حول هذه النواة يساعد في النهاية على توضيح حقيقة علمية معينة .

مثال : انطلاقا من معرفة الاشبال لظاهرة ألبرق والرعد ، نخرج بمعرفة سرعة الصوت والضوء وايهما اسرع ؟ تنتقل بعد ذلك الى سرعة رصاص البندقية الحديثة ، وبمعرفة انها اكبر من سرعة الصوت بحوالي ثلاثة اضعاف ، يدرك الشبل ان الرصاصه تصل الى الانسان قبل ان يصل الصوت الناتج عن رمايتها . ونخرج في النهاية بالحقيقة العلمية القائلة بأنه طالما أنك لا تسمع صوت الرماية ، فان هذا لا يعني أنك بخير ولم تصب بأذى مميت .

ثانيا - مدى استيعاب وتطوير المادة العلمية من قبل الاشبال :

١ - بالاستناد الى نتائج الاستمارات تراوحت نسبة الاشبال التي استوعبت المادة العلمية في بداية البرنامج ( من المقدمة حتى الوحدة الثانية ) ما بين ١٥-٣٠٪ فقط ، وذلك حسب تقديرات الجهات المختلفة التي اشتركت في التقييم . ثم اخذت هذه النسبة في الازدياد مع تتالي وحدات البرنامج . فازدادت بشكل ملحوظ في الوحدة الثالثة ( مسار المقذوف ) ، على عكس ما كان متوقعا ، حيث انها وحدة نظرية بحتة وتخلو من التجارب العملية ، ويمكن القول من خلال ملاحظة الموجه الشخصية بان حوالي نسبة ٥٠٪ من الاشبال قد استوعب المادة العلمية في تلك الوحدة ، بينما تجاوب اكثر من ٧٥٪ منهم مع الدرس بشكل ملحوظ عن طريق طرحهم للاسئلة والاستفسارات . وكذلك من خلال

الاسئلة الصعبة من خلال الاجابة على سلسلة من الاسئلة البسيطة التي تقدم المعطيات الاساسية للاجابة على السؤال الرئيسي .

- شرح مضامين المفاهيم العلمية المعقدة وشرح تطبيقاتها في الحياة العلمية دون الاضطرار الى تسميتها ، حتى لا يربك ذهن الشبل بحفظ تعريفات ومصطلحات لا يلبث ان ينساها . ولكن هذه الخطوة تساعده في المستقبل على تذكر هذه المفاهيم اذا مرت في اي منهاج دراسي .

مثال : كمية الحركة = الكتلة × السرعة  
الاجهاد = مقدار القوة الدافعة على وحدة المساحة من جسم ما .

- تحدي ذهن الشبل احيانا ، وحفزه على التفكير بطرح افكار علمية صعبة ، والاكتفاء بالحد الأدنى الذي أمكن للشبل استيعابه ، على ان يكون هذا بمثابة تمهيد في حال التعرض لهذه الافكار مرة اخرى .

- شرح المفاهيم العلمية الصعبة من خلال ربطها بتجارب وملاحظات من الحياة اليومية .

مثال (١) :

الاجهاد ( المسامير والحائط ، ايسرة الخياطة ) .

مثال (٢) :

كمية الحركة ( اصطدام سيارة بجدار ) .

- مقارنة بعض الظواهر المعروفة لدى الشبل بظواهر اخرى غير معروفة للوصول الى فهم الظاهرة المعينة .

( مثال أ ) : مقارنة سلسلة التفجير بسلسلة الاشتعال .

( مثال ب ) : مقارنة تركيز طاقة الانفجار بواسطة الحشوة الجوفاء في نقطة واحدة لاحداث الحرق ، بتركيز



استوعبت الوحدات الثالثة ، الثامنة ، العاشرة ، والى حد ما الوحدات السادسة والسابعة والتاسعة ، أكثر من غيرها من الوحدات . وكون معظم هذه الوحدات من وحدات البرنامج الاخيرة يجعلنا لا نغفل عاملا مهما ، وهو ان تتالي وحدات البرنامج وتراكم المعلومات الاساسية خلق عند الاشبال المزيد من الاستعداد والقسرة على استيعاب وفهم المفاهيم العلمية حصول السلاح . كما ان تدني نسبة الاشبال التي استوعبت المادة في بداية البرنامج يمكن ان يرجع الى عدم تراكم المعلومات والى نقص وسائل الايضاح وخصوصا في الوحدة الثانية .

ب - كان هناك تفاوت في استيعاب بعض الافكار نظرا لتفاوت المستوى المدرسي من ناحية ، والمستوى الذهني من ناحية اخرى : استوعب اثنان من الاشبال فقط ، وممن ينتسبون الى الصف الثاني والثالث تكميلي ، بطريقة اتحاد العناصر لتكوين المركبات ( الوحدتين الرابعة والخامسة ) .

ج - كان هناك تفاوت في استيعاب الاشبال والزهرات لبعض الافكار والمصطلحات التي تتطلب معرفة بالسلاح . ان عدم حصول معظم الفتيات على تدريب عسكري جعل من الصعب عليهن تلمس بعض الظواهر ، والتعرف على بعض الاسلحة ( فكرة الفعل ورد الفعل عند الرمي من بندقية ، التعرف على قاذف الاربيجي ، الهاون ٦٠ ) .

د - ان عدم ارتباط البرنامج العلمي ببرنامج تدريب عسكري وغياب السلاح ، كان له اثره في عدم خلق حافز اضافي لدى الاشبال والزهرات للاقبال على معرفة القوانين العلمية للسلاح الذي يتدربون عليه .

هـ - ان الاستيعاب الجيد للوحدتين

محاولتهم الاجابة على الاسئلة المطروحة . ونسجل هنا ، انه ابتداء من هذه الوحدة اخذت معظم الزهرات في التجاوب مع الدروس . وحسب اقوال الزهرات كان السبب في ذلك ان الاهتمام من قبل الوجهة تركز في الوحدات السابقة على الاشبال فقط دون الزهرات ، وهذا ما امكن تجاوزه في هذه الوحدة . وحسب تقديرات الاستمارات ايضا اخذت نسبة الاشبال التي تستوعب المادة العلمية في الازدياد ، ولكن ليس في خط بياني متصاعد . وبلغت هذه النسبة من ٧٠-٩٠٪ ابتداء من الوحدة السادسة وحتى نهاية البرنامج . ذكرنا ان الزيادة لم تكن زيادة منتظمة ويرجع ذلك لعوامل عدة :

- وجود مصطلحات ومفاهيم صعبة في بعض الوحدات لم يتطرق اليها المنهاج المدرسي مثال : الوحدة الرابعة ، فكرة اتحاد العناصر لتكوين المركبات الكيماوية والتعبير عن ذلك في رموز ومعادلات .  
- عدم التمكن من اجراء بعض التجارب العملية :

مثال (١) : الوحدة الرابعة ، توضيح مفهوم الانفجار عن طريق اشعال كمية من البنزين في صفيحة مغلقة الا من فتحة من اعلاها .

مثال (٢) : الوحدة الخامسة ، احتراق البارود ضمن حيز محدود .

- نقص وسائل الايضاح : مثال : الوحدة التاسعة ، نقص القطاعات المجسمة في بعض انواع القذائف ( قذائف المدفعية ، القذائف الخارقة ) الخ ) .

هذا ويمكن الخروج بمجموعة من الملاحظات بمدى استيعاب الاشبال للوحدات :

١ - كان هناك تفاوت في استيعاب وحدات البرنامج من قبل الاشبال .

يكون السبب الرئيسي غيابهن عن ٥٠٪ من الدروس . ولكن هذا لم ينف ان هاتين الزهرتين قد تمكنتا من استيعاب بعض المعلومات عن السلاح والمتمثلة في الخطوط العرضية .

– المجموعة الثانية ، وتتكون من شبليين ( انتهى احدهما الصف الثالث تكميلي ، فيما انتهى الاخر الصف الثاني ) وزهرة انتهت نصف الثاني تكميلي . وقد حضر جميعهم ٩٠٪ من الدروس . ويمكن اعتبار الزهرة في هذه المجموعة بالاضافة الى الشبل الذي انتهى نصف الثالث تكميلي من اكثر افراد العينة استيعابا لمادة البرنامج . وقد زاد استيعابهم عن الحد الادنى المشار اليه . ويمكن ان نقول بانهم قد استوعبوا ( ٨٠-٩٠٪ ) من المسادة العلمية . اما بالنسبة للشبل فيمكن ان يضم الى اشبال المجموعة الاولى التي استوعبت الحد الادنى .

– المجموعة الثالثة ، وتتكون من ١٣ شبلا وزهرة معظمهم من الاشبال . وقد انتهى (١١) منهم نصف السادس ابتدائي واثنان الصف الخامس ابتدائي . وقد تمكن خمسة من اشبال هذه المجموعة ممن انهوا الصف السادس ، من استيعاب الحد الادنى . بينما ابدي الاثنان الاخران اللذان انهيا الصف الخامس مقدرة على الفهم مكنتهم من الاقتراب من استيعاب الحد الادنى .

– بناء على ما سبق يمكننا ان نستنتج بان اكثر من نصف المجموعة (١١ شبلا) قد استوعبت الحد الادنى اي ٧٠٪ من المادة العلمية . وبان عددا من الاشبال الذين انهوا الصف السادس قد تساوى في مستواه الذهني مع بعض الاشبال الذين انهوا الصف الاول تكميلي بل والثاني تكميلي .

٣ – تمكن بعض الاشبال من مشاركة الوجه في اضافة وتطوير بعض الافكار العلمية المتعلقة بالمادة العلمية :

الثالثة ( مسار القذف ) والثامنة ( مفهوم كمية الحركة بشكل اساسي ) وهما وحدتان نظريتان تفتقران الى التجارب العملية وتعتمدان فقط على الاستشهاد بملاحظات من الحياة اليومية مثل : اصطدام سيارة بجدار ، دق مسمار في حائط ، قذف كرة قدم على حارس المرمى ، يثبت قدرة الاشبال على التخيل وعلى تحليل وربط المعلومات .

٢ – من خلال التعامل مع الاشبال عن قرب في فترة تطبيق البرنامج ، ومن خلال معرفة المستوى الذهني والمدرسي لكل شبل من اشبال المجموعة على حدة ، يمكن تصنيفهم فيما يختص بمدى استيعابهم الى عدة مجموعات . ولكن قبل عملية التصنيف ينبغي الاتفاق على مقياس تعتمد عليه عملية التصنيف وسنقترح هنا مقياس الحد الادنى من المادة العلمية المستوعبة من قبل الشبل . اذا اتفقنا على تعريف الحد الادنى بانه ذلك الخط العام الذي تعرضنا له سابقا والذي يتكون من عدد من الافكار الرئيسية تعرف ما هو السلاح علميا ، وتوضح الخط العام الذي حكم تطوره ولا يدخل ضمن هذا الخط العام الخطوط العرضية التي تتقاطع معه والتي تشرح بعض الافكار والمفاهيم الضرورية حول السلاح . ويقدر هذا الخط العام بحوالي ٧٠٪ من المادة العلمية المعطاة . وبهذا يصنف الاشبال الى ثلاثة مجموعات مع الاحتفاظ بالتصنيف القائم على اختلاف الصف المدرسي :

– المجموعة الاولى ، وتتكون من أربعة زهرات انهين الصف الاول تكميلي، حضرت اثنتان منهن ٩٠٪ من الدروس ، بينما حضرت الاثنتان الاخريان ٥٠٪ فقط من الدروس . من بين هذه المجموعة يمكن اعتبار ان اثنتين فقط استوعبتا الحد الادنى المطلوب : بينما لم تتمكن الاخريان من تحصيل ذلك الحد . وقد

تنفذ في قطعتين من القماش أحدهما سميكة والأخرى رقيقة ، لاكتشاف في أي القطعتين تنفذ الأبرة بسهولة وأخيرا ربطت هذه الفكرة بالمحاولات التي بذلت لزيادة سماكة الدروع لمنع اختراقها بواسطة القذائف المضادة للدروع والتي يعتمد مبدأ عملها على طاقة حركة القذيفة ( الوحدة التاسعة ) .

### تقييم عام

لقد تم تقييم هذه التجربة باستخدام عدد من الوسائل :

١ الاستمارات والملاحظات الشخصية التي دونها الموجه .

٢ مراجعة عامة للبرنامج بقياس استيعاب الأشبال للمادة العلمية عن طريق الأسئلة أساسا .

٣ تقسيم الأشبال والزهرات إلى مجموعتين في شكل حلقات نقاش ، مجموعة تضم الزهرات ، والمجموعة الأخرى تضم الأشبال . ثم توجيه عدد من الأسئلة إلى المجموعة وتسجيل الإجابات عليها ، مع اعتماد أسلوب النقاش في الحصول على الإجابات ، ولا تهدف الأسئلة أساسا إلى اختبار استيعابهم للمادة العملية بل تتعلق بانطباعاتهم العامة حول البرنامج وتمثل استمارة غير مكتوبة موجهة للأشبال وهذه هي الأسئلة :

(أ) حول علاقة الشبل بالسلاح : هل قمت باستعمال السلاح وياطلاق النار ؟ قبل البرنامج ؟ خلاله ؟ بعده ؟ ، أم لم تقم بذلك حتى الآن ؟

(ب) أي موضوع من مواضيع البرنامج أحببته أكثر من غيره ، وما هو السبب ؟

(ج) هل قمت أو تنوي القيام بصنع بعض النماذج من الأسلحة التي رأيتها خلال البرنامج ؟ أو هل قمت بإجراء بعض التجارب العلمية بعد الدروس ؟

مثال (١) : اختيار مبدأ الفعسل ورد فعل ( الوحدة السادسة ) عن طريق نفخ بالون ثم أفلاته في الهواء .

عندما سأل الموجه الأشبال ماذا يحدث للبالون له ففتحان إذا ما نفخ ثم افلتت في الهواء ؟

اجاب معظمهم بان البالون يقع على الارض ولا يندفع في أي اتجاه ، فيما اعترض احد الأشبال على هذه الاجابة ، موضحا بان هذا يتوقف على ما اذا كانت الفتحان متساويتين ام لا . . . . . ويأتى البالون يندفع باتجاه الفتحة الصغيرة اذا كانت الفتحان غير متساويتين . ان هذه الاجابة تمثل تطورا للفكرة المطروحة كما ان لقطر الفتحة التي تندفع منها الغازات ضمن وعاء محكم الا من هذه الفتحة ، اهمية كبيرة في تصميم الصاروخ ، ولذلك جاءت هذه الفكرة ، أيضا ، تمهيدا للفكرة الأساسية المطروحة في الوحدة العاشرة .

### مثال (ب) :

في الوحدة الثانية عند شرح تأثير شكل المقذوف ( الرأس المدبب ) على اختراق الاجسام ، اعطي مثل ابرة الخياطة والسبب الذي يجعلها تنفذ بسهولة في قطعة القماش أكثر من المسام مثلا . وفسر عمل الأبرة على اساس مبدأ الاجهاد ( مقدار القوة المؤثرة على وحدة المساحة من جسم ما ) . اذ ان نفس مقدار القوة التي تضغط بها اليد في حالة المسام تتوزع في حالة الأبرة على مساحة اصغر ، ( لان مساحة رأس الأبرة اصغر ) مما يجعلها تخترق القماش بسهولة أكثر من المسام .

اضاف احد الأشبال عندئذ ، بان هذا يتوقف أيضا على نوع القماش ومقدار مقاومته للأبرة . ولذلك اضاف الموجه تجربة اخرى فأخذ ابرة واحدة وجعلها

(٣) توضح من خلال حلقات التقييم بشكل اساسي ، الى اي مدى تغيرت علاقة الشبل بالسلاح . ان عددا من اشبال المجموعة ( وخاصة الزهراء ) لم يتم باستعمال السلاح واطلاق النار الا في فترة تطبيق البرنامج . بينما لم تقم بعض الزهراء حتى الان بذلك . وقام عدد آخر من الاشبال باستخدام السلاح قبل واثناء البرنامج . وفي حلقة التقييم اجاب بعض الذين استعملوا السلاح لأول مرة خلال البرنامج ، بان المعلومات التي حصلوها عن السلاح شجعتهم على تجاوز علاقة الخوف من السلاح . وأصبح السلاح شيئا مألوفا لديهم يعرفون ما يتم بداخله من عمليات . ان عملية ضغط الاصبع على الزناد أصبحت لدى الشبل بداية سلسلة من العمليات المعروفة لديه مسبقا ، سواء تلك العمليات التي تتم داخل ماسورة السلاح ، ام تلك التي تحدث للمقذوف خلال طيرانه نحو الهدف او عند ارتطامه به . ان الهدف من العملية كلها أصبح واضحا في ذهن الشبل ، وهو اصابة العدو بكفاءة عالية . اما بالنسبة للاشبال الذين قاموا باطلاق النار مرات عديدة قبل البرنامج ، فقد اجابوا بانهم لم يشعروا بالخوف من السلاح من قبل ، ولكنهم أصبحوا يعرفون أكثر من ذي قبل ما الذي يحدث تماما عند ضغط اليد على الزناد . وكان اهتمامهم السابق يتركز حول اطلاق النار وسماع صوت الطلقة . اي ان علاقتهم السابقة بالسلاح كانت علاقة سيطرة من جانب السلاح . ثم بدأت هذه العلاقة في التغيير ليصبح الشبل هو المسيطر على السلاح ، وهو الذي يوجهه . واما الذين لم يقوموا باطلاق النار حتى الان فقد اجابوا ، بانه أصبح لديهم جرأة أكبر للقيام بهذه العملية .

(٤) اجمع معظم الاشبال وخاصة الزهراء بان وحدة الصاروخ كانت من

(د) ما هو رأيك في البرنامج بشكل عام ؟ التوقيت ، الانضباط خلال الدروس ، العلاقة مع الموجه ، الاسلوب ، وما هي اقتراحاتك ؟

(هـ) هل ترغب في الالتحاق ببرنامج متطور يوسع معلوماتك حول مواضيع البرنامج ؟

(و) لقاء تقييمي للموجهين الذين شاركوا في البرنامج واشرفوا عليه ، والطلب الى بعضهم كتابة تقييم خاص منفصل للبرنامج .

٤ - لقاء تقييمي بين عدد من كوادرس القسم التجريبي الذين شاركوا في التجربة وبين كادرس معسكر الاشبال .

بالاستعانة بوسائل التقييم السابقة يمكن ان نبدي عددا من الملاحظات :

(١) ان ٩٠٪ من المادة العلمية كانت تتناسب تماما مع مستوى الصف الاول تكميلي . كما انها تتناسب مع المستوى الذهني لبعض الاشبال دون الصف السادس ابتدائي وهذا يطرح امكانية تطوير البرنامج مستقبلا في الاتجاهين الأدنى والأعلى . بحيث تصبح هناك برامج للصف السادس ، ولصفوف المرحلة التكميلية . ولو اخذنا عاملا تدني مستوى التعليم في مدارس الاونروا ، فانه يمكننا اعتماد مادة البرنامج العلمية بسهولة للصف الاول من المرحلة التكميلية .

(٢) قبل تجربة التقييم الاخيرة وزعت على الاشبال الكراسيس التي تحسوي المادة العلمية ، بهدف قراءتها واسترجاع المعلومات ، الا انه تبين ان كل الاشبال لم يتمكنوا من قراءة المادة وفهمها مباشرة من الكراسيس . واعتمد بعضهم في المراجعة على ما دونوه بانفسهم من مذكرات حول الدروس . وهذا يوضح ان الكراسيس يناسب المدرب فقط وليس الشبل .

هذه التجربة ايضا الى اشراك اكبر عدد ممكن من مؤسسات الثورة المهمة بالتربية ، انطلاقا من فهمنا الشامل للتربية ، من حيث انها عملية لا تقوم بها المدرسة وحدها ، بل تشارك فيها مؤسسات الثورة الاخرى . ولذلك تعاوننا مع اللجنة العلمية منذ البداية ، ودعونا الكشاف الفلسطيني واتحاد المرأة لفرز بعض كوادرهم للمشاركة في البرنامج . هذه المشاركة يمكن ان توفر عددا من الكوادر القادرة على تطبيقه ، سواء في المؤسسات المشاركة نفسها ، ام في معسكرات الاشبال الصيفية التي تضم اعدادا كبيرة من الاشبال . مستفيدين في ذلك من تجربة معسكر الاشبال الصيفي في العام الماضي - معسكر عز الدين القسام - ، حيث اصطدمنا بواقع نقص الكوادر القادرة على تطبيق مثل هذا البرنامج ، بسبب كون نشاط المؤسسة نشاطا موسميا ينتهي بانتهاء المعسكر الصيفي .

#### تطوير البرنامج

في ضوء التجربة برزت الحاجة الى تطوير مادة البرنامج ، بحيث يلقى ملائمة لمستوى الصف الاول تكميلي . ويشمل التطوير الالوجه التالية ، وهي معطاة هنا على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر :

- ١ - تبسيط بعض المصطلحات العلمية الصعبة ، او حذف بعضها .
- مثال : موجة ضاغطة ، مرونة المواد الجامدة ، تحول اشكال الطاقة .
- مثال : سرعة حركة الغازات ...
- ٢ - اعادة النظر في بعض الرسومات ، والاشكال ، وازضافة اخرى .
- مثال : الاشكال المتعلقة بمسار المقذوف ..

احب مواضيع البرنامج لديهم واجابوا بانهم سمعوا بالصواريخ تنطلق من المنطقة واليها ، مما حفزهم على التعرف عليها عن قرب . وقد ساعدناهم في ذلك باننا احضرنا الى الفصل عينات من صواريخ ٢٥ بوصة صاروخ كاتيوشا ، وغيرها . كما ان وسائل الايضاح كانت كافية بشكل عام . وابدى الاشبال رغبة وحماسة شديتين لاستمرار البرنامج نفسه او اية برامج اخرى متطورة . مما دفعنا الى التفكير في اختيار مجموعة من بينهم ، وتشكيل ما يشبه نادي هواة الصواريخ . الا ان الفكرة طورت الى ناد للعلوم العسكرية يكون فيه الصاروخ عبارة عن مشروع يتم من خلاله تحقيق اسلوب العلوم المتكاملة ، اي تعلم الكيمياء والفيزياء والرياضيات من خلال الصاروخ . ولا نعني بالصاروخ هنا ، الصاروخ الحديث المعقد ، بل الاشكال الاولى له ، على اعتبار ان الصاروخ من اقدم الاسلحة التي عرفها الانسان .

٥) ومن غير الممكن هنا قياس تأثير مواد البرنامج على مواد العلوم التي تدرس في المدرسة لان هذا يتطلب ان يشترك مدرسو العلوم بشكل مباشر في التجربة ، كما يتطلب ملاحظة الاشبال في المدرسة لتلمس تأثير مثل هذه البرامج على تفكيرهم لمواد العلوم وستكون الامكانية متاحة في حال تطبيق البرنامج في احدى المدارس .

٦) بجانب الاهداف التي توخاها البرنامج في اكساب الشبل حدا من المعلومات العلمية حول السلاح . هناك اهداف اخرى يتوخاها القسم التربوي من هذا البرنامج واية برامج اخرى ، وهي ارساء علاقة واضحة مع مؤسسة الاشبال تهدف الى تطوير عملها التربوي من ناحية ، ومن ناحية اخرى توفير امكانية التطبيق الميداني لبرامج القسم ، وتطوير عمله عن طريق التعلم من التجربة . وكان القسم يهدف من وراء

٣ - اضافة بعض الامثلة التوضيحية  
لزيادة تبسيط بعض الافكار .

مثال (١) : لعبة كرة القدم ، لتوضيح  
اثر تدني سرعة المقذوف في المرحلة  
النهائية من طيرانه ، على قوة ارتطامه  
بالهدف ...

مثال (ب) : البالون ذو الفتحتين ،  
لتوضيح فكرة الفعل ورد الفعل ...

٤ - اضافة المعلومات حول بعض  
التطبيقات المتعلقة بالاسلحة .

مثال : مقذوفات الاسلحة الفردية ،  
الحارقة ، والمخارقة والمقذوفات المتفجرة .

٥ - اختصار بعض الوحدات او  
تقسيمها الى وحدتين حتى تتناسب مع  
الوقت المحدد لكل وحدة . لان بعض  
وحدات البرنامج استغرق شرحها حوالي  
الساعتين أو اكثر .

مثال : الوحدة العاشرة ( الصاروخ ) .

٦ - اضافة بعض الوحدات للبرنامج  
لتغطية بعض نواحي النقص فيه .

مثال (١) : وحدة مستقلة خاصة  
بحرب الشعب ، وتأتي توسيعا للافكار  
التي وردت في المدخل عن نشوء السلاح،  
حول أهمية العلم والتكنولوجيا في حرب  
الشعب . وتكون وحدة تعبوية قسي  
الاساس .

مثال (٢) : وحدة تشرح حركة  
الغازات في السلاح . والاسس العلمية  
لتصنيف الاسلحة الخفيفة الى اسلحة  
الية ونصف الية . وكذلك تفسير الاعطال  
التي تحدث في السلاح .

وقد أخذت اللجنة التربوية للمعلوم في  
القسم التربوي ، الاقتراحات السابقة  
لتطوير البرنامج ، بعين الاعتبار . وتعمل  
حاليا على طبع البرنامج واصداره قسي  
كراس يكون في متناول الجميع .

جاير سليمان

## مراجعات

Joseph Churba , The Politics of Defeat :

America's Decline in the Middle East ( Cyrco Press , New York : 1977 )

« سياسة الهزيمة : افول اميركا في الشرق الاوسط » ان يقدم وجهة نظر متكاملة حول وضع الشرق الاوسط والسياسة الاميركية تجاه ذلك الوضع ، مع ابراز الخيارات الاستراتيجية التي يطلب من واضعي السياسة الاميركية اتباعها من اجل ضمان المصالح الاميركية في المنطقة .

و « جوزيف تشوربا » ليس بباحث عادي متخصص في شؤون الشرق الاوسط . فلقد كان يشغل منصب مستشار خاص لاستخبارات سلاح الجو في ألبينغتون ، بالإضافة الى منصب كبير مستشاري سلاح الجو لشؤون الاستخبارات المتعلقة بالشرق الاوسط ، وذلك قبل ان يصطدم بالجنرال جورج براون رئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة السابق . ولقد « اضطر » تشوربا الى الاستقالة بسبب خلافه مع براون اثر التصريحات التي اطلقها الاخير في اواخر العام ١٩٧٦ ، والتي اكد فيها ان « اسرائيل » أصبحت عميلاً عسكرياً على الولايات المتحدة .

ولاضفاء مزيد من الالهمية على الكتاب وما يتضمنه من آراء ، أسندت مهمة تقديمه الى الاميرال « المو زموالت » رئيس العمليات البحرية السابق في سلاح البحرية الاميركي . وعلى الرغم من ان « زموالت » اشار في تقديمه الى عدم تبنيه لمجمل الآراء التي تضمنها

مع تصاعد الصراع على المنطقة العربية ، وتنامي أهمية هذه المنطقة على الصعيدين الاستراتيجي والاقتصادي ، اخذت قضية « الشرق الاوسط » تحتل موقعا اساسيا في برامج مختلف القوى السياسية في العالم ، وتشكل محورا من محاور الصراعات السياسية في داخل الدول الغربية وعدد من بلدان العالم الثالث .

ولئن كان الموقف من ما يعرف « بقضية الشرق الاوسط » قد أصبح احد نقاط الاختلاف الرئيسية بين قوى التغيير وقوى المحافظة في عديد من البلدان ، فلقد أصبحت تلك القضية كذلك نقطة جدل حاد بين مختلف تيارات قوى المحافظة في الدول الرأسمالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية . واذا كانت تلك التيارات تجمع على اولوية الحفاظ على المصالح الامبريالية في المنطقة العربية كهدف استراتيجي حيوي بالنسبة الى مستقبل النظام الرأسمالي العالمي ، فان تلك التيارات تختلف حول السبل الكفيلة بالحفاظ على تلك المصالح . والسياسة الواجب اتباعها تجاه « قضية الشرق الاوسط » وما تحمله من تناقضات تهدد على الدوام بتفجير الاوضاع في هذه المنطقة الملتهبة والحساسة من العالم .

ويحاول « جوزيف تشوربا » في كتابه

العليا في الشرق الاوسط هي ذات طبيعة « سياسية - استراتيجية : منع المنطقة من انسقوط تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي وان تستغل ضد الغرب ، حيث ان ذلك سيعرض من قدرة منظمة حلف شمالي الاطلسي واليابان على مقاومة الضغط السوفياتي ، كما سيؤدي الى تحييد ايران وتركيا ، بالاضافة الى تطويق الصين ، وصولا نحو عزل الولايات المتحدة » .

ويستطرد تشوربا مشيرا الى انه بالاضافة الى احتواء النفوذ السوفياتي ، هناك اهتمامان رئيسيان اخران للولايات المتحدة في المنطقة . ويتعلق الاول ببقاء اسرائيل ، في حين يرتبط الاخر بالمصالح الاقتصادية الخاصة ، ويشكل اساسي مصالح شركات النفط الاميركية في المنطقة . ويشير تشوربا الى تصادم هذين الاهتمامين ، ومن ثم ينتقل الى تفنيد الرأي القائل بان الدعم الاميركي « لاسرائيل » يعيق نمو الاستثمارات والتجارة الاميركية مع البلدان العربية ، حيث يؤكد ان « الاعتبارات الاقتصادية تكون العنصر الغالب عادة عندما تكون فائدتها متبادلة » . اما بالنسبة للجانب الامني ، « فاسرائيل » هي « الصديق الوحيد الديمقراطي في المنطقة الذي لا يعتمد ارتباطه بالغرب على بقاء حاكم اوتوقراطي او نزواته » . كما وان « اسرائيل » ستكون ذات قيمة كبيرة في حال وقوع مواجهة حول امدادات النفط في المنطقة ، حيث تشير كل المؤشرات الى ان « المواجهة الرئيسية الاولى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ستكون في الشرق الاوسط - وحسب النفط » . وفي تلك الحالة يمكن « لاسرائيل » ان تلعب دور « طريق بري للامدادات ، وقاعدة تزويد بالوقود ،

الكتاب ، فلقد حرص على ان يؤكد على ان عمل تشوربا « يسد ثغرة في الادبيات الاستراتيجية » الاميركية ، كما انه « يجبر قراءه على رؤية التطورات في الشرق الاوسط كجزء من قضايا اكبر ، ومن ضمنها العلاقات بين الدول في المناطق المتاخمة ، والعلاقة الاستراتيجية المهيمنة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي » .

ويوضح تشوربا الهدف من وراء كتابه في الفقرة الاولى من مقدمته الخاصة ، حيث يشير ان الهدف هو « اظهار ان حيوية اسرائيل حاسمة بالنسبة الى الولايات المتحدة وان على الولايات المتحدة بالتالي ان تتعهد بدون شروط بالدفاع عن تلك الامة والحفاظ عليها » . لا يجدر بنا ان ندعم اسرائيل فقط لان هناك ملايين من اليهود في هذا البلد . لا يجب ان ندعمها لجرد انها تجسد اخر وقفة لشعب اضهد عبر القرون ، ولان التزامنا بمبادئ الانسانية واللياقة لا يسمح باقل من ذلك . يجب ان ندعم اسرائيل اساسا لانها - وستبقى - ذات اهمية استراتيجية عظمى لامن الولايات المتحدة » .

ومن ثم ينتقل تشوربا الى الفصل الاول من الكتاب الذي يحمل عنوان « الاهمية الاستراتيجية للشرق الاوسط » . ويبدأ تشوربا ذلك الفصل بتعداد المصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، التي تتضمن « الحفاظ على منفذ استراتيجي الى المنطقة ومنفذ آمن لمواردها النفطية ، واحتواء النزاعات المحلية ، والنمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي المستمر ، وحماية الاستثمارات الاميركية ومساهمتها في ميزان المدفوعات الاميركي ، وتنمية التجارة الاميركية ، والحفاظ على العلاقات الثقافية مع شعوب المنطقة والعمل على توسيعها » . ويستدرك تشوربا ، حيث يشير الى ان المصلحة الاميركية



خطوط المواصلات عبر الشرق الأوسط ، وعلى سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وإلى شرقي أفريقيا » .

وينتقد تشوريا واضعي السياسة الاميركية الذين يعلقون الامل على « دور سوفياتي بناء في عملية التسوية » في المنطقة . كما ينتقد عدم فهم الصراع العربي الاسرائيلي « كالصدع المتنامي في اسس السياسة الدولية : تحد سوفياتي لميزان القوى » .

وينتقل « تشوريا » الى فصله الثالث الذي يحمل عنوان « انخراط السياسة الاميركية » ، فيؤكد في البداية ان تدهور نفوذ اميركا في المنطقة جاء نتيجة لعدم فهم النزاع المحلي ضمن اطار الامن الاوروبي .

ويسنعرض تشوريا لتطورات التي تلت حرب ١٦٤٨ جنى حرب ١٩٥٦ التي عرضت فيها الولايات المتحدة السدود الانكلو - فرنسي وانقذت مصر عبيد الناصر « ضد مصالحتها الحقيقية الخاصة » ، ومن ثم وجدت نفسها ملتزمة بدور المدافع الرئيسي عن المصالح الغربية المشتركة في المنطقة . ولقد أدت حرب السويس الى تطورات هامة مثل الثورة العراقية في العام ١٩٥٨ ، واصدمات لبنان في العام نفسه حيث كان للتدخل الاميركي نتائج كبيرة .

وينتقل تشوريا الى انتقاد سياسة التنمية والدعم الاقتصادي التي اتبعتها الولايات المتحدة الاميركية في مطلع الستينات ، التي افادت الانظمة الراديكالية دون ان تفقدها راديكالياتها . ولقد بنيت تلك السياسة على فرضية ان الانظمة « المعتدلة » المحافظة ضعيفة : فكان الاعتراف بالجمهورية اليمينية « حتى ولو هددت السعودية والنفوذ البريطاني في شبه الجزيرة العربية » . وكانت حرب حزيران نقطة تحول في

ومستودع تموينات ، وذراع دعم تكتيكي للولايات المتحدة في المواجهة مع الاتحاد السوفياتي » . وكل ذلك يكلفه ضئيلة ، حيث ان الدعم العسكري الاميركي « لاسرائيل » يشكل « اقل من ١٪ من موازنة الدفاع الاميركية » .

وينتقل « تشوريا » الى الفصل الثاني من الكتاب ، الذي يحمل عنوان « مخططات موسكو بالنسبة للمنطقة » ، حيث يستعرض تطور العلاقات السوفياتية بالمنطقة ، مؤكدا عدم صحة الفرضية القائلة بان تنامي النفوذ السوفياتي كان نتيجة للقضية العربية - الاسرائيلية . فتلك الفرضية « تتجاهل الطابع الراديكالي للقومية العربية » ، كما تتجاهل عددا من التطورات والعوامل الهامة ، كالقرار البريطاني بالانسحاب من « شرق السويس » ، والانسحاب الفرنسي من « الناتو » ومن القواعد البحرية في تونس والجزائر ، والمسألة القبرصية ، والمنافسة العربية - الايرانية في الخليج ، والنزاعات الداخلية في اليمن والعراق والسودان ، والسياسة السوفياتية الناجحة في التكيف مع ايران وتركيا .

وفي حين اعتبر البعض ان الجهد السوفياتي في البلدان العربية استهدف كسب نفوذ على ايران وتركيا كجزء من « الاندفاع نحو الخليج الفارسي والمضائق التركية » ، يشير تشوريا انه يجدر تفهم اهداف النشاطات السوفياتية من منظور اشميل ، حيث يتضح انها تهدف تحييد الاسطول السادس الاميركي والانتفاف على قسوات حلف الناتو في البحر الابيض المتوسط واوروبا الغربية ، ومن ثم الالتفات نحو الصين . كما وان توصل السوفيات الى قدرة حركية استراتيجية ، وقوة بحرية مكتفية ذاتية يساهم في توسيع الخيارات السوفياتية الدبلوماسية والعسكرية في العالم الثالث . ويتطلب ذلك « تمديد

« زيادة في الامن النسبي يمكن ان تكون لها قيمة مطلقة في حالة معركة حياة او موت »

وتأتي مساندة « السلاح والعرب » في الفصل الخامس من الكتاب ، أذني يبدأ بالإشارة إلى الصفقات الاميركية إلى عدد من الدول العربية . وي طرح تشوريا عددا من التساؤلات حول سياسة التسليح الاميركية للدول العربية ، وبشكل خاص حول جدوى سباق التسليح بين ايران والسعودية ، وتسليح الاردن « ضد اسرائيل » ، وغيرها من الصفقات التي تشكل « تهديدا متزايدا للميزان المحلي في الشرق الاوسط » . ثم يؤكد ان صفقات الاسلحة الراهنة تعكس « ميلا قصير النظر للاعتماد على المعدات العسكرية في السعي وراء اهداف السياسة الخارجية » . ويعدد تشوريا الانتقادات التي تستهدف تلك السياسة ، والتي تردد معظمها خلال المناقشات التي جرت مؤخرا حول صفقة الطائرات الاميركية للسعودية ومصر و « اسرائيل » . ثم يشير إلى ان شعور « اسرائيل » - وليس العرب - بالامن هو الذي يجب ان يتعزز .

ويعالج تشوريا موضوع « مصر والسعي العربي وراء الهيمنة » في الفصل السادس من كتابه ، حيث يستعرض الدور العربي الذي لعبته مصر في عهد عبد الناصر ، مع الإشارة إلى ميل المحللين الاميركيين « للتقليل من أهمية الدلائل » حول سعي مصر وراء دور قيادي مطلق في الشرق الاوسط . وبعد أن ينتقل إلى الاستراتيجية الجديدة التي اعتمدها السادات ، يعدد الثغرات التي يعاني منها نظامه ، والتهديدات التي تواجهه . ومن سمات الضعف التي يعاني منها النظام المصري كان الانتقال في مركز الثقل السياسي الذي تمثل

علاقة الولايات المتحدة بالمنطقة ، حيث هيمن الصراع العربي - الاسرائيلي على القضايا الاخرى . كما ظهرت اولويات جديدة في السياسة الاميركية . وفي مقدمة تلك الاولويات كان الصؤول دون اندلاع حرب جديدة مخافة مواجهة سوفياتية اميركية . كما برز تصور بحاجة لمنع المحاولات السوفياتية للهيمنة عبر فرض استقطاب للقوى العظمى في الصراع العربي - الاسرائيلي .

ويؤكد تشوريا ان مصر والسوفيات افادوا من مشروع روجرز ، كما افادوا من وقف اطلاق النار الذي تلا حرب الاستنزاف في العام ١٩٧٠ . وجاء السادات « ليتعلم من اخطاء ناصر » ، وليحاول ايجاد « الدعم الاميركي عن اسرائيل بسلسلة من الضربات السياسية والعسكرية » . واندلعت حرب ١٩٧٣ ، التي رافقها ضغوطات اميركية على « اسرائيل » ، و « عملية انقاذ » اميركية للجيش الثالث المصري ، لتليها سلسلة من التطورات التي ساهمت في ابطال الاستقلال السياسي « الاسرائيلي » ، وتعزيز « السياسة الانتقامية » العربية ، وتشجيع « اللااخلاقية » في السياسة الاميركية .

وينتقل تشوريا إلى موضوع « اسرائيل ومفاهيم الامن القومي » في الفصل الرابع من كتابه ، فيبدأ بالإشارة إلى ان « اسرائيل ، وعلى عكس جاراتها العرب » تعتبر الامن القومي مرادفا للبقاء . ثم يستعرض محاولات « اسرائيل » للتوصل إلى « سلام » ، حتى الفترة الراهنة حيث برز نجاح عربي - سوفياتي في اظهار مسألة المناطق المحتلة « كسبب للنزاع » في حين انها « احد اعراضه » . ويرتكز ذلك على « الحجة المضللة » بان الامن ليس متعلقا بالاراضي ، وذلك على حساب حقيقة ان

مع الغرب بغض النظر عن السياسة تجاه  
« اسرائيل » .

ويخصص تشوريا لفصل التاسع من  
كتابه لمعالجة « مسألة فلسطين » ، فيبدأ  
بالاشارة الى خطأ اساسي ارتكبه  
السياسة الاميركية الانهزامية في المنطقة  
عبر الفرضية القائلة بان المشكلة المركزية  
في الصراع العربي - الاسرائيلي هي  
« مشكلة فلسطين » . وفي حين توجد  
مشكلة تتعلق بفلسطين ، فانها « ليست  
مشكلة العرب الفلسطينيين » ، وانما ان  
فلسطين هي بلد « تتنازع عليها قوميتان  
احدهما فقط مستعدة للتوصل الى حل  
وسط » . ويهاجم تشوريا فكرة الدولة  
الفلسطينية ، مؤكدا ان الحل في هذا  
المجال يكمن في تفاهم « اسرائيلي -  
اردني » .

وينهي تشوريا كتابه في الفصل  
العاشر الذي يحمل عنوان « الامن  
والسلام لغرب » ، والذي يكرر فيه  
اهم الاراء التي تضمنها الكتاب .  
ويشدد تشوريا على ضرورة اعادة النظر  
في السياسة الاميركية تجاه المنطقة ،  
واتباع سياسة اكثر صراحة واكثر  
دعما « لاسرائيل » ، مؤكدا ان اعمدة  
الاستقرار في المنطقة هي « تركيا ،  
وايران ، واسرائيل امنة » .

ولئن كان كتاب تشوريا اشبه بمناقشة  
داخلية تعكس احدى وجهات النظر  
الاساسية في الخريطة السياسية  
الاميركية ، فانه كتاب على قدر كبير  
من الاهمية بالنسبة للقارئ العربي المهتم  
بشؤون فلسطين والمنطقة العربية ، نظرا  
لما يقدم من تصور متكامل « لقضية  
الشرق الاوسط » من ضمن منظور  
الاستراتيجية العالمية الاميركية .

بالعلاقات السورية - الاردنية والتدخل  
السوري في لبنان ، ذلك التدخل الذي  
« استهدف خلق منطقة نفوذ » مقصورة  
على طرف واحد ، او بكلمات اخرى  
خلق « محمية » . وينتقد تشوريا  
السياسة الاميركية تجاه لبنان ، مؤكدا  
ان هذا القطر « سيصبح دولة مواجهة  
اضافية » .

وينتقل تشوريا الى الفصل السابع ،  
الذي يعالج فيه « مناقسات الخليج  
الفارسي في معادلة موسكو » . ويبدأ  
تشوريا فصله هذا بالاشارة الى ان  
المنافسة بين العرب والمنافسة العربية -  
الايرائية تكون الموضوع المهيمن في  
الناطق المتاخمة « للخليج الفارسي »  
عندما تغيب المواجهة مع « اسرائيل » .

ويستعرض تشوريا الوضع في منطقة  
الخليج ، ثم ينتقل الى مشكلة الاكراد ،  
حيث « كان الدور الاميركي في التخلي  
عن النضال الكردي واضحا ، ويشكل  
مثالا اخر للعقلية الانهزامية المسيطرة  
على دبلوماسيتنا في المنطقة » . ثم ينتقل  
الى موضوع « النفط العربي والتهديدات  
للامن الغربي » في الفصل الثامن من  
كتابه ، حيث يؤكد اهمية الموارد النفطية  
في المنطقة ، لينتقد الدور الذي تلعبه  
شركات النفط الاميركية بما لا يتناسب  
و « مصالح الامن القومي الاميركية » ،  
ولينتقد سياسة المهادنة تجاه منظمة  
« اوبك » ، قبل ان يحاول تنفيذ الرأي  
القائل بان التخلي الاميركي عن الالتزامات  
تجاه « اسرائيل » يضمن استمرار تدفق  
النفط . ويؤكد في نهاية ذلك الفصل ان  
مصلحة الدول النفطية تكمن في التحالف

طاهر عبد الحكيم ، كارتر والتسوية في الشرق الاوسط  
( دار ابن خلدون ، بيروت )

النقط فيضعف الاثر السياسي له في  
الهيمنة الامريكية على السوق  
الامبريالية -

يواكب عبد الحكيم اذن في تحليله  
شومسكي في كتابه « الحرب والسلام في  
الشرق الاوسط » ، لكن عبد الحكيم يبحث

في المستجدات أيضا ، المتولدة من  
الحركة السياسية في الشرق الاوسط ،  
والوضع الامريكي ، ومن الازمة الشامله  
التي تأخذ بعنق الانظمة الامبريالية -

ولكي نتلمس مفاتيح الموضوع ينبغي  
ان نتلمس بشكل مواز مفاتيح السياسة  
الامريكية في الشرق الاوسط ، واثر هذه  
السياسة على الدور العالمي للسياسة

الامبريالية الامريكية - فمفتاح الشرق  
الايوسط هو البترول ، وهذا المفتاح الذهبي  
هو الاداة الامريكية لاختضاع سياسات

واقتصاديات حلفاء امريكا ( اليابان  
وأوروبا الغربية ) لمصالح سياسات  
واقتصاديات الاحتكارات الامريكية - يسير

البترول اذن ككيان اقتصادي واداة  
سياسية تفرض الحرب والسلام في الشرق  
الايوسط ، وتفرض ايضا الهيمنة الامريكية  
على الحلفاء - ولما كانت اليد الامريكية

قد ضعفت في الحقبة ما قبل الكارترية -  
كما تشير الوقائع ويشير المراقبون  
- وجعلت حلفاء امريكا يتصرفون بشيء

من الاستقلالية ، اصبح من المطالب  
امريكا « اعادة تنظيم الامور » و « رص

صدر حديثا عن دار « ابن خلدون »  
كتاب يعالج مسألة راهنة ومحورية .

« كارتر والتسوية في الشرق الاوسط »  
بقلم طاهر عبد الحكيم الذي نشرت له  
نفس الدار سابقا « الاقدام العارمة » .

والكتاب يتضمن جملة مقالات تحاول  
رصد السياسة الامريكية واستراتيجيتها  
الشاملة في الشرق الاوسط في « الحقبة  
الكارترية » وتلمس مصائد هذه

السياسة ، وأركانها ، ومركباتها التي  
تنطلق من قاعدة محددة المعالم ، وتسعى  
الى الوصول الى غايات محددة المعالم  
أيضا - نقف في كتاب طاهر عبد الحكيم

أمام عدة فصول تشير الى المشروع  
الامريكي الذي « يحمل » كارتر رايته :  
اللجنة الثلاثية وحكومة كارتر - السياسة  
الامريكية في رئاسة كارتر - حكومة كارتر

والشرق الاوسط - كارتر ومشروع السلام  
الامريكي - الصهيوني - كارتر : الى اين  
يقود مسيرة التسوية .....

يعتمد طاهر عبد الحكيم في تحليله  
اطروحة كلاسيكية وصحيحة ، مبتدئا  
من نقطة كل بدء وكل منتهى : نقط الشرق

الايوسط والسيطرة عليه والسياسة  
الامريكية التي تحور وتتحرك وتتطور كي  
تمتلك هذا النقط استراتيجيا ، وتبعد  
عنه كل « شر » او داع للتغيير

والثورة - يبدأ البحث اذن بجذر كل  
الجذور : البترول والسيطرة عليه ،  
واجتثاث كل ما من شأنه ان « يلهب »

والهيمنة الامريكية بشكل خاص ، ولتجد الشفاء اللازم لهاتين الازمتين اعتمادا على قيادة امريكية مسلحة بالنفط .

انتقلت سلطة اللجنة الثلاثية بعد نجاح كارتر من القوة الى الفعل ، وبدأت بما يجب ان يكون البدء : الشرق الاوسط ، ليس لانجاز تسوية بين الدول العربية واسرائيل ، بل لتنشيط جميع القوى الموالية لها ، والكفيلة بانجاح المخططات الامريكية اللازمة لتأمين سيطرة امريكية مباشرة على المنطقة ( النفط ) ، تكون قاعدة لفرض الزعامة الامريكية « الكاملة » على الدول الغربية واليابان .

اخلاصا منها للفكر البراغماتي الذي لا يؤمن بالنظرية الا بقدر « مردودها » المباشر ، بدأت « اللجنة الثلاثية » المجسدة في حكومة كارتر بالتعامل مع المسوس ، مع اطراف اللعبة المباشرة ، زادت من ضغطها على منظمة الاويك وعملت على تخريبها ، وجعلتها هدفا مستمرا لحملات الاعلام الغربية والامريكية ، مصورة اياها كسبب وحيد للزامة الاقتصادية التي تجثم فوق البلدان الرأسمالية ، وللتضخم النقدي وارتفاع الاسعار ، اي ان « اللجنة » تحركت باتجاه جعل أمريكا « صاحبة القرار » في عالم النفط .

توجه كارتر منذ البدء الى الشرق « حالما » بالسلام وتأمين الحقوق ، ومد يده مضافا « اطراف الصراع » ، ونما « منطقه » باتجاهين ، اولهما سرمدي في ثباته ، والاخر غائم ، زئبقي ، يتمدد ويتقلص حسب « المناسبات » . يقول المنطق الاول بـ « العلاقة الامريكية - الاسرائيلية الابدية » ، وبالدعم الثقافي ، وبحق اسرائيل في الوجود ، وحقها

صفوف الحلفاء » . من هنا بدأ العمل لهندسة جديدة تسببا للسياسة الامريكية ويلعب فيها البترول دور القائد ودور الفصل . وهكذا ولدت اللجنة الثلاثية . فما هي هذه اللجنة ؟

أسس دافيد روكفلر « اللجنة الثلاثية » في تموز ١٩٧٣ بغية « تنمية » العلاقات بين امريكا واليابان واوروپا الغربية ، وشملت هذه اللجنة ٢٠٠ عضو من البلدان المعنية منهم ٧٠ عضوا من الولايات المتحدة . واذا كانت « مناقشة المشكلات السياسية والاقتصادية والامنية المشتركة » هي القاعدة العامة الظاهرية لعمل هذه « اللجنة » فان مشكلة الطاقة كانت في صميم هذا العمل وبؤرته . ولعرفة اهداف هذه « اللجنة » ومنحاهما ينبغي معرفة الاسماء الامريكية التي ساهمت في ائيتها وحركتها ثم « استثمرت » هذه الحركة ووصلت الى مكان القيادة : الرئيس جيمي كارتر ووزير خارجيته سيروس فانس ، بريجنسكي الذي كان مديرا للجنة ثم اصبح فيما بعد كبير مستشاري كارتر للشؤون السياسية اثناء الحملة الانتخابية ، واخيرا رئيس

مجلس الامن القومي . اما الحضور اليهودي فكان كثيفا ، بلا شك ، في اللجنة ، ثم انتقل بكثافته ودوره الى جهاز الرئيس المنتخب : يول رانسك ، ريتشارد جارندر ، هنري أوين ، روبرت روزا ، ويتبوا جميعهم الان مناصب قيادية . بدأت اللجنة بـ « التشاور » ثم انتقلت الى الحركة بعد ان رسمت سياسة المستقبل لتصل في النهاية الى المكان الذي ينقل الفكر السياسي الى حيز التطبيق . بمعنى اخر : خلقت الاحتكارات الامريكية اللجنة لتعابن وتدرس مركبات ازمة العالم الرأسمالي بشكل عام ، وازمة « الهيبة »

الايوسط . اما « العارض » فهو التسوية .  
لنر ذلك بشكل اكثر وضوحا .

بدأ كارتر في الحديث عن « تسوية شاملة عادلة » ثم انتقل الى « وضوح » متدرج قارب المنطق الاسرائيلي الذي درجة التناظر ، دفعه « الوضوح » فتكلم عن « الحدود التي يمكن الدفاع عنها » بعد ان كان الموقف الامريكي يتحدث سابقا عن « تعديلات طفيفة في الحدود » ، وبعد ذلك دخلت مصطلحات جديدة وهي « الحدود الامنة المعترف بها » والتي تختلف عن « الحدود التي يمكن الدفاع عنها » ، وبين الامن والدفاع تتلاشى الحقوق العربية وتصبح الارض المحتلة ملكية شرعية اسرائيلية .

« ان مشروع كارتر - في التحليل النهائي - هو خريطة للتوسع الصهيوني في الاراضي العربية ، وللتواجد العسكري الامريكي في قلب المنطقة العربية ، تحقق به الولايات المتحدة سيطرتها الاستراتيجية على شرق البحر الابيض المتوسط من ناحية وتقيم من الناحية الثانية سلسلة من القواعد تكمل بها تطوير منابع النفط العربية من الشمال - ص ٦٨ - » .

وهكذا يتقدم « السلام الامريكي » عادلا ، فيصبح كوميديا سوداء في المكان والزمان ، في حجم المكان « المعطى » ، وحجم المكان « المستعاد » ، وفي « زمان العطاء والاستعادة » :

- « في المرحلة الاولى التي قد تمتد الى ثماني سنوات - كما قال كارتر - ستقام مناطق عسكرية يعرض ٢٠ كيلومترا او اكثر ترابط فيها قوات صهيونية وقواعد الكترونية اميركية » .

- « تعفي المرحلة الاولى اسرائيل من الانسحاب الى خطوط ١٩٦٧ لمدة قد تصل الى ثمانية اعوام ، كما تعفيها

ايضا بالتمتع بعلاقات كاملة مع جيرانها » . اما المنطق الثاني فلا يقدم على مستوى التسوية الا قبضة من القش يطالب مقابلها بتنازلات بلا نهاية وبحلولات سياسية واقتصادية .

تحرك كارتر بروح كيسنجر واضععا « التسوية والسلام » بين قوسين ، طامحا بتشكيل منطقة عربية خاضعة لامريكا ، منطقة عربية - امريكية تحت زعامة اسرائيل وحمايتها ، اي ان السياسة الامريكية تهدف الى خلق جو ملائم ومتناغم تحل فيه المشاكل والتناقضات تحت الرعاية الامريكية ، من دون وجود اي « عنصر غريب » عن « العائلة » وخاصة الاتحاد السوفيتي الذي س « يشكل » العدو الرئيسي لهذه « العائلة الامريكية » .

عندما تعمل السياسة الامريكية تجود بالمصطلحات ، فتهدهد « احلام الاصدقاء » وتنتثر الغبار والضباب والوعد والوعيد ، تتكلم عن « الخيارات المفتوحة لبناء الثقة ولحماية الجانيين » و « السياسات الواقعية الضرورية » ، « التسوية العربية - الاسرائيلية الشاملة » ، كما تتكلم عن « كيان فلسطيني » تنمو مواصفاته باستمرار فيصبح : « مرتبطا بالاردن » ثم ذا « علاقة وثيقة باسرائيل » ، ثم « منزوع السلاح » ، واخيرا تختفي مواصفات هذا الكيان عندما ينتهي حتى على مستوى الكلام والتصريحات .

اذا رجعتنا الى « سياسة كارتر » وبحثنا فيها عن العارض والجوهري ، عن ثوابتها التي تمنحها وضوح العمل والرؤيا ، وغيمية التصريح ، نجد ما يلي : الجوهري هو حماية اسرائيل ودعمها مهما كان شكل سياستها ، وتأمين هيمنة امريكية استراتيجية في الشرق

« مشكلة » الشرق الاوسط ، بل يحصل تناقض الحكومات العربية مع اسرائيل سواء عادت « الارض السليبية » ام لم تعد .

ويمثل النظام الساداتي تجسيدها ابداعيا لمفهوم التسوية في البيت الابيض، فهو قد انسحب من الصراع من دون ان ينتظر تحقق الوعود ، وانضبط فسي لصفوف الموالية لامريكا مقاتلا في زائير والصومال بانتظار اماكن اخرى .

يربط عبد الحكيم أيضا بين التصلب الاسرائيلي الراهن والسياسة الكارتزية في الشرق الاوسط انطلاقا من مفهومها البراغماتي للتسوية من حيث هي فضاء زمني رحب لتحقيق الهيمنة الامريكية ، فالبيت الابيض لا يستعجل التسوية واستمرار الوضع الراهن المتميز بـ « فترات » امريكي ، وتراجعات وتناسلات عربية صارخة يخدم الاهداف الامريكية حتى الاشباح ، وبذلك يتم التوافق والتنسيق بين السياستين الاسرائيلية والامريكية ، وتخطو سياسة بيقن خطوة الى الامام والوضوح تميزها عما سبقها من السياسات الاسرائيلية ، فحزب العمل كان ينادي ايضا بسياسة ضم الاراضي المحتلة لكنه كان يقول بذلك انطلاقا من « الضروريات الامنية » اما كتلة ليكود فتنتقل في سياسة أضم مما تسميه بالحق التاريخي ، لا يعني ذلك ان حزب العمل لم يكن يتكلم عن الحق التاريخي المزعوم بل يعني أن الشروط السياسية في الشرق الاوسط قد تغيرت بمنحى يسمح لاسرائيل ان تأخذ كل ما تريد مدعومة بموافقة امريكية حازمة ، بمعنى اخر « ان الظروف الان ناضجة لكي تثبى الولايات المتحدة علنا مشروع « اسرائيل الكبرى » ، وهي مطمئنة الى

من توضيح الحدود السياسية النهائية » .  
- « على الانظمة العربية ان تعترف رسميا بحق اسرائيل في الوجود وان تقيم معها علاقات طبيعية تجارية وسياسية وسياحية ... » .

ان المدة اللازمة لتحقيق التسوية الامريكية - على ما يبدو - ستستمر سنوات طويلة . وهذه الحقبة الزمنية « الطويلة » ضرورية من وجهة النظر الامريكية والاسرائيلية لسببين : اولهما ، اعطاء « العرب » فرصة تاريخية يبرهنون خلالها عن قبولهم لاسرائيل ، ويتعاملون معها كجار ودود وحليف مخلص ، واي بادرة من طرفهم لا توحى بالثقة لاسرائيل من شأنها ان « تعرقل » من مسار التسوية . والسبب الثاني هو تأمين الوجود الامريكي لفترة طويلة كافية لصنع حكومات واحلاف وارتباطات تخدم الاستعمار الامريكي حاضرا ومستقبلا .

وهكذا يتابع كتاب طاهر عبد الحكيم حركة المنطق السياسي والامريكي مظهرا الجوهري والعارض . فما هي دلالة « التسوية » في هذا المنطق ؟

ان التسوية لا تشكل هدف السياسة الامريكية في الشرق الاوسط بل هي الوسيلة التي تستعملها وتلوح بها لدفع الانظمة العربية في الطريق الامريكي لخلق جملة شروط جديدة تسمح بتحالف عسكري عربي - صهيوني - امريكي من شأنه حماية المصالح الامريكية وحماية الانظمة العربية نفسها ، وبذلك تستبدل التناقضات وتتغير الدلالات ، ويصبح تناقض الحكومات العربية المروضة امريكا مع شعوبها مسو التناقض الرئيسي . ومعنى هذا ان التسوية هي مفهوم استعمالي وبراغماتي لا يحصل

تتعامل مع جزئيات متفرقة بل مسع استراتيجية شاملة واضحة البدايئة والنهاية .

ان كتاب طاهر عبد الحكيم يشير الى المفاصل الاساسية للسياسة الامريكية المقاتلة من اجل حلف او احلاف عربية - اسرائيلية تؤمن النفط وتقمع الشعوب وتنقل الجيوش العربية من حرب التحرير والاستقلال الى حرب كولونيالية سافرة .

وعلى الرغم من التكرار الذي يجثم احيانا فوق صفحات الكتاب ، ومن بعض الامور الهامة التي عولجت باختزال وتسرع ( الفرق بين الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي ، حدود التحالف والهيمنة بين اسرائيل وامريكا ، الفرق بين حزب العمل وكتلة ليكود . . . ) فان عبد الحكيم يعطي رؤيا واضحة لما يجري من تآمر على الوطن العربي . تآمر محكم يمكن ان يعطي نتائج مدمرة لسنوات طويلة قادمة .

ق . د

ان ذلك التيني لن يهدد مخططاتها في المنطقة بعد ان عززت طوال السنوات الماضية مواقعها جيدا فيها ، واصبحت هي وحلفاؤها من اليمينيين العرب قادرة على تطويق ، ان لم يكن منع ، اي ردود فعل ضارة بسياستها - ١٢٩ - » .

وهكذا تنمو المواقف السياسية الامريكية وتتغير بتغير الرصيد السياسي الذي تعتمد ، فالارض قد مهدت جيدا ، وما بدأه كيسنجر يثمر وينضج اكثر في زمان كارتر ، ويتمم الثاني ما بدأه الاول ، لكن توحد الاهداف لا يعني التناظر في شكل الممارسة السياسية ، فمنطلقات كيسنجر السياسية تختلف عن سياسة كارتر التي صاغها وقررها بريجنسكي رئيس الامن القومي . يقول عبد الحكيم في كتابه « بينما يخطو كيسنجر خطوات صغيرة نحو مستقبل غير محدد المعالم ، يرى بريجنسكي انه ينبغي اولا تحديد شكل التسوية القادمة بعد ذلك يمكن السير بخطوات صغيرة نحوها ، بما في ذلك بعض الاختيارات المفتوحة لبناء الثقة ولحماية كل من الجانبين - ص ٤٦ - » . اي ان السياسة الامريكية الراهنة لا

حسين ابو النمل : الضفة والقطاع ٦٧ - ١٩٧٨ بين اللاحق والدمج  
( مركز الابحاث وقسم الدراسات في صامد - بيروت : ١٩٧٨ )

مشروع يبجن للحكم الذاتي المقرون بسلام اقتصادي بين العرب واسرائيل » . تقع هذه الدراسة في ٢٢٠ صفحة ، وتنقسم الى ثلاثة فصول كما تشتمل

الكتاب هو « دراسة للتحويلات السكانية والاقتصادية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ودلالاتها السياسية والاحتمالات المستقبلية واهداف



والتحويلات الخارجية ، والتجارة الخارجية .

يخلص الكاتب في هذا الفصل الى مجموعة من النتائج المهمة : فالموارد البشرية « عانت من عملية تبديد مزدوج تمثلت في استمرار تدفق الايدي العاملة الى الخارج من ناحية ، وفي ابتلاع الاقتصاد الاسرائيلي لما يزيد على ثلث القوى العاملة من ناحية اخرى . وكذلك فان ارقام الناتج القومي ، التي تشير الى معدلات زيادة قياسية ظاهريا ، تخفي الانعكاسات الاجتماعية السلبية للنمو الاقتصادي الحاصل في المناطق المحتلة : فمثلا ازداد اجمالي الكثافة السكانية في غرفة الواحدة في الضفة من ٢٠٧ الى ٣٠٢ شخص وفي القطاع من ٢٠٧ الى ٢٠٩ شخص للغرفة الواحدة في العامين ١٩٦٨ و ١٩٧٥ على التوالي ، كما ان النمو الاقتصادي كان مصحوبا بتناقص في عدد الطلاب . ومن جهة ثانية ، فان معدلات تزايد الانتاج القومي في المناطق المحتلة لا تعكس متانة الاوضاع الاقتصادية بقدر ما تعكس اثر العوامل

الاقتصادية الخارجية وفي مقدمتها تدفق التحويلات من الخارج ، وفيما يتعلق بالتجارة الخارجية للمناطق المحتلة توصل الكاتب الى الكشف عن سمتين اساسيتين تطبعانها وهما : « التدهور المستمر في الميزان التجاري » و « ابتلاع السوق الاسرائيلية لسوق المناطق المحتلة » .

ان الاستنتاج الرئيسي الذي يتوصل اليه الكاتب في الفصل الثاني هو التالي : « ان التطورات الاقتصادية بين ١٩٦٨ - ١٩٧٥ في الضفة الغربية وقطاع غزة قد انتهت الى ابتلاع شبه كامل من قبل اسرائيل لاقتصاديات المناطق ، وتحولت الى سوق لاستهلاك البضائع الاسرائيلية ، ولد السوق

على ملحقين ، احدهما مذكرة يسرائيل كينينج ، والثاني مقابلة اجرتها صحيفة هآرتس الاسرائيلية مع موشي دايمان بشأن موقفه من قيام دولة فلسطينية .

يتناول الفصل الاول « الاوضاع والتطورات السكانية » في الضفة والقطاع ، مع التركيز بشكل خاص على الهجرة ، او بتعبير اصح على سياسة التهجير التي تتبعها اسرائيل تمشيا مع مصلحتها في احتلال الاراضي وتفريغها من سكانها العرب ، مغلبة بذلك الاعتبارات السياسية على الاقتصادية . ويؤكد الكاتب في هذا الفصل على الترابط بين الهجرة والاوضاع الاقتصادية . ف وراء الهجرة تكمن عوامل اقتصادية عدة منها تباطؤ نشاط الاقتصاد ومحدودية فرص العمل في المناطق المحتلة ، بالاضافة الى الاغراءات المالية التي تقدمها الدول النفطية . ويخلص الكاتب الى الدعوة الى ضبط الهجرة بالشكل الذي يضمن المصلحة الاقتصادية لمواطني المناطق المحتلة والمصلحة السياسية الفلسطينية العليا .

اما الفصل الثاني من الكتاب فيتناول « الاوضاع والتطورات الاقتصادية » في المناطق المحتلة . يبدأ هذا الفصل بعرض سريع للاوضاع الاقتصادية في مرحلة ما قبل ١٩٦٧ ، باعتبار ان مثل هذا العرض يتضمن المقدمات الضرورية لتوضيح السياسة الموضوعية مسبقا من قبل اسرائيل واستجابة ظروف المناطق المحتلة لهذه السياسة .

ثم ينتقل الكاتب الى عرض التطورات الاقتصادية في الفترة ٦٧ - ١٩٧٥ متناولا المجالات التالية : الموارد البشرية ، الطاقة العاملة وتركيب اليد العاملة ، الموارد الاقتصادية غير البشرية واستعمالاتها ، الناتج القومي ، ميزان المدفوعات

والاسرائيلي بحاجته من اليد العاملة غير الفنية ، وهو الخط التقليدي الذي تقيمه الدول الامبريالية مع مستعمراتها ، ( ص ١٢٩ ) .

لا يقف الكاتب عند حدود الخلووس الى استنتاجات اكااديمية باردة معزولة عن حرارة النضال الفلسطيني ، كما انه لا يقع اسير نظرة « اقتصادية » ضيقة تغفل الاعتبارات السياسية والايديولوجية لدى وضع القرار ، او تجعل هذه الاعتبارات امورا ثانوية تتقرر اتوماتيكيا بنتيجة الاعتبارات الاقتصادية . الاقتصادي ، رغم اهميته الحاسمة ، لا ينفي السياسي . وانسه فقط ضمن العلاقة الجدلية المعقدة بين ما هو اقتصادي وما هو سياسي ، و فقط ضمن الاشكال المحددة المتميزة التي ترتديها هذه العلاقة ، يمكن للاستنتاجات التي يتوصل اليها الباحث - اي باحث - ان تكون صحيحة من جهة وعملية من جهة اخرى .

وهكذا فان الكاتب يخصص جزءا كبيرا من الكتاب للاجابة على السؤال السياسي التالي ، بعد ان عرض في الفصلين الاول والثاني خلقية اقتصادية لا بد منها .

والسؤال هو : هل من الممكن ان نتوقع انسحابا اسرائيليا طوعيا في ضوء الامة التي تمثلها المناطق . بالنسبة لاسرائيل ؟

في الفصل الثالث يجيب الكاتب على هذا السؤال بالنفي من خلال تصديده للبرهنة على صحة المقولة التالية : الانسحاب من المناطق المحتلة يتعارض بشكل قاطع مع طموحات الحركة الصهيونية ومصالح اسرائيل . فالحركة الصهيونية تحتاج فسي مشروعها الاستيطاني الى مزيد من الاراضي والموارد العربية بحيث تضمن للمستوطنين الصهاينة تمايزهم وارتقاءهم الطبقي .

واسرائيل تريد الارض والسلام معا ، واذا خيرت بينهما فانها تختار الارض . انها ترهف لسلام - الصلح وانهاء حالة الحرب - بعلاقات طبيعية مع العرب وخاصة علاقات اقتصادية معهم . وكذلك ، فان الاقتصاد الاسرائيلي كان يعيش في عام ١٩٦٧ نهاية مرحلة خلق وبناء الاصول ويستعد لدخول مرحلة تشغيل هذه الاصول . وقد جاءت النتائج التي ترتبت على حرب حزيران ( يونيو ) لتحل اعنف ازمة مر بها الاقتصاد الاسرائيلي . ففي حين قدمت المناطق المحتلة حوالسي مئة ألف عامل ، فانها في الوقت ذاته قد قدمت حوالسي مليون وربع مليون مستهلك جديد . ويؤكد الكاتب في هذا المجال ان اهمية اليد العاملة من المناطق المحتلة تتعدى اهمية الـ ٥٪ التي يشكلونها من اجمالي العاملين ، باعتبار انهم يوجهون اساسا الى قطاع الانتاج - خاصة الزراعة والبناء ، بالاضافة الى ان اليد العاملة العربية ساهمت في توفير حل لعدم التوازن بين العمل الفني والعمل غير الفني وفي التخفيف من عدم التوازن بين قطاعي الانتاج والخدمات . وعليه ، فانه سواء اتم الاستغناء عن هذه اليد العاملة طوعا او قسرا ، فان اسرائيل ستكون في مأزق لن تستطيع الخروج منه لان هذا يستدعي منها اعادة النظر في هيكل القوى العاملة الاسرائيلية وطريقة توزيعها على الفروع الاقتصادية والمهن المختلفة ، الامر الذي يترتب عليه المساس بالموضوع الاكثر حساسية بالنسبة لاسرائيل ( اي الهجرة ) ، بالاضافة الى مجموعة نتائج « سلبية جدا » على جملة منطلقاتها ومركزاتها الايديولوجية والطبقية .

تكمُن أهمية هذه الدراسة في منهجها العلمي القائم على ربط الابعاد السياسية والاقتصادية في وحدة عضوية ، على

يمكن تسميته على الأرقام - إلا أن هذه البيانات والتحليلات لم تشمل على جانب أساسي ، وهو مساهمة القطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي في الفترة موضع البحث . كان ينبغي أن يشمل الكتاب على جدول واحد على الأقل يوضح تطور مساهمة قطاعات الاقتصاد المختلفة من زراعة وصناعة خاصة ، ومن كهرباء وماء وبناء ومال وتجارة وخدمات أخرى . ويمكن في هذا المجال المقارنة بين مساهمة هذه القطاعات ومساهمة عوائد عوامل الإنتاج من الخارج . كما يمكن أن يشمل الجدول على أنسب المثوية لمساهمة تلك القطاعات على امتداد الفترة ١٧ - ١٩٧٥ . وكان ينبغي تحليل دلالات هذا الجدول : ما هي القطاعات التي ازدادت مساهمتها وما هي القطاعات التي نقصت مساهمتها لماذا ؟ ماذا يعني ذلك من حيث التوازن ( أو بالأحرى مقاومة الاختلال في التوازن ) بين تلك القطاعات ؟ ثم ليس وجود هذا الاختلال هو الوجه المكمل للتوازن الإضافي الذي حققه الاقتصاد الإسرائيلي ؟ وماذا يعني ذلك الاختلال من حيث أثره في حركة اليد العاملة في الضفة والقطاع سواء إلى مناطق ١٩٤٨ أو إلى الخليل ؟ ثم ليس هذا الاختلال هو النتيجة المنطقية للعلاقة الامبريالية التي تربط إسرائيل بالمناطق المحتلة ؟ وايضا : ما هو انعكاس ذلك الاختلال على موقف الطبقات الاجتماعية المختلفة ( التي تحتل مواقع مختلفة في سلم الإنتاج ) من النضال الوطني الفلسطيني ، وما هو في المقابل انعكاس ذلك على البرنامج السياسي الوطني ؟ هل يمكن القول مثلا أن تدهور القطاع الزراعي في المناطق المحتلة وما رافقه من تحوّل الفلاحين إلى « بروليتاريا » في قطاعات

تقديم أنبيانات الضرورية دخولا على الاستنتاجات المنطقية القائمة على أساسها ، وعلى الالتزام السياسي الذي لا يشكل قيدا إضافيا للبحث نتيجة انطلاقه من قناعات مسبقة بقدر ما يشكل البحث اغناء وتعميقا وترسيخا لهذا الالتزام . ليست هذه الدراسة مثلا على الأكاديمية الشكلية الميتة . أنها محاولة لشحذ السلاح النظري للنضال الوطني الفلسطيني ( ولعل هذا هو السبب في أن السلطات الإسرائيلية سارعت إلى وضعها في قائمة المطبوعات المحظورة ) .

ولأنها كذلك ، ولأنها « لا تدعي لها موقعا خاصا » - على حد تعبير الكاتب ، فإننا نورد هنا مجموعة من الملاحظات الأولية والمتفاوتة الأهمية :

١ - أن طريقة احتساب « الحد الأدنى المتوقع لعدد السكان » ( ص ٣٠ ) ليست دقيقة . فمن الواضح في هذه الطريقة أنها تتناول فقط الزيادة البسيطة في عدد السكان ، وذلك عوضا عن الزيادة المركبة - وهي الأصح . وهكذا مثلا فإنه بدلا من الرقم المستخرج والبالغ ٤١٢٤٦٤ فإن الرقم الصحيح هو ٤٢٢٢٤٨ محسوبا حسب المعادلة التالية :

الحد الأدنى لعدد السكان المتوقع سنة ١٩٦٧ = عدد السكان سنة ١٩٥٣ × ( ١ + الزيادة السنوية الصافية معبرا عنها بالنسبة المئوية ) = ١٤ = ٣٠٦٢٧٠ ( ١ + ٠.٢٥ ) = ٤٢٢٢٤٨ .

( وعلى كل حال ، من الواضح أن هذه الملاحظة ليست أساسية كونها لا تؤثر في الاستنتاجات الرئيسية التي توصل إليها الكاتب ) .

٢ - بصدد الإنتاج القومي : رغم وفرة البيانات المتعلقة بالإنتاج القومي والدقة في تحليل دلالاتها - دون الوقوع في ما

التركيب السلمي في الفترة ٦٧ - ١٩٧٥ ؟  
ثم ما هي انعكاسات كل ذلك من حيث  
الطابع اللاحقي للعلاقة بين الاقتصاد  
الاسرائيلي واقتصاد المناطق المحتلة ؟  
وما هي انعكاساته السياسية ؟

٤ - بصدد الاستنتاج السياسي الرئيسي  
القاتل باننا يجب الا نتوقع انسحابا  
اسرائيليا طوعيا من المناطق المحتلة :  
يمكن القول ان للاستنتاج الذي توصل  
اليه الكاتب ، وبالشكل الذي اورده فيه ،  
خلفية سجالية واضحة ، ذلك ان الكاتب  
يصوغ استنتاجه وفي ذهنه مقارعة  
الدعوات الاستسلامية التي يجري الترويج  
لها في سوق السياسة العربية . لكن هذه  
الصياغة ، رغم مشروعيتها ، تتكبر  
انطباعا بقطعية الاستنتاج المذكور  
وجزمه ، مما لا يتطابق مع كامل المعطيات  
التي يوردها الكاتب ذاته او مع وقائع  
اخرى لم يتطرق اليها . فالكاتب يشير  
الى ثلاثة عوامل رئيسية تجعل اسرائيل  
غير مستعدة للتخلي عن الاراضي المحتلة ،  
وهذه العوامل هي : اولاً ، حاجة  
اسرائيل الى اليد العاملة التي تليها  
المناطق المحتلة وبالتالي النتائج السلبية  
التي ستواجهها اسرائيل في حال  
انسحابها نتيجة « لاعادة توزيع هيكل  
الييد العاملة اليهودية » . وثانياً ، حاجة  
اسرائيل الى القوة الشرائية المتمثلة في  
حوالي مليون وربع المليون من سكان  
هذه المناطق وبالتالي النتائج السلبية  
للانسحاب على مقدرة الاقتصاد الاسرائيلي  
على النمو ، بل ومقدرته على المحافظة  
على مستوياته الانتاجية الحالية . وثالثاً ،  
ان الانسحاب الاسرائيلي يمس اكثر  
المواضيع حساسية بالنسبة لاسرائيل الا  
وهو تهجرة ومعها الايديولوجيا  
الصهيونية بوجه عام .

يبقى الان ان نطرح مجموعة من

الانتاج الاسرائيلية قد ادى الى تعميق  
اسهام ائريف في النضال الوطني ، ام ان  
ادى الى تمركز هذا النضال في المدن  
بصورة حاسمة ، ام ماذا ؟ هل يمكن القول  
ان التطورات الاقتصادية في ظل الاحتلال  
قد ادت ، ضمن ما ادت اليه ، الى نشوء  
« كومبرادور » يلعب دور الوسيط بين  
الاقتصاد الاسرائيلي وسوق المناطق  
المحتلة ، « كومبرادور » معاد للنضال  
الوطني ويشكل الفئة الاجتماعية المحلية  
التي تستند اليها اسرائيل في ادامة  
الاحتلال ؟ ما هي قوة هذا الكومبرادور ،  
الاقتصادية والسياسية ١٩٧٥ الخ .

٣ - بصدد التجارة الخارجية : هنا  
ايضا يقدم الكاتب جداول مختلفة تتعلق  
بالتجارة الخارجية للضفة والقطاع :  
اجمالي الصادرات والواردات والعجز  
التجاري ، التجارة مع اسرائيل ، مع  
الاردن ١٩٧٥ الخ . كما انه يستنتج  
بحق ان نمط التبادل بين اسرائيل والمناطق  
المحتلة يمثل « النمط التقليدي الذي تقيمه  
الامبريالية مع مستعمراتها » . (ص ١٢٩)  
ان هذا الاستنتاج الصحيح كان ينبغي  
تدعيمه ببيانات حول التركيب السلمي  
للتجارة الخارجية للمناطق المحتلة ،  
ولتركيز بنوع خاص على تركيب  
صادرات المناطق المحتلة الى اسرائيل  
ووارداتها منها . فمن المعروف ان النمط  
الامبريالي التقليدي في التبادل يتضمن  
مبادلة البضائع المصنعة ( استهلاكية كانت  
ام وسيطة ام رأسمالية ) للبلد الامبريالي  
مع المواد الخام للبلد المستعمر ( بفتح  
الميم ) . وهكذا ، ما هي المواد المصنعة  
التي تصدرها اسرائيل الى المناطق المحتلة  
وما هي المواد الخام التي تصدرها هذه  
المناطق الى اسرائيل ؟ وما هو حجم كل  
من هذه المواد بالنسبة لاجمالي المبادلات  
التجارية بين الطرفين ؟ وكيف تطوّر

إسرائيل أنتي قد تعتمد الى « توطيين نصف مليون عربي ، مؤقتا ، في صحراء النقب » ( كما يقول الكاتب في صفحة ١٨٤ ) ان تتعامل مع توطيين مهاجريها هي ؟ وهل تنفي العلاقات الطبيعية مع « أنجيران » انحرب امكانية بروز استيطان صهيوني من نوع جديد : جاليات من التجار واصحاب المصارف والمستشارين والعمال الفنيين وغيرهم مع عائلاتهم على امتداد المنطقة العربية ، جاليات قد تأتي عبر اسرائيل او مباشرة من الولايات المتحدة او اوروبا او غيرها . ويكون لها حقوق اين منها الحقوق التي اعطاها نظام الامتيازات العثماني للجاليات الاوروبية منذ قرون ؟

وحتى لو جاء الجواب على كل هذه الاسئلة وغيرها على نحو يؤكد المشكلة بدل ان يحلها ، فانه ثمة بعد اخر للمسألة : الا يمكن ان تتجرع اسرائيل المشكلة في الوقت الذي تجني فيه مع الامبريالية مكاسب طائلة لم تكن تحلم بها من قبل ؟ كيف نفهم في هذا السياق « زعل » امريكا على اسرائيل ، وكيف نفهم حركة السلام الان ، وتصاعد شعبية فايتسمان على حساب بيجن ، والخلافات ضمن الحكومة الاسرائيلية : هل هي مجرد حركات في مسرحية محكمة الاخراج ، ام انها تعبير عن خلافات فعلية ضمن صفوف الصهيونية والحلف الامبريالي الصهيوني ، في اطار المصلحة الواحدة قطعا ؟ الخ .

ان هذه الاسئلة ، رغم الشكل الذي اتخذته صياغتها ، تبقى اسئلة لا اكثر ، ولكنها على كل حال اسئلة ينبغي اثارها تمهيدا للبحث فيها . والاجابة عليها ، بطريقة المنهج العلمي الذي يتبناه الكاتب . وهي مجموعها يمكن ان يشتملها سؤال كبير : ليس من الممكن

الاسئلة المتعلقة بهذه العوامل الثلاثة . الا تقدم العلاقات الطبيعية ( ومن ضمنها العلاقات الاقتصادية ) حلا للمشكلة الاولى ، بما تعنيه من استمرار لتدفق اليد العاملة من الضفة والقطاع ؟ بل ، وهو الاهم ، الا تعني تلك العلاقات توفير شروط افضل بكثير لحل المشكلة مما هي عليه الان حيث تضمن سوق عمل اوسع وايد عاملة ارخص ، واضعين في الذهن هنا سوق العمل والايدي العاملة الحصرية بخاصة ؟

وبالمثل ، الا تعني العلاقات الطبيعية حلا للمشكلة اثنائية : مشكلة القوة الشرائية الضرورية لامتصاص المنتجات الصناعية الاسرائيلية ؟ ويا لها من سوق عربية واسعة تحلم بها اسرائيل خاصة اسواق اندول النفطية حيث انماط الاستهلاك الباذخة !

وهل يبقى بعد ذلك سوى مشكلة الهجرة والايديولوجيا ، وهي بحق اكثر المشاكل حساسية وتعقيدا ؟ ولكن ، الا يمكن « تقنين » هذه المسألة في ظرف هو اكثر الظروف ملائمة للصهيونية ، ومعها طبعاً الامبريالية العالمية ، حتى لو أدى مثل هذا التقنين الى ازعاج مؤسسي الصهيونية الاوائل في قبورهم او اشارة استنكار غلاة الصهاينة الاحياء ؟ ام هل ان مثل هذا « التقنين » يعني التخلي بالفعل عن جوهر الصهيونية ؟ والاجابة على هذا السؤال تقتضي الاجابة على سؤال آخر : هل الصهيونية حركية يهودية تستهدف اساساً جمع شتات يهود العالم في « ارض الميعاد » ، ام هي بالاساس حركة البرجوازية اليهودية في عصر الامبريالية مستندة الى « المسألة اليهودية » التي عرفتها اوروبا منذ قرون والتي اتخذت شكلاً مأساوياً في ظل الاضطهاد اذنازي ؟ ثم ليس الاخرى

المسلح هو الطريق الى الانتصار .  
 وغني عن القول ان الملاحظات السابقة  
 لا تنتقص من اهمية الكتاب موضع  
 المراجعة بقدر ما تهدف الى الاسهام في  
 اغناء الموضوعات التي تناولها الكاتب  
 وحفز الدعوة التي تبناها : الدعوة الى  
 دراسات اخرى اكثر تفصيلية تمس  
 الجوانب المختلفة لوضع المناطق المحتلة،  
 دون البعد عن التأثير في القرار السياسي  
 الفلسطيني .

خالد عايد

ان تنسحب اسرائيل عسكريا من معظم  
 المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ لقاء احتلالها  
 لمعظم المنطقة العربية اقتصاديا ( تحت  
 غطاء « السلام الاقتصادي » ) ؟ والقيمة  
 العملية للاجابة على هذا السؤال ينبغي  
 ان لا تخفى على احد : فالاجابة بالنفي  
 تعني قبر الازهام المتعلقة بالانسحاب  
 الاسرائيلي الطوعي ، اما الاجابة بالاجاب  
 فيعني قطع الطريق سلفا على ادعاءات  
 الانظمة المستسلمة حول تحقيق عبور  
 جديد ، في حال تم الانسحاب . وفي  
 الحالتين يبقى العنف الجماهيري الثوري

صدر حديثا عن مركز الابحاث

كتاب

التركيب الاقتصادي الاجتماعي لشرق الاردن

( مقدمات التطور المشوه )

١٩٢١ - ١٩٥٠

تأليف

هاني حوراني

اطلب نسختك من : مركز الابحاث - قسم التوزيع

ص٠ب : ١٦٩١ - بيروت

سعر النسخة ١٠ ليرات لبنانية ( عدا اجور البريد )

## المقاومة الفلسطينية

### العلاقات الفلسطينية - العراقية

السادات يعد مبادرته باتجاه اسرائيل ، كان الخلاف العنيف حول نهجين في التعامل مع العدو القومي ومع مستقبل القضية الفلسطينية .

وفي كل هذه الخلافات ، هناك طرفان ، يتناقضان سياسيا ، ويعلمان تناقضهما ، ويدافعان عنه ، واحيانا بالسلاح . ومقياس تجميد هذا التناقض ، او ايجاد حل له ، او الغائه ، هو الاتفاق في الهدف السياسي للقضايا التي يثيرها الصراع العربي الاسرائيلي .

اما الخلاف الذي برز مؤخرا بين منظمة التحرير والعراق ، فله مميزات خاصة به ، ولا سابق لها في الصراعات الفلسطينية - العربية .

فالعراق في هذا الصراع ، لا يعلن انه يتناقض وطنيا مع اهداف منظمة التحرير الفلسطينية في السعي لتحرير فلسطين واعتماد الكفاح المسلح ، كما يفعل الاردن .

والعراق في هذا الصراع ، لا يعتبر انه غير معني ببناء القوة العسكرية لمواجهة اسرائيل في اي حرب تنشأ معها ، كما يفعل لبنان .

والعراق ، رغم عدم تأييده للسياسة

تميزت منظمة التحرير الفلسطينية ، ومجمل فصائل المقاومة ، وحركة فتح بالذات ، بالحرص الدائم على العلاقات العربية ، وعدم الرغبة في افتعال مشكلات مع اي بلد عربي ، حين لا يكون هذا البلد طرفا في قضية كبيرة تمس اهداف النضال الفلسطيني وغاياته .

وحين كانت منظمة التحرير تختلف مع اي نظام عربي ، فقد كانت قضايا الخلاف من الموضوع بحيث يفهم الجميع اسبابها ، ويبرر الجميع عنفها السياسي . فالخلاف مع النظام الاردني الذي وصل الى حد الصدام المسلح وانتهى بمجزرتي عمان وجرش في عام ١٩٧٠ - ١٩٧١ ، استمر بعد ذلك طويلا في معركة اعلامية وسياسية لم تتوقف اصداؤها حتى الان . كانت المعركة بين المنظمة والاردن ولا تزال ، معركة عنيفة ومصيرية ومكشوفة ، هدفها حماية التمثيل الفلسطيني للشعب الفلسطيني ، ومنع التلاعب بمصيره .

وحين اختلفت منظمة التحرير مع لبنان ، ووصل هذا الخلاف الى حد الصدام المسلح ، انتهى الصدام بتعامل بين انداد ، ويمتدح سياسي ، الى توقيع اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ ليكون اساس تنظيم العلاقات .

وحين اختلفت منظمة التحرير مع

لجر العراق الى هذه الجبهة . وقد فشلت كل هذه الجهود وبرز بالمقابل موقف عراقي يشجع ويحمي الاغتيالات ضد القيادات الفلسطينية ، كما تعلن ذلك الوثائق الرسمية الفلسطينية المقدمة للحكومة العراقية .

### اغتيال علي ياسين

وقد بدأ هذا الخلاف يعبر عن نفسه علنا ، للمرة الاولى ، بعد اغتيال علي ناصر ياسين ، عضو حركة فتح ، ومدير مكتب منظمة التحرير في الكويت (١٥/٦) . فبعد الحادث مباشرة ، وبعد الانتهاء من تشييع الجثمان في الكويت بمظاهرة شعبية فلسطينية ضخمة ، اعلن ابو اياد اتهاما مباشرا للعراق ، اوضح فيه ان العراق يحمي ( ابو نضال ) الذي نفذ هذه العملية . وفي ١٦/٦ عقدت للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير اجتماعا طارئا اصدرت على اثره بيانا قالت فيه « ان هذه الجريمة البشعة الموجهة للشعب الفلسطيني وثورته ، نفذتها ايد عميلة للصهيونية . مستترة وراء أجهزة استخبارات عربية ، وحذر البيان من ان « اللجنة تعتبر تنفيذ هذه الجريمة من قبل الجماعات المشبوهة المعروفة عملا جباناً لن تقف المنظمة امامه مكتوفة الايدي » .

وقد اعلنت منظمة مجهولة تطلق على نفسها اسم « منظمة أبناء فلسطين » مسؤوليتها عن اغتيال علي ياسين ، ( ١٧/٦ ) ، ولكن ابو اياد نفى من الكويت وجود هذه المنظمة ، واتهم ابو نضال « المنشق عن فتح واللجوء الى العراق » بالاغتيال .

ثم برز في التصريحات العلنية عامل جديد يربط بين اغتيال علي ياسين في الكويت ، واغتيال سعيد حمادي قبل اشهر

الرسمية لمنظمة التحرير ( النضال المرهلي ، والسعي لانشاء دولة فلسطينية ) لا يلغي اعترافه بمنظمة التحرير كما تفعل مصر ، بل ويقيم علاقات رسمية معها ، ويقيم علاقات وثيقة مع فصائل تلتقي معه في تكتيكة السياسي .

وبسبب هذه الاختلافات في الموقف العراقي عن موقف كل من الاردن ولبنان ومصر ، فان الصراع الفلسطيني - العراقي الدائر حالياً يشكل ظاهرة جديدة .

ان النظام العراقي يتعامل مع منظمة التحرير من موقع المتطرف والمتفوق والمتقدم ، بسبب موقفه السياسي الذي يرفض النضال المرهلي لانشاء الدولة الفلسطينية .

وهو يمارس سياسته من داخل الساحة الفلسطينية وليس من خارجها ، بحكم وجود تنظيمات موالية له كلياً .

وهو يمارس سياسته من داخل بعض التنظيمات ( فتح ) ، متبنياً بعض عناصرها ضد القيادة ( ابو نضال ) .

وهو حسب الاتهامات الفلسطينية الرسمية يشجع ويحمي خط الاغتيالات التي تمارس ضد بعض القيادات الفلسطينية .

ومن المهم التوضيح هنا ان الخلاف الفلسطيني - العراقي خلاف قديم ، يعود الى الفترة الاولى من تسلّم الحكم العراقي الحالي للسلطة في عام ١٩٦٨ ، ولكن يسجل هنا لمنظمة التحرير انها لم تبرز هذه الخلافات للسطح طوال عشر سنوات ، وبرزت بالمقابل حرصاً على استمرار العلاقات مع العراق ، وحرصاً اشد على محاولة كسبه لصف تحالفاتها السياسية والوطنية ، وحين تشكلت جبهة الصمود والتصدي لمواجهة سياسة السادات، ورفض العراق المساهمة فيها ، كان الحصر الفلسطيني واضحاً على ضرورة العمل



العميل الفار ابو نضال ومجموعته . فلقد سكتنا على اذاعة يديرها من بغداد ، وصيرنا على محاولات قام بها من قبل استهدف بها اخوة لنا قادة ومسؤولين وفشلت . ولكن الامور تطورت في الفترة الاخيرة ، فاذا بالسباب والشتم والتحريض والحقد يثمر القتل الجبان .

لقد بدأ المجرمون بالاخ المناضل الشهيد سعيد حمادي في لندن ، واجمعت جميع المصادر على ان القتل توجهوا بعد جريمتهم النكراء الى بغداد حيث وجدوا الحماية والمكافأة والامان . ثم اعترف ابو نضال عبر اذاعته وصحفه بأنه هو وجماعته قاتلو حمادي .

ثم جاءت واقعة لارنكا المشؤومة التي قتل فيها يوسف السباعي ، والعالم كله سمع اذاعتكم الناطقة باسمه من بغداد وهي تتبنى هذه الجريمة .

ثم كانت جريمة اغتيال الاخ المناضل الشهيد علي ناصر ياسين ، هذه الجريمة التي وقعت بعد سلسلة طويلة من المقالات المنشورة والمذاعة والتي تهجت فيها هذه الاذاعة على الشهيد واتهمته بمختلف التهم الكاذبة ورمته بمختلف الافتراءات التي تحض على قتله علنا . ثم جاء تصريح ابو نضال الى مجلة « الشرق الاوسط » والذي نقلته الوكالات يوم ٢٢/٦/٧٨ ، والذي اعلن فيه مسؤوليته عن هذه الجريمة النكراء .

هذه بعض الادلة القاطعة التي بين ايدينا ، تقطع بادانة المدعو « ابو نضال » وجماعته ، وترسم علامة استفهام كبيرة حول موقف حكومتكم التي تسمح لمثلها باستخدام اراضي العراق الشقيقتي وامكانياته بالاضافة الى حمايته لتنفيذ جرائمه .

لذا نرجو ان يتفهم الاخوة قادة الحكومة

في لندن ، وذكر ناطق باسم حركة فتح بالكويت ( ٦/١٨ ) ان اغتيال علي ياسين تم بنفس اسلوب اغتيال سعيد حمادي . وقال « تعرض الفقيدان قبل الاغتيال لحملة من صحيفة ابو نضال في بغداد « فلسطين الثورة » ومن « اذاعة فلسطين » التي تبث من بغداد » . وختم حديثه بالقول ان الاذاعة المذكورة اتهمت علي ياسين بأنه يمثل « سياسة عرفات الاستسلامية » . وفي ٦/٢٧ اعلن ابو جهاد في كلمة امام احدى الدورات المتخرجة « لا يضيرنا بعض الاموات التي تلعب بها الاستخبارات العربية » وهدد « ان يد فتح ان تحركت لن تكون بعيدة عن احد » .

وفي بداية شهر تموز انتقل الموقسف الفلسطيني تجاه العراق نحو خطوة عملية جديدة . ففي ٧/٤ التقى عرفات مع كوادر الاعلام الفلسطيني وابلغهم ان « الثورة تتعرض لمؤامرات امبريالية ومحاولات طعننا من قبل دول عربية تدعي وترفع الشعارات الوطنية والتقدمية » . واجتمعت اللجنة التنفيذية في اليوم نفسه بدمشق وقررت مقاطعة جميع الاجتماعات الرسمية والشعبية في العراق « نتيجة لموقف الحكومة العراقية من الثورة الفلسطينية وايواء المجرمين الاجورين والقتلة » . واقرت اللجنة نص مذكرة رسمية موجهة الى الحكومة العراقية ، جرى تسليمها للسفارة العراقية بدمشق ، ونشرتها « وفا » يوم ٧/١١ ، وطالبت المذكرة بتسليم ابو نضال لمنظمة التحرير ، وفيما يلي ابرز ما جاء فيها :

#### مذكرة اللجنة التنفيذية

« يعز علينا ان نبحث معكم قضية كانت تبدو الى وقت قريب من الخلافات الجزئية الصغيرة ، فاذا بها تكبر وتكبر حتى تكاد تقطع بيننا وبينكم ، تلك هي قضية

## رد عراقي

وفي ٧/١٥ ظهر اول رد عراقي على الموقف الفلسطيني . وقد جاء هذا الرد بطريقة غير رسمية وعلى لسان مسؤول عراقي كبير ، نشرته صحيفة « النهار العربي والدولي » الصادرة في باريس . اتهم المسؤول العراقي ياسر عرفات بأنه وراء الحملة على العراق ، وبأنه انتهز فرصة اغتيال علي ياسين ليفجر الخلافات ، وذكر أن الدوافع وراء ذلك هي الخلافات داخل فتح ، وضغط فصائل المقاومة على ابو عمار . واتهم المسؤول العراقي « الاطراف التي لها صلة بسوريا ، والاطراف التي لها صلة بالاتحاد السوفياتي » بشن الحملة على العراق - انتقاما لاعدام الشيوعيين ولتحويل الانظار عن القضايا الفلسطينية الداخلية .

وحول قضية ابو نضال قال : « لا يمكن ان نتصرف تجاهه بالطريقة التي يريدونها ، فتصرفات ابو نضال يتحمل وحده مسئوليتها ، وفي امكان عرفات ان يتفاهم معه وان يجري حوارا ، ولا يمكن ان نجبر ابو نضال ان يأخذ تحية لعرفات » .

## مذكرة فتح

وقد ردت حركة فتح على تصريحات المسؤول العراقي بمذكرة فورية وعنيفة ( ٧/١٦ ) موجهة الى الحكومة العراقية تناولت مجمل العلاقات بين الطرفين . اتهمت مذكرة حركة فتح المسؤول العراقي بقلب الحقائق ، واعتبرت ذلك دليلا على « دور غير وطني وغير قومي تمارسه الاجهزة العراقية لضرب الثورة الفلسطينية من خلال تشويه وضرب حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية » .

ونفت المذكرة ان يكون العراق قد قدم مساعدات للمنظمة زادت على مئات الملايين ، وذكرت ان العراق تهرب من دفع التزاماته لمنظمة التحرير ، واوضحت ان العراق :

العراقية موقفا حين نعتبر مساندة ومساعدة وسكوت الحكومة العراقية عن كل ما يصدر عن ابو نضال وجماعته من بغداد هو بمثابة اعلان حرب ابادة على الشعب الفلسطيني وثورته وقيادته .

... لذا قاننا نلج في المطالبة بتسليم المدعو « ابو نضال » وجماعته حقا للدماء واتقاء لما يمكن ان يترتب على جرائمه .

## مذكرة المنظمات الشعبية

وفي ٧/١٥ وجهت ٩ منظمات شعبية فلسطينية مذكرة الى المنظمات الشعبية العراقية ، ركزت على نفس نقاط مذكرة اللجنة التنفيذية ، وازافت اليها نقاطا اخرى . قالت المذكرة :

« لقد لعب النظام العراقي منذ فترة طويلة دورا اساسيا في تنفيذ مخطط جر الثورة الفلسطينية الى معارك جانبية . ان النظام العراقي لم يعد نفسه للقيام بسدور قوي خارج حدوده ، الا أنه يمارس دورا تخريبيا في الساحة الفلسطينية ، وعمد الى تبني احد الخارجين من صفوف الثورة الفلسطينية والسماح له بتنفيذ جرائمه ضد الثورة الفلسطينية وكوادرها ، والتي كان اخرها اغتيال المناضل علي ناصر ياسين » .

واضافت المذكرة « ان الحكم الانعزالي العراقي كان اول حكم يتجرأ على افسان مكاتب الثورة الفلسطينية في العراق ، ومواقفه من احداث ايلول عام ١٩٧٠ حاتلة في الاذهان عندما رفض تقديم اي عون للثورة ، وقام بفتح الطريق امام جيش الاردن لتسهيل مهمته في ضرب قواعدنا » .

ودعت المذكرة المنظمات الشعبية العراقية للتصدي للنهج التخريبي الذي يقوده النظام العراقي ضد الثورة الفلسطينية .

– صادر مصانع اسلحة انشأتها فتح •  
 – صادر مزرعة دواجن انشأت لصالح  
 اسر الشهداء •  
 – صادر مخازن ذخيرة فتح في الاردن  
 عام ١٩٧٠ والتي كانت في مناطق الجيش  
 العراقي •  
 وتطرت المذكرة الى دور النظام العراقي  
 في ايلول ١٩٧٠ في الاردن فذكرت « ان  
 الحديث عنه يطول وسنكشفه في الوقت  
 المناسب مع وثائقه » •

بلال الحسن

– اقلل مكاتب حركة فتح في العراق  
 باستثناء مكتب بغداد •  
 – استولى على ٦٠٪ من تبرعات شعب  
 العراق لصالح مكتب الكفاح المسلح الذي  
 انشاه •  
 – صادر اسلحة وردت من الصين  
 بحوالي ٥٠ مليون دولار •  
 – صادر مواد تموينية وطبية وملابس  
 عسكرية وردت من الصين بقيمة ٢٠ مليون  
 دولار •

## المناطق المحتلة

### الثورة الفلسطينية الطلابية في الجامعات الاسرائيلية

للتصريحات التي ادى بها الطلاب العرب  
 لصالح م٠ت٠ف ، بانها الممثل الشرعي  
 والوحيد للشعب الفلسطيني « ( هارتس -  
 ٧٨٤-٥ ) ، مما دعا لجنة الطلاب العرب  
 الى توزيع منشور ، تنهم فيه رئيس اتحاد  
 الطلاب في جامعة حيفا ارييه فرجون بانه  
 يعمل على طرد الطلاب العرب من الجامعة »  
 ( المصدر نفسه ) •

ولم يقتصر هذا النداء على رئيس  
 الجامعة وحسب ، بل نقله حزب الليكود  
 الى الكنيست ، حيث « طالب عضو  
 الكنيست روني ميلو من حزب ليكود ،  
 ببحث الاقتراح لمنع الطالب العربي الذي  
 يؤيد م٠ت٠ف من التحصيل الجامعي »

( هارتس - ٧٨٦-٤ ) ، وقد شاركه في  
 هذا الاقتراح « عضو الكنيست امنون لين  
 واعضاء آخرون ٠٠٠ وقرروا المبادرة  
 بوضع مشروع قانون في هذا الشأن  
 سيبحثه الكنيست بعد العودة الى العمل  
 في مطلع الاسبوع المقبل » ( المصدر نفسه ) •

منذ اكثر من نصف عام والطلاب  
 الفلسطينيين في الجامعات الاسرائيلية ،  
 يخوضون معركة يومية ومتواصلة ، اشبه  
 ما تكون بثورة فلسطينية طلابية ، ضد  
 سياسة القمع ، وكبت حرية الرأي  
 والتعبير ، والمتفرقة العنصرية ، التي  
 تمارسها « السلطات الطلابية اليهودية »  
 والجامعية بتغطية من السلطات الحكومية  
 ضد الطلاب الفلسطينيين في الجامعات  
 الاسرائيلية ، والتي بلغت ذروتها في  
 « يوم الطالب » في ٢٠-٧٨٥ ، حيث قام  
 اتحاد الطلاب في اسرائيل بحملة واسعة  
 النطاق لجمع توقيعات الطلاب اليهود على  
 عريضة تطالب بمنع مؤيدي م٠ت٠ف  
 من التحصيل في المعاهد الاسرائيلية  
 العليا ، بعد ان كان رئيس اتحاد الطلاب  
 في جامعة حيفا قد وجه نداء الى رئيس  
 الجامعة البروفيسور بن شاحر ، في  
 اوائل شهر نيسان ، طالبه باتخاذ موقف  
 في هذا الشأن « ( هارتس - ٧٨٥-٢٠ ) •  
 وقد كان هذا النداء « نتيجة »

لقبول ذلك ، لانه حصل شيء مغاير لما توقعناه عندنا ، ( المصدر نفسه ) .

الا ان هذا الصراع بين الطلاب اليهود والطلاب العرب ، ظل يخضع « حتى حسب تشريين عام ١٩٧٣ ، لنوع من التوازن بين اليهود والعرب في الحياة الجامعية ، المغطى بطبقة تلج دقيقة ، معرضة للتصدع بسهولة عند اول حركة غير متوازنة ( معاريف - ٢٠-١-٧٨ ) . وفي حرب تشريين عام ١٩٧٣ « وضع الحد الفاصل بوضوح ، بين هذا التوازن الهش ، وبين الاستقطاب القومي .» اذ في اللحظة التي عبر فيها المصريون القنال ، رفعت اول لافتة في الحرم الجامعي بصيغة : بالروح بالدم نفديك يا جليل .» وقد ادى هذا الشعار الى اول اشتباك بالايدي يمثل ذلك العنف الذي كان عليه بين الطلاب لليهود والطلاب العرب في الجامعة . . . . والصدام المعادي ، الذي كان يتململ تحت السطح ، تفاجم وانفجر الى الخارج » ( المصدر نفسه ) . بعد ان اعطى « زرع حرب الايام الستة اكله في حرب تشريين ، بين السكان العرب بشكل عام ، وفي اوساط الجيل المشاب بشكل خاص ، وعلى الاخص الطلاب » ( معاريف - ٢٠-١-٧٦ ) ، كما جاء على لسان احد الطلاب العرب « الذي امتنع عن الادلاء باسمه » ( المصدر نفسه ) ، والذي اضاف قائلا لمراسل الجريدة : « لقد اتضح لنا ، بعد حرب يوم الغفران ، باننا عشنا معكم سنين ليست قليلة ، ولا نعرفكم فلقاؤنا مع اخوتنا في الاراضي المحتلة جسد لنا الى حد نحن بعيديون عنكم وقريبون منهم » ( المصدر نفسه ) .

وكانت حدة التوتر بين الطلاب اليهود والعرب قد تصاعدت بعد حرب تشريين ، « مع تصاعد اليمين داخل الاتحادات الطلابية ، وسيطرة أعضاء حزب الليكود

ويشكل هذا الاجراء الاخير ضد الطلاب العرب في الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، اخطر خطوة ضدهم في الصراع الطويل الذي يخوضونه ضد سلطات الجامعات من ناحية ، و ضد « اتحاد الطلاب في اسرائيل » من ناحية اخرى ، وفقا لسياسة عليا تمارس ضد الطلاب العرب على مدى ثلاثين عاما ، في كل مناسبة كانوا يحاولون فيها التعبير عن رأيهم واحتجاجهم على سياسة القمع والتعسف والتفرقة العنصرية المتبعة ضدهم في الجامعات ، سواء كان ذلك على الصعيد السياسي او الاجتماعي .

ورغم الصدمات العنيفة ، التي كان يشهدها الحرم الجامعي بين الطلاب العرب واليهود ، قبل حرب حزيران عام ١٩٦٧ - وقد اقتصر انذاك على الجامعة العبرية في القدس وجامعة تل ابيب - الا ان هذا الصراع ظل محصورا ضد سياسة القمع والارهاب ومصادرة الاراضي والحكم العسكري في الارض المحتلة ، وضد سياسة التفرقة العنصرية التي كانت تمارس ضدهم في هاتين الجامعتين ، نظرا لقلية الطلاب العرب العديدة ، والظروف السياسية للعرب في الارض المحتلة قبل عام ١٩٦٧ ، الى ان جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، لتشكل « نقطة تحول في مجال العلاقات بين الطلاب اليهود الذين ازدادوا اثرها يمينية ، وبين الطلاب العرب الذين عمقت فيهم الحرب ، الوعي الوطني والقومي » ( معاريف - ٢٠-١-٧٦ ) ، اذ ان « الانصال الذي تم بينهم وبين المناطق المحتلة ، ولد في داخل الكثيرين منهم الشعور بالانتماء الفلسطيني .» مما جعل العربي « الاسرائيلي » اكثر فلسطينية واقبل اسرائيلية ، من النموذج الذي صورناه لانفسنا . . . ونحن اليهود غير مستعدين

نويات حراسة ومطالبه الطلاب العرب في الجامعات للمشاركة في هذه الحراسسة بعد تصاعد العمليات التخريبية المعادية في القدس وتوجيه عدة ضربات الى الجامعة ، ( معاريف - ٢٠-٧٨-١ ) .

وكانت اللجنة العربية قد كتلت صفوف الطلاب العرب في « جبهة رفض ، بل وحرصت على نشر علني لدوافع هذا الرفض بقولها : « ولا طالب عربي واحد يشترك في اي عملية موجّهة ضد اخوانه الفدائيين » ( المصدر نفسه ) ، مما ادى الى « اشتباكات حادة بين الطلاب العرب والطلاب اليهود ، الذين وجهوا عريضة كبيرة جماعيسسة الى ادارة الجامعة ، يطالبونها فيها باجبار الطلاب العرب على تطبيق واجب الحراسة » ( المصدر نفسه ) ، مما دعا ادارة الجامعة الى توجيه تهديد لجميع الطلاب العرب الذين يرفضون الحراسة باتخاذ اجراءات ضدّهم » ( دافار - ١-٧٦-١ ، هارتس - ١-٧٦-١ ) .

ويبدو ان السلطات الاسرائيلية قد كثفت من ضغوطها في الاونة الاخيرة ، على الطلبة العرب في الجامعات ، باستخدام الطلبة اليهود من خلال الاتحاد العام للطلاب في اسرائيل وخاصة بعد تسلّم ليكود لمقاليده الحكم في اسرائيل - اذ ان مؤسسات التعليم في اسرائيل ، قد تحولت في السنوات الاخيرة الى ساحة قتال بين الطلاب اليهود والطلاب العرب ، ( دافار - ١٤-٧٨-٥ ) ، فكل جدال حول أي موضوع « سرعان ما يشتعل ، والتهديدات والشتائم والاتهامات المتبادلة سرعان ما تنطير في الهواء .. بل وكان ثمة اشتباكات في الايدي بين الطلاب اليهود والطلاب العرب » ( المصدر نفسه ) ، سواء كان ذلك « في زهري يوم الارض ، او عملية الجيش الاسرائيلي

الفاشي عليها ، بعد ان كانت دقتها في ايدي رجال اليسار من كتلة يش ، الذين كانوا يسعون لزيادة التعاون بين الطلاب اليهود والعرب » ( معاريف - ٢٦-١٢-٧٥ ) ، وهذه التغييرات التي كانت قد طرأت على اتحادات الطلاب ، والتي « احدثت بدورها تغييرا كاملا في اسلوب النشاط الاجتماعي والسياسي لاتحادات الطلاب ، اثرت والى حد كبير على الطلاب العرب ، الذين غيروا هم الاخرون خطوط نشاطهم في اتجاه قومي متطرف » ( المصدر نفسه ) واصبح زعمائهم يعلنون صراحة « اننا نهتم بالمسائل السياسية ايضا » ، بعد ان « كانوا يدعون ، ان لجانبهم المستقلة كانت قد اقيمت ، وقائمة - كي تهتم في الاساس بالمشاكل الخاصة للطلاب العربي ولا تعمل في السياسة » ( المصدر نفسه ) ، بل « ونقلوا الصراع الفلسطيني الى خطوط معادية نشيطة » ( المصدر نفسه ) ، وخاصة بعد ان رفض اتحاد الطلاب في اسرائيل الاعتراف لـ « اتحاد اللجان العربية » ، و« ممارسة الضغوط المتزايدة للحد من نشاط الطلاب العرب في اطارهم التنظيمي » ( معاريف - ٢٦-١٢-٧٥ ) مما ادى الى عدة اصطدامات واشتباكات بالايدي داخل الجامعات ، اثر المتظاهرات العديدة التي كان « اتحاد اللجان العربية » ينظمها احتجاجا على منعه من ممارسة حقه في حرية الرأي والتعبير ، ومن اجل الاعتراف به « كممثل لكافة الطلاب العرب الذين يتعلمون في الجامعات الاسرائيلية » ( حوتام - ١٣-٦-٧٥ ) .

وكان اكثر الصدامات حدة ، الصدام الذي حصل بين الطلاب اليهود والعرب ، اثر رفض اتحاد اللجان العربية الامتثال للاجراء الذي اتخذه الاتحاد العام للطلاب في اسرائيل « في شتاء عام ١٩٧٤ يادراج

في لبنان ، أو يظهر محاضرين ذوي افكار شاذة » ( دافار - ١٤-٧٨-٥ ) .

ومع صعود المليكود الى الحكم ، صعدت السلطات من قمعها للحركة الطلابية العربية وشنت حملة عنيفة عليهم في كل المجالات ، وقد بلغت هذه الحملة ذروتها وبشكل ملفت للنظر ، مع اعلان نتائج الانتخابات الاخيرة لاتحاد اللجان العربية في الجامعات ، والتي فاز على اثرها « ١١ عضوا جميعهم من القوميين المتطرفين » الذين ينتمون الى حركة اولاد البلد المتطرفة « (دافار - ١٠-٧٨-١) اذ كان لنتائج الانتخابات هذه « معنى خطير من الناحية القومية » ، فالمنتخبون الجدد « لم يعودوا يتسترون بغطاء راکاح ، ولا يدعون انهم يعترفون بدولة اسرائيل ، ويطمحون للتعايش بسلام بين العرب واليهود » فايديولوجيتهم هي اقرب ما تكون لتلك التي لمنظمات التخريب الفلسطينية « مما سيؤدي الى التوتر في العلاقات بين الطلاب اليهود والعرب ، ويتحتم على السلطات ان تدرس مسنده المشكلة ونتائجها على كل تركيبة الكليات » ( دافار - ١٠-٧٨-١ ) اذ انهم « يكفرون بحق اليهود على ارض اسرائيل ، ولا يعترفون في مواطنة الدولة ، ويؤيدون دولة علمانية ديموقراطية بصيغة م٠ت٠ف٠ » ( معاريف - ٢٠-٧٨-١ ) .

وبالفعل فقد ألغت السلطات اول مظاهرة تنظمها اللجنة العربية الجديدة بعد انتخابها ، « احتجاجا على مبادرة السلام » بعد ان كشفت وحدة تجسس طلابية يهودية ، قبل يوم فقط ، هدف المظاهرة ودوافع توقيتها ، فشرع اتحاد الطلاب في اسرائيل بعملية سريعة لاحتباطها ، ( معاريف - ٢٠-٧٨-١ ) .

وقال رئيس اتحاد الطلاب في جامعة القدس « ان الفيلم الشفاف كان قد وضع

امامنا ٠٠ فعلى بعد ٣٠٠ م من الحرم الجامعي في القدس ، يتناول مُنتقد الهيلتون ، مقر اللجنة السياسية الاسرائيلية - المصرية ، بؤرة كل اجهزة الاعلام العالمية ٠٠ اللجنة العربية والمئات من مؤيديها بالاضافة الى اليسار اليهودي يرفعون اللافتات التي تصف الرئيس السادات كخائن وبيغن كمحتل متوحش ٠٠ الطلاب اليهود ينظمون أنفسهم في مظاهرة مضادة ، واستنفار الغرائز يتحول الى اشتباك في الايدي ٠ الشرطة تستدعي ، واجهزة الاعلام العالمية تصور جنود الاحتلال الصهيوني يهاللون على القوميين العرب بالكلمات والمهراوات « ( معاريف - ٢٠-٧٨-١ ) .

وقد عقب على ذلك محمود محارب ، رئيس اتحاد اللجان العربية في مقابلة له مع مراسل صحيفة معاريف ، امرون دولاب ، بان السلطات الاسرائيلية كانت « قد ألغت المظاهرة ضد خطوات السلام ، التي اتخذها السادات وبيغن ، بسبب التحريض الجاري ضدنا من اتحاد الطلاب في اسرائيل » ( معاريف - ٢٠-٧٨-١ ) . واستطرد محمود محارب قائلا : « انهم يتهموننا باننا جبهة رفض ، صحيح ، اننا نعارض مبادرة السادات ومشروع بيغن للسلام ، لان كليهما يتجاهل الحقسوق المشروعة للشعب الفلسطيني في العودة الى فلسطين ، واقامة دولة مستقلة فيها » ( المصدر نفسه ) .

واضاف ان « جبهة الرفض الحقيقية هي دولة اسرائيل التي ترفض الاعتراف بـ م٠ت٠ف٠ ، وتدعي ان فلسطين ملك للشعب اليهودي ٠ هذا ادعاء كاذب لا تعترف به ، فملكية البلاد محددة في الميثاق الفلسطيني ، فقد قررت م٠ت٠ف٠

اقامة سلطة مستقلة في كل جزء من البلاد ، الذي يحرر من ايدي المحتلين الصهاينة ،

التحريض والاستفزازات من الطلاب اليهود بقيادة اتحاد الطلاب الاسرائيلي ، عقد « اتحاد اللجان العربية » مؤتمرًا صحفياً في بيت سوكلوف في تل ابيب يوم ١٧-٥-٧٨ ، حيث اعلن سكرتير الاتحاد عصام مخول عن قرار الاتحاد العام « القيام باضراب عام للطلاب العرب ليوم واحد في تاريخ ٢٤-٥-٧٨ ، احتجاجاً على التحريض الذي

تمارسه ضدهم الاوساط الشوفينية ، ومنع الطلاب العرب من حرية الرأي والتعبير في الجامعة » ( هارتس - ١٩-٥-٧٨ ) .

وقد تقرر ان « يجتمع ممثلو الطلاب العرب من كل الجامعات ، ظهيرة يسوم الاربعاء ٢٤-٥-٧٨ ، في احدى قاعات دور السينما في تل ابيب ، في اجتماع احتجاج ، حيث سيفقدون اليها من جميع الجامعات في البلاد ، من القدس وتل ابيب وبار ايلان وحيفا » ( يديعبوت احرانوت - ٢٢-٥-٧٨ ) .

واكد عصام مخول للصحافيين : « اننا نتضامن مع شعبنا العربي الفلسطيني وقيادته المعترف بها م.ت.ف ، في نضاله من اجل تقرير مصيره » ( المصدر نفسه ) .

وقد رد على ذلك رافي بن حور ، رئيس اتحاد الطلاب في اسرائيل بان « التضامن مع م.ت.ف ، يجب ان يضيء الضوء الاحمر لدى مواطني الدولة » ( المصدر نفسه ) .

ورغم كل المحاولات التي بذلها اتحاد الطلاب الاسرائيلي وسلطات الجامعات ، مستخدمين كل الوسائل لمنع الاضراب ، الا ان الطلاب العرب قاموا باضراب احتجاج شامل في كل الجامعات ، « ضد القمع وخنق حرية الرأي والتعبير للطلاب العرب في الجامعات » ( هارتس -

وهذا قرار جيد وعادل ونحن نؤيده ، اذ انه في نهاية الصراع سوف يؤدي الى اقامة دولة ديموقراطية يستطيع اليهود الموجودون هنا ان يعيشوا فيها مع الشعب العربي الفلسطيني . نحن نأمل ان يتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني ، ونناضل من اجل خدمته وتحقيق اهدافه. ( المصدر نفسه ) .

وقبل اقل من شهرين على منع هذه المظاهرة ، كان صراع اخر يتفجر داخل الجامعة ، حين قام اتحاد اللجان العربية في الجامعات الاسرائيلية ، بتوزيع المنشور الذي اصدرته مجموعة من المثقفين العرب في الاراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، والذي يعلنون فيه ان « م.ت.ف فقط هي الممثل الشرعي الوحيد لعرب اسرائيل » ( هارتس - ٥-٣-٧٨ ) ، وان « عرب اسرائيل هم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني » ( المصدر نفسه ) ، فقام الطلاب العرب داخل الجامعات بوحي من السلطات ، تساندتهم معظم الصحف الاسرائيلية ، مما زاد من حدة التوتر بين الطلاب اليهود والعرب ، الذي سرعان ما ادى الى اشتباك عنيف في الايدي ، في ٢٩-٣-٧٨ ، حين « قامت مجموعة من مناصري ارض اسرائيل الكاملة والليكوود بتغطية من اتحاد الطلاب ، بتفجير الندوة التي نظمها الطلاب العرب عن : وضع العرب في اسرائيل في سنوات السبعين » ( هارتس - ٣٠-٣-٧٨ ، ومعاريف - ٣٠-٣-٧٨ ، وكان « الطلاب اليهود قد حاولوا منع الثورة بالقوة » وراحوا ينشدون ، شعب اسرائيل حي ، بينما انشد الطلاب العرب « بالروح بالدم نفديك يا جليل » ( هارتس « ومعاريف - ٣٠-٣-٧٨ ) .

ونتيجة لهذه الموجة المعادية من

٢٢-٧٨٥٠

ففي ٢٤-٧٨٥٠ ، وهو اليوم المصدد للاضراب العام « تجمع أكثر من ٣٠٠ طالب عربي في سينما تخيلت في تل ابيب وعقدوا مؤتمرا عاصفا ٠٠ ووجهوا نداء للاعتراف باللجان العربية في الجامعات ، والسماح لها بمزاولة نشاطها دونما تشويش » ( المصدر نفسه ) ٠٠ بينما « نظمت مجموعة من الطلاب اليهود في جامعة بار ايلان مظاهرة احتجاج ضد هذا الاجتماع الذي وصفوه بأنه اجتماع تضامن مع م.ت.ف. » ( المصدر نفسه ) ٠

وقد شمل هذا الاضراب تنظيم تظاهرة احتجاج في جامعة حيفا ، التي يشكل الطلاب العرب فيها أكبر تجمع لهم ، وقد « تجمع المتظاهرون حول تابوت مصنوع من الكرتون يحمل ياقطة ، حرية الرأي والتعبير ، وعزموا على تنظيم جنازة « لحرية الرأي والتعبير » ٠٠٠ ورفعوا يافطات تحتج على خلق حرية الرأي ، والعنصرية ، والقمع التي تمارس ضد الطلاب العرب في الجامعات » ( المصدر نفسه ) ٠

الا ان « مجموعة كبيرة من الطلاب اليهود ، والتي كان عددها أكبر بكثير من الطلاب العرب ، وقفت في مواجهة الطلاب العرب ، وراحت تقاطع الخطباء العرب في المظاهرة هاتفة « ايها القتلثة اذهبوا الى سوريا » ( المصدر نفسه ) ٠ وحين لم يجد ذلك « حاول الطلاب اليهود منع الخطباء من القاء كلماتهم بانشاد نشيد هاتكفا ( النشيد القومي الاسرائيلي ) ٠٠٠ بينما رد العرب بالهتافات المضادة وبالاناشيد القومية » ( المصدر نفسه ) ٠

وعندما صعد المنصة « محاضران يهوديان واعلنا عن تأييدهما للطلاب

العرب ، قاطعها اليهود ولم يمكنوهما من قول اكثر من بعض الجمل المتقطعة مثل : « لقد فقدنا حساسيتنا بالنسبة للديموقراطية وحسنا بان نكون اقلية » ، او مثل : « لقد جئنا اليوم لندفن الميت ، حرية الرأي والتعبير ، ورافق العائلة الثكلى » ( المصدر نفسه ) ٠ فما كان من الطلاب اليهود الذين « استفزتهم هذه الكلمات ، الا ان هاجموا الطلاب العرب » ونشبت معركة بين الطلاب اليهود والعرب استمرت دقائق معدودة ، ( المصدر نفسه ) ٠

وحين حمل الطلاب العرب « التابوت » انقض الطلاب اليهود عليهم ومزقوا التابوت ٠٠ ومرة أخرى حصل اشتباك بالايدي لعدة دقائق ٠٠ بينما كانت قوات الشرطة تقف على اهبة الاستعداد على بعد عدة مئات من الامتار من الحرم الجامعي » ( هارتس - ٢٥-٧٨٥٠ ) ٠

اما في جامعة القدس فقد « تظاهر اكثر من ٥٠ طالبا مقابل مبنى ادارة الجامعة ٠٠٠ وفي اطار التظاهرة اضرب المتظاهرون عن الطعام » ( المصدر نفسه ) ٠

وردا على تظاهرات الطلاب العرب في الجامعات « ارسل رئيس اتحاد الطلاب في اسرائيل رافي بن حور ، مذكرة الى رئيس الكنيست ، يحتج فيها على ان الطلاب العرب يشكون بالنسبة لحرية الرأي والتعبير بينما « تمنحهم دولة اسرائيل حق الدراسة في الجامعات ، وتخضع النظر عن تصريحاتهم المعادية لاسرائيل ، وللصهيونية ، والمنسجمة مع اهداف م.ت.ف لابيادة دولة اسرائيل » ( هارتس - ٢٥-٧٨٥٠ ) ٠

توفيق قياض



## اسرائيليات

- ١ -

تجديد المفاوضات المباشرة  
بين مصر واسرائيل

واشنطن ، وقد اجري موندل في اسرائيل مفاوضات مكثفة مع الزعماء الاسرائيليين مشددا على استمرار الدعم الاميركي دون توقف ، وعدم ربطه بأية تطورات سياسية قد تحدث . كذلك اصغر في خطبته وتصريحاته على اسس السياسة الاميركية ، فيما يتعلق بحل النزاع في المنطقة ، خاصة تطبيق القرار رقم ٢٤٢ على جميع الجبهات بما في ذلك الضفة الغربية ، الامر الذي تعارضه الحكومة الاسرائيلية . وبرز ما قاله موندل في اسرائيل ان « افضل الطرق لصنع السلام هي الاتصالات المباشرة بين اطراف النزاع » ونحن نجد كل جهودنا من اجل تجديد الاتصالات بين مصر واسرائيل . وان الولايات المتحدة قدمت وستستمر في تقديم مقترحات بناءة ، من شأنها تقليص الثغرة بين اطراف المفاوضات . [كذلك] فان مبادئ القرار ٢٤٢ لا يمكن فصلها ابدا . فهذا القرار هو معادلة ، من جهة واحدة يعترف بحق كل دولة في المنطقة في العيش بسلام وبحدود آمنة ومعترف بها . وفي المقابل ، على اسرائيل ان تنسحب من مناطق احتلت في عام ١٩٦٧ . ونحن نعتقد ان الحدود يجب ان تعين من قبل الاطراف خلال المفاوضات ، ولكن لا يمكن فصل مبادئ القرار ٢٤٢ ، وتطبيقها بشكل اختياري . نحن مقتنعون انه بدون انسحاب على جميع الجبهات ، لا يمكن تحقيق سلام حقيقي . وفي سيناء اقترحت اسرائيل معاهدة سلام تقوم على اساس الانسحاب مقابل تحقيق الامن . ويمكن تطبيق هذه القاعدة

شهدت الفترة الاخيرة مساعي عديدة لاعادة الاتصالات والمفاوضات المباشرة بين مصر واسرائيل ، التي كانت قد توقفت لبضعة اشهر اثر التصلب الاسرائيلي ، رغم اللقاءات العديدة التي عقدت بين السادات ووزير الحرب المصري عبد الغني الجمسي من جهة ، ووزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمان من جهة اخرى .

وقد بدأت المرحلة الجديدة ، كما يبدو ، بناء على مبادرة اميركية . فبعد ان تسلمت الادارة الاميركية ردود اسرائيل السلبية على الاسئلة التي وجهتها اليها بخصوص مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ( انظر شؤون فلسطينية ، عدد رقم ٨٠ ، ص ١٦٠ - ١٦٨ ) ، والتسي اعرب الرئيس كارتر نفسه عن خيبة امه منها في لقاء له مع اعضاء الكونغرس ( هارتس - ٢٢-٦-٧٨ ) ، تقرر ان يقوم نائب الرئيس الاميركي ولتر موندل بزيارة اسرائيل ، في محاولة لاقتناع حكامها ، كما يبدو ، بمحاولة استئناف المفاوضات السياسية ، من خلال تقديم الوعود المطمئنة بشأن الاستمرار في دعم اسرائيل على مختلف الاصعدة والمحافظة على العلاقات الخاصة معها .

اسباب شخصية وسياسية وراء زيارة موندل :

بدأت زيارة موندل الى اسرائيل في اواخر الشهر الماضي ، حيث استغرقت بضعة ايام ، انتقل بعدها الى الاسكندرية لمقابلة الرئيس المصري ، قبل عودته الى

غير مفوض بالوصول الى اي نقطة اتفاق ايجابية - ليس فيما يتعلق بالمعونة الاقتصادية ، او بالمساعدات الامنية . من جهة ثانية ، اطلع مونديل خلال هذه المحادثات على مدى شكوك اسرائيل تجاه بلده ، وعلى الغضب تجاه مواقف الولايات المتحدة . كذلك ايقن الاسرائيليون ، ان غطاء « زيارة حسن النية » لا يمكن ان يخفي وجهات النظر المتناقضة بين القدس وواشنطن . ان الزيارة لم تعمق الصداقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، وثمة شك اذا كانت قد حققت هدفها في اقتناع الجمهور والحكومة بهدف النوايا الاميركية . لقد اثبتت الزيارة لميغن ولاعضاء اللجنة الوزارية لمشؤون الامن ، انه لا يمكن اقناع المبيت الابيض بالانحراف عن موقفه ، الذي يركز على اعتبار المناطق [ المحتلة ] كوديعة فقط حتى اللحظة التي تعرب فيها الدول العربية عن استعدادها لاقامة سلام مع اسرائيل . لقد حانت هذه اللحظة ، وواشنطن تطالب بتسديد الحوالة « (عوزي نيزيمان ، هارتس - ٧٨-٧-٥) » . ان الحكومة الاسرائيلية ، ربما كانت تتوقع محادثات مختلفة مع مونديل ، خاصة وانها اشاعت قبل قدومه ، ان هناك اسبابا شخصية واخرى حزبية ، تكمن وراء زيارته . « فالاسباب الشخصية واضحة ، وتكمن في مواقف الصداقة التي كان يظهرها لاسرائيل في الماضي . فقد اعتبر مونديل وريثا روحيا للصدوق الرئيسي لاسرائيل في الكونغرس الاميركي ، وبين يهود الولايات المتحدة ، هامفري . ولكن هذا كان في البداية فقط ، بعد ذلك حدث تغيير في المواقف [ بسبب دوره في تقرير صفقة الطائرات فسي الكونغرس لكل من مصر والسعودية ] واسرائيل [ . ان مونديل بحاجة الى العلاقات مع اليهود لاستمرار سيرته السياسية ، التي تطمح بشكل منطقي

في الضفة الغربية وقطاع غزة ايضا . . . ويجب ان يكون هناك ارتباط قوي بين الضفة الغربية وغزة والاردن ، [ وعلى العرب ] ان يوافقوا على سلام دائم وحق اسرائيل في العيش بسلام وفي حدود امنة ومعترف بها . ونحن نعتقد ان حلا يرتكز على هذا الموقف - وليس دولة فلسطينية مستقلة - سيخلق الاستقرار والامن الضروريين لسلام قائم . الا ان الوقت سيطول حتى يتحقق اتفاق كهذا . . . لذا نعتقد ان المطلوب هو فترة انتقالية « (داليا شموري ، عل همشمار - ، ٧٨-٧-٧) » . وتطرق مونديل ايضا الى حقوق الفلسطينيين بقوله ان « لهم - كجميع البشر - حقا في المشاركة في تقرير مستقبلهم » . كذلك كرر التزام بلده تجاه اسرائيل بقوله ان « اميركا ملتزمة باسرائيل قوية » ( المصدر نفسه ) .

ان حديث مونديل هذا ، لم يلق استحسانا على الصعيد الرسمي فسي اسرائيل ، خاصة وانه جاء بمثابة تأكيد واصرار على المواقف الاميركية ، التي لا تعتبر المشروع الاسرائيلي ، خاصة فيما يتعلق بالحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة ، الا كنقطة انطلاق للمفاوضات ، ويصلح لمرحلة انتقالية فقط ، وليس كحل نهائي ، مما يثير استياء اسرائيل ، وتبدأ بآتهام الادارة الاميركية بالانحياز نحو العرب . « ان زيارة مونديل الى اسرائيل قد وفرت فرصة حسنة لفحص مركز اسرائيل الحالي في نظر البيت الابيض . فقد اضفى نائب الرئيس على زيارته عبارات دافئة بهدف التزلف لاسرائيل . وقد وضع برنامج زيارته بشكل يظهر الصداقة [ الا انه ] في المباحثات المغلقة وفي الكلمات العلنية ، برز الجمود القاسي ، الذي يصعد « العلاقات الخاصة » بين القدس وواشنطن . « لقد اتضح للمسؤولين الاسرائيليين في المحادثات المغلقة ، ان نائب الرئيس

بعد قتلهم في منع تمرير صفقة الطائرات في الكونغرس ، خاصة وأن وفدا كبيرا من زعمائهم قد وافق موندل في زيارته الى اسرائيل .

#### مشروع السلام المصري :

ومن القدس ، انتقل نائب الرئيس الاميركي الى الاسكندرية حيث قابل الرئيس المصري ، وتسلم منه مشروع السلام المصري ، وهو عبارة عن جملة مقترحات تتعلق بوجه خاص بمستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحل المشكلة الفلسطينية . وقد قامت واشنطن بعد ذلك بنقل هذه المقترحات الى الحكومة الاسرائيلية ، حالا بعد تسلمها .

يتطرق البند الاول في المشروع المصري الى « حل المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها ، على اساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، أما البند الثاني فيتطرق الى اعتبار الفترة التي وردت في المشروع الاسرائيلي ( ٥ سنوات ) كفترة انتقالية . والبند الثالث حول الحاجة للوصول الى اتفاق بشأن « طرق تنفيذ قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية » . أما البند الرابع في « وثيقة السادات » فيتحدث عن الانسحاب من الضفة الغربية ( بما في ذلك القدس ) ومن قطاع غزة ، بما في ذلك الانسحاب من المستوطنات التي اقيمت في المناطق المحتلة . ويتطرق البند الخامس الى وجوب الغاء الحكم العسكري الاسرائيلي ، وادخال الحكم الاردني الى الضفة الغربية والمصري الى قطاع غزة « حيث تقوم مصر والاردن بتحمل المسؤولية الملقاة عليهما ، من خلال التعاون مع ممثلي الشعب الفلسطيني ، الذين سينتخبون بصورة حرة ويستخدموا صلاحيتهم المباشرة فيما يتعلق بإدارة الضفة الغربية وقطاع غزة » ( يوسف حاريف ، معاريف - ٧٨٧-٧ ) .

جدا ، لكرسي الرئاسة بعد ابتعاد كارتر . كذلك فإن هذا الامر مهم بالنسبة للحزب الديمقراطي ، اذا كان يرغب في الاستمرار في الاحتفاظ بتأييد الاكثرية اليهودية ، ومنع انتقال التأييد الى الحزب الجمهوري ، ( أريئيل غيناي ، يديعوت اهرنوت - ٧٨٦-١٦ ) . الا ان هذه الاسباب ليست الوحيدة التي كانت وراء زيارة موندل . فقد علق احد المراسلين السياسيين لاسرائيل في الولايات المتحدة على أسباب الزيارة بقوله ، ان الاسباب هي من منطلق اميركي اكثر من كونها من منطلق اسرائيلي . « فليس الهدف فقط مصالحة اليهود ، او التظاهر بأن الحكم لم يعرض اسرائيل للبيع ، وانما التقدير بان التعاون مع اسرائيل هو ضروري لنجاح سياسة كارتر الشرق اوسطية . فاسرائيل تملك المتنازلات التي بدونها لا ينجح التقارب مع الدول العربية » . ( يوئيل ماركوس ، هارتس - ٧٨٦-١٦ ) .

يبقى السؤال ماذا حققت زيارة موندل ؟ « من ناحية تجديد الاتصالات الاسرائيلية - المصرية ، يمكن ان يسجل موندل لنفسه نجاحا جزئيا . وينطبق الامر نفسه على تجديد الحوار بين الادارة الاميركية وبين يهود الولايات المتحدة ، الذي كان كما يبدو هدفا اخر في زيارة نائب الرئيس . ان تصريحاته الواضحة حول الالتزام الاميركي بأمن اسرائيل ، ووعده باستمرار المساعدات الكبيرة ، والتأكيد على ان المساعدات العسكرية لن تستخدم كوسيلة ضغط على اسرائيل - كانت موجهة للاسرائيليين ولليهود الولايات المتحدة » . ( افتتاحية دافار - ٧٨٧-٤ ) .

اي ان اهم ما حققته الزيارة ، المساهمة الفعالة في تجديد المفاوضات بين مصر واسرائيل ، بواسطة المبادرة في عقد مؤتمر لندن ، وحث اسرائيل على المشاركة به . ثم كسب ود يهود الولايات المتحدة ،

منذ مؤتمر الخرطوم في سنة ١٩٦٧ ، يمكن ان يثير الشك حول حقيقة نواياه « ( المصدر نفسه ) . وقد صدر عن مجلس الوزراء الاسرائيلي بيان في هذا الشأن، ورد فيه ان المقترحات المصرية التي نقلت الى اسرائيل في الثالث من تموز ١٩٧٨ ، والمسماة « مقترحات تتعلق بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة وترتيبات امنية » غير مقبولة لدى اسرائيل ، ولا يمكن بطبيعتها ، ان تؤدي الى احلال السلام في الشرق الاوسط والى توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل « ( المصدر نفسه ) . الا ان الحكومة الاسرائيلية ، على الرغم من ذلك - وكما يبدو نتيجة لـ « ضغوط » اميركية - اعتبرت ان المقترحات المصرية لا تتضمن اية شروط مسبقة ، وبناء عليه قررت قبول دعوة وزير الخارجية الاميركي لحضور مؤتمر لندن .

#### بالتنسيق مع الولايات المتحدة :

تشجيع وسائل الاعلام الاسرائيلية ان المشروع المصري وضع بالتنسيق مع الولايات المتحدة ، « وانه في اطار الاتصالات التي كانت جارية بين مصر والادارة الاميركية ، ساهم الاميركيون في صياغة المشروع المصري » ( رأ - ٧٨-٤ ) . وقد حلل احد الكتاب السياسيين المعروفين في اسرائيل ، يوسف حاريف ، بنود المشروع المصري بقوله ، ان كل بند فيه جاء متلائما مع مبادئ السياسة الاميركية ، خاصة فيما يتعلق بمسألة الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية ، وحل المشكلة الفلسطينية في اطار اردني . وهناك نقطة خلاف فقط بين القاهرة وواشنطن : « فالمصريون اقترحوا اشترك الامم المتحدة في الاشراف على تنفيذ عملية الانسحاب الاسرائيلي والحادثات حول تنفيذ الاتفاق [ الاميركيون لم يقترحوا ذلك ] وبينما

اعتبرت اسرائيل ان المشروع المصري هو « الوثيقة الأكثر تطرفاً التي قدمت اليها من جانب مصر . انها لا تعتبر ابدا مشروع سلام ، وانما تشمل مطالبات بالانسحاب الشامل والمطلق ، بدون اية اشارة الى تعديلات اقليمية » ( معاريف - ٧٨-٧ ) .

ويعد تحليل المشروع « على اعلى المستويات السياسية » في اسرائيل ، صدر رد الفعل الاتي ! « اولاً ، ان هذا لا يعتبر مشروع سلام ، وانما اقتراحات حول الانسحاب من الضفة الغربية وغزة . وحول ترتيبات الامن . ثانياً ، بالنسبة لقضية تقرير المصير للفلسطينيين ، فان الامر اخطر مما ورد في «صيغة اسوان» . ويموجها على الفلسطينيين ان يكونوا جزءاً من اولئك الذين سيشاركون في تقرير مستقبلهم . وحسب الوثيقة المصرية فان [ الفلسطينيين ] هم الذين سيقروا مستقبل الضفة الغربية . ثالثاً ، ان البند حول اللاجئين الفلسطينيين ، كما ورد في الوثيقة ، هو عامل جديد ، لم يطرح في المحادثات مع مصر حتى الآن على هذا الشكل - اي انه ينبغي معالجة الموضوع حسب قرارات الامم المتحدة . رابعاً ، ان ادخال الامم المتحدة في مجرى المفاوضات حول الانسحاب والاشراف عليه ، معناه ادخال جهة معادية لاسرائيل بشكل واضح » ( المصدر نفسه ) .

وقد رفضت الحكومة الاسرائيلية ، في جلستها بتاريخ ٧-٩-٧٨ ، المقترحات المصرية ، « معربة عن تقديرها بان هذه الوثيقة المتصلية تثير الشك حول صدق نوايا السادات السلمية » . ورغم انه يمكن اعتبار مقترحات السادات على انها [ تعبير ] عن موقف مساومة فقط ، ولكن حقيقة كونه يكرر المواقف التي عرضها في الماضي ، ويقدم وثيقة لا مثيل لها

والظهور تجاه الخارج ، بمظهر المدافع عن المصالح العربية الشاملة . . . [ بواسطة ] طرح الموضوع الفلسطيني في مركز المباحثات ، « والبرهنة » كم انه غير اناني ، ولا يهتم بمصالحه الشخصية ، خاصة وان سيناء أصبحت في جيبه تقريبا بفضل المشروع الاسرائيلي . على اي حال ، فان السادات يهدف بواسطة [ مشروعه ] تثبيت حقيقة سياسية قائمة ، ويموجبها تعتبر اعادة سيناء وكأنها امر مفهوم بصورة تلقائية ، لا يستوجب اي ذكر خاص .

ان المبالغة في هذا التقييم تبدو واضحة ، على ضوء التنازلات المستمرة التي يعلنها السادات ، في كل يوم ، خاصة فيما يتعلق بمستقبل الضفة الغربية وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، حيث وافق خلال الايام الاخيرة فقط ، على مبدأ الحدود المعدلة ، وعلى استبعاد م٠ت٠ف من اية مفاوضات سياسية .

#### اللقاءات مع بيريس وفايتسمان ، ومشروع الاممية الاشتراكية :

يعتبر اللقاء الذي تم بين زعيم المعارضة في اسرائيل شمعون بيريس ، والرئيس السادات في فينا ، في نطاق اجتماع بعض زعماء الاممية الاشتراكية ، في ٧-٨-٧٨ ، حدثا هاما على صعيد تجديد الاتصالات المباشرة بين النظام المصري واسرائيل . ويمكن تسجيل بعض الملاحظات الاساسية حول هذا اللقاء : اولاً ، ان بيريس لم يمثل وجهة نظر الحكومة الاسرائيلية خلال اجتماعه مع السادات . وقد اعلن في مطار اللد ، قبل سفره الى فينا انه مسافر كممثل عن حزب العمل ، وليس كممثل رسمي . وفي لقائي مع السادات ، ساوضح له ان مشروع السلام المصري ، غير متكامل ، لانه لا يتطرح الى قضية السلام والعلاقات

تتحدث وثيقة السادات حول انسحاب شامل بما في ذلك القدس ، فان المسؤولين الاميركيين يعربون ، في محادثاتهم مع اسرائيل ، حول الاستعداد للقبول بموقف اسرائيل فيما يتعلق بقضية القدس الشرقية . اما في باقي الامور فان التشابه بين واشنطن والقاهرة ، شبه كامل ، ( معاريف - ٧-٧-٧٨ ) . ومما يزيد هذا التماثل في الآراء ، ان مصر ارفقت مشروعها للسلام ببعض البنود الشفوية ، التي تعتبر بمثابة نسخة طبق الاصل للافكار الاميركية . وقد نشرت صحيفة دافار الاسرائيلية ، لسان حال الهستدروت وحزب العمل ( ٩-٧-٧٨ ) فحوى هذه البنود على النحو التالي : « اولاً ، الاستعداد لاجراء تعديلات في الحدود ( وقد اعلن ذلك السادات فسي مؤتمره الصحفي في فينا ) . ثانياً ، الاستعداد لنزع السلاح في الضفة الغربية . ثالثاً ، القبول بوجود عسكري اسرائيلي محدود في الضفة لفترة زمنية معينة . رابعاً ، لا يؤيد المصريون اقامة دولة فلسطينية . خامساً ، لا يؤيد المصريون اشتراك م٠ت٠ف٠ في الحل . سادساً ، ان مصر على استعداد لعدم المطالبة بازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ، بصورة انذارية » .

ورغم هذه التنازلات الجديدة فقد اعلن بيغن « اننا نرفض الاقتراحات المصرية ، لانه لا يمكن لاسرائيل القبول بها . وكذلك فان تلك الاقتراحات ، وفقاً لطبيعتها ، لا يمكن ان تؤدي الى احلال السلام » ( رأ٠ - ٩-٧-٧٨ ) .

وقد اعتبرت وسائل الاعلام الاسرائيلية ان هناك دوافع سياسية و اعلامية « لتكتيك » السادات هذا . فقد قدرت ( معاريف - ٦-٧-٧٨ ) في افتتاحيتها ان « السادات يريد من وراء عرض الامور على هذا النحو ، جذب الملك حسين الى اللعبة ،

في انها انجاز عظيم الامة لاسرائيل بعد سلسلة النكسات والهزائم التي منيت بها في اوساط الاحزاب الاشتراكية ، ( المصدر نفسه ) .

لاقت هذه الوثيقة ترحيبا لدى اوساط المعارضة في اسرائيل ، خاصة وانها اعتبرت قريبة جدا من مواقف حزب العمل الاسرائيلي . « وقد علم ان المسؤولين في حزب العمل لا يعتبرون صيغة كرايسكي - براندت مجرد تحسن ملحوظ في موقف الامة الاشتراكية ، بل ان بيريس و ابا ايبين هما اللذان اقترحا الصيغة التي جرى تبنيها في نهاية الامر من جانب كرايسكي وبراندت . وقد تحدث في هذا الشأن ابا ايبين بقوله : ان ما حدث هو ان سفر بيريس الى فينا سبقه عمل تحضيرى منهجي ومفيد . . . . . وقد طلب مني بيريس وضع ورقة عمل تشكل قاعدة مشتركة ممكنة للامة الاشتراكية ، بهدف واضح هو تحسين موقفها السياسي ، وهكذا وضعت صيغة لبعض المبادئ ، مستندا على صيغة اسوان المقبولة من حركة العمل . وسافر بيريس مع تلك الورقة ، ثم اتضح مما قرأته فيما بعد ان براندت وكرايسكي قد تأثرا كثيرا بالجهد الذي بذلناه . وعلي ان اضيف ، اننا في الامة الاشتراكية لسنا كمن في موضع اتهام ، بل نحن اعضاء فيها بشكل لا يقل عن كرايسكي وبراندت » ( رآ - ١١ - ٧٨ ) . الا ان المصادر الحكومية الرسمية في اسرائيل ، اعلنت عن استيائها من الوثيقة « لانها تتضمن - حسب قول احد هذه المصادر - طريقا لاشراك م . ت . ف في المفاوضات ، حيث قيل ان الفلسطينيين سيمثلون من جانب ممثلين منتخبين من قبلهم . وهكذا من المحتمل ان ينتخب هؤلاء ممثلين لمنظمة التحرير الفلسطينية » ( المصدر نفسه ) .

اعقب اجتماع بيريس - السادات ،

الطبيعية . . لا احمل الى السادات اية رسالة ، وقصدي فقط هو تبادل الاراء معه » ( دافار - ٩ - ٧٨ ) . ثانيا ، ان وزير الخارجية دايان ، اعرب عن عدم رضاه عن اجتماع بيريس - السادات ، رغم موافقة بيغن . ثالثا ، ان هذا اللقاء ليس الاول بين الرجلين ، وانما سبقته لقاءات اخرى ، سواء اثناء زيارة السادات الى القدس ، او في فينا . رابعا ، اسفر هذا اللقاء ، الذي تم بواسطة مستشار النمسا كرايسكي ، عن نتيجة هامة بالنسبة لاسرائيل ، اذ بناء عليه يبادر زعيما الامة الاشتراكية كرايسكي وبراندت الى وضع مشروع سلام خاص . حمل توقيعهما ، واعتبر فيما بعد انجازا هاما بالنسبة لاسرائيل في اوساط الامة الاشتراكية .

تتضمن وثيقة كرايسكي - براندت خطوطا موجهة للتسوية في المشرق الاوسط وسيجري تقديمها الى مؤتمر الامة الاشتراكية الذي سينعقد في باريس بعد ثلاثة اشهر . واولما تدعو اليه هو « الاستمرار في عملية المفاوضات وفي مبادرة السادات حتى يتم التوقيع على اتفاقات سلام . كذلك تنادي بتثبيت حدود آمنة وفقا لقراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٢٨ ، على اساس انسحاب اسرائيل من كل قطاع من الحدود . ويقول بند آخر في الوثيقة ان مشكلة الفلسطينيين بكل جوانبها يجب ان تحظى بحسب ، وان الفلسطينيين يجب ان يعطوا امكان المشاركة في بلورة مستقبلهم بواسطة ممثل منتخب منهم » ( رآ - ١٠ - ٧٨ ) . وتكمن اهمية هذه الوثيقة « في كونها اعلنت في نهاية محادثات فينا واللقاءات التي تمت بين السادات وبيريس وكرايسكي وبراندت ، التي استمرت ثلاثة ايام باشكال متعددة . ويمكن اعتبارها بمثابة خلاصة مشتركة للمباحثات . . . ولا شك

ان سياسة الحكومة موحدة • وبالنسبة لي ، وبالنسبة لوزير الدفاع ، فعندما نتوجه لاجراء مفاوضات • فأتنا نتصرف ونعمل وفقاً لتوجيهات الحكومة التي هي موحدة في جميع المجالات ، ( ر٢ - ١٣-٧٨ ) •

وعلق دايان على ما اعلنه السادات من انه يرتاح شخصياً الى الحديث مسرع فايتسمان ، ويفضل التفاوض معه ، بقوله: « لا يستطيع المصريون ان يقرروا من يمثل اسرائيل ، باستطاعتهم ان يرغبوا في احداث انقلاب في اسرائيل ، وفي تغيير الحكومة ، وتاليف حكومة حسب تقديرهم ، تقبل بالمفاهيم المصرية ، وتكون مستعدة لاتخاذ خطوات لا ترضى الحكومة الحالية بها • وبأستطاعتهم ان يحاولوا التأثير على سير الامور ، وارى انهم يبذلون كل جهد في هذا الاتجاه » ( المصدر نفسه ) •

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد اطلعت في جلستها ليوم ١٦-٧-٧٨ ، على المقترحات الجديدة التي قدمها السادات الى فايتسمان خلال اجتماع سالزبورج • واعلن بيغن بعد الاجتماع ان « اسرائيل ستشدد على المقترحات المصرية في الجلسة المقبلة [ بانتظار انتهاء مؤتمر لندن ] • واذاف بيغن ان حكومته لم تبحث بالتفصيل في المقترحات المصرية الجديدة « بسبب ازدحام جدول اعمالها » ( كما نقلتها السفير ، ١٧-٧-٧٨ ) • وقد اتخذت الحكومة الاسرائيلية خلال هذه الجلسة اجراء يمنع بموجبه فايتسمان من الاتصال بالسادات في المستقبل وذلك ردا على تفضيل السادات العلني التعامل مع فايتسمان واعلن الناطق باسم الحكومة ارييه ناؤور ، ان الحكومة قررت متابعة المفاوضات مع مصر وفق الشروط الاتية: ان السلطة الوحيدة لاجراء المفاوضات منوطة بالحكومة وبممثلها المكلفين ، ان مستوى التمثيل في المفاوضات سيكون

وثيقة الاممية الاشتراكية ، اجتماع اخر لا يقل اهمية على صعيد الاتصالات المباشرة بين مصر واسرائيل ، وهو الذي تم بين وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمان من جهة وبين السادات ووزير الحربية المصري عبد الغني الجمسي من ناحية اخرى • وقد كان هذا الاجتماع بمثابة مفاجأة في الاوساط السياسية ،

اذ اعتبر تراجعاً آخر من جانب مصر ، التي اعلنت ، على لسان الجمسي نفسه ، في رسالة بعث بها الى فايتسمان ، ان لا فائدة من لقاءات كهذه ، ما دامت اسرائيل لم تغير موقفها ، ولم تقدم مقترحات جديدة • لم يعرف شيء محدد عما دار في هذا الاجتماع الذي استغرق اكثر من ثلاث ساعات ، سوى ما اعلنته المصادر الاسرائيلية من « ان اللقاء سادته جو من التنازل » • وان فايتسمان اعلن بعد انتهائه « انها زيارة ناجحة لسالزبورج »

( ر٢ - ١٤-٧-٧٨ ) • اما من الجانب المصري « فقد اعلن الناطق بلسان الرئاسة ، ان اجتماعات اخرى ستعقد في المستقبل ، اي انه يوجد ما يشير الى استمرار المفاوضات • والمع الى وجود افكار جديدة لدى الطرفين » ( المصدر نفسه ) • وقد علق وزير الخارجية الاسرائيلي دايان على لقاء سالزبورج بقوله : « اني انظر اليه نظرة ايجابية جدا • • • فمنذ البداية جرت المفاوضات بيننا وبين مصر في قناتين - لجنيتين متوازيتين ، جرى في بعض الاحيان ، تداخل فيما بينهما • وكانت احدي اللجنتين برئاسة وزير الدفاع والاخرى برئاسة وزير الخارجية ، ومهمتها البحث في الشؤون السياسية ، ولكن التوزيع آنذاك جاء بشكل وضع المواضيع الفلسطينية في مجال اللجنة السياسية • ولكن عملياً ، عندما اراد المصريون البحث مع وزير الدفاع بشأن مفهومهم للموضوع الفلسطيني ، لم ير اي منا عيباً في ذلك -

اللجنتين السياسية والعسكرية برئاسة وزير الخارجية والدفاع في البلديين ( المصدر نفسه ) .

ح.ش.

متبادلا . وسيرئس رؤساء الدولة او الوزراء المكلفون وفودهم ، ان اسرائيل لا تزال عند اقتراحها ، بتجديد اعمال

- ٢ -

### الاستعدادات والتغيرات في الجيش الاسرائيلي

انه رفض السماح للمعيد ارئيل شارون بالعودة للخدمة النظامية ، رغم الحاح رئيس الحكومة يتسحاق رابين في حينه « . ( هارتس - ١٢/٢/١٩٧٨ ) .

وفي الفترة الاخيرة حاول وزير الدفاع عيزر فايتسمان ومساعدته العقيد تسبوري - الذي كان قد ترك الجيش قبل فترة قصيرة من الانتخابات العامة للكنيست والتي ادت الى تسلم ليكود السلطة - ابعاد رئيس الاركاب مردخاي غور عن اية مواضع سياسية وتقليص صلاحياته .

« لم تكن حياة مردخاي غور عسكرية فحسب فهو اولا كاتب قصص اطفال ، وله مبادئه السياسية ، والتي تجلت في بعض مواقفه وقراراته . ومنها انه ارسل مذكرة الى وزير الخارجية ابا اييان يطالبه فيها بأن تنسحب اسرائيل الى ما خلف الممرات في سيناء ، هذا اذا ارادت اسرائيل الوصول الى اتفاق سلام مع مصر . وفي عام ١٩٧٠ ايد بشدة وقف اطلاق النار مع مصر اثناء حرب الاستنزاف . اما بعد حرب ١٩٧٣ ، فقد كان رأي غور ان اسرائيل تسرعت في الانسحاب من الضفة الغربية لقناة السويس ومن الجيب في الجولان ، معتقدا انه كان بإمكان اسرائيل التصلب والحصول على اتفاقات بشروط افضل » ( المصدر نفسه ) .

من اهم انجازات غور على الصعيد

فيما الجهود مستمرة للتوصل الى تسوية سلمية في المنطقة ، عن طريق المفاوضات في القدس والقاهرة ، وتارة في واشنطن ولندن وفيينا ، استمرت اسرائيل - وربما بمعدل اكبر واسرع - في اعداد قواتها العسكرية من كل الجوانب وفي جميع الاتجاهات ، ففي هذا المجال اجرت عدة تغييرات وترتيبات من شأنها التأثير على الخريطة العسكرية داخل الجيش .

#### التغيرات في الاركاب العامة :

يعتبر مردخاي غور رئيس الاركاب العاشر للجيش الاسرائيلي ، وخلال فترة عمله في رئاسة الاركاب العامة ، لم يشترك في اية حروب باستثناء حرب الاستنزاف القصيرة مع السوريين ، بما في ذلك معركة قمة جبل الشيخ وحرب الجنوب اللبناني .

« اما الخصوصية التي تميز بها غور فهي انه كرئيس للاركاب العامة ، خُدمت تحت امرته ثلاثة من وزراء الدفاع ، الاول موشه دايان ، الثاني شمعون بيريز ، والثالث عيزر فايتسمان ، الامر الذي جعله يكيف نفسه لمهامه واره وطبيعة الوزراء الثلاثة ، هذا اضافة الى لعبة مراكز القوى الداخلية ، التي كانت تتجسد بالضغط عليه ، ومن أبرز مواقفه في هذا الصدد



أما العميد يسرائيل تال الذي كان قائدا لرفائيل ايتان ، فقد ايد تعيينه في هذا المنصب وقال عنه : « ان ايتان قائد يمكن ان يكون القدوة للوحدات العسكرية في طريقها الى ميدان المعركة » ( هارتس - ٧٨/٢/١٨ ) .

لكن العنصر الاساسي والفعال في ترشيح ايتان لمنصب رئاسة الاركان هو طريقة معالجته لمشكلة جنوب لبنان .

#### قاريخ رئيس الاركان الجديد :

يعتبر رفائيل ايتان قائدا عسكريا متمرسا اكتسب خبرة وتجربة اكثر من اي قائد في الجيش الاسرائيلي ، خاصة في المهام الميدانية .

« فمذ البداية شارك ايتان في عمليات الانتقام في الخمسينات ، بعد ان كان اثناء حرب ١٩٤٨ نائب قائد سرية في لواء هرتيل ، هبط في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ مع كتيبة مظلات في ممر متلا . في حرب ١٩٦٧ قاد لواء المظلات النظامي الذي احتل منطقة رفح ، ووصل حتى ضفة قناة السويس حيث جرح هناك » .  
في حرب الاستنزاف مع مصر ١٩٦٩ - ١٩٧٠ ، كان قائدا لمنطقة غور الاردن ، وقد تولى مسؤوليات العديد من عمليات مطاردة الفدائيين الفلسطينيين . وكان الضابط الرئيسي لسلاح المشاة والمظلات ، ذلك في الوقت الذي نفذ فيه الجيش عددا من الغارات خلف خطوط الجيوش العربية ، وقد قاد بنفسه الغارة الشهيرة على مطار بيروت الدولي وحطم ١٣ طائرة مدنيية تابعة للخطوط الجوية في الدول العربية في اواخر عام ١٩٦٨ .

في حرب ١٩٧٣ ، كان قائد فرقة في مرتفعات الجولان، واثناء حرب الاستنزاف مع سوريا عين قائدا للمجبهة الشمالية ، « ليس هناك قائد في الجيش الاسرائيلي

العسكري انه استطاع انهاء حرب الجتريالات التي اعقبت حرب ١٩٧٣ ، اضافة الى انه اعاد الثقة للجيش ، وايقظ روح العمل والانديفاع فيه بعد الحرب » .

#### رفائيل ايتان رئيس الاركان الجديد :

هناك خمسة شروط يجب ان تتوفر في المرشح لرئاسة الاركان العامة للجيش ، ويبدو ان هذه الشروط توفرت هذه المرة في رفائيل ايتان . ملخص هذه الشروط : ان يكون لديه فهم استراتيجي وسياسي ، قدرة فنية وميدانية ، والمسام بكل جوانب المعركة ، تشغيل القوات ، قدرة على خلق اتصال مع المراتب السياسية ، ووضع افكار الاركان امام هذه المراتب .

اما ترشيح رفائيل ايتان فلم يات من السلطة الحالية وحدها ، اي ليس فكرة عيزر فايتسمان وزير الدفاع الحالي . بل هي بالاساس فكرة شمعون بيرس وزير الدفاع السابق في عهد حكومة يتسحاق رابين ، ثم ان ترشيحه جاء نتيجة تركية من رئيس الاركان مردخاي غور بعد ان تنتهي فترة خدمته هو في رئاسة الاركان ( هارتس - ١٩٧٨/٢/١٤ ) .

لقد لقي رفائيل ايتان تأييدا كبيرا في اوساط الحكومة الحالية ، واوساط المعارضة ، كذلك في اوساط قادة الجيش سواء الذين ما زالوا في الخدمة الفعلية او في الاحتياط ، وفي اوساط كبار القادة الذين تركوا الجيش ، ولم يسجل اي اعتراض على تعيين رفائيل ايتان من اية جهة كانت .

حول هذا الموضوع قال وزير الدفاع عيزر فايتسمان « ان كل المرشحين لرئاسة الاركان ذوي كفاءة عالية ، لكن رفائيل ايتان شيئا ما اكثر ، شيئا مختلفا عن باقي المرشحين لهذا المنصب » .

الميدانيين ، وهما من سلاح المشاة ثم تحولوا الى سلاح المدرعات ، كما ان الاثنتين شاركا في عمليات حربية كثيرة ، وان وجود العميد ادم واللواء رفائيل ايتان على رأس الهرم العسكري من شأنه ان يدعم المراتب العسكرية ، ويعطي دفعا جديدا للوحدات الميدانية في الجيش الاسرائيلي ، خاصة وان ادم يعتبر رجل المهام العملية في الجيش .

٢ - تعيين العميد المحلي دان شمرون قائدا للقيادة الجنوبية وترقيته الى رتبة عميد . لقد اذهل هذا التعيين الاسرائيليين ، الا ان عددا كبيرا من الضباط في الجيش كانوا يتوقعون هذا التعيين منذ عدة شهور . لقد قفز شمرون قفزة كبيرة ، فمن قيادة تشكيل الى قيادة المنطقة الجنوبية ، التي تعتبر اكبر قيادة بين القيادات الثلاث الشمالية الوسطى والجنوبية ( المصدر نفسه ) .

اشتهر دان شمرون عالميا بعد توليه قيادة عملية « يونتان » أي عملية عينينبي في ١٤/٧/١٩٧٦ في اوغندا . اما تجربته العسكرية فقد اكتسبها من خلال عمله لدى سنوات عديدة في لواء المظلات ، ثم في سلاح المدرعات .

#### الضبط والربط :

عندما سلم مردخاي غور رئاسة الاركان العامة لرفائيل ايتان ، فانه لم يسلمه اياها بصورة مهلهلة وبمعنويات منخفضة كما تسلمها هو بعد حرب تشرين الاول عام ١٩٧٢ . ففي تلك الفترة كان الجيش يعاني من تفكك وانخفاض في الروح المعنوية ، واللياقة العسكرية ، اضافة الى حرب الجنرالات التي تمثلت في اتهام العميد منهم بالتقصير والتخاذل ، والى انعدام الانضباط . الا ان غور ، وخلال فترة عمله ، اعاد تنظيم الجيش وتوسع به في

يستطيع منافسة رفائيل ايتان من حيث التجربة القتالية والميدانية ، ففي هذه المواضيع يعتبر ايتان خبيرا متمرسا ، ( يديعوت احرونوت - ١٩٧٨/١/٣ ) .

#### تغيرات اخرى في الجيش :

الى جانب خروج مردخاي غور من الخدمة في الجيش وتسلم رفائيل ايتان رئاسة الاركان العامة ، حدثت تغييرات اخرى ، تعتبر ذات اهمية كبيرة في المجال العسكري . « ففي اعقاب الاجتماع الذي عقده وزير الدفاع عيزر فايتسمان مع رئيس الاركان السابق مردخاي غور ومع رئيس الاركان الجديد ايتان ، صدرت عدة قرارات خاصة بتعيين كبار الضباط :

١ - تعيين العميد يوكتيل ادم نائبا لرئيس الاركان ورئيسا لشعبة العمليات في رئاسة الاركان العامة . لقد كان هذا التعيين مفاجأة كبيرة ، فحتى شهر اب من العام الماضي كان العميد ادم يشغل منصب رئيس شعبة العمليات ، ثم ترك هذا المنصب وذهب في دورة دراسية للولايات المتحدة ، وقد اقترح هذا المنصب الجديد ككنايب لرئيس الاركان ورئيس شعبة العمليات عليه ، وهو في الولايات المتحدة . كان اخر من شغل هذا المنصب العميد يسرائيل تال ، عندما كان دافيد اليعازر في رئاسة الاركان اي قبل حرب ١٩٧٣ . ومن هذا التعيين يدل على ان هناك نية لاعطاء العميد ادم صلاحيات اوسع ووزنا اكبر من الصلاحيات المعطاة عادة لرئيس شعبة الاركان . ومن المفترض ان تتركز معظم المهام العملية في يد نائب رئيس الاركان من اجل ان يتفرغ رئيس الاركان للمهام الرئيسية « ( هارتس - ١٩٧٨/٢/٢٣ ) .

على ضوء التاريخ العسكري لادم ورفائيل ايتان ، يتضح ان هناك قواسم مشتركة كثيرة بينهما ، فالاثنتان من القادة

بنجاح اعداد كبيرة من الضباط . كما خرجنا ثلاث دورات لقادة الكتائب ، شملت اعدادا اكبر ، وغددا كبيرا من دورات السرايا « ( المصدر نفسه ) .

خلال فترة السنوات الاربع وهي مدة خدمة اللواء مردخاي غور في رئاسة الاركان ادخلت تحسينات عدة على الجيش . تحدث عنها غور : « بالنسبة لبناء الجيش . جرى اعداد قيادة استراتيجية بديلة لديها اللياقة والقدرة على الصمم ، وقد تم اختيارها من مجموعة الضباط الذين ينسبهم رئيس الاركان العامة وتعيينهم الحكومة . اما من ناحية النظرية القتالية . فقد وضعت طريقة سهلة ومضمونة للمعارك المشتركة بين جميع الجنود والاسلحة . اما من ناحية القوى البشرية ، فقد تم تحويل عشرات الالاف من الجنود من مهام الخدمات والخطوط الخلفية الى جنود يقومون بمهام قتالية وهذا انجاز قومي ، اما من حيث الاسلحة ، فقد علقنا اهمية كبرى على سرعة الحركة ، والتسليح الحديث في جميع اسلحة الجيش ، ففي حرب الليطاني ورغم الطبيعة الصعبة لميدان المعركة ، فقد اثبتت الدبابات وناقلات الجنود المصفحة والمدفع المتحرك والطائرة الحديثة والزوارق البحرية خاصة حاملات الصواريخ ، ان كل هذه الاسلحة جرت السيطرة عليها تماما ، واثبتت المعارك ان الجيش استوعبها بشكل تام ويمكن ان تعمل بتعاون كامل ، اضافة الى هذا فقد اختبرت هذه الاسلحة واختبرت قدرات جنود الاحتياط من خلال مناسبات مسن المناورات ، على مستوى الوحدات وعلى مستوى التشكيلات والفرق . ( المصدر نفسه ) .

#### ايتان والجبهة الشرقية :

اكثر من اي رئيس سابق للاركان ، كان رفائيل ايتان يقف امام مفترق طرق .

النواحي الكمية والنوعية وعالج العديد من مشاكل الانضباط . وفي مقابلة صحفية قال غور : « ان الجيش الاسرائيلي لعام ١٩٧٨ ، اصبح اكثر تنظيما واكثر انضباطا ، وهذا لا يعني ان صفوف الجيش تقيت تماما ، بل ان واجب الجيش الاستمرار في معالجة هذه القضية . وما من شك في ان قضية الضبط والربط في الجيش يجب ان تلقى معالجة عميقة على جميع المستويات . ففي الفترة الاخيرة عانى الجيش من عدة احداث شاذة ومفزعة في مجال الانضباط خاصة بالنسبة للمركبات ، والاشراف على السير في الطرقات ، والحفاظ على اللياقة في قيادة الاليات ، ومحاكمة الجنود الذين ارتكبوا سرقات وخاصة في قرى الجنوب اللبناني . يتضح ان هذه المشكلة مثل اية مشكلة انسانية ليس لها حلول قاطعة ، وان مشكلة الضبط والربط تتطور وفقا لتطور المجتمع . . . . اما بالنسبة للضباط فان المشكلة ليست مشكلة ضبط وربط تجاه الاوامر الصادرة ، بل هي مشكلة الاستعداد او عدم الاستعداد لتحمل المسؤولية ، وان كل ضابط يتعامل مع هذا الموضوع وفقا لتقريراته الشخصية ، وهذا امر يتعارض في معظم الاحيان مع قضية الانضباط ( هاتسوفيه - ١٩٧٨/٤/٢١ ) .

ثم تحدث مردخاي غور عن المشاكل التي كانت تواجه الجيش بعد حرب السادس من تشرين الاول عام ١٩٧٢ ، وعمما تم انجازه في فترة خدمته وقال : « لقد فقدنا في الحرب عددا كبيرا من القادة والضباط ، وبشكل خاص من فئتين ، فئة العمداء وما فوق ، وفئة قادة الكتائب والسرايا ، اما اليوم وبعد تدريب خاص ومتواصل استطيع القول ان لدينا قادة ممتازين في هذا المجال . فخلال هذه الفترة طورنا كلية الامن القومي ، ثم خرجنا دورتين لقادة الالوية ، وقد اجتازت هذه الدورات

الاسرائيلي ، جيش السبعينات وبداية الثمانينات بلا سيناء سيكون جيشاً مختلفاً ؟ على هذا الاساس سوف يواجه مشكلات ميدانية وعملية مختلفة . هذا الامر سوف يكون ملموساً ومحسوساً في جميع اسلحة الجيش ، فسلح الطيران - بعد الانسحاب من سيناء - سوف يضطر الى تقليص قاعدته ومجاله الجوي الى النصف تقريباً ، اما سلاح البحرية فسوف يضطر الى تجميع قطعه في ميناء ايلات المكشوف ، كذلك فان الامر لن يكون مختلفاً بالنسبة لباقي الاسلحة البرية ، لان الجيش سوف يضطر الى وضع خطة مختلفة ، وبشكل خاص بالنسبة لما يتعلق بوحدات مخازن الطوارئ ومراكز الذخيرة ومناطق التدريب ، ثم انه بعد انسحابه من سيناء سيكون ملزماً بإقامة معسكرات دائمة لكل الفرق المعدة للجبهة المصرية او لتلك التي انسحبت منها .

وخلافاً لما يعتقد رجال الاقتصاد فـان اسرائيل لن تجري تخفيضات فعلية في ميزانية وزارة الدفاع ، على الاقل في السنوات الخمس الاولى - بعد الانسحاب - فهناك مصاريف باهظة سوف يتم انفاقها على بناء الخطوط الجديدة التي سيتمركز فيها الجيش ، كذلك سيحتاج الجيش الى اموال طائلة للحفاظ على الهوة في النوعية بينه وبين باقي الجيوش العربية ، مقابل الكميات الباهظة من الاسلحة الحديثة التي تتدفق على هذه الجيوش .

وان اكثر ما يمكن ان يميز فترة رفائيل ايتان ، هي عملية التنظيم في اتجاه العمق ، اي رفع المستوى النوعي ، خاصة بعد التعاضل الكمي النشط والسريع في عهد مردخاي غور ، وعلى ضوء هذا التوسع الكمي ستكون مهمة ايتان صعبة جداً في رفع المستوى القتالي وزيادة الفاعلية . ( المصدر نفسه ) .

الا ان شهوراً عديدة سوف تمر ، حتى تتضح وجهة سير منطقة الشرق الاوسط . وعلى كل حال واذا تطورت الامور في اتجاه احتمال التسوية ، او في اتجاه احتمال الصدام فان الجبهة الشرقية والشمالية ستكون ذات اهمية خاصة ، اكثر من اية مرة في الماضي ، بسبب حساسية هذه الجبهة وموقعها الجغرافي وانعدام العمق الاستراتيجي وعليه « فان هذه الجبهة سوف تحتل مكاناً مرموقاً في خطط الجيش الاسرائيلي وفي توجيه القوات اليها ، هذا ما يمكن ان تؤول اليه الامور ، اذا ما تم التوصل الى اتفاق سلام مع مصر ، وبقية سوريا والاردن والفلسطينيون مصريين على رفض الاتفاق ، ففي مثل هذه الحالة ستكون الضفة الغربية عبارة عن برميل من البارود تهدد الاتفاق الاسرائيلي المصري . ان الجبهة الشرقية سوف تكتسب اهمية كبرى ، خاصة ان جيوشاً عربية معادية سوف تأخذ مواقعها على هذه الجبهة ، وحتى ان لم تصل اسرائيل الى اتفاق سلام مع مصر ، فان اهمية الجبهة الشرقية سوف تزداد - رغم ان الجيش المصري سيبقى اكبر جيش عربي - والسبب في ذلك التطورات التي طرأت على الجيوش العربية ، منذ حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، خاصة الجيش العراقي والسوري والاردني . ان هذه الجيوش يمكنها ان تتواجد على مسافة قريبة جداً من المناطق الحيوية والحساسة جداً بالنسبة لاسرائيل ، وفقاً لهذا فان الجبهة الشرقية ستأخذ ابعاداً جديدة في فترة رفائيل ايتان » ( هارتس - ١٢/٢ / ١٩٧٨ ) .

وقد طرحت صحيفة هارتس سؤالاً بعد تولي رفائيل ايتان رئاسة الاركان ، وهو هل الانسحاب من سيناء ، اذا تم فعلاً ، سيتترك تأثيره على الجيش في فترة رئيس الاركان الجديد ، خاصة ان الجيش

ف - ١٦ الامريكية ، لان تكاليفها باهظة جدا ، وعلينا الاستمرار بل التوسع في انتاج « كفير » المعدلة والحصول على طائرات ف - ١٥ ، وبالمقابل البدء فوراً في عملية صناعة الطائرات ارييه . والجدير بالذكر ان هناك نقاشا عنيقاً وحاداً يدور في اوساط اصحاب القرار في اسرائيل ، حول تطوير هذه الطائرة ام لا ، وفي حالة عدم صدور قرار ايجابي بهذا الشأن ، فان هناك خطورة في ان تتحول مصانع المصناعات الجوية الى حظيرة لاصلاح الطائرات فقط .

( يديعوت احروفوت - ١٤/٢/١٩٧٨ ) .

#### دبابة اسرائيلية :

اضافة الى سعي اسرائيل ، لانتاج طائرة حديثة ، فانها قد دخلت فعلاً مرحلة انتاج دبابتها الجديدة « مركبا » « فقد صرح ناطق باسم وزارة الدفاع بان الدبابة « مركبا » قد طورت في اسرائيل ، وهذا افضل لاسرائيل من الحصول على آليات مدرعة من الخارج ، حيث ان الخبراء تمكنوا من تطوير دبابة تملك من الخواص ما يلائم منطقة الشرق الاوسط ، اضافة الى ان القائمين على صناعة هذه الدبابة ، اخذوا بعين الاعتبار الدروس المستفادة من الدبابات الاخرى . وعلى الرغم من عدم نشر اية تفاصيل عن هذه الدبابة الجديدة ، الا ان مصادر اجنبية قالت ان وزنها ٥٦ طناً تحمل مدفع ( ١٠٥ ) ملم مع جهاز توجيه يعمل باشعة « ليزر » وهي قادرة على حمل ذخيرة تكفي الى ٦٢ دفعة نيران . ( هارتس - ٣٠/١/١٩٧٨ ) .

#### قضايا التسليح مع الولايات المتحدة :

تقدمت اسرائيل بطلب الى الولايات المتحدة ، للحصول على اسلحة متقدمة

#### ارييه الاسرائيلية بدلا من ف - ١٦ :

رغم ان اسرائيل تستطيع الحصول من الولايات المتحدة على معظم الاسلحة بالكمية والنوعية التي تريد ، فانها ما زالت تسعى الى الاعتماد على قدرتها الذاتية في تصنيع اسلحتها وخاصة الطائرات منها :

فبعد ان انتجت اسرائيل طائرة « كفير » ثم عادت وطورت هذه الطائرة ، فقد بدأت تفكر في انتاج طائرة تتناسب مع الثمانينات . « ففي تاريخ ١٣/٢/١٩٧٨ ، سمحت لجنة الخارجية والامن بنشر تقرير كانت قد اعدته اللجنة الفرعية لشراء الاسلحة ينص على « تزويد سلاح الطيران الاسرائيلي بطائرة حديثة تتناسب والثمانينات ، توصي اللجنة الفرعية بتطوير الطائرة الحربية الاسرائيلية ارييه » .

يستغرق تطوير هذه الطائرة من ٧-٨ سنوات ، وهذا الامر يستلزم ميزانية قدرها ٤٠ مليون دولار ( دافار - ١/٣/١٩٧٨ ) .

ففي عام ١٩٧٤ ، ولدى الانتهاء من تطوير طائرة « كفير » بدأ نفس المواقم باعداد الخرائط والمشاريع لطائرة جديدة لقد نفذ هذا العمل بتصديق من مجلس ادارة المصناعات الجوية ، ووزير الدفاع السابق شمعون بيرس ، وعليه فقد خصصت المصناعات الجوية من ميزانيتها الخاصة مبلغ ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية لاعداد النموذج الصناعي لهذه الطائرة . اما سرعة الطائرة وقدرتها على المناورة ومهامها وتسليحها ، فقد جرى التكتّم عليها .

وحول هذا الموضوع تحدث مدير عام المصناعات الجوية السابق شويمر قائلاً : « ان اسرائيل لا تحتاج مطلقاً الى طائرات

ومتطورة على امتداد عشرة أعوام ، ومن بين الاسلحة التي تضمنتها الطلب ، « طائرات مقاتلة من نوعي ف - ١٥ و ف - ١٦ . قبل ذلك كانت اسرائيل قد حصلت ابتداء من عام ١٩٧٦ ، على ٢٥ طائرة مقاتلة من طراز ف - ١٥ . لكن موضوع الحصول على المزيد من هذه الطائرات بالإضافة الى طائرات ف - ١٦ بقي مفتوحا ، لاسباب عديدة اهمها : ان الاسرائيليين فضلوا ، خلال الفترة السابقة ، عدم الحصول على المزيد من طائرات ف - ١٥ واصروا على ان يسمح لهم بالاشتراك في انتاج طائرات ف - ١٦ الا ان الولايات المتحدة رفضت طلب الانتاج بحجة ارتباط هذا المشروع بربع دول اعضاء في حلف الاطلسي » (١٧) .

كانت اولى مهام وزير الدفاع عيـزر فايتسمان اثناء زيارته لواشنطن، الحصول على قرار مبكر قدر الامكان لصفقة طائرات ف - ١٦ « وطلب زيادة عدد طائرات ف - ١٥ من ٢٥ الى ٥٠ طائرة . . . هذا اضافة الى ان اسرائيل خفضت عدد الطائرات من طراز ف - ١٦ التي طلبتها من ١٥٠ طائرة الى ٩٠ طائرة فقط ، هذا وسيبدأ تسليم طائرات ف - ١٦ في مطلع عام ١٩٨٣ » ( معاريف - ١٢/٢٣ / ١٩٧٧ ) .

وتفصيل هذه الخطة غير معروفة بالضبط الا ان وزير الدفاع الامريكى هارولد براون علق قائلا « انه من اجل تنفيذ وتحقيق هذه الخطة فان اسرائيل بحاجة الى عشرة مليارات دولار بالاسعار الحالية، وهذا عبء لا يمكن لاسرائيل ان تتحمله وحدها ، حتى بقيت تحصل على المساعدات العسكرية الامريكية طوال سنوات تنفيذ الخطة ، فهذه المساعدات لا تكفي لتمويل شراء الاسلحة المطلوبة بشكل كامل » ( هآرتس - ١٩٧٨/٧/٧ )

يتوقع المراقبون ان اسرائيل سوف تطالب بل ستضغط على الولايات المتحدة بواسطة اعوانها في الكونغرس والادارة من اجل الحصول على مساعدات مادية كبيرة لم تعهدها العلاقات الاسرائيلية الامريكية من قبل لتمويل خطة شراء الطائرات ، مستغلة رغبة امريكا في عدم تعطيل المفاوضات الاسرائيلية الامريكية ، طالما لا تعدو كونها مفاوضات .

ويقدر البعض في اسرائيل انه ربما حصلت اسرائيل على مساعدات بقيمة كبيرة تغطي نصف ثمن الصفقة ، والنصف الاخر ربما ستحصل عليه بطريقة قروض طويلة الاجل دون فائدة .

الا ان الولايات المتحدة تضع شروطا وحيدا على هذه الصفقات والاموال لاسرائيل وهو « عدم تعطيل المفاوضات مع مصر وعدم عرقلة القطار الامريكى في المنطقة العربية » ( المصدر نفسه ) .

مكرم يونس

رغم ان الادارة الامريكية موافقة ضمنا على الخطة الاسرائيلية لشراء الاسلحة هذه الخطة التي اطلق عليها اسم «مطمون» ج ومعناها « كنز » ، وعلى الرغم من ان

## قضايا دولية

المصري ، اوروبا الغربية - بمركزية  
المسألة الفلسطينية في القضية كلها .

□ استعداد حاد لدى تلك الاطراف -  
بما فيها الطرف « العربي » ، أي النظام  
المصري والرئيس السادات بالتحديد -  
بتقديم التنازلات « الفلسطينية » واستبعاد  
الجانب الفلسطيني باعتبار ان المسألة  
الفلسطينية هي العقبة الرئيسية أمام  
الوصول بالمبادرة المصرية الى نتيجة ما ،  
او بالاحرى الى أي نتيجة .

وهكذا كان « التطور » الابرز الذي  
احرزته جهود النظام المصري للتوصل الى  
أي نتيجة يقال معها ان « مبادرة السلام »  
التي بدأت بزيارته لاسرائيل لم تضع هباء  
هو احجام الرئيس السادات في اضرار  
مقترحات قدمها الى اسرائيل عن أي اشارة  
الى منظمة التحرير الفلسطينية ، الامر  
الذي قيمته المصادر الدبلوماسية الغربية  
( نيوزويك - ١٧/٧/١٩٧٨ ) بأنه « علامة  
تحمل الامل على ان المصريين يحاولون  
تجنب أي صياغة من شأنها ان تثير  
اعتراض الاسرائيليين دون ما ضرورة » .

ويمكن اعتبار هذا التنازل الجديد من  
جانب القاهرة جزءا من التكتيك المفضل  
لدى الدبلوماسية الاميركية ، وهو تكتيك  
البحث عن « مناطق الاتفاق » بين مصر  
واسرائيل ، والابتعاد عن « مناطق  
الاختلاف » . وفي هذا الاطار نفسه كان  
الاقتراب في المقترحات المصرية الجديدة  
نحو منطقة اتفاق يبدو ان الدبلوماسية  
المصرية اعتبرت انها ابرز مناطق الاتفاق

كلما اوغلت « عملية السلام » التي  
ترمي الى خلق حالة استمرارية  
للاتصالات بين مصر واسرائيل في التحول  
الى عملية غربية بحتة تدور فيها  
تحركات واتصالات الولايات المتحدة  
واوروبا الغربية ٠٠٠ كلما ازداد افراغ  
« قضية الشرق الاوسط » من محتواها  
الاسرائيلي واصبحت « القضية » تعالج  
وكانها قضية علاقات مصرية - اسرائيلية  
لا قضية صراع عربي اسرائيلي .

هذه في اعتقادنا هي المعادلة التي  
تنطق بها التحركات والاتصالات الكثيفة  
الكثيرة التي شهدناها الشهر المنقضي حول  
قضية الشرق الاوسط ، والتي شملت  
المحادثات الثنائية والمتعددة الاطراف  
التالية :

- السادات - كرايسكي - برانت .
- كرايسكي - برانت .
- السادات - بيريس .
- السادات - فايتسمان .
- الجمسي - فايتسمان .
- كامل - داين - فانس .

وتنطبق المعادلة المذكورة على  
تصريحات اطراف هذه الاتصالات ، وغيرهم  
كما تنطبق على طبيعة المسائل التي  
اثيرت فيها تماما . وهكذا برز بشكل  
اوضح من أي وقت مضى عاملان  
متناقضان :

□ شعور حاد لدى جميع الاطراف  
الولايات المتحدة ، اسرائيل ، النظام

بينها وبين الدبلوماسية الاسرائيلية ، وهي « مسألة الامن » ، وبتحديد اكثر « مسألة امن اسرائيل » .

فقد قال الرئيس السادات بوضوح قاطع انه يعترف بقلق اسرائيل على امنها وانه لهذا مستعد لتقديم كافة الضمانات لهذا الامن . وبالفعل فقد ذكرت وكالة الانباء الرسمية المصرية ( وكالة انباء الشرق الاوسط ) وهي تغطي مقابلة اجراها عدد من الصحافيين اليابانيين مع الرئيس السادات في الشهر الماضي ان الرئيس قال في هذه المقابلة ان هناك اجراءات يمكن لمصر ان تقبلها لتلبية حاجات الامن الاسرائيلية ، وان هذه الاجراءات تتلخص في النقاط الست التالية :

- مناطق منزوعة السلاح على الحدود .
- مناطق محدودة التسليح .
- وجود لقوات الامم المتحدة فسي المناطق المنزوعة السلاح .
- وجود محطات للانذار المبكر .
- اتفاقية صلح تنص على ان خليج العقبة ممر مائي مفتوح .
- فتح الحدود وتكوين لجنة مشتركة للإشراف على تنفيذ اتفاقية الصلح .

وهكذا يتضح ان منطقة التباعد الرئيسية بين القاهرة وتل ابيب هي « المنطقة الفلسطينية » ، وان منطقة الالتقاء الرئيسية بينهما هي « المنطقة الامنية » . وتقضي المرحلة الجديدة ، التي بدأت بمجرد زيارة نائب الرئيس الاميركي مونديل لمصر ، بتجاهل المنطقة الفلسطينية والتركيز على المنطقة الامنية ، حيث لا تبدو هناك امكانية للتوصل الى تفاهم بشأن المسألة الفلسطينية ، في حين ان وجهات نظر مشتركة تتضح فيما يتعلق بالامن .

ويفسر هذا الوضع لماذا تفرض هذه الدبلوماسية على النظام المصري ان يقدم التنازلات سلبا وايجابا . سلبا عن طريق

اغفال ما لا امل في التوصل فيه الى اي تفاهم مع الاسرائيليين ، وهذا بالتحديد ما يتعلق بالجوهري ، وهو المسألة الفلسطينية . وايجابا عن طريق التحرك رأسا نحو المطالب الاسرائيلية وتليتها حينما كان ذلك في مقدور وضمن صلاحيات النظام المصري .

ويتضح بنظرة على المعلومات المتاحة عن كل الاتصالات الغربية خلال الشهر الماضي انه اذا كانت هذه الاتصالات قد بدأت بتقديم الاقتراح المصري الخاص باعادة ضفة الاردن الغربية المحتلة الى الاردن ، واعادة قطاع غزة المحتل الى مصر ، وهو اقتراح واكبه اقتراح اسرائيلي مضاد . الا ان سير الحادثات اتجه بعيدا عن هذا المشروع بقدر ما كان فيه من امس فلسطيني ، فتحولت الاهداف بالنسبة للاقتراح المصري الى صيغة اكثر تواضعا بكثير ، تمثلت في التمني على اسرائيل ان تقوم ببادرة تجاه الرئيس السادات ترد بها على بادرة « الزيارة » . وتردد ان هذا التمني يتعلق بإمكان تسليم مدينة العريش المصرية في شمال سيناء المحتلة الى « الادارة » المصرية ( وليس الى القوات المصرية ، اي مع تجريدتها من السلاح ) لتكون مقرا لمفاوضات لاحقة تجري بين الطرفين المصري والاسرائيلي .

والغريب ان اهتمام الاعلام الغربي - واهتمام جزء كبير من الاعلام العربي ايضا - انجذب بشدة خلال الشهر الماضي الى مؤتمر « قلعة ليدز » البريطانية الثلاثي الذي عقد لمدة يومين ( ١٨ و ١٩ تموز - يوليو ) بين محمد ابراهيم كامل وزير الخارجية المصري ، وموشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلي ، وسايروس فانس وزير الخارجية الاميركي . فقد عقد هذا المؤتمر وسط اغرب تمهيدات من نوعها من جانب الطرف الداعي اليه ( الولايات المتحدة ) والطرفين الاخرين المشتركين فيه .



تكون قد جرت مبادرة السادات بأسرها عمليا الى نقطة الاتفاقات الثنائية الجزئية المصرية - الاسرائيلية . وهو اتجاه معاكس تماما لكل التأكيدات الرسمية المصرية بأن مبادرة السادات لا ترمي الى التوصل الى اتفاق ثنائي مع اسرائيل ، حتى ولو كان اتفاقا شاملا .

ولعل هذه النتائج التي انتهى اليها مؤتمر ليدز - بزواياها الثلاث - تؤكد بصورة عملية صحة المعادلة التي لاحظنا انها تحكم التطورات الاخيرة وهي معادلة شحن « عملية السلام » بمضمون غربي بحت ، و« فراغ » قضية الشرق الاوسط ، من كل محتوى فلسطيني .

وبطبيعة الحال فليس هناك ما يدعو للتصور بأن المحادثات « الفجائية » التي اجراها عيزر فايتسمان وزير الدفاع الاسرائيلي مع السادات والفريق اول محمد الجمسي وزير الحربية المصري في سالزبورغ ، كانت تسير في تيار وحدها يختلف عن التيار الذي سارت فيه المفاوضات في « قلعة ليدز » ببريطانيا . بل ان انتهاء مفاوضات ليدز الى مجرد الاتفاق على مزيد من المفاوضات يحمل الدليل على ان اللقاء المفاجيء الذي جمع بين السادات والجمسي وفايتسمان لم يكن اكثر من جزء من اللعبة الداخلية الاسرائيلية ، فقد نجحت به حكومة مناحم بيغن الاسرائيلية في ازالة الاثار النفسية لاجتماع السادات في فيينا قبلها بأيام مع شمعون بيريس زعيم المعارضة الاسرائيلي . وهكذا يكون السادات قد ترك نفسه يستخدم استخداما مهيئا في لعبة الحكومة والمعارضة الاسرائيلية دون ان يخرج بأي نصيب خاص به .

وإذا كانت لا تزال هناك حاجة الى دليل جديد على الاتجاه الاميركي نحو افراغ القضية من اي محتوى فلسطيني، فاننا نجد

اذ كان بين الاطراف الثلاثة اجماع على ان هذا المؤتمر الثلاثي لا رجاء فيه . وحتى عندما عقد المؤتمر وكان من الضروري التحدث عن « جوانب ايجابية » قالت الاطراف ان اهم ما فيه من ايجابية انه جمع الطرفين المصري والاسرائيلي من جديد الى طاولة المفاوضات ، فان مجرد حقيقة جلوسهما وتحادثهما معا هي حقيقة ايجابية . وقالت الاطراف الثلاثة ايضا ان الهدف من مفاوضات المؤتمر كان التمهيد لمفاوضات اخرى لاحقة . لا اكثر . واعلن سايروس فانس في ختام المؤتمر ان خلافاً أساسية ما زالت قائمة بين مواقع الجانبين وأن كثيراً من العمل لا يزال ينتظرنا .

والنتيجة التي اسفر عنها مؤتمر ليدز الثلاثي تؤكد ان الولايات المتحدة مستمرة في سحب « عملية السلام » الى اعماق متاهات المفاوضات التي تسبقها تمهيدات واتصالات اميركية بأسلوب « الدبلوماسية الهادئة » بعيدا عن البحث الجاد في جوهر الصراع العربي - الاسرائيلي . فقد تولدت عن « مؤتمر ليدز » جولة اتصالات اميركية جديدة يبدأها السفير الاميركي المتجول الفرد اشرتون ، ويكملها وزير الخارجية فانس .

اما بالنسبة لاسرائيل فقد نجح مؤتمر ليدز في اعادة مصر الى المفاوضات المباشرة ، التي كانت قد توقفت - رسميا - منذ شهر كانون الثاني الماضي .

وتخرج مصر وحدها بنتيجة غير مؤكدة هي « اتفاق سيناء ثالث » يتعلق بانسحاب جزئي جديد للقوات الاسرائيلية في سيناء ، واذا صحت هذه النتيجة غير المؤكدة - التي لم يرد لها ذكر في اطار مؤتمر ليدز ، انما سربت انباء عنها خارج اطار المؤتمر من الاعلام الغربي والعربي - فان الجولة الاخيرة من الاتصالات الغربية

وإذا كان البحث عن « نقاط الاتفاق » بين موقفي القاهرة وتل أبيب قد اُبتعد بالمشكلة عن العامل الفلسطيني واقترب بها من العامل الامني ، حيث قدم النظام المصري كافة الضمانات والتكسيـدات والتنازلات ٠٠٠ فان الولايات المتحدة تركز منذ فترة غير قصيرة على حقيقة ان احدي « نقاط الاتفاق » بين الموقفين المصري والاسرائيلي تتمثل في رفضهما أي حضور سوفياتي ، سواء كان هذا الحضور ماديا في المنطقة او حضورا سياسيا ودبلوماسيا في المفاوضات . وينطبق هذا أول ما ينطبق على جنيف التي لوح بها الرئيس كارتر أخيرا . وهو تلويح اعتبر اهم تمهيد اميركي لاعلان انتهاء « مبادرة » السادات .

وبطبيعة الحال فان ابعاد الاتحاد السوفياتي لا يشكل هدفا مصريا واسرائيليا بقدر ما يشكل هدفا اميركيا في المرحلة الراهنة بوجه خاص .

ولقد حملت تطورات الشهر المنقضي مؤشرات واضحة على ان الولايات المتحدة لا تسعى الى تضييق هوة الخلافات بينها وبين الاتحاد السوفياتي او تخفيف حدة التوتر التي اعادت اجواء الحرب الباردة الى علاقات الشرق والغرب . بل انها على العكس فتحت من جديد ابواب المعركة التي يطلق عليها الرئيس الاميركي كارتر شعار « حقوق الانسان » . واثرت من هذا الباب شن حملات دعائية على الاتحاد السوفياتي تذكر بالحملات التي كانت سائدة في الاربعينات والخمسينات . ولم يغيب العنصر «اليهودي» في الحملات الاميركية، انما تمثل في اثنين من المنشقين السوفيات هما اناتولي شارانسكي والكسندر غينزبرغ اللذين لم يخفيا حتى على السلطات السوفياتية ولاءهما لاسرائيل ، حتى انهما يرفعان علم اسرائيل داخل مسكنيهما !

هذا الدليل في حقيقة ان الاقتراح الثنائي الذي اذاعه برونو كرايسكي مستشار النمسا وفيلي برانت مستشار المانيا الغربية السابق ( بوصفهما زعمي « الدولية الاشتراكية ) بشأن ايجاد حل لقضية الشرق الاوسط ٠٠٠ ان هذا الاقتراح الثنائي قد ولد ميتا . فلم يجد اهتماما . - بأكثر من كلمات المجاملة من بعض المسؤولين . وعلى الفور وجد طريقه الى النسيان الكامل ، على الرغم من انه - من زاوية النظر الفلسطينية - لا يشكل خطوة هامة حتى على المستوى النظري . لقد دعا هذا الاقتراح الى « بعض الانسحابات الاسرائيلية من كل قطاع من الارض العربية المحتلة ، مع تحديد دقيق لحدود السلام النهائية عن طريق المفاوضات ، كما دعا الى نزع السلاح حيثما دعت الضرورة الى ذلك في بعض المناطق التي ستعيدها اسرائيل الى العرب ، واكد الاقتراح حق اسرائيل في اتخاذ اجراءات تكفل امنها ، دون ان يحدد الاقتراح بدقة طبيعة هذه الاجراءات ، واخيرا فان الاقتراح يدعو الى حق الفلسطينيين في الاشتراك في مفاوضات تحدد مستقبلهم السياسي .

اما اذا كان هذا الخط يوصل - كما اشار الرئيس الاميركي كارتر في حديث له في الشهر الماضي مع عدد من رؤساء تحرير الصحف الاميركية - الى « دعوة الامم المتحدة مرة اخرى الى المشاركة » ، الامر الذي فهم انه يعني العودة الى مؤتمر جنيف ٠٠٠ فانه يوصل بالتأكيد السى جنيف ليس فقط من دون منظمة التحرير الفلسطينية ، التي استبعدتها الطرف « العربي » ( الرئيس السادات ) ، انما ايضا الى جنيف من دون المسألة الفلسطينية ، اي الى جنيف ربما ثنائية ( مصرية - اسرائيلية ) او جنيف متعددة الاطراف ولكن لا وجود للمسألة الفلسطينية على جدول اعمالها .

في بون ( ١٧ و ١٨ تموز ) في هذا الوقت بالذات جاء ليؤكد ابتعاد الولايات المتحدة كثيراً - في المجال الاقتصادي - عن مواقع القيادة في الغرب . فقد اجتمع رؤساء الولايات المتحدة والمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا واليابان وكندا وإيطاليا لوضع استراتيجية لمعالجة المشكلات الاقتصادية الحادة التي يعاني منها العالم الرأسمالي : التضخم ، انعدام استقرار العملات الغربية، البطالة، ارتفاع الواردات النفطية ٠٠٠ الخ وكانت المشكلات الاقتصادية الأميركية هي الأبرز بين مشكلات الدول الرأسمالية « الغربية » المجتمعة كلها . وقد برز تحدي كل من اليابان والمانيا الغربية - والى حد مساهمة فرنسا - للولايات المتحدة وتحميلها ايها مسؤولية الازمة الاقتصادية الحادة التي يعاني منها المغرب والنظام الاقتصادي الغربي كله ، وخاصة انهيار قيمة الدولار الأميركي وفشل الولايات المتحدة في وضع سياسة رشيدة لاستهلاك الطاقة تساعد على الحد من وارداتها من النفط من الخارج .

وبشكل عام فقد عكس المؤتمر - رغم التصريحات المتفائلة والبيانات المبهمة عن التوصل الى وجهات نظر مشتركة - تناقض المصالح ، وبالتالي السياسات ، بين الدول الغربية ، الى حد أصبح فيه حديث الصحافة الغربية عن « الحرب الاقتصادية » بين هذه الدول بمثابة خبز يومي . ويمكن القول بأن هذه الحرب قد بدأت فعلاً وان لم تعلن رسمياً . وقد وجهت الصحافة الأميركية - التي تعكس بدرجة أو بأخرى الحالة العامة للرأي العام الأميركي - هجوماً حاداً على سياسة اليابان الاقتصادية بوجه خاص ، من منطلق تناقض اصلاً مع منطلقات الفكر الاقتصادي - الاجتماعي الأميركي . إذ هي تطالب بالتنسيق بين الدول الغربية ، وتطالب بتدخل الدولة في اليابان للحد من

وقيام الولايات المتحدة بتصعيد الحملة على الاتحاد السوفياتي مستغلة مثل هذه القضايا الفردية يشير بوضوح الى رغبة أميركية في اختيار ميادين للمواجهة مع الاتحاد السوفياتي لا تقتصر على الميادين الخارجية . ووصول الامر الى حد الغاء عدد من العقود والصفقات التجارية بينهما كاجراء « عقابي » بسبب الاحكام التسيب اصدرتها السلطات السوفياتية على « المنشقين » هو دليل على ان الولايات المتحدة تستعد لحملة مقاطعة تقودها في « العالم الغربي » كله يهدف اضعاف علاقات التعاون بين الغرب والاتحاد السوفياتي من ناحية ، وخلق مشاكل مضاعفة للحزب الشيوعي الغربية من ناحية أخرى . سواء يدفع هذه الاحزاب الى ادانة الاحكام السوفياتية ضد « المنشقين » ، وبالتالي اضعاف العلاقات بين تلك الاحزاب والحزب الشيوعي السوفياتي . أو يشن حملة ضد الاحزاب الشيوعية التي تمتنع عن ادانة الاجراءات السوفياتية .

ان بلوغ الحملة الأميركية على الاتحاد السوفياتي حداً كبيراً من المبالغة ازاء قضايا فردية كهذه يعني ان الولايات المتحدة اختارت التغطية على عجز سياستها الخارجية في مواقع عديدة من العالم عن حل مشكلات علاقاتها الدولية او اعادة النفوذ الأميركي وتحقيق استقرار كاف للنظم المؤيدة له عن طريق حملة مضادة تظهر فيها الولايات المتحدة من جديد في صورة « زعيمة العالم الحر » المدافعة عن قيم الحرية وحقوق الانسان . الخ وذلك كبديل عن صورة الولايات المتحدة التي كانت قادرة اقتصادياً من قبل على ان تقود العالم الحر بعيداً عن ازماته الاقتصادية بالدرجة الاولى .

ولعله كان من المصادفات ذات المغزى ان عقد مؤتمر القمة الاقتصادية الغربية

( الكوميكون ) - وهو بمثابة السوق المشتركة للبلدان الاشتراكية - وفي الوقت نفسه قطع الصين كل مساعداتها عن فيتنام ، انما يدل دلالة واضحة على ان الصراعات الثنائية في شرق اسيا قد لا تقف عند حدودها الثنائية الراهنة من ناحية ، وقد تزداد استقطابا في تحديد مساراتها والنتائج التي ستنتهي اليها ، من ناحية اخرى . بمعنى ان هذه الصراعات الثنائية بين بلدان المعسكر الواحد ( نظريا على الاقل ) تتجه للدخول في اطارها الواسع الطبيعي وهو اطار الصراع الاكبر القائم بين الاتحاد السوفياتي والصين . وثمة مؤشر له دلالاته الخاصة ، وهو ان التغييرات « الليبرالية » الداخلية في الصين التي اتت خلال الاسابيع الاخيرة - في مجالات الاقتصاد والحياة العامة - بعد التغييرات التي حملتها السنوات الماضية الى سياسة الصين الخارجية ٠٠٠ كل هذه التغييرات ابقت على عامل ثابت واحد ، هو العداء القاطع للاتحاد السوفياتي وغياب اي استعداد للتعاون معه ، بل ظهور علامات على التوجه نحو تحالفات استراتيجية ضده .

سعيد كرم

الصادرات لمصلحة صادرات الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة بطبيعة الحال . بينما تتمسك اليابان بمبادئ حريسة التجارة وعدم التدخل باعتبارها الركائز الاساسية للاقتصاد الرأسمالي التي لا يمكنها التخلي عنها دون تغيير البنية الاقتصادية ككل .

فهل تستطيع الولايات المتحدة بأسلوب المواجهة بالحملات الدعائية ان تعيد لنفسها موقع القيادة في العالم الغربي ؟ هل يكفي الهجوم على سياسة الاتحاد السوفياتي الداخلية ليكون عاملا لتجميع الغرب حول واشنطن ، رغم التناقضات في المصالح والسياسات ؟

ربما كانت الاجابة على هذا السؤال ابسط كثيرا لو ان الصورة على الجانب الاخر لم تكن بدورها تحمل التناقضات والتناقضات المضاعفة التي تتمثل في الصراع الفيتنامي - الصيني ، والفيتنامي - الكبيودي ، والسوفياتي - الصيني ، والصيني - الالياني .

ان التطورات التي حملتها احداث الشهر المنقضي على ساحة شرق اسيا تفرض من علامات الاستفهام اكثر مما تقدم من الاجابات الواضحة بكثير . ولكن التطور المتمثل في انضمام فيتنام الى مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل

## قضايا عسكرية

### البحرية الاسرائيلية تدعم قواتها

الماء ، حضره « عزيز فايتسمان » وزير الدفاع الاسرائيلي و « رفائيل ايتان » رئيس الاركان العامة واللواء البحري

جرى في ميناء « حيفا » ، يوم ١١-٧-٧٨ ، احتفال بمناسبة انزال زورق صواريخ جديد من فئة « ريشيف » الى

عقب اغراق المدمرة « ايلات » عام ٦٧ . والتي تستهدف خلق قدرة عمل في عمق كل من البحرين الاحمر والابيض المتوسط . وخاصة بالنسبة للبحر الاحمر الذي تستورد اسرائيل عن طريقه النفط الايراني وتصدر عبره المعادن والاسمدة السى شرقي افريقيا واستراليا والشرق الاقصى . وقد تزايدت اهمية وجود زوارق الصواريخ بعيدة المدى في البحر الاحمر بعد خيرة حرب ١٩٧٣ ، التي جرى فيها فرض حصار بحري عربي عند « بساب المندب » ، على مسافة نحو ٢٣٠٠ كلم من ميناء « ايلات » . ولذلك قامست البحرية الاسرائيلية بإرسال اول زورقين تسلمتهما من هذا النوع ، وهما « ريشيف » و « كيشيت » ، الى البحر الاحمر ، في رحلة طويلة عبر البحر الابيض المتوسط ثم المحيط الاطلسي فالمحيط الهندي ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك في نيسان ( ابريل ) عام ١٩٧٤ .

واتبعتهما بزورقين آخرين ، هما « روماه » و « كيدون » ، خلال عام ١٩٧٦ على الأرجح ، وابتقت بقية الزوارق في البحر الابيض المتوسط . وقد جهزت الزوارق العاملة في البحر الاحمر بأجهزة « سونار » الخاصة باكتشاف الغواصات .

وفي كانون الثاني ( يناير ) ١٩٧٥ طلبت البحرية الاسرائيلية من احواض بناء السفن في « حيفا » ، بناء ٦ زوارق اخرى بالاضافة للزوارق الست الاولى التي كانت قد طلبتها عام ١٩٧٠ ، والتي تسلمت اخرها ، المسمى « يافا » ، في نيسان ( ابريل ) ١٩٧٥ .

وتم لها استلام اول زوارق الدفعفة الثانية الستة في كانون الأول ( يناير ) ١٩٧٧ . ولذلك فنحن نرجح ان يكون الزورق الذي انزل مؤخرا هو الزورق التاسع ، نظرا لان معدل الانتاج منذ

#### « ميخائيل بركاشي » قائد البحرية .

وهذا الزورق ، الذي لم يعلن اسمه بعد ، هو الزورق الثامن ، أو التاسع ، الذي أنتجته احواض بناء السفن الاسرائيلية في « حيفا » ، منذ ان انزل الى الماء الزورق الاول المسمى « ريشيف » في ١٩-٢-٧٣ ، ثم انزل الخدمة العملية في البحرية الاسرائيلية بعد ان جرى تسليحه وتجهيزه للعمل قسي نيسان ( ابريل ) من العام ذاته .

وقد بدأت البحرية الاسرائيلية في تصميم هذا النوع من زوارق الصواريخ قسي العام ١٩٦٨ ، اثر تسلمها ٦ زوارق صواريخ من فئة « ساعر » جرى تصنيعها في ميناء « شيربور » بفرنسا ، وذلك من اصل ١٢ زورقا مماثلا تم الاتفاق على تصنيعها في فرنسا مع شركة المانية - غربية في العامين ١٩٦٥ و ١٩٦٦ . وقد تسلمت الزوارق الست الاخرى من فئة « ساعر » في العام ١٩٦٩ - ١٩٧٠ ، بعد ان فرضت فرنسا حظر تصدير الاسلحة لاسرائيل ، وذلك ضمن ما عرف بقصة سرقة زوارق « شيربور » ، التي تواطأت فيها أجهزة الاستخبارات الفرنسية مع الاستخبارات الاسرائيلية على تهريب الزوارق الخمسة الاخيرة من الميناء المذكور في اواخر العام ١٩٦٩ .

ويرجع تصميم ونتاج فئة زوارق « ريشيف » في اسرائيل الى ضمان حصول البحرية الاسرائيلية على حاجتها من هذه الزوارق ، التي اصبحت تشكل العمود الفقري لقوتها الضاربة ، دون مشكلات الاستيراد من الخارج والعوامل السياسية التي قد تتحكم بها . فضلا عن حاجة البحرية المذكورة الى تصميم نوع اكثر قوة من زوارق « ساعر » ، من حيث بعد مدى العمل والقدرة على البقاء فترة طويلة من الزمن في اعالي البحار ، وذلك ضمن اطار الاستراتيجية البحرية الجديدة ، التي بدأت تبنها البحرية الاسرائيلية

٦٠٢ كلغ ) أحدهما في المقدمة والثاني في المؤخرة . بالإضافة الى رشاشين من طراز « اورليكون » عيار ٢٠ مم . اي ان تسليحه اسراييلي - ايطالي - سويسري . ويبلغ عدد طاقم الزورق ٤٥ فردا .

وبدخول الزورق الجديد الخدمة والذي قيل ان نفقاته مع تسليحه تبلغ نحو ٣٠ مليون دولار ، ترتفع القوة النارية الصاروخية الاجمالية للبحرية الاسراييلية ، من نحو ١٠٠ او ١٠٦ صواريخ ( وفقا لعدد زوارق « ريشيف » السابق وما اذا كان سبعة او ثمانية زوارق ) الى ١٠٦ او ١١٢ صاروخا تقريبا . على حين ان القوة النارية الصاروخية للبحرية السورية مثلا تبلغ ٣٦ صاروخا ، موزعة على ٦ زوارق فئة « اوسا » و ٦ فئة « كومار » . والقوة النارية للبحرية المصرية ٤٤ صاروخا ، موزعة على ٦ زوارق فئة « اوسا » و ١٠ زوارق فئة « كومار » .

وهكذا يشكل الزورق الاسراييلي الجديد خطوة اخرى على طريق زيادة القدرة البحرية الاسراييلية في العمل على مدى بعيد ، يهدد العمق البحري العربي في كل من البحرين الابيض المتوسط والاحمر .

#### البحرية المصرية تنوع مصادر تسليحها

أشارت صحيفة الامرام المصرية ، في ٢٨-٦-٧٨ ، الى ان الفريق اول « محمد عبد الغني الجمسي » قال في كلمة القاها في حفل تخريج دفعة جديدة من الضباط في الكلية البحرية بالاسكندرية ، جرى يوم ٢٧-٦-٧٨ ، ان مصر وافقت على شراء عدد من المدمرات الجديدة ، وانها تقوم بانتاج وتسليح انواع جديدة من زوارق الطوربيد . ولم تذكر الصحيفة اسم الدولة التي ستشتري مصر منها المدمرات المشار اليها ، ولا عدد ونوعيتها هذه المدمرات .

العام ١٩٧٣ يبلغ زورقين كل سنة ، باستثناء العام ١٩٧٦ الذي لم يعرف فيه عن تسليم البحرية الاسراييلية زوارق من هذه الفئة .

وسوف تبني ٦ زوارق من الفئة المذكورة لحساب جنوب افريقيا في احواض كل من « حيفا » و « دوربان » في جنوب افريقيا ، وذلك ضمن العلاقات الوثيقة في مجالات انتاج الاسلحة التقليدية والنووية القائمة بين الدولتين العنصريتين .

وتختلف الدفعة الثانية من زوارق « ريشيف » عن الدفعة الاولى ، في كونها اطول قليلا في هيكلها ( ٦٠٫٩ مترا مقابل ٥٨ مترا ) ، وبخلاف ذلك ، فان كلا الدفتين يبلغ وزن الزورق منها ( قياسيا ) ٤١٥ طنا ( مقابل ٢٢٠ طنا للزورق من فئة « ساعر » ) ، واقصى عرض لهيكله ٧٫٨ مترا ، وعمق غاطسه مترا و ٠٫٤ وهو مزود بأربعة محركات ديزل ( المانية الصنع ) قوة كل واحد منها ٢٦٧٠ حصانا ، وله عمودي حركة . وتبلغ

سرعة الزورق القصوى ٣٢ عقدة ، اي نحو ٥٩ كلم في الساعة . ويتفاوت مدى عمله وفقا للسرعة التي يسير بها ، ويقدر مدى عمله وهو منطلق بسرعة ٣٠ عقدة ( اي نحو ٥٥٫٦ كلم/ساعة ) بحوالي ٢٤٠٠ كلم . وهو مسلح بست قواذف صواريخ سطح - سطح من طراز « غابرنيل » المطور ، الذي يصل مداه الى نحو ٤١ كلم . فضلا عن مدفعين اليين ، مزدوجي المهام ( ضد السفن والطائرات ) من طراز « اوتوميلار » عيار ٧٦ ملم ( يصل مداه ضد السفن الى حوالي ١٦ كلم ، واقصى ارتفاع لقذيفته في الجو يبلغ ١١٥ كلم ، ومعدل رميه السريع يمكن ان يصل الى ٨٥ قذيفة في الدقيقة ، ووزن قذيفته

بالصواريخ م/ط والمدافع بالنسبة للسفن البحرية الأخرى والقوافل المؤلفة من سفن نقل أو انزال برمائي ، بالإضافة الى حمايتها من الغواصات . كما انها تعمل كسفينة دعم مدفعي لقوات انزال برمائي صغيرة أو متوسطة الحجم ، ويمكنها أيضا التعامل مع السفن الحربية المعادية بالصواريخ والمدافع .

ولكن أكثر ادوارها فاعلية هو العمل كسفينة قيادة رئيسية لعدة سفن حربية أخرى ، إذ انها تستطيع توجيه هذه السفن حتى من مسافات بعيدة ، وتوفر للطواقم القيادي البحري إمكانات اتصال وقيادة واقامة طويلة في البحر في ظروف مريحة نسبيا ، ولها قدرة العمل المستقل والدفاع عن نفسها جيدا حتى في الظروف الخطرة .

ويبلغ وزن المدمرة من الفئة المذكورة ٥٤٤٠ طنا ( قياسيا ) و ٦٢٠٠ طن ( بحمولة كاملة ) ، وطولها الاجمالي ١٥٨٫٧ مترا ، واقصى عرض لمهكلها ١٦٫٥ مترا ، وعمق غاطسها ٦٫١ امتار . وتبلغ قوة محركاتها ٦٠ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٣٠ عقدة ( ٥٥٫٥ كلم في الساعة ) ، ومدى عملها ٢٥٠٠ ميل بسرعة ٢٨ عقدة . والتسليح الرئيسي المضاد للسفن الحربية يتألف في ٣ سفن ، هي « دفونشاير » و « كنت » و « لندن » ، من ٤ مدافع ( موزعة على برجين فسي المقدمة ) مزدوجة المهمة ( ضد السفن والطائرات ) من عيار ١١٤ مم ( وزن قذيفتها نحو ٢٥ كلغ ، ومعدل رميها ٢٠ قذيفة في الدقيقة ، واقصى مدى لها ضد السفن حوالي ١٩ كلم ، وضد الطائرات نحو ٦ كلم في حالة الرمي العملي المؤثر ) .

ولكن في المدمرات الارباع الأخرى ، وهي « فايف » و « غلامورغان » و « نورفولك » و « انتريم » ( وهي الاحدث إذ دخلت الخدمة في اعوام ١٩٦٦ - ١٩٧٠ ) ،

ولكن وكالات الانباء كانت قد ذكرت ، في ١٦-٧-٧٨ ، نقلا عن مصادر البحرية البريطانية في لندن ، ان مصر تتفاوض حاليا على شراء فرقاطة قاذفة للصواريخ من طراز « دفونشاير » ومدمرتين من طراز « لنكولن » و « سالزبوري » وان عقد الشراء ، الذي تقدر قيمته بعدة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، يتضمن تحديث السفن المذكورة في الترسانات البحرية البريطانية .

وإذا ما صحت هذه الانباء ، وكان الفريق اول « الجمسي » ، يعني هذه السفن البريطانية الثلاث في تصريحه هذا ( ذلك لان هناك بعض الانباء السابقة ، وغير المؤكدة ، كانت قد ذكرت ان مصر تنوي شراء فرقاطتين مسلحتين بالصواريخ من فئة « لوبو » الايطالية الصنع ) ، فإن تعليقنا على هذا النبا نلخصه فسي النقاط التالية :

١ - السفينة المسماة « دفونشاير » ليست « فرقاطة » « Frigate » وانما هي « مدمرة » « Destroyer » ، وفقصا للتصنيف الرسمي لها من جانب البحرية البريطانية . على حين يعتبرها دليل « جينز » البحري ( طبعة ١٩٧٧-٧٨ ) من « الطرادات الخفيفة » « Light Cruisers » وكانت « دفونشاير » السفينة الاولى المنتجة من فئة مدمرات « كاونتي » « County » وقد بدأ بناءها في ٢٩-٣-١٩٥٩ ، وانزلت الى الماء في ١٠-٦-١٩٦٠ ، وبعد ان استكمل تجهيزها بالمعدات والاسلحة المختلفة دخلت الخدمة العملية بالبحرية البريطانية في ١٥-١١-١٩٦٢ .

وتوجد من هذه الفئة حاليا لدى البحرية المذكورة ٧ سفن هي « دفونشاير » و « كنت » و « لندن » و « فايف » و « غلامورغان » و « نورفولك » و « انتريم » . وكان الهدف الرئيسي من بناء هذه المدمرات هو تأمين غطاء جوي

يتلقى معلومات الاجهزة المختلفة عن الطائرات او السفن او الغواصات ، ويضع الاجراء المضاد المناسب ، ويوجه العمل حتى يتم اصابة الهدف ، فضلا عن اجهزة « سونار » ( تصنبت على الغواصات ) ، والمدمرات المذكورة مكيفة الهواء بالكامل ، ومجهزة بصورة جيدة لاقامة وعمل الطاقم ، المؤلف من ٤٧١ فردا ( ٢٢ ضابطا و ٤٢٨ رتبة اخرى ) ، لمدة طويلة .

٢ - السفينتان « لنكولسن » و « سالزبوري » هما « فرقاطتان » « Frigates » وليستا « مدمرات » « Destroyers » ، كما ورد في النيبا المشار اليه . وتوجد لهما شقيقة ثالثة في البحرية البريطانية تسمى « تشيشستر » ، وكل من الثلاث ينتمي لفئة « سالزبوري » .

وهي تعتبر من السفن القديمة نسبيا في البحرية البريطانية ، فقد بدأ بناء « سالزبوري » في ٢٣-١-١٩٥٢ ، وانزلت الى الماء في ٢٥-٦-٥٢ ، ودخلت الخدمة العملية في ٢٧-٢-١٩٥٧ .

أما « لنكولن » فقد بدأ بناؤها في ٢٠-٥-١٩٥٥ ، وانزلت الى الماء ٦-٤-١٩٥٩ ، ودخلت الخدمة العملية في ٧-٧-١٩٦٠ .

وقد صممت اساسا لتكون سفن توجيه للطائرات العاملة مع البحرية ، سواء تلك التي تحملها حاملات طائرات او العاملة من قواعد برية .

ويبلغ وزن هذا النوع من الفرقاطات ٢١٧٠ طنا ( قياسيا ) و ٢٤٠٨ اطنان ( بحمولة كاملة ) ، وطولها الاجمالي ١٠٣ متر ، واقصى عرض لهيكلها ١٢٢ مترا ، وعمق غاطسها ٧٤ مترا . وتبلغ قوة محركاتها ١٤٤٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ٢٤ عقدة ( ٤٤ كلم

يوجد مدفعان فقط في برج واحد بالمقدمة من النوع المذكور ، على حين يعلوهما رباعي للصواريخ سطح - سطح من طراز م ٢٨ « اكسوسيت » « Exocet » ( صواريخ فرنسية الصنع يبلغ مداها الاقصى ٣٧ كلم ، وتطير على ارتفاع ٢-٣ امتار فوق سطح البحر ، ووزن رأسها الحربي نحو ١٥٠ كلغ ) .

أما التسليح المضاد للطائرات فيتألف من قاذف ثنائي لصواريخ « سيسلوج » في مؤخرة السفينة ( صاروخ « Seaslug » سطح - جو متوسط المدى يمكنه ان يتعامل مع الطائرات افقيا حتى ٤٥ كلم ، ويستطيع اعتراض طائرات على ارتفاع يصل الى ١٥ كلم ، ويمكنه ان يضرب اهدافا بحرية عند الضرورة ) ، فضلا عن قاذفين رباعيين على كل جانب من السفينة من الصواريخ « سي كات » المضادة للطائرات ( صواريخ قصيرة المدى بصريا او تليفزيونيا او بالرادار ، ويبلغ مداها في الجو نحو ٤ كلم . وبالإضافة الى ذلك ، هناك مدفعان من طراز « اورليكون » عيار ٢٠ مم يستخدمان ضد الطائرات او الزوارق الخفيفة .

أما الدفاع المضاد للغواصات فيعتمد بشكل تام على طائرة هليكوبتر من طراز « ويسكس مارك ٣ » ، تحملها السفينة فوق مهبط خاص قرب مؤخرتها ، وهي مزودة بجهاز تنصت على الغواصات ورادار ، ومسلحة بطوربيد او اثنيسن « مارك ٤٤ » المضاد للغواصات . والمدمرة مزودة بجهاز رادار للبحث الجوي طراز ٩٦٥ ( مداها يبلغ نحو ٢٦٠ كلم ) . وبردادار لمراقبة الجو والبحر طراز ٩٩٣ ( مداها حوالي ١٢٨ كلم ) ، وبردادار تحديد الارتفاعات طراز ٢٧٨ . وذلك بالإضافة لاجهزة ادارة نيران الصواريخ والمدفعية المختلفة ، وجهاز رادار ملاحي طراز ٩٧٥ ، وحاسب الكتروني ( عقل الكتروني)



تشكلان اضافة ذات اهمية فعالة للبحرية المصرية ، ما لم يتم تحديثهما بصورة كاملة ، الا اذا اعتبرت بدائل أحدث للفرقاطتين المصريتين القديمتين « رشيد » و « بورسعيد » ، وهما بريطانيتان ايضا ، دخلتا الخدمة بالبحرية البريطانية فسي العام ١٩٤٠ ( بالنسبة لبورسعيد ) و ١٩٤٢ ( بالنسبة لرشيد ) وحتى فسي هذه الحالة ، وما لم يتم تزويدهما بصواريخ سطح - سطح فعالة ، فانهما لن يصلحا الا لمهام الحراسة الساحلية المحدودة ، ولا يستطيعان مواجهة زوارق الصواريخ الاسرائيلية من طراز « ساعر » او « ريشيف » .

٣ - كما ورد في تصريح الفريق نول « الجسمي » المشار اليه بأن مصر تقوم بانتاج وتسليح انواع جديدة من زوارق الطوربيد .

والمعروف ان البحرية المصرية تمتلك ٦ زوارق طوربيد كبيرة من فئة « شيرش » السوفيتية الصنع . ويبلغ وزن الزورق ١٦٠ طنا بحمولة كاملة ، وقوة محركاته ١٢ الف حصان ، وسرعته القصوى ٤١ عقدة ( ٧٥ر٩ كلم فسي الساعة ) ، وهو مسلح بأربعة انايب اطلاق طوربيدات عيار ٢١ بوصة و ١٢ قنبلة اعماق ، واثنان منهما مسلحان بأربعة مدافع م/ط ٣٠ مم ، واربعة مسلحين بـ ٤٠ قاذف صواريخ « كاتوشا » عيار ١٤٢ مم وقاذف صواريخ « سام - ٧ » ( وفقا للتسليح المصري ) . و ٢٠ زورق طوربيد من فئة « ب - ٦ » P-6 ، الاصغر حجما وتسليحا ، وكانت البخيرية المصرية قد تسلمت ١٢ زورقا من هذه الفئة من الاتحاد السوفيتي في العام ١٩٥٦ ، وتسلمت ٦ زوارق اخرى في العام ١٩٦٠ ، وقد غرق منها ١٠ زوارق في اعوام ٥٦ و ٦٧ و ٦٩ و ٧٠ ، وجرى تصنيع

في الساعة ) ، ومدى عملها ٢٣٠٠ ميل بسرعتها القصوى ، و ٧٥٠٠ ميل بسرعة ١٦ عقدة .

وهي مسلحة بمدفعين ، في برج امامي ، من عيار ١١٤ مم ( من النوع ذاته المستخدم في « كاوتي » ) ومدفعين عيار ٢٠ مم ، وقاذف صواريخ م/ط رباعي من طراز « سي كات » ، وهاون قنابل اعماق ثلاثي السبطانة . وهي مزودة بأجهزة رادار مماثلة لاجهزة مدمرات فئة « كاوتي » واجهزة ادارة ثيران ورادار ملاحي ، وجهازي « سونار » . ويتألف طاقمها من ٢٣٧ فردا ( ١٤ ضابطا و ٢٢٣ رتبة اخرى ) .

ويوجد لدى بحرية « بنغلاديش » سفينة من النوع ذاته ، تسلمتها في ١٢-١-١٩٧٦ ، اطلقت عليها اسم « عمر الفاروق » .

كما أن السفينة « تشيشستر » موجودة حاليا في احتياطي البحرية البريطانية .

ومن الواضح ان السفينتين « سالزبوري » و « لنكولن » ، تعدان من الفرقاطات القديمة الطراز الضعيفة التسليح ، بالقياس للمدمرة «دفونشاير» ، وبالنسبة للمدمرات فئة « سكوري » ( السوفيتية الصنع ) الاربعة الموجودة حاليا لدى البحرية المصرية ( وزن الواحدة ٢٣٠٠ طن « قياسيا » و ٣١٠٠ طن بحمولة كاملة ، واطولها ١٢٠٥ × ١١٨ × ٦٤ امتار ، وقوة محركاتها ٦٠ الف طن ، وسرعته القصوى ٣٢ عقدة « ٦١ كلم/ساعة » ، ومدى عملها ٣٩٠٠ ميل بسرعة ١٣ عقدة ، وهي مسلحة بأربعة مدافع عيار ١٢٠ مم ، ومدفعين عيار ٨٨ مم و ٨ مدافع ٣٧ مم و ٤ مدافع ٢٥ مم بالنسبة لاثنتين منهما . و ٤ مدافع ٥٧ مم و ٤ مدافع ٣٧ مم و ٤ مدافع ٢٥ مم بالنسبة للثنتين الاخرين ، وقذائف اعماق ضد الغواصات ، و ١٠ انايب طوربيد ) ، ومن ثم فانهما لا

زالت البحرية المصرية تمتلك منها ٤ زوارق . وقد زودت بمحركات ديسزل سوفيتية الصنع ، ولكنها سلحت بصواريخ « اوتومات » الفرنسية - الايطالية الصنع ( يبلغ وزن رأسها الحربي ٢١٠ كلغ ومداهما الاقصى ٨٠ كلم ) ، وهي زوارق يبلغ وزن الواحد منها بحمولة كاملة ٨٠ طنا ، وقوة محركاتها ٤٨٠٠ حصان ، وسرعتها ٤٠ عقدة ( ٧٤ كلم في الساعة ) ، ومسلحة بصاروخين سطح - سطح ورشاشين م/ط عيار ٢٥ مم ، والنوع السوفيتي منها مسلح بصاروخين « س - س - ن - ٢ » ، التي يبلغ مداها الاقصى نحو ٤٣ كلم .

وحتى الان لم تحصل الجهود سالفة الذكر ، في مجال ايجاد مصادر بديلة للتسلح السوفيتي ، المشاكل الرئيسية للبحرية المصرية ضمن حجم وقاعية قوتها السابقة ، فبالنسبة للمدمرات والفرقاطات ، يمكن ان يحل المدمرة البريطانية « دفونشاير » محل المدمرة البريطانية القديمة المسماة « الفاتح » والفرقاطتين « سالزبوري » و « لنكولن » محل الفرقاطتين البريطانيتين « رشيد » و « بورسعيد » ، ولكن تبقى المدمرات الاربعة من فئة « سكوري » ، وهي « السويس » و « الظاهر » و « دمياط » و « اكتوبر » ( الناصر سابقا ) .

بحاجة الى تحديث شامل او استبدال بمدمرات حديثة وأقوى . (★) هذا فضلا عن مشكلة تطوير ، او الاستخدام العملي الفعال ، او استبدال الاثنتي عشرة

عدة زوارق منها في الاسكندرية . كما وصل عدد منها من الاتحاد السوفيتي حتى العام ١٩٧٣ ، ويبلغ وزن الزورق منها ٧٥ طنا بحمولة كاملة ، وقوة محركاته ٤٨٠٠ حصان ، وسرعة القصوى ٤٣ عقدة ( ٧٩٦ كلم/ساعة ) ، ومدى عمله ٤٥٠ ميلا بسرعة ٣٠ عقدة ، وهي مسلحة بانبوبي اطلاق طوربيدات عيار ٢١ بوصة ( هناك زورقان فيهما ٤ انابيب طوربيد ) وباربعة مدافع عيار ٢٥ مم ، أو مدفعين فقط وقاذف صواريخ « كاتوشا » عيار ١٢٢ مم ذو ٨ سبطانات ( وفقا لاعادة تسليحها في مصر ) .

كما يوجد لدى البحرية المصرية ٤ زوارق طوربيد من فئة « ب - ٤ » - ٤ - ٤ الاصغر حجما وقوة ، ويبلغ وزن الزورق منها ٢٥ طنا ( قياسيا ) ، وقوة محركاته ٢٢٠٠ حصان ، وسرعة القصوى ٥٠ عقدة ( ٨٢٦ كلم في الساعة ) ، وهو مسلح بانبوبي اطلاق طوربيدات من عيار ١٨ بوصة ، ورشاشين م/ط عيار ١٤٥ مم ، و ٨ قواذف صواريخ « كاتوشا » عيار ١٢٢ مم ( تسليح مصري ) .

والارجح ان المقصود بالزوارق المصنعة

محليا هي زوارق فئة « ب - ٦ » التي يجري تسليحها على النحو الذي ذكرناه آنفا ، لزيادة قوة تيرانها المضادة للاهداف الساحلية والمساندة لعمليات الاشارة او الانزال الصغيرة .

هذا ومن المعروف ان ترسانة الاسكندرية ( بنيت بمساعدة سوفيتية اقتصادية وتقنية لتكون قادرة على انتاج سفن مجموع حمولتها سنويا نحو ٥٤ الف طن ) قد انتجت في العامين ١٩٧٥ و ١٩٧٦ عددا يقدر بنحو ٦ زوارق صواريخ من نوع مماثل لفئة زوارق « كومار » السوفيتية الصنع ، والتي ما

(★) بالنسبة لتفاصيل قوة المدمرات والفرقاطات ، والبحرية المصرية عموما ، يمكن الرجوع الى دراستنا عن « دور الحصار البحري على اسرائيل! المنشورة في عدد شؤون فلسطينية رقم ٦٧ ، وخاصة الصفحات ٦٢ - ٧٠ .

العملية ، من خلال منظمة مجهولة تطلق على نفسها اسم « قانون الثار » فألقت قنبلة في قاعة فارغة في « باريس » استؤجرت من أجل اقامة مهرجان مؤيد للفلسطينيين ، وتسببت القنبلة في احداث اضرار مادية جسيمة . وقال بيان المنظمة المزعومة ان هذه القنبلة قد فجرت انتقاما لعملية « القدس » سألقة الذكر .

وقد جاء تنفيذ العملية الفدائية ، ليؤكد مرة اخرى ، حقيقة قدرات عمل المقاومة الفلسطينية داخل الارض المحتلة في فلسطين ، وليس انطلاقا من اراضي لبنان فحسب ، كما تزعم مصادر العدو الصهيوني . ومؤكدة في الوقت ذاته عدم فاعلية عمليات الردع المباشر الاسرائيلية ضد الثورة الفلسطينية ، من حيث اجبارها على ايقاف او تقلييل نشاطها الثوري المسلح ، نظرا لضخامة وعمق اهدافها النضالية وعدم وجود ما يمكن ان تخسره بعد ان فقدت ارض الوطن المقتصب ، وقدمت الالف الشهداء على ساحة النضال .

وفي الوقت ذاته جاءت هذه العملية لتؤكد عدم قدرة الامبريالية الاميركية ، على تصفية منظمة التحرير الفلسطينية .

الولايات المتحدة توافق على بيع ٥٠ طائرة « كفير » « اسرائيلية الى « تايوان »

ذكرت شبكة اذاعة وتليفزيون « سي بي اس » الاميركية ، في ٧٨-٧-٥ ، ان الولايات المتحدة سمحت لاسرائيل بان تباع عددا يتراوح ما بين ٥٠ و ٦٠ طائرة مقاتلة من طراز « كفير » ، ذات الهيكل المصنوع في اسرائيل والمحرك المصنوع في الولايات المتحدة الى « تايوان » ، اي مما يسمى بالصين الوطنية .

وجاءت هذه الموافقة الاميركية بعد معارضة سابقة لبيع هذه الطائرات الى

غواصة السوفييتية الصنع ، التي تشكل جاتبا رئيسيا وهاما من القوة الضاربة البحرية المصرية ، خاصة في مجال فرض الحصار البحري على اسرائيل .

وكذلك مشكلة زوارق الصواريخ فئة « اوسا » ، البالغ عددها ٦ زوارق حاليا . ومشكلة السفن المضادة للغواصات ، الاثنتي عشرة ، من فئة « سو ١ » ، ومشكلة كاسحات الالغام العشر الخاصة بأعالي البحار ، ومشكلة سفن الانزال الاربعة عشرة . وكلها مشاكل في حاجة الى حلول دائمة وفعالة .

الثورة تضرب في القدس مرة اخرى

واصلت المقاومة الفلسطينية نشاطها الفدائي في الارض المحتلة ، وفي قلب مدينة « القدس » بالذات ، حيث نفذت حركة « فتح » ، عشية زيارة نائب الرئيس الاميركي « ولتر مونديل » لاسرائيل عملية تفجير عبوة ناسفة في سوق محنا يهودا للخضار وسط صناديق البندورة يوم ٢٩-٦-٧٨ ، مما ادى الى قتل ٢ من الاسرائيليين واصابة ٤٧ بجروح ، وفقا للرواية الاسرائيلية عن الحادث . في حين قال بيان المقاومة ان عدد القتلى بلغ ٨ اشخاص والجرحى ٣٥ .

وتلك هي ثاني عملية فدائية كبيرة تقع في « القدس » خلال فترة شهر تقريبا ، اذ سبقتها قنبلة انفجرت في اوتوبيس وادت الى مقتل ٦ اشخاص .

وفي اليوم التالي ، ٣٠-٦-٧٨ ، استبد الحنق بوزارة الخارجية الاميركية ، فأصدرت بيانا نددت فيه بالعملية المذكورة وبمنظمة « فتح » وبالاخ « ياسر عرفات » زعيمها ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، وذلك في سابقة لا مثيل لها في بيانات الخارجية الاميركية تجاه المقاومة الفلسطينية . وقد ردت الاستخبارات الاسرائيلية على

للتصدي الفعال لخطر مقاتلات الصيغ الشعبية . هذا في الوقت الذي تباع فيه الولايات المتحدة ٥٠ طائرة « ف - ٥ اي » الى مصر ، وتعتبرها اسرائيل مخلة بالتوازن العسكري بينها وبين مصر ! و « الكفير » ( طراز سي - ٢ ) هي مقاتلة معترضة ومطاردة ، مزودة بمحرك تبلغ قوة دفعه مع الحراق الخلفي ، المستخدم لاحداث تسارع مفاجئ ، ٨١٢٠ كلغ ، وتبلغ سرعتها القصوى على ارتفاع ١١ الف متر نحو ٢٢٨٥ كلم ، وعلى ارتفاع سطح البحر ١٢٧٠ كلم ، ومعدل تسلقها ٢٤٠ مترا في الثانية ، واقصى ارتفاع عملي لها ١٨ كلم ، ومدى عملها في مهام الاعتراض الجوي ٥٢٠ كلم ، وهي مزودة بخزان وقود اضافي ، ومداهما في حالة القصف الارضي على ارتفاع عالي - منخفض - عالي يبلغ نحو ١٢٠٠ كلم . وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم لكل منهما ١٥٠ طلقة . ويمكنها ان تحمل حمولة قصوى من القنابل تبلغ ٢٨٥٥ كلغ .

ونظرا لحدودية مداها نسبيا ، وكذلك صفتها الاعتراضية الرئيسية ، وافقت الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل لتايوان بها ، بدلا من طائرات « ف - ٤ » « الفانتوم » ، التي كانت تريدها « تايوان » اصلا . وذلك تمشيا مع سياسة الولايات المتحدة الجديدة مع الصين الشعبية المتسمة بالتحسن المضطرب ، كخطوة لازمة في تشجيع الاخيرة على المضي في سياسة العداء للاتحاد السوفييتي . اذ ان امتلاك « تايوان » لطائرات « الفانتوم » يجعلها اكثر قدرة على قصف الصين الشعبية في العمق ، وبفاعلية اكبر بكثير من طائرات « الكفير » .

ع ٢٤

دول اميركا اللاتينية ، وكذلك الى النمسا ، وان كانت الاخيرة قد تردت في شراء هذه الطائرات تحسبا لدورها لدى الدول العربية ووساطتها الجارية في مجال التسوية السلمية .

وكان الحظر الاميركي لتصدير هذه الطائرات ، الناتج عن ان محركها اميركي الصنع ، ومن النوع المستخدم في طائرات « الفانتوم » ، وكذلك العديد من معداتها الالكترونية ، نابعا من عدم رغبة الولايات المتحدة في منافسة الصناعة الجوية الاسرائيلية للصناعة الجوية الاميركية في اسواقها التقليدية . ولكن يبدو ان الموافقة على بيع الصفقة المذكورة ، والبائع قيمتها نحو ٥٠٠ مليون دولار ، الى « تايوان » ، جاء كترضية اميركية اخرى عن صفقة الطائرات الاميركية لكل من السعودية ومصر ، وللتخفيف من المشكلات الاقتصادية التي تعانيها الصناعة الجوية الاسرائيلية ، نتيجة لعدم قدرتها على تصدير طائرات « الكفير » . اذ ان هناك نحو ٢٧٠٠ شخص ، يعملون في ٢٧ مصنعا مختلفا ، يشتركون في صنع طائرات « الكفير » ، ولم يكن من الممكن الاستمرار في الانتاج وتطويره بصورة اقتصادية ما لم يتم تصدير جزء كبير منه الى الخارج ، نظرا لان متطلبات السلاح الجوي الاسرائيلي ( تسلم منها نحو ١٠٠ طائرة ) لا تكفي لتغطية نفقات الانتاج وجعله عملية مربحة اقتصاديا .

بقي ان نذكر ان « تايوان » طلبت شراء هذه الطائرات الحديثة ، نظرا لان مقاتلاتها من طراز « ف - ١٥ و ب و ا بي » ، البالغ عددها ١١٠ طائرات ، لم تعد كافية

ادوار سعيد

## صوّر من الجغرافية التخيلية الشرقية كما صوّره المستشرقون

الاستشراق بمعناه الدقيق حقل من حقول الدراسات العلمية ، وترجع بداية حركة الاستشراق في العالم الغربي المسيحي الى قرار المجمع الكنائسي المتخذ في فيينا عام ١٣١٢ ، والذي اوصى بانشاء عدد من الكراسي الجامعية في اللغات التالية « العربية واليونانية والعبرية والسريانية في باريس واكسفورد وبولونيا وافيونيون وسالامنكا » كما ذكر « ر. و. سوثرن » R. W. Southern ولا بد لاي بحث في مسألة الاستشراق ان لا يقتصر على اعمال المستشرقين المتخصصين بل يتوسع الى معالجة مفهوم الحقل الدراسي الذي تركز دعائمه على مجموعة جغرافية وثقافية ولغوية وعرقية تدعى بالشرق . فمما لا شك فيه ان الحقول الدراسية تكتسب صدقا معرفيا وتماسكا فكريا بمرور الزمن ومن خلال تكريس الباحثين لجهودهم ومساهماتهم في تنمية الحقل المتفق على

★ مع ان مصطلح « الاستشراق » يستخدم عادة للإشارة الى دراسة الشرق بأكمله ( بما في ذلك حضارات الصين واليابان والهند والمسلمين ) الا اننا نستعمله في هذا المقال لتشير في الدرجة الاولى الى الشرق الأدنى او بلاد الاسلام او العرب او كليهما . وفي القرن الثامن عشر كان « الشرق » يعني بالنسبة للاوروبيين الاسلام او تركيا او بلاد العرب . ويعزى سبب توسع مفهوم « الشرق » الى اكتشاف مناطق واسعة من القارة الاسيوية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ورغبة منا في عدم التفریط بالتماسك في فكرة « الشرق » القديمة فقد عالجتنا حركة « الاستشراق » من منطلق كونها تمثل اهتمام الغرب بالشرق الأدنى . وهذا الاهتمام يتجسد في الدراسات الاكاديمية والاعمال الادبية والعلاقات التجارية ومحاولات السيطرة السياسية . وهذا المقال جزء من كتاب يحمل عنوان « حركة الاستشراق » ستنشره جامعة كاليفورنيا .

مضمونه • ومما لا يخفى على القارئ ان حدود الحقل الدراسي قلما تكون بالوضوح الذي يدعيه حتى اكثر انصاره تحمسا من باحثين واساتذة ومتخصصين وغيرهم • كما ان الحقل العلمي قد يتغير تغيرا شاملا كما حدث في ميادين تعليمية كالفيلولوجيا ( فقه اللغة ) والتاريخ واللاهوت ، الى درجة يكاد يستحيل فيها الوصول الى تعريف عملي لمضمون الحقل الدراسي • وهذا يصح وينطبق على حركة الاستشراق لاسباب مهمة •

ان لادراج تخصص اكايمي كالدراسات الاستشراقية تحت « حقل » جغرافي دلالات واضحة حيث انه يصعب تصور حقل مماثل يسمى بالدراسات « الاستغرابية » • وهكذا تظهر خصوصية وغرابة الموقف الاستشراقي • ومما لا ينكر ان هناك فروعا علمية تنطوي على موقف معين تجاه مادة ما ، كالمادة الانسانية مثلا ، ( فدارس التاريخ يعالج الماضي الانساني من موقع متميز وراهن ) ولكن هذا لا يشكل عنصر قياس بين ما ذكر وبين الاخذ بوجهة نظر جغرافية ثابتة وتكاد تكون موحدة لحقائق اجتماعية ولغوية وسياسية وتاريخية متعددة ومتباينة • فالمتخصص في الدراسات الكلاسيكية او الرومانسية او حتى الامريكية يركز على جزء صغير نسبيا من العالم وليس على نصفه كما تفعل الحركة الاستشراقية المتميزة بطموحها الجغرافي • وبما ان المستشرقين قد صرفوا همهم لكل ما هو شرقي ( فالمستشرقون يعتبرون المتخصص بالشرع الاسلامي كالمخصص في اللهجات الصينية او الاديان الهندية مستشرقاً ) فعلى ان نتقبل مجموعة هائلة وغير متجانسة من المعلومات واستعدادا خارقا للتشعب كمقومين رئيسيين للحركة الاستشراقية ورؤيتها المربكة الجامعة بين الابهام التعسفي والانصراف الى التفاصيل الدقيقة •

كل ما تقدم كان وصفا للحركة الاستشراقية كفرع اكايمي • وتعبيـر الاستشراقية في صيغته الاسمية المجردة يدل على استقلال الفرع عن غيره • وقد تميز تطوره التاريخي كفرع اكايمي بتوسع ميدانه وليس بازدياد تخصصه • لقد كان مستشرقو عصر النهضة كـ « ارنبيوس » **Erpenius** و « جيلوم بوسـتيل » **Guillaume Postel** في المقام الاول باحثين في لغات الاقاليم المرتبطة بالكتاب المقدس مع ان « بوسـتيل » تباهى بقدرته على السفر الى الصين من دون ان يحتاج الى مترجم • وعلى العموم وحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت الحركة الاستشراقية تضم باحثي الكتاب المقدس ودارسي اللغات السامية والمتخصصين في الاسلام والصين التي كان قد بدأ اليسوعيون في فتح باب دراستها • ولم يصل غزو المستشرقين الاكايمي الى اواسط اسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر حين توصل « انكيتيل - دوبيرون » **Anquetil - Duperron** و « سير ويليام جونز » **Sir William Jones** الى الكشف عن قيمة واثراء الزند والسانسكريتية • ولقد اصبحت الحركة الاستشراقية في منتصف القرن

التاسع عشر ميدانا ثريا ذا ابعاد مترامية . وهناك مصدران ممتازان لهذا النمط الانتقائي الجديد ، احدهما وصف موسوعي للحركة. الاستشراقية من حوالي ١٧٦٥ الى ١٨٥٠ لصاحبه « رايمون شواب » Raymond Schwab فسي كتابه : **النهضة الشرقية** ( والصادر في عام ١٩٥٠ ) . وبالإضافة الى الاكتشافات العلمية في ميدان الدراسات الشرقية التي قام بها المتخصصون في أوروبا ، فقد سادت موجة الاقبال في هذه الفترة على الخصائص الشرقية وتركت هذه الموجة اثرها على ابرز شعراء وكتاب وفلاسفة تلك الحقبة . ويرى « شواب » ان « الشرقي » صار نعنا لكل من تولع بما هو اسيوي سواء كان هاويا ام متخصصا . وقد كان تعبير الشرقي مرادفا لكل ما هو غريب وغامض ، عميق وخصب . وهذا الولع يمثل امتدادا شرقيا وتحولا لاحقا لولع اوروبي مماثل بكل ما هو يوناني او روماني في قمة عصر النهضة . وقد عبر « فكتور هوجو » عن هذا التحول في عام ١٨٢٩ بالكلمات التالية : « كانت نزعتنا هيلينية في قرن لويس الرابع عشر اما الان فهي شرقية » . فنرى مما تقدم ان المستشرق في القرن التاسع عشر كان إما باحثا ( متخصصا بالصين او بالاسلام او بالعلاقات الاوروبية - الهندية ... الخ ) او هاويا موهوبا كهوجو في « الشرقيات » Les Orientales او « جوته » Goethe في « ديوان الغرب والشرق » West - Ostlicher Divan او كليهما إكس-ريتشارد برتون « Richard Burton او « ادوارد لين Edward Lane او « فردريك شليجيل » Fréderich Schlegel

ونجد المصدر الثاني لتوسع الحركة الاستشراقية منذ مجمع فيينا في سجل الحقل نفسه وادق ما كتب في هذا الموضوع هو كتاب « جول مول » Jules Mohl سبعة وعشرون عاما من تاريخ الدراسات الشرقية ( الصادر في ١٨٧٩ - ١٨٨٠ ) في مجلدين ضخمين يحتويان على كل ما يستحق التسجيل في الحركة الاستشراقية بين ١٨٤٠ - ١٨٦٧ . وقد شغل « مول » منصب سكرتير الجمعية الاسيوية في باريس وكانت باريس عاصمة العالم الاستشراقي لفترة جاوزت النصف الاول من القرن التاسع عشر . ويرى « والتر بنيامين » :

( ان باريس بقيت مركز الاستشراق خلال القرن التاسع عشر كله ) .

وقد لعب « مول » بفضل منصبه في الجمعية الاسيوية دورا محوريا في الحركة الاستشراقية . ومن النادر ان نقع على بحث تطرق فيه كاتب اوروبي الى اسيا خلال فترة تاريخ مول ، غير مذكور في باب « الدراسات الشرقية » . وكتابه يشير الى المنشور من الابحاث فقط ولكن نطاق ما نشر عما يتعلق بالشرق كان رهيبا في وسعه وفيه دراسات عن العربية واللهجات الهندية العديدة والعبرية والبهلوية والاشورية والاكريية والمنغولية والصينية والكوشينية والبرمية والسومرية والجاقانية . اما قائمة الاثار الفلسفية التي تدخل ضمن الدراسات

الاستشراقية فلا تعد ولا تحصى . وبالإضافة الى كل هذا فلدراسات الاستشراقية جوانب متباينة ، فهي تعني بتحقيق وترجمة النصوص وبالدراسات الاثرية والانتروبولوجية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والادبية والثقافية في كل حضارة معروفة في اسيا وشمال افريقيا قديما وحديثا . ومع ان كتابا كـ « تاريخ مستشريقي اوربا في القرن الثاني عشر الى القرن التاسع عشر » ( الصادر في ١٨٦٨ - ١٨٧٠ ) لـ « جوستاف دوجا » G . D . يقتصر على سرد تاريخي لنخبة مختارة من ابرز الشخصيات الا ان دائرته نطاقه لا تقل وسعا عن كتاب « مول » .

ومع هذا فقد كان لهذا المنظار الانتقائي مناطق عمياء بقيت خارجة عن مجال رؤيته . فقد اهتم المستشرقون الاكاديميون بصورة عامة بالحقب الكلاسيكية للحضارات واللغات التي درسوها ولم يحصل تحول الا في اواخر القرن . لقد ندر اهتمام الدراسات الاكاديمية بالشرق المعاصر او واقعه باستثناء معهد مصر الذي انشاه نابليون . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت دراسة الشرق تنحصر في اغلب الاحيان في دراسة نصوصية فكانت الكتب والمخطوطات منبع التأثير على خلاف تأثير اليونان في فكر النهضة النابع من الفن التشكيلي كالنحت والفخار . وحتى علاقة المستشرق بالشرق كانت مقتصرة على النصوص الى حد انه قيل ان معاينة بعض المستشرقين الالماني في اوائل القرن التاسع عشر لتمثال هندي ذي ثماني اذرع قد شفاهم من شغفهم بالشرق . وعندما كان المستشرق المتعلم يسافر الى اقليم تخصصه فقد كانت في ذهنه دائما قواعد مجردة عن « الحضارة » التي يدرسها ويندر ان يهتم المستشرقون الا باثبات صحة هذه « الحقائق » البالية وذلك بتطبيقها تعسفا على شعوب « غير راعية » وبالتالي « منحطة » في نظرهم . واخيرا فقد ساهم نفوذ ونطاق الحركة الاستشراقية في تبلور المعرفة الدقيقة والوضعية عن الشرق وكذلك في خلص نوع من المعرفة من الدرجة الثانية والتي كانت متداخلة فيما نعي بالقصة « الشرقية » واساطير الشرق الغامضة وفكرة الاستغراق الاسيوي ، وكل ما اطلق عليه « ف . ج . كيرنان » V. G. Kiernan « حلم يقظة اوروبا الجماعي بالشرق » . ومن النتائج السعيدة المترتبة على هذا ان عددا من الكتاب في القرن التاسع عشر كان متحمسا للاستشراق . واعتقد انه يصح ان نتكلم عن وجود نوع ادبي من المؤلفات الاستشراقية الممثلة في اعمال « هوجو » و « جوته » و « نيرفال » Nerval و « فلوبيير » Flaubert و « فيترزجيرالد » Fitzgerald وامثالهم . ويتخلل هذه الاعمال جو الشرق الاسطوري ، ذلك الشرق الذي لا يستمد وجوده من المواقف المعاصرة والاهواء السائدة فحسب بل مما دعاه « فيكو » بخيال الامم والعلماء .

وفي يومنا هذا يستبعد من المستشرق ان يسمي نفسه مستشراقا كما كانت



العادة قبل الحرب العالمية الثانية ، وان كان المصطلح ما زال مستخدماً في الجامعات ، عندما تشير الى برامجها او اقسامها المتخصصة في اللغات او الحضارات الشرقية . ففي جامعة اكسفورد « كلية » للشرقيات وفي جامعة برنستون قسم للدراسات الشرقية . وحديثاً في عام ١٩٥٩ شكلت الحكومة البريطانية لجنة « لمراجعة التطور في الجامعات في حقول الدراسات الشرقية والسلافية والاوروبية الشرقية والافريقية . . . . . والاذن بعين الاعتبار التطورات في المستقبل وتقديم توصيات بشأنها » . وكان تقرير « هايتر » Hayter ، كما أطلق عليه عندما صدر في عام ١٩٦١ ، غير محرج بعمومية المصطلح الكلمة « شرقي » والتي وجدها مستخدمة في الجامعات الامريكية أيضاً . وحتى « هـ . ر . جيب » H. A. R. Gibb وهو من ابرز الشخصيات في الدراسات الاسلامية في العالم الانجلو - سكسوني المعاصر ، اختار لتقديم نفسه كلمة مستشرق على مستعرب ، وبالرغم من ثقافته الكلاسيكية فقد استخدم المصطلح المستحدث البغيض « دراسة منطقة » Area study للتعبير عن الاستشراق وليثبت ان دراسة منطقة جغرافية والاستشراق تعبيران مترادفان . ولكني ارى ان هذه الصلة الرابطة بين فرع علمي ومنطقة جغرافية ليست باكثر من زعم مبسط للواقع ويودي ان اعالج هذه الصلة بايجاز .

ان الذهن بالرغم من تشبته في العديد من الدوافع المبهمة والشهوات والتخيلات الا انه لا ينفك عن الالتزام بما سماه « ليفي - ستروس » Lévi - Strauss بمنطق المملوس . فالقبيلة البدائية ، مثلاً ، تحدد لكل جنس نباتي مكاناً ووظيفة ودلالة في محيط بيئته وليس لكثير من هذه الاعشاب والزهور فائدة عملية ، ولكن ما رمى اليه « ليفي - ستروس » هو ان الذهن يحتاج الى تنظيم والتنظيم يتم بالتقييم والتمييز موزعاً كل ما يعيه على مواقع فكرية يمكن الرجوع اليها ، ووفقاً لذلك تكتسب الاشياء قدرة على التفاعل ضمن مجموعة العلاقات المادية والرمزية التي تشكل البيئة . ولهذا التصنيف البدائي منطق ولكن لهذا المنطق الذي قد يجعل من الخنثسار الاخضر رمزاً للفضيلة في مجتمع ما وعلامة شرف مجتمع آخر قواعد لا يمكن الجزم بعقلانياتها او بعموميتها الشاملة ، فهناك درجة من التحكمية الصرفة التي تصبغ نظرتنا عند التمييز بين الاشياء . ويلزم هذا التمييز فيما لو تم الكشف عن اصولها لبيان فيها نفس الدرجة من التحكمية . وهذا واضح جداً في مسألة الاناقة ، فلماذا تسود ظاهرة الشعر المستعار والياقات المزركشة والاحذية ذات الكعوب العالية ثم تختفي بعد فترة من الزمن ؟ وتفسير هذه الظاهرة يكمن في ان الزي الانيق يجمع بين طرفين : الوظيفة العملية والاعتبارات الجمالية . فاذا اقتنعنا بان كل ما في التاريخ ، كالتاريخ نفسه ، من صنع البشر فسننصل الى نتيجة هامة وهي ان الاشياء او الاماكن او الازمنة توظف وتعطي دلالات لا تكتسب شرعية موضوعية الا بعد عملية التوظيف . وهذا ينطبق بصورة خاصة على ما هو غير مألوف نسبياً

### كالغريباء والطفرات والسلوك الشاذ .

ومن الواضح ان الذهن يخلق بعض هذه الكيانات المميزة ، فبالرغم من انها تبدو وكأن لها وجودا موضوعيا فهي لا تتواجد الا في عالم التصور ولنضرب مثلا : جماعة من البشر التي تعيش في مساحة معينة ترسم حدودا بين ارضها وبين الاراضي المجاورة لها من جهة ومن جهة اخرى تطلق اسم « ارض المتوحشين » على ما وراء اراضيها . ولو شئنا ان نصوغ هذا بكلمات اخرى لقلنا ان هذا العرف المتبع في العالم كله والذي ينسب المكان المألوف « الينا » وامكان غير المألوف فيما وراء مكاننا « اليهم » ما هو الا اداة لتشكيل فوارق اقليمية قد تكون في منتهى التعسف : وانا استخدم كلمة تعسف لان الجغرافية التخيلية من النوع الذي يفصل بين « ارضنا - ارض المتوحشين » لا تتطلب من المتوحشين الاعتراف بهذه الفواصل فيكفي لنا ان نقيم حواجز في فكرنا حتى يصير الآخرون « هم » وفقا لذلك ونعتبر اقليمهم وفكرهم على انه مباين لما عندنا . وتستمد المجتمعات المعاصرة والبدائية الى حد ما عنصرا من هويتها بصورة سلبية . فمن المرجح ان المواطن الاثيني كان يشعر سلبيا بأنه غير متوحش كما كان يشعر ايجابيا بأنه اثيني . ويلزم الحدود الاقليمية التي تحدثت عنها فواصل اجتماعية وعرقية وثقافية معززة . فشعور الانسان بأنه ذير اجنبي يبقى مبنيا في الغالب على رؤية غير دقيقة عما يتواجد «هناك» فيما وراء اقليمه . وتتشابك كل انواع الفرضيات والتداعيات والتصورات في رسم المكان الغريب وغير المألوف الذي يتواجد خارج مكاننا .

لقد أشار الفيلسوف الفرنسي « جاستون باشلارد » Gaston Bachelard في تحليله لما سماه بالابداع في لغة المكان ، الى ان داخل البيت يكتسب دلالات توحى بالالفة والخفية والطمأنينة ، وهذه الدلالات قد تتجسد في واقع البيت او في خيالنا ، ولكن اقترانها بالبيت ينبع من تجاربنا . فالبيت كمكان موضوعي بزواياه واروقته واقببته وغرفته اقل أهمية مما يقترن به من احياءات ومشاعر يمكننا ان نحس بها ونعبر عنها : فنصور البيت مسحورا او مسكونا ، ذا جو عائلي بهيج او نظامي صارم وما شاكلة . وهكذا يكتسب المكان شحنات عاطفية ومعنوية من خلال عملية ابداعية تتحول فيها امتدادات المكان المجهولة وفراغاته الى مغزى : وتحصل العملية نفسها عندما نتعامل مع الزمن ، فأكثر ما يرتبط ذهنيا او يعرف عقليا عن حقبات تاريخية « منصرمة » او « في البدء » او « في اخر الزمان » فانها من صنع المخيلة، فمع ان لتعبير زمن منصرم عند مؤرخ يتعامل مع المملكة الوسطى في تاريخ مصر القديم معنى واضح ، الا ان هذا المعنى لا يقضي على العنصر التخيلي وشبه الخيالي الذي نحس به مندسا في مفهوم الزمن البعيد المختلف عن زماننا . فلا شك ان الجغرافية التخيلية والتاريخ التخيلي يساعدان الذهن على تكثيف وعيه الذاتي من خلال تبلور

درامي للمسافة والفارق الذي يفصل بين ما هو قريب منه ويعيد عنه . وهذا ينطبق ايضا على الشعور الذي يساورنا احيانا باننا قد نكون أكثر انسجاما وجدانيا مع القرن السادس عشر او في جزر تاهيتي .

ولكن من الخطأ ان ندعي بان كل ما نعرفه في الزمان والمكان او بالاحرى في التاريخ والجغرافية يتسم بطابع تخيلي ، فهناك في أوروبا والولايات المتحدة تاريخ وضعي وجغرافية وضعية حققنا انجازات يشار اليها بالبنان . فالباحثون يعرفون اليوم أكثر مما كانوا يعرفون في زمن « جيبون » Gibbon على سبيل المثال . ولكن هذا لا يعني انهم يعرفون كل ما يمكن معرفته او ان ما يعرفونه - وهذا اشد خطورة - قد ازال فعليا المعرفة التخيلية للتاريخ والجغرافية كما عرضتها . ولا داعي هنا لاتخاذ قرار حاسم فيما اذا كان هذا النوع من المعرفة التخيلية قد ساهم في احياء التاريخ والجغرافية او في تخطيهم . ولنتكفي بالقول في الوقت الراهن بان هناك مادة اضافية لا يغطيها مضمون المعرفة الرضعية .

ولقد كان الشرق في نظر أوروبا ومنذ اقدم العصور غير محصور فيما هو معروف عنه فعليا . ولقد اوضح « ر. و. سوثرن » كيف ان الفهم الاوروبي لنوع معين من الحضارة الشرقية وهي الحضارة الاسلامية حتى بداية القرن الثامن عشر ( على الاقل ) كان ينم عن الجهل بالرغم من اتسامه بالتعقيد . ويبدو ان فكرة الشرق قد استقطبت عدداً من المفاهيم التي تجمع بين الاستنارة والجهل . فلنتناول اولا مسألة الحدود الفاصلة بين الشرق والغرب التي تبدو واضحة حتى في زمن الالباذة . فيظهر العنصران البالغا التأثير المرتبطان بالشرق في اقدم مسرحية اثينية وصلتنا وهي الفارسيون لـ « اسخيلوس » وفي اخر مسرحية وصلتنا من اثينا وهي كاهنات باخوس لـ « يوربيديس » ويصور اسخيلوس نكبة الفرس عندما بلغهم ان جيشهم بقيادة الملك خيرخس قد دحره اليونانيون . وتغني الجوقة المقطع التالي :

اليوم تئن ارض آسيا المقفرة

قاد خيرخس قواته اه ثم اه

قهر خيرخس ! ويلاه ويلاه

وخطه كلها احبطت

ومراكب البحر دمرت

فلماذا لم ينقهر جنود داريوس

زعيم الرجال الحبيب من بلاد سوس عندما قادهم في المعركة ؟

والمهم هنا أن آسيا تعبر عن نفسها وفقا لمتطلبات الخيال الاوروبي وبفضله ، ذلك الخيال الذي يُصور أوروبا منتصرة على آسيا وعالمها « المخالف » والعدائي فيما وراء البحار . ومن ذلك الحين فصاعدا تقترن في الفكر الاوربي مشاعر الفراغ والضياع والنكبة المنسوبة الى اسيا بعاقبة تحدي الشرق للمغرب ، بالاضافة الى صور التحسر الاسيوي على ماضٍ مجيد كان النصر فيه حليفاً اسيا على غريماتها اوروبا .

نقلت النص الى العربية  
فريال جيوري غزول

محمود درويش

### يوميات الحزن العادي

في السجن ، والوطن ، والمنفى ، والعالم

صدر عن مركز الابحاث ودار العودة

طبعة جديدة منقحة

سعر النسخة ١٠ ل.ل٠ او ما يعادلها

## الأدب كشكل ايديولوجي

يستلزم اظهار الموضوعية المادية للأدب تحديد وضع انتاج الاثار الادبية في الكل التاريخي للممارسات الاجتماعية ، ولفهم هذا التحديد الموضوعي بطريقة ديالكتيكية بعيدة عن الميكانيكية ينبغي فهم العلاقة بين « الأدب » و « التاريخ » لا كعلاقة بين نظامين ، بل كتطور اشكال تناقض داخلي . كما لا ينبغي ايضا فهم الأدب والتاريخ ككيانين تكون

نشر هذا النص في مجلة *Literature* رقم ١٣-١٩٧٤ . ويحاول باليبار وماشريه ان يقدم في هذه الدراسة شرحا ماديا - علميا - لـ « ظاهرة الادب » ، اعتمادا على اعمال التيسور . ذاهبين الى اعتبار « الأدب » شكلا ايديولوجيا متميزا ، يعكس في بنيانه شرطا تاريخيا مرتبطا بتشكيلة اجتماعية محددة ومشخصة ، والى اعتبار « الادبي » وحدة عضوية تعكس في تحولاتها الكلية تناقض الواقع الذي تعكسه ، و « تعبر » عنه . ويقدمان لنا جملة من الطروحات .

- يرتبط نمط الانتاج الادبي بايديولوجيا محددة ، على الرغم من انه ينتج ايديولوجيا متميزة خاصة به .

- الأدب هو ما يقدم ليقرأ كذلك بواسطة ايديولوجيا متميزة مرتبطة بفترة محددة تاريخيا .

- يرتبط الأدب بشكل وثيق بتاريخ التشكيلات الايديولوجية ، علما ان تكون كل ايديولوجيا يتضمن علاقة الايديولوجي بالاقتصادي .

- تختلف دلالة « النص الادبي » ومعناه باختلاف شكل الايديولوجيا التي تتعامل معه ، والتي تتحدد بتشكيلة اجتماعية مشخصة . لهذا يأخذ « العمل الفني » دلالات عبدة توازي عدد الايديولوجيات التي قرأته .

- « النص الادبي » قاصد ايديولوجي يري ما تحجبه الايديولوجيا ، اي انه ينجو ، عبر آلية اللاوعي التي تحكم عملية الكتابة ، من رقابة الايديولوجيا النظرية .

كل منهما خارج الآخر ( حتى تحت شكل تاريخ الادب من ناحية ، وتاريخ اجتماعي وسياسي من ناحية اخرى ) بل ككيانين يتحددان مباشرة في علاقة ترابط وتداخل داخلية . وهذه العلاقة الداخلية هي شرط الوجود التاريخي لظاهرة كظاهرة الادب ، وهي التي تحكم بشكل عام تعريف الادب كشكل ايديولوجي .

لكن هذا التعريف لا يأخذ كل ابعاده الا بعد تطوير وايضاح مضمونه : ليست الاشكال الادبية ، كما تعلم ، مجرد نسق « افكار » او « اقوال » ، فهي تتكون عبر حركة وتاريخ وممارسات محددة . تحت علاقات اجتماعية محددة اقترح التوسر تسميتها في المجتمع الطبقي بأجهزة الدولة الايديولوجية ( A. D. E ١٠٠١ ) يرتبط الوجود الموضوعي للادب اذن بشكل وثيق بممارسات معينة في اجهزة ( اجهزة الدولة الايديولوجية ) دولة معينة . وكما سنرى ، وبشكل اكثر دقة ، فان الادب يرتبط بممارسات لغوية محددة ( فوجود « ادب فرنسي » يعود لوجود ممارسة لغوية للـ « فرنسية » او بشكل افضل لوجود كل متناقض لممارسات الـ « فرنسية » كلغة قومية ) وثيقة الاتصال بممارسات مدرسية ، لا تحدد فقط استهلاك اللغة ، بل تحدد ايضا الحدود الداخلية لانتاجها ذاته . وعندما تربط الوجود الموضوعي للادب بهذا الكل من الممارسات نستطيع الوصول الى نقاط ارتكاز مادية تجعل من الادب واقعا تاريخيا واجتماعيا .

نستطيع بالاعتماد على هذا المنطق ان نقذف جانبا بالاسطورة القديمة التي تتحدث عن الادب الابددي . وبذلك لا نظهر فقط وجود تاريخ للادب يتحول نمط انتاجه وفقا لتحويلات الممارسات اللغوية والاجتماعية ، بل نظهر ايضا ويشكل خاص ان وجود الادب نفسه محدد تاريخيا ومرتبطة بشروط تاريخية محددة ( لم تتواجد هذه الشروط بشكل

→

– يبني « النص » الايديولوجيا ويعطيها شكلا متميزا ، شكلا ظاهريا ، بحيث تغدو الايديولوجيا شرحا ، وإشارة الى ، ووشاية بجملة التناقضات التي تحكم النص .

انطلاقا من هذه الطروحات ، يحاول المؤلفان رصد « تشكل » الادب وتطوره ، وشرح آليته الايديولوجية في نمط الانتاج الراسمالي التي تدفعه نحو « موضوع – هدف » ، يعكس تناقضه الداخلي ، وتناقض الواقع ، اللذين يتجليان في تناقض اللغة المشتركة . فالتناقض في « العمل الادبي » هو التناقض في اللغة ، وتناقض اللغة هو تناقض الواقع : الصراع الطبقي الشامل .

يهدف باليبار وماشريه في شرحهما المادي لـ « الظاهرة الادبية » ، اي ربطها بجملة الممارسات الاجتماعية المتكثفة في اللغة ، التي تجاوز المازق الماركسي القديم ( بليخانوف – لوكاش ) الذي يعيد العمل الادبي الى مضمونه ، ( النزعة المضمونية ) ، او يتوه في ثنائية الشكل/المضمون المثالية . فالعمل الادبي ، في فهمهما ، فاصل ايديولوجي متناقض يعكس تناقضات اخرى .

يتجاوز هذا الشرح بالتأكيد « مضمونية » بليخانوف المبتذلة ، و « واقعية » لوكاش المثالية ، باسما امامنا افقا جديدا في تخطيه للصعوبات التي تعترضنا . لكننا نتحفظ قليلا ، اذ ان صعوبات جديدة تتوافد مع هدم الصعوبات القائمة ، وفي اللحظة التي تفتح هذه الطروحات افقا ، توصل افقا . ويكون سؤالنا ، والحال هذه : أين مكان الذات المنتجة للعمل الادبي في هذا الشرح ؟؟ الجواب غائب على ما نعتقد ، وتلتبس علينا المسألة فلا نعرف اهي شرح ام تاويل ؟

نزوعي وذوي اتجاه الا في نمط الانتاج الراسمالي ) .

كما نتخلص من احجية مسألة سكنت التقاليد الماركسية طويلا مع انها بكل بساطة مسألة لا وجود لها : وهي التي طرحها ماركس في نهاية مقدمة ١٨٥٧ « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » عندما تساءل كيف يستطيع « فن » عهد غابز ، مرتبط كليا بعلاقات زمانه الاجتماعية وعلاقاته الايديولوجية بشكل خاص ، أن يحتفظ بـ « سحر » لا يقاوم يشد انسان المجتمع البرجوازي ، ويبدو كما لو كان « فنا » ابديا . لكن « سحر الفن الاغريقي » ليس سرمديا ابدا ، لسبب بسيط ، هو أن هذا الفن لم يكن في عرف اليونان فنا ، فاللياذة لم تكن تعني لهم « عملا ادبيا » وكذلك حال تراجيديات سوفوكل او اعمال بارتينون المعمارية او تماثيل براكسيتيل . ولم تصبح « الالياذة » او « اوديب ملكا » نصوصا « ادبية » الا بعد استرجاع لاحق ، وبعد هذا الاسترجاع فقط تحولت الى « ادب » وانتجت اثارا ادبية داخل تشكيلة ايديولوجية جديدة . فالمسألة الحقيقية ( والتي لن نطرحها هنا لذاتها ) هي اذن معرفة الشروط المادية ( وبشكل خاص استمرار تقسيم العمل اليدوي والعمل الذهني على الرغم من تحولاتهما ) التي تستطيع فيها عناصر تشكيلات ايديولوجية ماضية ان تستعاد وتطرح نفسها وتتغير داخل تشكيلة جديدة ، ناتجة عن تطور نمط جديد من الانتاج المادي . لكن هذه المسألة لا يمكن طرحها قبل دراسة الادب ( والفن ) كشكل ( تشكيلة ) ايديولوجي برجوازي بشكل خاص .

نقول اذن اولاً ، ان الادب قد تشكل تاريخيا في الحقبة البرجوازية ، كمجموع وقائع لغوية ، ( او بشكل افضل : ممارسات لغوية خاصة ) مندمجة بشكل غائي ( ذي اتجاه معين ) في عملية التدريس العامة ، بحيث تنتج اثارا تخيلية ضرورية لاعادة انتاج الايديولوجيا البرجوازية كايديولوجية مهيمنة . وهكذا يظهر لنا ان الادب يخضع بشكل عام لتحديدات ثلاثة : « لغوية » ، « مدرسية » ، و « خيالية » ( وسنعود الى النقطة الاخيرة التي تستلزم اللجوء الى التحليل النفسي في شرح الاثار الادبية ) .

ينتج التحديد « اللغوي » بشكل جوهري من واقع ان مادة وهدف ( لانه يشترك مباشرة في تكوينها ) عمل الانتاج الادبي هو وجود لغة مشتركة ترمز التبادلات اللغوية : ينحرف الادب عن هذه اللغة بطريقة محددة ( غير اعتباطية ) تقرر نقطة انطلاقه ونقطة وصوله . وترتبط هذه اللغة المشتركة من حيث هي لغة قومية بالشكل السياسي للـ « ديمقراطية البرجوازية » ، فهي المحصلة التاريخية لصراع طبقي خاص . وبذلك تناظر القانون البرجوازي ( الحقوق ) في وظيفتها الاساسية والتي هي اعطاء شكل موحد ، وكوني ، لسيطرة طبقية جديدة في فترة تقدمية تاريخيا ( الفترة البرجوازية ) . وهذا يعني ان اللغة ترتبط بالتناقضات الاجتماعية المتولدة في عملية مستمرة . فما هي جوانب هذا التناقض ؟

ان هذا التناقض هو احد اثار الشروط التاريخية التي تقوم فيها السيطرة الاقتصادية، السياسية والايديولوجية للطبقة البرجوازية : ويتطلب ذلك على المستوى القاعدي ، تغيير علاقات الانتاج تحت تأثير نمط الانتاج الراسمالي ، كما يتطلب ايضا تغييرات جذرية للعلاقات الايديولوجية في البنيان الفوقي . ونستطيع ان نصنف هذه التغييرات بـ « الثورة الثقافية » البرجوازية التي لا تفرض فقط بناء ايديولوجية جديدة ، بل تفرض تحقيقها ايضا، كايديولوجيا مهيمنة في اجهزة الحكم الايديولوجية الجديدة وكتغيير كامل في علاقاتها المختلفة ( العلاقة بين اجهزة الدولة ) . ان السمة الاساسية لهذا التغيير الثوري الذي يشمل اكثر من قرن ، والذي يتم تحت اشكال متفرقة وناقصة منذ فترة زمنية اطول ، هو

جعل الجهاز المدرسي الجهاز المسيطر في اخضاع الافراد للايديولوجيا المسيطرة :  
اخضاع للافراد واخضاع لايديولوجيا الطبقات المسيطر عليها ايضا . لهذا فان كل  
التناقضات الايديولوجية التي تقوم ، في التحليل الاخير ، على تناقضات الجهاز  
المدرسي ، تصبح تناقضات خاضعة للشكل المدرسي ، وفي الشكل المدرسي .

بداننا نعرف الان تحت اي شكل تتجلى التناقضات الاجتماعية في الجهاز المدرسي  
ولا تستطيع هذه التناقضات الوجود الا داخل الوحدة الشكلية للمدرسة « الواحدة »  
و « الموحدة » ، وهي نتاج هذه الوحدة نفسها ، التي تنتج من تعايش جهازين ، أو  
سلسلتين متناقضتين (١) : يمكن تسمية السلسلة الاولى بـ « الابتدائية - المهنية »  
والثانية بـ « الثانوية - العالية » ، يضاف الى ذلك دور النظام في تحديد وحد « درجة  
التعلم » والتي كان دورها في فرنسا ولمدة طويلة تجسيد هذه التناقضات في ماديتها  
المباشرة .

ينزع التقسيم المدرسي ، في مجتمع قائم على بيع وشراء قوة العمل الفردية ، الى اعادة  
انتاج تقسيم الطبقات الاجتماعية ، والى تأمين السيطرة الايديولوجية البرجوازية في الوقت  
ذاته تحت شكل قائم على الوحدة ( الوحدة القومية بشكل خاص ) ، ويتحقق هذا التقسيم  
أولا ومنذ اللحظة الاولى وخلال فترة التدريس كلها كتقسيم لغوي . وكما نكون واضحين  
بشكل كاف نقول : ان الشكل الموحد هو الوسيلة الاساسية للتقسيم وللتناقض . ان التقسيم  
اللغوي المحايث للنظام المدرسي ، يختلف عما يمكن أن نلاحظ في بعض التشكيلات  
الاجتماعية ما قبل الرأسمالية ، فهو ليس تقسيما بين « لغات » مختلفة ( « لغة الشعب » ،  
اللغة العامية ٠٠٠٠ و « لغة البرجوازية » ) لكونه يفترض وجود لغة مشتركة ، بل تناقض  
ممارسات مختلفة للغة نفسها (١) . ويتطور على هذا الاساس التناقض بين الممارسات  
المدرسية ( ويشكل خاص بين الممارسة « الابتدائية » للانشاء - والاستظهار والتي هي  
مجرد تمارين لتعلم اللغة « الصحيحة » المعبرة عن « الواقع » والممارسة « الثانوية »  
لدراسة - وشرح النصوص . وتفترض هذه التمارين « المبدعة » ظاهريا استعمال  
وتقليد النصوص الادبية ) والممارسات الايديولوجية ، اي بين الممارسات الاجتماعية . وهكذا  
يبدو لنا أن سيرورة الانتاج الادبي تقوم على علاقة لا متكافئة ( أو حسب منطق الشكل  
المدرسي نفسه ، علاقة ملكية لا متكافئة ) متناقضة لايديولوجيا يعينها : الايديولوجيا  
المسيطرة . لكن هذه العلاقة المتناقضة لا تستطيع البقاء لولا نضال الايديولوجيا المسيطرة  
المستمر من أجل الاحتفاظ بسيطرتها .

١ - نعتد في تحليل هذه النقطة على الفصل الاول والثاني من كتاب بوديلو وايتابلية :  
المدرسة الرأسمالية في فرنسا . باريس - ١٩٧٢ .

(٢) لا نود هنا اضافة فصل جديد يعالج اللغة بواسطة علم الالسن أو ان نعارض  
نتائج هذا العلم . كما لا نود ان نعارض علم اللسان « البرجوازي » بعلم لسان  
« بروليتاري » وهمي ، أو نوغل في اللامعقول فنقيم معارضة ميكانيكية بين « لغة  
برجوازية » و « لغة بروليتارية » . مع ذلك ينبغي ان نقول بوضوح ان التحليل المستند  
الى علم الالسن الذي يتعامل مع موضوعه كما هو ، اي كما هو معطى له ، بدون الرجوع  
الى الشروط التاريخية لتكوينه لا يستنفد معرفة اثار اللغة ، فهو يغفل بشكل خاص ومستمر  
ما نصنفه هنا تحت مفهوم الممارسات اللغوية . وليس من شأننا هنا ان نقول فيما اذا كان  
هذا التغافل ايجابيا شرط امكانية علم الالسن ، أو سلبيا هو الحد التاريخي والمساوي  
لتطوره . فهذه مسألة علم الالسن وعليه ان يجد لها حلا .



من المسلم به ان الادب ( نصوص تنتج وتستهلك كنصوص « أدبية » ) لا يظهر السى الحياة بشكل مطلق ، اى بشكل ميكانيكي ، مع هذا التاريخ او ذاك من السيطرة الاقتصادية والسياسية لنمط الانتاج الرأسمالي . فكما وجد في قلب التشكيلات الاجتماعية المقابل - رأسمالية سيرورة طويلة ، لتكون لا متكافئ ومتعدد الاشكال لنمط الانتاج الرأسمالي ، فقد وجد بالمثل وبالضرورة سيرورة طويلة لتكون « الادب » كتشكيلة ايديولوجية جديدة ، سيرورة قلقة لـ « اشكال بدائية مختلفة » ان هاتين السيرورتين مترابطتان : لكنه ينبغي دراستهما بشكل مشخص ، فنحن لا نستطيع ان نقول شيئاً ذا بال بشكل مسبق وبطريقة محض استنباطية . نطرح الان السؤال التالي : هل تسمح لنا معرفتنا للشكل الادبي في مجتمعات نمط الانتاج الرأسمالي ، ان نطرح مسألة تكون الادب واشكاله البدائية ؟ نعم ، بلا شك ، وباتجاهين :

في المقام الاول ، ان اكتشاف كون الاساس المادي للاشكال الادبية في الادب الفرنسي في القرن التاسع عشر والعشرين ، يقوم على العلاقة المتبادلة والمتعارضة التي تحكم الممارسات المدرسية واللغوية ( القومية ) ، يسمح لنا بتحليل الحقب المتعاقبة في تاريخ الاشكال الادبية : من هنا تأتي اهمية دراسة « حالات » نمطية : نصوص فلوبيير التي ظهرت في زمن تشكل الجهاز المدرسي الفرنسي ، نصوص بيجيه المواكبة للفترة الاولى لتعميم التعليم المدرسي ، ونصوص كامو والسراليين الموافقة للالزامات الاولى للجهاز المدرسي الفرنسي واليته المرتبطة بتحويلات ذات اساس اقتصادي واجتماعي . وهذا يسمح لنا ايضا بطرح مسألة اشكال تكون الادب في تشكيلات اجتماعية رأسمالية اخرى حيث تترابط اللغة القومية مع عملية التدريس بشكل مختلف (٣) .

في المقام الثاني ، ان معرفة هذا الاساس المادي يستطيع ان يرشدنا في بحث مواضيع تستعيد الماضي : القرن الرابع عشر ، والثامن عشر ، وتسمح لنا ان نتساءل : تحت اى شرط تشكل « الادب » كتشكيلة ايديولوجية مستقلة ؟ وما هي الممارسات اللغوية المتناقضة التي شكلت اساسا له ؟ وضمن أي حدود مر تحققها باشكال مدرسية بدائية و « تدمية » اخذت في التكوين في اجهزة ايديولوجية مغايرة ؟ . لا نستطيع هنا الا طرح هذه الاسئلة الباحثة عن اجابة .

انطلاقاً من هذا التحليل ، نستطيع الان فهم نقطة جوهرية : موضوعية الادب ، وعلاقته بالواقع الموضوعي الذي يحدده تاريخياً ، وهذه العلاقة ليست علاقة بـ « موضوع » ، اذ انها ليست علاقة تمثيل . كما أنها ليست ببساطة مجرد علاقة استعمالية ،

(٣) ينبغي التذكير هنا بحدس غرامشي الفني بدلالاته الوارد في جزئين من « دفاتر السجن » : « المثقفون وتنظيم الثقافة » ، و « الادب والحياة القومية » . حيث يقارن غرامشي بشكل منهجي بين الصفة « القومية » و « الشعبية » للادب الفرنسي في القرن التاسع عشر ، والصفة « الكوزموبوليتية » و « النخبوية » للادب الايطالي في نفس الفترة . ويربط هذا بتباين التاريخ السياسي ، المدرسي واللغوي لكل من البلدين . ويقترح تحليل روابط التوافق والاختلاف بين الادب الفرنسي والادب الايطالي ، والاورا القومية الايطالية . الا يدعو للدهشة ان اعمال غرامشي التي تنم عن معرفة واسعة لتاريخنا وثقافتنا ، والتي يمكن ان تعلمنا الكثير ، ما زالت غير مترجمة في فرنسا ؟ وان بعض « شذراته المختارة » المتماسكة نسبياً والتي طبعتها « دار المنشورات الاجتماعية » لم تعد طباعتها منذ زمن طويل ؟

استعمال وتحويل موادها المباشرة . فالممارسات اللغوية المحددة مدرسياً ، وبسبب تناقضاتها بالذات ، لا يمكن استخدامها كمجرد مواد أولية : فكل استعمال هو مداخلية ، اتخاذ موقف ، تحزب ( بالمعنى العام ) في التناقض ، أي مساهمة نشطة في تطويره . ان موضوعية الادب ، هي مداخلته الضرورية في عملية تحديد واعادة انتاج الممارسات اللغوية المتناقضة للغة مشتركة بعينها ، حيث تتحقق الفعالية الايديولوجية لاجهزة التدريس البرجوازية .

ان طرح المسألة بهذا الشكل ، يلغي السؤال المثالي القديم « ما هو الادب ؟ » ، الذي لا يتساءل عن موضوعية الادب المحددة ، بل يسأل عن جوهره الفني والانساني ذي الطابع الكوني . يلغي هذا الطرح السؤال القديم لانه يظهر لنا مباشرة شكلا ماديا لالية الادب متداخلا في عملية يعجز الادب عن تحديدها على الرغم من كونه ضروريا لها . واذا طرحنا السؤال بشكل مشخص نقول : اذا كان الانتاج الادبي يتخذ من تناقض الممارسات اللغوية المدرسية أساسا ماديا ومتميزا له ، بعد استعادته والتأثير في مركباته الداخلية ، فذلك لان الادب يكون احد عناصر هذا التناقض التي تتحدد بالنسبة اليها أيضا عناصر التناقض الأخرى . فالادب دياكتيكا هو في الوقت نفسه نتاج وشرط مادي للتقسيم اللغوي في عملية التدريس ، سبب ونتيجة تناقضات تاريخه . ان ما يثير الدهشة في هذه الحال هو ان الايديولوجيا الادبية ، التي تشكل جزءا من الادب ذاته ، تستشرس في ذكران الاساس المادي للادب ، مقدمة اياه كـ « اسلوب » ، او كابداع فردي ، واع او غير واع ، او كعمل أدبي . . . الخ ، تقدمه كشيء خارج ( او متعال ) عن عملية التدريس ، التي لا يتجاوز دورها في نظر هذه الايديولوجيا غير توزيع الادب ، و « التعليق » عليه ، عبر جهد متفان لا يحد الادب ولا يحدده .

ان ما ترفضه هذه الايديولوجيا الادبية هو موضوعية الادب كشكل ايديولوجي تاريخي ، اي شكله الخاص في علاقته مع الصراع الطبقي ، وبذلك تصبح القاعدة الاولى للايديولوجية الادبية اذن هي « تستطيع ان تتكلم عن كل اشكال الصراع الطبقي ، الا عن الشكل الذي يحددهك مباشرة » .

انطلاقا مما تقدم ، يطرح سؤال علاقة الادب بالايديولوجيا المسيطرة نفسه في تعابير جديدة : وينجو السؤال بدوره من مواجهة الجوهر الكوني الذي سجدت الكثير من النقاشات الماركسية نفسها داخله . ان اعتبار الادب شكلا ايديولوجيا محدد ، لا يعني أبدا « ارجاعه » الى الايديولوجيات الاخلاقية ، السياسية ، المدنية ، او حتى الجمالية ، التي يمكن تعريفها بمعزل عن الادب ، كما لا يعني في الوقت ذاته ان نجعل من هذه الايديولوجيات ( مواضيع او بيانات ايديولوجية يمكن عزل بعضها عن البعض تماما ) المضمون الذي نلبسه شكلا خاصا فيما بعد . ان هذه القسمة ميكانيكية ، واكثر من ذلك : انها تتوافق مع الموقف الذي يقول بأن الايديولوجيا الادبية تجهل تحديدها التاريخي باستبداله ، وتدفع باتجاه دياكتيك الشكل والمضمون الزائف واللامحدود ، حيث يستطيع هذان العنصران ( الشكل والمضمون ) التمايزان بشكل زائف ان يتبادلا مواقعهما دوريا كجوهرية وغير جوهرية ، ويرجعان تارة الى المضمون ( الايديولوجي ) وتارة الى الشكل ( الادبي المحض ) . ان تحديد الادب كشكل ايديولوجي خاص يعني طرح مشكلة جديدة : خصوصية الاثار الايديولوجية التي ينتجها الادب ونمط ( آلية ) انتاجه لها .

نقل النص من الفرنسية الى العربية

فيصل دراج

## قراءة رجال في الشمس

## ١ - الواقع والرمز والموقف :

إذا كان هنا تفسير الرواية بإظهار بنياتها والدلالات التي تحملها أبعاد هذه الدلالات في كل مستوى من مستوياتها وكل عنصر من عناصرها ، فإننا على طريق بلورة هذه البنية بالذات ننطلق من مطلع الرواية لدرس الاشارات الموحية فيه .

فمطلع الرواية يقدمها معلنا بشكل او بآخر لغتها ، مفاتيحها الاساسية ، محددًا بذلك وجهة قراءتها ، مضيئًا بنياتها العامة (١) .

يبدأ المطلع بالجملة التالية : « أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي ، فبدأت الأرض تخفق من تحته : ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر السى خلاياه ٠٠٠ » ( ص ٣٧ )

ان طلب الراحة هذا يتضمن تعبًا ما ، ولما كان ما يريحه هو صدره ، فإن التعب المقصود هو هم يعمر القلب ، ولما كان التراب الذي هو ما يلجأ اليه أبو قيس ، فإنه يبحث فيه عن هذا الارتياح المفقود . ولكن التراب ليس الا جزءًا بسيطًا - رغم كونه الاكثر بروزًا - من كل اخر هو الأرض التي تستجيب مباشرة بشكل قوي الايحاء : تخفق من تحته .

(١) راجع : Pour une Socio - critique , ou variations sur un incipit

In. Littérature , revue trimestrielle No 1 février 1971 ( 5 — 14 )

Claude Duchet

مع العلم ان المطلع لا يعطي البنية الروائية ميكانيكيا، وان طرق الوصول الى هذه البنية شتى ٠٠

فالحققان المقصود هو خفقان قلب الارض ذاته الذي لا يحول تبعه دون ان تحلق ضرباته من اعماق صدر الارض مطوفة في ذرات الرمل قبل ان تعبر الى خلايا ابي قيس ذاته .

فاذا بنا ازاء علاقة متعددة الابعاد - بين ابي قيس والارض حتى التداخل الحياتي - الدموي بينهما . ان ما بدا تطلبا عاطفيا يبحث ابو قيس عن تلبية له في الارض ، انداح في ردة فعل الارض الى ما يشبه العملية الجنسية التقليدية ، الا ان هذه العملية ذاتها لا تلبث ان تتكشف ( عبر النقطتين التفسيريتين ) عن علاقة ابعد غورا ، علاقة تكاد تكون رحمية فيما ينقل نبض الارض الى خلايا ابي قيس عبر ذرات الرمل المرتجة ، لكنها ليست رحمية بالمعنى الدقيق للكلمة : فالتداخل بين الطرفين يتحول الى اقرب ما يكون من الدمج والتوحيد في ذلك القلب المتعب الذي ينتشر خفقانه في الجسدين معا . لذلك لا يعود عجبا ان يتعب ابو قيس ، تنكأثر همومه ، تثقل صدره ، تضعف قلبه ، كلما ابتعد عن هذه الارض قابتعاده هذا يحمل ضمنه تهديدا له بالموت في النهاية .

لكن هذا التهديد لا يأتيه فقط من انقطاع ملامسته للارض - من ابتعاد صدره عنها - انما يأتيه ايضا من انقطاع اخر : ابتعاده عن رائحتها .

فردا على ما كان يحاوله جاره في فلسطين من اقناع له بأن ما كان يسمعه حين كان يلصق صدره بالارض هو صوت قلبه ، كان ابو قيس يحتج رافضا وهو يتساءل : « والرائحة اذن ؟ تلك التي اذا تنشقها ماجت في جبينه ثم انهالت مهومة في عروقه ؟ » ( ٢٧ )

هذه الرائحة التي ترسم حركتها اتجاهها مماثلا لذلك الذي رسمه نبض الارض ، وتنتهي مثله في عروق ابي قيس ، في دمه ، وانحاء جسمه . ورغم هذا البعد الحياتي - الدموي في العلاقة بين ابي قيس ورائحة الارض ، فهو لا يحول دون بعد اخر متعدد الدلالات كما لاحظنا ذلك ايضا فيما يتعلق بنبض الارض : العلاقة الجنسية - العاطفية كما يديها تعبير ابي قيس عن الاحساسات التي تثيرها فيه تلك الرائحة ( « رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيبا .. » ( ٣٧ ) )

واذا كان هذا البعد الجنسي - العاطفي بسيطا وثانيا في خفقان الارض ، فانه هنا في رائحتها يصبح مركبا كثير الغنى والنفاز واولا ، يسيطر على العلاقة الحياتية - الدموية ، فينطلق التعبير فيه متقابلا مع انطلاقته عن هذه العلاقة الاخيرة في مسألة خفقان الارض . وفي اكمال هذا التقابل كما يؤكد ابو قيس اخيرا في تعبيره عن هذا الخفقان : « كأنك تحمل بين كفك الحائيتين عصقورا صغيرا .. » ( ٣٧ ) يكتمل مفهوم العلاقة الكلية لابي قيس بالارض في تشديده على بعد ثالث يجمع ذينك السابقين : البعد الوجداني ، واذا بهذه العلاقة الكلية بينهما تعلن على انها علاقة حياتية - جنسية - وجدانية اساسا . وبالتالي يصبح الانقطاع فيها ، الابتعاد عن الارض تهديدا بالخيانة والعجز والموت ، وكلما كان الابتعاد اقوى - ملامسة ورائحة - كلما كان التهديد اشد وبالتالي تصبح اقوى النتائج - الموت - متوقعة .

الا ان الارض التي يلجأ اليها ابو قيس ليست ارضه بالمعنى الامتلاكي والوطني معا . فهذه الاخيرة تركها منذ عشر سنوات ، والارض التي اثنى يستلقي فوقها هي ارض الشط

( شط العرب في العراق ) . وفي هذا الاختلاف ينتصب عنصر متميز يحدد الإطار الخاص الذي تتم فيه هذه العلاقة . هذا العنصر هو البعد المكاني - الزمني عن تلك الأرض الاصلية التي تقوم معها اكثر الغلاقات حميمية وصدقاً . ويؤدي هذا الى ان تشكل الأرض البديلة خطراً مباشراً بالانقطاع المشار إليه آنفاً وبمضاعفاته ، وذلك فيما تحمله في حد ذاتها من ايحاء بتلك الاصلية ، بما في ذلك الايحاء المقبول من خطأ وتوهم . فيكون هذا التوهم ، هذا الخطأ ، وقوعاً خطراً في الشرك المثلث الذي يتهدده ، ويتفاقم خطره كلما تفاقم رسوخه ، كلما امعن في البعد الزمني - المكاني عن فلسطين .

والمطلع يقدم لنا عينة عن هذا الخطر في شكله الاولي البسيط . فابو قيس يفكر مستلقياً على الشط ، على الأرض الندية النايضة تحته : « هي لا شك بقايا من مطر امس .. كلا ، امس لم تمطر ! لا يمكن ان تمطر السماء الان الا قيطا وغبارا ! أنسيت اين انت ؟ أنسيت ؟ » . ويدور مستلقياً على ظهره ليعلم لنفسه : « كلا ، لم تمطر امس ، نحن في اب الان ، .. » ، ثم : « نحن في اب ! اذن لماذا هذه الرطوبة في الأرض ؟ انه الشط ! الست تراه يترامى على مد البصر الى جانبك ؟ » (٢٨) . قبيدو لنا ابو قيس يخطيء في تحديد الوضع ( الأرض البديل ) زمانياً ومكانياً ، اذ يسقط عليه مقاييس وضع اخضر ( الأرض الاصيل ) توهماً يخلط بين الوضعين ولا ينجو منه الا بالذاكرة التي تقسوم بالتحديد الصحيح . واذا كان التوهم زمانياً - مكانياً فان جهد الذاكرة وهو كذلك زمني مكاني ، ينحصره . فكان الذاكرة ، بما هي صنو للماضي ، تعلن ازاء الانقطاع الحاصل في علاقة ابي قيس بأرضه الاصلية ، كما تتمثل في التوهم القائم وفي المخاطر الحادة التي يتضمنها ، ضرورة العودة الى تلك العلاقة ، الى الارتباط بفلسطين ، على انه فيه تتمثل الحقيقة الصادقة ، وتنعدم في تلك الصلة الاصلية بالأرض والتاريخ مخاطر الخيانة والعجز والموت ، لتقوم بديلها انفتاحات الوفاء والقدرة والحياة .

هكذا نتحدد في المطلع وجهة قراءة الرواية التي تبدو ، كما لاحظنا ذلك عبر دراستنا له ، مثقلة بالابعاد الرمزية ، رغم الواقعية الحادة التي يتسم بها اسلوبها (\*) . كما تتضح بنيتها العامة .

واذا تركنا مسألة توضيح هذه الابعاد الرمزية الى حين تفسير البنية الروائية العامة في المفاصل المحورية التي تستند عليها هيكليتها ، فان علينا ان نشير في البداية الى هذا الاشكال المرهف الذي يشكله الرمز بحد ذاته .

(\*) معظم الذين درسوا هذه الرواية - او روايات كنفاني اجمالاً - اشاروا الى هذه الابعاد الرمزية ذاهبين فيها مذاهب شتى . لكن لم يقدم أي منهم دراسة جدية في هذا الخصوص . فقد سقطوا جميعاً في اسقاط دلالات محددة على بعض العناصر الرمزية المتفرقة التي تحفل بها الرواية ، دون ان يبين البنية العامة والكلية للرواية التي وحدها - هذه البنية - تتيح تمييز الابعاد الحقيقية لما ترمز اليه هذه الرواية ، وبالتالي تمييز الابعاد الحقيقية لكل عنصر من عناصرها . خارج هذا الاطار يتعدى مفهوم الصحة في الدراسة التوفيق في التقاط دلالة رمزية ما . ليتحدد في المنهجية العامة التي يأتي فيها . وليس لنا هنا ان ننقل السياق بالتوقف التفصيلي عند مختلف المعالجات النقدية ، مكتفين بهذه الاشارة العامة .

فالرمز ، بما هو احياء مكثف نوعا وكما ، يشكل اختزالا واجتزاء لرؤية تدعي التعميم والاطلاق لظاهرة ما ليس على المستوى الاجتماعي ( المكاني ) فقط ، بل ايضا على المستوى التاريخي ( الزمني ) .

ان الرمز يحد ذاته عملية جدلية ممثلة زخما وخصبا ، في كونه المجال الذي يتم عبره اختصار واقع ما واطلاقه في أن معا ، وفي كونه معبرا في هذا التحول الذي يؤديه عن رؤية ووضع خصوصيين ومحددين . وهنا تكمن قيمته ، وهنا يكمن خطره في أن . وما يحسم امره طريقة استعماله يحد ذاتها . على ان قيمته ليست معطى مسبقا بل ممارسة جدلية هي الاخرى . وان خطره يكمن بالتحديد في اغفال هذا الامر ، والتعامل اليهفيلي معه كأنه جدلية هيغيلية . اي اعتبار دلالاته معطى جامدا ومنفصلا عنه وقائما لذلك قبله ، وان توسله شكلية محضة . بينما تكون الممارسة الجدلية في استعمال له يبدي تدخله وتأثره معا في وبكل من الطرفين اللذين ينهض لتأديتهما معا . فيعيد الى الاطلاق والتعميم محدوديتهما وتاريخهما في البنية العامة للانتاج الادبي ، جامعا بذلك على تمايز خاص فيه بين هذين الوجهين المتداخلين في ترابط مدهش : الابداع الفني والرؤية التحريرية .

وكنفاني هنا اذ يحاول تقديم رواية واقعية بأبعاد رمزية ، (\*) كما تشير الى ذلك ملاحظتنا الاولى حول مطلع روايته ، فانه يحاول استعمالا جدليا للرمز في ذلك التفاعل الجدلي الذي يقيمه بينه وبين الواقع محمدا عبر ذلك رؤيته التاريخية - الاجتماعية ، او بالاحرى موقفه التاريخي الاجتماعي . محاولة لا يمكن الحكم عليها الا بتتبع آلية انتاجها تفصيليا . الا ان ما يجدر تبيانه قبل ذلك تلك البنية التي تندرج هذه الآلية فيها وتصيغها معا . على ان هذه البنية تحدد الموقف العام للكاتب .

فالرواية تقسم لنا حكاية فلسطينيين ثلاثة يموتون اختناقا على الحدود الكويتية ، فسي محاولتهم الوصول خلصة ( تهريبا ) الى الكويت. من البصرة في العراق داخل خزان ماء شاحنة يقودها سائق فلسطيني يعمل عند أحد الاثرياء الكويتيين صاحب الشاحنة المذكورة .

لقد ماتوا بسبب هذا الالتحام الدنيوي. المكاني - الزماني المتمثل في اتجاه تحركهم الذي فرض عليهم وضعا محمدا ( داخل الخزان ) ومدة معينة فيه ( حوالي ٢٠ دقيقة ) ، هذا الاتجاه الذي كان في حد ذاته مؤشر التهديد المتفاقم ، والذي وصل في الالتحام المكاني - الزماني المذكور الى مرحلة الخطورة القصوى .

وفي ذلك تتبدى بنية الرواية العامة . ان الانقطاع عن الارض ( فلسطين ) يشكل تهديدا بالضيافة والعجز والموت ، وتزداد خطورة هذا التهديد بنسبة الابتعاد المكاني - الزماني عن هذه الارض . فالحقيقة والصدق لا نجدهما الا في تلك الارض . فالاستاذ

(\*) راجع حديثا جرى بينه وبين احسان عباس في هذا الصدد كما ينقله هذا الاخير في مقدمته لانتاج غسان كنفاني الروائي : ( الاثار الكاملة : الروايات ، ص ١٦٥ - ١٠٠ )

سليم ( الذي يعلم الحقائق لتلامذته ٠٠ ) يعلن امام الحضور في ديوانية مختار قريسة  
ابي قيس بكل صدق - مهما كانت حدة وقعه - جهله للصلاة واتقانه لاطلاق النار، ويتوقع  
امورا تقع بالفعل ( الهجوم على القرية ٠٠ ) .

خارج تلك الارض لا نجد غير الكذب والخداع والتوهم والخيانة ٠٠٠ تتصاعد وتقوى  
مع الابتعاد المكاني - الزماني عنها . فأبو قيس واسعد ومروان يتوهمون الحل لمشكلاتهم  
في وصولهم الى الكويت ٠٠ ويتوهم اسعد الصدق في تعهد ابي العبد بأن يوصله السى  
بغداد « ولكنه كذب عليه ، استغل براءته وجهله ، خدعه » ٠٠ ( ٥٧ ) وتوهم مروان ان  
بإمكانه تهديد سمسار البصرة الذي يتولى تهريب الناس الى الكويت بتخويفه من اللجوء  
الى الشرطة ٠٠٠ ( ٧٢-٧٣ ) .

كما ان مفاوضات الثلاثة مع ابي الخيزران تبين اغراقهم في الدجل والخداع والكذب :  
فمروان الذي كان قد قام باتفاق مسبق وضمني مع ابي الخيزران يمارس لعبة التفاوض  
كلها ٠٠٠ مثله مثل ابي قيس الذي كان ايضا قد التقى قبله بأبي الخيزران ٠٠٠ اما اسعد  
الذي كان قد أبرم اتفاقا مع سمسار البصرة ( ٦٢ ) فانه يأتي للتفاوض مع ابي الخيزران ،  
فبيدنا ذلك ممثلا ابا قيس ومروان ولكنه يقرر السفر مع ابي الخيزران وحده دون  
الرجوع اليهما ( ١٠١ ) .

الا ان من يتقن الكذب والخداع حد الخيانة هو ذلك الذي امعن في القطيعة مع الارض  
مكانيا وزمانيا والذي يمثله ابو الخيزران خير تمثيل ، فهو الذي يعمل في الكويت منذ  
سنوات حتى انه حين يذكر ابا قيس يأتي بتعبير عظيم الدلالة على انقطاعه : « انه من  
بلدتي في فلسطين ايام زمان ٠٠٠ » ( ٨٢ ) ، لذلك يصل الكذب والتدجيل عنده حده  
الاقصى : فهو يكذب على الحاج رضا ويخونه حين يقوم بعملية تهريب في سيارته ،  
ويكذب على موظفي الحدود فيما يتعلق بالتهريب وفيما يتعلق بالراقصة كوكب ، وهو  
يكذب على الثلاثة الذين يقوم بتهريبهم ذاكرا لهم ان المرور على الحدود العراقية  
لا يستغرق اكثر من خمس دقائق وكذلك الامر بالنسبة للحدود الكويتية ( ٩٧-٩٨ ) ، لكنه  
لا يلبث ان يقول لهم قبل نزولهم في خزان ماء السيارة للمرة الاولى ان المرور يستغرق  
بين خمس وسبع دقائق ( ١١٥ ) وفي الحين الذي يؤكد لهم ان المرور على الحدود الكويتية  
لن يستغرق اكثر من سبع دقائق قبل نزولهم في الخزان للمرة الثانية ( ١١٢-١٢٤ ) نجد  
انه يضطر ان يمضي عشرين دقيقة ولم يكن متوقعا له ان يمضي في كل الاحوال اقل من  
تسع دقائق (\*) !

والابتعاد عن الارض يحمل معه الضعف والتهديد بالعجز الذي يشهد كلما امعن في  
هذا الابتعاد مكانيا وزمانيا .

فأبو قيس يفقد مورد عيشه ( حقله وزيتوناته العشر ٠٠ ) مع خروجه من فلسطين ،

(\*) نستعمل هنا النتائج النهائية لحساب الوقت المستغرق منذ نزل الثلاثة في الخزان  
الساعة الحادية عشرة والنصف ( ١٢٣ ) الى حين فتح ابو الخيزران بابه لاحقا بعد  
تجاوزه مركز المطلاع على الحدود الكويتية الساعة الثانية عشرة الا تسع دقائق ( ١٤١ ) .

ولكنه اذ يصل البصرة فهو هذا العجوز الذي لا يملك الا خمسة عشر دينارا . ولا يجد غير الارتقاء على التراب متنفسا لهمومه التي تطوقه . . .

واسعد لا يستطيع مجابهة السلطة في الاردن ، ولكنه يصل البصرة بالتهريب فيشتد ضعفه في المجابهة ، وليس شبابه وماله وثقافته الا مظاهر خادعة لا تنم عن قسوة حقيقية : فهو ساذج في ثقته بأبي العبد ، ساذج اكثر في حذره مع ابي الخيزران ، وامواله المستعارة يذهب قسم منها سدى مع ابي العبد ، لتتبدد كلها لاحقا مع ابي الخيزران دون ان تتيح وضعا افضل من غيره ، اما شبابه فليس للفعل كما يحكمه بذلك وضعه المأزقي في العراق ، ولاحقا في الخزان . . . بينما يبدو مروان قاصرا في فهمه ، قاصرا في ماله ، قاصرا في عمره : فهو لا يتمكن من استيعاب وضع المهريين في البصرة ، وهو لا يملك المال المطلوب من قبلهم ، فيظن ان بإمكانه التهديد بالشرطة فيصنع ويشتم ويطرد دون ان يتمكن من مجابهة ذلك . . .

وحين يعين هؤلاء الثلاثة بالسفر ، فانهم يوضعون في خزان ماء سيارة مقفل بكل ما يعنيه هذا الوضع من تسليم وعجز يهددان بالموت يوضح .

وليس وضع ابي الخيزران الخصي ، الا الرمز الحاد الجارح لما يمكن ان يبلغه هذا المعجز في حده الاقصى : البتر والموت .

هذا الموت هو الذي يصل اليه اولئك المسافرون الثلاثة المعنون انقطاعا عن ارضهم ، واذا كان ابي الخيزران يعيش ، فلانه ليس الا موتا يتحرك . حركته لا تسعى الا الى موت (١١٤) ولا يمكن لها ان تلد الا العدم .

هكذا فان البنية الروائية في رمزيته تؤكد ما سبقت الاشارة اليه في المطلع من ان الانقطاع عن الارض ( فلسطين ) بالهرب ( بالسفر ) منها هو مخاطرة قاتلة . وليس موت هؤلاء الثلاثة على الشكل الذي قضوا فيه الا التجسيد الحي لذلك . فهم يموتون اختناقا داخل الخزان المقفل الذي يمثل ابتعادهم عن الارض وتبعضها ، وحرمانهم ايضا من رائحتها . اي يمثل البياس الضاري النقيض الكامل للارض الندية على كل المستويات . فبقدر ما كان رتاج الخزان المقفل يمثل الحد الاقصى للانقطاع عن الارض ، ويقدر ما كان موقعهم ( ما بين العراق والكويت ) يمثل الحد الاقصى للامعان في السفر ( الهرب - الانقطاع . . ) . ويقدر ما كان الوقت الذي يمر ( التاريخ . . ) لا يرحم ويمثل الحد الاقصى لاحتمالهم ( احتمال الوجود . . ) فانهم كانوا يعيشون ذروة الموت .

وفي هذه البنية بالذات ، البنية الرمزية لرواية واقعية ، يعلن غسان كنفاني موقفه على انه ادانة كاملة للابتعاد عن الارض ( فلسطين ) . فهذا الابتعاد هو اغراق الواقع السائد ومفاهيمه ، واستغراق في الموت انجح ام فشل ، سيان . فالاندراج في البعد هو اندراج في الكذب والخداع ، كما هو سائد في العلاقات الاجتماعية القائمة في الانظمة العربية ، وليس هذا الاندراج الا انخراط في مؤسساتها بما يعنيه من تدوير للشخصية الفلسطينية التي تنتهي وتموت . وهذا ما يعرفه اولئك الذين ينجحون في هذا الانقطاع عن فلسطين ، فيبقون حيث هم ويقطعون كل صلة لهم بالوطن كحال ابي الخيزران السذي



لم يعد له هم سوى العيش المرفه حد الموت : « أريد أن استريح .. اتمدد .. استلقي في الظل وافكر او لا افكر .. لا أريد أن اتحرك قط .. » (١١٤) او حال زكريا الذي انقطعت اخباره عن عائلته حين تزوج ، وتوقف عن اعالنتها ، منكنفنا على ذاته قسي الكويت .. او حال اي شخص اخر يتوصل الى نجاح ما ...

ولكن هذا الموت ليس الا ظاهر موت اخر : اكثر اكتمالا ، يصيب اولئك الذين لا يفلحون في الوصول والنجاح . امثال عشرات القتلى الذين تودي بهم صحراء الغياب والسفر والانقطاع عن ارض فلسطين ، امثال اولئك الذين يتحولون هياكل عظمية في صحراء الحدود العراقية الكويتية ( ١١٣ - ١٢١ - ١٢٢ ) ومن بينهم ذاك الفلسطيني (الغزويان ) اللذان دفنهما صديقهما في هذه الصحراء (١٢) هذا الموت يسقط في الغياب المكاني ايضا كرمز على الضياع الكلي فيه . كما جاء موت الفلسطينيين الثلاثة قسي الخزان عند الحدود الكويتية يؤكد .

لذلك تشكل هذه البنية في ادانتها للابتعاد عن الارض ( فلسطين ) توضيحا بينها لعدمية اي حل يقوم على الهرب - السفر . فليس هناك من جدوى على الاطلاق في الابتعاد لحل المشاكل المطروحة . بالعكس ، لا يزيدا الابتعاد الا تعقيدا ، ينتهي الى كارثة وموت . فهذه المشاكل ليست الا نتيجة انقطاع اولي - خروج اولي من الارض - هرب اولي منها ، وليس الاستمرار في الهرب والخروج والانقطاع الا تعميقا لها . فمشكلات ابي قيس التي انتهت الى دفعه نحو السفر هي نتيجة خروجه الاول من قريته ، كذلك فان مشكلات مروان مرتبطة بخروج عائلته وعيشها في المخيم .. ، كذلك الحال بالنسبة لاسعد الذي تقوم مشكلاته على قاعدة هذا الخروج ( التظاهرات - السلطة الاردنية .. ) ومضاعفاتها .. وفي ذلك كله تنتصب دعوة ملصاح لكسر هذه الحلقة المميتة ، وذلك بتغيير الوجهة التي يجري التحرك فيها : بديل الذهاب بعيدا عن الارض ( فلسطين ) يجدر الذهاب العميق فيها : استعادتها . ورهافة الرواية ، تقوم في جعلها هذه الدعوة تنتصب في ثنايا دراميتها ، متصاعدة بقوة ورشاقة مع تناميها ، وذلك بالايحاء الذي يعطيها البعد الرمزي لبنيتها الواقعية .

ان استيعاب خصائص هذا الموقف لا يتأتى الا باستيضاح هذه البنية كامل دلالاتها - او اهم ما يبدو لنا منها - في عملية تفسير تسعى لاستنطاق الابعاد الرمزية لهذه البنية ايضا واسع مراميها .

## ٢ - بنية الخطر والموت والتاريخ :

اذا كانت بنية الرواية العامة تقوم على الخطر الذي يشكله الانقطاع عن الارض اندراجا مكائيا - زمانيا في الاوضاع السائدة ، في الهرب والكذب والخيانة ... حتى العجز والموت .. فان هناك مؤشرات عديدة عليها شكلت الاشارات الاولى والتحذيرات البدائية بما سيصبح خطرا داهما وموتا كريها . فابو قيس يذكر اول ما يذكره بعد تركه لقريته في فلسطين اثر سقوطها في ايدي اليهود موت ابنته « حسنا » . لقد كان هذا الموت - موت طفلة بعد شهرين من ولادتها - بعد ثلاثة أشهر من تركه ارضه مؤشرا بيئا على خطر هذا الانقطاع بالتحديد ، خاصة بالنسبة اليه هو الذي يقم مع الارض

علاقة عضوية - حياتية كما اشرنا . اما اسعد فأول الذكريات التي تطرأ على رأسه هي الرواية هي ذكرى خيانة ابي العبد له ، وخداعه له عند « الاتشفور » - مركز الحدود الاردني على الطريق من عمان الى بغداد . هذه الذكرى التي يعود اليها ثلاث مرات متتابة وهو في مكتب سمسار البصرة ليستكمل تفاصيلها الأساسية . وقد كانت هذه الحادثة بالذات اشارة واضحة بالنسبة له لذاك الخطر الذي يحمله الهرب ، والاغراق في الانقطاع عن الارض . حتى انه يتساءل اذا لم يكن معتقل الجفر الصحراوي ارحم من تلك الصحراء التي يقطعها عند الاتشفور ليعلم : « عبث . الصحراء موجودة في كل مكان . »

ويدل ان تكون « تعريفه التهريب » الى الكويت ( خمسة عشر ديناراً ) - وهي اول ما تستعيده ذاكرة مروان - تعرية للوهم الذي يطلبه هذا الشاب من السفر الى الكويت ، اذ تبدو مفارقة تماماً لما ذكره له احد اصدقائه ، حسن ( خمسة دنائير : اي ثلاثة اشعاف هذه ! ) فانها على العكس تظهر انها تزيد توهمه بما يتضمنه هذا التوهم من تعرض للخطر متزايد ، كما حصل له حين هدد باللجوء الى الشرطة فاذا به ينال صفة شديدة وشتيمة قاسية ويخرج من هذه المواجهة كسيرا ذليلاً ، وبالتالي ترهص هذه الحادثة بتوهم اكبر ونتيجة اعظم (٣) وكانت نهاية زكريا في زواجه في الكويت وانقطاعه التام عن اهله الذين كان يساعدهم ، وما يذكره له ابو الخيزران من انه سيتعلم في الكويت ان « القرش يأتي اولاً ، ثم الاخلاق » (٨٤) من المؤشرات الاخرى لدى مروان في تبيان عقم ما يحاوله ، والوهم القائم في مشروعه ان يفرق امه واخوته بالمال « حتى يجعل من كوخ الطين جنة الهية . » (٨٥) والخطر الملوح في مثل هذه المحاولة .

ورغم ان ابا الخيزران لا يبدو مقنعا ابداً فيما رواه عن عمله لهؤلاء الثلاثة ، حتى انهم يبدوون متفقين على انه يكذب عليهم في بعض المسائل كما يخفي امورا اخرى ( ١٠٠-١٠١ ) فانهم يوافقون على السفر معه معطينه ثقتهم ، غير ملقين اي بال لما يشكله وضعه من تحذير من خوض مغامرة الاعتماد على صدقه والثقة بأقواله . الا انهم لا يتفقون على محضه هذه الثقة فقط ، بل انهم عندما يخوضون مشتركين تجربة تجاوز الحدود العراقية ويعانون بالفعل والواقع الخطر الداهم الذي يزداد احاقاً بهم كلما امعنوا في هذا السفر الصحراوي ، فانهم لا يعون ابعاده الحقيقية ويعودون الى الاعتماد المطلق على ما يدعيه ابو الخيزران .

لقد كان الاتفاق مع ابي الخيزران نقطة الالتقاء التي صهرت التعرجات المختلفة للوجهة الواحدة ، المجال الموحد للتجارب المتميزة في تجربة مشتركة كثيفة الدلالات على مسأل هذا الخط العام الواحد القائم على الانهماك في السفر والانهماك في مخاطره حتى النهاية ، حتى الموت .

لذلك تبدو تجربة اجتيازهم الحدود العراقية الى الكويت اشبه بالتمرين النهائي لعرض مسرحي ، ليس فقط في احتوائها النهائي للتجربة الفردية لكل من هؤلاء المسافرين الثلاثة

(٣) هذه البنية المثلثة لدى كل من هذه الشخصيات الثلاث ليست الا بنية موتهم . ليس فقط عددياً انما ايضاً زمانياً كما سنبين ذلك لاحقاً .

في اكثر اطرها اكتمالا ، وانما ايضا في ما كانت تعلنه من حد اقصى لاكتمال مخاطر هذا السفر بالذات ، مخاطر القطيعة النهائية بالارض والتاريخ : الخيانة والعجز والموت .

فلنتبين بالتفصيل قيام هذه الدلالات بالذات في تلك التجربة والابعاد التي تأخذها في النص الروائي .

بعد تجاوز مركز الحدود العراقي في صفوان وخروج - او بالاحرى اخراج - المسافرين الثلاثة من الخزان ، يبدو هؤلاء اشبه بالموتى . فوجههم تبدو لابي الخيزران « وجوها » صفراء محنطة ، ولولا ان صدر مروان كان يرتفع ويهبط ، ولولا ان اباقيس كان يتنفس بصوت مسموع ، لخيّل اليه اذن انهما ميتان . . (١٢٢) وليس صدفة ان يبندر ابو قيس مباشرة اثر خروجه الى ان يستلقي « في ظل السيارة منبطحا على وجهه » (١٢١) وان يقف اسعد محمر الوجه وعلائم الصدا المنطبعة على صدره تجعله يبدو « وكأنه ملطخ بالدم » ، ان يقف « هنيهة يتنشق يملء صدره » (١٢١) وان ينزل مروان الى الارض محمر العينين مصبوغ الصدر بالصدأ ليمدد جسده عليها واضعا رأسه « فوق فخذ ابي قيس » ( ١٢١ - ١٢٢ ) فالخزان المقل الذي كانوا فيه يمثل انقطاعا كاملا عن الارض ، عن نبيضا وعن رائحتها ، وفي ذلك يمثل خطرا يتنامى بالموت ، الذي يهدد الجميع انما على تفاوت اوضاعهم ، وليست اشكال الخروج واطراف المسافرين بعدها الا تعبيراً عن هذا الخطر بالذات بتفاوت اثاره .

ان هذا الخطر نأجم عن انقطاع مكاني ، وزماني ايضا . فبمقدار ما يمر من وقت على هذا الوجود في الخزان بمقدار ما يتفاقم الخطر بالموت . وكنا قد اشرنا الى ان ابا الخيزران اثناء تفاوضه مع المسافرين الثلاثة على شروط « الصفقة » يحاول ان يوحى اليهم بأن العملية - تواجدهم في الخزان - لن تستغرق اكثر من خمس دقائق على كل من نقطتي الحدود في صفوان ( العراق ) والمطلاع ( الكويت ) . (٩٧-٩٨) الا انه عند تنفيذ العملية الاولى يستعمل رقما جديدا قائلا ان وجودهم في الخزان سيكون « لخمس دقائق او سبع » . (١١٥) وحين تنتهي العملية الاولى على الشكل المشار اليه آنفا نجده يعلن : « قلت لكم سبع دقائق . . ورغم ذلك لم يستغرق الامر اكثر من ست » (١٢٢) وحين يناقشه مروان في الامر مشككا فيما يدعيه يتدخل ابو قيس قائلا : « انها ست دقائق . . كنت طوال الوقت اعد . . من الواحد الى الستين : دقيقة ، هكذا حسبت . . عدت ست مرات . . في المرة الاخيرة عدت ببطء شديد . . » (١٢٢) .

نستنتج من ذلك ان العملية استغرقت اكثر من ست دقائق بالفعل ، وان لم تتجاوز السبع دقائق . مع ذلك انتهى هؤلاء الثلاثة منها - على الاقل مروان وابو قيس - وهم على اخر رمق .

ما الذي يعنيه ذلك ؟

يعني ان الدقيقة السابعة هي دقيقة الموت في الوضع الذي يوجد فيه هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة داخل خزان مقفل يتعرض لحرارة شمس قوية في منطقة صحراوية على الحدود العراقية - الكويتية . انها دقيقة موت لا يصبح ناجزا الا باكتمالها .

وبناء للفتاوت القائم في اوضاع هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة من حيث اعمارهم واحتمالهم الجسدي ، وبناء لما يؤكد الوصف المشار اليه آنفا حين خروجهم من الخزان اثر العملية الاولى ، فان بإمكاننا القول ان اكتمال الدقيقة السابعة كفيلا بأن يسودي بمروان ، وان اكتمال الثامنة يقضي على ابي قيس ، بينما اكتمال التاسعة هو الكفيل بالقضاء على اسعد .

هكذا فان الارقام ٧ - ٨ - ٩ تلعب في النص دورا مأساويا مميّتا ، خاصة الرقم ٨ نظرا لانه يعلن مباشرة اكتمال الرقم ٧ والاندرج في موت اخر يحضر لموت بعده .

الا ان اكتمال ٩ هو في الوقت نفسه دخول في العدد ١٠ الذي يعني اذ ذاك ، وفي هذا السياق بالذات ، الموت الجماعي : موت هذه الجماعات الذاهية في البعسد عن الارض ، المغرقة في السفر والانقطاع ، موتها وموت ما تمثله من قيم ومفاهيم ومواقف ميّزت مرحلة تاريخية محددة بكامل اجيالها .

فاذا ما تقصينا ذلك في النص الروائي فاننا نجد ان الرقم ٨ يلعب فيه لعبة الموت الفلسطيني بامتياز . فلو تركنا جانبا ذكر الموتى اللامحدين في النص : التسعين بالمئة من المسافرين بالتهريب (٩٩) الهياكل العظمية الكثيرة في الصحراء (١١٣) من مات بضربة شمس (١٢١) ٠٠٠ واقتصرنا على اولئك المحددين كشخصيات لها علاقاتها ودلالات لفعالها فاننا نجد ان عددهم في هذا النص ثمانية هم على التوالي كما يرد ذكرهم تباعا في النص :

١ - الاستاذ سليم الذي ارسل الى قرية ابي قيس من يافا ومات « قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود » (٤٣) .

٢ - حسنا ، بنت ابي قيس التي ولدت « بعد شهر من تركه قريته » و « ماتت بعد شهرين من ولادتها » (٤٤) .

٣ - والد اسعد ، صديق ابي العبد الذي يقول انه قاتل واياه معا سنة ١٩٤٨ (٥٤) .

٤ - ٥ الفلسطينيين اللذان بدأ رحلتها مع صديق ثالث لهما « من غزة ، عبر اسرائيل ، عبر الاردن ، عبر العراق ٠٠ ثم تركهم المهرب في الصحراء ، وهم لما يعبروا حدود الكويت ٠٠ » (١١٢) .

٦ - ٧ - ٨ - الفلسطينيين الثلاثة : مروان وابو قيس واسعد .

وراء هذا الموت الفلسطيني يربض العدو الحقيقي : العدو الذي قتل ويستمر في التقتيل ، لا بالسلاح ولكن ايضا بالتهجير والسفر الناتج عنه وما يرتبط بهذا الاخير من ضعف وعجز وخيانة وضياع ٠٠٠ هذا العدو الصهيوني الذي يرد ذكر مواجهته ثمانى مرات ايضا خلال الرواية :

١ - هو ضمير الجمع المضمَر في قول الاستاذ سليم : « اذا هاجمكم ايقظوني ، قد اكون ذا نفع ... » (٤٢) .

٢ - هو هؤلاء اليهود الذين سقطت قرية ابي قيس في ايديهم ... (٤٣)

٣ - هو ذاك الرايض عند « خط المقتال » الذي تقع القرية التي التجأ اليها ابو قيس بعيدا عنه ... (٤٤)

٤ - هو ذاك الذي يقول ابو العبد انه قاتله مع والد اسعد « في الرملة منذ عشر سنوات ... » (٥٤)

٥ - هو ذاك الذي كان وراء قصف يافا الذي فقدت فيه شفيقة ساقها اليمنى . (٨٠) (\*)

٦ - هو ايضا اولئك الذين كانت فرق المجاهدين التي انضم اليها ابو الخيزران سنة ١٩٤٨ تقائلهم ... (٩٤)

٧ - هو كذلك من كان يحاربهم ابو الخيزران عندما « كان يركض مع عدد من الرجال المسلحين حين تفجرت جهنم امامه فسقط على وجهه » ... (١٠٩)

٨ - هو اولئك الذين قاموا بزرع قنبلة في الارض او قام احدهم بقذفها لتنفجر امام ابي الخيزران (١٣١)

ولما كان هذا الصراع الفلسطيني - الصهيوني يتم على ارض فلسطين بالذات ، فان هذه الارض تتخذ في البنية الروائية اوضاع الموت الفلسطيني الذي يسم مرحلة تمتد من الهزيمة الى نزيف السفر : فاذا تتبعنا اسماء الامكنة في فلسطين حسب ظهورها تباعا في النص الروائي فاننا نلاحظ فيها الترقيم الاتي :

١ - يافا : التي ارسل منها الاستاذ سليم ... ( ص ٤١ )

٢ - الرملة : حيث قاتل ابو العبد مع والد اسعد ... ( ٥٤ )

٣ - رام الله : حيث امضى ثري بغداد شطرا من المصيف ... (٥٧)

٤ - فلسطين : وطن اسعد ... ( ٦٦ )

(\*) يمكن القول ان هذا القصف لم يكن صهيونيا بالتأكيد ، وربما كان بريطانيا . اننا نتجاوز السجال ، الذي يتيح النص لعدم ذكره القائلين به بالتحديد ، لنعتبره صهيونيا بناء للدور الذي يلعبه في النص - من جهة عدو للفلسطينيين - عدا عن الدور التاريخي للبريطانيين في دعم الحركة الصهيونية ...

٥ - الرملية : بلدته ٠٠ ( ٦٦ )

٦ - الرملية : التي يقول عنها السائح أنها بعيدة جدا ٠٠ ( ٦٦ )

٧ - ٨ - ٩ - زيتا : التي ترد ثلاث مرات على لسان هذا السائح ٠٠ ( ٦٦ ) ٠٠٠

فيتبين لنا مباشرة ان البدء بالرقم ٧ هنا يعني الولوج في الخطر المتمثل في هذه المستعمرة الصهيونية ( زيتا ) وان اكتماله يعني موتا هو في انسياقه ثلاث مرات متلاحقة هنا ( تكرار زيتا ) يأتي متوازيا في البنية المكانية مع بنية النص الروائي بأكمله عند مفصلها المحوري ، ويلعب الرقم ٨ بالتالي هنا نفس الدور المشار اليه في الزمن المميت للفلسطينيين الثلاثة (\*) وليس صدفة أن يأتي ذكر هذه المستعمرة على لسان السائح الذي يتكلم الانكليزية مع اسعد ، وذلك خلال انتقاله من الاردن الى العراق ، في تلك المنطقة التي لم تعد الاردن ولم تصبح العراق بعد ، في الفراغ ( الوطني ) واللامكان - نظير الموت ذاته .

وإذا كنا قد اشرنا الى أن اكتمال ٩ يعني الدخول في ١٠ التي تصبح اشارة الى موت جماعي يعيز مرحلة تاريخية محددة ، فان أسماء الارض الفلسطينية هنا تعرف اكتمالها - كموت جماعي مرحلي - على هذا الشكل الآتي :

١٠ - يافا ٠٠٠ ( ٨٠ )

١١ - ١٢ - ١٣ - فلسطين ٠٠٠ ( ٨٢ - ٨٥ - ٩٤ )

١٤ - الطيرة ٠٠٠ ( ٩٤ )

١٥ - غزة ٠٠٠ ( ١١٢ )

١٦ - اسرائيل ٠٠٠ ( ١١٢ )

وإذا تختم اسرائيل هذه للتسميات عند هذا الرقم ( المضاعف - ٨ : مضاعفات زيتا ٠٠ ) على لسان ابي الخيزران يحدث اسعد عن اولئك الذي يقضون او يتعدبون خلال سفرهم المهرب ( الهارب ) وذلك في خضم عملية سفر بالتهريب أيضا ، في عملية انتزاع من ارض الى ارض تكرر ذاك الانقطاع الخطر عن الارض الاصلية وتمعن فيه اشتدادا ، فانهما

(\*) يمكن لنا ان ننظر الى هذا الدور ذاته من زاوية مختلفة تفضي الى النتيجة ذاتها تؤكد ما نحن بصدد تبينه . فلو اقتصرنا على أسماء المدن فقط ، وعلى تلك التي اصبحت تحت الاحتلال الاسرائيلي دون سواها ، فأننا سنجد ذكرا مزدوجا ليافا ( ٤١ - ٨٠ ) وثلاثيا للرملية ( ٦٦ ) وواحدا للطيرة ( ٩٤ ) وثلاثيا لزيتا ( ٦٦ ) ، بحيث ان هذه الاخيرة تحتل ازاء السابقات الست موقعا ثلاثيا يمكن لنا ان نعطيها الارقام ٧ و ٨ و ٩ .

تأتي أيضا كما لاحظنا مع زيتا - على لسان شخص يحترف السفر والتنقل : الأارتباط  
واللائتماء (٥) .

كذلك فان هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة يحاولون الوصول الى الكويت في الشهر الثامن  
( أب ) هذا الشهر الذي يرد ذكره في الرواية ثلاث مرات فقط أيضا ( مرتين ص : ٢٨ -  
مرة واحدة ص : ٤٩ ) .

أما السيارة الكبيرة التي يستعملون خزائنها لعبور الحدود خلسة ، فانها في اليوم  
الذي يتم الاتفاق بينهم وبين سائقها ابي الخيزران ، تكون في اليوم الثامن لخروجها في  
رحلة قنص الحاج رضا وضيوفه ( ص ٩٦ ) . مما يجعل الاتفاق بحد ذاته مدقوعا بعلامة  
الموت هذه . وفي هذا اليوم كذلك يكون قد مضى عليها ستة ايام لم يعرف خزائنها فيها الماء  
( كما يقول أبو الخيزران ص ٩٨ ) اي تكون في اليوم السابع . ولما كان الاتفاق يقضي  
بالسفر في اليوم الملاحق ( ١٠٢ ) ، فان هذا اليوم ( الثامن ) يتطابق تماما مع موت  
الفلسطينيين الثلاثة كما تبين الرواية ذلك .

واذا كان الموت الفلسطيني يقوم في اساسه على الانهزام امام هذا العدو الاسرائيلي ،  
الا ان اشكاله التي يتبدى فيها منذ عام ١٩٤٨ تبدو مركبة الاسباب واحيانا تظهر الاخيرة  
منها ، تلك التي تجري يوميا ، وكأنها لا علاقة لها بذاك الاساس ، فان العودة للماضي  
كفيلة باظهار الحقيقة التي تطمس يوما بعد يوم . لذلك تبدو استعادة الماضي والرجوع  
الى الذكريات وتدفق الاحداث العابرة في ذاكرة ووعي شخصيات الرواية ضرورة  
لاعطائها البنية التاريخية - النفسية الخاصة في وحدة كيانية تستقيم فيها المواقف ودلالاتها  
وفي السياق البنيوي العام للرواية يصبح هذا الاصرار على استعادة الماضي لفهم الحاضر  
على حقيقته ابعد من تقنية روائية يلجأ اليها غسان كنفاني لاعطاء حيوية معاصرة للعمل  
الروائي ، في جعله ينهض على رهافة تركيبية للمواقف والاحداث المتداخلة من ناحية ،  
وعلى دقة توحيدية في جمع شتات الشخصيات المتباعدة في استقلالها من ناحية ثانية ،  
في زخم حدث يعطيها في مساويته القاتلة الابعاد الحقيقية لوضع تاريخي تشير اليه  
بالرمز الجلي ، يصبح وجها من وجوه التمسك بالاصول ، اصول الارض واصول النزاع ،  
على ان هذا التمسك وحده ، يتيح للواقع الفلسطيني الراهن رؤية تاريخية واجتماعية  
حقيقية تنهض لتحطم كل المزيف الذي يغلفه وبالتالي تفتح الباب واسعا امام تحرره .

لذلك تأتي هذه الذكريات لتعلن لدى كل شخصية ارتباطاتها الخاصة ومرامي مواقفها

---

(٥) ضمن هذا السياق تأخذ خزانة ابي الخيزران حول الوطنية التي يتساءل عن  
جدواها بعد ان فقد عضوه الجنسي متوصلا الى موقفه ليكسر الفخار بعضه ، متطلعا  
الى المزيد من التمسك اي المزيد من السفر والتنقل والانتقال ( ص ١٣١ )

واتجاهاتها ، التي جميعا تعود الى جذور تاريخية حيث يقسوم ذاك الصراع بين  
الفلسطيني والصهيوني ٠٠٠ (\*)

ورغم احتفاظ هذه الذكريات ببنية مماثلة لدى كل من شخصيات الرواية ، فان تمايزها  
جاء يعكس تمايز هذه الشخصيات واختلاف مواقعها وان كانت في حدث واحد - خزان  
واحد .

فجميعها تصل الى ارقام المخطر الالفة الذكر على نسب فظيعة الدلالة كما سيتبين لنا  
لاحقا .

فذكريات ابي قيس تصل الى تسع :

١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - تتعلق بوجود ابي قيس في فلسطين خلال سنة ١٩٤٨ او ما  
قبلها ٠٠٠ ( ٣٧ - ٣٨ ) ( ٤٣ - ٤٣ - ٤٤ )

٦ - تتعلق بالعام ١٩٥٨ عن لقائه بسعد صديقه العائد من الكويت ٠٠ ( ٤٦ )

٧ - متعلقة بالفترة الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٨ وهو خارج ارضه ووطنه ٠٠ ( ٤٦ )

٨ - عن نقاشه مع سعد الذي ينصحه بالذهاب الى الكويت عام ١٩٥٨ ٠٠ ( ٤٧ )

٩ - عن لقائه بالسماير السمين في البصرة في اليوم ذاته ٠٠٠ ( ٤٩ ) (\*\*)

وذكريات اسعد أيضا لا تتعدى التسع :

الست الاول تكاد تكون كلها في شهر آب ١٩٥٨ وتتعلق بسفره من الاردن الى العراق  
٠ ( ٥٢ - ٥٤ - ٥٧ - ٥٨ - ٦٠ - ٦١ )

(\*) كان من الصعوبة بمكان ان نخرج باحصاء دقيق لعودة الماضي في ذاكرة شخصيات  
الرواية ٠٠ فتداخل صوت الراوي مع صوت الشخصية المعينة ، وتداخل الذكريات المتفاوتة  
زمانيا ، واختلاف الحيز الذي تشغله كل ذكرى ٠٠٠ يجعل عملية احصائها بدقة امرا  
مستعصيا ٠٠ لذلك قد يعتور هذا الجانب بعض الضعف ، خاصة في ذلك الحيز الذي  
يفترض فيه ان يفسر هذه الصعوبة ذاتها فلم نتناوله استبعادا لاستغراقات قد تخل في  
سياق الدراسة ذاتها .

(\*\*) في فصل «الشمس والظل» لا يتعدى ما يطرأ على رأس ابي قيس من خواطر  
ما يستحق التسجيل ( انظر ص ١٣٠ ) اذ لا نجد فيها الا تكرارا يكاد يكون حرفيا لما سبق  
وتفكر فيه ٠٠٠ ونظرا للموضع الخاص لهذا المقطع ( في الصفحتين ١٣٠ - ١٣١ ) جعلنا  
مقياسا له الا نعتبر ذكرى الا ما اتى يضيف شيئا جديدا على ما سبق ، فنهمل ما يتكرر ،  
ونحتفظ بالعناصر المستجدة معتبرين اياها ذكريات / او خواطر طارئة للماضي في  
الحاضر ٠٠



- ٧ - السابعة مرتبطة بمولده وتعود الى ما قبل ١٩٤٨ في فلسطين ( ٦١ )
- ٨ - الثامنة عن لقائه بالسائح وزوجته على الطريق الحدودية بين الاردن والعراق (٦٢)
- ٩ - التاسعة عن حادثة اعتقاله بسبب التظاهر في الاردن سنة ١٩٥٨ .٠٠ ( ١٢١ )
- كذلك هو الحال مع مروان الذي تبدو ذكرياته على النحو التالي :
- ١ - عن بداية لقائه بالسمسار السمين في البصرة منذ لحظات في اليوم ذاته (٧١)
- ٢ - ما قاله له صديقه حسن عن كلفة تهريب الفرد من العراق الى الكويت خلال هذا الشهر ذاته سنة ١٩٥٨ او قريبا جدا منه ( ٧١ ) .
- ٣ - استكمال لقائه بالسمسار حتى خروجه مهانئا من مكانه (٧٢) .
- ٤ - عن الرسالة الطويلة التي كتبها الى امه صباح هذا اليوم ( ٧٦ ) .
- ٥ - عن سر زواج اخيه زكريا الذي احتفظ به شهورا طويلا هذا العام ١٩٥٨ ( ٨٤ ) .
- ٦ - عن هروب الاب وزكريا الذي ارسل له رسالة صغيرة .٠٠ هذا العام كذلك ( ٨٤ ) .
- ٧ - عن علاقته بزكريا منذ ١٩٤٨ حتى زواج الاخير .٠٠ ( ٨٥ ) .
- ٨ - عن وداعه لابيه قبل ان يسافر هذا الشهر آب .٠٠ ( ٨٥ ) .
- ٩ - عن شفيقة التي « طوحت قنبلة مورتر بساقها فبترها الاطباء من اعلى الفخذ .٠٠ » (١٣٠) .

اما بالنسبة لابي الخيزران فاننا نلاحظ الاتي في ذكرياته :

- ١ - عن قيادته البارعة للسيارات الكبيرة سنة ١٩٤٨ وقبلها في فلسطين .٠٠ ( ٩٤ ) .
- ٢ - عن براعته هذه أيضا حين عمل لدى الحاج رضا في الكويت بعد ١٩٤٨ .٠٠ ( ٩٥ ) .
- ٣ - عن خروجه الاخير مع الحاج رضا والعطل الذي طرأ على سيارته منذ اسبوع .٠٠ ( ٩٦ ) ( \* )

(\*) هذه الذكريات الثلاث تأتي في سياق اشكالي . فهي تذكر من قبل الزاوي خلال تفويض ابي الخيزران مع الفلسطينيين الثلاثة في « المصفقة » ، وذلك ضمن حوار يستعملها كأنها قيلت واعلنت .٠٠ الا اننا لا يمكن اعتبارها جميعا في الحوار ، وهي لا تستعمل شكله ، مما يبرر اعتبارنا اياها ذكريات وان اتخذت منحى الاخبار التاريخي .

- ٤ - عن وجوده في المستشفى اثر حادث الانفجار الذي تعرض له سنة ١٩٤٨ ٠٠ (١٠٦)
- ٥ - موقفه من فقدانه قدرته الجنسية ( « رجولته » ٠٠ ) وهروبه من المستشفى ٠٠ (١١٠)
- ٦ - عن القنبلة التي انفجرت بين قدميه سنة ١٩٤٨ ٠٠ ( ١٣٠ )
- ٧ - عن وجوده في المستشفى حيث اثارت خجله ممرضة كانت تساعد الاطباء هناك ٠٠ ( ١٣٠ )
- ٨ - سقوط وجه مروان في ذهنه اثر اكتشافه موت الفلسطينيين الثلاثة ٠٠ (١٤٢)
- ٩ - تذكره ابا قيس بعد ذلك مباشرة ٠٠ ( ١٤٢ )
- ١٠ - عما قرره في الظهيرة ٠٠٠ ( ١٤٧ )
- ١١ - عما انتهى اليه قبل اخراجه السيارة من كاراج الحاج رضا ٠٠ ( ١٤٧ )

هكذا يمكننا أن نلاحظ بسهولة وجود بنية الموت الثلاثة الالفة الذكر لدى كل من هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة المسافرين بالتهريب : ٧ و ٨ و ٩ .

كذلك فان هذه البنية بالذات اذ تعيد عند بدء الموت ( رقم ٧ ) طرح اساس الصراع الذي اودى بهم جميعا تبين لدى كل فرد بينهم الشكل الرئيسي الذي تناهى اليهم فيسه عدوهم الذي قهرهم ٠ فنحن نجد ان جميع الذكريات ذات الرقم ٧ ترتبط بفلسطين سنة ١٩٤٨ او ما قبلها دون استثناء ٠ واذا تتبعنا لدى كل فرد الذكرى التي تحمل رقم موته فأننا نجد بيسر السبب النهائي كما توصل اليه ذلك الصراع الاساسي مع العدو الصهيوني لذاك الانقطاع المميت ( السفر ) ٠ فمروان يستعيد في الذكرى السابعة رسالة اخيه زكريا التي يعلن له فيها زواجه وما يترتب عليه ذلك من ضرورة تركه المدرسة والانتقال الى مجال العمل ٠٠٠ - و ابو قيس ينقل في الذكرى الثامنة النقاش الذي جرى بينه وبين صديقه سعد الذي يعود ثريا من الكويت ويشدد عليه بالنصيحة كي يذهب الى هناك ، وينتهي الى اقتناعه ٠٠ - واسعد يستعيد في ذكراه التاسعة موقفه معتقلا أمام الضابط الذي بصق عليه ٠٠٠ وجميع هذه الذكريات كانت في صلب الدوافع المباشرة لاصحابها كي يمضوا الى الكويت ، يمعنوا في الانقطاع عن ارضهم ، ويتعرضوا للموت .

ورغم ان ابا الخيزران يتمتع بوضع خاص ازاء الثلاثة الآخرين ، فان خصوصيته لا تكمن في شذوذه عن الآخرين بل في تفرده ضمن البنية ذاتها بتمايز له دلالاته الخاصة ٠

ففي الذكرى السابعة حادثة انتزاع رجولته في المستشفى ٠٠ وهي في نفس الوقت اساس موقفه العام في لا ميالاته من ثم بالوطن واهتمامه الوحيد بالمال ٠٠ لذلك فان هذا الانتزاع - المتعدد الوجة - يصبح بالتالي نوعا من انواع الموت ٠ ولما كان بذلك اسبق من سواه من اولئك الفلسطينيين الثلاثة ، فانه يتقدمهم منذ هذا الرقم المميت (٧) لياتوا هم بعده تباعا كما نلاحظ : مروان في الذكرى الثامنة ، ابو قيس في الذكرى التاسعة .

واذ يكتمل الرقم ٩ ويدخل في الرقم ١٠ فان موت أسعد يصبح في خضم الموت الجماعي الذي يميز المرحلة ، وهو يتخذ شكل القبر الواحد بين القبور الثلاثة التي يذكرها أبو الخيزران في الذكرى العاشرة . بقي ان الذكرى الحادية عشرة في أشارتها للموت المشتت والضائع تمثل نمطا آخر لهذا الموت المرحلي : نمط التخلي عن الارض الاصيلية والانخراط النهائي في أراضي الغير ، ذوبان الشخصية الفلسطينية في الانظمة العربية بما يعنى نهايتها واندثارها . (\*)

بناء لكل ما سبق ، يصبح بإمكاننا ان نفهم لماذا تحاول الارقام المطمئنة في النص ان تبقى دون تلك المخطرة التي درسنا ميزاتنا . فعندما يسأل أسعد سمسار البصرة السمين ان كان سيمشي كثيرا مع دليل مجموعة المسافرين بالتهريب يجيبه : « ست او سبع ساعات فقط . . » ( ص ٦٠ ) ورغم الخطر الذي يوميء اليه الرقم ٧ هنا ، فانه ليس بذئ شأن كبير ، وفي كل الاحوال ليس مميتا ، بالنسبة لاسعد ، كما يشير النص الى ذلك في مكان آخر حيث يقول السمسار ذاته لاسعد : « . . . طبعا عليك ان تمشي قليلا ولكنك فتى في غاية القوة ، لن يضريك هذا » . ( ٥٨ )

وكنا قد أشرنا سابقا الى ان ابا الخيزران في محاولته طمأنة محاوريه الفلسطينيين الثلاثة اثناء التفاوض معهم يقول لهم حرقيا : « . . ستنزلون الى الخزان قبل نقطة الحدود في صفوان بخمسين مترا ، سائق على الحدود اقل من خمس دقائق ، بعد الحدود بخمسين مترا ستصعدون الى فوق ٥٠ وفي المطلاع على حدود الكويت ، سنكرر المسرحية لخمس دقائق اخرى ، ثم هوب ! ستجدون انفسكم في الكويت ! » ( ص ٩٨ ) فيبدو ليس فقط مقنعا بل باعنا على الثقة والاطمئنان اكثر من ذاك السمسار ( الـ ٥ افضل من ٦ و ٧ ) وهذا ما دفع بالمسافرين الى الاتفاق معه وتفضيله على هذا الاخير ( من يملك بينهم على الاقل القدرة على الاختيار ، ومن هذه الزاوية البنيوية للرؤية ) فكل النقاش الذي يتم لا يتطرق ابدا الى هذه « المسرحية » التي سيقومون « بتمثيلها » تلك التي سيعيشونها - سيموتون فيها . كذلك لا احد منهم يناقشه حين يعلن رقما جديدا قبل ان ينزلوا في الخزان لأول مرة ، مؤكدا لهم بان وجودهم فيه سيكون « لخمس دقائق او سبع - بل هناك شك بان يكون احدهم قد تنبه الى هذا التغيير الذي يحمل في طياته خطر الموت باكتمال الدقائق السبع » ( ٧ ) . الا ان الامر يختلف اثر التجربة التي يخوضونها عند اجتياز الحدود العراقية في صفوان ، حين يتمحور النقاش حول عدد الدقائق التي استغرقها عبور هذه الحدود كما بينا سابقا ، ويبقى هذا العدد ( ٧ ) دون الاكتمال ، وخطره القاتل مستعبدا . وهذا بالتحديد ما يحاول ابو الخيزران مجددا ان يوصي به في العملية الثانية ( اجتياز الحدود الكويتية عند المطلاع ) حين يتوجه الى هؤلاء المسافرين الثلاثة مؤكدا : « . . احسبوا . . سبع دقائق على الاكثر وافتح لكم الباب . . » ( ١٣٣ ) . وحين يسأله ابو قيس مستزيذا من الاطمئنان : « سبع دقائق ؟ » يسارع الى اجابته : « على الاكثر ! » ( ١٣٤ ) . وكان لتوه قد أعلن متوجها الى مروان : « هل انت خائف الى

(\*) لن نقاخر في تأكيد هذا الوجه الاخر للموت المرحلي المرتبة بالانظمة من زاوية اخرى ، عبر البنية الزمانية - المكانية لعملية عبور حدود الكويت لاحقا . . .

هذا الحد من البقاء خمس أو ست دقائق في الداخل ؟ ( ١٢٣ ) ( \* )

كذلك نتمكن من تحديد خصائص الوضع المميت الذي اودى بهؤلاء الفلسطينيين الثلاثة عند الحدود الكويتية . وعلينا ان نشير بادىء الامر الى تزايد حرارة الجو المتصاعد بنسبة شديدة الوطأة بسبب التهاب الشمس عند الظهيرة واثرت ذلك على الخزان بحيث يصبح فيه هذا اقرب ما يكون الى « الفرن الحقيقي » الذي توقعه ابو الخيزران عند العملية الاولى ( ١١٥ ) . فقد بدا خزان السيارة لابي الخيزران وهو على وشك الصعود اليها لمغادرة مركز المطلاع الحدودي الكويتي « ان حديده على وشك ان ينصهر تحت تلك الشمس الزهية ٠٠٠ » ( ١٤٠ ) وهو عندما اوقف سيارته بعد ذلك وتوجه ليفتح باب الخزان ولامست كفاه مسطحة الحديدي « احس بهما تحترقان ولم يستطع ان يبقيهما هناك فسحبهما واتكأ بكميه - عند الكوعين - فوق حديد السطح ثم زحف الى المقفل المضلع . وامسكه بطرف قميصه الازرق ودوره فانفتح مقرقما ٠٠٠ »

اذن لقد وصلت حرارة الخزان الى اقصاها لتعطي لكل دقيقة من الدقائق التي تمر ابعادها القصية ، وبالتالي فان الارقام المميتة ( ٧ - ٨ - ٩ - ٠٠٠ ) تصبح حاسمة هنا ، وتودي بحياة هؤلاء المسافرين القابعين داخله . واذا تتبعنا ما يعلنه النص الروائي هنا من علامات ، فاننا نستطيع استجلاء هذا الزمن القاتل منذ اغلق ابو الخيزران خزان سيارته على هؤلاء المسافرين الثلاثة الى حين فتحه على موتهم .

فعندما يطلب ابو الخيزران من هؤلاء المسافرين دخول الخزان مجددا لاجتياز الحدود الكويتية عند المطلاع يعلن لهم ان الساعة تشير الى « الحادية عشرة والنصف » ( ١٢٣ ) ، وهو عندما يفتح باب الخزان لاحقا بعد مروره في مركز المطلاع الحدودي يلمح ساعته في يده « تشير الى الثانية عشرة الا تسع دقائق » ( ١٤١ ) ، فيكون الوقت المستغرق بين هذين التوقيين احدى وعشرين دقيقة . ولكن عند التوقيت الاول لم يكن المسافرون قد دخلوا الخزان بعد . واذا اعتبرنا ان ابا الخيزران - كعادته - يحاول ان يتلاعب بالوقت وقد كذب بما يعادل دقيقة على الاكثر ( \* ) وان دخول الثلاثة الخزان واغلاق ابي الخيزران لبابه لم يتجاوزا الدقيقتين ، فان بامكاننا اعتبار ان ابا الخيزران انطلق بسيارته في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين .

( \* ) يؤكد اختلاف اقوال ابي الخيزران بناء للشخص الذي يتوجه اليه بالحديث الوضع المتميز لكل من هذه الشخصيات الفلسطينية الثلاث في علاقتها بالبنية المكانية - الزمانية المميتة كما بيناه انفا ٠٠٠ كما يمكننا ان نضيف ما ورد عن قيادة ابي الخيزران « لسيارة مار جبارة اكثر من ست ساعات في طريق ملحي موحل دون ان تغوص في الارض وتتعلل ٠٠ » ( ٩٥ وكذلك ٩٦ ) حيث يبقى الرقم ما دون السبعة موحيا بالخلص والنجاح والطمأنينة ٠٠٠ .

( \* \* ) كما فعل في التجربة الاولى على الحدود العراقية في صفوان ( ٦ بدل ٧ ) - راجع ص ١٢٢ و ١٢٣ - ، وكما ترجمه عدة فعل مروان على اعلانه هذا التوقيت : « نظسر مروان الى ساعته وهز رأسه ، لقد حاول ان يقول شيئا الا انه لم يستطع . فمشى خطوات قليلة الى السلم الحديدي وبدا يتسلق ، ( ١٢٣ - ١٢٤ ) .

« بعد دقيقة ونصف فقط اجتاز أبو الخيزران بسيارته الباب الكبير المفتوح في الاسلاك الشائكة المشدودة حول مركز المطلاع ٠٠ » ( ١٣٤ ) اي في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين والنصف ٠ واذا قدرنا ان ابا الخيزران احتاج كي يوقف « سيارته أمام السلم العريض الذي يرقى الى البناء المقرمذ ذي الطابق الواحد » ( ١٣٤ ) ويرتقي الدرج مسرعا الى الغرفة الثالثة الى اليمين في نصف دقيقة فقط ، فانه يدخل هذه الغرفة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والثلاثين ٠ لم يكن متوقعا له ان يمضي في هذه الغرفة - قياسا على ما سوف يحصل في « الغرفة الاخرى » ( ١٣٩ ) حيث ينجز مهمة مماثلة ( توقيع بعض الاوراق من قبل موظفي الحدود ) لا تستغرق « اكثر من دقيقة » ٠٠ ( ١٤٠ ) - اكثر من دقيقة واحدة ٠ الا انه يضطر للبقاء فيها حوالي اثنتي عشرة دقيقة بسبب اصرار احد الموظفين ( ابي باقر ) عليه ان يخبره عن تلك الراقصة ( كوكب ) التي روى له الحاج رضا حكاية وهمية عن علاقتها بأبي الخيزران ٠٠ ( ١٣٨ ) وان يتعهد له باصطحابه معه الى البصرة في المرة القادمة ليعرفه عليها ٠٠ ( ١٣٩ ) .

لذلك فانه يدخل الغرفة المجاورة في الساعة الثانية عشرة الا ربعا ٠ ( ١٣٩ ) حيث لا يبقى « اكثر من دقيقة » ( ١٤٠ ) كما اشرنا ، يسارع بعدها الى سيارته لينطلق بهما خارج مركز الحدود في الطريق المعبدة ( الكويتية ) ٠ أي أنه بإمكاننا القول انه كان على هذه الطريق في الساعة الحادية عشرة والدقيقة السادسة والاربعين ونصف - باعتبار ان وصوله الى السيارة وتشغيل محركها والخروج من مركز الحدود حتى الانطلاق في الطريق المعبدة استغرقت حوالي نصف دقيقة ٠

ورغم ان النص يشير هنا الى انه « امامه دقيقة او دقيقة ونصف ليتجاوز اول منعطف يحجبه عن مركز المطلاع » ٠٠٠ ( ١٤٠ ) فان ابا الخيزران لا يتوقف ويفتح باب الخزان قبل اربع دقائق ونصف ، في الساعة « الثانية عشرة الا تسع دقائق » ! ( ١٤١ ) .

فتكون الفترة الزمنية التي استغرقتها عبور الحدود الكويتية ، والمسافرون الفلسطينيون الثلاثة داخل خزان السيارة المعرض لحرارة شمس جهنمية عند تلك الحدود الصحراوية، حوالي عشرين دقيقة ( من الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين حتى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والخمسين ) وهي فترة اكثر من كافية للقضاء على هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة بناء لما سبق ولاحظناه ٠ وهي كانت كذلك بسبب التأخير الذي طرأ على ابي الخيزران عند دخوله الغرفة الاولى في مركز المطلاع حيث اضطر للبقاء اثنتي عشرة دقيقة بدل الدقيقة الواحدة المتوقعة لانجاز معاملته ٠ بيد ان الفترة الزمنية التي كان لعبور هذا المركز الحدودي ان يستغرقها (\*) بغض النظر عن هذا التأخير تشكل بعد ذاتها فترة كافية لقتل المسافرين الثلاثة في الخزان ٠ فاذا وضعنا جانبا فترة التأخير هذه ( ١١ دقيقة ) فاننا نجد ان المدة المستغرقة تساوي تسع دقائق ٠ وكما بينا سابقا فان هذه الدقائق التسع كافية لقتل مروان و ابي قيس و اسعد ، وليست الدقائق الاخرى الواردة الا تأكيد هذا الموت في انسياقه الى ابعاد تتعدى الافراد الثلاثة ٠ ويقدم النص الروائي بعد ذاته هنا بنية الموت ولغته ٠

(\*) من أجل متابعة ومراجعة هذه الفترة الزمنية بصورة واضحة يمكن الاعتماد على الجدول الزمني لعملية عبور الحدود الكويتية الوارد هنا ٠٠٠

فخلال الحوار الذي يتم بين ابي الصيزران و ابي باقر ، تبرز جملة واحدة هي اكثر التعابير الواردة في هذا المقطع دلالة عن مبلغ اضطراب ابي الخيزران وقلقة : «نظر الجميع الى بعضهم فيما انقلب وجه ابي الخيزران الهزيل فصار مبيضاً من فرط المرعب واخذ القلم يرتجف في يده » . ( ١٣٧ ) هذه الجملة تقع في الوسط من بين المخاطبات العديدة هنا يأتي بعد المخاطبة الثامنة ( ص ١٣٥ - ١٣٩ ) (\*) .

وإذا اعتبرنا ان وسط هذه المخاطبات هو أيضاً منتصف الوقت السبذي يمضيه ابي الخيزران في هذه الغرفة ، اي عند انتهاء الدقيقة السادسة ، فان عدد المخاطبات (٨) يتحد تماماً مع عدد الدقائق التي تكون قد مرت (٨) لتأكيد هذا الاوج الذي يعرفه الموت في مكان آخر ( في الخزان ) - نقطة موت الثاني من المسافرين ( ابي قيس ) بعد موت الاول ( مروان ) وبداية نزاع الثالث ( اسعد ) . لذلك يأتي هذا الوصف لوجه ابي الخيزران المرتعب ينضح بمأساوية الوضع الذي يجد نفسه فيه ، وكأنه ينظر الى الفلسطينيين الثلاثة يسقطون تباعاً في الموت الرديء .

ويأتي سقوطهم المتتابع ( في الدقائق ٧ و ٨ و ٩ ) هنا ينقل بنية الموت الفلسطيني المحلي التي تعم النص ، وتتداخل هنا بنية المخاطبات العديدة الموحية بها مع بنية الامكنة التي اوضحناها سابقاً لنجد في الارقام المفصلية ٧ و ٨ و ٩ ثم ١٦ ، زيتا المكررة ثلاث مرات واسرائيل .

#### جدول بالتوقيت الزمني لاجتياز مركز المطلاع الحدودي الى الكويت

الجوع	الخزان الى الساعة ١١:٣١ فتح باب	السي الساعة ١١:٣٦ الساعة على الطريق العديدة	من الساعة ١١:٤٦ الفروج	الساعة ١١:٥٥ الى الساعة الثالثة دخول	الساعة ١١:٣٣ الى الغرفة الاولى في المركز دخول	الساعة ١١:٣٣ الى الوصول الى مركز المطلاع	من الساعة ١١:٣٦ انطلاق السيارة	الساعة الحادية عشرة والصف دعوة المسافرين الثلاثة التي دخول الخزان
٢٠ دقيقة	٤	٤	١	١٢ (٦+٦)	٤	١٤	-	الزمن الممتد منذ اقفال باب الفيزان على المسافرين الثلاثة حتى فتحه ٠٠٠ :
٩ دقائق	٤	٤	١	١	٤	١٤	-	الزمن الذي كان بإمكان اجتياز مركز المطلاع ان يستهلكه لولا التأخير الذي حصل في الغرفة الاولى ٠٠٠ :

(\*) على ان جواب علي باسم الراقصة «كوكب» (١٣٧) لا يأتي من قبل ابي باقر ولا يتوجه الى اسعد ، وعلى ان الكلمات الاخيرة لابي باقر : « يا ملعون يا ابا الخيزرانه ! خدعنا اكثر من سنتين ٠٠٠ » ( ١٣٩ ) تتم اثناء وبعد مغادرة اسعد للغرفة ، وهي على كل حال لا تتوجه اليه .

وكما سبق وقلنا ان اكتمال ٩ يعني الدخول في ١٠ ، الرقم الذي يمثل في هذه الهيكلية البنوية موتا جماعيا مرحليا ، يميز وضع اولئك الفلسطينيين الساقطين في الهرب ، والانقطاع عن الارض ، والضياع ، والموت . ونلاحظ هنا ان مخاطبة ابي باقر العاشرة لابي الخيزران ( ١٢٧ ) ، التي توضح ما يتصوره عن علاقة هذا الاخير بالراقصة كوكب ، تشكل اعلانا مأساويا عن هذا الموت المرحلي الذي يجسده ابو الخيزران المخصي ، الشخصية الفلسطينية الاخيرة التي تبقى !

لذلك لا يستدعي الاستغراب ان يكون هو الوحيد بين الشخصيات الفلسطينية التي يتطرق اليها النص الروائي دون اسم محدد له ، ويتعامل معه بكنيته فقط ( ابي الخيزران ) ، وان تنحور هذه الكنية فتصبح على لسان ابي باقر فقط « ابا الخيزرانة » ، وان يستعيد هذا الاخير هذه الكنية المحورة تسع مرات (\*\*) : بما يتفق واعدان موت الفلسطينيين الثلاثة .

الا ان هذه اللغة المستعملة ، وموضوعها لا يأتیان الا ليضيئا ابعاد هذا الموت الفلسطيني المرحلي كما تتبدى عبر تلك البنية المكانية الزمانية التي يأتي فيها .

فاذا كان هذا الموت يتم بالتحديد عند الدقائق ٧ و ٨ و ٩ ، فمعنى ذلك ان الفلسطينيين الثلاثة يختنقون في الخزان المقل عليهم عند مركز الحدود الكويتي ( المطلاع ) اثناء الحديث الذي يدور بين ابي الخيزران و ابي باقر ، وبالتحديد عندما يتجه حديث الاخير الى موضوع الراقصة المزعومة من التلميح الى التصريح (\*\*\*) . ولن تكون الدقائق اللاحقة الا تكريسا لهذا الموت وامعانا فيه . . . . . ويأتي دخول الخزان الى الكويت اشبه بتابوت ينقل الجثث الثلاث كما سيكتشفها ابو الخيزران حين فتحه باب الخزان .

ولم يكن هذا الزمن بدقائقه المشار اليها ) قاتلا ، لو لم يكن هؤلاء الفلسطينيون في هذا الوضع المكاني بالذات ، هذا الوضع الذي يرمز الى اقصى حد من الانقطاع عن الارض كما سبق وقلنا . لكن هذا الوضع بالذات هو وضع فرضته ظروف السفر الخاص لهؤلاء الثلاثة : السفر بالتهريب . وهنا يبدو تدخل العنصر العربي بارزا في البنية الرمزية الكلية للنص الروائي . فان يتجه الفلسطينيون نحو الكويت ويدخلوه خلسة ، قلانه كان بلدا مغريا لهم بالارتزاق وتحقيق الامال المعيشية الكبيرة . . . . . ولانه ايضا كان ممنوعا عليهم او على معظمهم . وهو بذلك يمثل في النص البعد الاقصى لما يمكن لنظام عربي ان يغري به هؤلاء الفلسطينيين وان يؤذيهم في نفس الوقت . واذا ما تتبعنا ما يذكره هذا النص عن العناصر العربية التي يتعرض لها لادركنا الشروط الفعلية لموت الفلسطينيين الثلاثة . فاذا كان المسؤولون العسكريون في الاردن يعتقلون الفلسطينيين الذين يتظاهرون

(\*\*) ص ١٣٥ : مرة واحدة ، ص ١٣٦ : مرة واحدة ، ص ١٢٧ : ثلاث مرات ، ص ١٢٨ مرتان ، ص ١٣٩ : مرتان أيضا . وهذا يتفق مع ذكر الرقم ٩ الذي لا يرد الا مرة واحدة في النص : عند فتح باب الخزان على هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة موتي !

(\*\*\*) راجع مخاطبات ابي باقر لابي الخيزران ذوات الرقم ٧ و ٨ و ٩ في الصفحة ١٢٨ .

ويهيئونهم ٠٠٠ ( ص ١٣١ ) ، فان المسؤولين في العراق ينامون على حدوده ولو كان بعضهم مفتح العيون ٠٠٠ ( ص ٦٦ - ١١٩ ) ، ويتواطؤون مع المهريين امثال ذلك « الرجل السمين صاحب المكتب » (٦٧) الذي يتوجه اليه الفلسطينيون الثلاثة فيصنع احدهم ( مروان ) ويهيئه ويشتم الشرطة ٠٠٠ ( ٧٢ - ٧٣ ) هذه الشرطة التي تحميه وامثاله من غضبة ضحاياهم فتعتقلهم ٠٠٠ (١١٣) .

واذا كان الحاج رضا يملك قافلة من السيارات يسخرها للمتمتع الباذخ ( رحلة قنص لضيوفه ٠٠ ) ( ص ٩٦ ) فلن يأتي موظفو الدولة الكويتية افضل حالا منه كما تبديها سنة ( ابي باقر ) وكأس الشاي الصغير على الطاولة الفارغة امام احدهم ( ١٣٦ ) واهتمامهم الكبير بسخافات يستلذون تداولها ( الحكاية المزعومة بين ابي الخيزران وكركب ٠٠٠ ) في الحين الذي تشفق فيه الدوريات على نفسها من الاستطلاع في النهار الشديد الحر ٠٠٠ ( ١٣٢ ) وتعتبر سيارات الحاج رضا معصومة من التفتيش ٠٠٠ ( ٩٤ ) .

وفي هذا السياق تأخذ فكرة اسعد ابعادها وهو يمضي تحت الشمس الحارقة على رمل الحدود الاردنية نحو العراق ، ليدور حول الا تشفور متلافياً المركز الحدودي ، ومعه خطر اعتقاله ووضعه في السجن : « تراهم لو حملوني الى محتقل الجفر الصحراوي ٠٠ هل سيكون الامر ارحم مما هو الآن ؟ عيب ٠٠ الصحراء موجودة في كل مكان ٠٠٠ » ( ٥٩ ) .

ان الفلسطيني الذي يهرب من مصائبه يقع بفضل الاوضاع العربية السائدة بأشد منها : هذه هي النتيجة التي كانت تعلن عند كل خطوة ابتعاد عن الارض يقوم به هؤلاء الفلسطينيون - ومع ذلك امعنوا في التجربة والمخاطرة حتى الموت .

غرم ان يعود امثال سعد باكياس النقود من الكويت ، فلم يعودوا يرون او يسمعون شيئاً آخر حتى افكارهم . ان ابا قيس يجمع بنفسه تلك الافكار التي تراوده عن مخاطرة السفر ( ٤٧ - ٤٨ - ١٣٠ ) ٠٠ ورغم ما يقوله عم اسعد له ، من ان العشرات قد ذهبوا قبله الى الكويت ولم يعودوا بقرش واحد ( ٦١ ) يصير على ان هذا الذهاب هو مفتاح مستقبله ( ٦٢ ) ٠٠٠ ، وكانت تصلهم اخبار من يقضون بضربة شمس في هذه البلاد ٠٠ ( ١٣١ ) ، كما ان ابا الخيزران ذاته ذكر للمسافرين الثلاثة ان « عشرة بالمئة على الاكثر » من اولئك الذين سافروا عن طريق المهريين وصلوا الى الكويت ٠٠ (٩٩) مع ذلك خاضوا غمار الخطر وانجرفوا فيه ٠٠ وقد تمثل هذا الخطر داخل النص بخزان ماء السيارة المقل عليهم . وحين تكون السيارة كويتية ملك الحاج رضا المسرف في لهوه ، وحين يكون هو الذي اوحى بقصة ابي الخيزران مع كوكب ، وحين يكون موظفو الحدود وراء دخول الفلسطينيين في الخزان ، وهم كذلك الذين ضاعفوا مدة وجودهم فيه تحت الشمس المقاتلة ، يتضح مدى الدور الذي يلعبه العنصر العربي في النص الروائي ليساهم في الموت الفلسطيني المرحلي . اذ انه يؤمن الشروط اللازمة لهذا الموت المتوقع . والفلسطينيون الذين لا يموتون - عدا عن ندرتهم - لا يتوانون عن التخلي عن فلسطينيتهم ذاتها ، بمعنى انهم يتخلون عن المسؤوليات التي يفترضها وضعهم ( زكريا ) ، او انهم يتصرفون كما تتصرف العناصر غير الفلسطينية ، كالمهريين ٠٠ ( ابو الخيزران ) لذلك تصبح دقائق التأخير الاحدى عشرة هي البعد الزمني الممثل لبعد التدخل العربي ودوره الغالب في هذا الموت الفلسطيني .



بيد ان دلالات البنية الرمزية للرواية لا تتوقف عند حدها الاقوي ( الاوضاع السائدة للمرحلة ) بل انها تمتد عاموديا ( العناصر الفاعلة تاريخيا ) أيضا .

فليست الارقام ٧ و ٨ و ٩ التي تمثل الموت الفلسطيني المرطلي وحيث يمثل الرقم ٨ موقعا متميزا بينها ، الا ذلك الرمز العددي التاريخي لهذا الموت فالمؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في شهر آب سنة ١٩٠٥ كان حاسما باتجاه المتخلى النهائي عن مشروع دولة اسرائيلية في اوغندا - هذا المشروع الذي كان سائدا حتى هذا المؤتمر ، حتى ان المؤتمر الذي سبق - كان قد ارسل بعثة استكشاف الى اوغندا في سبيل ذلك - وبالتوجه النهائي الى فلسطين لبناء الدولة الصهيونية على ارضها (\*\*) . ولما كان هذا المؤتمر يأتي بعد ٨ سنوات من المؤتمر الاول المنعقد في بال - سويسرا ، الذي كان الانعطاف الكبير في تاريخ المسألة اليهودية حيث ارسى قواعد المتحرك العالمي والموحد في مؤسسة صهيونية مركزية متشعبة الامتدادات والمصالح . . . . . ويأتي ايضا في الشهر الثامن من ذلك العام ( آب ١٩٠٥ ) ، فانه يشكل ضمن هذه الابعاد التي يجسدها الخطر على ارض فلسطين وشعبها ، في تنامية حتى الموت المتصاعد في اوجه . لذا فان النص الروائي الذي تدور احداثه تاريخيا سنة ١٩٥٨ (\*\*) . وفي شهر آب (٨) بالذات ، والسذي فيه يجسد موت الفلسطينيين الثلاثة الموت الفلسطيني المرطلي ، يؤكد مرور عشر سنوات على تلك الهزيمة التاريخية عام ١٩٤٨ . وفي هذا الرقم بالذات (١٠) يجد هذا الموت ابعاده الرمزية تاريخيا على مستوى المرحلة الممتدة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٨ .

ويأتي موت الفلسطينيين الذين كانوا يسعون وراء المال في السفر السري ، ليقترع منهم ما كانوا يمتلكونه ايضا ( عودة ابي الخيزران الى جثثهم واخذة لاموالهم ولساعسة مروان . ص ١٠١ ) وليؤكد ايضا هذا البعد التاريخي للنص الروائي . فاذا كان ما بحوزة كل منهم من مال يتناسب طرذا مع قدرته على احتمال الخطر ( مروان : ٧ دنانير ، ابو قيس : ١٥ دينار ، اسعد ٣٠ دينار ) (\*\*) فان مجموع ما اخذ منهم ، عدا تلك الساعة التي تختزن بعدا رمزيا مكثفا نظرا للدور المحوري الذي يحتله مرور الوقت في النص والتي تفرض هذه الرؤية الزمانية التاريخية بالذات ، يبلغ اثنين وخمسين ديناراً . فاذا كانت تلك الساعة هي الاطار الزمني للتاريخ ، فان ٥٢ هو عدد السنوات الممتدة بين ١٩٠٥ و ١٩٥٨ ، بين المؤتمر الصهيوني السابع ومرور ١٠ سنوات على قيام الكيان الاسرائيلي الصهيوني في فلسطين . ولما كان قيام هذا الكيان قد تم في ١٥-١٩٤٨ (\*\*) .

(\*) اسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية العالمية ، مركز الابحاث ، بيروت ص ٦٨ مرجع يذكره محمد حافظ يعقوب في كتابه : نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٤٨ ( بحث سوسولوجي ) ( دار الطليعة - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٧٣ - ص ٢٣ ) .

(\*\*) ص ٣٧ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٤ . . . . . ١٠٩ . . . . .

(\*\*) راجع بالنسبة لمروان ص ٧٢ ، ولابي قيس ص ٤٩ ، اما اسعد فالثلثون ديناراً تمثل ما تبقى له من الخمسين ديناراً التي اعطاه اياها عمه ( ٦١ ) بعد ان دفع لابي العبد عشرين ديناراً ( ٥٤ - ٥٧ ) .

(\*\*) هاني الهندي : حول الصهيونية واسرائيل ، دار الطليعة - بيروت الطبعة الاولى ١٩٧١ ، ص ١٠٤ .

فان النص يثقل بالدلالات التي توحي بهذا التاريخ \*

فسمسار البصرة يطلب من جميع الذي يسعون الى السفر بالتهريب خمسة عشر دينارا معلنا لاسعد ان هذا السعر « رسمي » : « كل المهريين يتقاضون نفس السعر ، نحن متفقون فيما بيننا ( ٦٢ ) وهذا الرقم ١٥ يتكرر في النص الروائي ايضا ثمانى مرات مؤكدا في هذا التكرار كونه رقم الموت بامتياز (\*\*) »

واذا كان قد مر عشر سنوات على هذا الكيان ، فان هذا التكرس له يجد في النص وجها من وجوه الرمزية : ففي الفصل المتعلق بأبي قيس نجد الرقم عشرة (١٠) الذي يعني له ارتباطه الماضي بالارض ، يتكرس موتا بترديده عشر مرات ( الصفحات : ٣٧ - ٣٨ - ٤٦ - ٤٦ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٨ - ٥٠ - ٥٠ ) أما في الفصل المتعلق بأسعد ، والذي يملك ضعف ما يملك ابو الخيزران ( ٣٠ دينارا ) ، فان ما يتكرر عشر مرات هو الرقم عشرون ( ٢٠ ) ( ثلاث مرات في الصفحة ٥٤ ، وسبع مرات في الصفحة ٥٧ ) بيد ان الفصل المتعلق بمروان ، الذي يعامل معاملة خاصة من قبل سمسار البصرة ، كما من قبل ابي الخيزران ، يدل على قصوره في سن البلوغ والقوة المادية والمالية ، فأعوامه الستة عشر ( ص ٧٢ ) تعني انه ترك ارض فلسطين وهو في السادسة من عمره ، ضمن هذه العلاقة يأتي تكرار الرقم خمسة (٥) - وهو ما يعرضه من دنائير على السمسار وما يتفق مع ابي الخيزران بشأنه - ست مرات على ان يأتي الرقم عشرة (١٠) مكررا اربع مرات ، ليرقد قعر الرقم السابق ويصل به الى نهاياته الميته ، كما سيتم الامر مع ابي الخيزران وخزانه ٠٠٠

لكن هذا الكيان الصهيوني اخيرا لم يقم على ارض فلسطينية فقط ، بل ايضا على جزء من ارض عربية وجد في الاوضاع السائدة فيها الشروط المناسبة لنموه واستكماله ومن ثم تكريسه . واذا كان الفلسطينيون يشكلون قوة التصدي الرئيسية للحركة الصهيونية التي حاولت ان تقيم دولة لها على ارضهم الوطنية ، فان التطورات المتسارعة التي حصلت اواخر عام ١٩٤٧ وفي عام ١٩٤٨ عدلت هذا الوضع وغيرته . فقد اصدرت هيئة الامم « قرارها بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ واعلنت بريطانيا انها ستسحب من فلسطين في ايار ١٩٤٨ ٠٠٠ » (\*\*) مما دفع الدول العربية لان تقرر في الثاني عشر من نيسان سنة ١٩٤٨ ، أي قبل نهاية الانتداب بشهر وثلاثة ايام ، انخراط جيوشها النظامية الى فلسطين . وكانت في فلسطين قيادتان اولاهما قيادة الجهاد المقدس وهي تابعة للهيئة العربية العليا ، وقيادة جيش الانقاذ ، المؤلف من متطوعين عرب ، ( ٠٠٠ ) مثلت القيادة الثانية وجهة النظر العربية الرسمية ، ومن هنا بدأ التنافس بينها

(\*) نذكر هنا بان مخاطبات ابي باقر لاسعد التي بلغت ١٦ مخاطبة ، يأتي السادس عشر فيها متفقا مع اعلان اسرائيل في بنية الامكنة كما لاحظناها ٠٠٠ اما الصفحات التي يأتي فيها ذكر هذا الرقم (١٥) فهي التالية : ٤٩ - ٤٩ - ٥٠ - ٥٣ - ٧١ - ٩٣ - ٩٦ .

(\*\*) عبد الوهاب الكيالي : الموجز في تاريخ فلسطين الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٥ ص : ١٩٤ .

وبين القيادة الاولى . ولقد حسم دخول الجيوش العربية في الخامس عشر من ايار  
الموقف ، لمصلحة الحكومات العربية . (\*)

في هذا الاطار يمكننا القول ان الدقائق التسع التي كان من المفترض ان يقضيها  
ال فلسطينيون في الخزان لولا تأخير ابي باقر لابي الخيزران والتي بحد ذاتها كانت ستودي  
بهم ، تمثل في النص غلبة المسؤولية الفلسطينية ( وبالاخص القيادة : ابي الخيزران  
السائق ) ، بينما تمثل الدقائق الاحدى عشرة الباقية المسؤولية العربية وبالتحديد انظمة  
الحكم : ( ابي باقر موظف الحدود الكايت والمكبوت ٠٠٠ )

وكنا قد المحنا الى ارتباط ابي الخيزران بهذا الرقم المقاتل ( ٩ ) ونضيف هنا الى  
ان هذا الرقم يمثل بالتحديد تلك الاعوام الفاصلة بين ١٩٣٩ و ١٩٤٨ - الاعوام التي  
اعقبت « مرحلة الاضراب الكبير والثورة الكبرى » في السنوات الممتدة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ،  
لتبدأ « مرحلة الركود والهزيمة » من ١٩٤٠ الى ١٩٤٨ (\*\*\*) . أما الرقم ١١ فيمثل هذا  
الغياب الفلسطيني بغلبة مسؤولية الدول العربية التي وضعت بعضها اليد على ما تبقى  
من ارض وشعب فلسطين . وهو يمثل بالتحديد هذه المرحلة الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٨ .  
ولذا نجد ان النص الروائي يحفل ايضا بتكرار الرقم ٥ احدى عشرة مرة (\*\*\*) ، لكانه  
يشير الى عدد الايارات التي مرت على الارض الفلسطينية منذ قيام الكيان الصهيوني  
عليها في ايار ١٩٤٨ .

ويما ان هذا الكيان شكل انتزاعا لهذه الارض - وبصورة ادق للجزء الاهم منها -  
وشقت شعبها - او كذلك الجزء الاهم منه - فان الموت الذي مثله لا يعني فقط اولئك  
الذين قضوا ، انما كذلك اولئك الذين يقضون يوميا في استغراقهم في ابعاد هذا الوضع  
بالذات . فلم يكن التدخل العربي في هزيمته الا ليزيد هذا الموت كثافته ومأساوية . واذ  
انتهى الى اقتسام ما تبقى من الارض ( ضم الاردن للمضفة الغربية - وضم مصر لقطاع  
غزة ) فليضع الفلسطينيين بالتحديد في خزانات الانظمة القمعية منها بما ذلك ما تبقى من  
امكانات حركة وطنية فلسطينية مستقلة النضال ، ممعنا بالضبط في تقتيلهم وسحقهم

(\*) ناجي علوش ، المقاومة العربية في فلسطين ( ١٩١٧ - ١٩٤٨ ) - دار الطليعة  
بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٥ ص ١١١ ، ( الطبعة الاولى ١٩٦٧ - الثانية ١٩٧٠ ) .

الجدير بالاشارة ان الهيئة العربية العليا هي القيادة السياسية الفلسطينية العليا التي  
اتفق على انشائها بضغط من مجلس الجامعة العربية المنعقد في بلودان ( ٨ - ١٢ حزيران  
١٩٤٦ ) على هيتتين فلسطينيتين متنافستين آنذاك : اللجنة العربية العليا - والهيئة  
العربية .

( راجع : ناجي علوش - المقاومة العربية في فلسطين ٠٠٠ ص ١٠٩ ) .

(\*\*) راجع ناجي علوش : المرجع السابق - الفصلين الثاني والثالث .

(\*\*\*) يأتي هذا الرقم في الصفحات : ٧٢ ( اربع مرات ) - ٨١ - ٨٢ - ٩٤ - ٩٨  
( مرتين - ١١٥ - ١٣٣ ) .

وابادتهم . لذلك يكون هذا المخزان العربي المقفل والمتصاعد الحرارة على ارض الصحراء العربية التجسيد الرمزي لهذا الوضع ، ويكون دخول الفلسطينيين الثلاثة فيه رضوخا بينا لما تفرضه الانظمة العربية من تبديد لوجه نضالي فلسطيني مستقل . فيكون موتهم فلسا وكتمانا في الخزان ، والمقاء جثثهم حيث تكوم النفايات ، تعبيرا مأساويا عن انقطاع اصولهم بارضهم وحدا اقصى لنتيجة السفر السري الذي يحاولونه ، ليكون في ذلك رمزا لذلك الموت المطموس الذي يتعرض له الفلسطينيون في مرحلة حرموا فيها من التعبير المستقل والحر عن ذاتهم ، ورضوا بهذا الحرمان الذي كرس حرمانهم من ارضهم . وهم ايضا اذ يفتسون قبل دخولهم الكويت ، فانما يفتسون خارجها ، وانما ايضا خارج العراق الذي تجاوزوا حدوده ، فهم ايضا يفتسون في اللامكان ، في الملا انتماء ، فسي الملا ارض - الصحراء المطلقة الجذب المطلقة الموت ، ويفتسون كذلك في الملا زمان ، على مزيلة التاريخ ، في ليل قاتم الظلمة - كقبر مطلق .

### ٣ - الادوار والمسؤوليات والمواقف :

رغم ان البنية العامة للرواية تتمفصل حول محورها المكاني - الزماني الذي تعرف فيه كثافة وزخم دلالاتها الرمزية في ابعادها المرحلية وضعبا وتاريخيا ، كما حاولنا اظهاره حتى الآن ، فان الشخصيات الرئيسية فيها تمثل في علاقاتها وتصرفاتها وضعبا بنيويا يمثل هو الآخر صورة رمزية مكثفة عن الموضع العام الفلسطيني ( والعربي ) المرحلي ، مكملا في مد تلك الدلالات بابعاد ورؤى اكثر عمقا وغنى .

فليس الموت الفلسطيني البارز في النص الا نتيجة عجز بنيوي لا يقوم فقط على الوضع المكاني - الزماني الذي تم فيه ، بل يأتي كذلك امتدادا لذاك العجز التاريخي في مواجهة العدو والانتصار عليه .

فهزيمة ١٩٤٨ لم تؤل فقط الى قيام الكيان الصهيوني على ارض فلسطينية ، وانما ايضا الى تشتيت الشعب الفلسطيني وتمزيقه وتفتيته في انحاء عدة . فكان هذا التشتيت تكريسا لذاك العجز الذي اودى الى الانكسار والهزيمة . ومن هذه الزاوية يصبح السفر امعانا في تأكيد هذا الانكسار وذاك العجز - امعانا في التفتت والموت . ولما كانت هذه الهزيمة ( ١٩٤٨ ) هي ايضا عجزا وانكسارا عربيين ، وان تفتت الانظمة وتجزئتها وتشتتها هي احد المظاهر الرئيسية التي يتبدى فيها هذا الانكسار وذاك العجز ، فان الامعان في ذلك - وفي افضل الاحوال البقاء عندها - يعني الامعان في الهزيمة والموت - وفي افضل الاحوال تكريس ما تم منهما .

ضمن هذه المعطيات يتخذ موت الفلسطينيين الثلاثة في عز سفرهم وعند الحدود الكويتية ، ابعادا جديدة تغني تلك التي لاحظناها حتى الآن . فليس الماضي في السفر الا امعانا في التشتت والضياح والموت . وليست الحدود الفاصلة بين الدول العربية الا تكريسا لشردمتها وتفتتها وعجزها ، فتشتت الفلسطينيين - وخاصة نهاياته الخطرة في الاندماج بالمجتمعات الاخرى والضياح فيها - يعني تبديدا لتلك القوة التي يمكن لها ان تواجه العدو وتستعيد الارض وممها شخصيتها الوطنية وحياتها القومية والتاريخية .

الا ان ظاهرة العجز العامة التي تسم المرحلة ، لا تتبدى في النص الروائي باستواء ووحدة ، بل على العكس تتمثل على اختلاف وتمايز يحملان دلالاتها الخاصة في توضيح الادوار المساهمة في هذا العجز ، وبالتالي المسؤوليات المختلفة التي تترتب على القائمين به .

وإذا تتبعنا هذا الجانب لدى شخصيات الرواية الاساسية ، فاننا نجد اوضاعها الخاصة توحى بهذا التنوع والتمايز ، مما يتيح تبين دور كل منها في البنية العامة للرواية .

لا شك ان دخول كل من هذه الشخصيات في الرواية يأتي معبرا الى حد كبير عن وضعها العام .

فمروان يخرج من دكان سمسار البصرة السمين مطرودا ذليلا وطنين الكف الذي ناله منه لم يكن بعد قد انتهى عند الدوران بين اذنيه (٢٢) ، والتهاب اصابع الرجل على خده الايسر لم يكن قد فتر بعد (٧٢) ...

وابو قيس يتمدد على تراب الشط باحثا فيه عن عزاء لما واجهه به سمسار البصرة من صعوبة مذلة دفعت به للخروج باكيا ( ٤٩ - ٥٠ ) ...

اما اسعد فيقف في مواجهة هذا السمسار ويناقشه قبل ان ينتهي الى الاتفاق معه (٢٠٥٣)

في الحين الذي يتقدم ابو الخيزران من مروان ويده تربت على كتفه ، ليتحدث معه حول وضعه قبل ان يتفق معه على ان يهربه الى الكويت ( ٧٤ ٠٠٠ )

فيتبدى لنا بسهولة قصور مروان وعجز ابي قيس وسجالية اسعد وجسمانية ابي الخيزران .

وكنا قد اشرنا من قبل الى تفاوت اعمار هذه الشخصيات المنسجمة مع ما تملكه من مال ، هذا التفاوت الذي يؤكد ما يوميء اليه دخولهم في النص الروائي . (\*)

(\*) رغم ان مروان هو الوحيد الذي يورد النص عمره - ١٦ سنة ( ٧٢ ) - بينما لا يذكر عن ابي قيس سوى انه « رجل عجوز » ( ٤٨ ) ، وان اسعد في عمر الزواج الحرج بالنسبة لابنة عمه ( ٦١ ) وان ابا الخيزران كان قد « خدم في الجيش البريطاني في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ اكثر من خمس سنين » ( ٩٤ ) فاننا نكاد نلمح تراتبية دقيقة في الاعداد تعلن عن نفسها سنة ١٩٤٨ على هذا الشكل تقريبا : مروان : ٦ سنوات ، اسعد : ١٢ سنة ، ابو الخيزران : ٢٤ سنة ، ابو قيس : ٤٨ ، اي انها تعتمد على الرقم ٦ ومضاعفاته التي تبقى الاعداد في وحدة بنوية قوية . قياتي الخروج من فلسطين ولوجا في السنة السابعة - سنة الخطر والموت - لتفقد الاعداد فيها تلك الوحدة ويكون تشتتها صورة عن التفتت العام الذي طرأ ، فتكون اعمار هذه الشخصيات سنة ١٩٥٨ على هذا

لذلك تأتي مواقف هذه الشخصيات محكومة بأوضاع العجز التي تتميز بها كل واحدة منها .

فمروان القاصر عمرا ومالا ، قاصر أيضا عن دفع الخمسة عشر دينارا لسمسار البصرة السمين ، وعن الرد على الامانة التي يلحقها به ، وقاصر التجربة لا يستوعب وضع المهربين في البصرة ، ولا الطريقة التي سيهربه بها ابو الخيزران ٠٠٠ بل هو قاصر بنوييا عن تحقيق المهمة التي يسافر من اجلها : فماذا بإمكان تلميذ مدرسة عمره ستة عشر عاما ان يحقق في الكويت - خاصة اذا تجاهله زكريا - ليفرق امه واخوته « بالخير حتى يجعل من كوخ الطين جنة المهية » ( ٨٥ ) ؟!

وعجوز ابي قيس عمرا ومالا ، هو ايضا عجز عن دفع خمسة عشر دينارا - هي كل ما يملك - لسمسار التهريب في البصرة ، وعجز كذلك عن حبس دمه ازاء انتكاسته ونزله امام هذا السمسار ، وعجوز في استيعاب عرض ابي الخيزران وفي التقرير - بشأنه ٠٠٠ بل هو عجوز بنويي كذلك ينال من الهدف ذاته الذي يسعى الى بلوغه : فماذا بإمكان فلاح عجوز ان يفعل في صحراء الكويت ليتمكن من تعليم ابنه قيس وشراء بضغ زيتونات وبناء « غرفة في مكان ما » ( ٤٨ ) ٠٠٠

الا ان اسعد يحتل موقعا متميزا ازاء مروان و ابي قيس ، فهو أولا في عز الشباب ( ٢٢ سنة ؟ ) والقوة من ناحية ( يقول له ابو العبد : « انك قوي كالثور » ، وسمسار البصرة : « ولكنك فتى في غاية القوة » - ( ٥٨ ) ، ويملك مالا كافيا من ناحية اخرى ( ٣٠ دينارا؟ ) وايضا تجربة سابقة في التهريب ( مع ابي العيد ٠٠ ) - الا ان هذا الموقع المتميز لم يحل دونه ودون سخرية السمسار منه ، كما لم يجعله ينزل في فندق مختلف عن ذلك الذي ينزل فيه مروان - اضعفهم - كما لن يكون عائقا دونه ودون ولوج خزان سيارة ابي الخيزران ٠٠ والموت : والاهم من ذلك انه رغم كونه يحسن قيادة السيارات ( ٦٥ ) فان وضعه - « لا جواز سفر ولا سمة مرور ٠٠ ومتأمر على الدولة الاردنية » ٠٠ واسمه « مسجل في كل نقاط الحدود » التابعة لها ٠٠ ( ٥٨ ) - لا يتيح التفاؤل ابدا بالنسبة لتطلعاته بجمع المال ( ٦١ ) و ضمان مستقبله ( ٦٢ ) ٠٠٠

الا انه اذا لم يغير موقع اسعد المتميز في بنية العجز السائدة شيئا يذكر وان عدل في



الشكل تقريبا مروان : ١٦ سنة ، اسعد : ٢٢ سنة ، ابو الخيزران : ٣٤ سنة ، ابو قيس : ٥٨ سنة ٠٠ دون ان يكون هذا الاستنتاج جزما نهائيا ٠٠٠

أما بالنسبة للاموال التي بحوزتهم فقد كنا قد اشرنا الى ما يملكه كل من مروان و ابي قيس واسعد ( ٧ ، ١٥ ، ٣٠ ) ولا يوضح النص ما بحوزة ابي الخيزران ، الا انه على كل حال يملك القدرة على قيادة سيارة الحاج رضا والتصرف بها ، هذه القدرة التي تتيح له اتفاقا مع الثلاثة يعيد فيه توزيع الاموال السابقة بحيث يصبح بين يديه مبدئيا ٢٥ دينارا بينما يبقى لدى مروان ديناران ولدى ابي قيس خمسة واسعد عشرون لكن الامر ينتهي عمليا الى وضعه اليد على جميع الاموال وعلى ساعة مروان .

بعض تفاصيلها ، فانه يتيح له على كل حال ان يلعب دورا خاصا بين الشخصيات الفلسطينية الاربعة .

فهو ، في عملية التفاوض التي تجري بين المسافرين الثلاثة وابي الخيزران ، يتولى الدور الرئيسي فيها ممثلا ابا قيس ومروان (٩٠) . وليست هذه العملية هي الاولى من نوعها التي يمارسها اسعد ، فقد كان قد جرب ذلك مرتين قبل الآن : المرة الاولى مع ابي العبد « قرب جبل عمان » (٥٤) والمرة الثانية مع صاحب مكتب التهريب السمين فسي البصرة . وهو في كل من هاتين المرتين بدأ التفاوض معارضا لبعض التفاصيل وانتهى الى القبول بها ، ويجمع شروط الطرف الآخر : العشرين دينارا بالنسبة لابي العبد ، والدفع المسبق بالنسبة لمهرب البصرة السمين . هذا في الحين الذي لا تغيب عن باله التجربة الاولى وهو يعقد الاتفاق الثاني . وهذا بالتحديد ما يقوم به ايضا في تفاوضه مع ابي الخيزران منتهيا الى القبول بشروطه بالنسبة للسعر وبالنسبة لطريقة التهريب ايضا . . . التي تؤدي الى الموت .

اما ابو الخيزران فيحتل موقعا متفردا في النص ازاء هذه الشخصيات الفلسطينية الثلاث السابقة . فهو لا يقوم هنا بالهرب ( السفر ) بل بالتهريب ، لاعيا الدور الذي كان لعنصر عربي غير فلسطيني مبدئيا كان يلعبه ( سمسار البصرة ) ، مؤكدا في ذلك المدى العميق لانخراطه في هذا المجتمع العربي وانسلاخه عن أرضه ووطنه في آن ، واذا كانت رجولته ومهنته هما ميزتي القوة لديه هنا ، فان فيهما بالتحديد تتبدى بنية العجز العامة . فهو رغم كونه في عز رجولته ( ٢٤ سنة ؟ ) لكنه في الوقت ذاته مخصي . وهو رغم قيادته لسيارة لا يؤخرها موظفو الحدود ولا يفتشونها فانها ليست له ، فصاحبها « رجل ثري معروف » (٩٤) . لذلك يأتي تأخير ابي باقر له عند الحدود الكويتية بسبب تلك القصة المختلقة عن كوكب الراقصة ، تأكيدا مزدوجا لهذا العجز العام في اقصى مواقعه ، لذلك يأتي فشله في تهريب هؤلاء الفلسطينيين الى الكويت ، اذ بدلا عن ادخالهم الى هذا البلد للارتزاق ، يلقيهم جثثا حيث تلقى سيارات البلدية قمامتها وينتزع ما في جيوبهم من اموال . . .

هكذا فان المواقع المختلفة للشخصيات الفلسطينية الاربعة تتيح لنا ان نجد فيها ضمن الابعاد الرمزية للبنية الروائية ادوارا محددة يجدر ايضاها .

ان الموقع المتميز لاسعد ، يجعله يحتل في العلاقات الاجتماعية - التاريخية التي توصي بها رمزية الرواية ، موقع القيادة النظرية لهذه المرحلة الفلسطينية الخاصة .

وهذا ما يؤكده ليس ما اشرنا اليه من تمثيله للمسافرين في التفاوض مع ابي الخيزران وانما ايضا الدور السياسي الذي يلغح اليه النص ، والذي يسببه تظاهر واعتقل واهين وعد متأمر على الدولة فأصبح مطلوبا وسجل اسمه على نقاط الحدود ( ١٣٦ - ٥٨ ) .

وهو كذلك الوحيد الذي يتكلم لغة اجنبية بين بقية الشخصيات (٦٥) .

بينما يقوم الموقع المتفرد لابي الخيزران على تمثيل موقع القيادة العملية للمرحلة ذاتها . وهذا ما يعلنه النص ليس فقط عبر قيادة ابي الخيزران للسيارة بل ايضا عبر

الإشارة إلى قتاله العدو الإسرائيلي سنة ١٩٤٨ متفرداً عن بقية الشخصيات الأخرى ، وإلى كونه أيضاً الوحيد الذي يحظى بوصف جسماني دقيق : « طويل القامة جداً ، نحيل جداً ، ولكن عنقه وكفيه تعطي الشعور بالقوة والمتانة » ( ٧٥ ) وهو حين يبتسم يعلن « ابتسامة واسعة » وتنشق « شفته عن صفيين من الأسنان الكبيرة الناصعة البياض » ( ٨١ - وانظر ٨٢ - ١٠١ - ١١٤ - ١١٥ - ١٠٠ )

في الحين الذي يمثل فيه مروان موقع الاغرار السريعي الاغترار والحماس ، كما عبر عن ذلك حماسه في الاسراع بالموافقة على قرار اسعد بالسفر مع ابي الخيزران ، ولكن كذلك عبر اتفاقه المسبق مع ابي الخيزران وحادثته مع سمسار البصرة السمين . . . ويمثل فيه ابو قيس أيضاً موقع العجزة المنساقين في الركب دون أن يكونوا متمكنين من اتخاذ قرار مستقل ، خاصة بانفراد عن الجماعة . . . انهما يمثلان في سلوكهما ومواقفهما عفوية وبساطة جماهير واسعة من الناس حد السذاجة على تفاوت كذاك القائم بين العجز والقصور .

على المستوى اللغوي يتمثل هذا الوضع العام بإشارات بالغة الزهافة . فالنص الروائي يغلب عليه في لغة السرد التي يستعملها ضمير الغائب ( الشخص الثالث : هو ) فسي التعبير عن كل من الشخصيات المعنية ، بينما يحتل ضمير المخاطب المستعمل للذات ( الشخص الثاني : أنت / بدل أنا ) المركز الثاني ، ويأتي أخيراً ضمير المتكلم للتعبير عن الذات ( الشخص الأول : أنا ) في الموقع الثالث .

وأذا كانت غلبة الضمير الغائب تعبر في البنية الرمزية العامة للرواية عن العجز البنيوي العام الذي يسم المرحلة الفلسطينية المعنية ، عن غياب الشخصية الوطنية ( النضالية ) المستقلة للشعب الفلسطيني ، وبالتالي عن طمس وجوده الوطني . . . وعن موته ، فإن ضمير المخاطب والمتكلم يستدعيان فهما آخر . فاستعمال صيغة المخاطب للتعبير عن الذات يأتي دلالة عن استيعاب الذات من قبل الآخرين أو وقوعها تحت سطوتها بشكل لا يمكن معه التوجه إلى الذات إلا ضمن صيغ التوجه إلى الآخرين لاقتناعهم بأمر ما أو موقف خاص . أو أيضاً ضمن صيغ توجه الآخرين هؤلاء إلى الذات لاقتناعها هي بأمر أو موقف . . . بينما يجري في التوجه إلى الذات بصيغة المتكلم تأكيد على استقلالية الذات وقدرتها على الاكتفاء وتعبير عن مدى قوتها الخاصة . . .

لذلك فإن غياب اسعد الوحيد بين هذه الشخصيات الأربع الفلسطينية التي تستعمل ثلاث منها فقط صيغة المخاطب خارج الحوار - في السرد - وفي التوجه إلى الذات - للمتكلم - تأكيد لوضعه القادر على مستويات عدة والقوي الذي يتيح له أن يبقى خارج نطاق العجز والقصور اللذين يسمان بقية الشخصيات في هذا السفر .

بينما يعبر غياب مروان الوحيد بين تلك الشخصيات التي تعتمد ثلاث منها فقط صيغة المتكلم في لغة السرد تعبيراً عن الذات ، عن قصور ذاتي في النضج والبلوغ على مستويات عدة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً في مغامرة السفر هذه التي ينخرط فيها .



الا اننا نلاحظ ايضا فيما يتعلق بصيغة المخاطب من قبل المتكلم في توجهه الى ذاته في السرد ، ان مروان و ابا قيس هما الوحيدان اللذان يستعيدان اقوال الاخرين في حركتها ويتوجهان بها الى ذاتيهما (\*\*) . بينما يتميز ابو الخيزران واسعد بكونهما الوحيدين اللذين يتمتعان باستعمال لصيغة المتكلم صافية من اي التباس في المخاطبة او استعادتها ، فتأتي تعبيراً ذاتياً محضاً من ناحية ، ومن ناحية ثانية بأنهما الوحيدان اللذان ترد امام تعبير لكل منهما بصيغة المفرد كلمة « فكر » (\*\*\*) .

و اذا كانت خصوصية مروان و ابي قيس المشار اليها تمثل خصوصية العجز والقصور كما يتميز بهاكل منهما (\*\*\*) ، فان تميز ابي الخيزران واسعد تمثل تمايز القيادة العملية عن النظرية . ففي كلا الاستعمالين المشار اليهما هنا لصيغة المتكلم من قبل كل منهما ، نلاحظ عدداً من الضمائر المفردة للمتكلم . فكان كلا منهما يتمثل في هذه الصيغة الموقع القيادي المثل للفلسطينيين المهريين . ولكننا نلاحظ ان ضمير المتكلم المفرد يرد مرة واحدة بدون اي تقديم (٥٩) ، ويرد ثلاث مرات اثر كلمة « فكر » (٦١) ، بينما نجد التركيبية العكسية لدى ابي الخيزران حيث يرد ضمير المتكلم المفرد ثلاث مرات دون اي تقديم (١٣١) ، ومرة واحدة بعد كلمة « فكر » (١٤٨) . فتكون كثرة الضمائر بعد فعل التفكير لدى الاول ، تعبيراً عن غلبة دوره النظري في القيادة ، بينما تكون كثرة الضمائر دون ذكر لفعل التفكير لدى الثاني ، تعبيراً عن غلبة دوره العملي في القيادة . . .

ويمكننا القول ان اسعد هو نظرياً قائد - ممثل - للمسافرين الثلاثة - وهو احدهم - ، بينما عملياً لا يقود ولا يمثل الا نفسه . بينما نظرياً لا يقود ولا يمثل ابو الخيزران احداً سواه ، بينما عملياً يقود الفلسطينيين الثلاثة ويمثلهم .

وهذا بالتحديد ما يعلنه النص الروائي . فاسعد الذي يتولى التفاوض باسمه وباسم الاخرين ( ابي قيس و مروان ) ( ص ٩٠ ) فيلعب دور الممثل والقائد نظرياً بالنسبة لهم ، يعلن رداً على سؤال ابي الخيزران « ماذا قررتم ؟ » . « انا شخصياً لا اهتم الا بموضوع وصولي الى الكويت ، اما ما عدا ذلك فانه لا يعنيني . . . ولذلك فانتني ساسافر مع ابي الخيزران » . . . (١٠١) متخلياً عملياً عن ذلك الدور ، معلناً موقفاً شخصياً منفرداً دون الرجوع الى من أنتزع تفويضهم له ، وتحت هذا الاعتبار كان قد حد من تدخلهم في النقاش ومن تقريرهم موقفاً مستقلاً ( ص ٩٣ حيث يردع ابا قيس عن الموافقة على سعر التهريب - ١٠ دنائير - بحجة « لقد سلمتني الامر اذن دعني احكي . . . » )

(\*\*) ص ١٣٠ حيث يستعيد ابو قيس الحوار الذي تم بينه وبين صديقه اسعد . . .  
وحيث يستعيد مروان اقوال ابي الخيزران واخيه زكريا له . . .

(\*\*) راجع بالنسبة لاسعد ص ٥٩ و ٦١ . وبالنسبة لابي الخيزران ص ١٣١ و ١٤٨ .

(\*\*\*) نلاحظ ان مروان يكتفي بالاستعادة ، بينما يتخطاها ابو قيس الى التعبير المباشر الذي لا يستعمل اقوال الاخرين من ناحية ، والذي لا يكتفي بالحاضر من ناحية ثانية . . .  
( راجع عدا ص ١٣٠ - الصفحات ٢٧ و ٢٨ - ٤٦ و ٤٧ ) .

لكن هذا التخلي بالذات في الوقت الذي يعبر فيه عن عجز بنيوي في القيادة النظرية .  
معبرا عن الحد الذي يمكن لهذه القيادة ان تصل اليه في تمثيل سواها ، يضع ايضا  
هذه القيادة في موقع التنازل عن موقعها لقيادة اخرى ( عملية ) ترسخ لها وتنزع بذلك  
عنها صفة التمايز في الاستقلالية والقوة التي كانت في صلب تمثيلها للاخرين .

الا ان بنية عامة كهذه ليست الا بنية موت .

فحين يسلم القاصرون والعجزة امرهم الى شباب لا يحول وعيه وتجربته دونه ودون  
التخلي عن هذه المسؤولية - بل ان حدود وعيه وتجربته هي التي تدفعه الى هذا التخلي -  
الى رجولة مخصصة ، فلا يمكن لهذه الرجولة ان تؤدي الا الى ما تحمله في بنيتها ذاتها :  
العدم .

لذلك فان موت الفلسطينيين الثلاثة جاء يتفق مع تركهم لارضهم وانقطاعهم عنها ،  
ليس كما تأسس ذلك عام ١٩٤٨ ، بل ايضا كما يستمر ذلك عام ١٩٥٨ ، وخاصة بشكله  
الاكثر انغماسا وانخراطا في هذا الانقطاع - هذا الاتصال بالغير ارضا وشعبا -  
بالمسافر . واذ يبقى ابو الخيزران وحده ، فهو يبقى عقيما ، موتا مع وقف التنفيذ ،  
موتا مساهما في القتل والتبديد والعدمية ، موتا اسوأ من الموت الذي انتهى اليه  
سواه . . . .

بقي هذا المدى الذي تشرعه الفكرة المفاجئة الاخيرة التي انزلت من رأس ابي الخيزران  
ثم تدرجت على لسانه :

- « لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ . . . » ( ١٥٢ ) .

فهذا السؤال الذي لا يتيح النص استجلاء الملبسات المحيطة به : هل هو استفهامي  
ام استنكاري ام تبريري . . . ؟ ويستدعي جوابا او اجوبة لا يقدمها النص كذلك ، على انه  
يختتم بتكرار هذا السؤال مرات عدة ، او بالاحرى لا يقدمها النص اثره وان كان  
يتضمنها قبله بشكل او باخر ، يتضمن في البنية التي اتاحت وجودهم في هذا الخزان  
بالذات .

فجميع هؤلاء المسافرين الثلاثة كانوا يعانون وضععا معيشيا بالغ الصعوبة :

مروان الذي طلق ابوه امه بعد انقطاع اخبار اخيه زكريا الموجود في الكويت ومعها  
المتني روبية التي كان يرسلها الى العائلة شهريا ، ليتزوج من شقيقة المبتورة الساق  
ليعيش « ما تبقى له من الحياة مستقرا غير ملحق بأيما شيء . . . واهم من ذلك . . .  
تحت سقف من اسمنت . . . » كان كل طموحه طيلة عشر سنوات ، وبالتالي عليه هو الان  
اطعام امه واخوته الاربعة وتأمين حاجياتهم ( ٧٩-٨٠ ) .

ابو قيس الذي امضى « عشر سنوات كبيرة جائعا » يأكل من « طحين الاعاشة الذي  
تهرق من اجل كيلو واحد منه كل كرامتك على اعتاب الموظفين » ، وينزل في نصف غرفة  
مع زوجته وولده قيس منذ تسع سنوات ، واخيرا مع طفل جنيد اخر . . . ( ٤٦-٤٧-١٣٠ )

واسعد المطلوب الفار لتأمرة على الدولة ، والمهدد بالسجن ، والمهدد بالزواج من ابنة عمه التي لا يرغب فيها كما انه لا يريد الزواج ابداً ٠٠٠ ( ٥٧-٥٨-٦١ )

ولما كانت اوضاعهم بائسة الى هذا الحد فأنهم كانوا مندفعين في هذا السفر ومخاطره حتى الموت ، ذلك انهم كانوا مقتنعين ان حياتهم التي يعيشونها ليست افضل من الموت الذي يخاطرون فيه . فمروان يتحدث عن زواج اخيه زكريا منتهيا الى التساؤل والجواب : « ولكن ماذا ترك له ليختار ؟ لا شيء غير ان يترك المدرسة ويعمل ، يغوص في القلابة من هنا والى الابد ! » (٨٥)

وحين يفكر ابو قيس بخطر موته خلال السفر يأتيه الرد من داخله : « تموت ؟ هيه ! من قال ان ذلك ليس افضل من حياتك الان ؟ » ٠٠ وخلال السفر ذاته يستعيد الفكرة ذاتها : « اوتحسب اذن ان حياتك هنا افضل كثيراً من موتك ؟ » (٤٨-١٣٠)

وفي ارهاقه ووحدته وهو يقطع على قدميه الصحراء عند الحدود الاردنية لبيتلاني « الاتشفور » يتفكر اسعد الذي يحاول في السفر الهروب من خطر الاعتقال : « تراهم لو حملوني الى معتقل الجفر الصحراوي ٠٠ هل سيكون الامر ارحم مما هو الان ؟ عبث ٠٠ الصحراء موجودة في كل مكان » ٠٠ الا ان وحدته في هذه الصحراء والتي يسير عليها توفر عليه ذل واهانة الاخرين له في « صحراء » اخرى ( السجن ) ، فهو يتذكر ، اثناء سفره ، حين اعتقل كيف ان الضابط « بصق على وجهه ولكنه لم يتحرك فيما اخذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه ، لزجة كريهة تنكوم على قمة انفه ٠٠٠ » (٥٩-١٣١)

كذلك لم تكن حال كل منهم ازاء سمسار البصرة الا تأكيدا على هذا الوضع البائس حتى اليأس ٠٠٠ فمروان حين خرج من دكان السمسار السمين والصفعة التي نالها منه لا تزال تترك اثارها على خده علامات كف هذا الرجل ، وقد فشل في تدبير امر سفره الى الكويت ، كان يعتبر انه هناك ، « داخل الدكان ، تقطعت اخر خيوط الامل التي شددت لسنوات طويلة ، كل شيء في داخله ٠٠ » (٧١) وابو قيس يقف امام السمسار « حاملا على كتفيه كل الذل وكل الرجاء اللذين يستطيع رجل عجوز ان يحملهما ٠٠ » وهو اذ يفشل في الاتفاق معه على سعر يناسبه للسفر تتنامى غصة الالم في حلقه وتطفر الدموع الى عينيه تعبيرا عن ضياع آماله ايضا ووقوعه في الذل الكامل ٠٠٠ (٤٩) اما اسعد فان اول فكرة تطرأ على رأسه اثناء حديثه مع هذا السمسار : « الطريق ٠٠! اتوجد بعد طرق في هذه الدنيا ؟ ألم يمسحها بجبينه ويفسلها بعرقه طوال ايام وايام ٠٠٠ » (٥٣) لذلك فان الموت الذي انتهوا اليه ليس الا شكلا واحدا من اشكال موت متعددة يعلنها النص . فان يقصر مروان عن الوصول الى الكويت يعني تبديد اخر امل لديه في ان يحمل الخير الى عائلته بعد ان فقد الامل في اكمال دراسته وتحقيق طموحاته ٠٠٠ (٨٥) وبذلك لا يكون عدم سفره الا وقوعا في اليأس الكامل بما يعنيه من عجز هو معادل للموت .

وان يمضي ابو قيس عشر سنوات « ككلب عجوز في بيت حقير » (٤٦) بانتظار حل لموضعه الدليل لا يأتي ٠٠ فان فشله في السفر والعودة الى هذا الوضع أشبه بالموت مجددا ٠٠ فهذا السفر كان باب الخروج الوحيد الذي توصل اليه ليتخلص من تلك الحياة التي يفضل الموت عليها كما اشرنا آنفا ٠٠ وان لا يتمكن اسعد من الوصول الى الكويت

ايضا يعني وقوعه في ذل الالهانة التي حاول تجاوزها بالهرب من السلطة ومن عمسه  
ايضا وابنته ..

اذن اشكال متعددة من الموت كان هؤلاء المسافرون يعانونها : موت اليأس والقصور ،  
موت العجز والذل ، وموت السجن والاهانات ... انواع متعددة من الموت حاولسوا  
تجاوزها والتخلص منها ليقعوا في موت اشد ايلاما واذلالا وقمعا ويؤسا .. موت السفر  
والهرب - الموت في الخزان المقل ...

لقد كانت معاناتهم من القسوة الى درجة ان لم يعد فيها خطر الوقوع في هذا الموت  
الاخير كافيا لردعهم عنه ، مدفوعين بعذابات حياتهم ومشدودين بالاماني التي يتطلعون  
الى تحقيقها . بل ان وضعهم اليأس جعلهم يتطلعون الى موت اخر على شيء من الصسد .  
فأبو قيس يترحم على الاستاذ سليم معتبرا اياه « ذا حظوة عند الله » حين جعله يموت  
« قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود .. ليلة واحدة فقط ..  
يا الله ! أتوجد ثمة نعمة الهية اكبر من هذه ؟ .. » (٤٣) وكان هذه الليلة تكاد تصبح  
ليلة القدر !

وفي هذا التمجيد لموت الاستاذ سليم تضاء الابعاد الحقيقية للسؤال الذي تختتم به  
الرواية . فمن سقوط القرية ، من زمن الهزيمة سنة ١٩٤٨ منذ قيام اسرائيل ، منذ  
بدء التشتت والضياع ... تتحدد اسس ومركزات موت يتبدى بأشكاله المتعددة التي  
رأينا . ما قبل ذلك كان امرا اخر ، كان حياة اخرى ، وكان موتا مختلفا . كان ارضا  
وزمنا مختلفين تماما ...

اذن فان السؤال الاخير الذي تختتم به الرواية ابعده من ان يستدعي ردا على طارحه ،  
ومحاولة لاجابة نهائية عليه ، يتطلب تفسيرا لهذا الموت المستمر نزفا سريرا واجتثاثا  
مهملًا ... تفسيرا يجد اسسه ومركزاته في تفسير النص الروائي ذاته كما حاولناه  
حتى الان .

ضمن هذا الاطار يبدو عقم سؤال كهذا . وهو ليس عقيما فقط لان ابا الخيزران  
المخصي هو الذي يطرحه ، ويطرحه بعد ساعات من حادث الموت ذاته (\*\*) ويأتي في  
طرحه مكررا تسع مرات لاسم الاستفهام المستعمل ( لماذا ) مؤكدا في هذا التكرار الدور  
الخاص الذي لعبه هو في قتلهم (\*\*\*) مذكر بالتالي بما يحاول هذا السؤال ذاته ان يغفله

(\*) اكتشف ابو الخيزران موت الفلسطينيين الثلاثة في الخزان بين الدقيقة الواحدة  
والخمسين والدقيقة الثانية والخمسين بعد الساعة الحادية عشرة ظهرا (١٤١) ولكن  
الفكرة التي طرأت على رأسه لم تظهر الا في الليل البهيم بعد ان القى بالبحث خارج  
الخزان وسحبها الى رأس الطريق وبعد ان عاد اليها مجددا ليأخذ ما في جيوب اصحابها  
من مال وساعة مروان ... ( ١٤١ - ١٥٢ )

(\*\*) تذكر هنا بما اوضحناه عن دور ابي الخيزران في موت الفلسطينيين الثلاثة خلال  
تتبعنا لدقائق عبور الحدود الكويتية في الصفحات السابقة ..

ويخفيه : دور القيادة في هذا الموت المرحلي ، بل لأنه هو أيضا سؤال عاجز - مخصي - عن رؤية الأبعاد الفعلية للموت في بنية العجز العامة التي تسم المرحلة ، وهو عاجز لأنه جزء منها ، فاعل فيها ونتيجة لها في آن .

ومن هنا ، من هذا السؤال بالذات يبقي غسان كنفاني روايته مشرعة ، مفتوحة ، غير مكتملة . وأبعد من أن تستدعي جوابا ، تتطلب أسئلة عديدة توضح وتفسر وتبرز بنية الموت المرحلي السائدة ، وتكون - هذه الأسئلة بالذات تعبيرا عن مواقف أولئك الذين يطرحونها ، كما هو حال السؤال الأخير في رواية كنفاني .

فإذا كان النص الروائي لا يحدثنا اطلاقا عما يجري في « الظل » - في ليل الخزان المقتل ، فمن أجل أن يجعل أبعاد الموت المظلم على أقصى ما تكون من كثافة ، وبالتالي ليطلق للأسئلة العديدة المجال الأوسع .

قأبو الخيزران لا يمكنه - كما القارئ - أن يعرف أن كان هؤلاء الثلاثة قد دقوا جدران الخزان لم لم يدقوه ، اصرخوا في داخله أم كتموا صراخهم . . . فقد كان قبي الطابق الأول من البناء وفي « الغرفة الثالثة الى اليمين » ، لا تعزله عن أولئك الفلسطينيين جدرانها بل أيضا « هدير مكيفات الهواء المثبتة على كل الشبائيك المعلقة على الساحة » . . . وكذلك حديث أبي باقر الشيق . . . (١٣٥) إلا أننا أبعد من نقاش لهذا الجانب (\*) ، وبناء لما سبق وبيناه حول اوضاع هؤلاء المسافرين الثلاثة ، يمكننا القول إن تشبثهم بالانتقال الى الكويت كان أقوى بكثير من تمسكهم بحياتهم التي يعيشونها . . . وأن معادل الخروج من الخزان في المطلاع - هذا إذا استجاب احد لدق جدرانه - يعني الدخول في خزان جديد : السجن - الموت البطيء . . . وإذا كان أسعد أكثرهم احتمالا ، وبالتالي أكثرهم قدرة على التقرير ، إذ باستطاعته أن يتبين موته من خلال موت رفيقيه ، فإنه بالذات يسافر كي يتلافى الوقوع في السجن - وخروجه هناك كان يعني سجنين : سجن الكويت ، وسجن الجفر الصحراوي معا . أن اعتبارهم حياتهم غير مجدية ، ورهائهم الأخير على الوصول الى الكويت ، هو الذي يبرر موتهم الصامت . . .

إلا أن السؤال المطروح من زاوية بنية الرواية ككل وليس من قبل أبي الخيزران يستعيد بالذات أسئلة عديدة ، هي بحد ذاتها مفاتيح تفسير هذه البنية بالذات : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ على الأقل أسعد - القائد النظري - ؟ بل لماذا لم يفتح أبو الخيزران - القائد العملي - باب الخزان حين دقت لحظة الخطر ؟ أكثر من ذلك لماذا أقفل عليهم باب الخزان مدورا « ذراع المصلحة دورتين » (١٣٤) محكما هذا الأقفال جاعلا من المستحيل على من بداخله أن يفتحه ؟ وهم لماذا رضوا بذلك ، بل لماذا رضوا ولوج الخزان أصلا ، وقبل ذلك لماذا هذا السفر ؟ لماذا هذا الاتكال التاريخي على الآخرين : لماذا انتظار إبي قيس الذليل عشر سنوات ، والاعتماد المطلق على زكريا ، وتبعية أسعد لعمه . . . ؟ ولماذا استدعي هذا الاتكال بالذات ؟ لماذا خرجوا من الأرض ، أوقفوا الخصال ضد عدوهم أولم يمارسوه وانخرطوا في أرض الغير وأوطان الغير . . . ؟ . . .

(\*) هذا النقاش الذي يمكن خوضه انطلاقا من موقف الحارس القريب أو بعض المتواجدين في ساحة المطلاع . . . (١٣٤-١٣٥)

هكذا تتقالي الاسئلة لتعيد طرح المشكلة من جذورها - منذ ١٩٤٨ وقيل ذلك في كل العناصر التي ادت الى هزيمة ١٩٤٨ - ومن هنا نفهم هذا التمجيد لموت الاستاذ سليم على انه مات دفاعا عن القرية التي سقطت بسقوط المدافع عنها ( في اليوم التالي لموته ) - وفي هذه البنية الروائية كما تتشكل في صيغتها الاخيرة - الاستفهامية ، الاستنكارية ، الداعية الى تفسير وفهم ما يحدث مرحليا وتاريخيا ، وفي ادانتها لجميع اشكال الموت الناتجة عن الانقطاع عن الارض والوطن ، ودعوتها عبر ذلك الى العودة والنضال لتحريرهما ، على انه في هذا التحرير يكمن الحل الفعلي لكل المشكلات المطروحة - او لمعضها : وبالاخص لتلك المميقة بينها - وهذا ما يفسر بالتحديد اصرار غسان كنفاني على جعل عدد فصول روايته سبعة غير مكتملة ( بالسؤال الذي يبقي الاخير مفتوحا ٠٠٠ ) (\*) في هذا الاصرار يتبدى موقف كنفاني بالتحديد على انه رفض لبنية الموت السائدة - ورفضه ليس مطلقا ، انما هو رفض واع - اي انه يفهم حقيقة الواقع السائد على انه واقع الموت المرحلي والتاريخي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني ، وهذا ما تدل عليه الكلمات الثماني المستعملة في عناوين الفصول (\*\*\*) لكنه يرفض الاعتراف بهذا الواقع ، وذلك عبر محاولة التفسير وفهم العوامل التاريخية والمرحلية التي يدعو اليها في استنكاره لاستمرار هذا الواقع وطرحه لاشكالياته ، وبالتالي ما يتضمنه هذا الموقف من دعوة للثورة عليه وتغييره .

وتأتي الاسئلة الاخيرة في روايته قرعا حادا للذاكرة والوعي في دعوة ملحاح لكل قارئ ( وخاصة كل ناقد ) (\*\*\*) ( ان يحدد موقفه من هذا الموت الفلسطيني والعربي انما يشكل اخر ٠٠٠ ) المرحلي المستمر ، في نفس الوقت الذي يرفض فيه هو هذا الموت انما معلنا في الان ذاته عن خطره اليومي : كانه يدق هو ناقوس خطر يجثم ليوقف هذا الموت ويستعيد الحياة والحرية - وقد يكون هذا الدق يفتقد الى بعض الدربة والتقنن وبالتالي يفقد بعض قوة تأثيره وفعالته ، الا انه يحسن في كل الاحوال اعلان الموقف والدعوة الى التفكير فيه واتخاذ موقف منه - من هذا الضعف الحديث عن عودة قيس الى المدرسة ( ٤٧-٤٨ ٠٠٠ ) بالرغم من تركه لها منذ عشر سنوات كما يوحي النص - كان كنفاني يرفض مرور هذه السنوات العشر !؟ - وبعض الافتعال الوارد اثناء اللقاء بين ابي الخيزران والفلسطينيين الثلاثة ، خاصة في الحوار الذي ينتزع فيه اسعد التفاوض من مروان و ابي قيس (٩٠) او في دمج صوت اسعد بالهدوء ، وصوت مروان بالمفاجأة خلال الحوار اللاحق ( ٩٨-١٠٠-١٠١ ) - كان كنفاني يصر على تقريب الرمز

(\*) هي على التوالي : ابو قيس ، اسعد ، مروان ، الصفقة ، الطريق ، الشمس والظل، القبر .

(\*\*) لا نعتقد اننا بحاجة هنا الى التذكير بالدور المميز بامتياز الذي يلعبه هذا العدد ٨ كما بينا ذلك انفا .

(\*\*\*) في هذا السياق تبدو دراسة الاجوبة - او التأويلات المختلفة - التي حاول النقاد - ولا نستثنى انفسنا منهم - تقديمها على هذا السؤال الاخير في الرواية كبيرة الدلالة في تحديد المواقع الفعلية لهم والمواقف الحقيقية التي يتخذونها ازاء ما تطرحه الرواية من قضايا - هذا مع استبعاد المباشرة الميكانيكية بالطبع .

وتعريف الدلالات التي ترمي إليها الشخصيات ومواقفها ١٩ - هذا عدا الضعف التقني المتمثل في عدم التعرض لأفعال فوهة الخزان من قبل أي من المسافرين الثلاثة رغم مناقشتهم لأمور أكثر بساطة وأقل أهمية من هذه المسألة في سياق الاهتمام بوضعهم داخله ٢٠٠. وانتقال أسعد في حديثه مع أبي الخيزران إلى سؤاله « ألم تتزوج أبدا ؟ » (١٠٦) بشكل مفاجيء ودون أي داع مبرر في النص إلا استعمال هذا السؤال لإطلاق ذاكرة أبي الخيزران كي تنقل للقارئ حادثة الإخفاء التي اضطر إلى التعرض لها ٢٠٠ والخلل الوارد فيما يتعلق بالوقت الضروري للوصول إلى أول منعطف يحجب السيارة التي يقودها أبو الخيزران عن مركز المطلاع : يقدرها أبو الخيزران بين دقيقة أو دقيقة ونصف ، بينما يبين النص أنه أمضى بين أربع دقائق ونصف وخمس دقائق ( ١٤٠ - ١٤١ ) ( \* ) ٢٠٠ . بالإضافة إلى كل تلك الصور والتعابير التي ترهص بالموت تحست الشمس .

بقي أن نشير إلى دور يتعدى التقنية والرواية بحد ذاتها لعبه غسان كنفاني وسواه من أدباء وشعراء وسياسيين وعسكريين ٢٠٠ فلسطينيين وعرب في طرح أشكاليات الوضع الفلسطيني والتحريرض باتجاه انتزاعه من الموت الذي فرض عليه سننوات عديدة ، والاعداد الدؤوب والعميق لثورته التي اعلنت مع استعادة المقاومة الفلسطينية لنشاطها عام ١٩٦٥ لتوقف نزفا استمر أكثر من ستة عشر عاما ، ولتتيح لغسان كنفاني كتابات وروايات أخرى ٢٠٠

---

( \* ) هذه الدقائق الثلاث التي تمثل الفارق بين الزمنين ليست الرقم الوحيد في نص أكثر من تردد هذا الرقم (٣) ، فهناك زيتا المكررة ثلاث مرات ، والغرفة الثالثة على اليمين التي يدخلها أبو الخيزران أولا عند مركز المطلاع ، والموظفين الثلاثة الذين فيها ، والغزاويين الثلاثة الذي يحكي عنهم أبو الخيزران ، وحسنا التي تموت بعد ثلاثة أشهر من ترك فلسطين ، والمرات الثلاث التي يذكر فيها أب ٢٠٠ الخ ٢٠٠ وهي ليست هاجس الموت المرهلي الذي يتجسد بالجثث الثلاث لهؤلاء الفلسطينيين الذين يقضون في الخزان فقط ٢٠٠ ، كما أنها ليست الفارق بين الرقم ٨ ( رقم الموت الفلسطيني بامتياز ) والرقم ١١ ( رقم المسؤولية العربية فيه ) فقط ٢٠٠ بل أيضا تمثل الفارق بين الزمن الروائي ( ١٩٥٨ ) والزمن الذي كتب فيه غسان روايته ( ١٩٦١ ) ( راجع : « حوار مع غسان كنفاني » في : غسان كنفاني أنسانا وأديبا ومناضلا : عباس ، النقيب ، خوري ص ١٣٩ ) لتأكيد استمرارية مرحلة الموت الفلسطيني هذه في هذا العام الأخير ( ١٩٦١ ) - دون أن تقتصر فقط على العام الأول ( ١٩٥٨ ) فقط ٢٠٠

